الحياة الاجتماعية في كتاب "الأغاني" للأصفهاني

شيرين العدوي


الهيئة المصرية العامة للكتاب

العدوى، شيرين.

الحياة الاجتماعية فى كتاب الأغانى للأصفهانى: دراسة تاريخية نقدية/ شيرين العدوى. ــ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢.

٥٨٨ ص: ٢٤ سم.

تدمك ٥ ١٠٥ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ العالم العربى ـ الأحوال الاجتماعية.

٢ ـ العالم العربى ـ العادات والتقاليد.

٣ ـ أبو الفرج الأصفهانى، على بن الحسين بن محمد، ٨٩٧ ـ ٩٦٧.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١١٠٠/ ٢٠١٢

I. S. B. N 978 - 977 - 448 -105 - 5

ديوى ٣٠٩,١٦٢

الحياة الاجتماعية في كتاب «الأغانى» للأصفهانى

دراسة تاريخية نقدية

شيرين العدوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد

اسم الكتاب : الحياة الاجتماعية
في كتاب «الأغاني» للأصفهاني
دراسة تاريخية نقدية
تأليف : شيرين العدوى

الإخراج الفني : مادلين أيوب فرج
تصميم الغلاف : الحبيبة حسين

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدي : ١١٧٩٤ رمسيس
www.gebo.gov.eg
email:info@gebo.gov.eg

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهـــــــداء

إلى «تاج الفُل» الذى أحاط حياتى وتوج عملى، فكل جميل منك وإليك / إلى زوجى عصام عثمان عز الدين. وإلى أولادى محمد وأسامة. لعلكم الآن سعداء بإتمام هذا العمل بعد كل هذا العناء.

شكر وتقدير

كل الشكر والتقدير للعلماء الأجلاء الذين بذروا الضوء فى روحى وعقلى، فعلمونى ماهية العلم وقيمته، وجعلوا روحى لا تهدأ ولا تستقر باحثة عن النور الأعظم فى كل عمل وقول؛ إذ كلما هدأت روحى إلى نبتة ضوء تنادى أشجار أنوارهم داخلى: هل من مزيد ؟

فالشكر والتقدير لأستاذى العظيم أ.د. عبد الرحمن أحمد سالم الذى رعى هذا البحث، وأفاض عليه من نور علمه، وكرم أستاذيته، وسديد نصحه، ودقة ملاحظاته، ولم يأل جهدًا فى إيصال هذا البحث إلى منتهاه، ولم يبخل بوقت، وكم هو ثمين وقت العلماء، فجزاه الله عنى وعن العلم خير الجزاء.

والشكر كل الشكر لأستاذى وأبى أ.د. حسن على حسن العظيم العلم، الصافى الروح؛ فقد كان سؤاله الدائم عنى حافزًا لى على إنجاز البحث وباعثًا على إتمامه. وقد شرف البحث وصاحبته بقبول مناقشته والإسباغ عليه من فضل علمه.

وأقدم شكرى العميق للعالم الجليل أ.د. عطية أحمد القوصي أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة على ما بذله من وقت وجهد فى قراءة هذا العمل بغية مناقشته وإثرائه بفيض علمه.

تقديم

يمثل التاريخ الاجتماعى أحد جوانب التاريخ الإسلامى المهمة التى لم تحظ بما تستحقه من عناية الباحثين. وترجع أهمية التاريخ الاجتماعى إلى أنه يصور حياة الناس بكل طبقاتهم فى جدهم ولهوهم وأفراحهم وأتراحهم وأسلوب معيشتهم وعلاقات بعضهم ببعض، فالتاريخ أشمل من أن يكون تاريخ أنظمة حاكمة أم معارك حربية وانتصارات وهزائم، ولكنه تاريخ الشعوب بكل ما تزاوله من أنشطة، وما يشغلها من اهتمامات.

تقف موسوعة «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى على رأس مصادرنا العربية التى تقدم للباحثين فى مجال تاريخنا الاجتماعى مادة بالغة الخصوبة والتنوع، ابتداءً من العصر الجاهلى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى. ولكن الشهرة الأدبية لهذه الموسوعة طغت على ما سواها، فأصبحت مرتبطة فى أذهان الكثيرين بمصادر الأدب الأساسية فى تراثنا العربى والإسلامى.

ومن هنا كانت الحاجة ماسَّة إلى دراسة جادة تستخلص من هذه الموسوعة الضخمة أهمَّ ما تزخر به من جوانب الحياة الاجتماعية وتسدُّ فراغًا مهمًا فى هذا الجانب فى مكتبتنا العربية.

وقد تصدَّت لهذه المهمة - بكفاءة واقتدار - الباحثة شيرين أحمد العدوى؛ فعكفت على هذه الموسوعة - بمجلداتها التى تجاوزت العشرين - تغوص فى أعماقها تمحيصًا وتدقيقًا حتى أخرجت لنا هذا العمل الذى يراه القارئ أمامه ناطقًا بكل ما تحملته الباحثة من جهد وعناء فى سبيل إنجازه. وقد استعانت بالمصادر المتاحة - وهى عديدة - لإلقاء المزيد من الضوء على ما فى «الأغانى» من صور الحياة الاجتماعية، كما لم تغفل مناقشة المراجع الحديثة فيما أثارته من قضايا فى هذا الصدد.

والحق أن الكتاب الذى بين أيدينا يضم بين دفتيه ثلاثة أعمال يصلح كل واحد منها أن يكون موضوعًا لرسالة علمية قائمة بذاتها. فالحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى -

كما تصورها موسوعة «الأغانى» - تصلح موضوعًا لرسالة مستقلة، وكذلك الحياة الاجتماعية فى العصر الإسلامى حتى نهاية العصر الأموى، ثم الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى حتى وفاة الأصفهانى فى قرابة منتصف القرن الرابع الهجرى. ولعل هذا يكشف عن مدى الجهد الذى بذلته الباحثة فى سبيل إنجاز هذا البحث المترامى الأطراف بالشكل العلمى الصحيح. كما يكشف أيضًا عن السبب الذى جعل الفترة الزمنية التى تطلبها إتمام هذا العمل تطول بعض الشىء. وهذا أمر لا غرابة فيه إذا كان من يتصدى للبحث العلمى حريصًا أن يجىء عمله ملبيًا لما تنشده الدراسة الأكاديمية من منهجية وأمانة. وقد أكدت شيرين العدوى فى بحثها هذا جدارتها بأن تكون من بين هؤلاء.

ومما يحمد للباحثة حرصها على عدم الاستغراق فى التفاصيل والجزئيات التى قد تؤثر بالسلب على تماسك موضوعها، ومن هنا بذلت قصارى جهدها فى استخلاص أهم الظواهر الاجتماعية التى برزت فى العصور الأساسية الثلاثة التى تناولها البحث، فاتسم بحثها بالإحكام والترابط، ومع ذلك فهى لم تغفل إحالة القارئ إلى المصادر والمراجع ذات الأهمية لتقديم المزيد من التفاصيل.

ولا يفوتنى فى النهاية أن أنوه بالأسلوب المحكم الرصين الذى سيطر على هذا البحث. ولا غرو! فالباحثة أديبة وشاعرة، وكم كنت أخشى - أثناء إشرافى على بحثها - أن تؤثر شاعريتها على أسلوبها فتفقده الطابع العلمى المحكم الذى ينبغى أن تعالج به الأبحاث الأكاديمية، ولكنها استفادت من شاعريتها سلاسة فى الأسلوب وطواعية فى اللغة مع عدم السماح لها بالطغيان على خصائص الأسلوب العلمى.

والمأمول أن يكون هذا العمل باكورة أعمال أخرى جادة لها فى مجال التاريخ والحضارة الإسلامية.

أ. د/ عبد الرحمن سالم

المقدمـة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين.

وبعـــــد

فهذا بحث بعنوان: «الحياة الاجتماعية فى كتاب الأغانى للأصفهانى دراسة تاريخية نقدية».

وقد كانت هناك عوامل عدة وراء اختيارى لهذا الموضوع ودراسته أكاديميًا، فى مقدمتها: أن كثيرًا من الباحثين والدارسين قد أشادوا بقيمة الكتاب: أدبية كانت أو فنية أو اجتماعية، وعلى الرغم من الإشادة بهذا الجانب الاجتماعى فإنه لم يحظ - على قدر علمى - بدراسة منهجية تجلوه، وتضم شتاته، وتضعه فى مكانه من البحث والدرس.

ثم إن مادة الكتاب غزيرة ومتنوعة، وتمتد لتشمل عصورًا متعددة: من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى. وهى بذلك تكشف لنا عن إمكانات كبيرة لهذا التاريخ؛ فأصوله مختلفة، ومتنوعة وغنية، بفضل انفتاحه على مختلف الأجناس والأقوام والألوان والديانات والثقافات. وإذا كانت الوجهة الأولى لصاحبه «الألحان والأشعار» فإن نهجه فى التأليف وولعه بالأخبار أيًا كان مصدرها جعلته يقدم لنا صوت الهوية العربية فى ظل ذلك التنوع الثقافى الذى يسم صاحبه بالانفتاح على الآخر، وتقبل ما يتفق مع أصوله وتقاليده.

يضاف إلى هذا إيمانى العميق بقيمة هذا النوع من الدراسات فى الكشف عن جوانب من التاريخ الحضارى مما لا تتيحها تلك المصادر التى تسلك فى التاريخ العام وتعنى فى المقام الأول بسير الحكام.

ومن ثم فقد طمح البحث إلى تقديم صورة للتاريخ الاجتماعى عبر عصور طويلة، عاشتها شخصيات الكتاب، وصنعت ما فيه من أخبار، وقد اتبع فى هذا نهجًا يغاير نهج صاحب الأغانى، ولهذا دلالته فى أن الحاضر يؤثر فى صورة الماضى بقدر ما يؤثر الماضى فى تشكيل الحاضر والمستقبل ويوجهه. ذلك لأن الحاضر يمدنا بمناهج، ورؤى، وفلسفات تكشف من طوايا الماضى ما كان مجهولًا أو مستغلقًا، فإذا فتحت النظرية المستحدثة بابًا جديدًا لفهم الماضى فقد غيرت صورته لاريب، وبخاصة أن مصادر التاريخ العام (السياسى) نادرًا ما مدت بصرها إلى الأفراد العاديين أو الأحداث ذات الطابع المألوف، على عكس ما وجدناه عند أبى الفرج فى كتابه الموسوعى؛ إذ منح هذه الأمور مساحة كبيرة مؤثرة، تمد الباحث المدقق بظلال الصور، وتدرج الألوان، وتداخل الخطوط.

وكان علينا وقد اخترنا «الحياة الاجتماعية» عنوانًا لبحثنا أن نتلمس من الأدوات العلمية ما يمكننا من اصطناع منهج ننفذ من خلاله إلى مادته الكبيرة والغنية؛ فبدونه لا يمكن أن نتحكم فى عمل يتكون من أربعة وعشرين مجلدًا؛ ومع هذا فإننا لا نزعم أن هذه الدراسة مع - ضخامتها وتشعبها - قد أحاطت بالموضوع من جميع أطرافه، فما زلنا نشعر بأننا لم نحط بكل شىء تناولًا ودراسة؛ لأن هذا يبقى دائمًا فوق المتناول، وكان علينا أن نركز على مجموعة من المفاهيم رأينا أنها تعنى بحاجة الدراسة، وتتفق فى الوقت نفسه مع عنوان الرسالة.

وطبيعى أن يكون هناك فرق بين تراتب مادة كتاب الأغانى وتراتب فصول هذه الدراسة، فلكل منطقه الخاص. وبالنسبة لمحتوى الكتاب فقد حكَمتْه (مائة الصوت المختارة) وما يمكن أن يسوق إليه التداعى الفكرى أو الاستطراد، أما فصول الدراسة فقد كانت محكومة بالمنهج التاريخى القائم على توالى حركة العصور. وقد استدعى هذا بذل جهد كبير فى إعادة التشكيل للمسارات وما تستدعى من أخبار يقتضيها السياق التاريخى والاجتماعى بما يكون ظاهرة أو يؤصل موقفًا أو يصنع قضية، أو يشكل صورة. وكان من الطبيعى أن تنطلق الدراسة من العصر الجاهلى؛ إذ يعد من الوجهة العملية إرهاصًا لمولد إمبراطورية عظمى، تشكلت وامتدت لتستوعب ما حول الجزيرة العربية

من أقطار، أدخلت مفهوم العالمية فى الوجدان العربى، وإن ظل رغم هذا الامتداد يضمر القبلية فى داخله رغم هذه التطورات.

جاءت عناوين كثير من الفصول متشابهة داخل أبوابها ولكن الصورة المقدمة فى كل فصل اختلفت فى كل مرة عن غيرها، لاختلاف عناصر التكوين المتفاعلة مع وقائع الحياة الاجتماعية المتحركة بالضرورة مع سيرورة الزمن، وتداخل أجناس جديدة فى التشكيل السكانى للإمبراطورية الإسلامية الآخذة فى النمو والامتداد مع حركة الفتوح الإسلامية وانتشار العقيدة.

هذا؛ وهناك صعوبات كثيرة واجهت البحث منها: غزارة المادة بصورة واضحة. نعم قد تكون هذه الغزارة مزية فى بعض الأحيان؛ إذ تتيح للباحث حرية فى التناول والمعالجة، ولكنها فى حالتنا هذه كانت مجهدة ومؤرقة؛ فقد كان أبو الفرج يروى كثيرًا من الأخبار فى صور متعددة مع اختلاف محتوياتها أحيانًا، ومن ثم كان من الضرورى الاطلاع عليها جميعًا وعدم الاكتفاء ببعضها.

ثم إن أبا الفرج موسوعى المعرفة يتحرك بحرية فى مؤلفه، وفى تقديمه لمادته؛ فمن اهتمام بالنسب إلى حديث عن الشاعر أو المغنّى ومكانه فى عصره. وقد يمزج بين الأخبار فى تداخل بيِّن مما يتطلب وعيًا من الباحث، وحذرًا فى الوقت نفسه وهو يعالج المادة المختارة.

يضاف إلى هذا أن الجوانب الاجتماعية التى ضمها مؤلفه يختلط فيها الجانب العقدى بالسياسى بالثقافى بالأدبى، وكل واحد من هذه الجوانب ينتمى إلى حقل معرفى مختلف عن غيره، وكان على الباحث أن يطوف فى هذه الحقول وغيرها استيفاء لجوانب البحث المنهجى.

وقد اقتضت خطة البحث أن يجىء فى: **مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة.**

تناولت **المقدمة** الدوافع التى كانت وراء اختيار الموضوع للدراسة، والنهج الذى انتهجته، والصعوبات التى واجهتها، والخطة التى سارت عليها.

وتوقف **التمهيد** عند أبى الفرج ليلقى ضوءًا كاشفًا على شخصيته فى تكوينها الثقافى، ومدى استجابته للكتابة التاريخية، وقدرته على الوفاء بشرائطها بما فى ذلك مصادره

ورواة أخباره، وما كان يتمتع به من حرية فى اختياره لمادته، وتقديمها بصورتها الواردة فى كتابه.

وجاء **الباب الأول** بعنوان: **«الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى»**، ويضم ثلاثة فصول، **الفصل الأول**: «عناصر السكان وطبقات المجتمع»؛ وقد اهتم بإبراز الطبيعة الجغرافية لجزيرة العرب ومدى انعكاسها على حياة أصحابها ما بين بدو وحضر. وبيّن أن إيمان القبيلة بوحدة جنسها ونقاء دمها أدّى إلى وجود ثلاث طبقات داخل القبيلة، **الأولى**: طبقة «الصرحاء »، **والثانية**: طبقة «العبيد»، **والثالثة**: طبقة «الموالى»؛ وقد نجم عن هذا لون من الخلل الاقتصادى والاجتماعى، وتمرّد بعض فئات المجتمع، وظهور طبقة «الصعاليك».

الفصل الثانى: «الحروب» باعتبارها من أهم الظواهر الاجتماعية خطرًا؛ كما أنها مرآة صادقة تعكس أحوال العرب وعاداتهم، وتعكس فى الوقت نفسه فضائلهم وشيمهم، وتبرز بعض الظواهر التى ارتبطت بها كالحمالات، والثأر، والفدية، وغيرها.

الفصل الثالث: «المرأة»، وقد عرض الفصل للكثير من شئونها سلمًا وحربًا، وزواجًا وطلاقًا، وبيّن أنها حظيت بمكانة كبيرة فى هذا العصر، وقامت بدور لا يستهان به فى حركة المجتمع آنذاك، على الرغم من بعض الظواهر السلبية مثل: «وأد البنات».

وكان عنوان الباب الثانى: **«الحياة الاجتماعية فى العصر الإسلامى منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموى»**، وقد تكون من أربعة فصول:

الفصل الأول: **«عناصر السكان وطبقات المجتمع»**، وقد ركز على التحول الذى أصاب المجتمع العربى بمجىء الإسلام، ثم ما كان من فتوحات إسلامية كان لها آثارها على العناصر التى أصبحت تؤلف المجتمع العربى الإسلامى آنذاك؛ مبرزًا سمة الدولة العربية، وحركة المزج القوية والسريعة بين العرب وغيرهم.وتحدث عن انعكاس ذلك كله على الطبقات، التى أصبحت تتألف من: **«طبقة الأشراف»**، و**«الموالى»** و**«الرقيق»** و**»الصعاليك»** و**«أهل الذمة»**.

الفصل الثانى: «**العصبية**»، وقد بين أن دائرتها اتسعت فى العصر الأموى على الرغم من أن الإسلام حاربها فى شتى صورها. وتحدث الفصل عن عوامل اتساعها وأبرز أشكالها، وآثارها المتغلغلة فى كل جوانب الحياة العربية.

الفصل الثالث: «**الغناء**» وقد أشارت الدراسة إلى «الغناء» فى العصر الجاهلى، وكيف أنه كان ساذجًا فطريًا فى أغلبه، وأنه ازدهر بصورة ملحوظة فى العصر الإسلامى، وبخاصة الأموى منه إلى الحد الذى يمكن القول معه: إنه تطور ليشكل نظرية عربية لها أصولها والقائمون عليها. وقد توقف الفصل عند عوامل انتشار «الغناء» وازدهاره فى بيئة الحجاز، مبينًا ما كان له من أثر، وما أحدثه من تغيرات اجتماعية وحضارية.

الفصل الرابع: «**المرأة**»، وقد عرض لأمور المرأة المتعلقة بجوانب الحياة الاجتماعية من زواج وطلاق؛ فقدم لنا صورة مثلى للزواج فى الإسلام، وتناول موضوع «الكفاءة» فى الزواج، وكيف أنه استغل - في بعض الأحيان - لأغراض سياسية أو غير سياسية؛ كما أبرز جوانب من التغيير لحقت بصورة الزواج المتوارث. كما تناول أيضا التفاوت فى «المهور» حسب حظ المرأة من الشرف والحسب والجمال، وحسب مكانة الرجل ووضعه الاجتماعى، وكشف أخيرًا عن أن «التعدد» فى الزواج بالمرأة كان أمرًا طبيعيًا وشائعًا وكأنه الأصل، لما فيه من إحصان المرأة، والرغبة فى الولد. ولم ينس أن يتحدث عن لونين من الغزل شاعا فى بيئتين من بيئة الحجاز: الغزل الحسّى، والغزل العذرى، كاشفًا من خلال دراسة هذين اللونين عن مكانة «المرأة» وأنها حظيت بتقدير وإكبار قلّ أن نجدهما فى أى عصر من العصور.

وجاء **الباب الثالث** بعنوان: «**الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى**»، وقد تكون من خمسة فصول:

الفصل الأول: «**عناصر السكان وطبقات المجتمع**»، وقد توقف هذا الفصل بالدراسة عند كثير من التغيرات التى لحقت بهذا الجانب، وبخاصة طبقة «الموالى»؛ إذ امتزجت بالعرب وشاركت فى كثير من شئون الدولة، بل وتغلغل نفوذ بعضها فى أمورها. كما كان لازدهار الحضارة العربية الإسلامية أثره الكبير فى طبقات المجتمع فى كثرتها وتنوعها، وإسهامها فى ذلك التطور الذى مسّ جوانب كثيرة فى الدولة العباسية.

الفصل الثانى: «العصبية» التى استمر بعض ألوانها متقدًا كالقبلية والمذهبية، ولكنها لم تكن بالحدّة التى كانت عليها فى العصر الأموى؛ وإن تحولت «العصبية العرقية» إلى «الشعوبية».

الفصل الثالث: «الشعوبية»؛ وقد تناول هذه الظاهرة التى تضرب بجذورها فى العصر الأموى، وأبرز ما تدل عليه من تغلغل نفوذ العنصر الفارسىّ فى الدولة العباسية. كما عرض لدلالة المصطلح، وما ارتبط به من ظواهر شاعت وانتشرت كالإسراف فى المجون والتحرر من كثير من القيم التى تخالف روح الإسلام.

الفصل الرابع: «الغناء»؛ وقد توقفت الدراسة عند أهم عوامل ازدهاره، وكثرة أصحابه، وتنوع مدارسه، والتفاف الناس حوله، وكثرة المؤلفات فيه، كما بينت دوره فى رقى الذوق، وتهذيب النفس: وهو ما انعكس فى نهاية الأمر على حركة تطور المجتمع وتقدمه.

الفصل الخامس: «المرأة»؛ وقد لاحظت الدراسة أن صوت المرأة العربية الحرّة قد غاب أو كاد من المادة المبثوثة فى كتاب «الأغانى»، على حين علا صوت المرأة «الجارية» أو «القينة المغنية» أو «الشاعرة»؛ ولعل هذا مرده إلى النموذج المحتفى به من قبل أبى الفرج وهو المرتبط «بالغناء»؛ ومن ثم كانت المادة المتناولة فى هذا الفصل الخاصة بالمرأة متنوعة، يختلط فيها الجانب السياسى بالثقافى والاجتماعى والحضارى؛ وقد شكلت عدة محاور، أبرزها: ما اتصل بالمرأة فى الطبقة الحاكمة، وكذلك ما تعلق «بالجوارى والقيان»، ثم ما اتصل «بالزواج»، وإلى أى مدى كانت «الكفاءة» تراعى فيه. وأخيرًا؛ الوقوف عند بعض الأدوار التى كانت المرأة تسهم فيها مما يتصل بالحياة الاجتماعية بسبب. وقد كشف الفصل عن ذلك التحول الكبير فى النظرة إلى «الموالى»، والانعطاف نحو «الجوارى» الفارسيات والروميات، مما أتيح لبعضهن أن يعشن فى قصور الخلفاء وعلية القوم، وأن يتبوأن منزلة كبيرة. وقد كان لهذه الفئة أثرها البارز فى الحياة الاجتماعية فى كثير من جوانبها.

وأخيرًا؛ تأتى الخاتمة كاشفة عن أهم نتائج البحث.

بقيت كلمة حق يقتضيها واجب الوفاء والتقدير لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/

عبد الرحمن سالم، وهو من هو فى علمه ومنهجيته وأستاذيته؛ فقد تعهّد البحث وصاحبته بالرعاية والتوجيه، ولم يضنّ عليهما بوقت أو جهد، حتى استوى البحث على سوقه، واكتمل فى صورته التى بين أيدينا. فاللهم اجزه عمّا قدّم خير الجزاء.

* * *

الحياة الاجتماعية
فى كتاب الأغانى للأصفهانى

دراسة تاريخية نقدية

تمهيد

«آفاق التمهيد ودلالاته»

كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى من كتب التراث العربى المهمة، وهو كتاب تحتفى به المكتبة العربية أيما احتفاء؛ ولعل هذا الاحتفاء يرجع إلى ضياع كثير من الكتب التراثية التى كان لكتاب الأغانى فضل النقل عنها أو الرواية عن مؤلفيها، فكان الكتاب حافظًا لتراث أمة.

ومن هنا انبرت أقلام المؤلفين والمحققين تصنف[١]، وترتب[٢]، وتختصر[٣].

---

(١) لقد أضافت بعض الطبعات تكملة لأخبار المتلمس - آخر تراجم الأغانى - دون أن تذكر الجهة التى اعتمدت عليها فى تلك الترجمة؛ كما أضافت ترجمة كاملة لأبى نواس اعتمدت فيها على كتاب ابن منظور: «أخبار أبى نواس»، و«مختار الأغانى» انظر فى ذلك: أبو الفرج الأصبهانى، الأغانى، ط٢ (دار الفكر للطباعة والنشر. بيروت. لبنان) شرحه وكتب هوامشه عبد الأمير على مهنا، وسمير يوسف. جـ٢٤، جـ٢٥. وانظر أيضًا: أبو الفرج الأصبهانى، الأغانى (دار الشعب) ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م إشراف وتحقيق إبراهيم الأبيارى جـ٢٩، ٣٠.

(٢) رتب المستشرق الأمريكى Rodef Pono التراجم الناقصة. من طبعة بولاق على حروف المعجم بعدما أكملها من المخطوطات الموجودة فى مكتبات أوروبا، وألحقها بطبعة بولاق فى جزء خاص بها. انظر: أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩٩٢م إعداد لجنة نشر الكتاب بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم جـ١ ص٥. وقد عهدت دار الثقافة (بيروت) بتحقيق ثمانية أجزاء من كتاب الأغانى للأستاذ عبد الستار فراج فأدخل التراجم التى أوردها Porno فى أماكنها حسب المخطوطات التى وقعت له. انظر أبو الفرج، الإغانى، ط الهيئة جـ١ ص٧.

(٣) قام ابن منظور بعمل «مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى» فى ثمانية أجزاء، ورتبه على حروف الهجاء. انظر: ابن منظور، مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى، (الدار المصرية للتأليف والنشر - مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م)، كما قام الشيخ الخضرى بتهذيب كتاب الأغانى، وقد قسم الشعراء إلى طبقات حسب العصور المختلفة ووضع المغنين فى أجزاء خاصة بهم. محمد الخضرى - مهذب الأغانى - (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة) ١٣٤٥ه - ١٩٢٦م. وقام داود سلوم، ونورى حمودى بجمع تراجم الشعراء والمغنين والمغنيات ورتباها على تعاقب العصور من الجاهلية إلى العصر العباسى فى كتاب سمياه: «شخصيات كتاب الأغانى»، انظر: داود سلوم. ونورى حمودى القيسى - شخصيات كتاب الأغانى (مطبعة المجمع العلمى العراقى بغداد) ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م. وهناك «أغانى الأغانى مختصر أغانى الأصفهانى» فى ثلاثة مجلدات، تخيرها وتنخلها وجمعها: الخورى يوسف عون. حيث أهمل الأسانيد، والقصص التافهة، والشعر الغث، والتراجم غير المجدية - حسب قوله - وأبقى التاريخ المفيد، والشعر

وتحقق[1] فى محاولة منها للحفاظ على هذا الكنز حتى لا تضيع صورة من صور الحياة العربية التى اقترب منها أبو الفرج ونقلها عبر صفحات كتابه.

وإذا كان الكتاب وضع - فى الأصل - على أساس المائة الصوت المختارة التى كان هارون الرشيد قد أمر إبراهيم الموصلى بانتخابها مع إسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ثم راجعها إسحاق بن إبراهيم وهذبها من بعدهم[2]؛ فقد عنى أبو الفرج بألحان هذه الأصوات، وكذلك بأصحابها؛ فأفرد لكل صوت قائله، وعنى بسيرة حياته نسبًا، ونشأة، وعصرًا معرجًا فى أحايين كثيرة من عصر المغنى إلى عصر الشاعر، وفى بعض الأحيان يمتد فى استطراده إلى أكثر من عصر وأكثر من بيئة.

وقد قصد أبو الفرج إلى ذلك قصدًا، حتى لا يمل قارئه، وإن كان قد أتعب باحثيه بصنيعه هذا فى تتبع تلك العصور، ومحاولة الفصل بينها.

وخلال هذا التَّطْوَاف سجل أبو الفرج كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية لتلك العصور، مما يبرز قيمة الكتاب من الناحية الاجتماعية.

والواقع أن كثيرًا من الباحثين والدارسين قد نوّهوا بقيمة الكتاب من حيث ما يحويه من «أغانٍ»، وهو ما ينص عليه عنوانه «الأغانى»، ومن حيث ما يحويه من «أشعار» و«أخبار» تضعه فى المصادر الأصلية لأية دراسة أدبية. يضاف إلى هذا الإشادة بقيمته «التاريخية»، و«الاجتماعية».

الشرود، والتراجم المشوقة. انظر: «أغانى الأغانى»، مختصر أغانى الأصفهانى. تخيرها وتنخلها وجمعها: الخورى يوسف عون، صحح شرح الحواشى: الشيخ عبد الله العلايلى (دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق) ١٩٨٥م.

(١) قام بتحقيق الكتاب عدد كبير من جلّة العلماء من أمثال: أ/ أحمد زكى العدوى الذى حقق جـ١٤ ط دار الكتب، و أ/ عبد السلام هارون الذى حقق جـ١٥، ط دار الكتب، وأ/ مصطفى السقا الذى حقق جـ١٦ ط دار الكتب، وكذلك أ/ عبد الستار فراج الذى حقق ثمانية أجزاء من كتاب الأغانى ط الثقافة بيروت. انظر فى ذلك: أبو الفرج الأصفهانى. الأغانى ط الهيئة جـ١ ص٦-٧. هذا؛ وقد حقق الكتاب كاملاً أ. إبراهيم الأبيارى، ط دار الشعب. انظر: الأغانى (طبعة دار الشعب السابقة).

(٢) انظر: الأغانى (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م جـ١ ص٣. وانظر: Karl Boklemann تاريخ الأدب العربى: أشرف على الترجمة العربية د/ محمود فهمى حجازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م، القسم الثانى جـ٣، ص٦٨.

وتتجلى هذه الإشادة مثلًا فى قول ابن خلدون: «... ولعمرى إنه ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه، وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها، وأنّى له به»[1].

ويذكر بعض الباحثين أن قيمة هذا الكتاب تعود إلى ما يشتمل عليه من «المعلومات الأدبية والتاريخية والجغرافية والفنية. وهذا ما يجعل الكتاب غزير المادة، وثيقها لتاريخ الأدب العربى فى الجاهلية، والقرون الإسلامية الثلاثة الأولى»؛ ومن هنا فإنه «كتاب لا يعْدله كتاب آخر فى أحوال العرب الاجتماعية والأدبية»[2].

وهذا ما يؤكده د. طه حسين حين يذكر «أن فى هذا الكتاب ما يغنى عن الأجمال، وعما يمكن أن تحمل من أسفار. وأن من اليسير جدًا أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ»، و«أنه ليس يكفينا أن نقرأ الأغانى؛ لأنه ليس كتاب أدب وتاريخ، وإنما هو مصدر للأدب والتاريخ»[3].

أما الدكتور سيد حامد النساج - فى معرض حديثه عن التقدير والاحترام الذى حظى به أبو الفرج - فيردّ ذلك إلى تأليفه كتاب «الأغانى»؛ وهو الكتاب الوحيد الذى يتخذه الدارسون والباحثون مصدرًا لدراسة الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية فى عصر الدولتين الأموية والعباسية[4]. ثم يضيف: «أن فيه فصولًا ممتعة فى العادات، والتقاليد، والحكايات، والنوادر». ويقول: «وأظننا لا نغالى إذا قلنا: إن فى الأغانى غناء كبيرًا لمن أراد أن يتعرف إلى صورة الحياة العربية من شتى جوانبها: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفنية، والأدبية، والدينية فى العصرين الأموى والعباسى»[5].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: د. على عبد الواحد وافى، نهضة مصر، القاهرة ١٩٨١م، جـ٣ ص١٢٧٨.

(٢) أسعد يوسف داغر: مصادر الدراسة الأدبية (مكتبة لبنان - ناشرون) ٢٠٠٠م ص٩٦.

(٣) د. طه حسين: حديث الأربعاء. (دار المعارف - القاهرة) ط١٥ د.ت جـ١ ص١٨٤.

(٤) د. سيد النساج: رحلة التراث العربى، دار المعارف، ط٣ ١٩٨٧م ص٢١٦.

(٥) السابق: ص٢١٨ - ص٢١٩. وإذا كانت النصوص السابقة تشير فيما تشير إلى الجانب الاجتماعى بصيغة العموم، فإن هناك نصوصًا أخرى تشير إلى صور من هذا الجانب بشىء من التفصيل؛ كاهتمام أبى الفرج بذكر آداب العرب، وسلوكهم، ووصف هيئاتهم وملابسهم ومآكلهم ومشاربهم، وجمع أخبار العامة، ومعتقداتهم؛ بالإضافة إلى وصفه الكتاتيب وعنايته بصورة المرأة، ومكانتها الاجتماعية، وحريتها،

ولعل مرد هذه الإشادة إلى ما تكاد تُجمع عليه المصادر من أن أبا الفرج كان «عالى الرواية»، «بحرًا فى نقل الآداب»؛ فياقوت ـ مثلًا – يروى عن الصابئ فى الكتاب الذى ألفه فى أخبار الوزير المهلبى أن أبا الفرج كان «عالى الرواية» «حسن الدراية»[1].

وصاحب «تاريخ بغداد» يذكر أنه «كان عالمًا بأيام الناس والأنساب والسيرة والغالب عليه رواية الأخبار والآداب»[2]، ثم يقول: «حدثنى التنوخى عن أبيه قال: ومن الرواة المتسعين الذين شاهدناهم أبو الفرج... فإنه كان يحفظ من الشعر والأغانى، والأخبار، والآثار، والحديث المسند، والنسب، ما لم أر قط من يحفظ مثله»[3].

وصاحب «المنتظم» يقول: «والغالب عليه رواية الأخبار والآداب»[4].

وعلى الرغم من هذه الإشادة، فإن هذا الجانب الاجتماعى لم يحظ بدراسة منهجية تجلوه، وتضم شتاته، وتضعه فى مكانه من البحث والدرس.

هذا الاهتمام بالجانب الاجتماعى يجعلنا نتوقف عند نقطة مثارة دائمًا حول أبى الفرج وهى: إلى أى مدى نعد أبا الفرج مؤرخًا ؟

وقبل المضى فى الإجابة عن هذا السؤال نعرض لحياة أبى الفرج بشىء من الإيجاز والإلماع إلى العوامل التى أسهمت فى تكوين عقله، وفكره، ووجدانه، وربما وجهته إلى

وثقافتها، ومعاملة الرجل لها سواء أكانت أعجمية متحضرة، أم عربية بدوية، أم أمة من الإماء المبتذلات اللائى يُبعن ويشترين؛ إلى غير ذلك من صور الحياة الاجتماعية. انظر: السابق ص٢٢٢ -٢٢٣. وانظر فى الإشادة بهذا الجانب المراجع التالية:
د. مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م ص٣٣٠ -٣٣١. و د. شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون. دار العلم للملايين. بيروت ط٣، ١٩٨٧م جـ٢ ص٥٥. ومحمد عبد الجواد الأصمعى: أبو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى دار المعارف. مصر، ط٢ ١٩٥١م. الباب السادس بعنوان «كتاب الأغانى وتصويره بعض مظاهر الحياة الأدبية والاجتماعية» ويشتمل على ستة فصول من ص١٩٧ -٢٧٣.

(١) ياقوت: معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربى. بيروت. لبنان جـ١٣ ص١٠١.
(٢) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان مجلد ١١ ص٣٩٨.
(٣) السابق ص٣٩٩.
(٤) ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك. دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان ١٩٢٢م، جـ١٤، ص١٨٥. وانظر أيضًا: شمس الدين الذهبى. سير أعلام النبلاء – أشرف على تحقيق الكتاب وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة – بيروت ط٧ جـ١٦ ص٢٠١.

هذا الجانب أو ذاك.

أبو الفرج الأصفهاني: مولده ونشأته

أبو الفرج هو: على بن الحسين بن محمد بن الهيثم القرشى الأموى[1]. والذى نود التنبيه عليه هنا هو انتماؤه فى سلسلة نسبه إلى البيت الأموى.

مولده:

ولد فى سنة مائتين وأربع وثمانين هجرية قولًا واحدًا. ولم تختلف المصادر والمراجع التى اطلعت عليها فى تاريخ مولده. أما تاريخ وفاته فهو فى أكثر المصادر والمراجع سنة ثلاثمائة وست وخمسين[2]، وفى بعضها سنة ثلاثمائة ونيف وستين[3]. ونحن نميل إلى التاريخ الأخير؛ حيث وجدناه فى كتابه «أدب الغرباء» يؤرخ لحادثة وقعت لأحد أصدقائه سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[4]، ومن ثم فإن وفاته قد تكون بعد هذه السنة، أى

(١) اكتفينا بهذا الجزء من التعريف بسلسلة نسبه، ومن يود الرجوع إليها كاملة فليرجع إلى كتاب «الأغانى» ط الهيئة المصرية العامة للكتاب السابقة، والمصادر المبينة به جـ١ ص٢٧. مع ملاحظة أن ابن النديم - المعاصر لأبى الفرج - فى كتابه «الفهرست» ينتهى فى سلسلة نسب أبى الفرج إلى الخليفة هشام بن عبد الملك، وقد راجعه الذهبى حيث يقول: «يذكر أنه من ذرية الخليفة هشام بن عبد الملك. قاله محمد بن إسحاق النديم، بل الصواب أنه من ولد «مروان الحمار، كان بحرًا فى نقل الآداب» انظر: ابن النديم - الفهرست. ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له: د. يوسف على طويل، دار الكتب العلمية، لبنان ٢٠٠٢م، ص١٨٣. والذهبى: سير أعلام النبلاء جـ١٦ ص٢٠١. ونحن نميل إلى رأى الذهبى؛ حيث ذكرت أغلب كتب الرجال سلسلة نسبه منتهية إلى مروان بن محمد - وتجدر الإشارة إلى أن «مروان بن محمد» هذا لقب «بالحمار» لصبره فى الحروب؛ أو لأنه تولّى ملك بنى أمية وقد قارب من العمر مائة سنة، وكانت العرب تسمى كل مائة سنة حمارًا. راجع الزركلى، الأعلام - دار العلم للملايين. بيروت ط٧ ١٩٨٦، مجلد ٧ ص٢٠٨ -٢٠٩ والسيوطى، تاريخ الخلفاء، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. د.ت ص٢٣٧.

(٢) انظر من هذه المصادر: ابن الجوزى فى المنتظم، وابن كثير فى البداية والنهاية، وابن الأثير فى الكامل، وياقوت فى معجم الأدباء، والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد.

(٣) ممن ذكر هذا التاريخ ابن النديم فى الفهرست، ويدعمه ما ورد فى كتاب (أدب الغرباء) لأبى الفرج الأصفهانى.

(٤) يقول أبو الفرج فى كتابه (أدب الغرباء): «حدثنى صديق لى قال: قرأت على القصر الذى بناه معز الدولة بالشماسية.... يقول فلان بن فلان الهروى: حضرتُ فى هذا الموضع فى سماط معز الدولة، والدنيا مقبلة

سنة ثلاث وستين أو أربع وستين[1].

وكثير من المصادر والمراجع تؤكد على أنه «أصفهانى المولد» بغدادى المنشأ، غير أن هناك من يرى أن أبا الفرج لم يولد بأصفهان، وأن أهله لم يستقروا بها من قريب أو بعيد حتى الأجداد، ويذهب إلى أن هذه الأسرة كانت تقيم بسُرَّ من رأى، وأن حركات انتقالها كانت بين «سُرَّ من رأى» و «بغداد»[2].

أما العوامل التى أسهمت فى تكوينه عقليًا ووجدانيًا فكثيرة متشعبة، بعضها خارجى يتصل بالبيئة وظروف عصره، وبعضها يرجع إلى جوانب شخصية فيه.

فكثير من الدارسين أشار إلى توقد ذكائه، والتهاب خاطره، وسرعة حفظه، وشغفه بالمعرفة. بالإضافة إلى جده، وطموحه إلى المراتب العالية، وتطلعه إلى المجد، والعز الرفيع[3].

عليه، وهيبة الملك عليه مشتملة، ثم عدتُ إليه فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فرأيت ما يعتبر به اللبيب». أدب الغرباء - نشره عن مخطوطة فريدة فى العالم د. صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان ١٩٧٢م. الحادثة رقم ٦٧.

وقد ناقش أمر تاريخ وفاة أبى الفرج بعض من الدارسين المعاصرين، نذكر منهم الدكتور محمد أحمد خلف الله، ومحمد عبد الجواد الأصمعى. وقد رجح الأول قول ابن النديم، على حين رفض الثانى ما قاله ابن النديم وتبنى وجهة النظر التى تتخذ سنة ٣٥٦هـ تأريخًا لوفاته. انظر: د. محمد أحمد خلف الله - صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى الراوية. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة، ط٣ ١٩٦٨م ص١٦-٢٠ وانظر أيضا: محمد عبد الجواد الأصمعى، السابق ص٥٥ وما بعدها.

(١) يدعم هذا ما يذكره محقق كتاب «أدب الغرباء» من أن أبا الفرج ألفَّ كتابه هذا، وقد تقدمت به السن؛ فآخر خبر مؤرخ فى الكتاب هو فى سنة ٣٦٢هـ؛ فيكون قد كتب كتابه بعد هذا التاريخ. انظر: مقدمة المحقق، ص١٥.

(٢) راجع فى ذلك: د. محمد أحمد خلف الله، السابق ص٢١ وما بعدها. ويدعم هذا الكلام ما يذكره الخطيب البغدادى فى معرض حديثه عن أبى الفرج وعمه من تكرار كلمة «المعروف بالأصبهانى» فكلمة المعروف بالأصبهانى تشعرنا بأن الخطيب لم يكن يعتقد بانتسابه إلى أصفهان مولدًا ونشأة، وما وجدناه فى «معجم البلدان» لياقوت عند ذكره «أصبهان» حيث لم ينوه باسم أبى الفرج، ولم يذكره ضمن العلماء والأدباء الذين ينتسبون إلى هذه البلدة. انظر فى ذلك: البغدادى، (تاريخ بغداد)، ص٣٩٨. وانظر أيضًا: ياقوت الحموى. معجم البلدان، دار صادر بيروت (د.ت) جـ١ ص٢١٠. وربما حاولت الأسرة التستر وراء هذا اللقب حتى لا تضطهد من قبل الخلافة العباسية، فى عهد كان يضطهد فيه كل من ينتمى إلى الفرع الأموى، إلى درجة أنهم كانوا يلعنون على المنابر، وتنبش قبورهم، ويمثل بجثثهم. انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ (دار صادر. بيروت) ط٦ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م مجلد ٥ ص٤٣٠.

(٣) انظر: أبو الفرج الأصفهانى: مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، طبعة دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٤٩م، مقدمة المحقق ص أ.

وفيما يتصل بأسرته فقد كان أبو الفرج ينتمى إلى عائلة تهتم بالتاريخ، ورواية الأخبار؛ ومن ثم فقد ورث عنها ميله إلى هذا الجانب.

وهناك مجموعة من الأشخاص يمكن أن نعتمد عليهم فى الكشف عن هذا الميل وهم: محمد بن أحمد الأصبهانى جده لأبيه، وعبد العزيز بن أحمد عم أبيه[1]، والحسن بن محمد الأصبهانى عمه[2]، وأبو عبد الله أحمد بن الحسن الأصبهانى ابن عمه، والحسين ابن محمد الأصبهانى أبوه.

وبالنسبة لجده فقد كان يعيش «بسر من رأى»، وهى موطن كثير من علية القوم أمثال إبراهيم بن العباس، ومحمد بن عبد الملك وغيرهما. وقد كان هؤلاء يُجِلّونه لعلو مقامه فى المجتمع. ثم إن هذا الجد كان لا يروى إلا ما شاهده بنفسه وهو من هذه الناحية راو أصيل ومروياته لها قيمتها الإخبارية، ودلالتها التاريخية[3].

وعلى الرغم من أن شخصية الأب، وكذلك شخصية ابن عمه يكتنفها الغموض والإبهام، ورواية أبى الفرج عنهما نادرة جدًا، فإن هذا لا ينفى أثرهما فى وجود الميل إلى رواية التاريخ والأخبار؛ ذلك أنهما يسلكان فى رواة الأخبار. ويبدو أن الميل إلى رواية التاريخ والأخبار كان صفة يتوارثها فى هذه العائلة الأبناء عن الآباء[4].

ويبقى من الشخصيات التى ذكرناها رجلان: أحدهما: عبد العزيز بن أحمد، عم أبيه، والثانى: الحسن بن محمد عمه، وكلٌ من هاتين الشخصيتين كان له أثره فى تعريف أبى الفرج بشيوخ كان لهم خطرهم فى ميدان الرواية التاريخية ورواية الأخبار.

فعبد العزيز بن أحمد كان طريقه إلى الرّياشى وأحمد بن يحيى ثعلب وأحمد بن الحارث الخراز والزبير بن بكار وغيرهم.

والحسن بن محمد كان من كبار الكتاب فى عصره؛ وقد كان طريق أبى الفرج إلى كثير

---

(١) عبد العزيز بن أحمد بن الهيثم: كان من كبار الكتاب أيام الخليفة المتوكل. انظر: ابن حزم جمهرة أنساب العرب؛ تحقيق وتعليق: عبد السلام هارون (دار المعارف - القاهرة) ط٦، ١٩٩٩م ص١٠٧.

(٢) هو: الحسن بن محمد من كبار الكتاب «بسُرَّ من رأى»، أدرك أيام المتوكل: السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر: د. محمد أحمد خلف الله، السابق ص٣٧، ٣٨.

(٤) انظر السابق، نفس الصفحة.

من الشيوخ الـذين كان يأخذ عنهم من أمثال: محمد بن سعد الكرَّانى، وعبد الله بن أبى سعد الورّاق، ومحمد بن القاسم بن مهرويه، وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وأبى العيناء وعبد الله بن محمد بن داود الجراح وعمر بن شبّة وغيرهم[1].

هذا؛ وينتسب أبو الفرج من جهة أمه إلى آل ثوابة؛ فجده لأمه هو يحيى بن محمد بن ثوابة. وقد كان أبو الفرج لا يذكر لنا يحيى بن محمد بن ثوابة وهو ينسخ من كتابه، إلا وينص على أنه جده لأمه[2].

ويبدو أن أبا الفرج قد ورث عن هذه الأسرة جوانب من ميوله الثقافية، وكذلك الدينية. نعم؛ قد لا يمكننا القول إنه قد ورث عنها ميله إلى التاريخ وإلى رواية الأخبار، وإن كنا نستطيع أن نقول: إن أفراد هذه الأسرة قد نمَّوْا فيه ميله الموروث إلى الأسرة الأولى، أو أعانوه على بعض الأخبار[3].

غير أن أهم ميراث ورثه أبو الفرج عن هذه الأسرة كان ميله إلى التشيع، وجريه على مذهب «الزيدية»، وهو أمر لم يقبله بعض المؤرخين فى سهولة ويسر، حتى لقد قال قائلهم: «ومن العجائب أن مروانيًا يتشيع»[4].

---

(١) انظر السابق، ص٣٩-٤٣.
والواقع أن شيوخه الذين روى عنهم أكثر من أن يُحصَوا؛ يقول الصفدى: «وسمع أبو الفرج من جماعة لا يحصون»: الصفدى (الوافى بالوفيات) باعتناء هلموت رينز، طبعة فرانز شتاينز بفيبارن ط٢، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م جـ٢١ ص٢١. ويقول محقق كتاب «مقاتل الطالبيين»: «من الرواة الذين روى عنهم أبو الفرج يحيى بن على المنجم. ت سنة ٣٠٠هـ ومحمد بن جعفر القتات. ت سنة ٣٠٠هـ والفضل بن الحباب ت سنة ٣٠٥هـ وعلى بن العباس المقانعى. ت سنة ٣١٣هـ والأخفش ت سنة ٣١٥هـ وجعفر بن قدامة ت سنة ٣١٩هـ وابن دريد ت سنة ٣٢١هـ ونفطويه ت سنة ٣٢٣هـ وجحظة ت سنة ٣٢٦هـ وابن الأنبارى ت سنة ٣٢٨هـ: مقاتل الطالبيين» ص٧ وانظر أيضًا: أبو الفرج الأصفهانى الأغانى جـ١ ص٢٧-٢٩، ود. سيد النساج: رحلة التراث العربى، ص٢٣٦.
(٢) انظر: الأغانى، جـ١٢ ص٣٧، جـ٩ ص١٠٣، جـ١٤ ص١٦٢.
(٣) انظر: د. محمد أحمد خلف الله، السابق ص٤٧. ومن الواضح أن هؤلاء الأفراد كانوا يدفعون إلى أبى الفرج بتلك الكتب التى كان يستقى منها أخباره، ومروياته؛ فقد أعانه جده لأمه يحيى بن محمد بذلك الكتاب الذى يأخذ منه أبو الفرج بعض الأخبار التى تدور حول امرئ القيس، والطرماح بن حكيم، وابن قنبر، وعبد الله بن الزبير؛ وكذلك أعانه بذلك الكتاب الذى يأخذ منه بعض الأخبار الخاصة بعبد الله بن العباس الربيعى؛ وكذلك بكتاب إسحاق الموصلى، ذلك الذى يصور ما كان بين إسحاق وإبراهيم بن المهدى من نقاش. السابق، نفس الصفحة وما به من مصادر.
(٤) انظر: السابق ص٤٨، ص١٣٧ وما به من مصادر، مع ملاحظة أن تشيعه هذا لا يكاد يغفله مصدر من

وقد دفع هذا بعض الدارسين إلى تحقيق هذا الجانب فى أبى الفرج، وهل كان تشيعه عن هوى وعقيدة، أم عن مداراة وسياسة ؟!.

فهناك من بحث هذه المسألة، وبعد أن أثبت تشيعه واهتمامه بأخبار المتشيعين والطالبيين، وتأليفه لكتاب «مقاتل الطالبيين» الذى صدر عن نزعة شيعية، تساءل عن مدى حقيقة تلك العواطف التى يكنها أبو الفرج للتشيع وللمتشيعين، وهل كان أبو الفرج يصدر فى ذلك عن (تدين) أو عن (علم بالدين)؛ ذلك لأن هناك فرقًا بين (المتدين) و(العالم بالدين)؛ فالعالم بالدين ليس من اللازم أن يصدر عن عاطفة قوية، وعن قلب مفعم بالعقيدة التى تتحكم فى كل ما يصدر عنه من قول أو عمل.

وينتهى صاحب هذا الرأى إلى أن أبا الفرج «صاحب ثقافة شيعية وقف التشيع منه... عند حد العقل والذاكرة»[1]؛ وأنه كان يكتب «فى وقت أخذ فيه نفوذ الشيعيين يقوى، ويضخم حتى كان الرؤساء فى ذلك الوقت من الشيعيين، وحتى أصبحت الدويلات ثم الدول فيما بعد تدين بالمذهب الشيعى، كما هو الحال بالنسبة للبويهيين والحمدانيين. ومن هنا لم يُغضب أبو الفرج أحدًا، ولم يغضب هو من أحد من الرؤساء والحاكمين»[2].

وهناك من يذهب إلى أن أبا الفرج كان (شيعى الهوى) على الرغم من نسبه الأموى؛ «وليس بمستغرب ولا مستنكر؛ فإن التشيع الحقيقى ينجم من حب الرسول، ويصدر عن مودة قرباه، وآل بيته؛ الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا. والحب الصادق لا يقيم وزنًا لفارق النسب ولا لغيره من الفوارق التى يحقرها، ويحطم مغاليقها، وأسوارها، وإن تواضع الناس على احترامها»[3].

المصادر، مشفوعًا بالعجب. انظر: ابن الجوزى المنتظم - ص١٨٥، والخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ص٤٠٠، وابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه: محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية - جـ٢ ص٥٣٤.

(١) د. محمد أحمد خلف الله: السابق ص١٤٠.

(٢) السابق ص١٤١. وانظر أيضًا: د. الطاهر أحمد مكى - دراسة فى مصادر الأدب - (دار المعارف. القاهرة) ط١ ١٩٧٦م ص١٧١.

(٣) السيد أحمد صقر: مقدمة تحقيق كتاب «مقاتل الطالبين» لأبى الفرج الأصفهانى، جـ١ ص٢.

وسواء أكان تشيعه عن عقيدة وهوى فى نفسه أم كان تقربًا وإرضاءً لأولى الأمر من بنى بويه أو غيرهم كما تذكر بعض المصادر؛ فإن هذا لا يشكل - من وجهة نظرنا - أهمية تذكر اللهم إلا إذا انعكس هذا التشيع على معالجته لمادة الأغانى من مرويات وأخبار وغير ذلك مما قد يتضح فى أثناء البحث.

ونعـود لنتـوقف عنـد القضية المثارة دائمًا حول أبى الفرج وهى: إلى أى مدى نعدُّ أبا الفرج مؤرخًا ؟

لقد وجدنا دراسات عديدة تؤكد أهمية كتاب «الأغانى» مصدرًا للدراسة التاريخية ووجدنا كثيرًا(١) من الدارسين يرجعون إليه فى كتاباتهم التاريخية؛ وفى الوقت نفسه وجدنا من الدارسين - فى القديم والحديث - من يشكك فى أهمية الكتاب من هذا الجـانب لأدلـة اعتـمد علـيها. ولعل هذا يجعلنا نتوقف عند صفة أخرى غلبت على أبى الفرج، وأشار إليها القدماء كثيرًا، ثم قدمت دراسة مستفيضة عنها حديثًا، ألا وهى صفة «الرَّاوية»(٢).

ويرى صاحب هذه الدراسة أن المحور الذى تدور حوله استعمالات مادة روى هو «النقل»، ولكن الذى يهمنا فى هذا المقام هو «نقل الأنباء والآراء» أو «النقل بمعناه الواسع». و«النقل» بالمعنى السابق له سمات وخصائص؛ إذ يبدأ «بالتحمل»(٣)

---

(١) لا يحتاج هذا إلى توثيق؛ إذ يكفى أن نطلع على أى مرجع من المراجع التى تعالج الأزمنة التى تناولها كتاب «الأغانى» لنجد إفادة صاحب المرجع من كتاب الأغانى. على سبيل المثال كتاب أحمد أمين - فجر الإسلام - مكتبة النهضة المصرية للطبع والنشر ١٩٧٥م ط ١١ وأيضًا د. أحمد شلبى - موسوعة التاريخ الإسلامى - مكتبة النهضة المصرية للطبع والنشر ١٩٩٩م ط١٥، وكذلك د. عبد الرحمن سالم - الرسول ﷺ حياته وتطور الدعوة الإسلامية فى عصره (دار الفكر العربى) القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) نشير هنا إلى دراسة د. محمد أحمد خلف الله التى بعنوان: «صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى الرَّاوية».

(٣) التحمل «هو أن يجمع الراوى الأنباء والآراء، أو المرويات من طرقها المختلفة، وأساليبها المتنوعة». انظر: د. محمد أحمد خلف الله، المصدر السابق ص٨.

و«تصحيح المرويات»[1]، و«القدرة على ضبطها[2]» ثم «الأداء».

والذى يهمنا هنا هو «الأداء» ويقصد به «نقل المرويات مع تبليغها إلى الغير بأية طريقة من طرق النقل والتبليغ، وذلك قد يكون بالكتابة إليه، أو بالإملاء عليه، أو بالمحادثة الشفهية، أو ما شاكل ذلك»[3].

ولقد اعتمدت هذه الدراسة على نصوص من التراث فى محاولة منها لإثبات ما تذهب إليه، فتوقفت عند ابن سلام فى كتابه «طبقات فحول الشعراء» وموقفه من ابن إسحاق؛ لتستخلص أن «ابن إسحاق» إنما يذهب مذهب الرواة ومذهب من يرى أن واجبه الحمل والتبليغ، والصحة فى النقل، وأن ابن سلام إنما يذهب مذهب المؤرخين الذين يطلبون الحقيقة (صحة المنقول، وصدق محتواه فى العقل، وصدق قضاياه) ويرون أن واجب الإنسان ألا يحمل إلا ما يراه حقًا وصوابًا، أو ما يتوقع أنه الحق؛ فالأول إنما يحرص على أداء المنقول كما تلقاه، والثانى إنما يحرص على صحة المنقول، وإن قاس هذه الصحة باعتبارات خاصة بالسند[4].

ثم توقفت عند نص لياقوت، لتتخذه أساسًا للتفرقة بين «الراوى» و«المجتهد»؛ إذ المجتهد من حقه أن يروى الحديث ثم يزيفه[5].

وبعد هذه التفرقة بين «الراوى» و«المجتهد» تناولت أيضًا الفرق بين «المؤرخ» و«راوى الأخبار»؛ فعمل المؤرخ هو: «رواية ثم استبعاد»، أو «رواية تريد الوصول إلى ما هو فى نفسه صحيح، أو الوصول إلى الحقيقة التاريخية» . أما الراوى فيعتمد فى عمله

---

(١) تصحيح المرويات «وهي مرحلة تأتي بعد التحمل بأن يقابل الراوى ويصحح مروياته: بأن يقابل ما سمعه فوعاه، أو ما سمعه فدونه على ما عند غيره من الأقران، ممن أخذ معه عن الشيخ، أو يصحح ما سمعه على الشيخ نفسه، أو على نسخته». نفس المصدر والصفحة.

(٢) القدرة على الضبط تعنى: «أن يحتفظ الراوى بالمرويات، كما أخذها عن الشيخ من غير تغيير أو تبديل فيها؛ وذلك بحفظها عن ظهر قلب، ووعيها فى الذاكرة، وقد يضم إلى ذلك تدوينها فى كتاب، وذلك من حين التحمل والأداء... وإلا تطرق الخلل إلى المرويات»: نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) انظر: نفس المصدر ونفس الصفحة.

(٥) انظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ١ ص١٢-١٣ ونص عبارته (يُزيغه). وانظر أيضا السابق ص١١ مع ملاحظة أن «يزيفه» هنا تعنى: إظهار زيفه وعدم صحته.

« صدق النقل، وصحة الإسناد»، وبناء على ذلك فعمل الراوى هو نقل الخبر، دون أن يمتد ذلك لنقد متنه، صدقًا كان ذلك المنقول أو كذبًا، إذ ليس عليه بأس من ذلك وإنما البأس كل البأس فى أن يضع شيئًا أو يروى عمن لم يرو عنه، أو فى التحديث عمن لم يسمع منه، أو يأخذ عنه بمكاتبات، أو إجازات[1].

والدراسة كلها موجهة لإثبات هذه الصفة (الرِّواية) فى أبى الفرج مقارنة - أحيانًا - بينه وبين «المسعودى» وأحيانًا أخرى بينه وبين «الطبرى».

فالمسعودى تتجلى فيه روح المؤرخ، الذى يرى أن ما جاء به هو الحق، وأن ما أورده هو الصواب(٢). على حين كان أبو الفرج «يحرص حرصًا شديدًا على ألا يفوته أى شىء مما يعرفه الناس؛ فهو حريص على جمع كل ما قيل(٣)، حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب. وليس ذلك من مذاهب المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على الوقوف على الحقيقة، وذكر ما يعتقدون أنه الحق»(٤).

على أننا يمكن أن ننظر إلى صنيع صاحب الأغانى من زاوية أخرى ليست بعيدة

---

(١) انظر: د٠ محمد أحمد خلف الله، ص١١، ١٢.

(٢) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد (السعادة مصر) ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م جـ١ ص١٨.

(٣) تذكر الدراسة أن حرص أبى الفرج على جمع كل ما قيل دفعه إلى أن يأخذ من مصدرين كبيرين هما: «الكتب»، و«الرجال». ويلاحظ فى هذا المقام أمران:
أولهما: إن هذه الكتب التى يعتمد عليها ليست كلها من الأصول الجياد أو من الكتب الأمهات، وأن هؤلاء الرجال الذين يُكثر من الأخذ عنهم ليسوا جميعًا من الرواة المشهود لهم، أو من الشيوخ الكبار. وهذا الأمر يفيدنا كثيرًا فى التأريخ للحياة الفنية والاجتماعية للبيئة التى يعيش فيها الراوى، ومن ثم يكون أبو الفرج بصنيعه هذا قد أدى خدمات يشكر عليها، لأنه حرص على تراث الأوساط من الناس، ولم يقتصر على الممتازين منهم، الذين ربما يمثلون الحياة الفكرية والاجتماعية من القمة فحسب.
ثانيهما: إن أبا الفرج فى أخذه من غير الممتازين من الرواة، وعن غير الجياد من الكتب، كان يروى عن الثبت الثقة وغيره، وأورد فى كتبه الصادق والكاذب من الأخبار٠ وهذا لون من التساهل لم يكن مقصورًا على أبى الفرج وحده، وإنما كان يجرى عليه الأخباريون الأدباء، وبخاصة فيما يتصل بتلك الأخبار والأقاصيص التى يراد منها الفكاهة أو الإمتاع، على العكس من الأخبار التى يقصد منها إلى التاريخ فهى تتطلب النقد القوى، والعناية الكبرى، ويجب أن تقوم فيها الرواية على أساس من الدقة والضبط توحى بالثقة بها والاطمئنان لها. انظر: د٠ محمد أحمد خلف الله، السابق من ص١٩٦ - ص٢٠٠.

(٤) السابق; ص١٨٧.

عن منهجية المؤرخ، فحين تغيب وسائل الوصول إلى اليقين أو ترجيحه قد لا يكون أمام الراوية إلاّ أن يثبت كافة الروايات التى قد تبدو متناقضة: تاركًا إمكان المفاضلة والاختيار أو الترجيح لبراهين ربما تظهر مع الأزمنة الآتية. وقد فعل هذا مع شخصيات وأحداث عدة، نكتفى بالإشارة إلى ما كتبه عن قيس بن الملوح، وهل هو شخص حقيقى باسمه، أم رمزى اتخذ قناعًا لشخص آخر، أم اسم مدّعى لعدد من الشعراء العشاق، إلى آخر ما ذكر فى أول تراجم الجزء الثانى[1]. لقد ذكر الاحتمالات الممكنة من الوجود إلى العدم، ومن الواقع إلى الرمز، وهذا فى ذاته لا يجافى «التاريخ»، وبخاصة التاريخ الاجتماعى والثقافى.

وفيما يتصل بالطبرى، تورد الدراسة نصًا له ورد فى مقدمة كتابه: «تاريخ الأمم والملوك»، ثم تعقّب عليه قائلة: «واضح أن الطبرى قد التزم أن يؤدى المرويات على نحو ما أديت إليه، حتى ولو كان فيها ما يستنكره القارئ، أو يستشنعه السامع. وليس يخفى أنه يريد أن يقول: إنى إنما أحرص على الصحة فى النقل. نعم؛ إن الطبرى يذكر فى هذا النص أيضًا أنه قد يعمد فى القليل اليسير إلى ما يدرك بحجج العقول، ويستنبط بفكر النفوس، وذلك قد يدل على القصد إلى الصحة فى المنقول. ولسنا نعارض، فللطبرى موقفان: موقف هو الكثير الغالب، يحرص فيه على الصحة فى النقل، وموقف هو اليسير القليل يحرص فيه على صحة المنقول»[2].

والواقع أن الدراسة المتأنية للطبرى، وكذلك لأبى الفرج الأصفهانى، تقودنا إلى نتيجة لا تتفق وما انتهت إليه الدراسة السابقة.

فالمتأمل لنص الطبرى – المشار إليه سابقًا – يلاحظ أنه ربط ما يستنكره القارئ، أو يستشنعه السامع بما كان من أخبار الماضين، إذ يقول: «فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهًا فى الصحة، ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يُؤت فى ذلك من قِبَلنا، وإنما أُتى

---

(١) ينظر ما كتبه تحت عنوان: أخبار مجنون بنى عامر، الأغانى، جـ٢، ص٢ وما بعدها.
(٢) السابق، ص١٠، ١١.

من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنَّا إنما أدّينا ذلك على نحو ما أُدِّى إلينا»[1].

فالربط – إذن – ربط ورد فى سياق خاص، متصل ببعض الماضين؛ لا إلى كل ما أورده فى كتابه من حوادث وأخبار. ومن ثم لا يكون مقدمة إلى أن يسلك فى عداد الرواة، بل الأولى به أن يكون فى عداد «المؤرخين».

وهذا ما تدعمه دراسات أخرى اهتمت بهذا الجانب. فالدكتور قاسم عبده قاسم – وهو بصدد حديثه عن (تطور منهج البحث التاريخى) – يذكر «أن القرن الثالث الهجرى يمثل مرحلة تطور مهمة وحاسمة فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ نقلت كتابة التاريخ من مجرد التجميع والتأليف والوصف إلى مرحلة جديدة، قوامها منهج صارم يقوم على أساس ضبط الرواية وتحقيقها»[2].

ويعد الطبرى حسب وجهة النظر هذه رمزًا لختام مرحلة وبداية مرحلة فى تاريخ الكتابة التاريخية فى التراث العربى الإسلامى؛ حيث وضع منهجًا جديدًا فى البحث والدراسة التاريخية، يمثل نقلة نوعية فى تاريخ الكتابة العربية لم تتكرر بعد ذلك سوى فى كتابات عبد الرحمن بن خلدون – على حد قول قاسم عبده قاسم – ولم تكن النقلة ابتكارًا خالصًا، وإنما كانت صياغة جديدة شملت كل مراحل الكتابات السابقة وتطورها؛ ومن ثم فإن السبب الرئيس لأهمية كتاب الطبرى يكمن وراء الدقة المنهجية التى سار عليها الكتاب؛ إذ طبق الطبرى منهج الإسناد تطبيقًا دقيقًا فى مجال التاريخ[3].

يضاف إلى هذا أننا نجد فى طيات كتابه الضخم ما يبرز «أهمية الوثائق والسجلات الحكومية باعتبارها دليلًا يدعم القصة التاريخية. وهو تطور اهتم بالدليل الوثائقى فى الدراسة التاريخية وما يزال يحظى بالاحترام البالغ بين المؤرخين حتى اليوم»[4].

---

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف. مصر ١٩٦٠م جـ١ ص٧-٨ هامش (١) ص١٨.

(٢) د. قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث فى الدراسات التاريخية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. القاهرة، ٢٠٠٠م. ط١ ص١٣٥.

(٣) انظر: السابق ص١٣٦-١٣٧.

(٤) السابق: نفس الصفحة.

بقى أن نتوقف عند النتيجة التى انتهت إليها دراسة د. محمد أحمد خلف الله؛ فعلى الرغم من أنه ركز على أبى الفرج «الراوية»، وحاول أن يثبتها له بكل سبيل لتتوارى منه صفة «المؤرخ» فإننا نرى لأبى الفرج دورين واضحين متميزين: دور المؤرخ، ودور الرَّاوية؛ وآية ذلك عدة شواهد.

يأتى فى مقدمتها ما يحويه كتاب الأغانى نفسه من أخبار وأحداث حرص فيها صاحبه على صحة المنقول، وقد كان فى هذا مثالًا للمؤرخ الذى يتوخى الحقيقة، ويطلبها بكل السبل[1].

ثم هذا الجانب المتصل بتأثره بمحمد بن جرير الطبرى وتلمذته عليه؛ فقد كان أستاذه، «وقد قرأ عليه تاريخ الأمم والملوك وكتاب المغازى. وكان أبو الفرج يبتغى الوسيلة إلى قلبه، ويسارع فى مرضاته»[2].

ولا شك أن هذه الصلة العميقة بين الاثنين ألقت بظلالها على كتابات أبى الفرج؛ فضلًا عن اعتماده عليه فى رواية كثير من الأحداث التاريخية.

بالإضافة إلى أن كثيرًا من علماء التاريخ المحدثين يعتمدون عليه فى كتاباتهم التاريخية؛ ومن ثم فإن جانب المؤرخ فيه لا ينبغى أن يتوارى فى الظل.

وأخيرًا؛ فإن هناك من كتب التراجم ما يضع كتاب الأغانى جنبًا إلى جنب مع كتب التواريخ المؤلفة، ويسلكه فى «التواريخ الجامعة»؛ فتحت هذا العنوان يضعه «الصفدى» مع: «تاريخ ابن جرير الطبرى... وتاريخ المسعودى. وتجارب الأمم لمسكويه... والكامل لابن الأثير.. والمنتظم لابن الجوزى»، ثم يعقب على ذلك قائلًا: «وقد اختاره جماعة منهم الوزير المغربى، والقاضى جمال الدين بن واصل، وابن الزبير، وابن ناقيا الكاتب...»[3].

---

(١) لا يحتاج هذا إلى شواهد ونماذج تؤيده، ويكفى أن نتناول أى جزء من الأغانى لنرى صحة ما نذهب إليه. انظر – على سبيل المثال – «أخبار غزاة بدر» الأغانى جـ٤ من ص١٧٠–٢١١، وكذلك «وقعة الحرة»، الأغانى جـ١ ص٢٢–٢٨.

(٢) أبو الفرج الأصفهانى. «مقاتل الطالبيين» – مقدمة الكتاب ص ٥.

(٣) الصفدى: الوافى بالوفيات، جـ١، ص٥٠.

وعلى أية حال، فإننا فى هذا الإطار (إطار أبى الفرج المؤرخ) يمكننا الرد على بعض التساؤلات التى أثيرت حول كتاب الأغانى قديماً وحديثًا.

ففى القديم أثيرت مسألة «كذب أبى الفرج فى روايته»؛ إذ يروى الصفدى عن الشيخ شمس الدين الذهبى قوله: «رأيت شيخنا ابن تيمية يضعفه ويتهمه فى نقله، ويستهول ما يأتى به، وما علمت فيه جرحًا إلا قول ابن أبى الفوارس: خلط قبل أن يموت»[١].

كما يورد الخطيب البغدادى روايات من يُعلى من شأن أبى الفرج.. ثم يورد روايات من يحاول أن يهوِّن منه فيقول: «حدثنى أبو عبد الله... بن طباطبا العلوى قال: سمعت أبا محمد... النوبختى يقول: كان أبو الفرج الأصبهانى أكذب الناس؛ كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشترى شيئًا كثيرًا من الصحف، ويحملها إلى بيته، ثم تكون رواياته كلها منها. قال العلوى: وكان أبو الحسن البتى يقول: «لم يكن أحد أوثق من أبى الفرج الأصبهانى»[٢].

ومن الملاحظ أن ابن طباطبا العلوى يروى الخبرين اللذين يبدو فيهما لون من التناقض. على أننا لو تأملنا الأمر مليًّا فربما خفت حدّة التناقض هذه، وبدا لنا ذلك لونًا من اختلاف النظر حول مدى الثقة بالكتابة، والاعتماد على الكتاب، والأخذ عنه، فى مقابل ما كان سائدًا لعهود طويلة من الاعتماد على الرواية، والأخذ مشافهة.

والنص الذى معنا يدعم هذا؛ فجملة «كان يدخل سوق الوراقين وهى عامرة... ثم تكون رواياته كلها منها» تقع موقع التعليل من سابقتها: «كان أبو الفرج الأصفهانى أكذب الناس».

والواقع أن الثقة فى «الرواية» بما تحمله هذه الكلمة من الثقة فى الشفاهية، كانت راسخة فى الأذهان، إلى درجة يبدو معها الاعتماد على الوثيقة المكتوبة، والأخذ عنها، شيئًا لا يرقى فى القبول والصدق والتسليم إلى مرتبتها.

---

(١) السابق: جـ٢١، ص٢١.

(٢) البغدادى: تاريخ بغداد. جـ١١، ص٤٠٠.

يدعم هذا ما يورده ابن سلام الجمحى - فى معرض حديثه عن الشعر المصنوع المفتعل الموضوع - من قوله: «... وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه؛ أن يتقبل من صحيفة، ولا يَرْوى عن صحفى»[1].

وإذا كان النص السابق يروى ما قاله النوبختى خاصًا باعتماد أبى الفرج على الكتب والصحف، فإن هناك من يضيف إلى ذلك أن أبا الفرج «استباح لنفسه أن يروى منها على أنه حُدِّث بها»؛ يقول محقق كتاب «مقاتل الطالبين» «وقد ثقف أبو الفرج معارفه وعلومه الجمة عن الأعلام فى عصره، والأسفار القيمة التى كانت موجودة إذ ذاك، بيد أنه استباح لنفسه أن يروى منها على أنه حدِّث بها، ومن أجل ذلك اتهم بالاختلاق، والذى يقرأ «الأغانى»، و«مقاتل الطالبيين» تهوله تلك الكثرة الهائلة، ويتعاظمه ذلك الجم الغفير من الرواة، ويتخالجه الشك إذا ذكر ما يقوله ابن النديم من أن أبا الفرج كانت له رواية يسيرة، وأكثر تعويله فى تصنيفه كان على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد»[2].

ومما يتصل بكذبه هذا - وإن أضيف إليه ما يتصل بسلوكه وإيراده أخبارًا قد يستقبحها من يطلع عليها، أو يستنكرها - ما يقوله ابن الجوزى عنه: «ومثله لا يوثق بروايته؛ فإنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون من شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب الأغانى رأى كل قبيح ومنكر»[3].

---

(١) ابن سلام الجمحى: طبقات فحول الشعراء. قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى. القاهرة. السفر الأول ص٤. والصحفى: الذى يأخذ عن صحيفة، لم يعرض على العلماء، ولم يتعلق علمه بالرواية. انظر: الهامش السابق. ومن العبارات المستقرة فى تناقل المعرفة: لا تأخذ العلم عن صحفى، ولا القرآن عن مصحفى، أى الذى يقرأ فى المصحف وليس من الذاكرة.

(٢) السيد أحمد صقر: مقدمة تحقيق كتاب «مقاتل الطالبيين» لأبى الفرج الأصفهانى ص ن.

(٣) ابن الجوزى: المنتظم. جـ١٤، ص١٨٥ - وعبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (٥٠٨-٥٩٧هـ) أحد شيوخ الحنابلة فى بغداد، ومن كتبه المحققه «تلبيس إبليس»، ومن مخطوطاته التى لم تحقق بعد «صولة العقل على الهوى» (وله صنيعة منشورة تحت عنوان «ذم الهوى») فمن المتوقع ألا يكون راضيًا عن المنحى الذى توجه إليه الأصفهانى وآثره، وهو الغناء وما يتصل به، وهذا الاعتبار مما لا يصح إهماله فى عرض آراء الموافقين أو المخالفين «الشخص» الأصفهانى أو الحكم على عدالته.

وابن الجوزى – فى نفيه الثقة بأبى الفرج كراوية – يعتمد على ما يعرف من خلائق أبى الفرج، وما يحويه كتاب الأغانى من أخبار يراها قبيحة منكرة، ربما تصدم مشاعره الدينية، أو تمس – من قريب أو بعيد – بعض الشخصيات التى يوقرها ورسخت لها فى نفسه مكانة؛ وهذا أمر غير مستبعد من أحد شيوخ الحنابلة.

ونود هنا أن نفصل بين حياة المؤلف الشخصية وأعماله الأدبية، وألا نحكم على أعماله من خلال معرفتنا بسيرة حياته، وبخاصة فى مجال الدراسات الاجتماعية، بل إن هذا الجانب اللاهى العابث، الذى يشكل جزءًا لا يتجزأ من هذه الحياة ربما كان فى إغفاله أو غض النظر عنه حجب جانب من الصورة لا تكتمل إلا به !.

ولعل هذا المجال الرحب الفسيح الذى حلّق فيه أبو الفرج من خلال كتاب «الأغانى» وما يدل عليه من حرية فى التعبير، وصراحة فى القول لم يعجب ابن الجوزى فقد كان «حنبليًّا من أهل الأثر، الذين يضيقون بأهل الرأى»[1].

يدعم هذا ما يورده د. محمد أحمد خلف الله – فى معرض رده على صاحب المنتظم فى عدم الثقة بمرويات أبى الفرج؛ لأنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق، ولأنه يهوّن من شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه – من أن ابن الجوزى يحكم على رواة الأدب والأخبار بمنطق رواة الحديث، وهذا المقياس لا يصلح فى الرواية الأدبية؛ بل إن هؤلاء اللاهين العابثين يكونون – عادة – أكثر فطنة وأشد حذرًا حينما يروون أخبار الخلاعة والمجون، لأن خبرتهم بهذه الأجواء تجعلهم بأسرارها أدرى، وبأحداثها أخبر؛ ومن ثم فالثقة بمروياتهم فى هذا المجال أكمل[2].

ومرة أخرى، هناك فرق بين أبى الفرج الرَّاوية، الذى ترجم لكثير من المغنين والشعراء وصور لنا جوانب من حياتهم اللاهية، وأبى الفرج المؤرخ الذى يقصد إلى الحقيقة التاريخية.

ونلاحظ أن أبا الفرج الرَّاوية قصد إلى الهزل، لا لأنه يبشر بالعبث ويدعو إلى

---

(١) د. محمد عمارة: أبو حيان التوحيدى بين الزندقة والإبداع، مكتبة نهضة مصر، ١٩٩٧م ص٨.
(٢) انظر: د. محمد أحمد خلف الله، السابق ص١٤٩.

الفجور، وإنما لما ذكره هو فى مقدمة كتابه من أن «ما رتبناه أحلى وأحسن، ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى محدثة، ومليك إلى سوقة، وجدٍّ إلى هزل، أنشط لقراءته، وأشهى لتصفح فنونه، لا سيما والذى ضمنَّاه إياه أحسن جنسه، وصفو ما ألف فى بابه، ولباب ما جمع فى معناه»[1]؛ أى أن أبا الفرج قصد إلى الهزل لعوامل نفسيةٍ وفنية تخص القارئ أكثر مما تخص الكاتب. وهو واع بذلك وعيًا تامًا، وليس أدل على ذلك من أنه قصَّ من المصنوعات والأكاذيب قصصًا وأخبارًا، دلَّ هو نفسه على بعضها، وبرئ من العهدة[2] فى بعضها الآخر؛ ولم يفعل هذا إلا لأنه قصد إلى الرواية، ولم يقصد إلى التاريخ. ومن هنا كانت أقاصيص اللهو والغرام، وكانت أحاديث الكتاب والشعراء مع الغلمان، وكان بعضها واضح الدعابة، خفيف الظل(٣).

بقيت مسألة أنه «خلَّط قبل موته» والمصادر تذكرها على أنها من العوارض التى عرضت له فى أخريات حياته، وأنها لا تنال من الثقة فى مؤلفاته. ومن المعروف أن أبا الفرج كتب «الأغانى» دفعة واحدة فى عمره، وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة[4].

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى جـ١، ص٤.

(٢) انظر – على سبيل المثال – قوله فى معرض حديثه عن «أخبار مجنون بنى عامر ونسبه»: «وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جملًا مستحسنة، متبرئًا من العهدة فيها؛ فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره، ينسبها بعض الرواة إلى غيره، وينسبها من حُكيت عنه إليه؛ وإذا قدمت هذه الشريطة برئتُ من عيب طاعن، ومتتبع للعيوب» الأغانى: السابق جـ٢، ص١١. والذى نضيفه فى هذا المقام ما نعرفه عن احتمال تداخل النصوص فى الشعر القديم بسبب الرواية والرواة، وليس بسبب التوثيق الكتابى، وفيما يخص ما نسب إلى قيس بن الملوح من أشعار نحيل إلى كتاب: «الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية»، الذى يرى أن ما نسب إلى قيس ينظم صورة حياة متكاملة عانت مستويات من الحرمان والنبذ الاجتماعى، ويرى أن قدرًا من هذه الأشعار المنسوبة يتسق والأخبار المروية، من ثم يلتقيان عند رموز التحليل النفسى: د. محمد غنيمى هلال: الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، دار نهضة مصر للطبع والنشر. القاهرة الطبعة الثانية، ص٤٩.

(٣) انظر: د. محمد أحمد خلف الله، السابق ص١٥٠.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء جـ١٣، ص٩٨. هذا؛ ومن الملاحظ أن الاتهامات السابقة اتخذها بعض المحدثين أساسًا للنيل من كتاب الأغانى، والتهوين من قيمته. انظر – على سبيل المثال – نذير محمد مكتبى: «جولة فى آفاق الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، دار البشائر الإسلامية ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ووليد الأعظمى: «السيف اليمانى فى نحر الأصفهانى صاحب الأغانى» دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

وبعد؛ فإن دراستنا هذه تتخذ من «الحياة الاجتماعية» فى كتاب الأغانى محورًا لها، فما المقصود بالحياة الاجتماعية ؟

تقوم الحياة الاجتماعية على ما يسمى بـ «الظاهرات الاجتماعية» وما يسميه ابن خلدون «واقعات العمران البشرى» أو «أحوال الاجتماع الإنسانى»[1].

ولا شك أن هذه «الظاهرات» أو «أحوال الاجتماع الإنسانى» كثيرة ومتشعبة وينظر إليها من زوايا مختلفة؛ إذ يمكن النظر إليها من ناحية «وظائفها»، أى الأغراض التى ترمى لها، والنواحى التى تقوم بتنظيمها؛ ويمكن أن ينظر إليها من ناحية علاقتها بالتفكير والعمل؛ كما يمكن النظر إليها من ناحية استقرارها وتطورها.

وفيما يتصل بالجانب الأول، وهو وظائف الظاهرات الاجتماعية أو أغراضها، فإننا نجد أنواعًا متباينة منها: «النظم العائلية التى تتعلق بشئون الأسرة، وتنسيق العلاقات التى تربط بعض أفرادها ببعض، وتحدد حقوق كل منهم وواجباته؛ وذلك كنظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث وما إلى ذلك... ومنها النظم الاقتصادية... ومنها النظم القضائية... ومنها النظم الخلقية التى تعنى بتمييز الفضيلة من الرذيلة والخير من الشر... ومنها النظم الدينية التى تتعلق بالعقائد وفهم المقدس وما وراء الطبيعة... ومنها النظم اللغوية التى تتعلق بطريقة التفاهم بين أفراد المجتمع... ومنها النظم الجمالية التى يترسمها المجتمع فى شئون الجمال ومظاهر الفن من أدب وشعر وموسيقى وغناء...»[2].

وإذا نظرنا إلى هذه الظاهرات من ناحية علاقتها بالتفكير والعمل تبين لنا: «أنها تنقسم إلى قسمين: أحدهما يتمثل فى قواعد تشرف على التفكير الإنسانى... كالقاعدة

---

(١) انظر: ابن خلدون. المقدمة جـ١ ص١٨٤. يذكر محقق الكتاب د. على عبد الواحد وافى أن ابن خلدون لم يحاول أن يعرف هذه الظواهر، أو يبين خصائصها، ويميزها عما عداها من الظواهر على النحو الذى عنى به بعض المحدثين من علماء الاجتماع كالعلامة دور كايم فى كتابه قواعد المنهج الاجتماعى، وإنما اكتفى بالتمثيل لها فى فاتحة المقدمة ص١٨٤. ثم يقول: «والظواهر الاجتماعية فى تعريفها المجمل عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التى يتخذها أفراد مجتمع ما أساسًا لتنظيم شئونهم الجمعية، وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض، والتى تربطهم بغيرهم» السابق جـ١ ص١٨٥.

(٢) السابق: جـ١ ص١٨٥-١٨٦.

الخلقية التى توجب على الفرد أن يعتقد أن الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة. والقسم الآخر ويتمثل فى قواعد تشرف على العمل الإنسانى، كالقاعدة التى توجب على من يريد الزواج أن يتعاقد فى صورة خاصة مع الطرف الآخر الذى يريد الاقتران به»[1].

وتنقسم هذه الظاهرات أيضًا إلى قسمين إذا نظرنا إليها من ناحية استقرارها وتطورها «أحدهما يتمثل فى نظم ثبتت واستقرت، وأصبحت جزءًا من شريعة المجتمع، كالنظم العائلية والسياسية والقضائية والدينية والخلقية التى يسير عليها المجتمع بالفعل. ويتمثل الآخر فى تيارات تطورية لم تستقر بعد، ولكنها تشق طريقها نحو الثبات والاستقرار. وذلك أن الظواهر الاجتماعية من سننها التطور والتغير، فهى تختلف باختلاف المجتمعات ومقتضيات الحياة، وتختلف فى المجتمع الواحد باختلاف عصوره»[2].

ولا شك أن هناك كثيرًا من «الظاهرات الاجتماعية» التى يحفل بها كتاب «الأغانى»، بعضها عريق فى المجتمع العربى «كالعصبية» مثلًا، التى توارت حينًا بظهور الإسلام، ثم أطلت برأسها مرة أخرى فى العصر الأموى لعوامل ساعدت على عودتها وانتشارها. بالإضافة إلى أن هناك ظاهرات طرأت على المجتمع الإسلامى، وأتيح لها من العوامل ما أذكى أوارها «كالشعوبية» مثلًا فى العصر العباسى؛ وبعضها كان طارئًا دفعت به رياح التغيير والتطور فذاع وانتشر كظاهرة «الغناء»؛ ورصد هذا وغيره مما يحويه «الأغانى» يوفر للبحث مادة خصبة إن شاء الله.

* * *

---

(١) السابق: نفس الصفحة.

(٢) السابق: نفس الصفحة.

الباب الأول

الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

عناصر السكان وطبقات المجتمع

عناصر السكان فى جزيرة العرب

عرفت بلاد العرب عند مؤرخى العرب وجغرافييهم باسم «جزيرة العرب» على الرغم من أنها ليست جزيرة، وإنما شبه جزيرة. ولعل ذلك لإحاطة الأنهار والبحار بها من معظم أقطارها، حتى أضحت مثل جزيرة من جزائر البحر[1].

وتختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها الجغرافية؛ فباستثناء بعض الجبال والهضاب المحاذية للساحل الغربى التى تشكل العمود الفقرى للجزيرة جمعاء، فإن القسم الأكبر منها بادية تتخللها واحات أو أغوار تتجمع فيها مياه الأمطار، أو تتسرب فى الأرض. أما الوديان فقليلة، وتقع فى أطراف الجزيرة[2].

وقد انعكست هذه الطبيعة الجغرافية على مناخ الجزيرة العربية، إذ أصبحت من أشد البلاد جفافًا وحرًا، وعلى الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب، فإن مساحة هذين البحرين أضيق من أن تكفى لكسر حدة الجفاف المستمر فى هذه الأقاليم العديمة المطر[3].

ولا شك أن هذه الطبيعة قد انعكست على الحياة فى شبه الجزيرة العربية فى ظواهرها البشرية، والنباتية والحيوانية، وكانت سببًا فى وجود نوعين من السكان: أولهما البدو،

---

(١) انظر: ياقوت: معجم البلدان، المجلد الثانى، مادة جزيرة العرب ص١٣٧. ود. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية سنة ١٩٩٧م، ص٦٤. هذا؛ ويذكر المؤلف أن هذه التسمية مجازية؛ فالعرب كانوا يسمون شبه الجزيرة جزيرة؛ فهم يسمون شبه جزيرة أيبيريا جزيرة الأندلس، ويسمون ما بين النهرين فى العراق بجزيرة أقور.

(٢) انظر: د. السيد عبد العزيز سالم السابق ص٦٥، وفيليب حتى، تاريخ العرب، ترجمة: إدوارد جرجى، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ط١٠، ٢٠٠٠م، ص٤١.

(٣) انظر: فيليب حتى، السابق ص٤٣.

ويعرفون أيضًا باسم الأعراب، ويسكنون البادية، وهم أهل الوبر. والنوع الثانى الحضر، ويسكنون فى القرى والمدن، ويشتغلون بالزراعة أو التجارة أو الصناعة وهم أهل المدر[1].

وتختلف طبيعة حياة البدو عن حياة الحضر؛ فحياة البدو غير مستقرة، تقوم على التنقل والتَّرحال جريًا وراء الكلأ، وتتبعًا لمساقط الغيث، وتعتمد - فى المقام الأول - على رعى الماشية، وهم لا يفضلون شيئًا على حياتهم الرعوية البدوية؛ ومن ثم كانوا يزدرون الزراعة والصناعة ويحتقرونها؛ إذ كانت حياتهم تقوم على البساطة والحرية التى لا تحد وإن حفت بالمخاطر سواء تمثل ذلك فى طبيعة الصحراء القاسية الجافة الوعرة الغليظة، أم تمثل فى حياتهم الحربية الدامية القائمة على الإغارة والغزو؛ فقد كان العرب يتربص بعضهم ببعض، ومن ثم لا يكاد يكون هناك حىّ أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واترة أو موتورة[2].

أما حياة الحضر فكانت مستقرة، تعتمد فى كثير من جوانبها على الاشتغال بالزراعة والتجارة. وقد أسسوا قبل الإسلام ممالك ذات مدنية مثل الحِمْيَرِيِّين فى اليمن، والغساسنة فى الشام، واللَّخْميين فى العراق. ومن الثابت أن الزراعة عُرفت فى الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل: يثرب، وخيبر، والطائف ووادى القرى، وعاش أهل مكة على التجارة؛ إذ كانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالًا وجنوبًا فى طرق معلومة(٣)،

---

(١) يفرق أهل اللغة بين لفظتى «عرب» و «أعراب»؛ والمتفق عليه أن «العرب» هم سكان المدن والقرى، والأعراب: هم سكان البادية. ولكن ابن خلدون يستخدم لفظ «عرب» بمعنى «الأعراب» أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بالرعى، ويتخذون الخيام مساكن لهم، ويظعنون من مكان إلى آخر حسب مقتضيات حياتهم وحاجات أنعامهم التى يتوقف معاشهم عليها؛ وهم المقابلون لأهل الحضر وسكان الأمصار؛ كما تدل على ذلك الحقائق نفسها التى عرضها ابن خلدون فى الفصول التى وردت فيها الكلمة. راجع ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، جـ٢ ص٤٦٩.

(٢) انظر: د. شوقى ضيف، العصر الجاهلى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٧٧-٧٨.

(٣) كان فى جزيرة العرب طريقان عظيمان للتجارة بين الشام والمحيط الهندى: أحدهما يسير شمالًا من حضر موت إلى البحرين على الخليج الفارسى، ومن ثم إلى صور، والثانى يبدأ من حضر موت أيضًا، ويسير محاذيًا للبحر الأحمر متجنبًا صحراء نجد وهجيرها ومتجنبًا هضاب الشاطئ ووعورتها، وعلى هذا الطريق الأخير تقع مكة فى المنتصف تقريبًا بين اليمن وبطرة. أحمد أمين: فجر الإسلام، السابق، ص١٢.

وكان يصحب هذه القوافل الخفراء، وهم حراس القوافل من العرب حتى لا يتعرض لها أحدٌ بالسلب والنهب. ولعل مما يدعم ذلك ما ورد فى كتاب الأغانى - فى معرض حديثه عن يوم الصفقة[1] - من أن باذَام عامل كسرى باليمن بعث إلى كسرى عيرًا تحمل ثيابًا من ثياب اليمن، ومسكًا وعنبرًا، وخُرْجين فيهما مناطق محلاّة، وخفراء تلك العير فيما يزعم بعض الناس بنو الجُعَيد المراديّون، فساروا من اليمن لا يعرض لهم أحدٌ، حتى إذا كانوا بحَمَضَ من بلاد بنى حنظلة بن يربوع وغيرهم أغاروا عليها[2].

ويلاحظ عدم وجود فروق اجتماعية تذكر بين البدو والحضر؛ فالحد الذى يفصل بين فئات العرب الرحل، وبين فئاتها الأخرى التى استقر بها المكان، واطمأن بها المقام ليس واضحًا دائمًا؛ «لأن مراتب التطور تدريجية، تبدو فيها الجماعات تارة نصف بدوية، وأخرى نصف حضرية»[3]؛ ولأن هؤلاء البدو صهرتهم حياتهم بظروفهم القاسية، وكونت لهم مجموعة من الخصال تأصلت فيهم، ووجهتهم فى حياتهم أنَّى حلُّوا وأين ارتحلوا. والدراسات التى تتناول حياة العرب بعد الإسلام تتحدث عن احتفاظ العرب ببداوتهم، وحرصهم عليها، حتى بعد أن نزلوا الأمصار والمدن؛ فقبيلة الفرزدق - مثلًا - وهى قبيلة شريفة نزلت أرض البصرة زمن تأسيسها سنة ١٤هـ[4] - ظلت على

---

(١) يوم الصفقة: هو اليوم الذى انتصر فيه هوذة بن على الحنفى على بنى تميم بعد أن توَّجَهُ كسرى، وضمَّ إليه جيشًا من الأساورة. انظر: الأغانى، جـ١٧، ص٣١٧ وما بعدها.

(٢) انظر: الأغانى، جـ١٧، ص٣١٨. ويذكر كتاب الأغانى فى رواية أخرى أن «كسرى بعث إلى عامله بعير، وكان باذام على الجيش الذى بعثه كسرى إلى اليمن، وكانت العير تحمل نبعًا فكانت تُبَذْرق (تخفر) من المدائن حتى تدفع إلى النعمان، ويُبَذْرقها النعمان بخفراء من بنى ربيعة ومُضر حتى يدفعها إلى هَوْذة بن على الحنفى، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة، ثم تُدفع إلى سعد، وتجعل لهم جِعَالة، فتسير فيها، فيدفعونها إلى عُمال باذام باليمن». الأغانى جـ١٧، ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) فيليب حتى: السابق، ص٥١.

(٤) يقال: إن تمصير «البصرة» كان فى سنة أربع عشرة من الهجرة قبل الكوفة بستة أشهر فى عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كتب عتبة بن غزوان إليه يستأذنه فى تمصيرها، لأنه لابد للمسلمين من منزل يجتمعون فيه وقت الشتاء، ويلجأون إليه إذا رجعوا من غزوهم. فكتب عمر إليه: أن يختار منزلًا قريبًا من المراعى والماء وطلب منه أن يكتب إليه بصفته. انظر ياقوت: معجم البلدان. مجلد ٣ ص٤٣٠. ويذكر الطبرى أن البصرة مُصِّرت سنة أربع عشرة للهجرة على يد عتبة بن غزوان. انظر: تاريخ الطبرى، السابق، جـ٣، ص٥٩٠. ويذكر ابن قتيبة أن أول من مصر البصرة (عتبة بن غزوان)، وقد اختطها سنة أربع عشرة انظر: المعارف، حققه وقدم له: د. ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٦، ١٩٩٢م ص٥٦٣.

بداوتها، تنتشر من أرض العراق الأسفل إلى نجد وأطراف اليمامة[١].

ولعل أهم ظاهرة كان لها أثرها الكبير فى حياة العرب «سلبيًا وإيجابيًا»، بدوًا كانوا أم حضرًا، تمثلت فى (العصبية) التى أسهمت عوامل كثيرة فى إيجادها.

العصبية

تحدث ابن خلدون فى مقدمته حديثًا مسهبًا عن العصبية، وشرح كيف تتضح العصبية بصفة خاصة بين أهل البدو الذين يعيشون فى بيئة محفوفة بالأخطار، يحتاجون فيها إلى الحماية؛ ومن ثم اشتدت حاجتهم إلى العصبية التى توفر لهم هذه الحماية[٢]. وهناك عصبية تقوم على النسب المشترك، «إذ نُعرة[٣] كل أحد على نسبه وعصبيته أهم، وما جعله الله فى قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوى أرحامهم وأقربائهم موجودة فى الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر[٤]...».

وهناك نوع آخر من العصبية تحدث عنه ابن خلدون أيضًا، يقوم على الولاء والحِلْف، فاللُّحمة الحاصلة من الولاء تقترب من لُحمة النسب[٥].

وهذان الجانبان اللذان يشكلان العصب الأساسىّ «للعصبية» القبلية يمثلان المحور الذى تدور عليه دراسة كثير من جوانب الحياة العربية فى حقبة طويلة من تاريخها ربما امتدت إلى نهاية العصر الأموى. يدعم هذا ما يذكره بعض الباحثين من أن الناظر فى تاريخ أمتنا العربية منذ فجر حياتها فى العصر الجاهلى، يوم كانت تعيش قبائل متفرقة، لا تنتظمها وحدة، ولا تؤلف بينها عقيدة دينية، ثم يساير التاريخ بعد أن استظلت بظل الإسلام، وفاءت إلى عقيدة التوحيد، ويمضى قدمًا، وقد توالت عليها الأحداث، وتوزعتها الأهواء السياسية، والشيع الدينية فى عصر بنى أمية ثم يقف موقف المؤرخ

---

(١) انظر: د. محمد حمّود: الفرزدق، دار الفكر اللبنانى ط١، بيروت ١٩٩١م، ص٨.
(٢) انظر ابن خلدون: المقدمة. جـ٢ ص٤٨٢.
(٣) النُّعرَة والنُّعار بالضم فيهما، والنعير: الصراخ والصياح فى حرب أو شر كما فى القاموس. والمقصود بها هنا التعصب لذوى الأرحام ونجدتهم والحدب عليهم. السابق جـ٢ ص٤٨٣.
(٤) نفس المصدر والصفحة.
(٥) انظر: السابق ص٤٨٥.

المحقق، الذى ينقب عما وراء الأحداث - ليدهش حين يقف على ما كان للعصبية القبيلة من آثار قوية بعيدة المدى فى حياة الأمة العربية إبّان تلك الحقبة من تاريخها. وهذه الآثار لم تكن وقفًا على الحياة السياسية وحدها، وإنما امتدت لتشمل الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية[1].

وفيما يتصل بالجانب الأول، المتمثّل فى قيام «العصبية» أقوى ما تكون على « الالتحام بالنسب» - والنسب هنا حقيقى يقوم على رابطة «الأبوة» أو الأمومة» أى الانتساب إلى أب واحد أو أم واحدة - يُلاحظ أنه كلما كان هذا النسب قريبًا قويت «العصبية»، وتجلّت بصورة واضحة كما تبدو لنا فى ارتباطها بالعشيرة، بوصفها أصغر وحدات القبيلة، حتى نصل إليها فى ارتباطها بالقبيلة؛ ومن هنا كل قبيلة «تؤمن بنسبها، وتعتز به، وبأنها تعود إلى أصل واحد؛ فهى من دم واحد، ولحم واحد. ومن أجل ذلك عبَّروا عن القرابة باللحمة، كما عبَّروا عن عشائرهم وفروعهم بالبطن والفخذ»[2].

والواقع أن عناية العرب بأنسابها، بوصفها اللبنة الأولى فى العصبيات لمن الوضوح والشهرة بحيث لا تحتاج إلى بيان أو برهان؛ ويكفى أنها تبلورت لتشكل علمًا واسعًا عندهم هو ما يعرف «بعلم الأنساب»؛ بل إننا لا نكاد نعرف أمة من الأمم عنيت بأنسابها عناية العرب بها؛ ولعل فيما تورده المصادر من المؤلفات التى تتناول أنساب العرب، وتترجم لمشاهير علماء النسب ما يدعم ذلك[3].

هذا؛ وقد تركت «العصبية القبلية» آثارًا بعيدة المدى فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية عند العرب، وسنتوقف - فيما بعد - عند أشهرها، ولكن يهمنا فى هذا المقام أن نؤكد على أن شدة عناية النسابين بالأنساب، وما ترتب على ذلك من نشأة علم النسب، تمثل أبرز مظاهر هذه العصبية[4].

ويُرجع النسابون العرب القبائل العربية، التى لم تمتد إليها يد الفناء إلى أصلين

---

(١) انظر: د. إحسان النص، العصبية القبيلة وأثرها فى الشعر الأموى، دار الفكر، بيروت، ط٢ ١٩٧٣م، ص٥. وانظر أيضًا: د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص٣٦٠.

(٢) د. شوقى ضيف: العصر الجاهلى (السابق) ص٥٧.

(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ ابن النديم: الفهرست، المقالة الثالثة «فى أخبار الأخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث والآداب»، ص١٤٢ وما بعدها.

(٤) انظر: د. إحسان النص: السابق ص١٣-١٤.

كبيرين: أصل قحطانى (عرب الجنوب)، وآخر عدنانى (عرب الشمال)[١].

وكلٌّ من هذين الأصلين ينقسم إلى قبائل وعشائر وبطون وأفخاذ، وهناك اختلاف شديد بين علماء النسب فى تعيين القبائل المتفرعة من هذين الأصلين[٢].

ومن الملاحظ أن الأنساب العربية تعتمد أساسًا على رابطة الأُبوّة؛ فلكل قبيلة أب تنحدر منه، ثم يتوالى أبناؤه الذكور وأحفاده من بعده، وبهم يقوم عمود النسب فى هذه القبيلة. وقد تكون هذه القبيلة نواة لقبائل أخرى تتفرع عنها، وتتوالد منقسمة إلى عشائر وبطون[٣].

ومن ثم استقر تعريف القبيلة عند علماء اللغة والأنساب على أنها: الجماعة المنتمية إلى أب واحد[٤]؛ لا يشذ عن هذا إلا طائفة من القبائل لا ترجع إلى أب واحد، وإنما اتخذت أسماءها من مناسبات خاصة، كالذى ذكروه فى تسمية قبائل تنوخ وغسان مثلا[٥]؛ وكذلك بعض القبائل التى كانت تسمَّى باسم الأم كبجيلة، أو بلقبها كخِنْدِف؛ بل ربما نسبت القبيلة إلى الحاضنة، كقبيلة باهلة مثلًا؛ إذ يذكرون أن باهلة كانت امرأة حضنت أبناء معْن بن أعْصُر فنُسبوا إليها، ومِثْلُهَا عَكْل[٦].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هناك عوامل كثيرة عقّدت وشائج القربى فى الأنساب،

---

(١) تقوم نظرية العرب فى الأنساب على انقسام العرب إلى ما يعرف بـ «العرب العاربة»، و«العرب المستعربة»؛ فالعرب العاربة «عاد، وعَبيل، وجُرْهم، وجديس، وطسم، وعمليق، وثمود». ويقال إن أول من تكلم بالعربية يعرُب بن قحطان. ويطلق على العرب «العاربة» «البائدة» وهم الطبقة الأولى من العرب التى بادت وانقرضت، ومنها قبائل عاد وثمود وطسْم وجديس وجرهم وعمليق السابقة. أما العرب المستعربة فهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، الذى أتى مكة، وعمره أقل من عشرين سنة، وأصهر إلى قبيلة جُرهم التى كانت تنزل مكة، وتعلم لغتها العربية، ونسى لغة أبيه العبرانية، فسمِّى أبناؤه لذلك بالعرب المستعربة، وهم الذين يعرفون بالعدنانيين. انظر: البلاذرى، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، ط٢ ١٩٨٧م، جـ١ ص٣-٦.

(٢) انظر د. إحسان النص، السابق، ص١٦.

(٣) انظر: السابق: نفس الصفحة.

(٤) انظر: القاموس المحيط، مادة «قبل».

(٥) سميت قبائل تنوخ بهذا الاسم، لأنها تحالفت على التنوخ أى الإقامة؛ وقبيلة غسان سميت بذلك لشربها من ماء بهذا الاسم. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٣٣١. وأيضًا: لسان العرب لابن منظور مادة (تنخ).

(٦) انظر: د. إحسان النص، السابق ص١٧.

كالمصاهرات التى حدثت بين مختلف قبائل العرب منذ أقدم العصور، وأدّت إلى تعقّد الصلات بين كثير من القبائل والبطون من جهة الأم[1]؛ وكالتحاق قبيلة بأخرى، واندماجها فيها لأسباب ودواع شتى. وهى حينئذ تقطع صلتها بنسبها الأول، وتُلحق بنسب القبيلة التى اندمجت بها، وتغدو بمثابة بطن من بطونها. وفى كتب النسب أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة، التى كان من شأنها اختلاط أنساب طائفة من القبائل، واضطرابُ موقف النسابين منها[2].

ويلفت نظرنا عناية أبى الفرج الواضحة بالأنساب، وإيراد الاختلاف فيها إن وجد، وترجيح بعض الروايات على بعض، لأدلة يسوقها لذلك. ومن شواهد ذلك ما يورده فى معرض بعض الأسماء، التى قد يظن من يطلع عليها أنها أسماء رجال على حين أنها أسماء نساء (أمهات أو حاضنات) انتسبت القبيلة إليها؛ «فالنابغة الجعدى» يذكر عنه أنه «حِبّان بن قيس بن عبد الله...» إلى أن ينتهى إلى: «ابن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مُضَر». ثم يذكر روايات أخرى متعلقة بهذا منها: «أن ابن الكلبى ذكر عن أبيه أن (خصفة) الذى يقول الناس: إنه قيس بن عيلان ليس كما قالوا، وأن عكرمة بن قيس بن عيلان، وخصفة أمه، وهى امرأة من هجر وقيل: بل هى حاضنته. وكان قيس بن عيلان قد مات وعكرمة صغير فربته حتى كبر، وكان قومه يقولون: هذا عكرمة بن خصفة، فبقيت عليه، ومن لا يعلم يقول: «عكرمة بن خصفة بن قيس. وهذا أيضًا ينطبق على خندف[3]، وإنما هى امرأة وزوجها إلياس بن مضر»[4].

ورغم أن بعض المستشرقين يشككون فيما ساقه رواة الأخبار والأنساب من هذا التقسيم على أساس أنه ظهر بعد الإسلام نتيجة التنافس بين مكة التى نسب العرب فيها إلى عدنان، والمدينة التى نسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان (وقد بلغ بهم

---

(١) انظر: السابق، نفس المرجع والصفحة.

(٢) انظر: السابق، ص١٨.

(٣) خندف (كزبْرج) هى: ليلى بنت حلوان بن عمران، زوج إلياس بن مضر. خرجت مرة تسرع، فقال لها إلياس: أين تخندفين؟ فقالت: ما زلت أخندف فى أثركم، فلقبوها «خندف»، فذهب لها اسما ولولدها نسبًا، وسميت بها القبيلة. اللسان مادة (خندف).

(٤) الأغانى: جـ٥ ص١-٢.

الشك مبلغًا جعلهم ينكرون أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال)[١] - رغم ذلك فإن هناك عددًا من الدراسات الجادة لم تجد وجهًا لهذا الشك، وقدمت من الأدلة العلمية ما يدعم نظرية الأنساب العربية، وفى مقدمة هذه الأدلة ذلك الموروث الضخم من الشعر الجاهلى، الذى يضم من بين أغراضه الفخر العالى بالقحطانية والعدنانية. ومن يتأمله يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد، وأم واحدة[٢].

ولا ينسى العربى أن يعتد بهذه النزعة، وأن يبرزها فى معرض التفاخر بالأرومة الطيبة، التى تسامق غيرها، إذا ما عُدَّ الحسب والنسب الأصيل. ففى مجلس من مجالس عمرو بن الحارث الأعرج[٣]- وكان يضم النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت، وعلقمة ابـن عَبَدة، أثنـى النابغـة عـلى عمـرو بـن الحارث بثناء مسجوع، وفى ختامه يقول: «... فإنك من أشراف قحطان، وأنا من سَرَاوت[٤] عدنان»[٥].

وحين اضطُر الرسول ﷺ إلى أن يرد على المشركين - بعد أن هاجر ﷺ، وكان يهجوه إذ ذاك ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزِّبَعْرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص - بمثل أسلحتهم، قال للأنصار: «ما منع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم»؟! فقال حسان بن ثابت: أنا لها... قال له (ﷺ): «اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك»[٦].

وفى رواية أخرى قال: «يا حسّان فأْتِ أبا بكر، فإنه أعلم بأنساب القوم منك؛ فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله ، فقال: كفَّ عن فلانة واذكر فلانة»[٧].

---

(١) راجع فى ذلك: د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره ط٢، ١٩٩٣م، جـ١ ص٤٨١. وأيضًا: د. شوقى ضيف، العصر الجاهلى ص٥٥.

(٢) انظر: د. شوقى ضيف: السابق ص٥٥، ود. إحسان النص، السابق ص٢١.

(٣) من أمراء الغساسنة وهو ابن الحارث بن جبلة المعروف بالحارث بن أبى شَمِر.

(٤) سَرَوات القوم: سادتهم ورؤساؤهم.

(٥) الأغانى: جـ١٥ ص١٦١.

(٦) انظر: الأغانى، جـ٤، ص١٣٧، ١٣٨.

(٧) السابق: جـ٤، ص١٣٩.

فلولا اعتزاز العرب الشديد بهذه الأنساب، وتعصبهم لها، ومعرفة الرسول ﷺ بقيمتها عندهم، وما يتركه هجاء حسان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من أثر بالغ فيهم، ما لجأ إلى هذا النوع من الأسلحة، وما طلب من حسان أن يذهب إلى أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ليحدثه بحديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ومن ثم كان حسان وكعب بن مالك يعارضان المشركين بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيِّرانهم بالمثالب، فكان فى ذلك الزمان أشدُّ القول عليهم قول حسان وكعب[1].

ثم إنه من الثابت أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة، وخاصة بعد سيل العرم، وانهيار سد مأرب؛ إذ سارت القبائل من أهل مأرب ونزلوا على بنى جرهم، الذين رفضوا أن يستضيفوهم، فحاربوهم بقيادة عمرو بن ثعلبة، وطردوا جرهما[2]. ومما يؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعًا وشعبًا مختلفة فى الجزيرة العربية؛ فكندة التى هاجرت إلى الشمال، وأسست لها مملكة أو إمارة فى شمال نجد، كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم فى حضر موت حين ظهور الإسلام. ولهذا دلالته فى أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعتريها الشك. وهاجرت تنوخ إلى البحرين، ثم استقرت فى جنوبى العراق، حيث أسست أهم عشائرها - وهى لخم - دولة المناذرة فى الحيرة. وهاجرت قبائل أخرى إلى شمال الحجاز، وانتشرت فى بادية الشام، وأهمها قضاعة وبهراء وجهينة وبلىّ. كما هاجرت أيضًا خُزاعة، وكانت مستقرة قبيل الإسلام فى منطقة مكة، وبجيلة، وكانت تنزل جنوبى الطائف[3].

وفى المقابل يوجد قسم عدنانى مضرى، ومن أهم قبائله: قريش فى مكة، وثقيف فى الطائف، وعبد القيس فى البحرين، وبنو حنيفة فى اليمامة، وتميم وضبة فى صحراء الدهناء، وبكر بعشائرها التى تمتد من الشمال الشرقى للجزيرة إلى اليمامة والبحرين؛ ثم تغلب وكانت تتوغّل أكثر من بكر فى شمالى الجزيرة صوب الشرق، وكان يجاورها بنو

---

(١) السابق جـ٤ ص١٣٨. هذا؛ وكان عبد الله بن رواحة يعير المشركين بالكفر، فكان قوله فى ذلك الزمان أهون عليهم من قول حسان وكعب؛ فلما أسلموا وفقهوا الإسلام، كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة. انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: الأغانى، جـ١٥ ص١٥-١٧.

(٣) انظر: د. إحسان النص، السابق، ص١٨-١٩.

النمر. ومن هذه القبائل العدنانية أيضًا كنانة وهُذيل بالقرب من مكة، وقيس عيلان فى نجد، وأهم قبائلها هوازن وسليم، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد، وغطفان وفرعاها الكبيران عبس وذُبْيان[1].

هذه الأنساب - التى ذكرناها بإجمال - كان يعتدُّ بها العرب فى الجاهلية اعتدادًا شديدًا، وعنهم ورثها أبناؤهم فى الإسلام، وظلوا مؤمنين بها، «فتكتلوا على أساسها فى مجموعتين كبيرتين: مجموعة قحطانية يمنية، ومجموعة مضرية عدنانية، وكان التنافس شديدًا بين الطرفين، وكثيرًا ما جرَّ إلى منازعات فى الكوفة والبصرة، كما جرّ إلى حروب فى الجيوش المقاتلة فى أقصى الشرق بخراسان، وفى أقصى الغرب بالأندلس؛ فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية، وسرعان ما تنشب بين الفريقين معارك دامية»[2].

بقى أن نذكر أن هناك طائفة من هذه القبائل استقرت فى مواطن بعينها لظروف ساعدت على ذلك، وتكونت منها الإمارات أو الممالك العربية المشهورة: مملكة الغساسنة، ومملكة المناذرة أو اللخميين، ومملكة كندة. هذه الإمارات كان لها علاقات قوية بدولتى الفرس والروم، ومن ثم فقد انعكس هذا على حياة العرب فى تلك البلاد.

الغساسنة

يرجع الغساسنة إلى أصل يمنى؛ فهم من الأزد من عرب الجنوب، الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة إثر انكسار سدّ مأرب. وقد ذهب بعضهم إلى الشام، وأقاموا على ماء هناك يقال له «غسان»، فنسبوا إليه[3]. ويقال: إنهم أول نزولهم بالشام

---

(١) انظر: د. شوقى ضيف، السابق ص٥٦-٥٧.

(٢) السابق نفس الصفحة. هذا، وقد سبق أن أشرت إلى الآثار القوية البعيدة المدى للعصبية القبلية فى حياة الأمة العربية حتى العصر الأموى. انظر ص٣٩ من هذا الجزء من البحث.

(٣) يفسر المسعودى هذه النسبة بقوله: «وإنما غسّان ماء فشربوا منه، فسمُّوا بذلك». ويدعم هذا التفسير بيت من الشعر لحسان بن ثابت:

إمَّا سألتِ فإنا معشر نُجُب ... الأَزْد نسبتنا والماءُ غسانُ

المسعودى: مروج الذهب، مجلد ٢، ص١١٦.

وانظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، جـ٦، ص٣٣١؛ حيث يقول: «وشربوا كلهم من ماء غسان».

اصطدموا بعرب يسمّون (الضجاعمة)، تغلبوا عليهم، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التى حلّوا بها.

وتذهب الروايات التاريخية إلى أن «جفنة» هو جدّ أسرة الغساسنة. ويُعد الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة، وأعظمهم شأنًا. وينتهى نسبه إلى جفنة بن عمرو المعروف بمُزيقياء، وقد تولى مُلْك الغساسنة فى عهد الإمبراطور جستنيان الأول. وقد رفع الامبراطور الحارث إلى مرتبة الملوك، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب فى بلاد الشام، وكان هدفه من ذلك أن يقيم خصمًا قويًا فى وجه المنذر ملك الحيرة.

وعلاقة الغساسنة بالروم كعلاقة المناذرة بالفرس، يحكمها الصراع بين الامبراطوريتين من جانب، ودرْء غارات العرب على كلتيهما من جانب آخر، ومن ثم فقد «وجد الروم فى الغساسنة حلفاء يقاومون الفرس والعرب المغيرين على أطراف مملكتهم»[1]. وقد انعكس هذا على العلاقة بين الإمارتين العربيتين، واحتدام الصراع بينهما[2].

وعلى أية حال؛ فهناك جانبان مهمان يتصلان بدراستنا؛ ويتمثل الأول فى ذلك

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. دار الجيل بيروت، ونهضة مصر بالقاهرة. الطبعة ١٤ سنة ١٩٩٦م ص٣٨. هذا؛ ونشير - هنا - إلى أمرين: أحدهما: أن إغارة العرب على بلاد العجم. يبدو أنها ترتد إلى عصور فى الزمن الماضى البعيد؛ فأبو الفرج يروى فى «الأغانى» أن «حسان بن تُبّع» كان بعيد الهمة، شديد البطش، طوّافة فى البلاد. وحدث أن دخل إليه وجوه قومه - وهم الأقيال من حمير - فلما أخذوا مواضعهم، ابتدأهم فأنشدهم.

أيها الناس، إن رأيى يُرينى ... وهو الرأى - طوفةً فى البلاد

بالعوالى وبالقنابل تُردى ... بالبطاريق مشيـة العُـوَّاد

ثم قال لهم: استعدوا لذلك، فلم يراجعه أحد هيبة له، فلما كان بعد ثلاثة خرج، وتبعه الناس حتى وطئ أرض العجم. انظر: الأغانى: جـ٢٢، ص٣١٦ والأمر الآخر: أنه كثيرًا ما كان يحدث بين الإمارتين حروب بسبب النزاع على الأرض التى تتبع كلا منهما، ومن شواهد ذلك: الحرب التى دارت بين الحارث ابن أبى شمِر الجفنى والمنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب الصراع على الأراضى الممتدة على جانبى الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر؛ إذ ادعى أمير الحيرة أن القبائل النازلة فى تلك الأراضى خاضعة لسلطته، فنازعه الأمير الغسانى هذه السلطة، ونشبت الحرب بينهما، تخللتها أحداث كثيرة؛ إذ أسر المنذر أحد أبناء الحارث، ويقال إنه قُتل، فحلف الحارث ليقتلن من بنى الغوث أهل بيت على دم واحد. وانتهت الحرب بهزيمة المنذر وقتله فى يوم حليمة، وفيها جرى المثل: «ما يوم حليمة بسِّر». انظر: الأغانى: جـ١٧، ص٣٧٥، وابن قتيبة: المعارف (السابق) ص٦٤٢، ود. حسن إبراهيم: السابق، ص٣٩.

(٢) انظر - فيما يتصل بهذا الصراع - الهامش السابق.

الصراع الذى كان بين (الغساسنة) و(المناذرة) - وقد كان انعكاسًا للصراع بين الدولتين العظميين فى ذلك الوقت: (الفرس والروم)- وما جّر إلى ذلك من حروب كانت لها آثارها على الحياة العربية فى جوانبها المختلفة. ويتمثل الثانى فى تلك الحضارة التى نعمت بها هاتان الإمارتان، وما كان لذلك من أثر على العرب آنذاك.

وفى أخبار المتأخرين من الغساسنة ما يدل على أنهم كانوا على حظ كبير من الترف والنعيم[1].

المناذرة (دولة بنى لخم)

كان العرب منذ أقدم الأزمان يفدون إلى تخوم الجزيرة الشرقية فى أرض الرافدين، حتى إذا ما انتَهْوا إلى وادى الفرات أقاموا فى ربوعه. ويقال: إنه فى أوائل القرن الثالث الميلادى بدت طلائع جديدة منهم من قبائل (تنوخ) - وترجع فى أنسابها إلى أصل يمنى - فاتخذت لها مساكن فى المنطقة الخصيبة الواقعة إلى الغرب من الفرات[2].

وكان هؤلاء العرب ينزلون فى الخيام أولا، ثم ما لبث المخيم مع مرور الأيام أن أصبح قاعدة تعرف «بالحيرة»[3] ثم أصبحت الحيرة عاصمة بلاد العرب التى تخضع للفرس.

---

(١) لعل مما يدعم ذلك ما يورده حسان بن ثابت - وهو فى أخريات حياته بعد حضوره مأدبة من المآدب، وسماعه لغناء جاريتين هما: رائقة وعَزة الميلاء، وما تركاه فى نفسه من أثر، جعله يتذكر ما كان قد شاهده، واستمتع به من قبل مع جبلة بن الأيهم فى الجاهلية - إذ سئل: «أكان القيان يكنّ عند جبلة» ؟ فأجاب بأنه رأى عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة، وكان أهداهن إليه إياس بن قبيصة. وكان إذا جلس للشرب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب، وأوقد له العُود المندى إن كان شاتيا، وإن كان صائفا بطن بالثلج، وقد كان يرتدى هو وأصحابه فاخر الثياب صيفًا وشتاءً؛ وما جلس معه يومًا قط إلا خلع عليه ثيابه فى ذلك الوقت. انظر: الأغانى جـ١٧، ص١٦٦-١٦٧. وجبلة بن الأيهم هذا هو آخر أمراء الغساسنة، حسبما يذكر الأخباريون العرب، فقد أدرك الفتوح الإسلامية، وحارب فى صفوف الروم، ثم أسلم فى عهد عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - ووفد عليه، وخرج معه للحج، ثم غادر مكة إلى الشام بسبب حادثة مشهورة؛ ويقال إنه التف حوله خمسمائة رجل من قومه، حتى أتى القسطنطينية، فدخل على هرقل، فتنصر هو وقومه. انظر قصة هذه الواقعة: الأغانى جـ١٥ ص١٦٢-١٦٣.

(٢) انظر: فيليب حتى، السابق ص١١٩-١٢٠.

(٣) تقع إمارة الحيرة على بعد ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف، موطن الشيعة حتى اليوم؛ وكانت على أرض خصبة تمر بها فروع من نهر الفرات.

وقد تنصّر بعض التنوخيين فيما بعد وأقاموا فى شمال سورية[1]؛ ومن ثم فإن المصادر تذكر أن سكان الحيرة الأصليين كانوا نصارى من الكنيسة السريانية (السورية) الشرقية، ويسميهم مصنفو العرب: «العِباد»[2] ويُعد عمرو بن عدى المؤسس الحقيقى لدولة (بنى لخم)؛ إذ يقال: إنه أول من نزل من الملوك الحيرة، واتخذها دار مُلْك، وإليه تنسب الملوك النصرانية، وهم ملوك الحيرة[3].

أما ملوكهم الذين وصلتنا أسماؤهم فيزيدون عن العشرين. ومن أهمهم: النعمان الملقب بالأعور أو السائح[4]. وكان له جيش قوى

---

(١) انظر: فيليب حتى، السابق، نفس الصفحة.

(٢) يقول ابن الأثير فى: «اللباب فى تهذيب الأنساب»، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م جـ٢، ص٣١١: «... عِبَادُ الحيرة وهم عدة بطون من قبائل شتى، نزلوا الحيرة، وكانوا نصارى.. وكل من العباد ينسب إلى قبيلته، وكلهم يقال له: (عباد) «. وجاء فى لسان العرب لابن منظور، مادة (عبد) ما نصه: «والعبادُ قوم من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية، فأنِفُوا أن يتسموا بالعبيد، فقالوا: نحن العِباد. والنسب إليه عِبَادِىٌّ.. نزلوا بالحيرة. وقيل: هم العَباد بالفتح... وذكره الجوهرى: العَبادى بفتح العين. قال ابن برى: هذا غلط، بل مكسور العين. كذا قال ابن دريد وغيره. ومنه: عِدىّ بن زيد العِبَادى بكسر العين...».

(٣) انظر: المسعودى، مروج الذهب. المجلد الثانى ص٩٧، د. حسن إبراهيم، السابق ص٣٣.

(٤) ولعله الذى يشير إليه أبو الفرج بقوله: «وأما صاحب الخورنق فهو النعمان بن الشقيقة، وهو الذى ساح على وجهه فلم يعرف له خبر»، الأغانى، جـ٢، ص١٤٤.

يتألف من كتيبتين، هما: الشهباء، والدَّوْسر[1]. واشتهر ببنائه قصْرى: الخورْنق[2] والسدير[3].

ومما له دلالته فى عمق العلاقة بينه وبين الملك الساسانى الذى كان يعاصره وهو يزدجرد الأول أن يزدجرد هذا أرسل ابنا له (وهو بهرام جور) لينشأ فى قومه، فى منزل مرىء صحيح من الأدواء والأسقام، وأنه لما توفى يزدجرد أراد الفرس إقصاءه (أى بهرام جور) عن العرش، فتدخل النعمان، وأيّده بجيش مكّنه من استرداد عرشه، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة[4].

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (قرابة ٥١٤-٥٥٤م). وعلى الرغم من

---

(١) يذكر أبو الفرج عن النعمان هذا بأن أمره قد عظم، وجعل معه كسرى كتيبتين: إحداهما (دَوْسَر) وهى لتنوخ، والأخرى (الشهباء) وهى للفرس وكانتا أيضا تسميان القبيلتين، وكان يغزو بهما بلاد الشام، وكل من لم يخضع له من العرب. انظر: الأغانى: جـ٢ ص١٤٦. وقد ورد بالهامش(١) نفس الصفحة عن «الدوسر» أنها كانت أخشن كتائب النعمان، وأشدها بطشًا، وكانت من كل القبائل العربية. وسميت «دَوْسَرًا» اشتقاقًا من الدسر، وهو الطعن بالثقل، لثقل وطأتها.

(٢) يعد «الخورنق» من معجزات الفن وبدائعه. وعن سبب بنائه يذكر أبو الفرج: أن يزدجرد ابن سابور لم يكن يبقى له ولد، فسأل عن منزل مرىء صحيح من الأسقام، فدُل على ظهر الحيرة، فطلب من النعمان بن الشقيقة - وكان عامله على أرض العرب - أن يبنى «الخورنق» مسكنًا له، ولابنه، وينزله إياه معه، وطلب إخراجه إلى بوادى العرب. ثم يذكر أن الذى بناه رجل يُدعى (سِنمار) ويروى بعض الروايات التى كانت سببًا فى مصرعه؛ منها أنه قال - بعد أن فرغ من بنائه، وقد تعجب الجميع من حسنه، وإتقان صنعته - «إنى لأعرف فى هذا القصر موضع عيب، إذا هُدم تداعى القصر أجمع، فقيل له: والله، إنك لن تدل عليه أحدًا، ثم رُمى به من أعلى القصر». وقد ذهبت قصة «سنمار» مثلا على من يفعل الخير فيجُزى به الشر. ومن ذلك قول سليط بن سعد:

جزى بنوه أبا الغِيلان عن كِبَرٍ   وحُسْنِ فعل كما يُجزى سنمارُ

انظر: السابق، جـ٢ ص١٤٤-١٤٥.

(٣) «السّدير»: قصر فى وسط البرية بين الحيرة والشام. معجم البلدان: جـ٢، ص٣٧٥.

(٤) انظر: د. شوقى ضيف، السابق ص٤٤.

بعض المحن التى واجهها أوائل حكمه[1] فإن الأمور ما لبثت أن استقرت له.

وخلَفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤-٥٦٩م)، وكان طاغية مستبدًا، وكان يلقب بالمحرّق[2] ويبدو أن سلطانه امتد ليشمل قبائل كثيرة فى إقليم نجد. وقد جعل الحيرة موئل الأدباء والشعراء؛ فأمّ مجلسه أعظم الشعراء المعاصرين له، من أمثال: طرفة بن العبد، والحارث بن حِلِّزة، وعمرو بن كلثوم التغلبى، الذى يقال عنه: إن ابن هند لقى مصرعه على يده؛ ثأرًا لكرامة أمه «ليلى» حين أهينت فى بيته[3].

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع، ولم تطل مدة حكمهما حتى نصل إلى النعمان الثالث بن المنذر الرابع، المكنَّى بأبى قابوس (٥٨٠-٦٠٢م)؛ حيث امتد سلطانه إلى البحرين وعمان، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة. وقد سار على سنة عمرو بن هند فى رعايته للشعراء، فوفد على بابه كثير من أمثال: أوس بن حجر، والمنخل اليشكرى، ولبيد، والمثقب العبدى، والنابغة الذبيانى، الذى اشتهر بمدحه له[4].

ونهاية النعمان هذا يشوبها الغموض[5]، وبانتهاء ملكه ضاعت صولة (لخْم)؛ فلم

---

(١) يقال: إن العلاقات ساءت بينه وبين ملك الفرس، فعزله ملك الفرس، وولّى مكانه الحارث بن عمرو ملك كندة، ولكن الظروف ما لبثت أن تغيرت بعد وفاة ملك الفرس، وإعادة المنذر إلى حكم الحيرة، ونشبت بينه وبين الحارث بن عمرو وأبنائه سلسلة حروب، قضت عليهم جميعا. انظر: فيليب حتى، السابق ص١٢٢. وانظر أيضا: د. شوقى ضيف، السابق ص٤٥. هذا؛ وكان يعاصر المنذر بن ماء السماء كسرى أنو شروان ملك الفرس وجستنيان إمبراطور الروم، والحارث بن أبى شمر الغسانى، وقد حدث نزاع بين الأميرين العربيين أدى إلى حروب انتهت بهزيمة المنذر. انظر هامش (١) ص٤٧-٤٨ من هذا الجزء من البحث.

(٢) سُمّى بذلك لأنه نكّل ببنى تميم، وحلف ليحرقنّ من بنى حنظلة مائة رجل، وبرّ بنذره فى يوم «أوارة» من ناحية البحرين؛ حيث أمر لهم بأخدود، فحفر لهم، ثم أضرمه نارا، فلما احتدمت وتلظّت، قذف بهم فيها فاحترقوا. انظر: الأغانى، جـ٢٢، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) انظر: الأغانى، جـ١١، ص٥٣-٥٤.

(٤) انظر: د. شوقى ضيف، السابق، ص٤٦.

(٥) يقال: إن النعمان هذا قتل عديَّ بن زيد، فضاق به كسرى الثانى ملك الفرس، واستدرجه إلى حاضرته بالمدائن، وألقى به فى غيابة سجن كان له بخانقين [بلدة من نواحى السواد فى طريق هَمَذان من بغداد]، فلم يزل فيه حتى وقع الطاعون هناك فمات. ويقال: إنه مات بساباط فى حبسه [ساباط: بليدة معروفة بما وراء النهر، على بعد عشرين فرسخًا من سمرقند، وقرب أشروسنة، ينسب إليها طائفة من أهل العلم]. ويذكر ابن الكلبى: أن النعمان ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات. وقد غضبت له العرب حينئذ، وكان قتله سبب وقعة ذى قار. انظر: الأغانى، جـ٢، ص١٢٠-١٢٨.

يولّ الفرس بعده أحدًا من هذا البيت، بل نصَّبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائى؛ ويقال: إنه كان إلى جانبه «مقيِّم» فارسىّ يشرف على مهام الحكومة[١]. واستمرت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد.

مكة وغيرها من مدن الحجاز

حظيت مكة بمكانة اجتماعية وتجارية ودينية لم تحظ بها غيرها من مدن الحجاز[٢]. ويقال إنه كان يسكنها فى غابر الأزمان قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة[٣]، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال. وما نكاد نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصى بن كلاب ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة[٤]. ويقال إنما سميت قريش «قريشًا» لاشتغالها بالتجارة[٥]؛ فقد اشتهرت بها، وذاع صيتها بين القبائل.

ويمكن القول بأن مكة كانت أهم مدينة عربية فى الجاهلية؛ إذ كانت مثابة للناس وأمنًا، وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة وهم: هاشم وأمية ومخزوم وعَدىّ وجمح وسهم وأسد ونوفل وزهرة، وكانوا أصحاب النفوذ فيها؛ ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم، وهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالى والعبيد، ويبدو أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة[٦].

---

(١) انظر: فيليب حتى، السابق، نفس الصفحة.

(٢) هناك عوامل ساعدت فى ذلك، منها: أنها كانت تقع فى منتصف الطريق المعبّد للقوافل بين اليمن والشام، كما توجد بها الكعبة التى يدين العرب بتعظيمها وتقديسها، بالإضافة إلى المكانة الأدبية بعد أن سادت لهجة قريش على غيرها من اللهجات. هذا؛ ومن المعروف أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولًا وما ردّوه كان مردودًا. انظر الأغانى: جـ٢١، ص٢٠١.

(٣) فى الأغانى: «وقد كانت العماليق بغت فى الحرم، فسلط الله ـ عز وجل ـ عليهم الذر، فأخرجهم منه ثم رموا بالجدب من خلفهم، حتى ردهم الله إلى مساقط رءوسهم، ثم أرسل عليهم الطوفان» جـ١٥، ص١٥.

(٤) انظر: البلاذرى: السابق، ص٥٠.

(٥) فى لسان العرب: «قيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة، ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم: فلان يتقرش المال: أى يجمعه». لسان العرب: مادة قرش.

(٦) انظر: د• جواد على، مرجع سابق، جـ٤ ص٢٦-٢٧. وانظر أيضا: د• شوقى ضيف، السابق، ص٥١.

الطائف

وإلى الجنوب الشرقى من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلًا تقع الطائف - على ارتفاع نحو ستة آلاف قدم، وهى طيبة الهواء، وقيل فى وصفها: إنها قطعة من أرض الشام، وكانت مصيفًا لسادة قريش، حيث يجدون فيها كل الثمرات، كما يجدون الخمر الصافية[١].

وكان أهل الطائف من قبيلة ثقيف، وهناك قصة تزعم أنهم من بقايا ثمود ولم تكن حياة الثقفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية فى شىء، اللهم إلا فى حياة الاستقرار التى أتاحتها لهم زروعهم وثمارهم[٢].

يثرب

ونلتقى بيثرب شمالى مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل، وقد عرفت فى الإسلام باسم المدينة؛ وهى تقوم فى وادٍ خصيب تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضًا وتكثر الآبار والعيون فى هذا الوادى كثرة جعلته يصبح واحة جميلة، حافلة بالنَّخيل والأشجار والزروع مع الجو المعتدل إلا فى بعض أوقات الصيف، حيث تشتد بها الحرارة[٣].

ويقال إن أول من سكن يثرب هم العمالقة، وظلوا بها حتى نزلها اليهود فى القرن الثانى الميلادى إثر اضطهاد الرومان لهم فى فلسطين، وذلك قبل ورود الأوس والخزرج إياها عند وقوع سيل العرم باليمن ومن هؤلاء: بنو قريظة، وبنو النضير وبنو قينقاع وغيرهم[٤].

ومن البينّ أنه كان لليهود السيطرة على يثرب حتى وفود قبائل الأوس والخزرج عليهم فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين، واتخذوا من العربية الشمالية لسانًا لهم، وكانوا

---

(١) انظر: فيليب حتى، السابق، ص١٥٠.
(٢) انظر: د. شوقى ضيف، السابق، ص٥٣.
(٣) انظر: الإصطخرى: المسالك والممالك: تحقيق: د. محمد جابر عبد الله، مراجعة: محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦١م، ص٢٣.
(٤) انظر: الأغانى، جـ٣، ص١١٦، وانظر أيضا: د. شوقى ضيف، السابق، نفس الصفحة.

وثنيين يحجون إلى الكعبة وأصنامها مثل بقية العرب، على حين ظل اليهود على دين آبائهم، واتخذ اليهود العربية لسانًا لهم فى حياتهم اليومية وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية فى طقوسهم الدينية[1].

ولم يكن الأوس والخزرج يعتمدون على التجارة مثل المكيين، وإنما كانوا يعتمدون على زروع بلدهم وثمارها[2]، بينما كان اليهود يشتغلون بالحرف والصناعات، وبخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة[3].

وهناك دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف فى شىء عن حياة البدو فى الخيام، فقد كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية، وكانت الحروب بينهم مستمرة وتثار لأتفه الأسباب، ويبدو أن اليهود كانوا من أكبر العوامل التى ساعدت على الوقيعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التى كانوا يستخدمونها فى تلك الحروب الدامية[4].

وقد استمرت تلك الحروب بينهم واشتد أوارها، إلى أن أدركهم الله برحمته ونزل بينهم الرسول - ﷺ - فأصبحوا بنعمة الله إخوانًا.

---

(١) انظر: الأغانى، جـ٣، ص١١٦.

(٢) انظر: أحمد إبراهيم الشريف، دولة الرسول فى المدينة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٢، ص٧٩.

(٣) انظر: ياسين غضبان: مدينة يثرب قبل الإسلام، دار البشير، مؤسسة الرسالة ط ١٩٩٣، ص١٢٩. حيث يذكر أن اليهود كانوا يتاجرون، ويزرعون، ويقرضون الأموال بالربا الفاحش للأعراب ويحترفون بعض الحرف مثل الصياغة، وهى حرفة اشتهروا بها منذ القديم، وقد اختص بها بنوقينقاع؛ ومن صناعاتهم: النسيج، وهو من اختصاص نسائهم فى الأغلب، والحدادة، وهى صناعة يأنف العرب منها ويزدرونها. وانظر أيضا الأغانى: جـ٢٢، ص١٠٧-١١٥. وفى ص١٠٩ منه أنه «كان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود».

(٤) والأمثلة كثيرة على تلك الحروب والأيام تند عن الحصر، انظر ـ على سبيل المثال ـ: «حرب سُمير»، إذ يقال إن الأوس والخزرج ظلوا متحاربين عشرين سنة بسبب «سمير» هذا، يتعاودون القتال فى تلك السنين. وكان «سمير» من بنى عمرو بن عوف - قد قتل حليفًا لمالك بن العجلان، يقال له «كعب الثعلبى»، وأراد بنو عمرو تجنبًا للقتال أن يدفعوا لمالك نصف الدية لأن القتيل حليف، فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سميرًا، فنشبت الحرب من جرّاء ذلك. انظر الأغانى: جـ٣، ص١٨-٢٦، وانظر أيضًا: «يوم بعاث»، و«بعاث» موضع فى نواحى المدينة كانت به وقائع بين الأوس والخزرج. انظر: الأغانى: جـ١٧، ص١١٨، وهامش (١) من جـ٣، ص٨.

وكان لليهود فى شمالى المدينة قرى خاصة بهم، أشهرها «خيبر وفدك وتيماء»، والمظنون أن هؤلاء اليهود نزلوا هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثانى الميلادى، واتخذوا العربية لسانًا، وعبروا بها عن عواطفهم فى صورة شعر يجرى على ألسنة نفر منهم، من أمثال السموأل بن عاديا وأخيه سعية وكانا شاعرين[1].

إن ما عرضناه فى الصفحات السابقة يبرز لنا أن كثيرًا من القبائل العربية قد نزحت من الجنوب إلى الشمال، واستقرت بالمناطق التى نزلوا بها، وأقاموا فيها؛ وأن هذه القبائل كانت من البدو الرحل الذين اضطرتهم ظروف الحياة آنذاك إلى التنقل والترحال طلبًا للكلأ ومنابع الماء، عدا بعض منهم الذين نعموا بحياة مستقرة كالمناذرة والغساسنة، وإن كانت حياتهم هذه لم تَخْلُ من صراع؛ ولم تخل كذلك من لون من التحضر ساعد عليه احتكاك العرب من المناذرة والغساسنة وغيرهم بسواهم من الفرس والروم. وقد لاحظنا أيضا أن مدن الحجاز - وبخاصة مكة - كان بها لون من الرواج التجارى والثقافى أحدث بها نوعًا من التحضر، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى الجزيرة العربية؛ كما أن استقرار اليهود بيثرب وقيامهم بالتجارة والصناعة أدى إلى نوع من الانتعاش الاقتصادى فى تلك المنطقة.

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: إلى أى مدى انعكس هذا كله فى التكوين الطبقى للمجتمع العربى فى هذا العصر ؟

طبقات المجتمع

استتبعت «العصبية» نوعًا من العقد الاجتماعى بين القبيلة وأفرادها؛ فالفرد عليه أن يشايع قبيلته فى كل أعمالها، رشَدًا كان ذاك أم غيًّا، يقول دُريد بن الصِّمّة:

أمرْتُهُمُ أمرى بمنعرج اللِّوى   فلم يسْتبينوا الرشْد إلا ضُحى الغد

---

(١) انظر: ترجمة صاحب الأغانى للسموأل بن عُريض بن عاديا ووفاته وصلته بامرئ القيس، وحصْنه المعروف بالأبلق بتيماء. الأغانى، جـ٢٢، ص١١٧-١٢١. وكذلك: ترجمته «السعية بن عُريض» - أخيه، السابق نفسه، ص١٢٢-١٢٤.

فلما عصوْنى كنت منهم وقد أرى غِوايتهم وأننى غيرُ مُهْتَد
وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غَوَت غَويْتُ، وإن ترشُد غزيَّةُ أَرشُد[1]

وكانت القبيلة تقابل هذا الصنيع بالمثل، فتدافع عن أفرادها فى الملمات والنائبات:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا[2]

والشواهد كثيرة تحفل بها المصادر، وفى مقدمتها «الأغانى»، ومن أمثلتها «حرب البسوس» التى هاجها جساس بقتله كليبًا، ورفض بعض بنى بكر بن وائل أن يسلموه للقصاص.

وكان على الفرد أيضًا أن يلحظ تقاليد قبيلته، وما تعارفوا عليه، فلا يخالف من ذلك شيئًا، ولا يخرج عن مألوف عاداتها. فإن فعل خلعته قبيلته، وطردته من حماها. وكانت أهم المخالفات التى يستحق مرتكبها مثل هذا الجزاء أن يقتل فردًا آخر من أفرادها، أو يستهين بتقاليدها، فلا يقيم لها وزنًا، أو يجرها إلى حروب مع القبائل الأخرى نتيجة لعدوانه ورعونته.

هذا؛ وقد أدى إيمان القبيلة بوحدة جنسها، وصفاء دمها إلى وجود ثلاث طبقات داخل القبيلة:

الطبقة الأولى: طبقة الصرحاء ذوى الدم النقى، الذين يرجعون إلى أصل واحد ونسب خالص، لا تشوبه شائبة. ومنهم تتكون الطبقة «الأرستقراطية» على حد تعبير الدكتور يوسف خليف، وفيهم رياسة القبيلة، وبيوتات الشرف[3]. «والشرف» يعتمد - فى المقام الأول - على النسب[4]، ومن هنا كان حرص هذه الطبقة على نقاء دمها،

---

(١) الأغانى: ج ١٠، ص ٨.
(٢) البيت لقريط بن أنيف. انظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقى، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل بيروت
(٣) انظر: د. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى، دار المعارف بمصر ١٩٥٩م، ص١٠٣.
(٤) انظر: ابن خلدون، المقدمة، مجلد ٢، الباب الثانى، ص٤٨٨-٤٩٣ الفصول ١١-١٣.

وعلى أن تجمع الشرف من «كلا طرفيه»: الآباء والأمهات، فلا يكون فيهم ما يشينه[1].

فالشريف[2] - هنا - السيد الماجد ذو الحسب والنسب والمعدن الكريم؛ حيث تؤهله هذه الصفات إلى أن يتبوأ منزلة فى قومه، وتكون له الكلمة المسموعة والرأى المطاع. وبحسب تمكّن من ينتسب إلى لتلك الطبقة من الشرف والسؤدد تكون منزلته فى قومه، وأحقيته بأن يتولى من عظائم الأمور ما يعجز عنه غيره ممن لم تتوفر فيه تلك الصفات.

وأشراف العرب من الكثرة بحيث يصعب حصرهم؛ ذلك أن جوانب الشرف متعددة، وأمارات السيادة متنوعة، وقد يتحقق بعض من هذه الأمارات والجوانب فى هذا الشريف أو ذاك، ولكنها إذا ما نظر إليها مجتمعة أبانت عن رؤية أشمل للحياة ونظرة أعمق لدور الإنسان فى تسيير دفتها وحركتها.

يروى أبو الفرج عن أبى عبيدة قوله: «حدثنى أبو عمرو بن العلاء أن العرب كانت تعد البيوتات المشهورة بالكِبَر والشرف من القبائل بعد بيت هاشم بن عبد مناف فى قريش ثلاثة بيوت، ومنهم من يقول أربعة، «أولُها بيت آل حذيفة بن بدر الفَزَارىّ بيت

---

(١) يقول معقل بن خويلد:

بنو فالج قومى وهم ولدوا أبى ... وخالى ثمالُ الضيف من آل فاتك

ثمال الضيف: أى يقوم بأمره. راجع: د. يوسف خليف، السابق: ص١٠٣ وما به من مصادر.

(٢) ورد فى كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذرى للدكتور محمد حميد الله (محقق الكتاب) ما يلى خاصًا بكلمة الأشراف: يطلق الشريف فى اللغة على الرجل الماجد، أو من كان كريم الآباء، ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت رسول الله شاملا العلويين والجعفريين بل والعباسيين أحيانًا. والتخصيص بآل البيت - وبخاصة نسل علىّ - لم يشتهر إلا فى القرن الرابع الهجرى، ويغلب أنه كان فى آخره. ويناقش ما أورده المرحوم أحمد تيمور فى كتابه «التذكرة» نقلا عن كتاب «مشاهد الصفا» من أن الشريف كان يطلق فى الصدر الأول على من كان من أهل البيت علويًا كان أو جعفريًا أو عباسيًا، ثم خصه الفاطميون بذرية الحسن والحسين - عليهما السلام - بأنه ضعيف الحجة؛ ذلك أن الشريف فى الصدر الأول لم يكن يقصد به إلا معنى «السيد والماجد»؛ وقصة جبلة بن الأيهم، وهو غسّانى، وتنصره فى أيام عمر معروفة، وقد ندم فقال:

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضَرَرْ

ثم يذكر أن البلاذرى لم يُرد بعنوان كتابه «أنساب الأشراف» أن يترجم لآل البيت؛ وذلك واضح مما اشتمل عليه الكتاب من تراجم وأنساب، وكذلك مما ألفه السابقون للبلاذرى؛ فالمدائنى من مؤلفاته: كتاب أشراف عبد القيس، وابن عبدة من مؤلفاته: كتاب أشراف بكر وتغلب. وأخيرًا، يورد رأى جوتين أن «الأشراف» يراد بها النبلاء والعرب الخلص، ومن كان يُفرض له فى بيت المال ألفا درهم. انظر: البلاذرى، أنساب الأشراف، جـ١ المقدمة ص٢٠-٢٢.

قيس، وبيت آل زُرارة بن عدَس الدّارميين بيتُ تميم، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله ابن همّام بيت شيبان، وبيت بنى الدّيان من بنى الحارث بن كعب بيت اليمن. وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات، إنما كانوا ملوكًا»[1].

ويورد عن ابن الكلبى سؤال كسرى للنعمان عن شرف القبيلة؛ إذ قال له: «هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال: نعم. قال: بأىِّ شىء ؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رُؤساء، ثم اتصل بكمال الرابع، والبيت من قبيلته فيه، قال: فاطلب لى ذلك، فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر بيت قيس بن عيلان، وآل حاجب بن زرارة بيت تميم، وآل ذى الجدَّين بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس بيت كندة»[2]. ويمضى الخبر فيبين أنه أقعد لهم الحكّام العدول، وأقبل من كل قوم منهم شاعرهم، وطلب إلى كل رجل متحدث بلسان قومه أن يتكلم عن مآثر قومه وأفعالهم، وأن يقول شاعرهم فيصدق. وتحدث كل من حذيفة بن بدر، والأشعث بن قيس، وبسطام بن قيس، وحاجب بن زرارة، وقيس بن عاصم، ومن معهم من شعرائهم مفتخرين معتزين بما لقبائلهم من شرف وسؤدد. والمآثر التى تحدث عنها كل واحد من هؤلاء كثيرة ومتنوعة، وتشمل - فيما تشمل - الشجاعة فى الحروب، والإغاثة فى الشدائد، والقدرة على إدراك الثأر، والقضاء على الملك الجبار. كما تشمل أيضًا كثرة العدد، وإنجاب الولد، وإعطاء الجزيل، وحمل الثقيل، وحماية الجار. ونهاية الخبر تقول: «فلما سمع كسرى ذلك منهم قال: ليس منهم إلا سيِّد يصلح لموضعه، فأثنى حباءهم»[3].

ولهذا الخبر دلالته؛ فهو يدعم ما ذكرناه من قبل من كثرة أفراد هذه الطبقة كثرة تندّ عن الحصر، لانتشارهم فى ربوع الجزيرة العربية، وهو يؤكد تنوع جوانب الشرف والسيادة، وكثرتها أيضًا؛ ثم يبرز أن الشرف لم يكن مقصورًا على أصحاب الرئاسات ومن كانوا ملوكًا[4].

---

(١) الأغانى: جـ١٩ ص١٨٤.

(٢) الأغانى: نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر: جـ ١٩ ص١٨٧.

(٤) نشير هنا إلى أن أبا الفرج فى معرض حديثه عن عدى بن زيد، يتحدث عن مدى ارتباط أسرته بملوك الحيرة، ويسجل للنعمان انتسابه إلى اللخميين: «ثم إن النعمان النصرى اللخمى هلك» وفى الوقت نفسه

ومن البين أن الاعتداد بهذه الجوانب أصبح جزءًا لا يتجزأ من الذات العربية، يحرص العربى على إبرازه والتباهى به، وفى الوقت نفسه جعله ينظر إلى من لم يتحقق فيه هذا النقاء فى الدم وفى النسب نظرة يشوبها غير قليل من الازدراء؛ إذ عُدّ هجينًا[1] لا يرقى اجتماعيًا إلى أولئك الأشراف. وتظل صفة «الهُجنة» هذه ملازمة لصاحبها، تنال منه، وتحط من قدره، أينما حل، وأنىّ ارتحل، بل إن هذا اللقب «الهجنة» كثيرًا ما دار على الألسنة، وبخاصة فى مقام المفاخرات والمنافرات، واتخذ سلاحًا للتشهير بصاحبه، والنيل منه.

وقد اتُخذ ـ على سبيل المثال – سلاحًا فى الرد على هجاء شعراء المشركين لرسول الله ﷺ؛ فحسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب – أحد ثلاثة رهط من قريش كانوا يهجون رسول الله ﷺ – بأنه ينحدر أولًا من والد عبد، ثم إنه هجين نيط فى آل هاشم، فهو إذن ليس من العرب الخلص، يقول:

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم[2]، ووالدُك العبد

وما ولدتْ أفناء زهرة[3] منكم ... كريمًا ولم يقرب عجائزك المجد

وإن امرَءًا كانت سمية أمّه ... وسمراءُ مغلوبٌ إذا بلغ الجهد

وأنت هجين نيط فى آل هاشم ... كما نيط خلف الراكب القَدحُ الفَردُ

يسجل لأسرة عدى منزلتها فى الشرف والسيادة؛ «إذ كانوا أهل بيت نصارى، يكونون من الأكاسرة، ولهم معهم أكلٌ وناحية، يقطعونهم القطائع، ويجزلون صلاتهم». الأغانى: جـ٢ ص١٠٥.

(١) الهجين: اللئيم. أو العربى ابن الأمة، أو من أبوه خير من أمّه (انظر لسان العرب والقاموس المحيط مادة هجن) ومن هنا يمكن أن يقال: الهجين عند العرب الذى أبوه شريف وأمه وضيعة، والأصل فى ذلك أن تكون أمة.

(٢) بنت مخزوم: يريد بها فاطمة بنت عمرو بن عائذ بين عمران بن مخزوم وهى أم عبد الله أبى النبى – ﷺ- والزبير وأبى طالب أبناء عبد المطلب. ووالدك العبد: يريد به الحارث بن عبد المطلب وهو أبو أبى سفيان المهجو، وكانت أمه أم ولد. الأغانى ج ٤ ص ١٤١ هامش (٣).

(٣) يريد هذا البيت مدح آمنة أم النبى – ﷺ- وهالة أم حمزة وصفية، وكلتاهما زهرية، إذ هما بنتا وهب بن عبد مناف بن زهرة. وقوله: «لم يلحق عجائزك المجد» يهجو أبا سفيان بأن أمهاته لسن بأحرار، إذ كانت أم أبى سفيان أم ولد، وأم أبيه كذلك أم ولد. الأغانى ج ٤ ص ١٤٢ هامش (١).

فقال العباس: ومالى ولحسان ! يعنى فى ذكره نُتَيْلة[1]، فقال فيها:

ولستَ كعباسٍ ولا كابن أمه ولكن هجينٌ ليس يورى له زَنْدُ[2]

وظلت تلك النظرة المتأصلة فى التفرقة بين أشراف العرب وغيرهم، والإعلاء من شأن من تجرى فى عروقه الدماء العربية النقية التى لا تشوبها شائبة - ظلت سائدة حتى بعد مجىء الإسلام، ما دمنا فى مقام الاعتداد بالحسب والأصل الكريم. ففى حديث أبى الفرج عن طريح بن إسماعيل الثقفى يذكر فى نسبه أنه: طريح بن إسماعيل بن عُبيد بن أَسيد... ابن عوف بن قيس - وهو ثقيف - بن منبه بن بكر بن هوازن.. ابن قيس عيلان بن مضر. ثم يذكر الخلاف فى ثقيف ونسبه فيقول: «ومن النسَّابين من يذكر أن ثقيفًا هو قيس بن منبه... ابن إياد بن نزار. ويقال: إن ثقيفًا كان عبدًا لأبى رغال. وكان أصله من قوم نجوْا من ثمود فانتمى بعد ذلك إلى قيس. وروى عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرّم وجهه: أنه مَرَّ بثقيف، فتغامزوا به، فرجع إليهم فقال لهم: يا عبيد أبى رِغال إنما كان أبوكم عبدًا له فهرب منه، فثقِفَه[3] بعد ذلك، ثم انتمى إلى قيس»[4].

وسادات العرب وأشرافها - فى العصر الجاهلى - ينِدّون عن الحصر كما سبق أن ذكرنا، ويكفى أن نشير إلى أسماء من مثل: دريد بن الصمة[5]، وذى الإصبع العَدْوانى،

---

(١) هى: نُتيلة بنت كليب بن مالك بن جناب أم العباس وضرار ابنى عبد المطلب. انظر: الأغانى، جـ٤ ص١٤٢، هامش (٥).

(٢) الأغانى: ج٤ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(٣) ثقفه: أدركه وظفر به.

(٤) الأغانى: جـ٤ ص٣٠٢.

(٥) دريد بن الصِّمة سيد بني جُشَم وفارسهم، غزا نحو مائة غزاة لم يخفق فى واحدة منها. أدرك الإسلام ولم يسلم، وخرج مع قومه هوازن فى يوم حنين مظاهرًا للمشركين، وقتل يومئذ على شركه. انظر: الأغانى، جـ١٠، ص٣-٤.

وعامر بن الظَّرِب العَدْوانى[١]، وعُمارة بن الوليد[٢]، ومسافر بن أبى عمرو بن أميَّة[٣]، وسويد بن الصامت الأوسى[٤]. ناهيك عن أولئك السادة والأشراف الذين تولّوا الإمارة والرئاسة فى مملكتى الحيرة وغسان، وغيرهما من الممالك العربية، وكان لهم دور بارز فى تاريخ العرب فى ذلك العصر.

ومن الطبيعى أن يكون لسادة العرب وأشرافهم دور اجتماعى كبير؛ إذ يتحملون ما كان يسمى «بالحمالات»[٥] ويقومون بفض المنازعات، وإخماد الحروب، وإجارة المستجير، وإجازة الحج، وقرى الأضياف وما إلى ذلك من الأمور التى فرضتها عليهم واجبات السيادة ومتطلبات الشرف؛ بل إن منهم من كان يغاضب قومه من أجل الأشياء المذمومة، ويفارقهم إلى غيرهم كما فعل زهير السكب[٦].

---

(١) كان حكمًا للعرب تحتكم إليه، ويقال إنه: «خير من قرعت له العصا» يقول ذو الإصبع العَدْوانى:

ومنهم حكم يقضى فلا يُنقض ما يقضى

ويذكر أبو الفرج أن قيسًا تدّعى هذه الحكومة وتقول: «إن عامر بن الظرب العدوانى هو الحكم، وهو الذى كانت العصا تقرع له... وربيعة تدّعيه لعبد الله بن عمرو بن الحارث بن عمرو بن الحارث بن همّام. واليمن تدّعيه لربيعة بن مُخاشِن، وهو ذو الأعواد، وهو أول من جلس على منبر أو سرير وتكلم». الأغانى: جـ٣، ص٩٠ (بتصرف).

(٢) وهو أحد أزْواد الركب، ويقال له: الوحيد. وكان أزواد الركب لا يمرّ عليهم أحدٌ إلا قَرَوْه وأحسنوا ضيافته، وزوّدوه بما يحتاج إليه لسفره. وكان عُمارة بن الوليد فخورًا متعرِّضًا لكل من عارضه من قريش. انظر: الأغانى، جـ١٨، ص١٢٢.

(٣) كان سيدًا جوادًا. وهو أحد أزواد الركب أيضًا ويشاركه فى ذلك زمعة بن الأسود بن المطلب؛ فهذا اللقب يطلق على ثلاثة نفر من قريش. وكان ذلك خُلقًا من أخلاق قريش، ولكن لم يسمَّ بهذا الاسم إلا هؤلاء الثلاثة. انظر: الأغانى، جـ٩، ص٤٩.

(٤) كان يقال له «الكامل فى الجاهلية. وكان الرجل عند العرب إذا كان شاعرًا شجاعًا كاتبًا سابحًا راميًا سمّوه الكامل. وكان سويد أحد الكملة». الأغانى: جـ٣، ص٢٥.

(٥) الحمالات: جمع حَمالة بالفتح وهى: ما يتحمله الإنسان عن غيره من دية أو غرامة، مثل: أن تقع حرب بين فريقين تُسفَك فيها الدماء، فيدخل بينهم رجل يتحمل ديات القتلى، ليُصلح ذات البين. و(التحمُّل) أن يحملها عنهم على نفسه، ويسأل الناس فيها. وفى الحديث: أن المسألة لا تحل إلا لثلاثة، ذكر منهم: «رجل تحمَّل حَمالة عن قوم». انظر: لسان العرب، مادة (حمل).

(٦) انظر: الأغانى، جـ٢٢، ص٢٧٠؛ حيث يذكر أبو الفرج أن زهير بن عروة المازنى الملقب بالسّكب كان جاهليًا، وكان من أشراف بنى مازن وأشدائهم وفرسانهم وشعرائهم، فغاضب قومه فى شىء ذمه منهم، وفارقهم إلى غيرهم من بنى تميم، فلحقه فيهم ضيم، وأراد الرجوع إلى عشيرته، فأبت نفسه ذلك عليه.

والطبقة الثانية داخل القبيلة هى طبقة العبيد: وكانت تتألف من عنصرين:

أ-العرب الذين أسرتهم القبيلة فى حروبها، وهى كثيرة لا تكاد تتوقف إلا لتشتعل من جديد، وكانت بمكة ـ على سبيل المثال ـ تجارة منتظمة فى الرقيق تروجها الحروب.

ب-الأجانب الذين كانوا يجلبون من أماكن أخرى مجاورة لجزيرة العرب كالحبشة وغيرها من الأمم. وكان أشراف العرب من قريش وغيرها يحرصون على ألا تخلو منازلهم من عبيد؛ «فقد كان لعبد الله بن أبى ربيعة مثلًا عبيدٌ من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن، وكان عددهم كثيرًا، وقد روى عن سفيان بن عُيينة أنه قيل لرسول الله ﷺ حين خرج إلى حُنيْن: هل لك فى حبش بنى المغيرة تستعين بهم ؟ فقال: لا خير فى الحبش، إن جاعوا سرقوا، وإن شبعوا زنوا، وإن فيهم لخلتين حسنتين: إطعام الطعام، والبأس يوم البأس»[1].

واستعبد العرب أولادهم من الإماء، فعوملوا معاملة العبيد، كما نعرف عن عنترة، وعنه يذكر أبو الفرج أن أمه كانت «أمة حبشية يقال لها زَبيبة، وكان لها ولد عبيد من غير شداد، وكانوا إخوته لأمه. وقد كان شداد نفاه مرة، ثم اعترف به فألحق بنسبه. وكانت العرب تفعل ذلك؛ تستعبد بنى الإماء، فإن أنجب اعترفت به وإلا بقى عبدًا»[2].

وكان أسوأ هؤلاء العبيد منزلة وأحطّهم شأنًا «السود» منهم، ويطلق عليهم «الأغربة» تشبيهًا لهم بالغراب، وهو أسود شؤمٌ عندهم. يقول أبو الفرج فى روايته عن ابن الكلبى: «وعنترة أحد أغربة العرب، وهم ثلاثة: عنترة وأمه زَبيبة، وخُفَاف بن عُمَيْر الشَّرِيدى وأمه نُدْبة، والسُّلَيْك بن عُمَيْر السَّعْدى وأمه السُّلكة، وإليهن ينسبون»[3].

ومن البيِّن أن هذه الطبقة كانت فى الدرجة الدنيا من السُّلَّم الاجتماعى، وأنها كانت تعانى – بالإضافة إلى الرق والعبودية – ازدراء المجتمع لها، وبخاصة «السود» من بين

(١) الأغانى: جـ١، ص٧٠، وانظر: د. يوسف خليف، السابق ص١٠٦.

(٢) الأغانى: جـ٨، ص٢٣٧. وانظر أيضًا: السابق ص٢٣٩-٢٤٠؛ حيث يذكر أسبابًا مختلفة لاعتراف شداد بعنترة، وإلحاقه بنسبه.

(٣) الأغانى: جـ٨، ص٢٤٠. وانظر ما قاله عنترة فى ذلك من شعر، وتعليق أبى الفرج عليه، وانظر أيضًا: هامش رقم (١) فى الأغانى جـ٨، ص٢٤٠.

رجالها، وكثيرًا ما اتخذ من لونهم وصمة عار، وأمارة ذل وهوان، وإن بذلوا من ذَوْد عن الحمى، ودفاع عن القبيلة؛ فقد «غزت بنوعبس بنى تميم، وعليهم قيس بن زهير، فانهزمت بنوعبس، وطلبتهم بنو تميم، فوقف لهم عنترة، ولحقتهم كبكبة[1] من الخيل، فحامى عنترة عن الناس، فلم يُصَبْ مدبر - وكان قيس بن زهير سيِّدهم، فساءه ما صنع عنترة يومئذ فقال حين رجع: والله ما حَمَى النَّاسَ إلا ابنُ السوداء !»[2].

وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة الموالى، «وكانت تتألف من العتقاء، ومن العرب الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى، وعاشوا فى حمايتها، أو حماية رئيسها أو بعض ذوى النفوذ فيها»[3]. فطبقة الموالى كانت ترجع إلى أصلين: أحرارٌ، وعبيدٌ. أما الأحرار فهم أولئك اللاجئون إلى القبيلة، أو أحد أفرادها، من خلعاء القبائل، طالبين الحماية والنصرة، وكانوا يسمون أحيانًا «الحلفاء». وأما العبيد فهم أولئك الذين أعتقهم سادتهم فأصبحوا أحرارًا، وظلوا - مع ذلك - مرتبطين بهم برابطة الولاء[4].

هذه الطبقة كانت تقع فى السُّلَّم الاجتماعى بين الطبقتين السابقتين؛ «فالمولى عند العرب وسط بين العبد والحر، أحط منزلة من الحر وأرفع من العبد»[5].

ونتيجة لهذا النظام الطبقى أصاب النظام الاقتصاديَّ خللٌ، انعكست آثاره بصورة واضحة على الحياة الاجتماعية؛ إذ أصبح المال فى يد قِلَّة، وباتت الكثرة الكاثرة فقيرة معدمة لا تكاد تجد شيئًا، لا فرق فى ذلك بين سكان المدن أو أعراب الصحراء.

وهذا ما وضحه بعض الباحثين عندما صور حال هذه الطبقة الفقيرة فى مكة وبيَّن أن أبناءها لم يكونوا يملكون شيئًا حتى أنفسهم؛ فقد كان حق التشريع محصورًا فى أيدى الطبقة العليا، وكانوا يسنّون من الشرائع ما يلبى احتياجاتهم دون أن يلقوا بالًا لحياة

---

(١) الكبكبة فى الأصل: الجماعة من الناس المتضام بعضها إلى بعض.

(٢) السابق: جـ٨، ص٢٤١.

(٣) د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك، ص١٠٦.

(٤) انظر السابق: نفس الصفحة، مع ملاحظة أن المؤلف ذكر فى هامش بحثه أن المادة اللغوية تدعم هذا المعنى؛ ففى لسان العرب مادة (ولى): «والمولى الحليف وهو من انضم إليك فعزَّ بعزك، وامتنع بمنعتك... والمولى: المعتق انتسب بنسبك». وهكذا يشير هذا المعنى اللغوى لهذين النوعين الاجتماعيين من طبقة الموالى.

(٥) السابق: ص١٠٦-١٠٧.

الصعاليك والفقراء، فكان هؤلاء «يعيشون فى شعاب البلدة وأطرافها البعيدة وفى بيوت حقيرة وعيشة ضنكة وجوع مستمر»[١].

هذا؛ وقد كانت هناك عدة ظواهر اجتماعية تآزر بعضها مع بعض لتشكل ما يعرف «بالصعاليك»، وهى الطبقة الأخيرة التى يتناولها البحث بالحديث.

فى مقدمة تلك الظواهر: ظاهرة «الخلعاء» وهم الذين خلعتهم قبائلهم لخروجهم على ما تعارفوا عليه، أو لارتكابهم جريرة ترفض قبائلهم أن تتحمل نتائجها أو تبعاتها[٢].

فالفرد الذى يتصرف تصرفًا لا ترضى عنه القبيلة، تتبرأ منه قبيلته، وتطرده من حماها، وتعلن أنها قد خلعته، وتسحب منه «الجنسية القبلية» على حد تعبير د. يوسف خليف؛ وبذلك تنقطع صلته بها، وتنتهى حمايتها له[٣].

ويتخذ هذا «الخلع» صورة إعلان رسمى، يذاع على الناس فى المواسم والأسواق؛ فقد كان قيس بن الحِدَاديَّة فاتكأ شجاعًا صعلوكًا خليعًا، خلعته خزاعة بسوق عكاظ، وأشهدت على أنفسها بخلعها إياه، فلا تتحمل له جريرة، ولا تطالب بجريرة يجرها أحدٌ عليه[٤].

وقد يبعثون مناديًا ينادى بذلك، كما حدث مع عُمارة بن الوليد وعمرو بن العاص؛ إذ خلعت بنو المغيرة وبنو مخزوم عمارة، وتبرّأت كل منهما من جريرته، فقال السهميون (قوم عمرو بن العاص): قد قبلنا؛ فابعثوا مناديًا بمكة أنّا قد خلعناهما وتبرأ كلُّ قوم من

---

(١) انظر: بندلى جوزى، من تاريخ الحضارات الفكرية فى الإسلام، سلسلة إحياء التراث الثقافى الفلسطينى رقم ٤، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ط٣، ١٩٨٢م، ص٢٨-٢٩.

(٢) ذكرنا من قبل أن «العصبية» كانت المحور الذى قامت عليه حياة العربى فى العصر الجاهلى؛ ونضيف - هنا - أنه قام على أساسها نوع من «العقد الاجتماعى» بين الفرد وقبيلته؛ فالقبيلة تحمى أفرادها، وتدافع عنهم، ظالمين كانوا أو مظلومين. وفى مقابل هذا على الفرد أن يحترم رأيها الجماعىّ، فلا يخرج عليه، أو يكون سببًا فى تمزيق وحدتها، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل. فإذا ما ارتكب الفرد جُرمًا ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه، أو إذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها، فإنه يطرد منها، ويسمّى هذا الطرد خلعًا، ويسمّى الطريد خليعا. انظر: د. يوسف خليف، السابق ص٩٠، وفى ص٩١-٩٢ يذكر المؤلف شواهد لأسباب الخلع.

(٣) انظر: السابق، ص٩٣.

(٤) انظر: الأغانى، جـ١٤، ص١٤٥.

صاحبهم، ومما جرّ عليهم، فبعثوا مناديًا بمكة ينادى بذلك. فقال الأسود بن المطلب: بطل والله دم عمارة بن الوليد آخر الدهر! [1].

وهنا يجد الخليع نفسه أمام مشكلة خطيرة، هى مشكلة حياة أو موت، فبعد أن سحبت منه «الجنسية القبلية» ورفعت الحماية عنه، وطرد من حمى القبيلة، لم يعد أمامه إلا أحد أمرين: إما أن يفرّ إلى الصحراء ليواجه مصيره فى البادية القاسية فقيرًا معدمًا، لا سند له ولا معين؛ وإما أن يلجأ إلى من يحميه ويعيش فى جواره، ومن هنا كانت نشأة قانون آخر من قوانين المجتمع الجاهلى، وهو «قانون الجوار»[2].

يضاف إلى هذه الطائفة تلك الفئة من الطبقة الفقيرة المعدمة التى أبت أن تستكين لهذا الوضع المهين الذى أملاه النظام الطبقى للقبيلة، فقررت الخروج عليه، والثورة من أجل المحرومين المستضعفين، فقراء كانوا أم أرقاء.

وقد شاركها فى هذه الثورة فئة من «الهجناء» وبخاصة من كان منهم أسوأ حظًا، وأوضع منزلة اجتماعية، ونعنى بهم: أولاد الإماء السود، الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم؛ فقد كانوا سُبَّة يعيَّر بهم آباؤهم. وقد أطلق عليهم اسم خاص، تمييزًا لهم عن سائر إخوانهم الهجناء، فسموا «الأغربة» ونسبوا فى أكثر الحالات إلى أمهاتهم[3].

تألف من هذه الفئات - إذن - طبقة «الصعاليك»، وهى طبقة متمردة خارجة على المجتمع لا تؤمن بالعصبية القبلية، ولكن تؤمن بعصبية مذهبية قوامها: الغزو والإغارة للسلب والنهب؛ وتقسيم ما تجمّع لديها على أفرادها الذين يشاركونها شظف العيش، وقسوة الحياة، ونبذ الجماعة.

وتتبدى فى هذه الطبقة مجموعة من الصفات الجسمية والنفسية؛ مكّنتهم من أن يواجهوا الظروف التى طبعت حياتهم بطابع الثورة والتمرد والفتك والإغارة، والميل الشديد إلى المخاطرة. يدعم ذلك تلك الأخبار الكثيرة عن حياتهم، وما عبّروا فى

---

(١) انظر: الأغانى جـ٩ ص٥٦-٥٧.
(٢) انظر: د. يوسف خليف، السابق ص٩٣. هذا؛ ولنا عودة إلى «قانون الجوار» فيما بعد.
(٣) انظر: السابق، ص١٠٨-١٠٩.

أشعارهم عن الأخطار المحدقة بهم، وكيف كانوا يواجهونها. ويكفينا فى هذا المقام ما يقوله أبو عمرو الشيبانى عن تأبط شرًّا من أنه كان «جريئًا شاعرًا فاتكًا»(١)، وما يذكره فى رواية أخرى من أنه نزل على حىٍّ من فهم إخوة بنى عَدْوان من قيس، فسألهم عن خبر تأبط شرًّا، فقال له بعضهم: وما سؤالك عنه، أتريد أن تكون لصًّا ؟! قال: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبار هؤلاء العدّائين، فأتحدث بها. فأخبروه أن تأبط شرًّا، كان أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظِّباء، فينتقى على نَظْرةٍ أسمنها، ثم يجرى خلفه فلا يفوته، حتى يأخذه، فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله(٢). هذه القدرة الفائقة فى العدو كانت سمة يتميز بها كثير من الصعاليك، من أمثال الشنفرى(٣)، وتأبط شرًّا(٤)، والسليك بن السلكة وغيرهم. يضاف إلى هذا حدَّة فى البصر(٥)، ورهافة فى السمع(٦).

وعلى الرغم مما فى حياة «الصعاليك» من جهامة ومخاطرة، فإن هناك العديد من الأبعاد الإنسانية التى تكشف عن الوجه الإيجابى المشرق فى حياتهم. نذكر من هذه الأبعاد – على سبيل المثال ـ: الكرم، والعدل، والإيثار؛ فضلًا عن «الحرية» التى كانت الدافع الأول وراء ثورتهم وخروجهم على مجتمعهم.

---

(١) الأغانى: ج ٢١، ص ١٦٩، وهذا القول يتفق مع ما ذكر منقبل عن قيس بن حدادية من أنه كان «فاتكًا شجاعًا صعلوكًا خليعًا».

(٢) انظر: السابق، جـ٢١، ص١٢٨.

(٣) يُروى أن خطو الشنفرى ذُرِع [قيس بالذراع] ليلة قتل، فوجد أول نزوة نزاها إحدى وعشرين خطوة، ثم الثانية سبع عشرة خطوة. السابق، جـ٢١ ص١٨٥–١٨٦. وانظر: د. يوسف خليف، السابق ص٢١٣ – ٢٢٥؛ حيث أفرد هذه الصفحات للحديث عن سرعة عدو الشعراء الصعاليك.

(٤) لا شك أن التمتع بالقدرة الفائقة فى العدْو كان أداة رئيسية فى النجاة وعدم الوقوع فى الأسر؛ بالإضافة إلى أنها كانت الأداة الأساسية لإدراك الفريسة كما عرفنا مما ذكره أبو عمرو الشيبانى. انظر حديثًا عن عُجْب ابن بَرَّاق بعَدْوه، وأن عدوه هذا كان له ثلاثة أطلاق كما يذكر رفيقه تأبط شرًّا أولها كالريح الهابّة، والثانى كالفرس الجواد، والثالث يكبو فيه ويعثر؛ بل إن تأبط شرًّا عدا فى كتافه بعد أن أسر، وعارضه ابن براق، فقطع كتافه وأفلتا جميعًا. انظر ذلك فى الأغانى: السابق، جـ٢١، ص١٣٢.

(٥) وردت هذه العبارة فى الأغانى عن تأبط شرًّا: «كان من أبصر الناس»، السابق، جـ٢١، ص١٣٥.

(٦) وردت هذه العبارة فى الأغانى عن تأبط شرًّا أيضًا: «كان من أسمع العربِ وأكيدهم»، وقد ذكرت عقب خبر عن إحدى غاراته على بجيلة؛ إذ نصح رفيقه عمرو بن برّاق بأن يُقل من الشراب، بعد أن بلغ بهما العطش مبلغه، ويبين سبب ذلك بأنها ليلة طرْد. وحين سأله عمرو وما يدريك ؟ قال: «والذى أعدو بطيره، إنى لأسمع وجيب قلوب الرجال تحت قدمى». السابق: جـ٢١، ص١٣٢.

قانون «الجوار» وما ارتبط به من «الأحلاف»

تدور المادة اللغوية لكلمة «جار» فى السياق الذى معنا على معانى النصرة ومدافعة الظلم، وحماية المستجير، ودفع الأذى عنه بكل السُبل • ففى المعاجم العربية: الجوار: أن تُعطى الرجل ذمة فيكون بها جارك فتجيره. والجار أيضًا الحليف، والجار الذى أجَرْته من أن يظلمه ظالم[1].

وأساس «الجوار» فى العصر الجاهلى أن يتعهد المجير بأن يحمى جاره، ويمنعه مما يمنع منه نفسه وأهله وولده؛ ففى «الأغانى»: أن النعمان بن المنذر استجار بقبائل من العرب بعد أن غضب عليه كسرى، فخاف بعض منها أن يجيره متعللين بأنه لا حاجة بهم إلى معاداة كسرى، ولا طاقة لهم به. وأجاره هانئ بن قبيصة (وقيل هانئ بن مسعود ابن عامر)، وقال له: قد لزمنى ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع نفسى وأهلى وولدى منه ما بقى من عشيرتى الأدْنيْن رجلٌ[2].

والصلة بين الجار والمجير كانت تختلف - بطبيعة الحال - باختلاف الظروف؛ فكانت أحيانًا مؤقتة، وكانت أحيانًا أخرى دائمة، بل وراثية. وفى بعض الحالات كان المجير يتعهد بنصرة جاره على عدو بعينه، وأحيانًا بإجارته من كل الأعداء، بل من الموت نفسه؛ وقصة الأعشى مع عامر بن الطفيل تبرز الحالة الأخيرة؛ إذ يروى الأغانى أن الأعشى أتى الأسود العنْسى، وقد امتدحه، فاستبطأ جائزته، فقال الأسود: ليس عندنا عين، ولكن نعطيك عرضًا، فأعطاه خمسمائة مثقال دُهْنًا، وبخمسمائة حُلَلا وعَنْبرًا، فلما مرَّ ببلاد بنى عامر خافهم على ما معه، فأتى علقمة بن عُلاثة فقال: له: أجرنى؛ فقال: قد أجرتك • قال: من الجنّ والإنس قال: نعم. قال ومن الموت ؟ قال: لا • فأتى عامر ابن الطفيل فقال: أجرنى ؟ قال: قد أجرتك. قال: من الجن والإنس ؟ قال: نعم. قال: ومن الموت ؟ قال: نعم. قال: وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال: إن متَّ وأنت فى جوارى

---

(١) انظر: القاموس المحيط، ولسان العرب: مادة «جور».

(٢) انظر الأغانى: جـ٢، ص١٢٥-١٢٦، وانظر فيه باقى الخبر، والرأى الذى أشار به عليه هانئ بن قبيصة، ورآه صوابًا.

بعثت إلى أهلك الدِّية. فقال: الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت[1]. وأقوى حالات الإجارة هى تلك التى يتعهد فيها المجير لجاره بأن يثأر له حتى من أخيه الصميم[2].

وقد أدرك العربى فى العصر الجاهلى أن هذه «الإجارة» لها حُرْمتها[3]، وتبعاتها، بل وقداستها أيضًا؛ ومن هنا كان العرب يسمُّون جارهم «هدْيَهم» أو «هَدِيَّهم»؛ (يحرُم عليهم منه ما يحرم من الهَدْى)[4] وهى تسمية تشعرنا بتلك القداسة التى كانت للجوار فى نفوس العرب، وكأن «الجوار» قربان يتقربون به إلى الآلهة. ولهذا كان بعض المكيين يقسمون على حمايتهم لجارهم فى الكعبة، وكان هذا القسم يتخذ صورة إعلان عام، لا يستطيعون التحلل منه إلا فى الكعبة أيضًا[5].

وقد نشأ هذا القانون مرتبطًا بظروف الحياة العربية فى العصر الجاهلى، وأصبح جزءًا لا يتجزأ منها، ومن الذات العربية فى اعتدادها بعزتها وقوتها وبأسها ونجدتها ومروءتها وما إلى ذلك من فضائل، يعتز كل عربىّ بأن تنسب إليه، حتى لقد اشتهر بعض أشراف العرب بإجارة الخلعاء وحمايتهم[6].

---

(١) انظر: الأغانى، جـ٩، ص١٢٠-١٢١ وانظر: د· يوسف خليف، السابق، ص٩٤.

(٢) انظر: د· يوسف خليف، السابق، نفس الموضع والصفحة.

(٣) قتل خالد بن الصمة فى غارة قام بها بنو الحارث فى يوم يقال له يوم ثَيْل، واستطاعت قبيلته أن تصيب ذا القرن الحارثى وتتخذه أسيرًا، ولما رجعوا قتلوا ذا القرن بخالد بن الصمة، ولما قُدِّم لتُضرب عنقُه، صاح بأوس بن الصمة وكان له صديقًا، ولم يكن أوس حاضرًا، فلم ينفعه ذلك وقُتل، فلما قدِم أوسٌ غضب وقال: أقتلتم رجلًا استجار باسمى ! انظر: الأغانى، جـ١٠، ص١٨-١٩.

(٤) لسان العرب: مادة (هدى) هذا؛ ويروى «اللسان» هذا البيت لزهير:

فلم أرَ معشرًا أسرُوا هديًّا ولـم أرَ جار بيـت يُسْتباء

ثم يورد قول الأصمعى فى تفسيره: هو الرجل الذى له حُرْمة كحرمة هدىّ البيت. ويُستباء: من البَوَاء، أى القود؛ أى أتاهم يستجيرهم فقتلوه برجل منهم.

(٥) انظر: د· يوسف خليف، السابق، ص٩٤-٩٥.

(٦) كان حاجز بن عوف الأزدى – وهو أحد الصعاليك المغيرين على قبائل العرب – حليفًا لبنى مخزوم. انظر: الأغانى، جـ١٣، ص٢٠٩. وقد لجأ مطرود بن كعب الخزاعى إلى عبد المطلب بن هاشم لجناية كانت منه، فحماه وأحسن إليه. انظر: المرزبانى، معجم الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م، ص٢٨٢. والواقع أن حرص العربى على أن يجير من يلجأ إليه، ويعوذ به، لمن الأمور الثابتة المتغلغلة فى وجدان الجماعة، والباعثة على شعور الزهو والفخر، بأنه السّند لكل من به أزمة أو ضائقة. وإذا كان بعض أشراف العرب قد اشتهر بإجارة الخلعاء وحمايتهم، فإن العربى بعامة (والعزيز الشريف منهم بخاصة) كانت له مواقف حاسمة فى حماية من يستجير به. ومن شواهد ذلك: ما يُروى

وفى مقابل هذه الحقوق للجار، كانت عليه واجبات إزاء من أجاروه فى أشخاصهم أو سمعتهم، فإذا ما رأت القبيلة ما يسيئها من جارها، كان لها الحق فى أن تتحلل من التزاماتها له، وتخلعه[1].

وقد ارتبط بهذا القانون ما كان يعرف «بالأحلاف»، وهى نوعٌ من الاتحادات التى تؤلف بين أكثر من قبيلة. ويبدو أن هذه الاتحادات قامت بدور كبير فى تكوين القبائل؛ فمن الطبيعى أن تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها. يقول البكرى: «فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة، وتنافس الناس فى الماء والكلأ، والتماسهم المعاش فى المتسع، وغلبة بعضهم بعضًا على البلاد والمعاش، واستضعاف القوى الضعيف - انضم الذليل منهم إلى العزيز، وحالف القليل منهم الكثير...»[2] ومن القبائل التى تمثل ذلك قبيلة تنوخ فى العراق؛ فقد انضم إليها، وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية[3].

وقد حرص النسّابون على ذكر الحليف، ولا سيما إذا كان ذا عز وسيادة؛ فهو فى مثل هذه الحال مبعث قوة واعتزاز، ومصدر مباهاة وفخر؛ ففى التعريف بابن مُفرِّغ وبعد أن يُذكر اسمه: يزيد بن ربيعة ابن مفرّغ الحميرى، يُشفع ذلك بـ «حليفُ قريش ثم حليف آل خالد بن أسيد بن أبى العيص بنِ أمية بن عبد شمس»[4].

عن عوف بن محلم بن ذُهل بن شيبان، وقد طلب منه عمرو بن هند أن يُسلم إليه مروان القرظ، وكان قد أجاره، فمنعه وأبى أن يسلمه، فقال الملك: «لا حُرَّ بوادى عوف» أى: أنه يقهر من حلّ بواديه، فكل من فيه كالعبد له، لطاعتهم إياه. يضرب مثلا للرجل يسود الناس، فلا ينازعه أحدٌ منهم فى سيادته: انظر الميدانى - مجمع الأمثال - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل بيروت ١٩٩٦م، جـ٣، ص١٩٤. وانظر: الأغانى، جـ١، ص١٧.

(١) انظر: د. يوسف خليف، السابق، ص٩٥.

(٢) البكرى: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة. ط١ ١٩٤٥، ص٥٣.

(٣) انظر: شوقى ضيف، السابق، ص٥٨. وانظر أيضًا: دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت لبنان، مجلد ٥ مادة تنوخ ص٥٠٨-٥٠٩، وابن حزم: السابق، ص٤٥٣؛ حيث يقول: «فتنوخ على ثلاثة أبطن: بطن اسمه فهم... وبطن اسمه نزار، وهم لوث (أى مختلطون) ليس نزار لهم بوالد ولا أم، ولكنهم من بطون قضاعة كلها.. وبطن ثالث يقال له الأحلاف، وهم من جميع قبائل العرب كلها، من كندة، ولخم، وجُذام، وعبد القيس».

(٤) الأغانى: جـ١٨، ص٢٥٤.

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حلف مع غيرها، يصبح لها على أحلافها كل الحقوق؛ مَثَلُ هذا مَثَل الجوار، فهم ينصرونها على أعدائها، ويدفعون عنها كلَّ ما يُراد بها من أذى أوكيد. وطبيعى أن تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر إذا كان ذلك يحقق مصالحها، ومن ثم كنا نجد أحلافًا تضعف، لتحل محلها أحلاف أخرى[1].

على أن هناك قبائل قليلة لم تدخل فى أحلاف مع غيرها؛ ولعل ذلك لما كان فيها من شجعان يكفُونها فى الحروب. ومن نماذج ذلك ما كان يعرف بـ «جمرات العرب»[2]، ومنها جمرة مَذْحِج؛ ففى معرض استشارة دُريد بن الصمة ليأخذ بثأر أخيه خالد، قال له نفرٌ من قومه: «أينجو بنو الحارث بن كعب منك، وقد قتلوا أخاك خالدًا ؟ فقال لهم: إن القوم جمرة مَذْحِج، وهم أكْفاء جُشم»[3].

وأصل الحلف والتحالف من كلمة «الحَلِف»[4] بمعنى القسم واليمين. والحِلف بالكسر، العهد يكون بين القوم. والحليف: المحالف. وبينهما حِلْفٌ لأنهما تحالفا بالأيمان أن يكون أمرهما واحدًا فى الوفاء، فلما لزم ذلك عندهم فى الأحلاف التى فى العشائر والقبائل صار كلُّ شئ لزم شيئًا فلم يفارقه فهو حليفه، حتى يقال: فلانٌ حليف الجود[5].

ارتبطت «الأحلاف: - إذن - بالأيمان؛ توثيقًا وتأكيدًا على الالتزام بها، وعدم الإخلال بما توجبه على أطرافها، وصاحب ذلك بعض الطقوس التى اشتهرت بها بعض الأحلاف. ويقال: إنه كان من عادة العرب أن يحضروا فى جفنة طيبًا أو دمًا أو رمادًا،

---

(١) انظر: د. شوقى ضيف، السابق، نفس الصفحة.

(٢) الجمرة: القبيلة لا تنضم إلى أحد. وقيل: هى القبيلة تقاتل جماعة قبائل، أو يكون فيها ثلاثمائة فارس أو نحوها. والجمرة: ألف فارس، وكل قبيلة انضموا فصاروا يدًا واحدة ولم يحالفوا غيرهم فهم جمرة. والجمرة أيضًا: كل قوم يصبرون لقتال من قاتلهم، لا يحالفون أحدًا، ولا ينضمون إلى أحد، وتكون القبيلة نفسها جمرة تصبر لقراع القبائل، كما صبرت عبس لقبائل قيس. وجمرات العرب: بنو الحارث بن كعب، وبنو نُمير بن عامر، وبنو عبس. وكان أبو عبيدة يقول: هى أربع جمرات، ويزيد فيها بنى ضَبَّة بن أُدّ. وقالوا: فطفئت منهم جمرتان وبقيت واحدة، طفئت بنو الحارث لمخالفتهم نهدًا، وطفئت بنو عبس لانتقالهم إلى بنى عامر بن صعصعة يوم جبلة. انظر: لسان العرب، مادة (جمر).

(٣) الأغانى: جـ١٠، ص٣٣-٣٤.

(٤) فى اللسان: الحَلف والحَلِف: القسم، لغتان. حلف: أى أقسم يحلف حَلْفًا، وحِلْفًا، وحَلِفًا.

(٥) السابق: نفس المادة والموضع.

فيدخلوا فيه أيديهم عند التحالف، ليتم عقدهم عليه باشتراكهم فى شيء واحد[1]. ومن الأحلاف المشهورة فى مكة «حلف المُطَيَّبين» إذ يروى عن ابن الأعرابى: «الأحلاف فى قريش خمس قبائل: عبد الدار، وجمح، وسهم، ومخزوم، وعدىٌّ بن كعب؛ سُمُّوا بذلك لما أرادت بنو عبد مناف أخذ ما فى يدىْ عبد الدار من الحجابة والرِّفادة واللواء والسِّقاية، وأبت بنو عبد الدار، عقد كلٌّ قوم على أمرهم حِلْفًا مؤكدًا على ألا يتخاذلوا؛ فأخرجت عبدُ مناف جفنة مملوءة طيبًا، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة وهم أسدٌ، وزهرة، وتيم؛ ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاقدوا، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا، فسُمَّوا المطيّبين»؛ وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفًا آخر، مؤكدًا على ألا يتخاذلوا فسمّوا الأحلاف[2].

لقد تناول هذا الفصل - فيما تناول - طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى، وأبان عن بعض الظواهر التى ارتبطت بها - كالعصبية والتمرد على الجماعة وما إلى ذلك مما يؤذن بأن «الحروب» كانت فى هذا العصر من أبرز الظواهر الاجتماعية، وأخطرها فى الوقت نفسه؛ ومن ثم فهى موضوع الحديث فى الفصل التالى.

وبعد؛ فتنحصر الصورة التى تناولها هذا الفصل فى «عناصر السكان وطبقات المجتمع فى الجزيرة العربية» حضرًا وبدوًا. وقد تبين لنا أن أهم ظاهرة كان لها أثرها الكبير فى حياة العرب هى «العصبية القبلية»، التى تركت آثارًا بعيدة المدى فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، منها «العناية بالأنساب»، وقد اتضح ذلك جليًا فى عناية أبى الفرج بهذا الجانب فى الأغانى.

وقد ترتب على «العصبية القبلية» نوع من العقد الاجتماعى بين القبيلة وأفرادها،

---

(١) انظر الأغانى: جـ٥، ص٦٢، هامش (١).

(٢) لسان العرب مادة حلف. هذا؛ عن أبى مُلَيْكة قال: «كنت عند ابن عباس، فأتاه ابن صفوان فقال: نعم الإمارة إمارة الأحلاف كانت لكم! قال: الذى كان قبلها خيرٌ منها، كان رسول الله ﷺ من المطيبين، وكان أبو بكر من المطيبين، وكان عمر من الأحلاف، يعنى إمارة عمر». وانظر الأغانى جـ٥، ص٦١-٦٢؛ فهو فى معرض حديثه عن الهِجْرس بن كليب وثأره لأبيه من جسّاس، وهو يتحدث عن محاولة استمالة الهِجْرس إلى الصلح وأخذ العهد عليه على ذلك، يقول: «فلما قرّبوا الدم، وقاموا إلى العَقد...» نفس المَصدر والصفحة.

وبمقتضى هذا العقد رسخت حقوق والتزامات متبادلة بين القبيلة وأفرادها.

كما تبين لنا من خلال المادة المتاحة وجود عدة طبقات متفاوتة داخل القبيلة الواحدة، وقد أدى ذلك إلى نوع من الخلل الاقتصادى والاجتماعى انعكست آثاره على كثير من الظواهر الاجتماعية الأخرى، من أبرزها: النظرة المتأصلة عند العرب فى تمييزها بين أشراف العرب وغيرهم وإعلائها من شأن من كانت تجرى فى عروقه الدماء العربية النقية.

وقد لاحظنا فى هذا الفصل ظهور طبقة الصعاليك نتيجة لعدة عوامل كانت وراء ظهورها. وقد تميزت هذه الطبقة بصفات جسمية ونفسية تتلاءم مع حياتها القائمة على الفتك والإغارة. وقد ناقش الفصل الوجه الإيجابى المشرق فى حياتهم، كالكرم، والعدل، والإيثار... إلخ.

وتبين لنا أخيرًا ظهور ما يسمى «بقانون الجوار» فى العصر الجاهلى وأساسه: أن يتعهد المجير بأن يحمى جاره، ويمنعه مما يمنع منه نفسه وأهله وولده. وقد اتخذ هذا صبغة الإلزام والالتزام. وقد أدرك العربى فى تلك العصور أن هذه الإجارة لها حرمتها وتبعاتها. وقد ارتبط بهذا ما كان يعرف «بالأحلاف»، التى صحبها بعض الطقوس توثيقًا وتأكيدًا.

***

الفصل الثانى

الحروب

الحروب من أشد الظواهر الاجتماعية خطرًا؛ إذ إنها - فضلًا عما تحدثه من آثار مدمرة فى تقويض أواصر القربى، وإضعاف بنية القبيلة، وأحيانًا تفتيتها - تهلك الحرث والنسل، وتقضى على الأخضر واليابس. وقد قدم زهير بن أبى سلمى صورة لما تحدثه الحرب من دمار فى قوله:

وما الحربُ إلا ما علمتمْ وذُقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرجَّمِ

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ إذا ضَرَّيتموها فَتُضْرَمِ

فتعرككُم عرْكَ الرحَى بثِفَالها ... وتلقحْ كِشافًا ثم تُنتج فتُتْئمِ

فتُنتج لكم غلمانَ أشأَمَ كلُّهم ... كأحمرِ عادٍ، ثم تُرضع فتُفْطَمَ

فتُغْلِلْ لكم مالا تُغِلُّ لأهلها ... قُرىً بالعراق من قفيزٍ ودِرْهمِ[1]

والدارس لأيام العرب فى العصر الجاهلى يجد أنها مرآة صادقة تعكس أحوال العرب وعاداتهم، وشأنهم فى الحرب والسِّلم، والاجتماع والفرقة، والفداء والأسر. وهى - أيضًا - مرآة صافية تظهر فضائلهم وشيمهم، كالدفاع عن الحريم، والانتصار للعشيرة، وحماية الجار، والصبر فى القتال، وما إلى ذلك مما نراه واضحًا فى تلك الأيام[2].

ومن الملاحظ أن الحروب فى ذلك العصر كانت كثيرة كثرة لافتة للنظر[3]؛ وربما كان

---

(١) التبريزى: شرح القصائد العشر (دار الجيل. بيروت. لبنان) د. ت. ص ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) نشير هنا إلى الدراسة التى قام بها الأساتذة: محمد أحمد جاد المولى، وعلى محمد البجاوى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم بعنوان: أيام العرب فى الجاهلية (دار الجيل. بيروت. لبنان) ١٩٨٨م، وهى دراسة تتسم بالاستيعاب والشمول؛ إذ ضمَّت: أيام العرب والفرس، وأيام القحطانيين والعدنانيين، وأيام ربيعة فيما بينها، وأيام ربيعة وتميم، وأيام قيس فيما بينها، وأيام قيس وكنانة، وأيام قيس وتميم، وأيام ضبَّة وغيرهم، ثم أيامًا متفرقة.

(٣) نشير هنا أيضًا إلى أن «الأغاني» مصدر يحفل بالحديث عن هذه «الأيام» وما كان يجرى فيها، وهو - من هذا الجانب - مصدرٌ غنى، يمتاح منه كل مستزيد للمعرفة. ويكفى أن نتناول أى جزء من أجزائه ونطلع على فهارسه للتحقق من صحة ما نذهب إليه.

ذلك لطبيعة الحياة القاسية، التى تدفع بالإنسان دفعًا إلى القتال، من أجل الحصول على مقوّمات الحياة ماءً ومرعىً ومتاعًا.

وربما كان لطبيعة العربي، وما جُبل عليه من عشق للحرية، ومن عزة ومنعة، وإباء وأنفة دخلٌ فى ذلك؛ إذ تثور نفسه، ويغلى الدم فى عروقه لأهون الأسباب التى يرى فيها مساسًا بحريته، ونيلًا من عزته وكرامته.

وقد يكون من أسباب ذلك أنه أُدْرِج فيها أيام ووقائع لم تكن ذات شأن وخطر[1]، كغيرها من الأيام التى كانت كذلك؛ مبالغة وافتخارًا، لاسيما وأن الفخر بهذه الأيام كان من أقوى ما يتيه به العربي، ويتغنى به، ويحرص على ترديده وتسجيله.

والدارس لحياة العربى فى الجاهلية يخيل إليه أن حياته كلها إن هى إلا كرٌّ وفرٌّ، لا يكاد يُلقى بسلاحه حتى يناديه نداء الحرب، فيشمر عن ساعديه، ملبّيًا لهذا النداء، يملؤه شعور بالزهو، واعتداد بالنفس، وثقة فى امتلاكه زمامها يصرِّفها أنَّى شاء !.

هذا النداء قد تحركه الرغبة فى الاستيلاء على مساقط الغيث، ومنابت الكلأ، وما إلى ذلك من إبل وشاه، والشواهد على ذلك كثيرة[2].

---

(١) لعل مما له دلالته فى هذا المقام ما يُروى من أن الرسول - ﷺ - جلس فى مجلس ليس فيه إلا خزرجي، ثم استنشد الحاضرين قصيدة قيس بن الخطيم، يعنى قوله:

أتعرف رسما كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ قوله:

أجالدهم يوم الحديقة حاسرًا ... كأن يدى بالسيف مخْراقُ لاعب

التفت إليهم رسول الله ﷺ، فقال: "هل كان كما ذكر»، فشهد له ثابت بن قيس بن شمّاس وقال له: والذى بعثك بالحق يارسول الله، لقد خرج إلينا يوم سابع عُرْسه عليه غلالة وملحفة مورَّسه فجالدنا كما ذكر. وهناك رواية أخرى تذهب إلى أنه لم تكن بينهم فى هذه الأيام حروب إلا فى يوم بعاث فإنه كان عظيمًا، وإنما كانوا يخرجون فيترامون بالحجارة ويتضاربون بالخشب. انظر: الأغانى جـ٣ ص٧، ٨، وما يُروى أيضًا فى حرب بكر وتغلب أنها استمرت أربعين سنة، فيهن خمس وقعات مزاحفات. انظر السابق جـ ٥، ص٤١. وانظر أيضًا خبرًا عن ليلى بنت عُرْوة بن زيد الخيل وقد أنشدت شعرًا لأبيها فى يوم مُحجِّر يفتخر فيه بضخامة جيشه وخيْله، وأنها سألت أباها هل شهد ذلك اليوم مع أبيه، قال: نعم، قالت: كم كانت خيل أبيك هذه التى وصفت ؟ قال: ثلاثة أفراس. انظر: السابق ج١٧ ص ٢٥٦.

(٢) انظر - على سبيل - المثال خروج خارجة بن حصن فى جمع من بنى فَزارةٍ ومن بنى ثعلبة بن سعد، وهو يريد غزو بنى عبس بن بغيض، فلقوا جيشًا لبنى تميم على ماء يقال له (الكفافة) وتميم فى جمع سعد والرِّباب وبنى عمرو، فقاتلوهم قتالًا شديدًا، وهُزمت تميم وأجفلت، وهذا اليوم يقال له: «يوم كفافة». الأغانى

كما قد تحركه الرغبة فى الانتقام، والأخذ بالثأر؛ ولعل هذا كان من أقوى العوامل فى إثارة الحروب، وإشعال نيرانها أزمانًا وأزمانًا. ومن أمثلة ذلك الحرب بين الأوس والخزرج؛ فقد كان سببها أن قيس بن الخطيم ثأر من قاتل أبيه، ومن قاتل جده حين كبر[1]، ونشبت لذلك حروب بين قومه وبين الخزرج، ومن أيامها «يوم الحديقة»، و «يوم بُعاث»، و «يوم الربيع»[2].

ومن أمثلة ذلك أيضا ما كان من «دريد بن الصمّة، حين أغار بعد مقتل أخيه عبد الله على غطفان، مطالبًا بدمه، فتتبعهم حيًا حيًا، وقتل من عبس ساعدة بن مُرّ، وأسر ذؤاب ابن أسماء بن زيد، وأرادت بنو جشم أن تفتديه، فأبى ذلك عليهم، وقتله بأخيه عبد الله. ولم يكتف بذلك، بل قتل جماعة من بنى فَزارة، وأصاب جماعة من بنى مُرَّة، ومن بنى ثعلبة بن سعد، ومن أحياء غطفان؛ وذلك فى «يوم الغدير»[3].

وقد تثار الحرب لسبب من الأسباب غير إدراك الثأر، ولكن الثأر قد يتخللها فيؤجج أوارها، ويدفع إليها بمزيد من القتلى والضحايا. ومن ذلك: ما يروى من أنه فى حرب «داحس والغبراء»، قتل وَرْدُ بن حابس العبْسىّ هَرِم بن ضمضم المُرِّى، فتشاجرت عبسٌ وذُبيان قبل الصلح، وحلف حُصين بن ضمضم (أخو القتيل) ألا يغسل رأسه حتى يقتل وَرْد ابن حابس، أو رجلا من بنى عبس؛ وقد تمكّن من ذلك، وبلغ خبره الحارث بن عوف وهرِم بن سنان – وكانا قد حملا الحمالة – فاشتد عليهما، وبلغ بنى عبس، فركنوا نحو الحارث، وحين علم ركوبهم إليه، وما قد اشتد عليهم من قتل صاحبهم، بعث إليهم بمائة من الإبل معها ابنه، وطلب من الرسول أن يخيِّرهم بين

جـ ٣ ص ٢٧٤، وانظر أيضًا فى أخبار مقتل قيس بن الصمة أنه قتيل بنى بكر بن أبى كلاب؛ لأنه أغار مع قومه على إبل لبنى كعب بن أبى بكر بن كلاب، فانطلقوا بها، وخرج بنو أبى بكر بن كلاب فى طلبها. الأغانى جـ ١٠ ص ١٤.

(١) كان أبوه الخطيم قتل وهو صغير على يد رجل من بنى حارثة بن الخزرج، وكان عدى أبو الخطيم وهو جد قيس – قد قتل أيضًا قبله على يد رجل من بنى عبد القيس. انظر: السابق جـ٣ ص ٣ وما بعدها. هذا؛ علمًا بأن أبا الفرج يورد روايتين تختلف إحداهما عن الأخرى في قاتلى أبيه وجده، لكنهما تتفقان فى أن أخذ قيس بثأرهما كان السبب فى تلك الحروب. انظر: الأغانى، جـ٣ ص٢ – ٣.

(٢) انظر: السابق، ص٣ وما بعدها.

(٣) انظر: الأغاني، جـ ١٠، ص ١١–١٢.

الإبل وابنه، فأقبل الرسول وقال لهم ذلك، فقال لهم الربيع بن زياد: يا قوم، إن أخاكم قد أرسل إليكم: «الإبل أحبُّ إليكم أم ابنى تقتلونه مكان قتيلكم». فارتَضَوْا بأخذ الإبل، وإتمام الصلح[1].

بل قد يُمعن صاحب الثأر فى الانتقام، فلا يكتفى بقتل واحد، ويتجاوز ذلك إلى المائة؛ كما فعل «مروان بن مُنقذ الذى أغار على بنى عامر بثَهْلان، فقتل منهم مائة بحبيب ابن مُنقذ عمه، وكانوا قتلوه»[2].

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا السياق أن فرعًا من قبيلة قد يرفض دية قتيل لأنه كان سيِّدا مطاعًا فى قومه، على الرغم من وقوع قتلى فى الطرف الآخر المقابل لهذا الفرع؛ مما يكون سببًا فى حرْب تقضى عليهم. ومثال ذلك: ما يذكر من أن السبب فى تفرّق «عَدْوان»، وقتال بعضهم بعضًا حتى تفانَوْا، أن بنى ناج بن يشكُر بن عَدْوان أغاروا على بنى عوف بن سعد بن ظَرِب... بن يشكُر بن عَدْوان، وعلمت بنو عوف بذلك فاقتتلوا، فقتل بنو ناج ثمانية نفر، فيهم عُمير بن مالك سيّد بنى عوف، وقتلت بنو عوف رجلا منهم يقال له: سنان بن جابر، وكان سيدًا مُطاعًا؛ فاصطلح سائر الناس على الديات، وأبى مرير بن جابر أن يقبل بأخيه سنان دية، واعتزل هو وبنو أبيه ومن أطاعهم ومن والاهم، وتبعه على ذلك كرب بن خالد أحد بنى عبْس بن ناج؛ فمشى إليهما ذو الإصبع، وسألهما قبول الدية، مبينًا لهما أنه قد قتل منهم ثمانية نفر، وأنهم قبلوا الدية، على حين لم يقتل من الطرف الآخر إلا رجلٌ واحد، وطلب منهم قبول ديته، فأبيا ذلك، وقاما على الحرب، فكان ذلك بدءًا لحرب شملتهم جميعا، حتى تفانَوْا وتقطّعوا[3].

على أن هناك من الحروب ما كان سببه عدم الوفاء بما التزم بها الطرف الآخر، مما يُعد غدْرًا وخيانة للعهد؛ وأبرز شواهدها: حرب «داحس والغبراء»؛ إذ كان السبب فى نشوبها سباقًا على رهان بين الفرسين، فسميت باسمهما. وكان قد أجراه سيدا عبس وذبيان: قيس بن زهير وحذيفة بن بدر. وكاد «داحس» يسبق لولا أن صُنع له كمين،

(١) انظر: السابق ص ٢٩٣ – ٢٩٤.
(٢) الأغاني: جـ ١٠، ص ٣١٧
(٣) انظر الأغاني، جـ ٣، ص ١٠٣ – ١٠٤.

اعترضه ونفَّره فعدل عن الطريق، وبذلك سبقته «الغبراء» وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق. وطُلب الرهان المضروب، وحدث صدام بين الفريقين اندلعت الحرب على إثره، وظلت سنوات طويلة، حتى تدخل سيدان من ذبيان هما: هرم بن سنان، والحارث بن عوف المُرِّى، فتحملا ديات القتلى، ووضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين، ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف[1].

ويبدو أيضًا أن أنفة العربى وعزته وحريته كانت تأبى عليه قبول الضيم بكل ألوانه وصوره؛ ومن ثم كان يشعل الحرب بمجرد إحساسه بأنه قد أهين، أو مُسَّت كرامته. وخير مثال على ذلك عمرو بن كلثوم[2].

على أن الحرب الناجمة عن البغى والتجبر ربما بدت لنا فى صورة واضحة فى حرب «البسوس» كما يرويها لنا أبو الفرج؛ إذ يذكر «أن كليبًا كان قد عزَّ وساد فى ربيعة، فبغى بغيًا شديدًا، وكان هو الذى ينزلهم منازلهم ويرحِّلهم، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره. فبلغ من عِزّه أنه اتخذ جرو كلب، فكان إذا نزل منزلًا به كلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوي، فلا يرعى أحد ذلك الكلأ إلا بإذنه، وكان يفعل هذا بحياض الماء، فلا يردها أحد إلا بإذنه... فضرب به المثل فى العز فقيل: «أَعزُّ من كُليب وائل» وكان يحمى الصيد، ويقول: صيد ناحية كذا وكذا فى جوارى، فلا يصيد أحد منه شيئًا، وكان لا يمر بين يديه أحد إذا جلس، ولا يحتبى أحد فى مجلسه غيرُهُ، فقتله جساس بن مرة»[3].

والعزّ - كما هو واضح من المثال السابق - ارتبط بالقوة والسيادة والمنعة والسيطرة والقدرة على حماية منازل الكلأ وحياض الماء، فلا يرْعاها أو يرِدُها أحد؛ وكذلك الصيد

---

(1) انظر: الأغاني، جـ١٧، ص ١٩٢ - ١٩٣، و: د. شوقى ضيف، العصر الجاهلى ص ٦٦. هذا؛ وهناك رواية أخرى لتلك الحرب ومنشئها، وتتلخص فى أن داحسًا والغبراء كانا فرسين لقيس بن زهير العبسى، الذى دخل بهما معا فى سباق مع فرسين لحذيفة بن بدر (من ذبيان)، اسمهما: الخطّار والحَنْفَاء. ثم أمر حذيفة بعض رجاله أن ينصبوا كمينًا يعوقون به مسيرة داحس والغبراء أثناء السباق. انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ (طبعة دار الفكر، بيروت) جـ١، ص ٥٦٦ - ٥٨٣. وعلى الرغم من أن فحوى الروايتين واحد، فإن رواية ابن الأثير تذكر أن داحسًا والغبراء كليهما ينتميان إلى قيس بن زهير العبسى.

(2) قصة عمرو بن كلثوم بن هند مشهورة، وسنوردها فى معرض الحديث عن «المرأة». وقد أوردها الأغاني، جـ١١، ص ٥٣ - ٥٤.

(3) الأغاني: جـ٥، ص ٣٤ - ٣٥. وانظر باقى القصة فى الصفحات التالية من نفس المصدر.

فلا يصيد أحدٌ منها شيئًا، ويبدو أن المغالاة فى اتخاذ القوة أداة للبطش والتخويف كان يصطدم بما جُبل عليه العربى من عشق للحرية، وبما فطر عليه من أنفة تأبى قبول الضيم، ومن ثم كانت الحروب تندلع وتستمر أزمانًا طويلة.

وقد يعتز السيد من سادات العرب بعزته، ويأبى أن يطبّق على حليفه ما استقرّ عليه العُرف فى قتله، ويكون هذا إيذانًا بنيران حرب مريرة، مثلما حدث مع «مالك بن العجلان» سيد الخزرج فى زمانه بيثرب؛ إذ قُتل حليفه من بنى ثعلبة، وحين تحقق مالك من قاتله، طلب من قبيلته أن يرسلوه إليه ليقتله، وبعد أخْذٍ وردّ طلبوا منه أن يعطوه نصف الدية؛ لأن صاحبه حليف وليس صريحًا، وأبى أن يأخذ إلا الدية كاملة أو يقتلُ قاتله، وآذن قبيلة بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بالحرب، ثم زحف مالكٌ بمن معه من الخزرج، وزحفت الأوس بمن معها من حلفائها من بنى قريظة والنضير، فالتقَوا بفضاء كان بين بئر سالم وقباء، ثم التقوا مرة أخرى عند أُطُم بنى قينقاع. ويقال: إن هذه الحرب بين الأوس والخزرج استمرت عشرين سنة ، يتعاودون فيها القتال، وكانت لهم فيها أيام ومواطن لم تحفظ[1].

ويبدو أنه لكثرة الحروب فى الجاهلية، واشتهار أهلها بها، واستمرارها أزمانًا طويلة، أغفل الرواة – فى كثير من الأحيان – ذكر أسبابها وبواعثها[2].

وقد استطاع العربى أن يصل بخبرته الطويلة فى مجال الحروب إلى كيفية التعامل مع المواقف المختلفة التى تشهدها ساحة الحرب ولعل ذلك راجع إلى تعوده على ممارسة القتال وتعاقب الأيام عليه بين نصر وهزيمة.

---

(١) انظر الخبر كاملًا فى الأغاني: جـ٣، ص ١٨ – ٢٥. هذا؛ وقد نصح سويد بن الصامت (أحد الكملة من العرب) القوم حين رأى أن مالكا لا يكف عن القتال، بأن يرضوه من حليفه، وألا يستمروا فى القتال، حتى لا يضعفوا، أو يطمع فيهم غيرهم. فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن حرام (أبو حسان بن ثابت) فأجابهم إلى ذلك. وقد استطاع ثابت من خلال حكمه الذى انتهى إليه أن يوقف الحرب بين الطرفين. انظر السابق نفسه، ص ٢٥.

(٢) انظر مثالًا على ذلك ما يسمى بيوم «شُواحط» السابق ج ٣، ص ٢٧٢ – ٢٧٤. وشواحط: جبل مشهور بين مكة والمدينة، وهو الجبل الذى أغارت به سرية من بنى عامر على إبل لبنى محارب. وكذلك ما يسمَّى بيوم «الكُفافة» (اسم ماء صارت به وقعة بين فزارة وبنى عمرو بن تميم) وقد هزمت تميم فى ذلك اليوم. انظر: السابق، نفس الجزء ونفس الصفحة.

ومن ذلك ما وجدناه - مثلًا - من معالجة الأسرى الجرحى، ثم مفاداتهم، كما فى قصة وحوح أخى النابغة الجعدي، إذ أصيب فى معركة، فأخذه خالد بن نضْلة الأسدي، وعطف عليه يومئذ أخوه النابغة، فقال له خالد بن نضْلة: هلُمّ إليَّ وأنت آمن، فقال له النابغة: لا حاجة لى فى أمانك، أنا على فرسى ومعى سلاحي، وأصحابى قريب، ولكنى أوصيك بها فى العوْسجة[1] (يعنى أخاه وحوح بن قيس)؛ فعدل إليه خالد فأخذه وضمّه إليه، ومنع من قتله وداواه حتى فدى بعد ذلك[2].

وقد يكرَّم الأسير فيفرد له بيْت، ويعامل معاملة حسنة فى الإقامة، بل وقد يُهدى إليه، كما حدث مع المهلهل، إذ يروى أن عمرو بن مالك- من فرسان بكر- التقى هو والمهلهل فى خيلين من غير مزاحفة فى بعض الغارات بين بكر وتغلب، فى موضع يقال له نقا الرَّمل، فانهزمت خيل المهلهل، وأدركه عمرو بن مالك فأسره، فانطلق به إلى قومه وهم فى نواحى هجر، فأحسن إساره، وأفرد له بيتًا ينزل فيه[3].

ويقال إنه مر على عمرو بن مالك تاجرٌ يبيع الخمر، قدم بها من هجر، وكان صديقًا للمهلهل يشترى منه الخمر، فأهدى إليه وهو أسير زقَّ خمر، فاجتمع إليه بنو مالك، فنحروا عنده بكْرا، وشربوا عند المهلهل فى بيته، فلما أخذ منهم الشراب تغنى المهلهل بما كان يقوله من الشعر وينوح به على كليب[4].

والمن على الأسير بإطلاق سراحه خُلق عربى يتفق مع طبيعة العربى من حبه للبذل والعفو؛ إذ يقال إن زيد الخيل أغار على بنى مرة بن غطفان إثر هجاء الحارث بن ظالم وعمرو بن الإطنابة الخزرجى له، فأسر الحارث بن ظالم وامرأته فى غارته، ثم منَّ عليهما[5]. ويبدو أن المن على الأسير بإطلاق سراحه كان أحيانًا دون مقابل من فدية أو غيرها، وأحيانًا بمقابل؛ فقد أسر عبد الله بن العجلان رجلًا من قبيلة أخرى وأطلق

---

(١) العوسجة: واحدة العوسج: وهو شجر شائك له ثمر أحمر مدوّر. ولعله يريد بالعوسجة حظيرة أو مظلة متخذة من شجر العوسج.

(٢) انظر: الأغانى جـ ٥، ص ٢٥-٢٦.

(٣) انظر: الأغانى جـ٦، ص ١٢٧ - ١٢٨.

(٤) انظر: السابق نفسه.

(٥) انظر: السابق، جـ١٧، ص ٢٦١.

سراحه مقابل وعد بالثواب، ثم لم يف الأسير بها وعد[1]. وأسر أبو الطمحان فى حرب الفساد[2]، أسره رجلان من طيئ واشتركا فيه، فاشتراه منهما بجير بن أوس بن حارثة بحكمهما فجز ناصيته وأعتقه[3].

وقد يستجير الأسير بعد أسره، فتقبل استجارته، ويحول هذا دون قتله، كما حدث مع المهلهل عندما أسر فى يوم قِضة؛ إذ أسره الحارث بن عُبَاد – وهو لا يعرفه – وكان المهلهل قد قتل بجير بن الحارث بن عباد من قبل؛ فقال له: دُلَّنى على المهلهل، قال: ولى دمى ؟ قال: ولك دمُك، قال: ولى ذمَّتُك وذمة أبيك ؟ قال: نعم، ذلك لك، قال: فأنا مهلهل. قال: دلَّنى على كفء لبجير، قال: لا أعلمه إلا امرأ القيس بن أبان، هذاك عَلَمُه، فجزَّ ناصيته، وقصد امرأ القيس، فشدَّ عليه فقتله[4].

وقد عرفنا من قبل كيف أن الحارث بن عُبَاد جزَّ ناصية المهلهل، وأن بجير بن أوس ابن حارثة جزَّ ناصية أبى الطَّمحان، والأخبار كثيرة فى ذلك[5].

---

(١) انظر: السابق، جـ ٢٢، ص ٢٣٩.

(٢) حرب الفساد من أيام العرب، كانت بين الغوث وجديلة من طيئ؛ «سميت بذلك لما حدث فيها من الفظائع والأهوال؛ فقد قيل: إن هؤلاء خصفوا نعالهم بآذان هؤلاء، وهؤلاء شربوا الشراب بأقحاف رءوس هؤلاء. وفيه يقول جابر بن الحريش الطائي:

إذ لا تخاف حدوجنا قذف النوى … قبل الفساد إقامة ونذيرا

ويقال له أيضا: زمن الفساد، وعام الفساد. ومن أشعارهم فى ذلك أيضًا قول أبى سروة السنبسى:

نخصف بالآذان منكم نعالنا … ونشرب كرها منكم فى الجماجم

الأغاني، جـ ١٣، ص ١٠، هامش ١، ٢.

(٣) انظر السابق جـ ١٣ ص ١٠ – ١١. وكان من عادة العرب أنهم إذا أنعموا على الرجل الشريف بعد أسره جزُّوا ناصيته، وأطلقوه، فتكون الناصية عند من جزها يفخر بها. وربما جُزّت ناصية الأسير شريفًا كان أو غير شريف، وأخذت للافتخار؛ والعرب متفاوتون فى ذلك.

(٤) انظر: السابق جـ ٥ ص ٤٨ – ٤٩.

(٥) يقول زهير من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان المُرِّي، أحد الأجواد فى الجاهلية:

عظمت دسيعته وفضله … جزّ النواصى من بنى بدر

وتقول الخنساء مفتخرة:

جززنا نواصى فرسانها … وكانوا يظنون ألا تجزّا

ومن ظن ممن يلاقى الحروب … بألا يصاب فقد ظن عجزا

انظر: السابق هامش (١) جـ ٥ ص ٤٩.

وتقدر فدية الأسير حسب مكانته فى قومه، ومن ثم ففدية الملوك أعلاها وأغلاها تصل إلى ألف من الإبل، وتعرف بـ «فدية الملوك»[1]، تليها فى القيمة فدية الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة، وقد ذكرنا من قبل ما كان من أسر مرْوان القرظ على يد أحد رجال بكر بن وائل، وكان لا يعرفه، فلما دخل على أمه قالت له: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ ! فقال لها مروان: وما ترتجين من مروان ؟ قالت: عِظم فدائه. قال: كم ترتجين من فدائه ؟ قالت: مائة بعير[2]. حتى نصل إلى فدية السِّفلة ومن هم فى الطبقة الدنيا، كبنى زعبل، الذين كانوا يعدّون أنذالًا، فكان الأسرى ينتسبون إليهم قصدًا إلى رخص الفداء[3].

وقد تنوعت «الدية» أيضا فى مقدارها، حسب مكانة المقتول، وموقعه فى القبيلة سؤددًا وشرفًا.

وطبيعى أن يحتل «الملك» أو «رئيس القبيلة»، وزعيمها المرتبة الأولى فى الثأر وفى الدية كذلك، فـ «فدية الملوك فى الجاهلية أغلى ما دفع ثمنا عن دم»[4]، وقد رأينا كيف أن بنى أسد اجتمعت إلى امرئ القيس بعد قتلهم أباه حُجْر بن عمرو، على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه، وأنه رفض ذلك[5].

وإذا كان امرؤ القيس قد رفض الدية فى أبيه بالغة ما بلغت، فإنه كان هناك عرف شائع، وتقليد مرعى فيما يتصل بدية غيره. وبالنسبة للعربى الصريح[6] فقد كانت ديته مائة من الإبل؛ ومن شواهد ذلك ما حدث فى حرب (داحس والغبراء) عندما قتل قيس ابن زهير عوف بن بدر وأخذ إبله، فبلغ ذلك بنى فزارة، فهمُّوا بالقتال وغضبوا، فحمل

---

(١) انظر: د. جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٤، ص ٥٤٢.
(٢) انظر: الميداني: مجمع الأمثال: جـ ٣، ص ٤٤٨ - ٤٤٩.
(٣) انظر: الأغانى، جـ ١٦، ص٣٣٢.
(٤) د. جواد على: نفس المصدر والصفحة.
(٥) انظر: الأغاني. السابق جـ ٢٢، ص ٨٢. وفى رواية أخرى: يقدمون له فداء بها يروح من بنى أسد من نَعَمها؛ فهى ألوف تجاوز الحِسْبة. انظر: السابق جـ ٩، ص ١٠٤.
(٦) الصريح هنا فى مقابل الحليف.

الربيع بن زياد (من بنى عبس) دية عوف بن بدر مائة عُشَراء مُتْلية[1]. ومن شواهده أيضًا ما صنعه أبو الطَّمحان القيني، وكان مجاورًا لبطن من بطون طيئ يقال لهم بنو جديلة، فنطح تيْس له غلامًا منهم فقتله، فتعلقوا أبا الطمحان وأسروه حتى أدى ديته مائة من الإبل، وجاء نزيله وكان يدعى هشاما؛ ليدفع عنه فلم يقبلوا قوله[2].

أما الحليف فله نصف دية؛ يدل على ذلك ما مر من الحرب بين الأوس والخزرج، وكان سببها رفض مالك بن العجلان أن يأخذ فى حليفه من بنى ثعلبة نصف الدية، وأبى أن يأخذ إلا الدية الكاملة[3].

وبعض الأخبار تذكر أنه كان هناك ما يسمّى بدية (الخفارة)[4] وهى سبعون عُشراء. وقد ورد هذا فى الخبر الذى يروى استجارة الحارث بن عوف بالنبى ﷺ من شعر حسان بن ثابت؛ فقد أتى الحارث بن عوف رسول الله وقال له: ابعث معى من يدعو إلى دينك وأنا له جارٌ، فأرسل معه رجلًا من الأنصار، فغدرت بالحارث عشيرته فقتلوا الأنصاري، فقدم الحارث على رسول الله ﷺ، وكان رسول الله لا يؤنب أحدًا فى وجهه، فقال: «ادعوا لى حسان» فدعى له، فلما رأى الحارث أنشده:

يا حارِ من يَغْدُر بذمة جاره منكم فإن محمدًا لم يغدر
إن تغدروا فالغدرُ منكم شيمةٌ والغدر ينبت فى أصول السَّخْبَرِ[5]

فقال الحارث: اكففه عنى يا محمد، وأؤدى إليك دية الخفارة، فأدّى إلى النبى ﷺ سبعين عشراء، وكذلك دية الخفارة، وقال: يا محمد، أنا عائذ بك من شرِّه، فلو مزج البحر بشعره مزجه[6].

---

(١) انظر: الأغانى جـ ١٧، ص ١٩٤. والعشراء: التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر من مَلْقَحها، والمتالي: التى نتج بعضها، والباقى يتلوها فى النتاج، أو التى قد دنا نتاجها.

(٢) انظر: السابق، جـ ١٣، ص ١١.

(٣) انظر: ما مضى ص ٨٨-٨٩.

(٤) الخفارة: الذمام.

(٥) السخبر: شجر إذا طال تدلت رءوسه وانحنت. وقيل: شجر من شجر الثمام، له قضب مجتمعة وجرثومة. واللسان يقال: ركب فلان السخبر إذا غدر، وذكر البيت، نقلا عن هامش (١) ص ١٥٥. الأغانى ج ٤.

(٦) انظر: الأغاني: جـ ٤، ص ١٥٤ – ١٥٥.

وطبيعي أن تقل قيمة الدية شيئًا فشيئًا، حتى نصل إلى ديات المغمورين فتكون أقلها ثمنًا[1].

ويبدو أنه على الرغم من أن هذا كان عرفًا سائدًا وذائعًا، فإن هناك حالات ندَّت عنه، وخرجت عليه، ومما يروى فى ذلك أنه كان هنـاك قوم من «الأزد» يقال لهم «الغطاريف» كانوا يأخذون للمقتول منهم ديتين، ويعطون غيرهم دية واحدة إذا وجبت عليهم[2].

ويبدو أن العرف الشائع لم يكن يميل إلى قتل الأسرى، أو إساءة معاملة السبايا، اللهم إلا إذا حدث ذلك على سبيل التشفِّي، أو المعاملة بالمثل. فالتعامل مع السبايا بما يحفظ عليهن كرامتهن، وعدم قتل الأسرى، والترفع عن التكالب على الأسلاب كانت من الأمور التى يُنظر إليها نظرة تقدير وإكبار، ومن ثم فإن من يتصف بها جدير بأن يبلغ منازل السيادة والعز فى قومه. والأخبار تتحدث عما كان بين خُفاف بن نُدبة والعباس بن مرداس، وأن خفافًا كان يتحدث فى ملأ من بنى سُليم، ويقول: إن العباس ابن مرداس يريد أن يبلغ فينا ما بلغ عباس بن أنس، ويأبى ذلك عليه خصال قعدْن به، ثم يتحدث عن هذه الخصال، وتتمثل فى «الاستهانة بسبايا العرب»، و «قتل الأسرى»، و«المكالبة على الأسلاب». وحين علم العباس بذلك ردَّ على خفاف بأنه يعلم أنه يحمى المصافّ، ويتكرّم على السَّلَب[3]، ويُطلق الأسير، ويصون السبيَّة. وبالنسبة لاستهانته بسبايا العرب التى يُتّهم بها فإنه يحذو فى فعله هذا حَذْو القوم بفعالهم فى نسائهم. وأما قتله الأسرى فإنه قتل الزبيدى بخال خُفاف، حين عجز عن الثأر[4].

هذا؛ وهناك ظواهر أخرى نجمت عن تلك الحروب، وكان لها جوانبها الإيجابية فى بعض الأحيان كظاهرة ما يعرف «بالحمالة»، وكذلك «الحلف والجوار» وإيقاف القتال فى الأشهر الحرم؛ كما كان لها آثارها السلبية فى أحيان أخرى كالإمعان فى الثأر، والتشفِّي، وارتكاب كثير من الفظائع والأهوال.

---

(١) انظر: د. جواد على، نفس المصدر السابق والصفحة.

(٢) انظر: الأغانى جـ ١٣، ص ٢١١.

(٣) المصاف: مواقف القتال. والتكرم على السلب: ترفعه عنه، وعدم التكالب عليه.

(٤) انظر السابق جـ ١٨، ص ٧٥ - ٧٦، ٨١ - ٨٣.

وقبل أن نتحدث عن هذه الظواهر نشير إلى أن «الغنيمة» كانت تقسَّم على المنتصرين ما عدا العبْد، فإنه كان يحارب ولا يأخذ شيئًا من الغنائم مثل الأحرار. وكان الرئيس يأخذ ربعها، وهو ما يطلق عليه «المرباع». وقد اشتهر بذلك كثير من العرب مثل: الحارث الأضجم، وهو رجل من بنى ضُبَيْعة بن ربيعة بن نزار، وهو صاحب «المرباع»[1]، وكذلك: حاتم الطائي[2] وغيرهما.

وقد يأخذ «المرباع» من يقوم بدور بارز فى القتال، حتى يحقق الغلبة والنصر على الأعداء؛ ومثال ذلك ما يروى من أن بنى نبهان غزت فَزَارة، ومعهم زيد الخيل، فانهزمت فَزارة، وساقت بنو نبهان الغنائم من النساء والصبيان. ثم إن فزارة حشدت جموعها واستعانت بأحياء من قيس، وفيهم رجل من سُليم شديد البأس سيّد يقال له: عباس بن أنس الرعلىّ، وكانت بنو سُليم قد أرادوا عقد التاج على رأسه فى الجاهلية؛ ولم يكن لزيد المرباعُ حينئذ، وأدركت فزارة بنى نبهان، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فلما رأى زيد ما لقيت قبيلته بنو نبهان نادى: يا بنى نبهان: أأحمل ولى المرباع؟ قالوا: نعم، فشد على بنى سليم فهزمهم، وأخذ أم الأسود امرأة عباس بن أنس، ثم شد على فزارة والأخلاط فهزمهم[3].

وقد تتبدل الأحوال فيترك الرئيس «المرباع» لغيره، ممن استعان به، وحقق له الغلبة؛ فقد كان الحارث بن عبد الله بن بكر بن يشكر يأخذ من جميع الأزد إذا غنموا الربع؛ لأن الرياسة فى الأزد كانت لقومه، وكان يقال لهم «الغطاريف»، وحدث أن غزتهم بنو فُقَيم بن عدى بن الدِّيل فظفرت بهم، فاستغاثوا ببنى سلامان فأغاثوهم حتى هزموا بنى فُقيم، وأخذوا منهم الغنائم وسلبوهم، فأراد الحارث أن يأخذ الربع كما كان يفعل،

---

(١) انظر: السابق، جـ ١٧، ص ٢٠٠.

(٢) انظر: السابق، جـ ٨، ص ٢٤٦ - ٢٤٧. وفيه أن عبد قيس بن خُفاف البُرجُمى وكان شريفًا شاعرًا شجاعًا أتى حاتم الطائى فى دماء حملها عن قومه، فأسلموه فيها وعجز عنها، وقد قال له حاتم: إنى كنت لأحب أن يأتينى مثلك من قومك، وهذا مرباعى من الغارة على بنى تميم فخذه وافرًا، فإن وفى بالحمالة وإلا أكملتها لك.

(٣) انظر: السابق، جـ ١٧، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

فمنعه مالك بن ذهل بن مالك بن سلامان، وقال: «هيهات. ترك الرُّبع غدوة»[1]، فأرسلها مثلًا[2].

وفيما يتصل «بالحمالة»[3] وهى تحمُّل دية القتيل وإعطاؤها لأهله، فقد كان السيد فى القبيلة بما عرف عنه من كرم ونجدة، وعون فى الشدائد والملمات يتحملها عن قومه. ويبدو أنه كان يُرصَدُ لها كثير من الإبل، حتى يتيسر الأمر لمن يقوم بها إذا تطلب الموقف ذلك. ففى خبر عدى بن زيد، أن والده زيد بن حمّاد – وكان قد أصبح له شأن فى عهد المنذر ملك الحيرة، إذ كان هو المتولى لأمور البلاد، والحاكم الفعلي، فى حين كان «للمنذر» اسم المُلْك فحسب – هلك، وابنه عدى يومئذ بالشام، و «كانت لزيد ألف ناقة للحمالات، فكان أهل الحيرة أعطوه إياها حين ولّوْه ما ولّوه، فلما هلك أرادوا أخذها، فبلغ ذلك المنذر، فقال: لا، واللات والعُزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد ثُفْرُوق»[4].

و«الحمالة» أمارة سيادة وعلامة عز، ومن ثم كان تذكر فى عداد ما يفاخر به؛ وقد يتحملها الابن عن أبيه[5].

وقد تثقل هذه «الحمالة» على صاحبها، فيذهب إلى سيد آخر من سادات العرب أكثر سعة ووفْرًا؛ مثل ما حدث مع عبد قيس بن خفاف حين حمل ديات عجز عنها، فذهب إلى حاتم الطائي[6].

ومن أشهر «الحمالات» ما تحمله هرم بن سنان والحارث بن عوف المرى فى حرب داحس والغبراء.

أما «الأحلاف والجوار»[7] فقد أصبحت ضرورة اقتضتها طبيعة الحياة فى الجزيرة

---

(١) «ترك الربع غدوة»: يُضرب للتعبير عن الندم على الأمر يُطلب بعد فواته مثل: «الصيف ضيعت اللبن».

(٢) انظر: الأغانى جـ١٣، ص ٢١١.

(٣) الحمالة: بالفتح الدية والغرامة التى يحملها قوم عن قوم. انظر: ص٦٥، هامش (٦).

(٤) الأغاني: جـ٢، ص ١٠٤. والثفروق: قمع البُسرة والتمرة. وهو: غلافة ما بين النواة والقِمَع من التمرة. والعنقود إذا أكل ما عليه فهو ثفروق؛ ويكنى به عن القلة، فيقال: ماله ثفروق أى ما له شيء. الأغاني: جـ ٢، ص ١٠٤.

(٥) فى أخبار الفرزدق الشاعر الأموى أن أباه «غالب بن صعصعة» – وكان يكنى أبا الأخطل، وكان سيد بنى تميم – استجير بقبره وهو بكاظمة فى حمالة فاحتملها الفرزدق. د. محمد حمّود. الفرزدق. ص٧.

(٦) انظر: الأغاني: جـ٨، ص ٢٤٦، وهامش (٤) صفحة ٩٦ من هذا البحث.

(٧) سبق أن تحدثنا عن « الحلف والجوار» فى مقام آخر بعنوان «قانون الجوار وما ارتبط به من أحلاف». ص ٤٨ من هذا البحث.

العربية، وما تقوم عليه من غارات وحروب. فالحِلْف- كما سبق - نوع من العقد المُلزِم لأطرافه، وله تبعاته، وكثيرًا ما يروى أن قبيلة فلان وفلان تحالفوا، فاستطاعوا أن يحققوا الغلبة؛ ومن ذلك: «... فبينما بنو مالك يقتسمون إذ غشيتهم فزارة وغطفان، وهم حُلفاء، فاستنقذوا ما بأيديهم»[1]. وفى حرب جديلة والغوث التى يقال لها «حرب الفساد»، وفى يومها الأخير وهو عِرْنان [2] انهزمت جديلة هزيمة قبيحة، وهربت فلحقت بكلب وحالفتهم، وأقامت فيهم عشرين سنة[3].

وفى الجوار: «وقعت حربٌ بين أخلاط طيئ، فنهاهم زيد الخيل عن ذلك، وكرهه فلم ينتهوا، فاعتزل وجاور بنى تميم، ونزل على قيس بن عاصم، فغزت بنو تميم بكر بن وائل وعليهم قيس، وزيد معه، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وزيد كافٌّ. فلما رأى ما لقيت تميم ركب فرسه، وحمل على القوم، وجعل يدعو: يالتميم... حتى هزمت بكر، وظفرت تميم، فصارت فخرًا لهم فى العرب، وافتخر بها قيس»[4].

ويبدو أن العرب كانوا فى مسيس الحاجة إلى فترة من الهدنة يتوقف فيها القتال، وتقوم فيها الأطراف المتحاربة بتنظيم شئونها، وتدبير حياتها، وممارسة أنشطتها الاقتصادية والدينية، وما إلى ذلك من أمور؛ هذه الفترة هى ما يطلق عليها «الأشهر الحُرم». فكثيرًا ما نرى تهديدًا ووعيدًا بالحرب بعد انقضاء الأشهر الحرم، كما فى البيت التالى لتأبّط شرًّا:

فعُدُّوا شهورَ الحُرْم ثم تعرَّفوا قتيل أُناس أو فتاةَ تعانقُ[5]

وكثيرًا ما نرى قيامًا بأعمال الخير فى هذه الأشهر، وقصدًا إلى الحج فيها، ففى معرض

---

(١) الأغاني: جـ١٧، ص ٢٦٢.

(٢) عرنان: جبل بين تيماء وجبلى طيئ.

(٣) انظر الأغاني: جـ ١٣، ص ١٠.

(٤) الأغاني: جـ ١٧، ص ٢٦٨.

(٥) انظر: الأغانى، ج ٢١، ص ١٣٨. والبيت ورد ختامًا لأبيات يرثى فيها الشاعر صاحبين له كانا قد خرجا معه للإغارة على قبيلة العوص من بجيلة: فأخذوا نعما لهم، وأتبعتهم العوص، فأدركوهم، وفر الشاعر، وقتل صاحباه. وهو يقول فيه: إذا انقضت هذه الأشهر فعدوا قتلاكم، وغدوا فتياتكم السبايا. هذا، وهناك

الحديث عن حاتم الطائي تذكر بعض الأخبار «أنه إذا أهلَّ الشهرُ الأصمّ[١] الذى كانت مُضر تعظمه فى الجاهلية ينحر فى كل يوم عشرًا من الإبل، فأطعم الناس واجتمعوا إليه، فكان ممن يأتيه من الشعراء الحطيئة وبشر بن أبى خازم»[٢]. وفيما يتصل بالحج يروى أن العرب كانت تحج فى الجاهلية، فلا يعرض بعضها لبعض[٣].

على أنه قد تنتهز بعض القبائل الفرصة فتخرج عما هو متعارف عليه، ولا تراعى حرمة هذه الأشهر، كأن تأسر بعض الأشخاص، كما فعل بنو عامر بن عقيل حين وثبوا على قيْسَبة بن كلثوم السَّكوني، فأسروه وأخذوا ماله، وما كان معه، وألقوه فى القِدِّ، وكان ملكًا. خرج يريد الحج[٤].

وإذا كان «الثأر» عادة تأصّلت فى نفس العربي، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من تكوينه العقلى والوجداني، نتيجة لظروف ساعدت على استمرارها وترسيخها، فإنه – فى كثير من الأحيان – قد تحوَّل إلى أداة بطش وتنكيل.

وممن اشتُهر بهذا عمرو بن هند[٥] ملك الحيرة، والملقب بالمحرّق. ومما يروى له فى

نصوص أخرى تبين الخروج للغارة بعد انقضاء الأشهر الحرم من مثل: «فلما انقضت الأشهر الحرم خرج تأبط والمسيب بن كلاب فى ستة نفر يريدون الغارة على بجيلة.. «السابق ج ٢١، ص ١٦٠، ومن مثل: «كان من شأن تأبط... أنه خرج من أهله بغارة من قومه، يريدون بنى صاهلة.. وذلك فى عقب شهر حرام مما كان يحرم أهل الجاهلية». السابق، ج ٢١، ص ١٦٩.

(١) فى القاموس: «رجب الأصم؛ لأنه لا ينادى فيه: (يا لفلان ! ويا صباحاه!)».

(٢)انظر الأغاني: جـ ١٧، ص ٣٦٦.

(٣) انظر: السابق، جـ ١٣، ص ٣.

(٤) انظر: السابق، نفس الصفحة. والقِدّ: سير من جلد غير مدبوغ، فتشد به الأقتاب والمحامل، ويتخذ منه السوط، ويقيّد به الأسير. هذا؛ ومن المعروف أنه كان فى الجاهلية ما يعرف «بالنسيء» وهو تأخير حرمة القتال من شهر إلى آخر؛ فيحرمون المحرم عامًا، ويُحِلّون الصَّفَر، فإذا كان فى العام بعدة أحلّوا المحرم، وحرموا بعده صفر؛ لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حُرم، لا يغيرون فيها، لأن معاشهم كان من الغارة، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [سورة التوبة: الآية ٣٧]. انظر: مختصر تفسير الطبرى – رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر. ولسان العرب: مادة (نسأ).

(٥) هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء، ويعرف باسم أمه هند بنت الحارث الملك المنصور بن حُجْر آكل المرار الكندى. انظر: الأغانى جـ ٢٢، ص ١٨٧.

ذلك ما كان من قتله سبعة أبناء لسويد بن ربيعة الدارمىّ، وكان سببًا فى موت ابن المنذر ابن ماء السماء أو أخيه، وكان عند سويد ابنة زرارة بن عُدَس، فولدت له سبعة غِلْمة، بعضهم فوق بعض، فأمر بإحضارهم، وبإمضاء أمهم بنت زُرارة، ثم أمر بقتلهم، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه، وتعلَّق بزرارة الآخرون فتناولوهم، فقال زُرارة: يا بعضى دع بعضًا[1]، فذهبت مثلًا وقتلوا[2].

وإذا كان صاحب الثأر ذا سطوة أمعن فى الانتقام؛ ومثال ذلك امرؤ القيس؛ فحين بلغه مقتل أبيه على يد بنى أسد قال: «الخمر علىّ والنساء حرام حتى أقتل من بنى أسد مائة، وأجزَّ نواصى مائة»[3].

وهناك رواية تذهب إلى أنه قدم على امرئ القيس بعد مقتل أبيه رجال من بنى أسد كهول وشبان، فيهم المهاجر بن بنى خِداش بن عم عبيد بن الأبرص، وقبيصه بن نُعيم، وكان ذا بصيرة بمواقع الأمور، وتقدم قبيصه - بعد أن امتدح امرأ القيس، بأن له من سؤدد المنصب وشرف الأعراق وكرم الأصل ما يمكنه من احتمال العثرات، وكرم الصفح - وعرض عليه واحدًا من أمور ثلاثة: إما أن يختار من بنى أسد أشرفها بيتًا انتقامًا لأبيه، وأما أن يقبل فداء بما يروح من نعَمها فهى ألوف تجاوز الحسبة، وإما أن يمهلهم حتى تضع الحوامل. وكانت إجابة امرئ القيس: «لقد علمت العرب أن لا كفء لحُجر فى دم، وإنى لن أعتاض به جملًا أو ناقة فأكتسب بذلك سُبَّة الأبد، وفتَّ العضُد. وأما النَّظِرة فقد أوجبتها الأجنَّةُ فى بطونها، ولن أكون لعطبها سببًا، وستعرفون طلائع كندة بعد ذلك، تحمل فى القلوب حَنَقًا وفوق الأسنة عَلَقًا:

إذا جالت الخيلُ فى مأزق ... تصافح فيه المنايا النفوسا[4]

---

(١) مثل يضرب فى تعاطف ذوى الأرحام، وأراد بقوله: يا بعضي، أولاد ابنته، لأنهم جزء منه.

(٢) انظر: الأغانى جـ ٢٢، ص ١٩٠ - ١٩٢. وانظر: أيضًا: قصة تحريقه مائة رجل من بنى حنظلة. السابق ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) الأغاني: جـ ٩، ص ٨٧. وهو يريد: حتى أقتل منهم مائة، وآسر مائة. وكان من عادات العرب إذ أسر الرجل منهم آخر وأراد أن يمنّ عليه جزّ ناصيته، وأطلقه، فتكون الناصية عنده فخرًا، وقد سبق أن ذكرنا شواهد لذلك؛ انظر ص ٩٢ من هذا البحث.

(٤) السابق: ج ٩، ص ١٠٥.

وأخيرًا، يمكننا أن نذكر للتدليل على الآثار المدمرة للحروب، وعلى مدى الإمعان فى التشفى والتنكيل ما يسمَّى «بحرب الفساد»[1]؛ إذْ تحزَّبت جديلة من طيِّئ حزبين: حزب جديلة وحزب الغوث، وكانت هذه الحرب بينهم أربعة أيام، ثلاثة منها للغوْث، ويوم لجديلة[2].

هذا؛ وقد تبين من هذا الفصل أن القدماء أطلقوا على الحروب فى العصر الجاهلى «أيام العرب»، وهى تسمية ذات مغزى فى الدلالة على أهمية هذا الجانب فى حياة العربى.

وقد كشفت هذه الدراسة عن أهم أسباب تلك الحروب وفى مقدمتها: السبب الاقتصادى، وطبيعة العربى الذى يعشق الحرية، ويحيا حياة العزة، ويغار على المرأة، ويستميت فى الدفاع عنها صونًا لها من الابتذال أو الامتهان.

وتبين لنا أهم نتائجها سلبية كانت أو إيجابية؛ سلبية فيما كانت تحدثه من سفك للدماء، وتمزيق للأواصر، وإثارة للأحقاد؛ وإيجابية فى: العفو عن الأسير، والتعامل معه إنسانيًا، واصطناع ما يعرف «بالحمالات» فى دفع ديات القتلى، بل إنه - سعيًا منه فى مواجهة هذه الظاهرة، ورغبة فى استمرار الحياة - شرع ما يعرف «بالأشهر الحرم»، وفيها يوقف القتال وينعم الجميع بحياة الأمن والسلام.

***

(١) انظر: ما مضى من البحث، ص ٩٩.

(٢) انظر: الأغانى جـ ١٣، ص ١٠.

الفصل الثالث

المــرأة

عرفنا من قبل أن المجتمع الجاهلى - فى صورته العامة - كان مجتمعًا قبليًا، انقسم العرب فيه إلى وحدات اجتماعية متعددة، عرفت كل منها باسم «القبيلة».

وأساس تكوين القبيلة الأسرة؛ فالأسرة هى الوحدة الصغرى فى المجتمع الجاهلي. ولا شك أن المرأة قامت بدور فى تشكيل هذه الأسرة، انعكس على المجتمع فى جوانبه المتعددة. وسوف نتبين هذا الدور فى الصفحات التالية:

مكانة المرأة:

حظيت المرأة بمكانة عظيمة فى العصر الجاهلي، وقامت بدور لا يستهان به فى حركة المجتمع آنذاك، على عكس ما قد يتبادر للأذهان، أو تردده الألسنة. وليس أدل على ذلك من بعض الظواهر التى تنم عن احتفاء العربى بها، وتقديره لها، وتضحيته من أجلها. بل إن ما يُعرف من غيرة العربى على عرضه من أن يُمَسّ، وحرصه على كرامة المرأة من أن تهان - لما يُسْلك فى هذا الباب.

ويرتبط بذلك نظرة بعض الشعراء الجاهليين إلى المرأة، فى لون من المثالية المحببة التى تستجيب لنداء الفطرة وتصونها من أن تبتذل أو تمتهن. ويكفى أن نشير إلى أبيات للشنفرى من شعراء الصعاليك - يصور فيها جانبًا من هذه المثالية، يقول:

أميمةُ لا يُخزى نثاها حليلَها — إذا ذُكر النسوان عفَّت وجَلَّت[1]

يحل بمنجاة من اللَّوم بيتها — إذا ما بيوت بالملامة حلَّت

---

(١) النثا: الحديث، يريد أن حديثها عن زوجها دائمًا ذكر بالخير.

فقد أعجبتنى لاسَقُوطٌ قناعُها إذا ما مشت، ولا بذات تلفُّتِ[١]

كأن لها فى الأرض نسيا تقصُّه إذا ما مشت، وإن تحدِّثك تبْلتِ[٢]

...

تبيت بُعَيد النوم تهدى غَبوقها لجارتها إذا الهدية قلَّتِ[٣]

عرف الرجل العربى للمرأة العربية حقها فى حياة حرة كريمة، يحوطها سياج كبير من الإعزاز والتقدير؛ ومن ثم كان الذائد عنها، والمنافح سلمًا وحربًا. يدفعه إلى ذلك دافع النخوة العربية، والإباء الذى يرفض الضيم بكل صوره وألوانه.

وفى الموروث العربى صور كثيرة تدعم ذلك. وقصة عمرو بن كلثوم مع عمرو بن هند ملك الحيرة، وقتله إياه لمجرد إحساسه أن أمه قد أهينت من خير الأمثلة لذلك[٤].

---

(١) لاسقوط قناعها: يصفها بالتصون والتحشم. أى لا تتعمد إسقاط خمارها، كى يرى الناس جمالها. ويبدو أن هذه العادة كانت مألوفة فى النساء، ولذلك ينفى النابغة عن المتجردة تعمد إسقاط النصيف فى قوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

الأغانى ج ٢١ هامش ص ١٧٨.

(٢) النسى: الذى يسقط من الإنسان، وهو لا يدرى أين هو، يصفها بالحياء، وأنها لا تلتفت يمينًا ولا شمالًا ولا تتبرج. تبلت: أى تبلت الكلام وتقطعه بما يعتريها من البهر. (انظر اللسان مادة: بلت).

(٣) الأغانى: السابق ص ١٨٦ ـ ١٨٧ بتصرف.وقد وردت الأبيات فى «المفضليات» مع اختلاف قليل من الترتيب، وفى الصياغة أحيانًا. كما ورد تعقيب الأصمعى. هذه الأبيات أحسن ما قيل فى خفر النساء وعفتهن». انظر المفضل الضبى: المفضليات. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون. ط دار المعارف. ١٩٩٣م، ص ١٠٩.

(٤) يروى أن عمرو بن هند قال يومًا لندمائه: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمُّهُ من خدمة أمى ؟ فقالوا: نعم ! أم عمرو بن كلثوم؛ لأن أباها مهلهل بن ربيعة، وعمّها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يُزير أمّه أمّه. وبعد أن أقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة من بنى تغلب وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظُعُن من بنى تغلب أيضا – أمر عمرو بن هند برواقه فضرب بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا فى وجوه بنى تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند فى رواقه، ودخلت ليلى وهند فى قبة من جانب الرواق. وكان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى. فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناولينى يا ليلى ذلك الطبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها وألحت. فصاحت ليلى: واذلاه ! ياتغلب ! فسمعها عمرو ابن كلثوم فثار الدم فى وجهه، ونظر إليه عمرو بن هند فعرف الشرف فى وجهه، فوثب عمرو بن كلثوم إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرّواق ليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند. انظر: الأغانى جـ ١١ ص ٥٣ – ٥٤.

وكان الرجل يشرك امرأته فيما يتحلى به من حميد الصفات، وجليل الأعمال، ويشهدها على حسن بلائه، وجميل فعاله. يقول عبد يغوث:

وقد علمتْ عُرْسى مُلَيْكَةُ أنني   أنا الليث معدُوًّا عليه وعاديا

...

وقد كنت نحّار الجزور ومُعْمِل الـ   مَطِيِّ، وأَمْضِي حيث لاحيَّ ماضيا

وأنحر للشَّرْب الكرام مطيتي   وأصدع بين القينتين ردائيا

وعاديةٍ سَوْمَ الجراد وزعْتُها   بكفىِّ وقد أَنْحَوْا إلىّ العواليا[1]

ولم يكن أقسى على نفس العربى من أن تهان المرأة العربية أُمًّا كانت أو زوجًا أو ابنة؛ فضلًا عن أن تقع فى الأسر، وتؤخذ سبية، مملوكة للغير. لهذا كانت القبيلة إذا أرادت نكاية القبيلة الأخرى وإيلامها أخذت أكبر عدد ممكن من النساء سبايا؛ لأن فى ذلك إهانة للطرف الآخر، وهن خلوف[2]،فيؤخذن سبايا. ومن هنا «كانت حماية النساء والأطفال خطة أساسية فى فنهم الحربي. ومن هنا أيضا كانت المقدرة على حماية الظعينة عنصرًا أساسيًا من عناصر البطولة العربية، حتى لقد كانوا يطلقون على بعض أبطالهم لقب (حامى الظعينة) أو (فارس الظعينة) [3]». وكأن حماية الظعينة أصبح أمارة فروسية، ودلالة بأس؛ يقول عمرو بن معد يكرب: «لو سرت بظعينة وحدى على مياه معدٍّ كلها، ما خفت أن أغلب عليها، ما لم يلْقنى حُرَّاها أو عبداها. فأما الحُرَّان فعامر ابن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وأما العبدان فأسود بنى عبس: يعنى عنترة والسُّليك بن السُّلكة، وكلهم قد لقيت»[4].

وقد كنّى عروة بن الورد عن زوجته «بأم حسان»، فى مقام ردِّه على لومها له، لمخاطرته بحياته. وهذا المقام من شأنه أن يثير الغضب، ولكن خطابه لزوجه بهذه الصورة يشعر

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ بتصرف. ويقصد بالعادية: القوم المهاجمين.
(٢) انظر:الأغاني، جـ٣ صـ ٧٥، جـ١٧ ص ١٨٩ .، جـ ٢١، ص ١٦٣ .
(٣) د. يوسف خليف، السابق، ص ١٠٤ .
(٤) الأغانى جـ ١٥، ص ٢١٤ .

بتكريمه لها، وتقديره لموقفها فى نفسه. يقول عروة:

أرى أمَّ حسَّان الغداة تلومُنى ... تخوِّفنى الأعداء والنفس أخْوفُ
تقول سُليمى لو أقمت لسرَّنا ... ولم تدر أنى للمُقام أطوِّف
لعلَّ الذى خَوَّفْتِنا من أمامنا ... يصادفه فى أهله المتخلِّفَ[1]

واعترافًا بمكانة المرأة، وتقديرًا لدورها فى الحياة الاجتماعية، منحتها القبيلة ما منحته للسيد الشريف، فمن حقّها أن تُجير، وأن يحترم الآخرون جوارها، بل وأن يكون لها من العز والمنعة ما للرجل سواء بسواء.

ومن شواهد ذلك ما حدث من السُّلَيك، حين أغار على بنى عَوار بطن من بنى مالك بن ضُبيعة، فلم يظفر منهم بفائدة. وكانوا يعرفون أنه إذا عدا لم يلحقوا به، ومن ثم أمهلوه حتى ورد الماء وشرب، وثقل، ثم بادروه، فلما علم أنه مأخوذ خاتلهم وقصد لأقرب بيوتهم حتى دخل على امرأة منهم يقال لها فُكيهة، فاستجار بها، فمنعته وجعلته تحت درعها، واخترطت السيف، وقامت دونه، فكاثروها، فكشفت خمارها عن شعرها، وصاحت بإخوتها، فجاءوها، ودافعوا عنه حتى نجا من القتل[2].

ومن أمثالهم: «أوْفى من خُمَاعة». وخُماعة هذه بنت عوْف بن محلِّم، ويقال إنها أجارت مروان القَرَظ، وكان قد غزا بكر بن وائل، فأسره رجل منهم وهو لا يعرفه، فأتى به أمه،

---

(١) الأغانى: ج ٣ ص ٨٢. هذا، ويروى صاحب الأغانى عن ابن الأعرابى قوله: «أجذب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم، وأصابهم جوع شديد وبؤس، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته، فلما بصروا به صرخوا وقالوا: يا أبا الصعاليك، أغثنا، فرق لهم، وخرج ليغزو بصهم، ويصيب معاشًا، فنهته امرأته عن ذلك لما تخوفت عليه من الهلاك، فعصاها وخرج غازيًا... حتى انتهى إلى بلاد بنى القين، فأغار عليهم، فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه ثم ذكر الأبيات السابقة. وقد كنى عروة عن امرأته فى موضع آخر بأبيها وابنها، وهو يرد عليها فى لومها أيضًا، يقول:

أقلى على اللوم يابنة منذر ... ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى ... بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى، والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامة فوق صير

انظر: شعر عروة بن الورد العبسى، صنعة ابن السكيت، تحقيق: د. محمد فؤاد نعناع (مكتبة الخانجى القاهرة) ط ١ ١٩٩٥م، ص ٤١ ـ ٤٢.

(٢) انظر: الأغاني، جـ٢٠، ص ٣٨٣.

فلما دخل عليها قالت له أمه: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ، فقال لها مرْوان: وما ترتجين من مرْوان ؟ قالت: عِظَم فدائه، قال: وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت: مائة بعير، قال مروان: ذلك لك على أن تؤدينى إلى خماعة بنت عوف بن محلِّم[1].

وكان لمروان مِنَّةٌ وفضل على «خماعة»؛ إذ استطاع أن يفتديها من أسرها، ويحملها إلى منازل قومها. وانطلقت إلى أبيها فخبّرته بصنيع مروان، وما كان بينه وبين قومه فى أمرها. فكانت هذه يدًا لمروان عند «خماعة»، فلهذا قال للمرأة: ذلك لك على أن تؤدينى إلى «خماعة» فقالت المرأة: ومن لى بمائة من الإبل ؟ فأخذ عودًا من الأرض فقال: هذا لك بها[2].

هذا؛ ومن المعروف أن العرب كانت «لا تنكح الرجل امرأة شبَّب بها قبل خطبته[3]» فلا يزوجونها إياه. والشواهد لذلك أشهر من أن يقدَّم لها نماذج وأمثلة.

ولعل مردّ ذلك إلى أنهم كانوا يدركون أن التشبيب بها فى الشعر، يسير على الألسنة ويشيع بين الناس، مما قد يُظن أن ما يصوره الشاعر خيالا، يُتوهم حدوثه تحقيقًا؛ ومن ثم فهم - إذ يتخذون هذا الموقف - إنما يصونون المرأة العربية من أن يُشَّهر بها أو تلوكها الأفواه.

وإذا كان التشهير بالمرأة عن طريق «التشبيب» بها، يحول بينها وبين الزواج ممن شهَّر بها، فإن هناك صورة أخرى لهذا التشهير؛ إذ يعمد أحد الشعراء إلى أن يتغزل بامرأة بعينها من قبيلة بعينها بينها وبين قبيلة الشاعر خصومة أو عراك؛ نكاية بالخصم، وتشفِّيا منه. ومن أمثلة ذلك ما يروى من أن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرّ بليلى بنت الخطيم، وقيس بن الخطيم أخوها بمكة، حين خرجوا يطلبون الحلف فى قريش، فقال لها حسان: اظعنى فالحقى بالحىّ، فقد ظعنوا، وليت شعرى ما خلَّفك وما شأنك: أقلَّ ناصرُك أم

(١) سبق أن أوردنا هذا الخبر ص٩٣ فى سياق آخر.
(٢) انظر: الميدانى - السابق جـ ٣، ص ٤٤٨ - ٤٤٩؛ أى أن العود دليل لتأخذ حقها منه عندما يفك سراحه.
(٣) انظر الأغانى جـ ٢٤، ص ٢٣٩.

راث رافدُك[1]؛ فلم تكلمه وشتمه نساؤها، فذكرها فى شعره فى يوم الربيع الذى يقول فيه:

لقد هاج نفسك أشجانُها ... وعاودها اليوم أديانُها[2]

تذكرت ليلى وأنَّى بها ... إذا قُطعَت منك أقرانُها[3]

وعجَّل فى الدار غِربانُها ... وخف من الدار سكَّانها

...

وهي طويلة، فأجابه قيس بن الخطيم بهذه القصيدة التى أولها:

أَجَدَّ بعمرة غُنيانُها ... فَتهْجُر أم شأْننا شانُها

عَنَى: عمرة بنت الصامت امرأة حسان بن ثابت[4].

ونتساءل هنا: إلى أى مد يتجلى هذا التقدير للمرأة فى ظاهرة من أبرز الظواهر الاجتماعية وأهمها فى المجتمع الجاهلي، ألا وهى ظاهرة «الزواج» ؟

والإجابة عن هذا التساؤل تقتضينا أن نتحدث عن عدة جوانب، تسهم فى هذه الظاهرة وتكشف – فى الوقت نفسه – عن مكانة المرأة فى ذلك العصر.

وأول ما يتراءى لنا من تلك الجوانب الصفات التى كان العربى يطمح إلى أن تتحقق فيمن يختارها زوجًا.

هناك ميل واضح إلى الزواج من المرأة الحرة الشريفة، البكر، الولود؛ اقتناعًا منهم بأن هذا يُسهم فى بناء الأسرة ذات الدم العربى النقى، وذاتِ الشرف والحسب. وقد رأينا من قبل نظرة الازدراء إلى نتاج «الأمة»، وكيف أطلق عليه لقب يشى بتلك النظرة، ويرسخها ألا وهو لقب «الهجين»، وسيظل هذا اللقب لعنة تطارد حامله، فى حِلِّه وترحاله.

---

(١) أقلَّ ناصرُك: أى ابتعد عنك من ينصرك من العشيرة. أم راث رافدك: أى ذهب البعير لقضاء حاجته. والمعنى أنك أصبحت بلا حام فالحقى بأهلك.

(٢) الأديان: جمع دين، وهو الداء، يريد: عاد إلى نفسه داء حبه القديم.

(٣) الأقران:: جمع قرن، وهو الحبل.

(٤) انظر: الأغاني، جـ ٣، ص ١٢ – ١٤. هذا؛ و« يوم الربيع»: كان بين الأوس والخزرج؛ وسببه أن قيس ابن الخطيم ثأر من قاتل جده وقاتل أبيه، فنشبت الحروب بين قومه وبين الخزرج. انظر: الأغانى جـ ٣، ص٣.

يستطيع الدارس - إذن - أن يسجِّل حرص العربى على هذا النقاء العربى، وعلى هذه الأرومة، التى تحفظ عليه حياته بما فيها من أخلاق وتقاليد، وقيم رسخت مع الزمن، وظلت تشكل أُطُرا عامة ثابتة، توجِّهه أينما حلّ، وحيثما سار.

ويبدو أنه كان هناك فرق بين أن ينجب العربى من «الأمة» بوصفها مما ملكت يداه (أو يمينه)، وأن يتزوج بسبيَّة يعرف أصلها ومعدنها. فزواج العربى من السبايا فيه تقدير لهن، واعتراف بمكانتهن؛ ومن ثم فلم يكن ينقص من قدر العربى ولا من شرفه. فعمر بن أبى ربيعة المخزومى كانت أمُّه أمّ ولد يقال لها «مجد» سُبيت من حضر موت أو من حمير، ومن هنا أتاه الغزل فيقال غزل يمان، ودلٌّ حجازى كما يذكر أبو الفرج[1]. وكذلك أخوه الحارث بن عبد الله الذى يقال له «القُباع»[2] أمُّه أم ولد سوداء من حبش يقال لهم: فَرَسان، وكانت نصرانية[3].

ودريد بن الصمة - سيد بنى جُشَم وفارسهم وقائدهم - وإخوته عبد الله، وعبد يغوث وقيس، وخالد، أمهم جميعًا ريحانة بنت معد يكرب الزُّبَيْدى أخت عمرو بن معد يكرب، كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه. وإياها يعنى أخوها عمرو بقوله:

أمن ريحانة الداعى السَّميعُ ... يؤرقنى وأصحابى هجوع
إذا لم تستطع شيئًا فدعْه ... وجاوزه إلى ما تستطيع[4]

وهم يحبون المرأة الولود، ولعل هذا كان وراء إيثارهم للشابة البكر. لأنهم يفرحون بكثرة الأولاد ولا سيما إذا كانوا ذكورًا. يعتزون بإنجاب البنين، ويخايلون بهم؛ وهذا أمر فطرى جبلت عليه الطبيعة البشرية، فضلًا عن أن البنين كانوا مصدر عزة وقوة فى تلك البيئة التى يشكل الصراع على أسباب الحياة أهمَّ معالمها، وأبرز ظواهرها، فمَن

(١) انظر: الأغانى جـ ١، ص ٧١. هذا؛ ومن المعروف أن عمر بن أبى ربيعة وُلِد فى الحجاز فى مكة.
(٢) القُباع: لقب الحارث بن عبد الله ومعناه (الواسع الرأس، القصير). هذا؛ ويذكر أبو الفرج أن بعض الرواة ذكر أن أم عمر بن أبى ربيعة «أم ولد سوداء من حبش يقال لهم فرسان»، ويعقب على ذلك بأنه غلط، وأن هذه أم أخيه الحارث بن عبد الله. ثم يقول بعد ذلك: «وكان الحارث بن عبد الله شريفًا كريمًا دينًا وسيدًا من سادات قريش» انظر باقى الخبر فى السابق، نفس الصفحة.
(٣) السابق، نفس الصفحة.
(٤) الأغانى: ج ١٠، ص ٤.

غير الأبناء يكون السند والمعين ؟!. ولعل ذلك كان مدعاة لأن ينص المؤرخون ورواة الأخبار على عدد الأبناء، وكثرتهم، لإبراز مدى المنعة التى كان يتمتع بها السيد فى قومه.

فأبو الفرج - مثلا- فى معرض حديثه عن حرب «البسوس» يذكر «مُرَّة بن ذُهل بن شيبان بن ثعلبة» وأنه كان له «عشرة بنين، جسّاس أصغرهم»[١].

وفى معرض حديثه عن نسب أبى عمرو بن عبد شمس بن عبد مناف يذكر أن «دَغْفَلًا النسَّابة دخل على معاوية، فقال له: من رأيت من عِلْية قريش ؟ فقال: رأيت عبد المطلب بن هاشم، وأمية بن عبد شمس. فقال: صفهما لي. فقال: كان عبد المطلب أبيض، مديد القامة، حسن الوجه، فى جبينه نور النبوّة وعزّ الملك، يُطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب. قال: فصف أميَّة، قال: رأيته شيخًا قصيرًا نحيف الجسم، ضريرًا يقوده عبده ذكوان[٢]...».

وقد حرص رواة الأخبار النسابون على أن يسجلوا للمرأة الولود تحقق هذا الجانب فيها؛ ففى حديث أبى الفرج عن عمرو بن معد يكرب الزبيدى يذكر أن «أمّه وأم أخيه عبد الله امرأة من جَرْم فيما ذكر، وهى معدودة من المنجبات»[٣]. وهناك الحديث عن فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، وعن أنها «إحدى المنجبات، وكان يقال لبنيها: الكملة؛ وهم الربيع وعُمارة وأنس[٤]. ولما سأل معاوية علماء العرب عن البيوتات والمنجبات، وحظر عليهم أن يتجاوزوا فى البيوتات ثلاثة وفى المنجبات ثلاثًا، عدُّوا فاطمة بنت خرشب فيمن عدّوا، وقبلها حُيَّة بنت رياح الغنوية أم الأحوص وخالد ومالك وربيعة بنى جعفر بن كلاب، وماويّة بنت عبد مناة بن زيد بن عبد الله بن دارم بن عمرو بن تميم، وهى أم لقيط وحاجب وعلقمة بن زُرارة بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم»[٥].

---

(١) الأغانى جـ ٥، ص ٣٠.

(٢) السابق جـ ١، ص ١٣.

(٣) الأغانى جـ ١٥، ص ٢٠٨. جَرْمٌ: قبيلة من اليمن: لسان العرب مادة جرم.

(٤) «ولدت فاطمة بنت الخُرْشُب من زياد بن عبد الله العبسىّ سبعة؛ فعدّت العرب المنجبين منهم ثلاثة، وهم خيارهم» السابق: جـ ١٧، ص ١٧٩.

(٥) الأغاني: جـ ١٧، ص ١٧٩.

وكانت العرب تبغض زواج العجوز، والعاقر، لأنها لن يحققا ما كانوا يبغونه من القوة والعزة،وكثرة الأولاد؛ بل قد يضطر العربى إلى طلاق زوجه بسبب عقمها، كما حدث مع عبد الله بن العجلان النَّهدى، وكان سيِّدًا فى قومه وابن سيد من ساداتهم، وكانت هند امرأتُه أحبَّ الناس إليه، وأحظاهم عنده، فمكثت عنده سنين سبعًا أو ثمانيًا لم تلد، فطلب منه والده أن يطلقها، فأبى ذلك، ولكنه استمر فى إلحاحه عليه فى طلاقها حتى طلقها[1].

ومن كمال الزوجة أن تكون أديبة فصيحة فطنة؛ لتبشر بأن ابنها سيكون كذلك، ومن هنا وجدنا رغبة من بعض الرجال فى الزواج من الشواعر، ومن أمثلته:ما كان من أمر دريد بن الصمة مع الخنساء[2]. وهناك خبر يروى عن امرئ القيس، وأنه آلى بألِيَّة ألا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وثنتين؛ فجعل يخطب النساء، فإذا سألهن عن هذا قلن: أربعة عشر. فبينما هو يسير فى جوف الليل إذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمامه، فأعجبته؛ فقال لها: يا جارية ! ما ثمانية وأربعة وثنتان فقالت: أما ثمانية فأطْباء الكلبة، وأما أربعة فأخلاف الناقة، وأما ثنتان فثديا المرأة. فخطبها إلى أبيها فزوّجه إياها[3].

ومع تقديرنا لهذه الصفات التى طمح العربى فى توفُّرها فيمن تكون له زوجًا، فإننا نتفق مع بعض الباحثين الذين يذهبون إلى أن قصة امرئ القيس السابقة تحمل فى طياتها بواعث الشك فيها؛ إذ لا يعقل أن يخطب امرؤ القيس ويتزوج صبية لم يزل يحملها أبوها[4]؛ وليس يعقل أن يقصد امرؤ القيس فى اختياره لمن يخطبها إلى اختبارها بهذا الضرب من الإلغاز، الذى لا يهتدى إلى مرماه إلا مخترعه؛ ومن هنا فإنه من المرجح أن

---

(١) انظر: الأغاني: جـ ٢٢، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٢) ستذكر قصة دريد مع الخنساء فى ص ١١٨ من هذا البحث.

(٣) انظر: الأغاني: جـ ٩، ص ١٠١.

(٤) تذكر بعض الدراسات أن المرأة العربية كانت تزوَّج حين تبلغ السنة السابعة أو الثامنة من عمرها لأى شاب من شبان القبيلة يرضى والده أن يؤدى للعروس مهرها. ول ديورانت قصة الحضارة. ترجمة: محمد بدران. (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ٢٠٠١، مجلد ٧، جـ ١٣، ص ١٣.

تكون هذه القصة موضوعة لتعليم الفروق اللغوية[1]، وللدلالة على أن اللغة تخص هذه الأثداء بكلمات مختلفة، ثم إنها مشفوعة بقصة أخرى لا تقل عنها غرابة؛ للدلالة على ذكاء هذه الصبية وقدرتها على التمييز[2].

وكان للمرأة حق اختيار من سيكون لها زوجًا؛ إذ يُروى أن «ماوية» بنت عفزر كانت ملكة، وكانت تتزوج من أرادت، وأنها بعثت غلمانًا لها، وأمرتهم أن يأتوها بأوْسم من يجدونه بالحيرة، فجاءوها بحاتم[3].

قد يقال إن هذا كان مقصورًا على من كان فى مثل «ماوية» منزلة وشرفًا، ولكن من يقرأ كتاب «الأغاني» يجد أن حق الاختيار هذا كان مكفولًا للمرأة العربية الشريفة بعامة؛ ففى حديثه عن أحيحة بن الجُلاح ونسبه، يذكر أنه كانت عنده سلمى بنت عمرو ابن زيد بن لبيد بن خِداش، إحدى نساء بن عدىّ بن النجار، له منها عمرو بن أحيحة، وهى أم عبد المطلب بن هاشم، خلف عليها هاشم بعد أحيحة وكانت امرأته شريفة، لا تنكح الرجال إلا وأمرها بيدها، إذا كرهت من رجل شيئًا تركته[4].

نعم؛ ربما كانت العبارة الأخيرة الدالة على أن أمر المرأة العربية فى التَّرك كان فى يدها لا تنسحب على كل امرأة شريفة، ولكن تبقى عبارة «لا تنكح الرجال إلا وأمرها بيدها» واضحة الدلالة فيما نتحدث عنه، ونذهب إليه.

وهذه الدلالة تتفق مع ما عرف عن العربى من استشارة المرأة فى زواجها. ويبدو أن هذا كان عُرفًا سائدًا، وتقليدًا من التقاليد الاجتماعية المرعية. وهذا كله يدعم ما سبق أن

---

(١) ومع موافقتنا على هذا التخريج الذى ذهب إليه بعض الباحثين، فإننا نميل أيضًا إلى أن هذه القصة وغيرها مما يشبهها - حتى مع التسليم بالوضع - لها دلالتها فى إثبات ذكاء المرأة العربية وحسن فطنتها بالإضافة إلى أن هذا النوع من الإلغاز فيه تطرية للسامع وتسرية عن نفسه.

(٢) انظر: د. أحمد الحوفي، المرأة فى الشعر الجاهلي، ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) انظر: الأغانى جـ ١٧، ص ٣٨٠. وانظر باقى الخبر. نفس الموضع. وفى موضع آخر من نفس المصدر أن حاتمًا دعته نفسه إليها بعد انصرافه من عندها، فأتاها يخطبها، فوجد عندها النابغة ورجلًا من الأنصار، فطلبت من كل واحد أن يقول شعرًا، يذكر فيه فعاله، وإنها ستتزوج أكرمهم وأشعرهم. انظر: السابق، ص ٣٨٢.

(٤) انظر: الأغاني: جـ ١٥، ص ٤٩.

ذكرنا من نظرة التقدير إلى المرأة، فضلًا عن الاعتداد برأيها فى هذا الشأن وإعطائها قدرًا من الحرية يسمح لها بالقبول أو الرفض المبرر.

ومن أمثلة ذلك: ما كان مع دريد بن الصمة حين ذهب إلى خطبة الخنساء من أبيها؛ فقد قال له أبوها: «مرحبًا بك يا أبا قُرّة ! إنك للكريم لا يُطعن فى حسبه، والسيِّد لا يُرد عن حاجته، والفحل لا يُقرع أنفه... ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة. ثم دخل إليها وقال لها: يا خنساء، أتاك فارس هوازن، وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك وهو من تعلمين... فقالت: يا أبت، أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح، وناكحة شيخ بنى جُشم هامة اليوم أو غد[1]؟!».

ومن أمثلته أيضًا ما كان من قصة: زواج الحارث بن عوف بن أبى حارثة المُرِّى من ابنة أوس بن حارثة بن لأم الطائي؛ وكان كلاهما سيدًا من سادات العرب وقد ردَّ أوسُ ابن حارثة الحارثَ بن عوف أول الأمر، وحين تعرف زوجه ذلك تقول له: إذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ ! وبعد أن يعود الحارث، يطلب أوس من زوجه أن تستدعى الابنة الكبرى، ويستشيرها فى زواجها من الحارث، وترفض معللة ذلك، ثم يستشير الابنة الوسطى، ويكون موقفها مثل أختها السابقة، وتقبل به الصغرى «بُهيْسة» معللة لقبولها منه[2]، كما سنذكر بعد قليل.

وهناك ملاحظات على استشارة الرجل العربى لبناته فى أمر الزواج، منها: أنه كانت هناك فسحة من الوقت. لكى تُعمل البنت عقلها، وتقلِّب رأيها، لتتخذ قرارها. ومنها أنه كان هناك تبرير وتعليل للقرار المتخذ قبولًا أو رفضًا؛ ففى رفض الخنساء فى النص الذى أوردناه يكمن السبب فى كبر سن دُريد، ودنو أجله، على حين أن بنى عمِّها لا يزالون فتيانًا أشداء. وإذا عدنا إلى النموذج الثانى سنجد أن رفض الفتاة

---

(١) الأغاني: جـ ١٠، ص ٢٢- ٢٣. تقصد ببنى عمها أنهم أصحاب الشباب، وأن دريد شيخ كبير. ويقال «فلان هامة اليوم أو غد»: إذا شاخ وأشرف على الموت.

(٢) انظر: السابق جـ ١٠، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦، وانظر أيضًا: السابق جـ ٣، ص ٩٤- ٩٥؛ حيث يروى أنه كان لذى الإصبع العدوانى أربع بنات، وكنَّ يخطبن إليه فيعرض ذلك عليهن فيستحين، ولا يزوجهن، وكانت أمهن تقول: لو زوجتهن ! فلا يفعل. فخرج ليلة إلى متحدَّث لهن، فاستمع عليهن وهن لا يعلمن فقلن: تعالين نتمنى ولنصدق...».

الكبرى والوسطى كان مصحوبًا بعلة هذا الرفض؛ فالكبرى تخشى الطلاق؛ لأنها امرأة حسب قولها «فى وجهى رَدَّة[١]، وفى خُلقى بعض العُهْدة[٢]، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلِّقنى ». والوسطى تقول: «إنى خرقاء، وليس بيدى صناعة»، ثم تذكر الأسباب الثلاثة الأخيرة التى وردت عند الكبرى. وحين دعا الأب بهيسة «الصغرى» وقال لها: «إنى قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه... ولم يذكر لها مقالتيهما» قالت: «لكنى والله الجميلة وجهًا، الصَّناع يدًا، الرفيعة خُلقًا، الحسيبة أبًا فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير»[٣].

هذا بالإضافة إلى أن بعضًا ممن استشرن اشترطن لقبول الزواج شرطًا يرتبط بصفات المتقدم، أو سلوكه؛ ففى خبر عن عُمارة بن الوليد أنه « خطب امرأة من قومه، فقالت: لا أتزوجك أو تترك الشراب والزنا، قال: أما الزنا فأتركه، وأما الشراب فلا أتركه ولا أستطيع، ثم اشتد وجْده بها، فحلف ألا يشرب، فتزوجها، ومكث حينًا لا يشرب[٤]».

بل إن بعضًا منهن قد اشترطن للدخول بهن، أن يسعى المتقدم للزواج فى الصلح بين القبائل المتحاربة، حتى تضع الحرب أوزارها؛ وقصة بُهَيْسَة خير الأمثلة لذلك. واللافت للنظر فى هذه القصة أن المرأة العربية استطاعت أن تدفع بالرجل إلى تحقيق ما تريد، بطريقة فيها كياسة وذكاء وحسن تأت للأمور، وأن ما كانت تبغى تحقيقه لم يكن من الأمور الشخصية أو الخاصة التى يجرى وراءها - عادة - الكثير من النساء، وإنما تمثل فى العمل على إحلال السلام بين القبائل المتناحرة: «أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل

(١) الرَّدة: القبح مع شيء من الجمال.
(٢) العُهدة: الضعف.
(٣) السابق: جـ ١٠، نفسه؛ وفيما يتصل ببنات ذى الإصبع الأربع، فقد تمنت الكبرى - فى صورة شعر - أن يكون زوجها «من أناس ذوى غِنى، حديث الشباب، طيِّب الريح والعصر، طبيب بأدواء النساء كأنه خليفة جانٍ، لا ينام على وتْر» وتمنت الثانية - فى شعر أيضًا - أن يكون زوجها: «أشم كنصل السيف غير مبلَّد، لصوق بأكباد النساءَ، وأصله إذا ما انتمى من سرِّ أهلى ومحتدى»، وتمنت الثالثة - شعرًا - أن يكون زوجها كريمًا جوادًا، حكيمًا ذا خبرة وتجارب» أما الصغرى فقالت أولًا: ما أريد شيئًا، ولما أقسمن عليها بأنها لن تبرح حتى يعلمن ما فى نفسها قالت: «زوج من عُود خير من قُعود» السابق جـ ٣، ص ٩٤- ٩٥.
(٤) السابق: ج١٨ ص ١٢٣.

بعضها»، وذلك فى أيام حرب عبس وذُبيان، قال: فيكون ماذا ؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك[١]».

ويستدل من الأخبار التى وردت لنا أنه كانت هناك مهور، يقدمها الرجل لمن يرتضيها زوجًا، وأنها تتفاوت قلة وكثرة، حسب حالة الزوج، ومكان القبيلة من الشرف والحسب، وأنها قد تصل إلى مائة من الإبل؛ ففى أخبار المرقّش الأكبر أنه عشق ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك - وهو البُرَك[٢] - عشقها وهو غلام، فخطبها إلى أبيها، فقال: لا أزوجك حتى تُعرف بالبأس، وكان يعده فيها المواعيد. ثم انطلق مرقش إلى ملك من الملوك، فكان عنده زمانًا، ومدحه فأجازه. وأصاب عوفًا زمان شديد، فأتاه رجل من مُرار أحد بنى غطيف، فأرغبه فى المال، فزوَّجه أسماء على مائة من الإبل[٣].

كما أنه كانت هناك احتفالات تقام، وولائم تُمَدُّ، تنحر فيها الجزر، وتذبح الغنم ويُدْعى إليها العرب[٤].

هذا هو الزواج المتعارف عليه، القائم على اختيار زوج فى ضوء معايير أو صفات يرغب الرجل فيها، وهذا النوع هو الذى كان ذائعًا فى البيئة العربية آنذاك.

وقد اقتصر بعض العرب فى زواجهم على زوج واحدة. واشترط بعض الآباء

---

(١) السابق: ج ١٠ ص ٢٩٦ - ٢٩٧. ولعل فى الطريقة التى سلكتها بهيسة مع الحارث بن عوف ما يستحق التأمل. وتجدر الإشارة إلى أن الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريين سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان، وتحمَّلا ديات القتلى، وكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين. وقد قال زهير بين أبى سلمى قصيدته التى مطلعها:

أمِــن أُمِّ أوفى دمــنة لم تكلــم ... بحــومــانِةِ الــدرّاج فالمتثلّــم

وذكرهما فقال: تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تفانَوْا ودقُوا بينهم عطر منشم

انظر: السابق، ج١٠ ص٢٨٨ وما بعدها فى حديث أبى الفرج عن «نسب زهير وأخباره».

(٢) البُرك: لقب لعوف بن مالك بن ضبيعة عمِّ المرقش الأكبر، ومن فرسان بكر بن وائل. وهو القائل يوم قِضَة: يالبكر بن وائل، أفى كلِ يوم فرار ! و محلوفى لا يمر بى رجل من بكر بن وائل منهزمًا إلا ضربته بسيفي. وبَرك يقاتل، فسميَّ البُرك يومئذ. الأغاني: ج٦، ص١٢٧.

(٣) انظر السابق ج٦ ص١٢٩.

(٤) فى قصة زواج الحارث بن عوف السابقة، أنه أراد الدخول بها، بعد أن ارتحل عن ديارها، فقالت له: «أكما يفعل بالأمة الجليبة أو السبية الأخيذة ! لا والله حتى تنحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يُعمل لمثلي». السابق: ج ١٠ ص٢٩٦.

والنساء على الرجل ألا يتزوج بأخرى. يقول عدى بن زيد:

بنات كرام لم يُربن بضرَّةٍ   دمى شرقات بالعبير روادعا[1]

ورفضت ماوية بنت عفزر - وقد مر ذكرها - أن تتزوج حاتمَ الطائى بعد أن اختارته وآثرته على خاطبيها، إلا على شرط أن يسرّح زوجته، فأبى، فلما ماتت امرأته رضيته وتزوجته، فولدت عديًّا[2].

ويبدو أن تعدد الزوجات كان أمرًا شائعًا فى الجاهلية وقد ورد فى الأغانى ما يفيد ذلك[3].

ويبدو أيضًا - كما يرى بعض الباحثين - أنه لم يكن هناك عدد معين ينتهى العربيُّ إليه، فقد روى أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نساء[4].

وقد أدرك العربى بخبرته وتجاربه أن الاغتراب فى الزواج بعيدًا عـن حيه، أفضل من الاقتران بالأقارب، على الرغم من أن الزواج بالأقارب كان شائعًا، ومرغوبًا فيه كما تشير إلى ذلك نصوص سابقة. ومرد ذلك إلى أن ولد الرجل من قرابته يجىء ضاويًا نحيفًا، ومن ثم ينعكس هذا فى الجماعة سلبًا. قال الشاعر يدعو على شخص اسمه عبيد:

ذاك عُبيْدُ قد أصاب ميّا   ياليته ألقحها صبيًا

فحملت فولدت ضاويًّا[5]

---

(1) الأغاني: ج٢ ص ١٥٠. يربن: يسأن. شرقات: ممتلئات. يقال: شرق الجسد بالطيب: امتلأ. روادع: فيهن أثر الطيب.

(2) انظر: السابق جـ١٧، ص ٣٨٦. وانظر أيضًا د. أحمد الحوفي: المرأة فى الشعر الجاهلي، ص٢٣٥.

(3) انظر مثلًا: الأغانى فى سرده لأخبار الأضبط بن قريع: ج١٨، ص١٢٩ هذا؛ وكثيرًا ما كان العربى يتزوج بأخرى رغبة في الإنجاب. ويقال إن أم أوفى التى ذكرها زهير فى شعره كانت امرأته، فولدت منه أولادًا ماتوا، ثم تزوج بعد ذلك امرأة أخرى، وهى أم ابنيه كعب وبُجير، فغارت من ذلك وآذته فطلقها، ثم ندم. الأغانى ج١٠، ص٣١٣.

(4) انظر: د أحمد الحوفى، الحياة العربية من الشعر الجاهلي. دار القلم. بيروت. لبنان (د.ت) ص٢٢٣. وانظر أيضًا: المرأة فى الشعر الجاهلى ص٢٣٨ حيث يذكر المؤلف أن التعدد عند العرب فى الجاهلية شاع لظروف وحاجات دعت إليه، وقد بزغ الإسلام وفى ثقيف رجال عند كل منهم عشر نسوة، كمسعود بن معقب، وعروة بن مسعود، وغيلان بن سلمة وغيرهم.

(5) لسان العرب: مادة «ضوا» وقد ورد فيه أيضًا: «وفى الحديث: (اغتربوا لا تضووا)، أى تزوجوا فى البعاد الأنساب، لا فى الأقارب لئلا تضوى أولادكم، وقبل معناه: أنكحوا فى الغرائب دون القرائب، فإن ولد

وينصح عمرو بن كلثوم بنيه لما حضرته الوفاة، وكان من نصائحه لهم ألا يتزوجوا فى حيِّهم، فإنه يؤدى إلى قبيح البغض[1].

أما الزواج من الغرائب فنتاجه أقوى وأصح عقلًا وجسمًا. يقول الشاعر فى تخيره زوجة غريبة:

تنحَّيتُها للنسل وهى غريبة   فجاءت به كالبدر خِرْقًا معمما[2]

وقد أيد الإسلام وجهة النظر هذه؛ «فالنبى ﷺ يأمر باختيار الغريبات مخافة ضعف النسل: (اغتربوا لا تضُووا)، وعمر بن الخطاب ينظر إلى قوم من قريش صغار الأجسام فيقول: مالكم صغرتم؟ قالوا، قرب أمهاتنا من آبائنا فيقول: صدقتم، اغتربوا. فتزوجوا فى البعداء فأنجبوا»[3].

وهناك نوع آخر من الزواج لم يكن منتشرًا، ولكنه وجد بصورة أو بأخرى. وهو ما يمكن أن يطلق عليه «زواج النسء»[4]، ويتمثل فى زواج المرأة الحامل التى مات عنها زوجها، أو طلقها. ومثال ذلك: صعصعة بن معاوية؛ إذ يقال إن «الناقمية» – وهى

الغريبة أنجب وأقوى،وولد القرائب، أضعف وأضوى، ومنه قوله الشاعر:

فتى لم تلده بنت عم قريبة   فيضوى، وقد يضوى رديد القرائب

وقيل معناه: تزوجوا فى الأجنبيات، ولا تتزوجوا فى العمومة، وذلك أن العرب تزعم أن ولد الرجل من قرابته يجىء ضاويًا نحيفًا، غير أنه يجىء كريمًا على طبع قومه» هذا، مع ملاحظة أن الحديث السابق فى لسان العرب لم يرد ذكره فى كتب الأحاديث الصحيحة المشهورة.

(١) انظر الأغاني: ج١١، ص٦٠.

(٢) لسان العرب وانظر أيضًا: د. أحمد الحوفى، المرأة فى الشعر الجاهلى. تنحى: اعتمد.وفى رواية: تنخبتها: أى تخيرتها. خرق: كريم الخليقة. معمم: سيد.

(٣) د. أحمد الحوفى: السابق ص١٦١ وما به من مصادر. وانظر: الصفحة السابقة، هامش رقم (٢).
ويبدو أن الميل إلى الاغتراب، بنتائجه الإيجابية أصبح مع الزمن أمرًا متأصلًا فى النفس العربية؛ فهذا منظور ابن زيّان الفزارى يجىء إلى حسن بن حسن بن على بن أبى طالب وهو جده أبو أمه: ويقول له: لعلك أحدثت بعدى أهلا، قال: نعم تزوجت بنت عمى الحسين بن على، قال: بئسما صنعت؛ أما علمت أن الأرحام إذا التقت أضوت، كان ينبغى أن تتزوج فى الغُرُب. انظر: الأغانى: ج٢١ ص١١٨.

(٤) فى اللسان: (مادة نسأ): نُسئت المرأة تنسأ نسئا: تأخر حيضها عن وقته، وبدأ حملها، فهى نسْء ونسىء: وقال الأصمعى: يقال للمرأة أول ما تحمل قد نُسئت وفى الحديث: كانت زينب بنت رسول الله ﷺ تحت أبي العاص بن الربيع، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة أرسلها إلى أبيها، وهى نسوء، أى مظنون بها الحمل.

أمه - كانت عند معاوية بن بكر بن هوازن فمات عنها أو طلقها وهى نسْء فتزوجها سعد بن زيد مناة بن تميم، فولدت على فراشه صعصعة بن معاوية، ثم ولدت هبيرة ونجدة وجُنادة، فلما مات سعد اقتسم بنوه الميراث، وأخرجوا صعصعة منه، وقالوا أنت ابن معاوية بن بكر، فلما رأى ذلك أتى بنى معاوية بن بكر، فأقروا بنسبه، ودفعوه عن الميراث[1].

وهذه الصورة ليس فيها اختلاط الأنساب؛ إذ نسب فيها صعصعة إلى أبيه الحقيقى معاوية، ومع الاعتراف بالنسب فقد حرم من الميراث، وهذا ظلم بيِّن. وهناك صورة أخرى لهذا الزواج، وتتمثل فى أن ينسب الوافد إلى صاحب الفراش الجديد، وفى هذا من اختلاط الأنساب ما فيه. ومثال ذلك ما يروى من أن صعصعة هذا لما حُرم من الميراث أتى سعد بن الظَّرب العدوانى وشكا إليه ما لقى، فزوجه بنت أخيه عمرة بنت عامر بن الظرب، الذى يقال له: ذو الحلم، وكانت عمرة يوم زوَّجها عمها نسْأ من ملك من ملوك اليمن يقال له: الغافق بن العاصى الأزدي، والمُلك يومئذ فى الأزد، فولدت على فراش صعصعة عامر بن صعصعة، فسماه صعصعة عامرا بجدِّه عامر بن الظَّرب[2].

أما «نكاح المقت» القائم على زواج الابن من زوجة أبيه بعد وفاته فيبدو أنه كان أكثر شهرة من السابق، لا لأنه كان منتشرًا بين العرب بل لأنه نزل فيه قرآن كريم، يقول تعالى فى كتابه الكريم ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[3].

ومن أمثلة ذلك ما يذكره أبو الفرج من أن أم أبى مُعيط وهى: آمنة بنت أبان بن كليب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، كانت تحت أمية بن عبد شمس، فولدت له العاص وأبا العاص، وأبا العيص والعويص... فلما مات أمية تزوجها بعده ابنه أبو عمرو. وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، يتزوج الرجل امرأة أبيه بعده، فولدت له أبا معيط، فكان بنو أمية من آمنة إخوة أبى مُعيط وعمومته.

ثم يروى رواية أخرى عن الزبير بن بكار، أكثر تفصيلًا من سابقتها، تذكر أن ابنها

(١) انظر: الأغانى، ج٥، ص ٢-٣.
(٢) انظر السابق ج٥، ص٣.
(٣) [سورة النساء الآية: ٢٢].

أبا العاص زوّجها أخاه أبا عمرو، وكان هذا نكاحًا تنكحه الجاهلية فأنزل الله تحريمه؛ قال الله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾؛ فسمى نكاح المقت[1].

ومن أمثلة ذلك أيضًا «زيد بن عمرو بن نُفيل بن عبد العُزَّى، وأُمُّه جيْداء بنت خالد بن جابر بن أبى حبيب بن فهم. وكانت جيداء عند نُفيل بن عبد العُزَّى، فولدت له الخطّاب أبا عمر بن الخطاب وعبْدنُهْم[2]، ثم مات عنها نفيل، فتزوجها ابنه عمرو، فولدت له زيدًا؛ وكان هذا نكاحًا ينكحه أهل الجاهلية»[3].

ويذكر بعض الباحثين أن العرب كانوا يمقتون هذا النوع، ويسمون المولود عليه «المَقْتى» ومن ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وكانوا يسمون من يخلف أباه على امرأته: الضيزن، ويتهمونه بأنه فارسيّ يدين بالمجوسية؛ قال أوس بن حجر:

والفارسيةُ فيكم غيْر منكرة ... فكلكم لأبيه ضيْزَنٌ سلِفُ[4]

زواج الابن من امرأة أبيه - إذن - كان موجودًا، ولكنه كان ممقوتًا، يأباه الذوق العربي، وتنفر منه الطباع السليمة. كذلك الجمع بين الأختين لم يحرمه العرب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[5]. وبعضهم أبغض هذا النوع كسابقه، ثم حرّمه الإسلام، وإن بقى أثره إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد فرق بين أختين لرجل من جذام، حلف أنه لا يعلم أن الإسلام حرَّم الجمع بين الأختين[6].

وإذا كان الزواج قد نشأ أملًا فى حياة مستقرة، ورغبة فى حياة آمنة، فقد كانت

---

(١) انظر: الأغاني، ج١، ص١٨.

(٢) اسم علم مؤلف من (عبْد) و(نُهم) مثل عبد شمس. ويعتقد أن (نُهم) بالضم اسم شيطان أو صنم لمزينة.

(٣) الأغاني: ج٣، ص ١٢٣.

(٤) انظر: د. أحمد الحوفى. السابق ص ٢٥٣. ويذكر لسان العرب (مادة ضزن): أن «الضيزن» الذى يزاحم أباه فى امرأة، ويستشهد بالبيت السابق، ويعلق عليه بقوله: «هم مثل المجوس، يتزوج الرجل منهم امرأة أبيه وامرأ ابنه».

(٥) [سورة النساء: ٢٣].

(٦) انظر: د. أحمد الحوفي. السابق ص٢٥٤ وما به من مصادر.

تواجهه - أحيانًا - رياح تهز أركانه هزًا، وتقوِّض دعائمه تقويضًا؛ ومن ثم كان اللجوء إلى ما يعرف «بالطلاق»، بوصفه الملاذ والمخرج الذى يفزع إليه الطرفان إذا ما تأزمت أمور الحياة، وضاقت بهما حلقاتها.

وهذا يجعلنا نتساءل عن «الطلاق» فى ذلك العصر: بواعثه، والصور التى كان عليها، وهل كان حقًا يستأثر به الرجل وحده، أو أن المرأة كان لها نصيب من هذا الحق، إلى غير ذلك من التساؤلات.

يستطيع الدارس أن يتعرف على بعض بواعث الطلاق من خلال النصوص المبثوثة فى كتاب «الأغاني»، ومنها ما يكون من تطاول الزوجة على قوم الزوج، والنيل منهم، فيقدم الزوج على الطلاق مدفوعًا بعصبيته لهم، كما فعل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع زوجه عمرة بنت الصامت الأوسية؛ وكان كل واحد منهما معجبًا بصاحبه، ولما أجار الأوس مخلد بن الصامت الساعدي، قال أبو قيس بن الأسلت:

أجرْتُ مخلَّدا ودفعت عنه ... وعند الله صالحُ ما أتيت

فتكلم حسان فى أمر أبى قيس بكلام أغضب عمرة، فعيرَّته بأخواله، وفخرت عليه بالأوس فغضب لهم فطلقها[١].

وكذلك طلّق دريد بن الصمة زوجه أم معبد؛ لأنها عاتبته على جزعه على أخيه عبد الله وصغرت شأنه وسبَّته، فطلقها، وألحقها بأهلها، وقال فى ذلك:

أعبْدَ الله إن سبَّتْك عِرْسى ... تَقدَّم بعضُ لحمى قبل بعض
إذا عِرْسُ امرئ شتمت أخاه ... فليس فؤاد شانئه بحمضِ[٢]
معاذ الله أن يشتُمن رهطى ... وأن يملكن إبرامى ونقضى[٣]

---

(١) انظر الأغاني: ج٣، ص ١٤.
(٢) فؤاد حمض: فاسد متغير.
(٣) انظر: السابق ج ١٠، ص ١١ - هذا؛ ويذكر بعض الباحثين أسبابًا أخرى للطلاق، كافتقار الزوج، وكبر سنه، أو لأنه لا يجد فيها الخلال التى يريد، أو يجد فيها ميلًا إلى غيره، وتبرمًا به. انظر فى ذلك: د. أحمد الحوفى، السابق ص ٢٦٠ - ٢٦٢.

وربما يدفع إلى الطلاق عقم المرأة، كما حدث مع عبد الله بن العجلان النهدى[1].

وفيما يتصل بصور الطلاق، فقد أورد أبو الفرج رواية مفادها أن الأعشى تزوج امرأة من عَنَزة، فلم يَرْضَها ولم يستحسن خُلقها، فطلّقها، وقال فيها:

بينى حصَان الفرج غير ذميمة   وموموقةً فينا كذاك ووامقه
وذوقى فتى قوم فإنى ذائق   فتاةَ أناس مثلَ ما أنت ذائقهْ

...

فبينى فإن البين خير من العصا   وإلا ترىْ لى فوق رأسك بارقهْ

...

ويا جارتا بينى فإنك طالقهْ   كذاك أمورُ الناس غادٍ وطارقهْ[2]

وقد ذكر بعض الدارسين المحدثين أن العرب كانت فى الجاهلية تطلّق ثلاثًا على التفرقة، والزوج أحق بزوجته إلى أن يستوفى ثلاث طلْقات، فإن استوفاها انقطع سبيله إليها[3]، ثم شفع كلامه بأبيات الأعشى السابقة فى زوجته، وعقّب عليها بقوله: إن الأعشى كرر الطلاق ثلاث مرات متفرقة.

وكان هذا هو الغالب[4]؛ وأحيانا كانوا يوقّعون الثلاث دفعة واحدة، يدل على ذلك قول الشاعر:

فإن ترفُقى يا هند فالرفق أيمن   وإن تخرقى يا هند فالخرق أشأم
فأنت طلاق والطلاق عزيمة   ثلاث ومن يخرق أعق وأظلم
فبينى بها أن كنت غير رفيقة   وما لامرئ بعد الثلاث مُقدَّم[5]

---

(١) انظر الأغانى ج٢٢، ص٢٣٧ – ٢٣٨.
(٢) الأغانى: ج ٩، ص ١٢١.
(٣) انظر: د. أحمد الحوفي. السابق ص٢٦٠ – ٢٦٢ وما به من مصادر.
(٤) ويذكر الدكتور الحوفى أن أهل مكة التزموا هذا التفريق؛ يدل على ذلك قول ابن عباس إذ سئل عن طلاق العرب: كان الرجل يطلق امرأته تطليقة، ثم هو أحق بها، فإن طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضًا، فإن طلقها ثلاثا فلا سبيل له إليها.
(٥) نفس المرجع والموضع.

والدارس للشريعة الإسلامية يلاحظ أن الإسلام قد وافق العرب أو أكثرهم فى أن جعل الطلقات ثلاثًا، ثم أضاف إلى ذلك أمورًا منها: أن الزوجة لا تحل لزوجها بعد الطلقة الثالثة إلا إذا تزوجت غيره[1]. «ثم إن العرب كانوا يطلقون ثلاثًا دفعه واحدة، ولما جاء الإسلام اختلف الفقهاء فى حكم هذا الجمع؛ فذهب جمهور الفقهاء إلى وقوع الطلاق ثنتين أو ثلاثًا دفعة واحدة، وذهب بعض المجتهدين والمحققين إلى وقوعه واحدة»[2].

ويبدو أن المرأة التى يقع عليها الطلاق كانت تنتظر فترة حتى تستبين حملها، بدليل ما عرفناه مما سمى بزواج النسء.

وهناك صورة ثالثة للطلاق وهو ما يعرف «بالظهار»؛ إذ يقول الرجل لامرأته: «أنت علىّ كظهر أمى». ويقال إن هشام بن المغيرة، كانت عنده أسماء بنت مخرمة النهشليَّة فولدت له أبا جهل وأخاه الحارث، ثم غضب عليها فجعلها مثل ظهر أمه - وكان أول ظهار - فجعلته قريش طلاقًا. فأرادت أسماء الانصراف إلى أهلها، فقال لها هشام: وأين الموعد؟ قالت: الموسم. فقال لها ابناها: أقيمى معنا، فأقامت معهما. فقال المغيرة بن عبد الله وهو أبو زوجها: أما والله لأزوجنك غلامًا ليس بدون هشام، فزوّجها أبا ربيعة ولده الآخر؛ فولدت له عيّاشًا وعبد الله، فذلك قول هشام:

تحدَّثنا أسماءُ أنْ سوف نلتقي ... أحاديث طَسْم[3]، إنما أنت حالم[4]

وقد اختلف فى «الظهار» وهل تحرّم المرأة به على زوجها تحريماً مؤبدًا، أم أنه يأخذ حكم الطلقة الواحدة، ويجوز للمظاهر أن يتزوج امرأته ثانية ؟. ربما كان الأكثر يحرمون بالظهار والأقل لايحرمون به. والمتأمل للنص السابق يجده يحمل وجهة النظر الأولى؛ إذ أقسم المغيرة أن يزوجها غلامًا ليس بدون هشام؛ فضلا عن أن بيت الشعر ينبئ أن اللقاء الذى كانت تتحدث عنه أسماء ليس إلا أحاديث عن أمور بادت وانقضت (إنما أنت حالم!).

---

(١) البقرة: ٢٣٦ - ٢٣٧.

(٢) د. أحمد الحوفى: نفس المرجع والموضع.

(٣) طسم: إحدى القبائل العربية القديمة البائدة.

(٤) انظر: الأغانى، ج ٩، ص ٥٢.

بقيت صورة أخيرة للطلاق فى ذلك العصر، وتتمثل فى أن يطلق الرجل امرأته ولا يأذن لها فى أن تتزوج بآخر؛ ومن أمثلته ما كان من أمر المتجردة وكانت عند ابن عم لها يقال له: حُلْم، وهو الأسود بن المنذر بن حارثة الكلبي، وكانت أجمل أهل زمانها؛ فرآها المنذر بن المنذر الملك اللخمى فعشقها. وفى مجلس للشراب ضم المنذر وحُلما اتفق كل منهما على أن يطلق امرأته: حُلم يُطلّق المتجردة، والمنذر يطلّق سلمى، وأخذ كل واحد منهما على صاحبه عهدًا؛ فطلق المنذر امرأته سلمى، وطلق حلم امرأته المتجردة، فتزوجها المنذر ولم يُطلق لسلمى أن تتزوج حُلمًا[1].

حق المرأة فى الطلاق:

سبق أن ذكرنا فى الزواج أن سلمى بنت عمرو بن زيد، إحدى نساء بنى عديّ بن النجار، وهى أم عبد المطلب بن هاشم، كانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال إلا وأمرها بيدها؛ إذا كرهت من رجل شيئًا تركته[2]. ولهذا دلالته فى أن المرأة العربية تمتعت بحق لم تظفر به امرأة فى الأمم التى عاصرت العرب[3]؛ وبتمثل هذا الحق فى أن تكون العصمة بيدها، فتطلق الرجل، أو تطالب الرجل بالطلاق، سواء كان ذلك على بدل أم لم يكن. «وكانت النساء- أو بعضهن- يطلقن الرجال فى الجاهلية، وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت من شَعر حوّلن الخباء، فإن كان بابه قِبل المشرق حوَّلنه قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حوَّلنه قِبل الشام؛ فإذا رأى ذلك الرجل علم أنها قد طلقته فلم يأتها[4]». ولعل السبب فى هذا أن الخباء عند الساميين كان ملكًا للمرأة، وهو عند أهل الوبر كالبيت عند أهل الحضر، فإذا جاء الرجل، ووجد امرأته قد حولت باب خبائها، علم

---

(١) انظر: الأغانى ج٢١، ص١-٢. نشير هنا إلى أنه كان هناك فى الجاهلية ما يعرف «بالإيلاء»: يولى الرجل من زوجته السنة والسنتين وأكثر، إيذاءً لها، فلا يقربها. فلما جاء الإسلام عيّن للرجل مدة يراجع فيها نفسه، ثم يطلق إن شاء أو يفيء فى يمينه، ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (سورة البقرة: الآيتان ٢٢٦ - ٢٢٧). فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكمي. انظر: د. أحمد الحوفي، السابق ص ٢٦٧ وما به من مصادر.

(٢) انظر: الأغاني، ج١٥، ص ٤٩.

(٣) انظر: د. أحمد الحوفي، السابق ص٢٨٦.

(٤) الأغاني: ج١٧، ص ٣٨٧.

أنها قد أعرضت عنه وطلقته، أما الحضريات فكانت لهن طريقة أخرى فى إعلام الزوج بالتطليق، تتمثل فى أنهن لا يعالجن للزوج طعامه إذا أصبح.

ومن هؤلاء اللائى امتزن بحق التطليق - بالإضافة إلى سلمى بنت عمرو - ماوية بنت عفزر؛ فقد طلقت زوجها حاتم الطائى، عندما ضاقت به، لما تخرَّق فى كرمه[1].

ويحدث نبيْه بن الحجاج السّهمى عن زوجتيه بأنهما سألتاه الطلاق، فيقول[2]:

تلك عِرساى تنطقان بهُجْر ... وتقولان قول زُور وهِتْر
تسألانى الطلاق أنْ رأتاني ... قلَّ مالي، قد جئتماني بنُكر
فلعلّى أن يكثر المال عندي ... ويُخَلَّى من المغارم ظهري
ويُرَى أعْبُدُ لنا وجيادُ ... ومناصيف[3] من ولائدَ عَشْرِ[4]

على أنه من الملاحظ أن المرأة لم تستخدم هذا الحق استخدامًا سيئًا؛ فلم تطلّق زوجها حماقة أو هوى، وإنما كانت تحرص على رباط الزوجية؛ إلا إذا لم تجد بدا من فصمه. يدل على ذلك أن ماوية لم تطلق حاتمًا إلا بعد ما يئست من كفِّه عن التخرق فى كرمه، ولخوفها على مستقبلها، ومستقبل بنيها[5]. وله فى الحديث عن كرمه أمام ماوية أبيات جميلة ذكرها صاحب الأغانى ومنها:

أماويُّ إن المـال غـادٍ ورائـح ... ويبقـى مـن المال الأحاديث والذكر

...

---

(١) انظر الأغاني: ج١٧، ص٣٨٧.

(٢) ينسب هذا الشعر إلى زيد بن عمرو بن نفيل. انظر: الأغاني، ج ١٧، ص ٢٨١ هامش (٥).

(٣) المناصيف: الخدم، واحدها منصف، كمنبر ومقعد.

(٤) الأغانى: ج ١٧، ص ٢٨١.

(٥) انظر السابق، ج١٧، ص ٣٨٧، وانظر أيضًا: د. أحمد الحوفي، السابق، ص ٢٧٠. هذا؛ ويذكر د. الحوفى أنه حين جاء الإسلام أبقى على حق المرأة فى الطلاق إذا اشترطته على الزوج وإلى ذلك ذهب أصحاب المذاهب الأربعة. وأباح لها أن تختلع وأن تطلب التفريق لعيب فى الزوج أو لامتناعه عن الإنفاق، أو لسوء عشرته، أو لغيبته الطويلة. انظر: السابق ص ٢٧١ وما به من مصادر.

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[١]

وبمجيء الإسلام أبقى على بعض النظم العربية الصالحة فى الطلاق، وأبطل بعض النظم، مراعيًا ما يحقق سعادة الفرد والجماعة، فقد أبقى على جعل الطلقات ثلاثًا، وأضاف إلى ذلك أمورًا، وأبقى أيضًا على التطليق ثلاثًا دفعة واحدة، وإن اختلف الفقهاء فى حكمه من حيث العدد؛ وأبطل الإيلاء على أنه طلاق؛ وحرم الظهار، وأعطى المرأة حقها فى الطلاق إذا كانت قد شرطت ذلك على زوجها[٢].

وإذ قد عرضنا لجوانب عديدة من الحياة الاجتماعية للمرأة فى العصر الجاهلى فإن هناك جانبًا آخر أسهمت فيه المرأة بدور بارز هو دورها فى الحرب والسلم.

وفى البداية نشير إلى دورها فى العمل على إحلال السلام بين القبائل المتناحرة، فى حرب طاحنة هى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وهى الحرب التى سجلها زهير بن أبى سُلمى فى معلقته. وقد أشرنا سابقًا إلى دور بهيسة فى الصلح بين الطرفين[٣].

والدارس للحروب فى العصر الجاهلى يجد أن المرأة كانت دائمًا وراء الجيوش؛ تحفز، وتستحث، وتدفع برجال قبيلتها إلى الغلبة والفوز، وقد كان الدفاع عن الظعائن جزءًا من الخطة الحربية، كما كان الرجال يستميتون فى القتال حتى لا ينهزموا فتقع نساؤهم فى الأسر.

وكان بعض من نساء العرب، يكشفن عن رءوسهن، ويرتجزن برجز حماسى؛ إلهابًا لحماسة العربي، واستثارة لغيرته من أن تقع نساؤه فى الأسر، أو يمسَّهن أذى؛ كما فعلت بنتا الفِنْد الزمَّاني[٤]؛ إذ يروى ابن الكلبى أنه لما كان يوم «التحالق» أقبل الفنْد الزّمّانى

(١) الأغانى: ج١٧ ص٣٨٤ – ٣٨٥.
(٢) انظر: د. أحمد الحوفي، السابق ص ٢٧١.
(٣) انظر ما مضى من هذا البحث، ص ١٠٢.
(٤) هو أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين. شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة من عمره، فأبلى بلاءً حسنًا، وكان مشهده فى يوم التحالُق وهو يوم ثنيَّة قِضَه: وهى الثنية التى وقع فيها جمل عوف بن مالك فسدها ووقع الناس إلى الأرض لا يرون مجازًا فتحالفوا لتعرفهم النساء. وقد كان بين بكر وتغلب. والفِنْد: لقب غلب عليه، شبَّه بالفند من الجبل، وهو القطعة العظيمة، لِعظم خلْقه. انظر: الأغانى ج٢٤، ص ٩٣.

إلى بنى شيبان، وهو شيخ كبير، قد جاوز مائة سنة، ومعه بنتان له شيطانتان من شياطين الإنس، فكشفت إحداهما عنها وتجرّدت، وجعلت تصيح ببنى شيبان ومن معهم من بنى بكر:

وعَا وعَـا وعَـا وعَـا[١]

حَرَّ الجُـوادُ والتظى[٢]

ومُلئت منه الرُّبـى

يا حبَّـذا ياحبـذا

المُلحقون بالضحى

ثم تجردت الأخرى وأقبلت تقول:

إن تُقْبلوا نُعانق	ونفْرش النمارقْ
أو تُدبَروا نفارَق	فراق غير وامق[٣]

والتقى الناس يومئذ، فأصعد عوف بن مالك بن ضبيعة ابنته على جمل له فى ثَنِيَّة قِضَة[٤]، حتى إذا توسطها ضرب عُرقوبى الجمل، ثم نادى:

أنا البُرَكْ أنا البُرك

---

(١) فى رواية: وغا وغا وهو بالعين، وبالغين: الأصوات فى الحرب.

(٢) الجواد: بضم الجيم: جهد العطش أو الهلاك (كما فى اللسان). والتظي: اتقد. وتكون حرّ فعلا من الحرارة.

(٣) فى تاريخ الطبرى: ج٢، ص ٢٠٨ وردت الأبيات:

إن تهزموا نعانق	ونفرش النمارق
أو تهربوا نفارق	فراق غير وامق

ويبدو أن هذه الأبيات ـ وما يشبهها ـ أصبحت تتردد على لسان المرأة فى مواقف مشابهة، فالبلاذرى يورد أبياتًا لنساء قريش يوم أحد حيث كن يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن بنات طارق	نمشى على النمارق
إن تقبلوا نعانـق	أو تدبـروا نفارق

فراق غير وامق

انظر: أنساب الأشراف: ج ١، ص ٣١٧.

(٤) الثنّية: الطريقة فى الجبل كالنقب. أو هى: العقبة فى الطريق أو الجبل. وقِضة بوزن عِدة، موضع.

أنزلُ حيث أُدْرَك[١]

ثم نادى: ومحلوفةٍ لا يمرُّ بى رجلُ من بكر بن وائل إلا ضربته بسيفى هذا، أفى كلِّ يوم تفرون فيعطف القوم ؟

فقاتلوا حتى ظفروا فانهزمت تغلب[٢].

ويبدو أن كشف المرأة عن رأسها أصبح رمزًا لما هى فيه من شدة أو ضائقة، تستحق النجدة والنُصرة. وقد سبق أن ذكرنا قصة استجارة السُّليك بن السلكة بفكيهة – عندما أغار على قبيلتها بنى عوار، وكيف أنها كشفت خمارها عن شعرها عندما تكاثروا عليها وصاحت بإخوتها فجاءوها، ودافعوا عنه حتى نجا من القتل[٣].

هذا؛ إلى أن المرأة تمكنت – فى بعض الأحيان – من أن تتصرف بذكاء فى المواقف التى يخشى على القبيلة منها، ونجحت فى أن تخدع المغير، أو من يحاول أن يلحق أذى بقبيلتها؛ ومما يُروى فى ذلك: أن تأبط شرًّا خرج فى سريّة من قومه، حتى مرُّوا ببنى نُفاثة بن الدِّيل وهم يريدون الغارة عليهم، وكان بنو نُفاثة فى غزوة، والحيُّ خلوف، وليس عندهم غيرُ أشياخٍ وغِلمان لا قوة لهم، فقالت امرأة منهم: اجهروا الكلام والبسوا السلاح؛ فإن لنا عِدَّة، فواللات ما هم إلا تأبط وأصحابه !. فبرزن، فلما بصرُ بهم قال: انصرفوا، فإن القوم قد نَذِروا بكم. وبعد أَخْذٍ ورَدٍّ مع جماعته انصرفوا ولا يحسبون إلا أن النساء رجال[٤].

ورابطة «العصبية» تتجلى بوضوح فى إعزاز المرأة لقومها، وإيثارها لهم على غيرهم، حتى ولو كانوا قوم زوجها.

---

(١) البُرك هو: عوف بن مالك، وكان من المشهورين فى حرب بكر وتغلب، وهو الذى قال فى يوم قضة: «أنا البُرك، أبرك حيث أدرك». والبُرك: بضم ففتح: البارك على الشيء (اللسان).

(٢) انظر الأغاني: ج٢٤، ص ٩٤ – ٩٦. هذا؛ وهناك أساليب أخرى كانت تلجأ إليها المرأة فى سبيل تحقيق النصر؛ ومن ذلك مايروى أنه فى الحرب بين قبيلة دوس وبنى الحارث، أنزل خالد بن ذى السَّبَلَه بناته هندًا وجندلة وفطيمة ونضرة، فبنين بيتًا، وجعلن يستقين الماء، ويحضِّضن. وكان الرجل إذا رجع فارًّا أعطينه مُكحلة ومجمرًا، وقلن: معنا فانزل– أى إنك من النساء– وجعلت هند تحرضهم وترتجز: انظر السابق ج ١٣، ص ٢٢٢.

(٣) انظر: الأغاني، ج٢٠، ص ٣٨٣.

(٤) انظر: الأغاني،ج ٢١، ص ١٦٣.

وهى لا ترضى أن يباغت زوجها قومها، فيغزوهم وينتصر عليهم. ومن ثم فقد تنذرهم بنفسها؛ كما فعلت سلمى بنت عمرو فى حرب الأوس والخزرج حين أجمع زوجها (أحيحة) بالغارة على قومها. وكان معها ابنها عمرو بن أحيحة، وهو يومئذ فطيم أو دون الفطيم، وهو مع أحيحة فى حصنه؛ إذ عمدت إلى حيلة بأن ربطت الصبى بخيط موجع، فبات يبكى، وهى تحمله، وبات أحيحة معها ساهرًا، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط عن الصبى فنام. فلما هدأ الصبى قالت: وارأساه! وحين سألها أحيحة عن سر تألمها فسَّرت ذلك بأنه من سهر هذه الليلة، فبات يعصب لها رأسها ويهوّن عليها. حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقلّه، قالت له: قم فنم، فإنى أجدنى صالحة قد ذهب عنى ما كنت أجده. وإنما فعلت ذلك لتثقل رأسه، ويشتد نومه لطول السهر. فلما نام قامت وأخذت حبلًا، وأوثقته برأس الحصن، ثم تدلّت منه وانطلقت إلى قومها، فأنذرتهم وأخبرتهم بالذى أجمع عليه هو وقومه، فحذر القوم، وأعدّوا واجتمعوا. وأقبل أحيحة فى قومه فوجد القوم على حذر قد استعدوا، فلم يكن بينهم كبير قتال. وقد فقدها أحيحة حين أصبح؛ فلما رأى القوم على حذر قال: هذا عمل سلمى! خدعتنى حتى بلغت ما أرادت. وسمّاها قومها المتدلية؛ لتدلّيها من رأس الحصن[1].

وقد تُنذِرُهُم برسول؛ لبعد المسافة بينها وبينهم؛ كما فعلت هند من بنى نهد، لما رأت قوم زوجها بنى عامر قد جمعوا لغزو بنى نَهد، فقالت لغلام فقير يتيم من بنى عامر: لك خمس عشرة ناقة على أن تأتى قومى فتنذرهم قبل أن يأتيهم بنو عامر، فرضى، وحملته على ناقة لزوجها، وزودته بطعام وشراب، فركب وأنذرهم، واجتمعت بنو نَهد واستعدت، ووافتهم بنو عامر، فاقتتلوا قتالًا شديدًا انهزمت فيه بنو عامر. وفى ذلك يقول عبدالله بن العجلان من قصيدة:

ألم يأت هندا كيفما صُنْعُ قومها | بنى عامر إذ جاء يسعى نذيرُها[2]

وقد تنذرهم برسالة رامزة؛ ومثال ذلك ما قامت به أختُ زهير بن جناب، وكانت

---

(١) انظر: الأغاني، ج١٥، ص٤٩-٥٠. هذا؛ ويفهم من أخبارها أن أحيحة لم يطلقها؛ حيث يذكر البلاذرى أن هاشم بن عبد مناف رآها فأعجبته، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح، فمات عنها وقد ولدت ولدين، هلكا، فخطبها وتزوجها. انظر أنساب الأشراف: ج١، ص٦٤.

(٢) انظر السابق ج ٢٢، ص ٢٤٠.

متزوجة فى بنى القين بن جسر، وكان الجُلاَّح بن عوف السَّحْمى قد وطّأ لزهير وأنزله معه، فلم يزل فى جناحه حتى كثُر ماله وولده. ولما اعتزم قوم زوجها الغارة عليه، أرسلت إليه رسولها ومعه بُرْد فيه صرار رمْل وشوكة قتاد، فقال زهير لأصحابه: أتتكم شوكة شديدة، وعدد كثير، فاحتملوا، فقال له الجُلاَّح: أنحتمل لقول امرأة ! والله لا نفعل. فأقام الجُلاّح، وظعن زهير، وصبحهم الجيش، فقتل عامة قوم الجُلاَّح وذهبوا بماله[1].

بقيت نقطة مثارة - فيما يتعلق بالمرأة فى العصر الجاهلى - تتصل بوأد العرب لبناتها: أسبابه ودوافعه، وإلى أى مدى كانت هذه العادة منتشرة فى البيئة العربية، وهل تنال من مكانة المرأة فى ذلك العصر ؟

وأسباب الوأد - كما وردت إلينا - عديدة ومتنوعة، منها: غيرة العربى على المرأة وخوفه من أن يلحق به عار إذا ما سبيت. ونحن نعلم أن الحروب كانت شغلهم الشاغل، ما إن تؤذن الحربُ بالانتهاء حتى تشتعل نيران حرب أخرى. ويقال: إن قيس بن عاصم كان ممن اشتهر بفعل ذلك، ويقال إن سبب وأد قيس بناته أن المشمْرَج اليشكرى أغار على بنى سعد فسبى منهم نساء، واستاق أموالا، وكان فى النساء امرأة خالها قيس بن عاصم، فرحل قيس إليهم يسألهم أن يهبوها له أو يفدوها، فوجد عمرو أن المشمْرَج قد اصطفاها لنفسه، فسأله فيها، فقال: قد جعلت أمرها إليها فإن اختارتك فخذها. فخيرت، فاختارت عمرا، فانصرف قيس فوأد كل بنت، وجعل ذلك سنّة فى كل بنت تولد له، واقتدت به العرب فى ذلك، فكان كل سيِّد تولد له بنت يئدها خوفًا من الفضيحة[2].

---

(١) انظر: السابق ج١٩، ص ٢٤-٢٥.

(٢) انظر: الأغاني، ج١٤، ص ٧١. هذا؛ ويذكر بعض الدارسين نقلًا عن مصادر أخرى أن التى امتنعت عن العودة إلى قيس بن عاصم ابنته لابنت أخته، وأن السبب فى وقوعها سبية أن تميمًا منعت الإتاوة عن النعمان ابن المنذر، فحاربهم وسبى نساءهم، ثم وفد قيس على النعمان لِيسترد السبايا، فآثرن العودة إلا ابنته، فقد آثرت سابيها على أبيها؛ كما يذكر أيضًا: أن قيسًا أول من فعل ذلك. انظر: د. أحمد الحوفي: السابق، ص ٢٩٥ وما به من مصادر.

ويعلل قيس صنيعه هذا - حين وفد على رسول الله ﷺ، وسأله بعض الأنصار عن حديث الموءودة التى يُتحدث بها عنه - بقوله: «كنت أخاف سوء الأحدوثة والفضيحة فى البنات، فما ولدت لى بنت قط إلا وأدتها[1]».

وهذا السبب يتفق وما نعرفه من أن كثيرًا من الأغنياء وأدوا بناتهم؛ ومما يدل على ذلك أن مهلهل بن ربيعة أمر زوجته حين ولدت له بنتًا أن تقتلها، فأمرت خادمًا لها أن تغيبها عنها، ثم بدا له أن يرجع فى قراره بعد أن هتف به هاتف فى نومه بأنها ستكون ذات شأن، وستنجب كثيرًا من الرجال الأشراف الأمجاد، فأمرها بإحسان تربيتها، وكبرت حتى تزوجت كلثوم بن مالك بن عتَّاب، فحملت منه بعمرو بن كلثوم[2].

وهناك سبب آخر ذكره القرآن الكريم، وهو أن بعضهم كان يئد أولاده من البنات والذكور مخافة الفقر أن ينزل به، فتضيق يدُه عن الإنفاق على الذكور والإناث معًا: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾[3]. أو أن بعضهم كان يئد تخففًا من الأولاد؛ لأنهم عاجزون عن الإنفاق عليهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[4]. لهذا قدم الله تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء فى مقام الفقر الواقع الحادث، فالأولون هم الأغنياء والآخرون هم الفقراء[5].

ومن هنا كان الوأد أثرًا من آثار الفقر الواقع أو المتوقع؛ فشح البيئة بالزاد، وكثرة ما كان يُلم بها من المجاعات نتيجة لندرة الأمطار، دفعًا بالآباء إلى هذه العادة المنكرة؛ وبخاصة إذا صحب ذلك إحساس بأن الإناث عبء ثقيل على آبائهن، يأخذن ولا يعطين، وينفقن ولا يكسبن[6].

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن وأد البنات دون الذكور راجع إلى عقيدة دينية

---

(١) الأغاني: ج١٤، ص٦٩.
(٢) انظر: الأغاني، ج١١، ص٥٢.
(٣) [سورة الإسراء: الآية ٣١].
(٤) [سور الأنعام: الآية ١٥١].
(٥) انظر: د. الحوفى ص ٢٩٣ وما به من مصادر.
(٦) انظر: السابق، نفس الصفحة.

قديمة؛ وذلك أنهم اعتقدوا أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم، فتخلصوا منهن[1].

وله أدلة على نظريته هذه من الآيات القرآنية الكثيرة التى تربط وأد البنات بنظام من العقيدة؛ كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2].

وهو يذهب إلى أن هذا النوع من الوأد مقصور على البنات، غير الوأد الذى سببه الفقر[3].

ونأتى إلى الإجابة عن التساؤل الثانى وهو: إلى أى مدى كان الوأد منتشرًا فى البيئة العربية ؟ «ذهب المنتقصون من قدر العرب عامدين أو غير عامدين إلى أنه كان عامًا فى القبائل كلها. ونقل الميدانى عن الهيثم بن عدى أنه كان فى قبائل العرب قاطبة يستعمله واحد، ويتركه عشرة، فجاء الإسلام وقد قلَّ إلا فى تميم، فإنه تزايد فيهم قبل الإسلام[4]» وذهب غيرهم إلى أنه كان فى بعض القبائل، ولم يكن فى جميعها، وذكروا هذه القبائل وهي: تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل[5].

وهذا الرأى الأخير هو ما نميل إليه؛ لأنه يتفق وما عرضناه من قبل من إعزاز العربى

---

(١) انظر: د. على عبد الواحد وافي، الأسرة والمجتمع (دار نهضة مصر للطبع والنشر) د.ت ط٨ ص١٤١.

(٢) [سورة النحل: الآيات ٥٦-٥٨] والباحث يتوقف عند هذه الآيات بلون من التفسير؛ فقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لآلهتهم التى لاعلم لها لأنها جماد. ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. من الزروع والأنعام. ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم﴾.أى لآلهتهم. ﴿مَّا يَشْتَهُونَ﴾، أى البنين. السابق ص١٤٢.

(٣) هذا؛ وهناك أسباب أخرى غير الأسباب السابقة، من مثل أن بعضهم كان يئد نوعًا معينًا من الإناث هن الزرقاء، والشيماء: السوداء أو التى فى بدنها بقع تخالف سائره، والبرشاء التى بها نكت صغيرة تخالف بقية لونها، والكسحاء، وسبب هذا الوأد التشاؤم من هؤلاء. انظر: الدكتور الحوفي، السابق ص٢٩٧ وما به من مصادر.

(٤) د. الحوفي، السابق: ص٢٩٩-٣٠٠ وما به من مصادر؛ ولعل رأى صاحب قصة الحضارة يتفق مع من يذهب إلى أن الوأد كان عامًا فى القبائل كلها؛ إذ يذكر أن العربى كان فى وسعه أن يئد ابنته حين مولدها إذا رغب فى هذا؛ فإن لم يفعل فلا أقل من أن يحزن لمولدها ويوارى وجهه خجلًا من الناس؛ لأنه يحس لسبب ما أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح. ول ديورانت: المجلد السابع ج١٣، ص١٣.

(٥) انظر: د. الحوفي، السابق ص٢٩٦-٢٩٧.

للمرأة بنتًا كانت أم زوجًا.

ثم هو يتفق وما لمسناه من الأخبار الواردة فى ذلك والتى تشير إلى أن النفس العربية كان يتنازعها الشعور بعدم الرضا لما تُقْدم عليه، ومن شواهد ذلك أن المهلهل فى الخبر الذى أوردناه من قبل استنكر أن تكون زوجُه قد قتلتها؛ إذ إنه بعد أن طلب من زوجته أن تقتل ليلى، أمرت خادمًا لها أن تغيبها عنها. فلما نام هتف به هاتف يقول:

كم من فتًى يؤمَّلْ وسيِّد شمرْدل[1]
وعُدَّة لا تجهل فى بطن بنت مهلْهل

وحين استيقظ قال: يا هند أين ابنتي؟ قالت قتلتها. قال: كلا وإله ربيعة[2]! وكأنه كان فى قرارة نفسه يتمنى ألا تقتلها حين أمرها بقتلها، وهذا ما يتفق والفطرة البشرية السوية.

يضاف إلى هذا أننا وجدنا من العرب من كان يطلق عليه «محيى الموءودات»؛ من كثرة ما فدى من موءودات آلا وهو صعصعة وذلك أنه مرّ برجل من قومه، وهو يحفر بئرًا وامرأته تبكي، فقال لها صعصعة: ما يبكيك؟ قالت: يريد أن يئد ابنتى هذه، فقال له: ما حملك على هذا؟ قال: الفقر. قال: فإنى أشتريها منك بناقتين يَتبعهما أولادهما، تعيشون بألبانهما ولا تئد الصبية، قال: قد فعلت، فأعطاه الناقتين وجملًا فحلا كان تحته، وقال فى نفسه: إن هذه لمكرمة ما سبقنى إليها أحد من العرب، فجعل على نفسه ألا يسمع بموءودة إلا فداها فجاء الإسلام وقد فدى ثلاثمائة موءودة، وقيل أربعمائة[3].

والقصة السابقة تبرز ميل العربى المتأصل إلى فعل المكرمات، والسبق إليها، والحرص على استمرارها، وتبرز - من جانب آخر - أن الفقر كان عاملًا أساسيًا وراء هذه الظاهرة.

وهناك رواية أخرى تظهر أن العربى - مع فقره - كان يستنكر أن يبيع ابنته بيع الرقيق، فتصبح أمة ويستبدل به وأدها، أو بيعها بيع الفداء حتى لا تقتل؛ فحين يعرض صعصعة على الأب الذى يعتزم وأد ابنته شراءها بقوله: «إنى أشتريها منك»، يكون ردّه:

---

(١) الشمردل: القوى السريع الفتى الحسن الخلق. (لسان العرب).
(٢) انظر: الأغاني، ج١١، ص٥٢.
(٣) انظر: الأغاني، ج٢١، ص٢٧٦ - ٢٧٧.

«يا أخا بنى تميم: أتقول لي: أتبيعنى ابنتك، وقد أخبرتك أنى من العرب من مضر؟! فيقول له صعصعة: إنى لا أشترى منك رقبتها، إنما أشترى دمها لئلا تقتلها»[1].

يدعم هذا ما تذكره رواية أخرى من أنه اشترى موءودة بناقتين حاملتين وجمل، وأخذ على والدها عهد الله وميثاقه ليحسنن برّها وصلتها ما عاشت حتى تبين منه، أو يدركها الموت[2]. ومصداق ذلك قول الفرزدق مفتخرًا:

وجدّى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد[3]

على أن «الوأد» – سواء أكان للفقر أم خشية العار – لا يدل على انحطاط مكانة المرأة فى ذلك العصر. ففى الحالة الأولى قد تضطرب الحياة نتيجة لحروب طاحنة، أو أزمات قاسية، وتتغلب الغريزة الخاصة بالطعام إبقاء على الحياة على غريزة الأمومة والأبوة، فيضطر الوالدان إلى التخلى عن أولادهما. وفى الحالة الثانية ربما كان «الوأد» دليلًا على صيانة المرأة وإعزازها وحمايتها، وتجنيبها وتجنيب قومها ما قد ينالهم من معرّة سبْيها، ومعيشتها بين أعداء قومها معيشة الذليلة الكسيرة[4].

وبعد، فقد نظر هذا الفصل إلى المرأة من ناحيتين: مكانتها فى ذاتها وفى مجتمعها الجاهلى، وحقوق المرأة فى إطار علاقات الزواج والطلاق.

وفيما يتصل بالجانب الأول أبان عن تقدير العربى للمرأة العربية، وإيمانه بحقها فى حياة حركة كريمة، وليس أدل على ذلك من أن القبيلة منحتها ما كان يتمتع به السيد الشريف من حق «الإجارة» لمن تشاء، ومن ثم فهى والرجل فى هذا الجانب سواء.

وفى علاقات الزواج والطلاق كان لها حق «الاختيار» أو «الاعتراض»، وفى بعض الحالات كانت العصمة بيدها ولكن بقى للرجل حقه فى التعدد والتطليق ثلاثًا. وقد عرف العصر الجاهلى أنواعًا من الزواج حرمها الإسلام بعد ذلك منها: زواج «النسء» و«وزواج المقت».

وبينت الدراسة أن الزواج بالأقارب (وبخاصة ابن العم) كان شائعًا إعمالًا لمبدأ

---

(١) انظر: الأغاني، ج٢١، ص٢٨٠.

(٢) انظر: الأغاني، ج٢١، ص٢٧٧ – ٢٧٨.

(٣) الأغانى: ج ٢١، ص ٢٨٠.

(٤) انظر: د. الحوفي: السابق، ص٣٠٥.

«العصبية»، ومع ذلك فإن العربى أدرك بخبرته وتجاربه أن «الاغتراب» فى الزواج له فضائل لا تجحد مقارنة بالاقتران بالأقارب، إذ إن نتاجه أقوى وأصح جسمًا وعقلًا، وقد أيد العلم الحديث صواب تلك النظرة.

كما بينت أيضًا أن ما كان يعرف «بوأد البنات» عمل سيئ، تأباه الفطرة السليمة، وقد كانت له أسبابه (الفقر الشديد، والحساسية المسرفة تجاه مبدأ الشرف)، ولكن هذا لا يتعارض مع ما أثبته البحث من قبل من تقدير لها ولدورها فى الجماعة، إذ كان هذا العمل نادرًا جدًا، وانحصر فى قبائل بعينها.

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى العصر الإسلامى
منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموى

الفصل الأول

عناصر السكان وطبقات المجتمع

أولًا: عناصر السكان

تحدث البحث فى الباب الأول عن عناصر السكان وطبقات المجتمع فى العصر الجاهلي؛ وقد طوَّف بين شمالى الجزيرة العربية وجنوبيها، ورصد عناصر السكان هناك التى استقرت ونعمت فى إمارات ذات حضارة أشار كثير من الباحثين إليها، كإمارات الغساسنة، والمناذرة، وكندة؛ أو فى مدن تمتلك حضارتها الخاصة بها كمدينتى مكة ويثرب، أو فى حياة بدوية صرفة تحيا فى خيام وتسعى وراء الكلأ والعشب.

وانتهى البحث إلى أن العنصر العربى الخالص ظل محتفظًا بعروبته التى تنحدر إما من أصل قحطاني، أو أصل عدناني. وأن دماءه العربية ظلّت على نقائها العرقي؛ على الرغم من اتصالها بالفرس والروم كما حدث فى إمارتى الغساسنة والمناذرة. وظل العربى فى كل ربوع الجزيرة وحتى خارجها يفخر بنسبه وأرومته.

انغلقت الجزيرة العربية بتركيبتها السكانية على نفسها إذن رافضة أن يُضخ فى عروقها دم غير عربي، وانشغلت بحروبها الداخلية، والسعى وراء توفير لقمة العيش. ولم تكن حركات المد إلا فى أضيق الحدود كبعض الهجرات. ولم تتأثر الجزيرة بمظاهر الحياة الاجتماعية المستقرة والمترفة عند الفرس والروم إلا فى أضيق الحدود.

وجاء الإسلام وكان ثورة فى جميع النواحي: سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعقلية. ومكّن الله لرسوله ﷺ وأصحابه فى مكة والمدينة بل فى شبه الجزيرة كلها، بعد سنوات حافلة بالجهاد. وأتت الوفود إليه مذعنة ومبايعة من كل صوب وحدب[1].

---

(١) انظر - على سبيل المثال - وفد طيّئ إلى رسول الله. الأغاني: ج١٧، ص٢٤٨. وانظر فى اليعقوبي: كل الوفود التى أتت مبايعة. تاريخ اليعقوبي؛ اليعقوبي: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م، ج٢، ص٥٢.

ويذكر الأصفهانى أن الرسول -ﷺ- حينما جاء مهاجرًا من مكة إلى المدينة: "قدم المدينة، وهى أخلاط، منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة النبى -ﷺ- ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، وفيهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء الحيين الأوس والخزرج... وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، ويكون مسلمًا وأخوه مشرك»[1].

هذا الخبر يرينا كيف كانت الجزيرة العربية تضم عناصر عدة من العرب واليهود، وهذا العنصر الأخير كان العنصر الواضح من غير العرب فى تلك الفترة.

ويلحق الرسول -ﷺ- بالرفيق الأعلى، ولم يتعدّ الإسلام جزيرة العرب، وكان قد بدأ قبل وفاته بدعوة الأمم المجاورة إلى الإسلام[2] إيذانًا ببدء مرحلة جديدة فى تاريخ الدعوة، ألا وهى الفتوحات الإسلامية.

هذه الفتوحات التى بدأت من عهد أبى بكر الصديق -رضي الله عنه- إلى نهاية العصر الأموي، كان لها أكبر الأثر فى الجانب الذى نتناوله بالدراسة، والمتمثل فى «عناصر السكان وطبقات المجتمع»[3].

ومن الملاحظ أن حديث أبى الفرج عن هذا الجانب مبثوث فى كتابه الأغاني، ولا يملك الدارس إلا أن يعترف بمدى اهتمام أبى الفرج به، إذا ربطناه بعنايته الشديدة

---

(١) الأصفهاني، الأغاني: ج٢٢، ص١٣٢. بتصرف.

(٢) انظر فى ذلك كتب الرسول -ﷺ- إلى الملوك، حيث يذكر اليعقوبي: «أن الرسول -ﷺ- وجه عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، وقد ردّ كسرى بشق الكتاب وتمزيقه. أما قيصر فقد وجّه إليه دحية بن خليفة الكلبي، وقد ردّ قيصر بأنه دعا قومه إلى الإسلام فأبوا، وأجمل القول للرسول. كما وجه عمرو بن أمية الضمريّ إلى النجاشي. وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية". انظر فى ذلك: تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص٥١. وكتاب رسول الله إلى هرقل، الأغاني: ج٢، ص٣٤٨.

(٣) تذكر المصادر التاريخية أنه على الرغم من الأحداث الجسام التى واجهت أبا بكر الصديق؛ إذ «تنبأ جماعة من العرب، وارتدّ جماعة، ووضعوا التيجان على رءوسهم، وامتنع قوم من دفع الزكاة إلى أبى بكر» فإنه أمر خالدًا أن يسير إلى أرض العراق، فسار معه المثنى بن حارثة، ودانت لهما بلاد العراق. ثم أراد أبو بكر أن يغزو الروم، فشاور جماعة من أصحاب رسول الله -ﷺ- فقدموا وأخروا، فاستشار على بن أبى طالب، فقال: إن فعلت ظفرت، فاستبشر أبو بكر، وقام فى الناس خطيبًا، وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم ثم دعا يزيد بن أبى سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، فعقد لهم، وقال: إذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيدة. انظر: اليعقوبي: ج٢، ص٨٧-٩٠.

بالأنساب، وتحريه الدقة فيها، وإيراده الأخبار المتصلة بها. والملاحظ أن صاحب الأغانى ترجم لمختلف المؤلفين: المشهورين منهم والمغمورين، من مختلف الملل والنحل، والأعراق والأجناس[1].

ومفهوم المؤلف - كما يتبدى فى الأغانى - هو المغني، أو صاحب اللحن، أو الشاعر، أو الكاتب أحيانًا. وهذا المؤلف له نسب وله أصول؛ فلابد من التعرض لها بالتفصيل، والتطرق لعشيرته؛ أى كل ما يتعلق بالجانب الشخصى للمؤلف. ثم هناك خصائصه الخُلقية والخِلقية، من خصاله المشهورة أو عيوبه، ثم علاقته بالسلطة، أيًا كان نوعها. ثم إنتاجه الذى اشتهر به من الألحان والأشعار، أو الكتابات الأخرى[2].

لقد ذكرنا - من قبل - اهتمام أبى الفرج بالنسب، الذى يعنى البحث فى الأصول والفروع العرقية، التى يرتبط بها الشخص، أو ينحدر منها من حيث الأب أو الأم، فى محاولة لضبطها؛ لأن الأصل كان معيارًا يحدد وضع الشخص فى المجتمع القبلى والعربى بشكل عام[3].

ولعل فى هذه الأخبار التى أوردها أبو الفرج ما يبرز إلى أى حدٍّ يمكن استخلاص «عناصر السكان» من الأغاني.

ففى معرض حديثه عن خالد بن عبد الله القسري، يتحدث عن جده «يزيد بن أسد»

---

(١) انظر: أحمد بوحسن: العرب وتاريخ الأدب (نموذج كتاب الأغاني). دار توبقال للنشر. المغرب. الدار البيضاء. الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ص١٢٥.

(٢) انظر السابق: ص١٢٦. والمؤلف - بهذا المعنى - هو الإنسان المبدع بصفة عامة، رجلًا كان أو امرأة، فى مجال الألحان والأشعار بخاصة، من أى لون أو جنس، من البلاد العربية أو غيرها، مسلمًا أو غير مسلم، من علية القوم أو من عامتهم. هذا المفهوم للمؤلف المتنوع والمتعدد هو الذى يعطى له عند الأصفهانى غناه، وتنوعه، وثراءه الثقافي. ومما يترتب على هذا - من الناحية العلمية - أن أبا الفرج استطاع أن يعرض لنا الحياة الثقافية فى واقعيتها، أو فى حالتها الإنسانية العادية، التى تعبر عن حياة الناس فى ممارستهم اليومية كما هي، لا كما يراد لها أن تكون. هذا ما جعل نموذج الأغانى يتسم بسمات الواقع التجريبي، الذى يعكس حياة الناس العاديين. ولعل هذا يقربنا أكثر من معرفة الحياة الإسلامية فى واقعيتها، وليس فى تقديم النموذج والمثال الذى يحجب عنا - أحيانًا - كثيرًا من الجوانب الإنسانية العميقة فى الثقافة العربية الإسلامية. انظر السابق: ص١٢٦-١٢٧.

(٣) انظر السابق: ص١٢٨-١٢٩.

وعن إسلامه وقدومه مع أبيه على النبى -ﷺ- وروايته حديثًا عنه -ﷺ-، وبعد أن يذكر الحديث، يقول: «وخرج يزيد بن أسد فى أيام عمر بن الخطاب فى بعوث المسلمين إلى الشام، فكان بها»[١].

وقد أشار أبو الفرج إلى حروب «فارس» فى مواطن كثيرة منها: حديثه عن أبى محجن الثقفي، وكيف أنه كان فارسًا شجاعًا من أولى البأس والنجدة، وكان مع ذلك من المعاقرين للخمر المحدودين فى شربها[٢]. ثم يذكر أن عمر بن الخطاب نفاه، وقد هرب من منفاه، ولحق بسعد بن أبى وقاص، وهو يقاتل العجم يوم «القادسية»، واحتال ليشارك فى القتال فى يوم «أرماث»[٣]، وأبلى بلاءً حسنًا[٤].

ومنها: حديثه عن «عَبْدة بن الطبيب»؛ إذ يذكر: أنه كان شاعرًا، أدرك الإسلام فأسلم، وكان فى جيش النعمان بن المقرن الذى حارب الفرس بالمدائن[٥].

وهناك أخبار متناثرة عن الحروب فى خراسان منها: حديثه عن «الصِّمة القشيريّ»؛ إذ يروى خبر موته بطبرستان، حين خرج فى غَزى من المسلمين إلى بلاد الديلم[٦]. وكذلك ما يذكره عن «الحشرج بن الأشهب»؛ إذ كان شاعرًا وأميرًا وكان غلب على قُهستان[٧] فى زمن عبد الله بن خازم[٨]. أما «ثابت قطنة» فقد لقب بهذا اللقب (قطنة) لأن سهمًا أصابه فى إحدى عينيه، فذهب بها فى بعض حروب الترك، فكان يجعل عليها قطنة[٩].

---

(١) الأغاني: ج٢٢، ص٦.

(٢) انظر الأغاني: ج١٩، ص١.

(٣) أرماث: كأنه جمع رمث: اسم نبت بالبادية، كان أول يوم من أيام القادسية يسمونه يوم أرماث، وذلك فى أيام عمر بن الخطَاب وإمارة سعد بن أبى وقاص. قال ياقوت: ولا أدرى أهو موضع أم أرادوا النبت المذكور. معجم البلدان، السابق، مجلد٢، ص٢٧٢.

(٤) انظر: الأغاني: ج١٩، ض٣.

(٥) انظر: الأغاني: ج٢١، ص٢٥.

(٦) انظر: الأغاني: ج٦، ص٣.

(٧) قهستان: وأكثر ما تستعمل: قوهستان بالواو، وقد تخفف بحذفها تطلق على عدة مواضع ببلاد العجم، والمشهور بهذا الاسم ناحية بين هراة ونيسابور. انظر: ياقوت، السابق، مجلد٤، ص٤١٦.

(٨) أنظر: الأغاني: ج١٢، ص٢٣.

(٩) انظر: الأغاني: ج١٤، ص٢٦٣.

وعن «إفريقية» يقول فى معرض الحديث عن أبى ذؤيب: «كان أبو ذؤيب الهُذلى خرج فى جند عبد الله بن سعد بن أبى سرح، أحد بنى عامر بن لؤيّ إلى إفريقية سنة ست وعشرين غازيًا إفرِنْجة فى زمن عثمان. فلما فتح عبد الله بن سعد إفريقية وما والاها بعث عبد الله بن الزبير - وكان فى جنده - بشيرًا إلى عثمان بن عفان»[1].

ولم يفت أبا الفرج أن يشير إلى «النَّبَط» فى مواطن متعددة؛ فهو - فى موطن- يذكر أن «النبط» قوم كانوا يسكنون هجر بالقرب من البحرين، وأن هناك قبائل عربية مثل (تيم اللات) وبطون من الأشعريين وفرقة من بنى رُفيدة، وردوا تلك الأماكن، ونزلت هذه البطون عليهم فأجْلتهم[2].

وهو - فى موطن آخر- يورد خبرًا يفيد أن الانتساب إلى الأنباط كان أمرًا يعدّه العربيّ سُبّة، ويحاول أن يتبرأ منه بكل السُّبل؛ إذ يروى عن أبى دُؤيل مصعب بن دُؤيل الجلاّنى أنه لم يَرَقطُّ منْدلَ بنَ عليّ العَنَزى وأخاه حيّان بن على غضبًا من شيء قط إلا يومًا واحدًا، حين دخل عليهما أبو العتاهية، مضمخًا بالدم، وحين سألاه عن حاله، قال لهما: من أنا؟ فقالا له: أنت أخونا وابن عمنا ومولانا، فأخبرهما أن فلانًا الجزار ضربه وزعم أنه (نبطيٌّ)؛ ثم يعقب: «فإن كنت نبطيًا هربت على وجهي، وإلا فقوما فحذا لى بحقى؛ فقام معه مندل بن على، وما تعلّق[3] نعله غضبا، وأخذ له بحقه»[4].

ومن الملاحظ أن كثيرًا من مناطق الفتوح - خارج جزيرة العرب - كان بها عرب، جاءوا إليها عن طريق الغزو، أو عن طريق الهجرة، وربما كان هذا من العوامل المساعدة لما طرأ عليها من تحولات بعد ذلك.

وإن نظرة متأنية إلى تلك المناطق لترينا كيف تنوعت عناصر السكان فى هذا العصر

---

(١) الأغانى ج٦، ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢) انظر: الأغاني: ج١٣، ص٨٠. هذا؛ ويذكر اليعقوبى أن ماش بن أَرم بن سام بن نوح صار إلى أرض بابل، فولد نمرود الجبّار، ونبيط - وهو أبو النبط - وهو أول من استنبط الأنهار، وغرس الأشجار، وعمر الأرض. وكان لسانهم جميعًا السرِّياني، وهو لسان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. انظر اليعقوبي: السابق ج١، ص١٩-٢٠.

(٣) ما تعلق نعله: مالبسها.

(٤) انظر الأغاني: ج٤،ص٣-٤. ولعل هذا التبرؤ مرده إلى أن العرب - فى العصر الإسلامى - كانوا يطلقون كلمة (الأنباط) في شيء من التحقير على أولئك الفلاحين الذين يتكلمون الآرامية.

- تنوعًا كبيرًا، فحين فتح (العراق) كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومضر، وبعض من الفرس، كان منهم نصارى، عدا سكان البلاد الأصليين[1]. وحين فتحت (فارس) كان يسكنها الفرس، وقليل من اليهود، وبعض من الروم الذين أسروا فى الحروب بين الفرس والروم[2].

وفيما يتصل (بالشام) فقد تداولت عليه - من قبل - الأمم المختلفة، والمدنيات المتنوعة من فينيقيين وآشوريين وكنعانيين. وتعرّض للغزو من مصر واليونان والرومان وعرب غسّان. وأخيرًا، كان إقليمًا رومانيًا، يتثقف بثقافة الرومانيين، ويدين بدينهم وهو النصرانية. وحين فتحها المسلمون كان مزيجًا من عناصر مختلفة، تحمل كثيرًا من إرْث المدنيات الغابرة[3].

هذه العناصر كانت تتألف من السوريين (أهل البلاد)، والأرمن، واليهود وبعض من الروم، وبعض من قبائل عربية، أشهرها: غسان، ولخم، وجذام، وكعب، وقضاعة، وطائفة من تغلب. وكانوا فى القسم الجنوبى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالي، بحكم الجوار لبلادهم. وكان هؤلاء العرب يتكلمون لغة هى مزيج من الآرامية والعربية، وكانوا يعدّون أنفسهم شاميين، لا تربطهم بعرب الحجاز إلا العلاقات التجارية، وقد وقفوا بجانب الرومان فى محاربة المسلمين عند الفتح[4].

ومن المعروف أن مصر كانت مهد المدنيات القديمة، والمذاهب الفلسفية، وكذلك الديانات المختلفة، وسكانها أخلاط من أمم كاليهود والرومان مع السكان الأصليين المصريين[5].

أما بلاد إفريقية المفتوحة فتمتد من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق، وكانت كذلك فى يد الرومان[6].

---

(١) انظر: أحمد أمين. فجر الإسلام. (مرجع سابق). ص٨٤.
(٢) انظر: السابق نفس الصفحة.
(٣) انظر: السابق نفس الصفحة.
(٤) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة (الشام أو الشأم). مجلد١٣ ص٧٩، وأحمد أمين، السابق ص٨٤-٨٥.
(٥) انظر: نفس المرجع السابق والصفحة.
(٦) انظر: الإصطخري. السابق، ص٣٦.

على أن هناك أمرًا مهمًا لا نستطيع أن نغفله ونحن نتحدث عن عناصر السكان، وعن التحوّل الذى أصاب حياة العربى بعد أن خرج من جزيرة العرب، واضطر أن يقطن فى مواطن جديدة، ويتمثل هذا فى السؤال التالي: إلى أى مدى انعكس هذا عليه تبدِّيًا وتحضرًا وولاءً؟

وقبل أن نجيب عن هذا التساؤل نشير إلى أننا ينبغى أن نلاحظ أن العرب حين غزوا تلك الأقطار وفتحوها كانوا وافدين على أهلها، على حين نجد أن هناك مناطق أخرى أسسوها مثل: الكوفة، والبصرة، وكانوا الجنس الأول فى تكوينها، ولم يكونوا عنصرًا وافدًا، أو جنسًا ثانيًا، كما كانت الحال فى البلاد المفتوحة كالشام وفارس ومصر.

ولعل فى الصورة التى استقر العرب عليها فى مدينة كالكوفة والبصرة[1] مثلا، ما يبرز طبيعة هذا التحول.

وعلى الرغم من أن مدينة – (كالكوفة) مثلا – كانت عربية خالصة فى بدء تأسيسها وتمصيرها – كما ذكرنا سابقًا – فإنها ما لبثت أن أصبحت تضم عناصر متباينة، تعيش متجاورة.

إن ما حدث فى الكوفة يمكن أن يتخذ دليلا ومثالا لما حدث فى تلك البلاد التى غزاها المسلمون وكانوا يتركون فيها حاميات تؤمّن فتحهم، وتسهم فى حركة الزحف التى لم تكن لتتوقف إلا لتبدأ من جديد.

والصورة التى قدمها المؤرخون لاستقرار الحياة العربية فى الكوفة تبرز لنا أن هؤلاء المقاتلين المهاجرين ومن معهم استقروا فى الكوفة على أساس قبلي، تراعى فيه

(١) من المعروف أن هاتين المدينتين أنشئتا فى عهد عمر بن الخطاب. يتحدث الإصطخرى عن العراق وعن مدنها، ويقول عن البصرة: إنها «مدينة عظيمة لم تكن فى أيام العجم، وإنما اختطها المسلمون أيام عمر ابن الخطاب، ومصرها عتبة بن غَزْوان؛ وهى خطط وقبائل كلها». السابق ص٥٦. انظر ص٣٦ من هذا البحث هامش (٣) وعن الكوفة يقول: «وأما الكوفة فإنها قريبة من البصرة فى الكبر وهواؤها أصح، وماؤها أعذب من ماء البصرة، وهى على الفرات، وبناؤها مثل بناء البصرة، ومصرها سعد بن أبى وقّاص؛ وهى أيضًا خطط لقبائل العرب». السابق ص٥٨. وانظر فى تمصير الكوفة: البلاذري، فتوح البلدان، وضع حواشيه: عبد القادر محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ٢٠٠٠م ص١٦٧. وانظر أيضًا الطبرى السابق: ج٣، ص٥٩٠، ص٥٩٨.

صلات النسب والحلف التى تربط بين القبائل، فتوزع المسلمون فى المدينة الناشئة وفق قبائلهم[1]، فاختطت كل قبيلة منازلها فى منطقة معينة، وتشكل الجيش العربى فيها أول الأمر على هذا الأساس القبلي، ولكن هذه الأوضاع القبلية تعرضت بعد ذلك - فى عهد زياد - لعوامل سياسية خففت من حدّة هذه القبلية، وانتهى الأمر بها إلى هذا المزيج الجديد، الذى لا تراعى فيه صلات النسب والحلف، وإنما يتعمد فيه ذلك المزج بين القبائل المختلفة، وقد كان هذا بداية للون من الحياة المدنية، تربط بينها وشائج المدينة، وعلائق الاجتماع، وروابط الحياة الحضارية[2].

ولكن ينبغى أن نوضح أن الحياة الاجتماعية فى الكوفة- مثلها فى ذلك مثل غيرها من المدن - لم تتحول إلى لون من الحياة المدنية الخالصة، تُنسى فيها صلات النسب والحلف، وتهمل فيها الروابط القبلية القديمة التى وسمت الحياة العربية بميسمها، مما ستظهر آثاره بعد ذلك. ومن ثم فقد ظلت الكوفة صورة للحياة القبلية التى عرفتها الجزيرة العربية فى مدنها كمكة والمدينة، ولكنها اصطبغت بألوان جديدة. ومع هذا، فإن الحياة القبلية الاجتماعية فى الكوفة أخذت تتحول إلى صورة أخرى ذات ألوان جديدة؛ ذلك أن استقرار العرب، مع غيرهم من العناصر، استدعى ألوانًا من الصلات والمعاملات لابد منها بين سكان مدينة واحدة، مما كان له انعكاسه فى هذا التحول. إذ بدأ يتسرب إلى نفوسهم إحساس بالمدينة «ولكن هذا الإحساس بالمدنية لم يقض على ما فيها من إحساس متأصل بالقبيلة قضاء تامًا، وإنما امتزج به»[3].

والواقع أن هذا الاختلاط بين العرب وغيرهم فى سكنى البلاد كان من أقوى العوامل التى هيأت لهذا المزج بين الطرفين، بل إن العرب أنفسهم داخل جزيرة العرب لم يسلموا من هذا الاحتكاك والامتزاج.

---

(١) انظر - مثلًا - ما يقوله البلاذري: «وأقطع (سعد) الناس المنازل، وأنزل القبائل منازلهم». السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: د. يوسف خليف، حياة الشعر فى الكوفة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهر ١٩٦٨م، ص٣٢.

(٣) د. يوسف خليف. ص٣٥. وانظر الصفحات التالية حتى ص ٣٩.

ولقد ساعد على هذا المزج حركة الإنسان العربي، وتنقله المستمر بين البادية والحضر، واستقراره فى المواطن الجديدة أحيانًا وحنينه الدائم إلى الحياة البدوية أحيانًا أخرى.

يدعم هذا ما ورد من أخبار تتحدث عن شعراء، وتصفهم (بالبداوة)، و (التحضر) فى وقت واحد. مثال ذلك ما أورده أبو الفرج عن أبى حُزابة؛ فبعد أن يذكر أنه من شعراء الدولة البدوية، (بدويٌّ حضِر[1]) يقول: «وسكن البصرة ثم اكتُتِبَ فى الديوان وضرب عليه البعث إلى سجستان، فكان بها مدة، وعاد إلى البصرة، وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك، وأظنه قتل معه»[2].

وإذا كان النص السابق يبرز لنا حركة الشاعر الفارس الذى طوّفت به فروسيته بين أرجاء تلك البقاع، فإن هناك نصوصًا أخرى كثيرة تبين لنا أن حركة التنقل والارتحال هذه امتدت لتشمل كثيرًا من القبائل العربية، ولم تقتصر على قبائل بعينها؛ فأبو الفرج حين يتحدث عن عبد الله بن الحشرج يذكر أنه كان سيدًا من سادات قيس وأميرًا من أمرائها، وأنه «ولى أكثر أعمال خرسان، ومن أعمال فارس وكرمان، وكان جوادًا ممدّحًا، وفيه يقول: زياد الأعجم:

إن السماحة والشجاعة والندى فى قبة ضربت على ابن الحشرج»[3]

ثم يقول: «وكان أبوه الحشرج بن الأشهب سيدًا شاعرًا وأميرًا كبيرًا، وكان غلب على قُهِستان فى زمن عبد الله بن خازم، فبعث إليه عبد الله بن خازم المسيّب بن أوفى القشيري، فقتل الحشرج وأخذ قُهستان[4]». وفى خبر آخر يذكر أن هناك كثيرًا من بنى تميم كانوا بسجستان، وأنهم ناصروا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فى ثورته ضد الأمويين[5].

(١) حضر وحضريٌّ بمعنى واحد.
(٢) الأغاني: ج٢٢، ص٢٦٠. وانظر أيضًا: الأغانى السابق ص١٣٥ فى حديث أبى الفرج عن بَيْهس بن صُهَيْب؛ فهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية، كان يبدو بنواحى الشام مع قبائل جَرْم، وكلب، وعذرة، ويحضر إذا حضروا، فيكون بأجناد الشام، وكان مع المهلب بن أبى صفرة فى حروبه للأزارقة.
(٣) السابق، ج ١٢، ص ٢٣.
(٤) السابق: نفس الصفحة.
(٥) انظر السابق: ج٢٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

على أن الخبر التالى يحمل دلالات كثيرة؛ إذ يروى عن جرير بن شريك البَجَلى أنه كان عند الجُنَيد بن عبد الرحمن بخراسان وعنده بنومرة وجلساؤه من الناس. وأنهم تذاكروا شعر النابغة، حتى أنشدوا قوله:

فإنك كالليل الذى هو مُدْركي وإن خِلْت أن المنتأى عنك واسع

فقال شيخ من بنى مُرّة: ما الذى رأى فى النعمان حيث يقول له هذا! وهل كان النعمان إلا على منظرة من مناظر الحيرة! وقالت ذلك القيسية فأكثروا فنظر الجنيد إلى الراوى وقال: يا أبا خالد! لا يهولنَّك قول هؤلاء الأعاريض[1]! فأقسم بالله أن لو عاينوا من النعمان ما عاين صاحبهم لقالوا أكثر مما قيل، ولكنهم قالوا ما تسمع وهم آمنون[2].

ففضلا عما يحتويه النص من ذكر لبعض القبائل العربية التى استقرت بخراسان، كبنى مُرَّة، فإنه يبين لنا - أيضا - أن من كان يحضر المجالس من هؤلاء كانوا يتحدثون بأخبار أسلافهم ويتذاكرون حياة العرب، ويروون ما قال شعراؤها؛ وكان لهم فى ذلك أخذٌ وردٌّ.

والواقع أن حركة التنقل والارتحال هذه لم تقتصر على العرب الذين توطّنوا تلك الأقاليم المفتوحة فصاروا من أهلها؛ بل تشمل الذين تغرّبوا عن هذه الأقاليم، فتركوها إلى بلاد العرب. يتحدث الإصطخرى عن «العرب الذين توطّنوا فارس فصاروا من أهلها»، وعن الفرس «الذين تغرّبوا عنها»؛ «فمنهم الهُرْمُزان من الأساورة، أسر فى أيام عمر، فقدم به عليه فأطلقه وأمّنه فأسلم، وله إلى أبى طالب صهر، فاتهم بقتل عمر بن الخطاب مع أبى لؤلؤة عبد للمغيرة بن شعبة، فقتله عبيد الله بن عمر بعد موت عمر[3]»؛ ثم يذكر أن هناك من يرى «أن سلمان الفارسى من ولد الأساورة، وأنه تزّهد، وخرج يطلب الدين، ويتصفح الملل، حتى وقع إلى المدينة، فأسلم عند ورود النبى - ﷺ - المدينة[4]».

---

(١) كذا فى الأصول. ولعلها: «هؤلاء الأعاريب». هامش(١) ج١١، ص٦، الأغاني.
(٢) انظر الأغاني، ج١١، ص٥-٦.
(٣) المسالك والممالك: مصدر سابق. ص٨٥.
(٤) السابق: نفس الصفحة.

ولقد ساعد هذا – وغيره[1]– على «عملية مزج قوية بين الأمم الفاتحة، والأمم المفتوحة: مزج فى الدم ومزج فى النظم الاجتماعية، ومزج فى الآراء العقلية، ومزج فى العقائد الدينية[2]».

ويهمنا – فى هذا البحث – ما نجم عن هذا الفتح من سيادة للعرب فى تلك الأقاليم المفتوحة، وما استتبع هذا من دخول كثير من شعوبها فى الإسلام، ثم ما أفاء الله على المسلمين من أموال وغنائم، مما كان له أثره فى هذا التحول الذى ألقى بظلاله على طبقات المجتمع فى هذا العصر.

ومن البين أن عناصر السكان – بصورتها السابقة – قد أفرزت حالة جديدة فى كثير من جوانبها ومظاهرها على المجتمع العربي، تتمثل بصورة واضحة فى هذا التنوع الذى أثر بشكل كبير فى طبيعة الحياة الاجتماعية فى المجتمع العربي، وأدت إلى لون من التفاوت الطبقي، وإن كانت مبادئ الإسلام السمحة تقوم على إزالة الفوارق بين هذه الطبقات، والمساواة بين الأفراد مساواة لا يتفاضل فيها عربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، وهذا ما يجعلنا نتحدث عن هذا التفاوت بشيء من التفصيل.

ثانيًا: طبقات المجتمع

ذكرنا – فيما سبق – أن المبدأ الأساسى الذى يتعامل به الإسلام مع الفرد فى ظل مجتمعه هو التقوى والعمل الصالح، وهو ينقسم إلى شقين: شق لا يستطيع أن يحدده بشر؛ لأنه مستكن فى أغوار النفس البشرية، وقائم على علاقة خاصة جدًا بين العبد وربه، ألا وهو «التقوى»؛ وشق آخر جعله الله جليًا، ويتمثل فى «العمل الصالح».

وقد كان هذا المبدأ هو المحرك الذى جعل الجميع فى المجتمع الجديد فى حالة من

(١) لا شك أن هناك من العوامل – غير ما ذكرنا – ما ساعد على عملية المزج هذه، منها «تعاليم الإسلام فى الفتح»، وما استتبع ذلك من «رقّ» كان له الأثر الأكبر فى عملية المزج. ومنها «دخول البلاد المفتوحة فى الإسلام» وامتزاج كثير من أهلها بالعرب كأنهم منهم. انظر فى الحديث عن هذين العاملين: أحمد أمين. السابق ص٨٥–٩٢.

(٢) أحمد أمين: السابق، ص٨٥.

العمل الدائم، وهو ما حدا ببعض الطبقات أن تقوم بإزاحة طبقة أخرى أعلى منها لترتفع إلى مكانتها، أو - على الأقل - لتقترب منها، فى حال من الصراع البشرى الذى لا ينتهي، وصولا إلى أعلى مراتب الجاه والثراء. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[1].

هذا الصراع الطبقى هو ما جعل - مثلًا - بعضًا من الفقهاء والمحدِّثين - من طبقة الموالى - يصبحون أعلامًا فى مجالهم، وأئمة تهتدى بهم الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها. وهو ما جعل أيضًا طبقة دنيا مثل: طبقة المغنين تصل إلى مجالس الخلفاء، أو وجهاء القوم، فتخالطهم وتجالسهم وتنال عطاياهم[2].

فتكافؤ الفرص إذن، والبقاء لمن عمل صالحًا هو المبدأ الجديد الذى ستظهر من خلاله ملامح من هذا الصراع؛ وهو المبدأ الذى فطن له أبو الفرج فى تأليفه لكتابه؛ إذا نظرنا إليه بصورة أعم وأشمل، تشيد بكل جديد جيد فى مجال اهتمامه، فلم يهمل صوتًا جيد الغناء بسبب الجنس أو العرق أو الدين، بل فتح الكتاب تمامًا لكل الأجناس والأعراق والملل، ومن ثم نجد تراجم لعدد كبير من الموالى المغنين، فى الوقت الذى ترجم فيه للخلفاء الذين وضعوا ألحانًا، كالوليد بن يزيد وغيره.

لم يكن هذا المبدأ - العمل الصالح - بجديد كل الجدة على المجتمع العربى الجاهلي[3]، وإنما جاء مؤكدًا لما كان سائدًا أحيانًا فى المجتمع القبلي؛ فقد وجدنا بعض الناس يسألون قيس بن عاصم: «بماذا سدت؟ فقال: بِبَذلِ النَّدى، وكَفَّ الأذى، ونصر

(١) [سرزة سورة الحج: الآية ٤٠].
(٢) وأقصد هنا أن إتقانهم لفن الغناء مكّن لهم ذلك.
(٣) هناك كثير من الشخصيات فى العصر الجاهلى ارتبط اسمها بالبذل والعطاء والمروءة، مما يمكن أن يندرج تحت الأعمال الصالحة. فعبد المطلب جد الرسول - ﷺ- كما يذكر اليعقوبى قد سن بعض القوانين فى الجاهلية فرفعت قدره وشرّفت منزلته؛ منها أنه رفض عبادة الأصنام ووحّد الله، ووفى النذر، ووضع الدية مائة من الإبل. ومنها ألا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها. ومنها قطع يد السارق، والنهى عن قتل الموءودة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا والحد عليه، وألا يطوف بالبيت عريان، وألا يحجّوا إلا من طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفى ذوات الرايات. انظر: اليعقوبي:، ج٢، ص٨.

الموالي[1]». ورأينا معاوية يسأل عَرابة بن أوس: «بأى شيء سُدْت قومك؟ فقال: أعفو عن جاهلهم، وأعطى سائلهم، وأسعى فى حاجاتهم، فمن فعل فهو مثلي، ومن قصَّر عنه فأنا خيرٌ منه، ومن زاد فهو خيرٌ مني»[2].

وهذا المبدأ أيضًا هو ما جعل عمارة بن الوليد فخورًا معَنًّا؛ وجعل قريش تقبل منه ذلك، وتطلق عليه وعلى أصحابه أزواد الركب[3]. وكذلك نجد أسد بن كُرْز يدعى فى الجاهلية ربَّ بجيلة، لأنه حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية تنزُّهًا عنها[4].

وفى ظل هذا المبدأ حظيت بعض القبائل بالشرف، والسؤدد ثمرة لهذا الوعى الخاص بقيم اجتماعية راقية؛ فقد سادت قريش القبائل الأخرى لرعايتها لبيت الله الحرام.

ويبقى السؤال: كيف تشكلت الطبقات الاجتماعية فى ضوء هذا المبدأ - تقوى الله والعمل الصالح - فى المجتمع العربى بعد ظهور الإسلام وحتى نهاية العصر الأموي؟

إن الدارس للمجتمع العربى آنذاك يجده يتألف من عدة طبقات تأتى فى مقدمتها.

طبقة الأشراف

وتأتى فى الذروة منها فئة (أشرف الأشراف). وأقصد بها كل من يتصل ببيت الرسول- ﷺ- بدم، أو صهر، أو ولاء؛ حيث يتحقق فيه الجانبان أو الشقان السابقان: تقوى الله؛ وذلك من خلال الاتصال بنور النبوة، والامتياح من عطائه الذى لا ينضب معينه، ومن ثم فهم يراقبون الله فى السر والعلن ويخشونه فى كل قول وفعل. ثم العمل الصالح الذى يتبارى فيه الناس - كل بطريقته - لتزداد مكانته، ويعلو قدره[5].

---

(١) الأغاني: ج١٤، ص٧٦.

(٢) السابق: ج٩، ص١٦٧-١٦٨.

(٣) انظر فى ذلك الجزء السابق من البحث ص ٥٧، هامش (٢)، (٣)، و«المِعَن»: الرجل الذى يعرض فى كل شيء، ويدخل فيما لا يعنيه. لسان العرب، مادة: (عَنَّ).

(٤) انظر السابق: ج٢٢، ص٢.

(٥) يظل الإحساس بالانتساب إلى الرسول -ﷺ- مصدر فخر واعتزاز يتيه به كل من استظل بوارف من ظلال هذا البيت الكريم، وقبس من أنواره؛ ولقد كان بنو هاشم يعدون هذا فضلًا لا يدانيه فضل، وشرفًا لا يساويه شرف؛ فهذا على بن محمد النوفلى يقول: «كان أبى عند إسحاق بن عيسى بن على وهو والى

إن ما لمسه البحث من خلال بعض الأخبار فى كتاب الأغاني؛ يبرز لنا نظرة التقدير والتبجيل لهذه الفئة. فهذا معْن بن أوس يسافر إلى الشام، ويترك ابنته (ليلى) فى جوار عمر بن أبى سلمة – وأمّه أم سلمة أم المؤمنين، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وفى جوار عاصم بن عمر بن الخطاب، فيلومه بعض عشيرته له على تركه ابنته بالحجاز وهى صبيَّة بدون كافل لها ولا حامٍ، فأنشأ يقول:

لعمْرُك ما ليلى بدار مَضِيعةٍ وما شيخها أنْ غاب عنها بخائف

وإن لها جارين لن يغدِرا بها ربيبَ النبى وابنَ خير الخلائف[1]

فنظرة التقدير والتبجيل هذه لكل من يتصل ببيت النبوة هى التى جعلت العربى يترك ابنته ولا كافل لها دون خوف عليها مما قد يُهَدَّدُها. هذا العربى نفسه كان يقتل ابنته فى الجاهلية لشدة خوفه عليها من أن تسبى فيعيّر بها، فشتان بين الموقفين.

هذه الفئة وضعها المجتمع العربى فى ذروة طبقة الأشراف، وهذا ما حدا بالكميت الشاعر أن يدخل على أبى جعفر محمد بن علي، وينشده قصيدته التى أولها:

من لِقَلْبٍ متيَّمٍ مستهام

ويرفض أن يأخذ الهبة التى أمر له بها أبو جعفر، وهى ألف دينار، وذلك لأنه أتى مادحًا له ليس للدنيا، وإنما للآخرة[2]. تلك المنزلة الجليلة لهذه الفئة، هى ما جعلته أيضًا – الكميت – يدخل على السيدة فاطمة بنت الحسين زائرًا لها، فلما أمرت له بثلاثين دينارًا، ومركب، هملت عيناه، وقال: «إنى لم أحبكم للدنيا»[3].

البصرة، وعنده وجوه أهل البصرة، وقد كان فيهم بقيّة حسنة فى ذلك الدهر، فأفاضوا فى ذكر بنى هاشم، وما أعطاهم الله من الفضل بنبيه (ﷺ) فمن مُنشِد شعرًا، ومتحدث حديثًا، وذاكر فضيلة من فضائل بنى هاشم. فقال أبي: قدجمع هذا الكلامَ الفضل بن العَباس اللهَبي، فى بيت قاله، ثم أنشد قوله:

ما بات قومٌ كرام يدّعون يـدا إلا لقومى عليهم منّة ويـدُ

نحن السَّنام الذى طالت شظيته فما يخالطه الأدواء والعَمَـدُ

فمن صلى صلاتنا، وذبح ذبيحتنا، عرف أن لرسول الله -ﷺ- يدًا عليه، بما هداه الله ` عز وجل ` إلى الإسلام به، ونحن قومه، فتلك منَّة لنا على الناس. الأغاني: ج١٦، ص١٨١.

(١) السابق: ج ١٢، ص ٥٩.

(٢) انظر: السابق، ج١٧، ص٢٤.

(٣) الأغاني: ج١٧، ص٢٥.

وسنرى أيضًا أبا الأسود وهو يحاور صديقه الحارث بن خُليد، حول عدم طلب أبى الأسود للديوان، فيجيبه أبو الأسود، بأن فى القناعة والتجمل غنىً ورفعة، فيجيبه الحارث بأنه تركه محبة لابن أبى طالب وبغضًا للأمويين[1].

هذه هى نظرة المجتمع إلى هذه الفئة التى استحقت إجلال جماعة المسلمين وتوقيرهم فى أعلى مستوياته. فقد كانت تلك الفئة تفعل الخير لذات الخير، محبة لله وتقربًا، دون منّ أو أذى، ودون طمع فى شرف أو مجد. وشواهد ذلك كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، ويكفى أن نعرض بعضًا منها.

فمن ذلك ما أورده أبو الفرج من أن الناس فى المدينة كانوا يتداينون بعضهم من بعض؛ إلى أن يأتى عطاء عبد الله بن جعفر فتقضى حوائجهم وترد ديونهم[2].

وقد أطلق الناس على عبد الله بن جعفر لقب «مأوى المساكين، وملجأ الضعفاء»[3]، فلما مات بكت عليه الناس وأظهروا الجزع، وقد وقف عمرو بن عثمان على قبره ناعيًا له بكلمات تذوب لرقتها القلوب، وتليق بمكانته وعمله الصالح[4].

---

(١) كان أبو الأسود يتعفف عن طلب الديوان فى عهد الأمويين غنىً فى الظاهر، ولكن الدافع الحقيقى كان محبة لآل على بن أبى طالب، وبغضًا للأمويين. انظر الأغاني: ج١٢، ص٣٢٣. وفى موضع آخر نجد أبا الفرج يذكر أن على بن أبى طالب استعمل أبا الأسود على البصرة، واستكتب زياد بن أبيه على الديوان والخراج، فجعل زياد يسبع أبا الأسود [أى يشتمه] عند عليٍ ويقع فيه، ويبغى عليه، فهجاه أبو الأسود. فلما ادّعى معاوية زيادًا وولاه العراق، كان أبو الأسود يأتيه فيسأله حوائجه، فربما قضاها، وربما منعها من رأيه وهواه فى عليٍ بن أبى طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر الأغاني: ج١٣، ص٣١١ - ٣١٢.

(٢) انظر: الأغاني: ج١٢، ص٢١٩. ويذكر الأصفهانى أن الرسول مر بعبد الله بن جعفر، وهو صغير يصنع من الطين لُعَب الصبيان فسأله عما يصنع بها، فأجابه بأنه يبيعها ويشترى بثمنها رطبًا يأكله؛ فدعا له رسول الله بالبركة فكان لا يدخل فى صفقة إلا ربح فيها. انظر: الأغاني: ج١٢، ص٢١٦. وبتلك الدعوة منحه الله سعة الرزق ووفرة العطاء، فلم ينس فضل الله واهتم بذوى الحاجات.

(٣) الأغاني: ج١٢، ص٢٢١.

(٤) «لما مات عبد الله بن جعفر وقف عمرو بن عثمان على شفير القبر، فقال: رحمك الله يا ابن جعفر! إنك كنت لرحمك لواصلًا، ولأهل الشر لمبغضًا، ولأهل الريبة لقاليًا، ولقد كنت فيما بينى وبينك كما قال الأعشى:

رعيت الذى قد كان بينى وبينكم ... من الود حتى غيبتك المقابر

فرحمك الله! يوم ولدت، ويوم كنت رجلًا، ويوم مت، ويوم تبعث حيًّا، والله لئن كانت هاشمٌ أحيت بك، لقد عمّ قريشًا كلّها هُلكك، فما أظن أن يُرى مثلك». السابق: ج١٢، ص٢٢١.

كذلك لما مات على بن الحسين انقطع عيش ناس من المدينة، لم يكونوا يدرون من أين عيشهم[١]. هذه الأخبار وغيرها تدلنا على مدى إحساس هذه الطبقة بالمسئولية تجاه الفقراء، ومحاولة سد حاجاتهم مرضاة لله، وهو أيضًا ما جعل هذه الطبقة تزداد مكانة يومًا بعد يوم داخل المجتمع.

وتذكر الروايات أن عبد الله بن الحسن بن الحسن أيضًا كان شيخ أهله، وكان السيد والمقدَّم عليهم بعمله وكرمه[٢]. وقد دخل على عمر بن عبد العزيز وهو يومئذ شاب «فرحب به وأدناه وحيّاه، وأجلسه إلى جنبه وضاحكه، ثم غمز عكنة من بطنه، وليس فى البيت حينئذ إلا أموى فقيل له: ما حملك على غمز بطن هذا الفتى؟ قال: إنى لأرجو بها شفاعة محمد ﷺ»[٣].

تلك المرتبة الكبرى هى التى جعلت الخلفاء وأبناءهم والقبائل كلها تسعى إلى الزواج بهم، ومصاهرة تلك الفئة، عساها أن تلتصق بنور النبوة، أو ينالها قبسٌ منه.

ومن الأمثلة على ذلك زواج يزيد بن عبد الملك من بنت عون بن محمد بن على بن أبى طالب، ولقد أصدقها مالًا كثيرا[٤].

ولقد دخل ابن ميادة على عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو أميرٌ للمدينة، وكان ابن ميادة يسمر عنده، فسألهم عبد الواحد عن اختيار أيِّم له يتزوجها، فأشار عليه ابن ميادة بمصاهرة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، ويذكر الخبر أن أمه فاطمة بنت الحسين[٥].

---

(١) انظر: السابق: ج١٥، ص٣٢٦.
(٢) انظر: السابق: ج٢١، ص١١٧.
(٣) السابق: ج٢١، ص١١٩.
(٤) انظر الأغاني: ج٤، ص٢٥٢.
(٥) وقد وصف ابن ميادة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، بأنه أشبه الناس بمن فى الجنة، وأن رائحة عطره قد قادته إليه، وأنه لما رآه استلهاه حسنه حتى تكلم، فلما تكلم خاله يتلو زبورًا، أو يدرس إنجيلا، أو يقرأ قرآنا حتى سكت. وعندما سأل عنه أخبر أنه للحسَيْن، وبيْن الخليفتين، وأنه قد نالته ولادة من رسول الله، وأن له نورًا ساطعًا فى غرته، وذؤابته. وأشار ابن ميادة على عبد الواحد بن سليمان، بأنه لو اجتمع مع محمد ابن عبد الله على ولد لساد العباد، وجاب ذكرُه البلاد. وأنشد يقول:

هم نبوة لم يعطها الله غيرهم ... وكل قضاء الله فهو مُقَسَّم

انظر: الأغانى ج٢، ص٣٢٦.

والفئة الثانية من طبقة الأشراف - وهى التى تتلو أشرف الأشراف فى المرتبة الاجتماعية - هى (الفئة الحاكمة الأموية). ومن الملاحظ أن نظرة المجتمع إلى تلك الفئة كانت نظرته إلى من اغتصب حقًا ليس له[1].

ونتيجة لذلك خاضت هذه الفئة صراعًا على السلطة حاولت فيه فرض سيطرتها وسطوتها، بالمال واللين حينًا، والعنف والشدة حينًا آخر.

ولقد كان معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية من أشد الرجال دهاءً وحلمًا: وكان يشتد فى وقت الشدة، ويحلم فى وقت الحلم، وإن كان الحلم أغلب عليه. حتى أنه كان يتحمل من آل البيت ما لا يستطيع حاكم آخر أن يتحمله، على الرغم من أنهم كانوا يغلظون له القول، ويجبهونه أقبح الجبه وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم تارة، «ويعيدهم وحوائجهم مقضية، وصلاتهم معهم، ويحسن معاملتهم ورفدهم»[2].

ومن الملاحظ أن حلم معاوية لم يقتصر على آل البيت، وإنما شمل كلاً من المهاجرين والأنصار، بل كل من أظله الإسلام؛ ومما يروى فى ذلك: أن معاوية أراد شراء أرض لسعية بن غريض، فأغلظ له سعية القول، فأجابه: ما دمت قد بخلت بأرضك، فأنشدنى شعر أبيك، فلما أسمعه إياه، وما به من فخر. قال له معاوية: إنه أولى بهذا من أبيه، فرد عليه سعية بأنه كذب ولؤم - ولم يجبه معاوية إلا بالحلم، وبأن يرفعوه عن مجلسه[3].

ولم يكن حلم معاوية على هؤلاء إلا من قبيل دهائه السياسي، ومحاولته إخضاع من حوله لطاعته. وبمثل هذا أصبح خليفة على كل تلك البلاد، ودان له أبناء المهاجرين والأنصار، وكل من يعتقد بأحقيته بالخلافة منه[4].

---

(١) هناك من النصوص ما يُشير إلى هذا؛ ومن ذلك ما يروى من الحوار الذى دار بين عبد الرحمن بن أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبين مروان بن الحكم يوم دعا إلى بيعة يزيد بن معاوية، إذ قال له: «إنما تريدون أن تجعلوها كسروية أو هرقلية، كلما هلك كسرى أو هرقل، ملك كسرى أو هرقل» الأغانى ج١٧، ص٣٥٧.

(٢) انظر: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تأليف: محمد بن على بن طباطيا المعروف بابن الطقطقي، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م، ص٨٦.

(٣) ويذكر الخبر أن معاوية عندما سمع شعر أبى سعية فى رثاء نفسه، قال لسعية بأنه أولى بهذا الشعر من أبيه، فقال له سعية: «كذبت ولؤمت! فقال معاوية: أما كذبت فنعم، وأما لؤمت فلم؟ فقال له: لأنك كنت ميت الحق فى الجاهلية والإسلام، ففى الجاهلية حاربت الرسول ورسالته، وفى الإسلام منعت ولد رسول الله الخلافة، وهم أولى الناس منك، وأنت طليق ابن طليق، فأجاب معاوية: إن الشيخ قد خرف فأقيموه، فأقيم». الأغانى ج٣، ص١٣٠ - ١٣١.

(٤) انظر: ابن الطقطقي: ص٨٧.

إن حالة من الصراع على السلطة بين بنى أمية وآل البيت، جعلت كثيرًا من خلفاء بنى أمية يجزلون العطاء للشعراء المادحين لهم، ويفتحون لهم أبواب قصورهم مستقبلين إياهم بالحفاوة والترحيب. كما وجدنا الشعراء يسعون إليهم؛ رغبة فى عطاياهم التى لا تنقطع، وطمعًا فى مكانة اجتماعية أعلى. وعلى الرغم من ذلك كانوا يشعرون أنهم أقل من فئة (أشرف الأشراف)؛ فهذا عبد الملك بن مروان يلوم الشعراء، ويحس بالغيرة من مدحهم لآل البيت، ووصفهم بأنهم أهل التقوى والنور، فيقول لهم: «يا معشر الشعراء تشبّهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم:

نهاركُم مُكابدةٌ وصومٌ ... وليلُكُمُ صلاة واقتراء
وَلِيتم بالقُران وبالتزكي ... فأسرع فيكُم ذاك البلاء»[1]

وقد كان جزاء الفرزدق الحبس على قصيدته التى قالها فى على بن الحسين، عندما حج هشام بن عبد الملك، فى خلافة الوليد أخيه، وحاول لمس الحجر الأسود فلم يقدر من شدة الزحام حوله، إلى أن أتى على بن الحسين، فلما رآه الناس أخلوا له الطريق هيبة، فاستلم الحجر، فغاظ ذلك هشامًا، وسأل رجل شامى من جلساء هشام عن هذا الرجل الذى أخلى له الناس الطريق، فأنكره هشام وكان به عارفًا، فقام الفرزدق مفاخرًا به وقال له اسألنى يا شامي؛ فإنى به عارف، ثم اندفع يقول:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلّهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

فحبسه هشام، ولم يكن حبسه هذا إلا لأنه مدح على بن الحسين[2].

---

(١) الأغانى: ج ٢٠، ص ٣١٠ ـ ٣١١. اقتراء: أى قراءة، وانظر أيضًا: ج ٥، ص ٧٩ ـ ٨٠. فى خبر بهذا المعنى عن عبيد الله بن قيس الرقيات.

(٢) انظر الأغاني: ج١٥، ص٣٢٦-٣٢٧. لما حبس هشام الفرزدق قال يهجوه:

أيحبِسني بين المدينة والتي ... إليها قلوب الناس يهوى مُنِيبها
يقلّب رأسًا لم يكن رأس سيدٍ ... وعينًا له حَولاءَ بادٍ عيوبها

وفى المقابل كان عطاء بنى أمية كبيرًا للشعراء الذين يحسون منهم ميلًا وهوى إليهم؛ فيجـزلون لهم العطاء، ويقربونهم، ومن ذلك أن بشر بن مروان لما ولى الكوفة، قرَّب عبد الله بن الزبير الأسدي[1]، وخصّه، لعلمه بشدة حبه لبنى أمية[2].

وقد قرَّب الوليد بن يزيد، يزيد بن ضبَّة؛ لما دخل عليه مهنئًا له على الخلافة، فاستأذن الوليد فى الإنشاد، فأذن له، وأمر أن تعد أبيات القصيدة فيُعطى على كل بيت ألف درهم، ويُقال إنه حصل يومئذ على خمسين ألف درهم، ويذكر الخبر أن الوليد أول من عدَّ أبيات القصيدة وأعطى عليها[3].

وحج عبد الملك بن مروان أثناء خلافته، فقابل أبا صخر الهذلي، فأدناه ووصله من العطـاء ومن مـاله الخاص، بعدما حرمه من ذلك عبد الله بن الزبير. ولم يكن تقريب عبد الملك لأبى صخر إلا من قبيل التشفى فى عبد الله بن الزبير، ولإشباع غريزة التفوق لديه على منافسه[4].

وعلى الرغم من أن كثيرًا من الشعراء كانوا يقيمون بأبواب الخلفاء، ينشدونهم الشعر راغبين فى عطاياهم؛ فقد كان هناك من الشعراء من ترفع عن ذلك، كالحزين بن سليمان، فإنه ليس ممن خدم الخلفاء، ولا مدحهم[5].

وإن كان هناك من الشعراء من ترفع عن مدح الخلفاء ونيل عطائهم، فإن هناك من الخلفاء من أبى أن يعطى الشعراء أو يسرف فى ذلك. فعمر بن عبد العزيز يرفض أن

ففك أسره. ويورد الخبر أن على بن الحسين أرسل إليه عشرة آلاف درهم، فردها الفرزدق: وقال: ما قلت هذا إلا لله. فقال له علي: إننا - أهل البيت - إذا أنفذنا شيئًا ما نرجع فيه، وأقسم عليه، فقبلها.

(١) هو عبد الله بن الزبير بن الأشم بن الأعشى... بن أسد بن خزيمة. شاعر كوفى المنشأ والمنزل، من شعراء الدولة الأموية، وكان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب لهم. مات فى خلافة عبد الملك بن مروان. انظر ترجمته فى الأغاني: ج١٤، ص٢١٧.

(٢) انظر: السابق: ج١٤، ص٢٤٦.

(٣) انظر: السابق: ج٧، ص٩٧-١٠٠.

(٤) انظر: الأغاني: ج٢٤، ص١١٣-١١٦.

(٥) انظر: السابق: ج١٥، ص٣٢٣. ويذكر الخبر الوارد عنه، أنه من شعراء بنى أمية، حجازيٌّ، مطبوعٌ، لا يعد من الفحول، ولكنه لم يخدم الخلفاء، ولا انتجعهم بمدح، ولا كان يريم الحجاز حتى مات.

يعطى كلا من كثيِّر عزة، ونصيب، والأحوص، إلا مائة وخمسين درهمًا بعد مكوثهم أمام بابه أربعة أشهر[1].

فعمر بن عبد العزيز نظر إلى عطاء الشعراء على أنه إسراف ليس فى محله، وقد لجأ خلفاء بنى أمية الآخرون إلى المغالاة فى هذا العطاء؛ تألفًا لهؤلاء الشعراء، وحفزًا لهم على أن يكونوا من أتباعهم، وأنصارهم. فالشعر فى ذلك العصر كان الوسيلة الإعلامية التى تؤثر فى فكر المجتمع، وتحاول توجيهه. ولذلك فطن الأمويون إلى تلك الأداة فاستخدموها؛ لإحساسهم بالعجز عن إقناع المجتمع بصحة موقفهم من الخلافة. أما عمر فقد كان يجمع بين السلطة والسياسة، وبين العراقة الأسرية، والعمل الصالح، الذى هو شعار فئة أشرف الأشراف وقد أهَّلَه لهذا وأغراه به أنه حفيد عمر بن الخطاب.

إن مثل هذه الأخبار تبرز مدى الثراء الذى أصاب المجتمع العربى فى تلك الفترة؛ بسبب الفتوحات الإسلامية الواسعة آنذاك، ثم ما استأثرت به تلك الفئة الحاكمة، مما انعكس عليها فى حياتها، وفى مظاهر الترف والخيلاء التى أحاطت نفسها به. فالأصفهانى يذكر أن جارية سليمان بن عبد الملك كانت ترتدى غلالة ورداء معصفرين، وعليها وشاحان من ذهب، وفى عنقها فصلان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت[2]. فإذا كان هذا هو لباس الجارية فما بالنا بلباس من ملكها؟!.

وقد غالت تلك الفئة الحاكمة فى ارتداء الجوهر والملابس، فيقول الأصفهاني: «إنما أغلى الجوهر بنو أمية»[3]. وقد كان الوليد يرتدي العقود كما يرتدى الثياب، «ويجمعها من كل وجه ويغالى به»[4].

ويرتبط بهذا الثراء والترف القصور التى أنشئت فى عهدهم؛ فمن ذلك قصر الحجاج الذى بناه دون المحدثة (وهى قرية بواسط)؛ وقد فاخر به امرأته هند بنت أسماء بن

---

(١) انظر فى ذلك أيضًا موقفه مع عويف القوافي، ومنحه إياه من ماله الخاص لما اضطر إلى ذلك. السابق: ج٩، ص٢١٠، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢) انظر: السابق: ج٤، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٣) السابق: ج٧، ص٥٩.

(٤) السابق نفس الصفحة.

خارجة، وسألها هل رأت أحسن منه؛ فأجابته بأن قصر زياد بن أبيه أفضل، وكان بدار الإمارة بالبصرة، وكان مبنيًا بطين أحمر فأرسل إليه الحجاج فهدمه ثم بناه بلبن، ثم تعهده صالح بن عبد الرحمن فى خلافة سليمان فبناه بالآجر[1].

ومن ذلك أيضًا قصر سعيد بن العاص بالعَرْصة، الذى اتخذه نزهة وليس بمال، حيث أمر ابنه عندما وافته المنية، أن يعرضه على معاوية ليأخذه بدين له كان فى حدود ثلاثمائة ألف درهم، فاحتمله معاوية بالوافية[2].

إن المتأمل للعصر الأموي، يجد أن حياة البذخ تلك لم تبدأ مع العصر الأموى وإنما وجدت جذورها الأولى منذ عصر عثمان -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حيث يذكر لنا مروج الذهب عددًا من القصور والدور التى اقتناها جماعة من الصحابة فى عهد عثمان وحالة الإغداق على أقاربه[3]. ومثل هذا وذاك من الثروات ما أجج نار الثورات بين أفراد المجتمع، وأدى إلى تفرقة الصفوف، والبحث عن العدل الاجتماعى الذى يمثله أفضل تمثيل من ينتمون إلى آل البيت للأسباب النفسية والاجتماعية سالفة الذكر.

ومع حياة البذخ والترف السابقة حرص الأمويون على تربية أبنائهم تربية تؤسس لمكارم الأخلاق، وتجعلهم مؤهلين لتولى مقاليد الحكم، حتى لا تثير أحقاد المجتمع عليهم؛ فالأخلاق الكريمة والتربية الصالحة تؤثر فى أفراد المجتمع فيتقبلون الواقع الماثل الذى كانوا ينكرونه من قبل. فهذا عبد الملك بن مروان يحرص كل الحرص على

---

(١) انظر: السابق: ج٢٠، ص٣٦٨.

(٢) الدرهم الوافي: درهم وأربعة دوانق، والدانق سدس درهم. السابق: ج١، ص٣٤-٣٥.

(٣) يذكر المسعودى أنه فى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور: منهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة، وابتنى أيضًا دورًا بمصر والكوفة والإسكندرية. وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج. انظر مروج الذهب: ج٣، ص٣٦٧-٣٦٨. وقد علق المسعودى على ثروات القوم بقوله: «وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه فى من تملك من الأموال فى أيامه، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة، وطريقة بينة». السابق ص٣٦٩. وفى خبر آخر يورد أن الوليد ابن عقبة (أخو عثمان)، وكان الوالى على الكوفة فى أيام عثمان، خطب الناس وهو سكران فحصبه الناس فى المسجد، فدخل قصره وهو يترنح. انظر: السابق، ج٢، ص٣٦٩-٣٧٠.

أبنائه، فيقول لمؤدبهم: «إذا روّيتهم شعرًا فلا تروِّهم إلا مثل قول العُجيْر السلولي:

يَبِينُ الجارُ حين يبين عني ... ولم تأنس إليَّ كلاب جاري
وتظعن جارتى من جنب بيتي ... ولم تُسْتَرْ بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آتي ... عليها وهْى واضعة الخمار
كذلك هَدْى آبائى قديمًا ... توارثه النَّجار عن النجار»[1]

إن هذه الأبيات لها دلالتها الواضحة فى التأسيس لمكارم الأخلاق؛ فهو يرعى حق الجار، ولا يخدش حياء النساء، فتأمن الحل والظعينة على نفسها وهى فى جواره.

وخيرُ مثال لأبناء الخلفاء الذين نشأوا نشأة حسنة خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان بن حرب، فقال عنه أبو الفرج: إنه من رجالات قريش سخاءً وعارضة وفصاحة؛ بل كان يوصف بالعلم، ويقول الشعر[2].

ألمحنا فى الصفحات السابقة إلى الفئة الثانية من طبقة الأشراف وهى الفئة الحاكمة الأموية. ونتناول الآن الفئة الثالثة من هذه الطبقة، وهى الفئة التى حظيت بالنسب إلى بيوتات الشرف فى العصر الجاهلي، ونالها الجاه بتولى أفرادها بعض المناصب العليا فى المجتمع الأموي.

ولقد اعتنى الأصفهانى بهؤلاء عناية كبيرة، ومن الأمثلة التى ذكرها: عبد الله بن الحشرج. «وكان سيدًا من سادات قيس، وأميرًا من أمرائها»[3]. وقد تولى أكثر أعمال خراسان. ويذكر الخبر أن أبا الحشرج بن الأشهب كان سيدًا أيضا، وكان شاعرًا وأميرًا كبيرًا. وكذلك عمه كان شريفًا وسيدًا[4]. فالشرف ناله من عراقة نسبه ومن مكانته السياسية فى المجتمع، ولذلك أمّه الشعراء ومدحوه.

---

(١) الأغانى: ج ١٣، ص ٧٥.
(٢) انظر الأغاني: ج١٧، ص٣٤١.
(٣) السابق: ج١٢، ص٢٣.
(٤) ويذكر الخبر: أن عبد الله بن الحشرج كان جوادًا مُمَدّحًا. وقد قال عنه زياد الأعجم:

إن السماحة والشجاعة والندى ... فى قُبَّة ضربت على ابن الحشرج

أما عمه فهو الذى سعى فى الصلح بين على بن أبى طالب ومعاوية، فرفض معاوية. السابق: ج٢٢، ص٢٦٧-٢٦٨.

استتبع تلك السيادة والمكانة العالية فى المجتمع بعض المظاهر، منها: محبة الجود والكرم، واشتهرت تلك الفئة ببذل العطاء، وإجابة السائل، وحمل الديات، وإكرام الضيف، وعطاء الشعراء، بل كانوا يتنافسون على إطعام الطعام. فمن ذلك تنازع حوشب بن يزيد بن الحُوَيرث بن رُوَيم الشيباني، وعكرمة بن ربعيّ البكري، وكانا يتنازعان الشرف، ويتباريان فى إطعام الطعام، ونحر الذبائح فى معسكر مصعب ابن الزبير[1].

وكذلك تمتد الأخبار لتخبرنا عن المغيرة بن عبد الرحمن الفقيه، ويصفه الأصفهانى بأنه «أحد أجواد قريش، والمطعمين منهم»[2]. بل يذكر لنا الخبر أنه دخل الكوفة على عبد الملك بن بشر بن مروان، وكان بالكوفة جماعة من قريش وغيرهم يطعمون الناس فلما علموا بقدوم المغيرة تواروا حياء من جوده، فوضع الجفان فى السكك يطعم الناس، وهو مطعم الجيش بمنى[3].

ومن تفضل تلك الفئة أيضًا منح الألطاف والهدايا؛ فقد كانت عائشة بنت طلحة ابن عبيد الله تدخل إليها القرشيات وغيرهن، فتحملهن بالكسوة والتحف، وقد وقف الغريض ببابها مع بعض نسوة من قريش، فأذن للنسوة ولم يؤذن له، فقال: ما أنا ببارح الباب حتى آخذ نصيبى من عائشة، وانطلق يغني، فسمعته عائشة فدعته، وأكرمته[4].

ويبدو لنا أن اتخاذ قيمة الكرم فى الروايات السابقة - أقرب إلى المأثورات الشعبية منها إلى الروايات الحقيقية، كإحدى شارات السيادة، وتأكيدًا على خصوصية المنزلة، فى مجتمع طرأت على قيمه الاجتماعية والدينية تغيرات ملحوظة.

---

(١) ويذكر الخبر أن حوشبًا كان يتفوق على عكرمة ليساره، فاشترى عكرمة دقيقًا، ووزعه على قومه، وأمرهم بعجنه، ثم وضع العجين فى هوة عظيمة وغطاها بالحشيش، ثم استدرج فرس حوشب ليقع فى الهوة، فيقول الناس: أدركوا فرس حوشب فقد وقع فى خميرة عكرمة. السابق: ج٢٢، ص٣٤١-٣٤٢. ولعل هذا الخبر من وضع أبى الفرج؛ فهو يعمد أحيانًا إلى تقديم بعض الملَح الطريفة للقارئ. ولكن إذا افترضنا صحته فإنه يشير إلى تلك المنافسة الاجتماعية التى كانت تحدث بين بعض القبائل ذات الوجاهة والمنزلة. ومن ذلك أيضًا قصة «مرة بن محكان»، «وأبى البكراء». وقد أنهب مُرَّةُ ماله للناس، فحبسه عبيد الله بن زياد ج٢٢، ص٣٢١.

(٢) السابق: ج١٦، ص٢٧٤.

(٣) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٤) انظر: السابق، ج٢، ص٢٧٤.

ومع هذه التغيرات سنجد ثوابت ازدادت تأكيدًا، منها عون المعسر، وتحمل الديات عن غير القادر فيما يسمى بالحمالات - وقد سبقت الإشارة إليها - فكانوا يتحملون الدية عن صاحب الدم فى حالٍ من الرضا. فمن هذا ما حدث بين قيس بن عاصم وهو أحد أزواد الركب[1] - حينما حمل الدية عن عبدة بن الطبيب، على الرغم من وقوع ملاحاة بينهما أدت بقيس بن عاصم إلى تجنب عبدة، غير أنه بمجرد معرفته بسؤال عبدة الناس فى حمل الدية عنه، ساق إليه الإبل، وقال لقومه: قولوا له ليستمتع بما أتى إليه[2].

وقد ذهبت بنو الدَّيل إلى أبى الأسود الدؤلى فى قضاء دية عليهم إلى بنى ليث، فرفض أبو الأسود، وكان معدودًا فى الأشراف البخلاء[3].

فالصفات النفسية تلعب دورها - إذن - فى الظواهر الاجتماعية لطبقة الأشراف؛ فليس كل من عد شريفًا، وسيدًا فى قومه يحمل نفس الصفات من البذل والعطاء، فأبو الأسود الدؤلى يعد شريفًا بل سيدًا، ولكنه بخيل؛ بل إن ابن الزبير لخير مثل على ذلك، حيث يعد من البيوتات الكبرى، وله اتصال ببيت النبوة، ولم يحل هذا دون أن يعد من البخلاء، والأمثلة كثيرة فى كتاب الأغانى تند عن الحصر[4]. وإذا قلنا من قبل إن ذلك البذل والعطاء يمثل ظاهرة فلأن العدد الأكبر من الأشراف كانوا يفعلون ذلك لا تفضلًا ولا منًا، ولكن تعبيرًا عن التكافل الاجتماعى الجميل الذى وضعت أسسه القبيلة التى كانت تمثل وحدة المجتمع، والتى ارتبط أفرادها بعرى لا تنفصم إلا فى

---

(١) سبق أن شرحنا هذا المصطلح ص ٦٥ من هذا البحث.

(٢) والخبر يذكر أن عبدة أراد أن يصلح ما بينه وبين قيس، ولكنه خشى أن يصبح هذا عارًا عليه، فقال: أرجع إلى أهلى ثم أعود إليه فى وقت آخر فأصافيه، فلما عاد وجده مات، فوقف على قبره قائلًا:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما

انظر: الأغاني: ج١٤، ص٨٣-٨٤.

(٣) انظر: السابق: ج١٢، ص٢٩٩-٣٠٠، ص٣٠٢.

(٤) انظر: الأغاني: ج١٢، ص٥٧. ومما يرويه الأصفهانى عن بخل عبد الله بن الزبير قوله: «قدم معن بن أوس مكة على ابن الزبير، فأنزله دار الضيفان، وكان ينزلها الغرباء، وأبناء السبيل، والضيفان، فأقام يومه لم يطعم شيئًا، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل، فقال: كلوا من هذا، وهم نيف وسبعون رجلًا، فغضب معن وخرج من عنده، وأتى عبيد الله بن العباس، فقراه، وحمله، وكساه. السابق: نفس الصفحة.

حالات خاصة. وجاء الإسلام فأعلى بناء الكرم ووضعه فى أعلى مراتب الإيمان. هكذا كلما ازداد المجتمع قربًا من الحال الفطرى البعيد عن البذخ الحضاري، اقترب من الفطرة الإنسانية الخيرة التى فطر الله الناس عليها.

إن التطور الذى حدث للمجتمع العربى مع الفتوحات الإسلامية الواسعة لم يؤثر بشكل كبير فى طبيعة العربى النفسية والأخلاقية التى تعودها مع حياته القبلية؛ وعلى الرغم من تطور المجتمع العربى فى العصرين الإسلامى الأول والأموى تطورًا ظاهريًا من ناحية الملبس والمسكن، فإنه ظل يحمل داخله بداوته التى ربما تتطور بحلول العصر العباسي، بفعل دورة الزمن التى لها فعل الماء الذى ينحت الصخر، ببطء وتُؤَدة، فتتغير الرؤية، وتتطور النفس البشرية من الداخل، وتتغير نظرة المجتمع الداخلية لذاته وللآخر[1].

إن قيم البداوة المهيمنة على العلاقات الاجتماعية، والتصورات الشخصية، هى ما جعلت عَقِيل بن عُلَّفة «شديد الهوج، والعجرفية والبَذَخ بنسبه فى بنى مرة»[2] ولا يرى له كفئًا؛ لأنه ناله الشرف من ناحية الأب والأم، وهذا ما جعل قبيلة شريفة كقريش تسعى إلى مصاهرته[3].

نأتى إلى الفئة الرابعة والأخيرة فى طبقة الأشراف، وهى الفئة ذات الصعود الاجتماعى الطفري؛ حيث تصعد فئة ربما لم ينلها الشرف الأصيل، إلى درجة اجتماعية أرقى، تسعى فى هذا إلى مغادرة موقعها الموروث والمتاح لها بقوة الماضي، لتقف بجانب فئة أصيلة فى الشرف والعراقة، ربما لأسباب سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية. والمتأمل لتاريخ البيت الأموى يرى أن هذا البيت قد استعان بمجموعة من هؤلاء ليكونوا اليد التى

---

(١) فى تلاقى المدنيتين يحدث أن يكون المنتصر أقل من مستوى المنهزم حضاريًا، ورغم ذلك فإن إحساس المنتصر يجعله ينظر إلى المنهزم على أنه أقل منه شأنًا فلا يتأثر به ولا يأخذ عنه، فتحتاج الدولة المنتصرة لزمن طويل للتخفيف من نظرة الاستعلاء تلك والانغماس مع المنهزم فى رؤيته الحضارية.

(٢) الأغاني: ج١٢، ص٢٥٤. البذخ: الكبر وتطاول الرجل بكلامه وافتخاره.

(٣) يقول أبو الفرج: «وكانت قريش ترغب فى مصاهرته (أى مصاهرة عقيل بن علفة)؛ تزوّج إليه خلفاؤها، وأشرافها، منهم يزيد بن عبد الملك، تزوّج ابنته الجرباء، وكانت قبله عند ابن عم لعقيل...، وتزوّج بنته عمرة سلمة بن عبد الله بن المغيرة...، وتزوّج أم عمرو بنته ثلاثة نفر من بنى الحكم بن أبى العاص». السابق نفس الصفحة.

تضرب من خرج عن قطيعهم وتعيده إلى حظيرتهم. إن الحكومات المستبدة تستخدم منفذين لها، تحقق من خلالهم أهدافًا محددة وضعتها مسبقًا، وتتخير هؤلاء المنفذين بصفات نفسية، وخلقية، بها من الضعف ما بها، وتكون عليمة بجوانب ضعفها، حتى تستخدم تلك النقاط فى وقت الحاجة للضغط عليهم لتنفيذ أوامرهم.

شاهدنا هذا فى البيت الأموى عند اختياره لمجموعة من هؤلاء المنفذين، منهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد بن أبيه، وخالد بن عبد الله القسري، وسنكتفى فى هذا الموضع بنموذج واحد، وهو خالد بن عبد الله القسرى الذى أفرد له الأصفهانى عددًا من الصفحات، بدأ فيها بنسبه من كلا طرفيه؛ وبتفحص سلسلة نسبه نخلص إلى أن الأخبار التى أوردها أبو الفرج ليست بجديدة على منهجه فى الكتابة، وأن الاختلافات فى سلسلة النسب تلك لا تجمل وجه خالد القسرى بقدر ما تشكك فيه، ولأن أبا الفرج يُورد كل الآراء والأخبار لتوضيح إنسانية الشخصية بكل جوانبها، فقد ذكر أن أصحاب المثالب، يقولون فيه أقوالًا، سيذكرها هو فى موضعها من أخبار خالد المذمومة، وأنه على ما قيل فيه فقد كان (لخالد) سؤددٌ وشرفٌ وجود[1].

بقى أن نتعقب جانبًا من أخبار هذه الشخصية الحادة؛ فلقد صعد خالد القسرى إلى مكانة عليا فى المجتمع، على الرغم من أن جده كرز بن عامر كان عبدًا آبقًا لعبد القيس من هجر، ثم ظفرت به بنو أسد بن خزيمة وظل لديهم مدة، تزوج فيها ثم أعتقوه، وقد اشترى نفسه وابنه من هجر، وانتقل إلى دار بجيلة فنزل فيهم، وادّعى إليهم[2].

أما مكانته المرموقة فى المجتمع فتتمثل فى أن بنى أمية أسندوا إليه ولايتين مهمتين

---

(١) الأغاني: ج٢٢، ص٢. هذا؛ وقد رجعت إلى ولاية خالد بن عبد الله القسرى لمكة سنة ٩١، فى كتاب الطبري، ووجدت فى خطبته التى ألقاها على الناس فى الحرم كثيرًا من الحزم، والتهديد للمخالفين بالصلب فى الحرم. وهى تقريبًا بها نفس روح التهديد والتنديد التى تضمنتها خطبة الحجاج لأهل العراق، فاختيار خالد فى هذا الموقع المهم حيث يقابل كل أفراد المجتمع، فى موسم الحج، يدل على الحنكة السياسية لبنى أمية باختيار شخصيات يرون أنها ستنفذ سياستهم القامعة لكل خارج عليهم؛ ولا عجب فالبيت الأموى فى الجاهلية، كان صاحب اللواء، والتجارة، بينما البيت الهاشمى كان المسئول عن البيت العتيق. انظر الطبري، ج٦، ص٤٦٤.

(٢) انظر فى ذلك: السابق: ج٢٢، ص١٠-١٢.

سياسيًا بالنسبة إليهم؛ فقد وُلى مكة فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة إحدى وتسعين كما يذكر الطبرى – وظل واليًا عليها إلى أن مات الوليد[1]. فمكة هى مكان التقاء القبائل من أقصى الأرض إلى أدناها، وإن لم تحكم بقبضة من حديد لكانت سببًا فى انهيار البيت الأموي. ولقد أدى خالدٌ القسرى دوره على أتم وجه حتى إنه كان يعلم من دخل ومن خرج، وأين أقام[2].

وأما مظاهر صعوده الطبقى فيتمثل فى ثرائه ثراء فاحشًا؛ فلقد كانت له ضياعٌ كثيرة، وقد بلغ خراج ضياعه عشرة ملايين درهم، وكذلك كان خراج ابنه مثل خراجه بل يزيد. أما الذى استوقفنى فى الخبر فهو رد خالد بن عبد الله، حينما كلمه دهقان – كان يأنس به – فى ثرائه الفاحش هذا، فقال له خالد: «إن أخى أسد بن عبد الله قد كلمنى بمثل هذا، أفأنت أمرته؟ قال: نعم، قال: ويحك! دعه، فربَّ يوم كان يطلب فيه الدرهم، فلا يجده»[3].

والواضح أن هذا الخبر تعوزه الدقة؛ ودليل ذلك ما رواه أبوالفرج نفسه فى الصفحات السابقة على هذا الخبر؛ فقد ذكر أن عبد الله بن يزيد نال حظًا وشرفًا فى إمارة عثمان، ووسم خيله: (القسريّ)[4]، وحاول أن يمتلك أرضًا فى بلاد قسر[5]، وكان فى مرتبة تركها لابنه خالد، فلما نشأ خالد تولى العراق[6]، وهذا يوضح أن أباه لم يكن فى حال من العَوَز، بل ترك خالدًا فى مكانة اجتماعية، وفى مال كثير.

---

(١) انظر: الطبري: ح٦، ص٤٦٤. الولاية الثانية العراق.

(٢) انظر: السابق: ص٤٦٥.

(٣) الأغانى: ج٢٢، ص٢٢-٢٣.

(٤) وسم خيله القسري: وضع عليها علامة قبيلة قسر ويبدو أن القبائل كانت تسم الخيل بما يميز خيل كل قبيلة عن خيل سواها.

(٥) ورد فى معجم البلدان (السابق المجلد٤، ص٣٤٦): أن «قسر» اسم لجبل السَّراة. وفى (المجلد٣ ص٢٠٤): «السراة»: «جبل مشرف على عرفة، ينقاد إلى صنعاء... وإنما سمى بذلك لعلوه»؛ أو: «الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن، ولها سعة، وهى باليمن أخص».

(٦) انظر: الأغاني: ج٢٢، ص١١. ربما تناول أبو الفرج شخصية خالد من المصب إلى المنبع، بقصد إظهار الرؤية المجتمعية لشخصية كرهها المجتمع فى تلك الفترة بسبب أفعالها، فتضخمت بفعل الرواية الشعبية لها، وأوردها أبو الفرج كما هى بقصد الاستطراف والتخفيف من حدة الأخبار الحقيقية.

إن الصفات النفسية المشوهة لتلك الطبقة تظل هى المحرك لهم فى حالة انحدار مكانتهم، وتكون النهاية. وفى أخبار خالد القسرى ما يؤكد هذا حينما تطاول على رأس الحجبة، وضربه مائة سوط عندما رفض فتح باب الكعبة له، ولقد حَمِى عليه سليمان بن عبد الملك بعدة أبيات للفرزدق يحط فيها من قدر خالد، وكاد أن يقطع يده لولا تدخل يزيد بن المهلب، فعفا عنه وضربه مائة سوط. وكذلك عند محاولته المساواة بين ابنه يزيد، ومسلمة بن هشام، مما حرَّب عليه هشامًا فعزله عن ولاية العراق، وقتل ابنه.

وقد حاول خالد بن صفوان بن الأهتم أن يشفع له عند هشام، فرفض ثم قال: «إن خالدًا أوجف فأعجف، وأدلّ فأملّ، وأفرط فى الإساءة فأفرطنا فى المكافأة، فَحَلِم الأديم، ونغل الجرح، وبلغ السيل الزبي، والحزام الطبيينْ، فلم يبق فيه مُسْتَصْلح، ولا للصنيعة عنده موضع»[1].

هذه هى الصفات النفسية لتلك الفئة المتطلعة لمكانة أعلى فى هذا المجتمع، ولقد خالفت ما أشرت إليه فى بداية حديثى عن تلك الطبقة من مبدأى تقوى الله، والعمل الصالح، بل كان شعار تلك الفئة تنفيذ أوامر الحاكم، والعمل من أجل مصلحتها الشخصية لتظل فى مكانة لم تكن تحلم بها فى يوم من الأيام.

هذه هى الطبقة الأولى، وهى تضم فئات ومستويات تتنافس فيما بينها على الشرف والسيادة، وربما اتخذ هذا التنافس طرقًا يأباها العقل، وتنفر منها الفطرة السوية، كالنيل من الآخر لدوافع سياسية، وكالإمعان فى الانتقام أو التشفى من الخصوم.

وهناك طبقة أخرى تشكل الغالبية من العرب، وتضم - أيضًا - فئات عديدة كالشعراء، والكتاب، والفقهاء، والجند الذين تحملوا أعباء الفتح. وهذه الطبقة من الكثرة والتنوع والتداخل بحيث يصعب الحديث عن كل فئة منها على حدة.

على أننا ينبغى أن نتذكر ما سبق أن أشرت إليه غير مرة من أن الروح القبلية كان لها انعكاسها على كثير من الظواهر الاجتماعية فى هذا العصر. ومن أبرز هذه الظواهر

---

(١) أوجف فأعجف: أى أسرع فى الإساءة، أدلَّ فأمل: أكثر من الإدلال، فسبب لنا السآمة والإملال. الأديم: الجلد، حلم: كثر دوده حتى تَثَقَّب وفسد، ونغل الجرح: تعفن وفسد، الزبي: جمع زبية، وهى الربوة، لا يصل إليها الماء، الطبيْ: حلمة ثدى الناقة، وهو مثال يضرب لتفاقم الأمر. السابق: ج٢٢، ص٢٦.

(ظاهرة الصعاليك) وظاهرة (العصبية القبلية)، وما ارتبط بهما من فتن وثورات وحروب، كان لها أثرها فى زعزعة الاستقرار فى الدولة الأموية. وسنتحدث عن هذه الجوانب بشيء من التفصيل فيما بعد.

طبقة الموالى

هذه هى الطبقة الثانية التى تلى طبقة «الأشراف» من حيث الأهميةُ، ومن حيث تأثيرها فى التحول الذى أصاب المجتمع العربى آنذاك. ومن الملاحظ اهتمام أبى الفرج بها اهتمامًا كبيرًا. وهذا أمرٌ متوقع إذا ما ذكرنا الدور الذى قاموا به فى «الغناء»، وقد كان هذا هو المحور الذى أدار عليه أبو الفرج مادة كتابه. فضلًا عن أن الموالى أسهموا بدور كبير فى الأحداث التى ألمت بالدولة الأموية، وكانوا أطرافًا مشاركين فيها. بالإضافة إلى أثرهم الذى لا ينكر فى الحياة الفكرية للمجتمع الإسلامى فى هذا العصر. وسوف نلمس ذلك من خلال حديثنا عن هذه الطبقة.

هذا؛ وقد اتسع مدلول كلمة (المولى) مع بداية حركة الفتوح واستمرارها؛ إذ وجد العرب أنفسهم مسئولين عن عدد كبير من السكان غير العرب الذين تحولوا للإسلام، وكان يتعين دمج هؤلاء فى المجتمع الجديد على الرغم من عدم احتفاظهم بسلاسل أنساب كما عند العرب. وبوجه عام كان يتعين على كل السكان المسلمين من غير العرب فى البلاد المفتوحة أن يجد الواحد منهم لنفسه راعيًا عربيًا أى (وليًا)، فالولاء هنا نوعٌ من الارتباط والتبعية ينطبق على كل من أسلم على يد آخر. ومن ثم فكلمة المولى أصبحت تطلق على كل من دخل الإسلام من غير العرب، سواءً اسْتُرِقَّ أم لم يُسْتَرق[1].

وقد كان هذا فى الواقع هو الحل لمشكلة انتماء هؤلاء الجدد الداخلين فى الإسلام إلى مجتمع قَبَلى هو المجتمع العربي، ولم تكن العلاقة بين السيد وتابعه علاقة تذلل بالضرورة؛ فليس من دور للسيد إلا أنه يمثل المدخل إلى مجتمع ذى طابع قبلي، ومن ثم لم يكن هناك ما يشوب العلاقة بين الطرفين.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري. الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ج٣٠ ص ٩٨١٤.

ومع هذا فقد لحق الموالى على أرض الواقع بعض الظلم، وكان العرب - وبخاصة فى الدولة الأموية - ينظرون إليهم نظرة فيها شيءٌ من الازدراء. وربما كان مرد ذلك إلى «ما كان من احتقار العرب - الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب - أولئك الموالي، واعتبارهم إياهم طائفة منحطة، لا تكاد تختلف عن طائفة الرقيق فى شيء؛ وذلك لامتهانهم طبقات العمال التى نشأ منها هؤلاء، وازدرائهم تلك المهن التى كانوا يزاولونها»[١]. وربما ساعد على ذلك أن كلمة مولى نفسها تحمل من الظلال واللبس، ما يقوى ذلك الشعور بالامتهان؛ فطالما كانت تطلق أيضًا على الرقيق المعتَق[٢]. ولا ننسى أن هؤلاء الموالى قد لحقتهم عند الفتح هزيمة عسكرية[٣]. وقد نمَّى إحساس العرب تجاههم بلون من السيادة قيامهم بالعبء الأكبر فى الجهاد والغزو، ثم - فيما بعد - استئثار العرب بالمناصب المهمة فى الدولة، وبخاصة السياسية والدينية، ولم يسمحوا للموالى بحق العمل فيها، وإنما سمحوا لهم بالأعمال التى كانوا يأنفون من القيام بها، كالزراعة، والصناعة، والحرف اليدوية[٤].

وأدى هذا كله إلى كراهية الموالى للأمويين، وانتهاز الفرص للمشاركة فى الثورة ضدهم. وظهر أثر ذلك لأول مرة فى الثورة التى قام بها المختار الثقفى ضد الأمويين؛ إذ يلفت النظر نقص العرب الذين اشتركوا فيها مقارنين بالموالي[٥]. وقد جاء فى الطبري: «التقى أشراف الناس بالكوفة، فأرجفوا بالمختار... وأخذوا يقولون: والله لقد تأمَّر علينا هذا الرجل بغير رضًا منا، ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب، وأعطاهم، وأطعمهم فيئنا؛ ولقد عصتنا عبيدنا، فَحَرِب بذلك أيتامنا، وأراملنا... ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيءٌ هو أعظم من أَن جعل للموالى من الفيء نصيبًا».

ويستمر النص فيقول: «عمدتَ إلى موالينا، وهم فيءٌ أفاءه الله علينا، وهذه البلاد

---

(١) فان فلوتن: السيادة العربية. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، محمد زكى إبراهيم. مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٣٤م، ص٣٧.

(٢) انظر السابق: نفس الصفحة.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، السابق: نفس الصفحة.

(٤) انظر: د. يوسف خليف السابق: ص١٧١.

(٥) انظر: الطبري: السابق ج٦، ص٧٣. وانظر أيضًا: فان فلوتن، السابق، ص٤٠.

جميعًا، فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك، والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك، حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا»[1].

وأشير هنا إلى أن النظام الذى أقره عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- فيما يتصل بالعطاء، كان يفرض لكل مسلم دُوِّن اسمه فى الديوان مكافأة سنوية، حسبما هو وارد فى "فتوح البلدان" وغيره، لا فرق فى ذلك بين العرب والموالي[2].

وهذه الطبقة تنقسم بدورها إلى فئتين: ما يمكن أن نسميها طبقة الصفوة، وتتمثل فى معظم الدهاقين - وهم ملاك الأراضى من الفرس - وقد أكسبهم ما كان لهم من السيادة أيام حكومتهم الأولى نفوذًا كبيرًا على الرعايا من صغار الزرَّاع. ولم يلبث هؤلاء أن أسندت إليهم المناصب الإدارية المهمة، وجباية الأموال الأميرية؛ وذلك بفضل ما كان لهم من خبرة فى هذا المجال، ومن معرفة تامة بتلك البلاد، وأحوالها. وهكذا احتفظت طائفة النبلاء الإقطاعيين من أهل فارس بما بقى لهم من سلطان باعتناقهم الإسلام، كما جمعوا الثروات الضخمة، وتمتعوا بنفوذ كبير، وذلك باستئثارهم بجباية الخراج[3].

ومن الواضح أن العرب تركوا لهؤلاء الدهاقين مهمة جباية الضرائب[4]، لأنهم أعرف منهم بشئون بلادهم، وأخبر منهم بأحوال السكان بها؛ ومن ثم فهم أقدر على التفاهم معهم. ومع ذلك فإن هذه الطائفة من الدهاقين كانت قلّة قليلة بالنسبة إلى الكثرة الشعبية من الموالي، الذين لم يكن لهم نفوذ يذكر بإزاء هؤلاء، والذين لم تتح لهم الفرصة لجمع المال والثراء[5].

هذه الكثرة الشعبية تمثل الطبقة الدنيا، وقد أثير حولها جدلٌ كبير، وبخاصة فى كتابات بعض المستشرقين.

---

(١) الطبري: السابق: ص٤٣-٤٤.

(٢) انظر: البلاذري: السابق، ص٢٦٦-٢٧٢.

(٣) انظر فان فلوتن: السابق، ص٣٦.

(٤) لعل ما أوردته من قبل من ثراء خالد القسري، واتخاذه ضياعًا كثيرة، حتى بلغت غلته عشرة آلاف ألف درهم، ونصيحة دهقان كان يأنس به من أن الخلفاء لا يصبرون على هذا - لعل هذا ما يؤكد ما تتمتع به هذه الطائفة من مكانة اجتماعية متميزة.، انظر الأغاني: ح٢٢، ص٢٢-٢٣.

(٥) انظر: د يوسف خليف: السابق ص١٧١.

وعلى سبيل المثال: يرى فان فلوتن أن اعتناق هؤلاء الإسلام لم يأت لهم بخير اللهم إلا ذلك الأمل الضائع، والفشل المرّ؛ وذلك بسبب طمع العرب وكبريائهم، وشرهم، ونهمهم؛ فقد وقف هذا كله عقبة كأداء فى سبيل إصلاح ذلك العنصر المضطهد رغم اعتناقه الإسلام. وبعد أن يتحدث عن أن المسلمين من غير العرب قد ألحقوا منذ اعتناقهم الإسلام ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالى لتلك القبائل - يذكر أن حالة الموالى التى لم يكن يشوبها أية شائبة من الخسة أو الانحطاط قد غدت على النقيض من ذلك، منذ اللحظة التى ابتدأ يزيد فيها عدد من فُرضت عليهم الجزية من أولئك الموالى زيادة كبيرة[1].

ويذهب فان فلوتن إلى أن كثيرًا من الثورات أو ما يسميه هو «الحركات الإصلاحية»، كان الدافع لها «ظلم بنى أمية، وسوء إدارتهم»[2]. إلى غير ذلك من المزاعم التى ساقها لتبرهن على وجهة نظره المتمثلة في: أن انتصار العباسيين وسقوط الدولة الأموية يرجع إلى ثلاثة عناصر، وهي:

١-الكراهة المتأصلة فى أهل البلاد المغلوبة للفاتحين من العرب، الذين كانوا يضطهدونهم ويسومونهم الخسف.

٢-الشيعة: وهم أنصار أهل البيت.

٣-انتظار مخلِّص أو هاد[3].

ولن نشغل البحث بإفراد صفحات للرد على تلك المزاعم؛ فقد تكفّل بالرد عليها أساتذة أجلاّء من أمثال. د. ضياء الدين الريس[4]، ويكفى أن نشير إلى أنه يعمد إلى رؤية

---

(١) انظر: فان فلوتن: السابق: ص٣٦-٣٧.

(٢) السابق: ص٦٠.

(٣) انظر: السابق: ص٢.

(٤) انظر - على سبيل المثال - الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: مكتبة دار التراث. الطبعة الخامسة ١٩٨٥، ص٢١٨-٢١٩، وذلك فى تناوله لازدياد هجرة الموالى - الفرس - فى عهد الحجاج إلى المدن، وأن عمّاله شكوا إليه من أن الخراج انكسر، وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار، فكتب إلى البصرة وغيرها: «أنّ من كان له أصل فى قرية فليخرج إليها» (لتؤخذ منهم الجزية)، فخرج الناس فعسكروا، فجعلوا يبكون وينادون: يا محمداه يا محمداه! ولا يدرون أين يذهبون، فجعل قراء أهل البصرة يخرجون إليهم، فيبكون لما يسمعون منهم ويرون. ثم يعلق د. الريس على ذلك بأن كلا من الطبري، وابن الأثير

الأحداث وفق هواه؛ ومن ثم فقد حفل كتابه بالكثير من المغالطات.

وإذا كان فان فلوتن قد حاول أن يبرز مدى الظلم الذى حلَّ بالموالي، والاضطهاد الذى عانَوْه، ومن ثم ولَّد عندهم ما يسميه هو «بالكراهة المتأصلة، التى يكنّها أهل البلاد المغلوبة للفاتحين من العرب الذين يختلفون عنهم فى الجنس، والذين كانوا يضطهدونهم ويسومونهم الخسف»[١] – فإنه – فى معرض حديثه عن «الحركة الإصلاحية فى خراسان»[٢] تحدث عن بعض الموالي، وفى هذا الحديث يظهر لون من التناقض بين الخط الذى انتهجه، والغاية التى كان يهدف إليها، وبين ما ذكره خاصًا بزعيمين من الموالي، هما: «أبو الصيداء»، و «ثابت قطنة».

أما أبو الصيداء فكان – كما يقول – «ذائع الصيت، محبوبًا من الشعب فى خراسان، كما كان شاعرًا مفلقًا، حفظ لنا كتاب الأغانى بعض قصائده، وقد انتصر انتصارًا مؤزّرًا فى الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين والأتراك، فى بلاد ما وراء النهر، وأبلى بلاء حسنًا فى جهاد الكفار حتى لقى حتفه، فى ساحة القتال. وأما قطنة فكان من خلصاء يزيد بن المهلّب اليمنى المشهور. وقد أسند إليه ذلك الوالى بعض المناصب المهمة، ولهذا كان لا يتحرج العرب عن اعتباره مساويًا لهم فى السؤدد والشرف»[٣].

روى هذا الحادث كما أورده، ومنه يفهم أن هذا كان حادثًا مستقلًا، نجم عن ازدياد الهجرة إلى المدن، وأن الحجاج – لما لفت عماله نظره إلى هذا الأمر – وجد أن موارد الدولة ستتأثر من جراء ذلك، وأن الأيدى العاملة، ستنقص أيضًا فى الريف، مما سيترتب عليه ضعف الزراعة، ونقص الخراج أيضًا، فأصدر أمره بإعادة الناس إلى قراهم. ومن المحتمل أنه قرر – أيضًا – أن تعتبر الجزية ضريبة ثابتة لا تسقط بالإسلام مثل الخراج. فإن صح هذا، فلعل عذره أنه ظن أن الناس كانوا ينتحلون الإسلام ليفروا من أداء ما عليهم. ويخلص إلى أنه ليس صحيحًا ما صوّره بعض الدارسين من أمثال (فون كريمر، وملر، وفان فلوتن) للحادث من أنه نتج عن ثورة عامة للموالى بسبب اضطهادهم، طالبين المساواة مع العرب، أو أنه كان سببًا فى ثورة ابن الأشعث – وهى التى نشأت عن أسباب حربية، وسياسية خاصة بالعرب – أو أنه كان له صلة بحركة المختار، التى وقعت فى الكوفة قبل ذلك بنحو خمسة عشر عامًا.

(١) السابق: ص٢ من مقدمة الكتاب.

(٢) انظر: السابق ص٦٠ وما بعدها.

(٣) هذا؛ ويذكر فان فلوتن أن هذين الرجلين قاما بثورة كانت ردَّ فِعْلٍ للظلم الذى حلّ بالموالي، وقد أمر والى سمرقند بحبسه هو وآل الصيداء، ليتفرغ للسغد، ويتمكن من قمْع ثورتهم. انظر: السابق نفس الموضع. كما يلاحظ أن فان فلوتن يرجع الثورات التى قامت ضد الأمويين إلى محاولة رد الظلم الذى حلّ بالموالي، ودفعه عنهم. وهو يبرز أن النزاع بين الأحزاب والطوائف قد تطور وحلّت تلك «المشكلة الاجتماعية

فأبو الصيداء، وثابت قطنة- كما يذكر النص - قد تولّى كل منهما بعض المناصب المهمة، بل إن الأخير كان «من خلصاء يزيد بن المهلّب»، ومن ثم لم يكن هناك تحرُّجٌ من أن يعتبره العرب «مساويًا لهم فى السؤدد والشرف».

ومن الواضح أن الأعمال التى تولَّوْها كان لها أهميتها وخطرها فى الوقت نفسه، وإذا كان «فان فلوتن» قد أثبت - من حيث لا يقصد - تولّى بعض الموالى مناصب مهمة فى الدولة، ومساواتهم للعرب فى السؤدد والشرف، فإن الأخبار الواردة عن «الموالي» والمبثوثة فى كتاب «الأغاني» وفى غيره من المصادر، تبيّن لنا كيف أن كثيرا منهم قد تولّوا تلك المناصب، واضطلعوا بأدوار مهمة فى مختلف المجالات، وكان هناك حرص - فى الوقت نفسه - من قبل الحكام الأمويين على تحقيق مبدأ العدل والمساواة بين الجميع دون استثناء.

فأبو الفرج[1] احتفى بهم احتفاء واضحا فى مواطن كثيرة من كتابه، ومن هذا الاحتفاء نلمس إسهاماتهم فى حركة التغيير التى عمّت أرجاء الدولة العربية والإسلامية. وخير شاهد على ذلك ما ورد من أخبار عن «الغناء» و «المغنين» مما نعرض له فيما بعد.

ونتوقف عند بعض الشخصيات، لنبين مدى مشاركتهم فى وجوه الحياة المختلفة. وقد أشرنا - من قبل - إلى ثابت قطنة[2]، وسبب تلقيبه بهذا اللقب، وأنه شارك فى بعض حروب الترك، وكان شاعرًا فارسًا، وكان فى صحبة يزيد بن المهلب، وقد ولاّه يزيد أعمالًا من أعمال الثغور، فكان يحمد فيها مكانه، لكفايته وشجاعته، ونضيف - هنا

الجديدة» المتمثلة فى «موقف الجدد فى الإسلام» محل الخلاف على الإمامة. ويستشهد بثورة الحارث بن سريج وأنصاره. انظر: السابق ص٦٠-٦٥.

(١) انظر: ص ١٣٨ - ١٣٩ من هذا البحث.

(٢) نشير هنا إلى كتاب الوزراء والكتاب «للجهشيارى» وكيف أنه ضمَّ كثيرًا من أولئك الموالى الذين استعان بهم الأمويون فى كثير من المناصب المهمة؛ فكان يكتب لمعاوية بن أبى سفيان على ديوان الخراج سرْجون ابن منصور الرومي، وكان له كاتب (مولي) يقال له عبد الرحمن بن درّاج، فقلده الخراج بالعراق. وكان يكتب لزياد على الخراج زاذا نَفَرّوخ.... وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان- وهو وال على مصر من قبل عبد الملك بن مروان - يناسُ بن حمايا، من أهل الرُّها، وكان غالبًا عليه، وبنى له عبد العزيز قصرًا على باب الجامع بالفسطاط. انظر: ص٢٤، ٢٦، ٣٤. هذا، ويضيق المقام عن ذكر أسماء من تولّى من الموالى للأمويين، ويمكن الرجوع إلى المصدر المذكور فى ذلك.

= ما ورد من أنه كان بخراسان، فوليها أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسد لعبد الملك بن مروان، فأقام بها مدة، ثم كتب إلى عبدالملك: «إن خراج خراسان لا يفى بمطبخي». ويذكر الخبر أن أميّة هذا كان «يُحمَّق»، فرفع ثابت قطنة إلى البريد رقعة ضمَّنها ما رآه من حمق هذا الوالى وسفهه، وقال: أوصل هذه معك، فلما أتى عبد الملك، أوصل إليه كتاب أميّة، حتى انتهى إلى رقعة ثابت قطنة، فقرأها ثم عزله عن خراسان[1].

وإذا كان لهذا الخبر دلالته على مدى السفه والتبذير الذى يبدو أنه كان سلوكًا لبعض الولاة، فإنه يدل - من جانب آخر - على أن ثابت قطنة كان من أولئك الذين لا يسكتون على جوْرٍ بدا لهم، وأنه كان مسموع الرأى عند أُولى الأمر.

والشخصية الثانية هى «شخصية» «يونس الكاتب»؛ إذ يقدم أبوالفرج أهم جوانبها فى الأسطر القليلة الأولى؛ فهو «يونس بن سليمان بن كُرْد بن شهْريار، من ولد هُرْمُز، وقيل إنه مولى لعمرو بن الزبير. ومنشؤه ومنزله بالمدينة. وكان أبوه فقيها، فأسلمه فى الديوان، فكان من كتّابه. وأخذ الغناء عن معبد وابن سريج وابن مُحرز والغريض، وكان أكثر روايته عن معبد...

وكتابه فى الأغاني، ونسبها إلى من غنىّ فيها هو الأصلُ الذى يُعمل عليه، ويُرجع إليه، وهو أول من دوّن الغناء»[2].

أما الشخصية الثالثة والأخيرة فهى شخصية إسماعيل بن يسار النَّسائي؛ إذ يبرز أبو الفرج جانبًا مهمًا من جوانبه؛ فقد «كان شعوبيًا، شديد التعصب للعجم»[3]؛ ولا غرو فى ذلك، فهو وأخواه محمد وإبراهيم «من سبْى فارس»[4].

ودلالة هذا الجانب فى أنه يظهر لنا أن «الشعوبية» وقد ارتبطت بالعصر العباسي -كما هو معروف- بدأت جذورها فى العصر الأموي.

---

(١) انظر الأغاني: ج١٤، ص٢٨١-٢٨٢.
(٢) الأغاني: ج٤، ص٣٩٨.
(٣) السابق: ص٤١٢.
(٤) السابق: نفس الصفحة، وانظر القصيدة التى يفخر بها بالعجم على العرب ص٤١٠-٤١١.

وهناك من الأخبار المتصلة «بالموالي» ما يدل على حرص الحكام الأمويين على تحقيق العدل والمساواة بين الناس جميعًا. من ذلك ما يُروى عن أن عبد الرحمن بن الحكم لطم مولىً لأهل المدينة حنّاطا، وأخوه مروان يومئذ والٍ على المدينة[1]، فاستعداه الحنَّاط عليه، فأجلسه مروان بين يديه وطلب منه أن يلطم أخاه عبد الرحمن، فقال الحنّاط: والله ما أردت هذا، وإنما أردت أن أعلمه أن فوقه سلطانًا ينصُرني عليه، وقد وهبتها لك. وبعد حوار بينهما يظهر فيه مروان أن أخذه حقَّه لا يُسخطه، قال المولي: «قد وهبتها لك، ونشدتُ والله لاطمه، قال: لست والله قابلها، فإن وهبتها فهبها لمن لطمك، أو لله عز وجلا، فقال: قد وهبتها لله تعالى»[2].

ومن الممكن أن يؤخذ من هذا الخبر أيضًا أنه لم يكن هناك قصد إلى اضطهادهم أو إلحاق الظلم بهم؛ فتحقيق العدل القائم على المساواة بين كل الأفراد دون تمييز بينهم، اللهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، كان الأساس والمنطلق، فإن خرجت الأمور إلى غير ذلك فمردُه ما استجد من ظروف وما حدث من أمور طارئة، ترجع فى المقام الأول إلى من يتولى الأمور، ومدى وفائه بما شرع الله عز وجل. وعلى أية حال فقد أسهمت هذه الطبقة فى إحداث كثير من التحولات الاجتماعية والفكرية بالطبع، وإن ظلت دولة بنى أمية عربية أعرابية، على العكس من دولة بنى العباس التى كانت - كما سنرى - أعجمية خراسانية[3].

طبقة الرقيق

عرضنا فى الفصل الأول من الباب الأول[4] لطبقة «الرقيق»، فى العصر الجاهلي، ومكانتهم فى الحياة الاجتماعية. وطبيعى أن يصير عدد هذه الطبقة إلى زيادة فى هذا العصر، وأن يتكاثر أفرادها، وأن تقوم بدور مهم فى ذلك التحوّل الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع العربى الإسلامي.

---

(١) كان مروان واليًا على المدينة بعض الوقت فى خلافة معاوية بن أبى سفيان. انظر الطبري: ج٥، ص١٧٢.

(٢) الأغاني: ج١٣، ص٣٦٧.

(٣) انظر: البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة ٤، ١٩٧٥م، ج٣، ص٣٦٦.

(٤) انظر: ص ٥٨ وما بعدها من هذا البحث.

ذلك أن عملية الفتوح الإسلامية نجم عنها كثير من الظواهر؛ فهناك أسرى الحرب، وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يشتركوا مع الجيش المحارب. والقرآن الكريم يحدثنا عن «الأسرى» بقوله عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[(1)]. وهى تدل على أن الإمام ليس له إلا أن يَمُنّ عليهم ويطلقهم، أو يأخذ منهم مالا فدية لهم، أو يفتدى الرجل المسلم بالرجل المحارب. ولكنا نجد من ناحية أخرى أن رسول الله -ﷺ- كان يفعل أحد هذين الأمرين أحيانًا، وكان يقتل الأسير أحيانًا، ويسترقه أحيانًا[(2)].

وفى غزوة بنى المصطلق أصاب رسول الله -ﷺ- منهم سبْيا كثيرًا، فَشَا قَسْمُه فى المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جُويرية بنت الحارث بن أبى ضِرار التى تزوجها الرسول -ﷺ- وجعل صداقها عِتْقها[(3)].

وأما أهل البلد المفتوح - الذين لم يحاربوا - فالإمام مخيّر بين أن يسترقهم، أو يتركهم أحرارا يدفعون الجزية.

وإذا استُرق الأسرى أو أهل البلد المفتوح، وزَّعوا توزيع الغنائم؛ فيعطى الخمس لليتامى والمساكين وابن السبيل، وأربعة الأخماس تعطى للغانمين: للراجل سهم، وللفارس سهمان[(4)].

---

(1) [سورة محمد: الآية: ٤].

(2) انظر: أحمد أمين: السابق: ص٨٦. هذا؛ وتروى المصادر أن الرسول -ﷺ- أمر يوم بدر برجلين من الأسرى، فضربت أعناقهما، وهما عقبة بن أبى مُعيط، والنضر بن الحارث. انظر: اليعقوبي: السابق: ج٢، ص٣٠. ويذكر أبو الفرج أن عقبة بن أبى مُعيط أسر يوم بدر، فقتله رسول الله -ﷺ- صبرًا. انظر: ج١، ص١٨. وفى رواية أخرى: "قتله رسول الله -ﷺ- صبرًا، فقال له - وقد أمر بذلك فيه - يا محمدُ، أأنا خاصة من قريش؟ قال: نعم، قال: فمن للصبية من بعدي؟ قال: النار. فلذلك يُسمَّى بنو مُعيط: صبية النار». السابق ص١٩. وهناك رواية تضم إلى عقبة بن أبى مُعيط، النضر بن الحارث؛ إذ تذكر أن النبي -ﷺ- أمر عليًا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يوم بدر، فضرب عُنق عقبة بن أبى مُعيط، والنضر بن الحارث. انظر: السابق، نفس الصفحة. هذا؛ ومن المعروف أنه فى وقعة بنى قريظة حكم سعد بن معاذ بأن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتجعل أموالهم للمهاجرين دون الأنصار، فقال رسول الله: «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات». انظر: اليعقوبي: ح٢، ص٣٤.

(3) انظر ابن هشام: سيرة النبي -ﷺ- تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة دار التراث، ٢٠٠٣م. ج٣، ص٢٤١. واليعقوبي: السابق ص٣٥.

(4) انظر: أحمد أمين، السابق ص٨٧.

ومع انتشار الإسلام تغيّرت الأمور؛ فلم يعد يُقبل من العربى إلا الإسلام أو القتال، فأصبح غير محل للاسترقاق حتى لو وقع أسيرًا[1].

ومع كثرة الفتوح كثر الاسترقاق كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجالًا ونساء وذرارى على العرب الفاتحين حتى يروى المسعودي: أن الزبير بن العوام كان يملك ألف عبد، وألف أمة[2].

وهذه الكثرة شكلت طبقة لا يستهان بها فى المجتمع العربى وأصبح لها دور مؤثر فى مسيرة التحول هذه. وإذا كان الدور البارز - أو كما يبدو على السطح - يتمثل فيما تقوم به من خدمة لأسيادها[3]، فقد كانت تقوم بأدوار أخرى أكثر تأثيرًا فى عملية المزج بين العنصر العربي، وغيره من العناصر، لاسيما إذا أخذنا فى الاعتبار حق السيد المالك فى أن يستمتع بما يملكه من جوارٍ وإماء.

وعلى الرغم من أن الزواج بالأجنبيات الذى بدا يسيرًا فى أول الأمر، أصبح أكثر شيوعًا بعد ذلك، وأثمر ثماره[4]، فإن النظرة العربية السائدة فى هذا العصر إلى الطبقة الجديدة الناجمة عن الفتوح الإسلامية «الموالي» كانت نظرة مشوبة بالازدراء لهم[5].

---

(١) انظر: السابق، ص٨٨.

(٢) انظر: المسعودي: السابق: مجلد٢، ص٣٦٨، وأحمد أمين: السابق: ص٨٨.

(٣) جاء فى الأغاني: أن أبا الأسود الدؤلى اشترى أمة للخدمة، فجعلت تتعرض منه للنكاح، وتتطيّب، وتشتمل بثوبها، فدعاها أبو الأسود، فقال لها: اشتريتك للعمل والخدمة، ولم أشترك للنكاح، فأقبلى على خدمتك. انظر: الأغاني: ج١٢، ص٣٣١.

(٤) لعل هذا يدل على أن البيت العربى لم يعد خالصًا للعنصر العربى بعد حركة الفتوح الإسلامية، وما تبعها من نظام «الرّق» و «الولاء»، بل دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية وما إلى ذلك، فإذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا النظام بما يتيحه من عبيد وإماء، يسمح للولى بأن يستولد الإماء إن شاء، أدركنا أن هؤلاء الإماء كن يلدْن أولادًا يحملون الدم العربى من جهة الأب، والدم الأجنبى من جهة الأم، وكان هذا النوع كثيرًا؛ لكثرة الفتوح من جهة، ولما كان ينجم عنها من سبى وأسر من البلاد المفتوحة عنوة. انظر: أحمد أمين: السابق: ص٩١.

(٥) لعل ما يبرز نظرة الازدراء هذه ما يروى من أن هشام بن عبد الملك، لما أراد البيعة لابنه مسلمة الذى كان يكنى بأبى شاكر، وخلع الوليد بن يزيد، أخذ فى التشهير بالوليد، حتى يبرر ما صنعه، فكتب إلى الوليد: «ما تدع شيئًا من المنكر إلا أتيته، وارتكبته غير متحاش، ولا مستتر، فليت شعرى ما دينك ؟! أعلى الإسلام أنت أم لا؟، فكتب إليه الوليد:

أيها السائل عـن ديننـا ... نحن على دين أبى شاكر

ولكن هذه النظرة لم تحل دون الإنجاب منهم[1]، ولم تحل أيضًا دون أن يتولّى كثير منهم مراكز مهمة فى الدولة، ولم تحل دون مشاركة هؤلاء فى الحياة العربية الإسلامية فى مختلف نواحيها كما أشرنا.

وقد ارتبطت هذه الطبقة بمن يسمَّون «الموالي»، والموالى - هنا - من نالهم العتق لأى سبب من الأسباب. ومن المعروف أن الإسلام أوجب حسن معاملة الرقيق وحبّب إلى المالك العتق، بل جعله كفَّارة عن كثير من الذنوب[2].

و «الولاء» يمثل لونًا من الصلة بين المعتِق والمعتَق؛ إذ يظل المعتَق ينسب إلى من أعتقه[3]. ويظهر أثر هذه الصلة فيما إذا مات المعتَق ولم يكن له وارث فإن المعتِق يرثه. ومن شواهد ذلك: ما يذكره أبو الفرج من أنه كان لأبى الأسود الدؤلى مولاة، يقال

نشربها صرفًا وممزوجة بالسخن أحيانًا وبالفاتـر

وأبو شاكر كانت كنية لمولى كان لمروان، كان ذا رأى وفضل، وكانوا يعظمونه ويتبركون به، ولكن الوليد فى البيتين السابقين كان يسخر منه، ويعير هشامًا بابنه. الأغاني: ج٧، ص٣-٤.

(١) من الطبيعى أن يأتى الإنجاب ثمرة طبيعية لهذا الامتزاج، الذى أشرنا إليه من قبل، ولكن يبدو أنه كان هناك نوع من الحرص على أن يظل من يتولى الخلافة من الأمويين من أصول عربية قرشية؛ ولكن ذلك لم يحل دون أن يكون هناك أبناء من عناصر غير عربية. ولذلك سوف يُحرمون من البيعة لهم؛ وربما حدث تحول بعدَ ذلك. وهناك خبر عن العرجى وتشبيبه بأم محمد بن هشام المخزومى - خال هشام بن عبد الملك - وهي من بنى الحارث بن كعب، وكذلك بزوجته [illegible]ة المخزومية، وكان محمد بن هشام يقول لأمه جيْداء: «أنت عضضت منى بأنك أميّ، وأهلكتنى وقتلتني. فتقول له: ويحك! وكيف ذاك؟ قال: لو كانت أمى من قريش ما ولى الخلافة غيري». الأغاني: ج١، ص٤٢٤. وانظر أيضًا: ص٣٩٥، ٤٢٠، ٤٢٢. هذا؛ ومن المعروف أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان- وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم، وكان حسن الوجه، حسن المذهب - كما يقول أبو الفرج - كانت أمُّه أم ولد. انظر السابق: ج١٥، ص٣٢٣. وكانت أم العباس بن الوليد بن عبد الملك رومية أيضًا. انظر السابق: ج٧، ص٤. ويؤخذ من الأخبار الواردة فى ذلك أنهم لم يكونوا يبايعون للأبناء الذين هم على هذه الشاكلة؛ فالوليد بن يزيد قد بايع لابنيه الحكم وعثمان، وهو أول من بايع لابن سُرِّية أَمَة، ولم يكونوا يفعلون ذلك، وأخذهما يزيد بن الوليد الناقص فحبسهما ثم قتلهما. انظر السابق: ج٧، ص٧١.

(٢) انظر: أحمد أمين: السابق،ص٨٩.

(٣) مثال ذلك: ما يقولونه عن زيد بن حارثة من أنه مولى رسول الله-ﷺ-: أى عتيقه وإذا كان المعتِق من قبيلة، فقد ينسبون المعتق إلى هذه القبيلة؛ فيقولون مثلا: مولى بنى هاشم، أو مولى ثقيف. وأحيانًا يعبرون عن ذلك بقولهم: الهاشمى بالولاء، أو الأموى بالولاء، وهكذا. وكتاب الأغانى حافل بمثل هذا. انظر - على سبيل المثال - الأغانى ج٤، ص٣٩٨، وج٨، ص١٨٦.

لها لطيفة، وكان لها عبدٌ تاجر يقال له «مُلِمّ» فابتاعت له أمة، وأنكحته إياها، فجاءت بغلام سمته زيدًا، فكانت تؤثره على كل أحد، وتجد به وجْد الأم بولدها، وجعلته على ضيعتها، فلما ماتت لطيفة ورثها أبو الأسود فطرد زيدًا عما كان يتولاه من ضيعتها، وطالبه بما خانه من مالها فارتجعه، فكان بعد ذلك ضائعًا مهانًا بالبصرة[1].

وقد أسهمت طبقة الرقيق هذه مع طبقة الموالى فى إحداث كثير من ظواهر التحول الاجتماعي؛ ويأتى فى مقدمة هذه الظواهر شيوع «الغناء» وانتشاره بصورة لافتة للنظر وبخاصة فى بيئة الحجاز. ولأهمية هذه الظاهرة سوف نفرد لها فصلا خاصًا بها. ولكنا نشير هنا إلى ما ارتبط بها من ظواهر أخرى كالتحرر الذى أصاب البيئات العربية الإسلامية على اختلاف أماكنها وإن تفاوت حظ كل منها فى الأخذ به، والاستجابة له، وكالميل إلى اصطناع «اللين والرقة» فى الكلام، والمبالغة فى التطيب بأنواعه المختلفة، والتزين بالملابس الزاهية الملونة، وانعكاس ذلك كله فى ظهور من يسمَّون «بالمخنثين».

ويُخيل لمن يقرأ عن هذا الجانب فى كتاب الأغانى أنه لم يكد يخلو بيت من البيوت، من جارية مغنية[2]، أو ممن يتعلق بمولى من المغنين.

ومن الطبيعى أن تكون الطبقة الثرية المترفة أكثر الطبقات استجابة لدواعى التغيير، وأسرعها إلى تقبل ما قد يترتب على ذلك من مستجدات.

ولعل القصة التالية تبرز لنا مدى التحرر الذى أصاب مجتمع «المدينة»، وهى تحكى عن أنه اجتمع فتيان من فتيان أهل المدينة، فيهم يونس الكاتب، وجماعة من المغنين، فخرجوا إلى وادٍ يقال له دومة من بطن العقيق، فتغنَّوا، واجتمع إليهم نساء أهل الوادي، وأقبل محمد بن عائشة ومعه صاحب له، فلما رأى جماعة النساء عندهم حسدهم، فالتفت إلى صاحبه، فقال له: لأفرقن هذه الجماعة! فأتى قصرًا من قصور العقيق فعلا سطحه، وألقى رداءه، واتكأ عليه، وأخذ يغني. فما انتهى من صوته إلا وقد جاءت النساء، فجلسن تحت القصر الذى هو عليه، وتفرق عامة أصحابهم، فقال يونس وأصحابه: هذا عمل ابن عائشة وحسده[3].

(١) انظر الأغاني: ج١٢، ص٣٣٠.
(٢) انظر: على سبيل المثال: السابق ج١٤، ص١٧٠.
(٣) انظر: السابق: ج٤، ض ٣٩٨ - ٣٩٩.

وربما ظهر هذا التحرر بصورة تلفت الأنظار فى مجالس الغناء التى كانت تضم عمر ابن أبى ربيعة، وبعض المغنين، وبعض النساء القرشيات الثريات المترفات اللائى ازددن ثراءً على ثراء، وترفًا فوق ترف. من ذلك مثلًا ما روى من أن نسوة من قريش واعدن عمر بن أبى ربيعة إلى العقيق، ليتحدثن معه فخرج إليهن ومعه الغريض، فتحدثوا مليًّا ومُطروا، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة، فأظلوا عليهن بمطرفه وبردين له استتارًا من المطر، إلى أن سكن ثم انصرفن[1].

وفيما يتصل «بالرقة واللين» والمبالغة فى التطيب، وما إلى ذلك، فهناك أخبار كثيرة مبثوثة، معظمها عن طبقة «المغنين» وبعضها عن «الشعراء»، وكلها تبرز لونًا من التبذل الواضح فى الهيئة والتصرف، وربما وجد هذا استنكارًا واستهجانًا من الآخرين، ومع ذلك فلم يكن هذا ليثنى هذه الطائفة عما كانت آخذة فيه.

فالدّلاَل نموذج واضح لما نتحدث عنه؛ فقد كان «مبتلى بالنساء والكون معهن، وكان يُطلب فلا يقدر عليه، وكان بديع الغناء، صحيحه، حسن الجِرْم»[2]. وقد خيف من اختلاطه - هو ومن على شاكلته - بنساء قريش وإفسادهن.

وكان خبره قد بلغ سليمان بن عبد الملك، «وكان غيورًا شديد الغَيْرة، فكتب بأن يخصى هو وسائر المخنثين [بالمدينة ومكة][3]، وقال: إن هؤلاء يدخلون على نساء قريش، ويفسدونهن، فورد الكتاب على ابن حزم فخصاهم»[4].

يدعم هذا ما يروى من أنه «كان مشغوفًا بمخالطة النساء، ووصفهن للرجال. وكان من أراد خِطبة امرأة سأله عنها وعن غيرها، فلا يزال يصف له النساء واحدة فواحدة، حتى ينتهى إلى وصف ما يُعجبه، ثم يتوسط بينه وبين من يُعجبه منهن حتى يتزوجها»[5].

---

(١) انظر: السابق: ج١، ص١٥٧.

(٢) السابق: ج٤، ص٢٧٠. الجِرم بالكسر: الصوت أو جهارته.

(٣) زيادة فى بعض النسخ.

(٤) السابق: ج٤، ص٢٧٢. وقد ذكر أبو الفرج روايات أخرى فى السبب الذى خُصى من أجله الدلال وسائر المخنثين بالمدينة، وفيمن أمر بذلك من الخلفاء: هل هو سليمان أو الوليد بن عبد الملك؛ وهذا كله يدعم ما نذكره من أن هؤلاء كانوا يؤثرون بشكلهم وسلوكهم وبراعتهم فى الغناء، فى المجتمع تأثيرًا كبيرًا. انظر: السابق ج٤، ص٢٧٣، ٢٧٢-٢٧٦.

(٥) الأغانى: ج٤، ص٢٧٠.

ولا شك أن الدلال - وغيره - كان مثار إعجاب الآخرين؛ إذ «لم يكن فى المخنثين أحسنُ وجهًا، ولا أنظف ثوبًا، ولا أظرف من الدَّلال»[1]؛ وكان «إذا تكلم أضحك الثكلي، وكان ضاحك السنّ»[2]. ثم إنه كان بارعًا فى الغناء، إلى درجة أن «أهل المدينة إذا ذكروا الدّلال وأحاديثه، طوّلوا رقابهم وفخروا به»[3].

وهذا يعنى أن «الدلال» لم يكن وحده فى هذا الميدان، بل كان واحدًا من أولئك الذين أرسَوْا دعائم نظرية فى الغناء لها مقوماتها وخصائصها، مما سيتضح لنا فيما بعد فى دراستنا عن «الغناء». ومن ثم فليس بغريب أن يكون أصل الغناء بالمدينة فى المخنثين، وهم أئمته والحذّاق فيه[4].

وفى سياق الحديث عن صلة (معبد) - وهو مولى ابن قطن - بالمغنين والمغنيات يرد ذكر أخذه الغناء عن «سائب خاثر»، «ونشيط الفارسيّ»، وكلٌ منهما مولى عبد الله بن جعفر، وكذلك عن «جميلة» مولاة بَهْز[5] (بطن من سُليم). وممن أخذ الغناء عن معبد من الموالي، حكم الوادى وابن عائشة، وسلامة القس[6].

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتتبع أخبار هؤلاء الموالي، ممن كان لهم علوّ ذكر ونباهة شأن فى ميدان الغناء. ويكفى أن نشير إلى أسماء مثل: ابن سريج مولى بنى نوفل بن عبد مناف أو مولى بنى الحارث بن عبد المطلب[7]؛ وابن مُحْرز مولى بنى عبد الدار بن قُصَيّ، أو مولى بنى مخزوم[8]؛ ودحمان الأشقر مولى بنى ليث بن بكر[9]؛ وعادل بن عطية مولى قريش[10]؛ وابن عبّاد الكاتب مولى بنى مخزوم، وقيل: إنه مولى بنى جُمح[11]؛ وعمر

---

(١) السابق: ج٤، ص٢٦٩.
(٢) السابق: ج٤، ص٢٧٠.
(٣) السابق: نفس الصفحة.
(٤) انظر: السابق: ج٤،ص٢٧٣.
(٥) السابق: ج١، ص٤١.
(٦) انظر: السابق ص٤١، ٤٨، ٦٠.
(٧) انظر: السابق، ج١، ص٢٥٧.
(٨) انظر: السابق: ص٣٩٠.
(٩) السابق: ج٦، ص٢١.
(١٠) السابق: ص٩٦.
(١١) السابق: ص١٧١.

الواديّ مولى عمرو بن عثمان بن عفان[1]، وغير هؤلاء كثير.

على أنه كان هناك من يُسْلك فى طائفة «المخنثين» من الشعراء وإن لم يكونوا من الموالى بل ممن ينتسبون إلى بعض الأسر العربية العريقة، ومثال ذلك «الأحوص»، فعلى الرغم من أنه كان ينحدر من بنى ضبيعة بن زيد فى الجاهلية، وكان يقال لهم: بنو كِسر الذهب[2]؛ فقد كان «قليل المروءة والدّين هجّاء للناس»، «ولولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال»[3] لتقدم على غيره من الشعراء ممن عاصره، مثل ابن قيس الرّقيات، ونُصيب، وجميل بن معمر. ومما يروى عنه ما كان من لقائه بعبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى - وكان قد اتخذ بيتًا للهو واللعب - وكان عبد الحكم هذا فى المسجد الحرام حين دخل فتى من باب الحنّاطين، باب بنى جُمح، عليه ثوبان معصفران مدلوكان، وعلى أذنه ضِغْث ريحان، وعليه رَدْع الخلوق، فأقبل يشق الناس حتى جلس إلى عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله، والحاضرون فى دهشة واستغراب من حاله، فتحدث إليه ساعة، ثم أهوى فشبك يده فى يد عبد الحكم، وقام حتى خرج من باب الحنّاطين[4].

ولا شك أن «المغنين» كانوا يشكّلون طبقة؛ وإذ كان معظمهم من «الموالي» فسنتحدث عن موقعهم فى سُلَّم التدرج الاجتماعى ونحن نتحدث عن الغناء، مع ملاحظة ما قدمناه عن «الموالى» فى هذا الفصل.

طبقة الصعاليك

من الملاحظ أن حركة «الصعاليك» فى عصر صدر الإسلام توارت أو كادت بصورة واضحة؛ ذلك أن العوامل التى أدّت فى الجاهلية إلى نشأتهم، ودفعتهم إلى التمرد والثورة، قد قضى عليها الإسلام؛ فقد هدم النظام القبلي، وما كان يقوم عليه من فرقة وتناحر بين القبائل، وما انطوى عليه من عصبية دفعت بهم إلى الحروب التى لم تكن تهدأ إلا لتثور، حاملة الخراب والدمار.

---

(١) السابق: ج٧، ص٨٥.
(٢) انظر السابق: ج٤، ص٢٢٤.
(٣) السابق: ج٤، ص٢٣٣.
(٤) انظر السابق: ج٤، ص٢٥٣.

وقد أشاع الإسلام فيهم فكرة الأمة الواحدة المتراحمة المتآزرة، التى تستظل بلوائه فى إطار من الحرية والمساواة بين أفرادها، دون نظر إلى أصولهم وأجناسهم؛ فكلهم مسلمون، وكلهم متكافئون، لا فرق بين عربى وعجمي، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين غنى وفقير، وإنما أساس المفاضلة بينهم التقوى والعمل الصالح.

كما أرسَى الإسلام مجموعة من الأسس الاجتماعية، التى تضمن للفرد حياة فاضلة كريمة، تنعم بالأمن والاستقرار، ويسودها التراحم والتعاطف.

ويضاف إلى ذلك أنه أصبحت هناك حكومة مسئولة عن تأديب المنحرفين والفاسدين، تعمل على إشاعة العدْل، ونصرة المظلوم، وردّ الحقوق إلى أصحابها.

وإن الدارس لكتاب «الأغاني» ليلفت نظره أن هذه الحركة أو هذه «الظاهرة» التى توارت ما لبثت أن عادت بصورة واضحة وقوية.

وليس أدل على ذلك من أن هناك أخبارًا كثيرة عن «الصعاليك» مبثوثة فى ثنايا أجزائه[١]،مما يجعل الدارس يبحث عن العوامل التى أسهمت فى إعادة إحياء هذه الظاهرة.

فى مقدمة هذه العوامل: العامل الاقتصادى المتمثّل فى انتشار الفقر بين كثير من القبائل والأمصار، وبخاصة أولئك الذين لم يناصروا الأمويين، ولم يقفوا بجانبهم. ومن ثم فقد حُرموا من عطاء الأمويين، ومن الصلات الضخمة التى كانوا يُجرونها على أشياعهم وأتباعهم. وقد كان هذا وراء تمرُّد بعض أفراد هذه القبائل على سياسة الأمويين الجائرة، وتصميمهم على انتزاع حقوقهم بأيديهم[٢].

ونحن نطالع فى بعض هذه الأخبار الواردة عن هذه الطبقة أن نفرًا من أولئك الصعاليك كان الفقر وراء تصعلكهم؛ من ذلك ما يرويه أبو الفرج عن «مالك بن الريب»؛ فهو بعد أن يعرِّف به يقول: «وكان شاعرًا فاتكا لصًا؛ ومنشؤه فى بادية بنى تميم بالبصرة، من شعراء الإسلام فى أول أيام بنى أمية»[٣].

---

(١) انظر - على سبيل المثال - ج١٣، ص١٥٨، وج١٨،ص٢٥، ٣٠، وج٢١، ص٢٣٠، وج٢٢، ص١٤٧، وج٢٤، ص١٦٩.

(٢) انظر: د حسين عطوان. الشعراء الصعاليك فى العصر الأموي. دار المعارف بمصر ١٩٧٠م. ص٨.

(٣) الأغاني: ج٢٢، ص٢٨٦.

ثم يذكر أن معاوية بن أبى سفيان استعمل سعيد بن عثمان بن عفّان على خراسان، فمضى سعيد بجنده فى طريق فارس، فلقيه مالك بن الريب المازني، وكان من أجمل الناس وجهًا، وأحسنهم ثيابًا، فلما رآه سعيد أعجبه، وقال له: مالك، ويحك! تُفسد نفسك بقطع الطريق! وما يدعوك إلى ما بلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل! قال: «يدعونى إليه العَجْز عن المعالى، ومساواة ذوى المروءات، ومكافأة الإخوان. قال: فإن أنا أغنيتك، واستصحبتك، أتكفُّ عما كنتَ تفعل؟ قال: إى والله أيها الأمير، أكَفُّ كفًا لم يكفَّ أحدٌ أحسنَ منه، قال: فاستصحبه، وأجرى له خمسمائة درهم فى كل شهر[1].

فهو يصرّح بأن الذى ألجأه إلى ما هو فيه من التصعلك، عجزه عن المعالي، ومساواة ذوى المروءات؛ ومكافأة الإخوان. ثم إن عبارته: «أكف كفًّا لم يكفَّ أحد أحسن منه» حاسمة فى رغبته فى الكفِّ عما هو فيه. ويستمر أبو الفرج فى روايته فيذكر أن سعيد ابن عثمان عرض على مالك أن يكون سائس إبله – وبخاصة بعد ما ظهر منه من خبرة بشئونها، كان خادم سعيد قد اطلع عليها ووعده أن يجزل له الرزق، وأن يضع عنه الغزو فى مقابل ذلك، فقال له مالك أبياتًا علم منها سعيد أنه ليس بصاحب إبل؛ وأنه صاحب حرب، فاصطحبه معه إلى خراسان[2].

وكان السبب الذى من أجله لجأ مالك بن الريب إلى ناحية فارس أنه كان يقطع الطريق، هو وأصحاب له، منهم شِظاظ – مولى بنى تيم، وكان أخبثهم – وأبو حرْدَبة المازنى وغويث بن حنظلة. وقد ساموا الناس شرا، وطلبهم مرْوان بن الحكم، عامل المدينة، فهربوا[3].

ومن الملاحظ – كما يرى بعض الدارسين – أن ظهور الصعاليك الفقراء كان وثيق الارتباط بالفترات التى كثر فيها الظلم، واشتد البغي، وخاصة فى أيام عبد الملك بن مروان؛ إذ ظهر فى عهده أكثر من لص وصعلوك، من أمثال: السمهريّ بن نشر العكْلي، وطهمان بن عمرو الكلابي، وجحدر بن مالك الحنفي[4].

---

(١) انظر السابق: ج٢٢، ص٢٨٦.
(٢) انظر: السابق، ج٢٢، ص٢٩٤-٢٩٥.
(٣) انظر: السابق، ج٢٢، ص٢٨٦-٢٨٧.
(٤) انظر: د حسين عطوان، السابق، ص٤٤.

كما أنه يجدر بنا أن نعرف أن أكثر هؤلاء الصعاليك الفقراء لم يكونوا من أبناء القبائل الموالية للأمويين، وإنما كانوا من أبناء القبائل المناوئة لهم، المنحازة إلى أعدائهم[1].

وخير مثال لذلك قبيلة تميم، التى فُطر أبناؤها على الفوضى، وعدم الإذعان للسلطان؛ بالإضافة إلى اشتراكها فى أغلب الثورات التى قامت ضد الأمويين، وبخاصة ثورات الخوارج. وقد كان من جرّاء ذلك أن ضّيق الأمويون على هذه القبيلة من الناحية المادية؛ فتعسّفوا فى جباية الصدقات منها، كما حرموها من العطاء[2].

وكثيرًا ما تبدأ «اللصوصية» و «الفتك» بحادثة عارضة، لم يُخطط لها، ثم تكون سببًا فى أن يضطر صاحبها إلى الانضمام إلى غيره من «فُتّاك العرب» والخارجين على القانون؛ وفى أخبار «القتّال الكلابي» ما يدعم ذلك.

فهذا اللقب «القتّال»: «لقب غلب عليه، لتمرُّده وفتكه[3]» فقد رُوى أنه كان يتحدث إلى ابنة عمٍّ له فى غيبة أخيها، وأن أخاها رآه مرة يتحدث إليها فنهاه، وحلف أن يقتله لو رآه ثانية يفعل ذلك. وحدث أن رآه عندها بعد ذلك بأيام، فأخذ السيف وعزم على قتله، وبصُر به القتّال، فخرج هاربًا، وتعقبّه ابن عمه، وتتطور الأمور إلى أن يقتله القتّال، ويهرب[4].

وقد انضمَّ «القتال» بعد ذلك إلى جماعة من بنى كلاب وغيرهم من فتّاك العرب، وحَدَث أن «ابن هبّار» القرشيّ خرج إلى الشام فى تجارة، أو إلى بعض بنى أمية، فاعترضه جماعه فيهم «القتال»، فقتلوه، وأخذوا ماله؛ وقُبض عليهم، وحبسوا، وأرسلوا إلى مروان بن الحكم بالمدينة، فحبسهم، ليبحث عن الأمر، ثم يقتل من قتل «ابن هبّار»، فلما خشى القتّال أن يُعلم أمره، اغتال السجان، وخرج هو ومن كان معه من السجن فهربوا[5].

وهناك عامل آخر وراء ظهور الصعلكة فى العصر الأموى يمكن أن يطلق عليه

(١) انظر: السابق، ص٤٥.
(٢) انظر: الطبري، ج٥، ص٦٢٣.
(٣) الأغاني: ج٢٤، ص١٦٩.
(٤) انظر: السابق، ص١٧٠-١٧١.
(٥) السابق: ج٢٤، ص ١٧٨.

«العامل الاجتماعي». ويرتبط هذا العامل بطبيعة المجتمع الأموى الذى لم يتطور تطورًا كبيرًا، بحيث يكون مباينًا أشد المباينة للمجتمع الجاهلي. نعم مس التطور والتغيير بعض البيئات مثل: مكة والمدينة وغيرهما من المدن، ولكنه لم يشمل كل البيئات الإسلامية، بل كان مقصورًا على بعضها، يستوى فى ذلك القبائل التى لم تبرح منازلها الأصلية بالجزيرة العربية، أو التى هاجرت إلى مواطن جديدة؛ فقد ظلت تحيا حياة فيها كثير من البداوة وآثارها. وحتى هؤلاء الذين انتقلوا ليستقروا فى المدن الجديدة كالبصرة والكوفة لم يُنْسِهم ولاؤهم للوطن الجديد الولاء الأول القبلي[1].

وقد انعكس هذا على طبيعة الحياة المعيشية لهذا المجتمع؛ فهم يؤثرون حياة التنقل والارتحال على الاستقرار فى المدن واصطناع المهن التى كانوا ينفرون منها كالزراعة والصناعة، مما كان يقوم به العبيد والموالى والأعاجم[2].

وهم يعتزون بأنسابهم، ويحافظون عليها، ويحرصون على وحدتهم وتماسكهم من أجل مصلحتهم؛ وكان أبناء كل قبيلة يستشعرون ما يربط بينهم من الدم والنسب أكثر من استشعارهم للمواطنة التى جمعتهم مع القبائل الأخرى، وظلوا يستجيبون لداعى القبيلة. ولا تتضح هذه الظاهرة فى البوادى فحسب، بل تتضح كذلك فى المدن التى انتقلوا إليها، وأقاموا بها، كالكوفة والبصرة ودمشق؛ فقد أسست المدينتان الأوليان تأسيسًا قبليًا، تحدثنا عنه من قبل[3]؛ وكذلك كان الشأن فى دمشق؛ إذ كانت مقسومة - أيضًا - بين أحياء بكل منها قبيلة بعينها[4].

وقد أدّى هذا كله إلى إذكاء روح «العصبية»، بين القبائل العربية وإعادتها قوية، بما ارتبط بها من إحياء «للثأر» الذى هدمه الإسلام هدمًا، وجعله من حق الدولة، واستعار

---

(١) هذه الحقيقة أشار إليها كثير من الدارسين، وقد أشرنا إليها من قبل فى موطن آخر. وهناك دلائل أخرى تدعم ذلك؛ منها ما عُرف عن بعض الخلفاء من حرصهم على إرسال أبنائهم إلى البادية، ليكتسبوا منها الخلق الرفيع، ويتمثلوا الحياة البدوية، ويفقهوا اللغة العربية فقهًا دقيقًا. ولعل فيما يذكره الجاحظ. عن دولة بنى أمية من أنها كانت «عربية أعرابية» ما يؤكد ذلك. انظر: الجاحظ: البيان والتبين ج٢،ص٢٠٥، وج٣، ص٣٦٦.

(٢) سبق أن أشرت إلى ذلك، انظر: ص ١٥٦ من هذا البحث.

(٣) انظر: ص ١٣٤ من هذا البحث، وهو متصل بالكوفة، وما يقال عن الكوفة خاصًا بالتخطيط والحياة القبلية يقال عن البصرة. انظر: الإصطخرى: السابق، ص٥٦.

(٤) انظر: د حسين عطوان: السابق، ص٥٠ وما به من مصادر.

الحروب الدامية بينها بحكم اختلاف مصالحها الاقتصادية، وتباين مواقفها السياسية، وخاصة بين القبائل القيسية واليمنية فى الشام والبصرة وخراسان.

وربما ساعد على ذلك التمسك بقانون «الجوار» والاستجارة؛ فقد عرفنا العرب فى الجاهلية يستجير الضعيف منهم بالقوي، والذليل بالعزيز. وهكذا ظلوا فى الإسلام. وقد اشتهر الفرزدق بإجارة كل من لاذ بقبر أبيه[1]، على شاكلة من كان يجير الجاهليين ممن عاذ بقبور آبائهم وأجدادهم. بل إن هناك من استجار بالخلفاء الأمويين أو بأبنائهم.

ثم كان لقوة استشعار الدولة للروح القبلية أن أحيت قانونًا جاهليًا آخر، وهو قانون «الخُلع» الذى عرفناه فى العصر الجاهلي؛ إذ أخذت تخلع بعضًا من أفرادها إما لكثرة جناياته فيها أو على غيرها[2]، وإما لسوء سلوكه الاجتماعى والأخلاقي، وقد عمدت إلى إعلان «الخُلع» على الناس، حتى لا تؤخذ بجرائر من خلعته منها[3].

والنموذج الممثل لهذه «الطائفة» «يعْلَى الأحول الأزدي». يقول عنه أبو الفرج: إنه «شاعرٌ إسلاميٌ لصٌ من شعراء الدولة الأموية»[4].وكان شيوخ الحى من الأزد قد اجتمعوا إليه فعرّفوه أنه خليع قد تبرءوا منه ومن جرائره إلى العرب[5]. ومن الطبيعى أن يجمع من هو على شاكلته من الصعاليك الأزد وخلعائهم، وأن تزداد جرائره؛ إذ كان يغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السابلة[6].

ومن البيِّن أن فئة الصعاليك هذه، بما ترتكبه من جرائم، وما تقوم به من حرابة وفساد كانت عاملًا من عوامل القلق بالنسبة للأمويين؛ لأنها كشفت عن تراخى قبضتهم على ربوع البلاد، فضلًا عن فقدان الرعيّة الأمن المنشود فى ظل الحكم الأموي.

---

(١) انظر: الأغاني: ج٢١، ص٣٦٤.
(٢) انظر: الأغاني: ج٢٢، ص١٤٧.
(٣) انظر: د حسين عطوان: السابق ص٥٤.
(٤) الأغاني: ج٢٢، ص١٤٧.
(٥) انظر السابق: نفس الصفحة.
(٦) انظر: السابق: نفس الصفحة.

ومن هنا، فقد شُكى يعلى إلى نافع بن علقمة بن الحارث الكنانى - وهو خال مروان ابن الحكم، وكان والى مكة، فأخذ به عشيرته الأزديين[1]،فلم ينفعه ذلك، وأعلموه أنه لو أخذ به سائر الأزد، ما أسلم «يعْلي» نفسه إليهم، فلم يقبل ذلك منهم، وألزمهم إحضاره، وضمّ إليهم شُرَطًا يطلبونه إذا طرق الحيّ، حتى يجيئوه به[2].

وتمضى الرواية بأنهم طلبوه حتى وجدوه، فأَتَوْا به، فقيَّده، وأودعه الحبس[3].

وهناك عاملٌ ثالث يختلط مع ما سبق أن ذكرناه، ويتصل بما هو معروف عن العصر الأموى من صراع حزبي، ومن ثورات كثيرة متعاقبة. ولاشك أن هذا الجو يصبح تربة خصبة، يلوذ بها هذا الصعلوك أو ذاك، وبخاصة إذا آنس فى نفسه ميلًا للشر، ونزوعًا إلى العدوان. وتنطق أشعارهم التى وصلت إلينا بثورتهم وتمردهم، كما أن أخبارهم تكشف لنا عن سخطهم على الدولة ومهاجمتهم لها، ومشاركتهم فى الثورات التى أشعلها غيرهم ضدها[4]. فهذا عبد الله بن الحجاج الثعلبى «شاعرٌ فاتكٌ شجاع من معدودي فرسان مُضر ذوى البأس والنجدة فيهم، وكان ممن خرج مع عمرو بن سعيد على عبد الملك بن مروان، فلما قتل عبد الملك بن مروان عمْرا، خرج مع نجدة بن عامر الحنفي، ثم هرب فلحق بعبد الله بن الزبير، فكان معه إلى أن قتل، ثم جاء إلى عبد الملك متنكرًا، واحتال عليه حتى أمّنه»[5].

وها هو يصور خوفه وفزعه من شدة طلب عبد الملك بن مروان له، بعد أن انقضى أمر نجدة بن عامر الحنفى الشارى، فاضطر إلى أن يهرب وضاقت عليه الأرض بما

---

(١) فى رواية: «الأدنيْن».

(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر: السابق: نفس الصفحة.

(٤) انظر: د حسين عطوان، السابق، ص٧٢.

(٥) الأغاني: ج١٣، ص١٥٨. وإذا كان أبو الفرج فى هذه الرواية قد وصفه بأنه «شجاع من معدودى فرسان مضر ذوى البأس والنجدة فيهم» فإنه يضيف إلى هذا فى رواية تالية بأنه كان «متسرعًا إلى الفتن»، مما يدعم ما ذكرته من أن هؤلاء الصعاليك جُبلوا على الميل إلى الشر، والنزوع إلى العدوان.

رحبت، فقال فى ذلك:

رأيتُ بلادَ الله وهى عريضةٌ ... على الخائف المطرود كِفَّة حابل[1]

تؤدّى إليه أن كلَّ ثنيَّةٍ ... تيممها ترمى إليه بقاتل[2]

وإذا كان عبد الله بن الحجاج الثعلبى - كما هو واضح من أخباره وأخبار من يشتركون معه فى هدفه - ممن يمكن أن نطلق عليهم «الصعاليك السياسيين»[3] الذين ثاروا على بنى أمية؛ فإن هذا: لم يميزه عن غيره من الصعاليك ممن عرضنا لهم من قبل؛ إذ لم يقتصر همهم على اغتصاب أرزاقهم بالنهب والسلب والقتل، وإنما تعدّى هذه الغاية إلى غاية أبعد؛ فقد كانوا يبتغون القضاء على نظام الحكم الأموي[4].

ومن الواضح أن هذه الطبقة، وكذلك طبقة الموالي، كانتا من أبرز مصادر القلق والاضطراب فى العصر الأموى على الرغم من الجهود التى كان يبذلها أولو الأمر، لنشر الأمن والاستقرار، والقضاء على الفتن والثورات أينما وجدت.

ونختم هذا الجزء بهذا الخبر الذى يبرز لنا مدى انتشار هذه الظاهرة، وما يتصل بها من حرابة وفساد فى الأرض؛ إذ استعدى رهط أرطاة بن سُهَيَّة عثمانَ بن حيّان المُرِّى على شبيب بن البَرْصَاء، وقالوا له: يعمُّنا بالهجاء ويشتمُ أعراضنا، فأمر بإشخاصه إليه، ودخل إلى عثمان، وقد أتى بثلاثة نفر من اللصوص، وقد أفسدوا فى الأرض، يقال لهم: بَهْدَل ومثغورٌ وهيْصم؛ فقتل بهْدلا وصلبه، وقطع مثغورا والهيْصم، ثم أقبل على شبيب، فقال: كم تسبُّ أعراض قومك، وتستطيل عليهم! أقسم قسما حقًا، لئن عاودت هجاءهم لأقطعن لسانك[5].

وموقف عثمان بن حيّان المُرِّى موقف الوالى الذى يقيم حدود الله - عز وجل - على الخارجين على شرعته ومنهاجه. وهو موقف الحَسْم الذى لا يعطّل هذه الحدود، بل يحمى الجماعة المسلمة من عبث العابثين، وسعى المفسدين.

---

(١) الكفة للصائد: حبالته، هى المصيدة.

(٢) تؤدى إليه: تخيل إليه. والثنية: الطريق الصعبة، والطريقة فى الجبل كالنقب، وقيل هى العقبة، وقيل هى الجبل نفسه.

(٣) انظر: د حسين عطوان، السابق ص٧٤-٧٦.

(٤) انظر: السابق ص٧٥.

(٥) انظر: الأغاني: ج١٢، ص٢٧٧-٢٧٨.

طبقة أهل الذمة

وهناك طَبقة «أهل الذمة»، وقد نعم أصحابها بحياة آمنة، بما يوفّره لهم الإسلام من حرية فى العقيدة، وما يكفله لهم من حماية ورعاية فى ظل تعاليمه السمحة. وقد تجلى ذلك فى ثقة الأمويين بكثير منهم، وإسناد الأعمال المهمة إليهم، وتقريبهم لهم، واصطناع بعض شعرائهم للدفاع عنهم. فمعاوية – مثلا – يتخذ من «ابن أُثال» كاتبا خاصًّا[١] له على ديوان خراج حمص؛ وعبد الملك بن مروان يتخذ من «سَرْجون» بن منصور الروميّ كاتبًا له على ديوان الخراج أيضًا[٢].

وهناك من الأخبار ما يدلّ على أن بعض الولاة وثّقوا صلاتهم بأهل الذمة، واتخذوا منهم ندمانًا. ومن أمثلة ذلك ما كان بين أبى زبيد الطائى والوليد بن عقبة[٣]؛ إذ كان

---

(١) انظر: الأغاني: ج١٦، ص١٩٧. وانظر قصة معاوية فى قتله عبد الرحمن بن خالد بن الوليد حيث أوعز إلى طبيبه ابن أثال أن يدس له السم؛ لأنه وجد أهل الشام يرغبون فى استخلافه بعده. وكان معاوية يريد أن يُظهر العهد لابنه يزيد، وتذكر القصة أن خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قتل ابن أثال بعد ذلك، انتقاما لعمه. السابق ص١٩٧، ١٩٨. وانظر الخبر في: الجهشياري، كتاب الوزراء والكتاب، حققه ووضع فهارسه، مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م، ص٢٧. وقد ضبط «ابن أثال»: «ابن أُوثال».

(٢) انظر: الأغاني: ج٨، ص٢٩٠. وذكره الطبرى باسم «سَرجون بن منصور الرومي»، وذكر أنه كان كاتبا لمعاوية بن أبى سفيان، ثم لمعاوية بن يزيد بن معاوية. انظر: تاريخ الطبري، ج٦، ص١٨٠. ويذكر الجهشيارى أن «سرجون بن منصور النصراني» كان يتقلد ديوان الشام بالرومية لعبد الملك ولمن تقدمه، فأمره عبد الملك يومًا بشيء، فتثاقل عنه، وتوانى فيه، فعاد لطلبه، وحثّه فيه، فرأى منه تفريطا وتقصيرًا، فقال عبد الملك لأبى ثابت سليمان الخشينى – وكان يتقلد ديوان الرسائل-: أما ترى إدْلال سرْجون علينا، وإدراكه حاجتنا إليه وإلى صناعته، أفما عندك حيلة؟ قال: لو شئت لحوّلتُ الحساب إلى العربية؟ قال: فافعل، فحوَّله، فردّ إليه عبد الملك جميع دواوين الشام. انظر: الجهشياري، السابق، ص٢٤، ٣١، ٣٣، ٤٠. ويبدو أن تولية هؤلاء النصارى مثل هذه المناصب كان أمرًا شائعًا، وبخاصة فى المراحل الأولى من الدولة الأموية؛ إذ يحكى الجهشيارى – أيضًا – أنه كان لعبد الملك كاتب نصرانى يقال له «شمعل»، وأنه أنكر عليه شيئًا فحذفه بمخصرة كانت فى يده. السابق. نفس الصفحة. كما يذكر أنه كان بالكوفة والبصرة ديوانان: أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذى كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وأنه لما قُلّد الحجاج العراق، كان يكتب له صالحُ بن عبد الرحمن، ويُكنى (أبا الوليد)؛ وكان يتقلّد ديوان الفارسية إذ ذاك زاذان بن فرُّوخ. السابق ص٣٨.

(٣) هو: الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيْط، أخو عثمان بن عفّان لأمه. كان من فتيان قريش وشعرائهم، وأجوادهم. الأغانى ج٥، ص١٢٢.

أبو زبيد نديمًا له أيام ولايته الكوفة[1]. ويقال: إن أبا زُبيد وفد على الوليد حين استعمله عثمان على الكوفة، فأنزله دار عقيل بن أبى طالب على باب المسجد، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زُبيد كان يخرج إليه من داره، يخترق المسجد وهو نصراني، فيجعله طريقًا[2].

وهناك خبر عن أن الوليد بن عقبة أخذ بحق أبى زُبيد من أخواله بنى تغلب، وكانوا ظالمين له[3]. ولهذا دلالته في مدى الترابط بين الجانبين، وتقدير أهل الذمة للمسلمين، واستجابتهم لهم فى وساطتهم، وفيما يعنُّ لهم من أمور.

ولعل ما يتصل بهذا - أيضًا - ما يُروى من أن الوليد بن عُقبة خرج غازيًا للروم، وعلى مقدمته عتبةُ بن فَرْقد، فلقيه الروم فقاتلوه؛ فنصحه رجل من العرب نصرانيٌ بأن القوم مقاتلوهم إلى نصف النهار، فإن صبروا وصمدوا هربوا وتركوهم، وإن رأوهم ضعفاء أفْنَوهم. وقد استجابوا للنصح، وقاتلوا قتالًا شديدًا حتى هزم الله الروم[4].

و«الأخطل» الشاعر «كان نصرانيا من أهل الجزيرة»[5]، وكان هو وجرير والفرزدق طبقة واحدة، فجعلها ابن سلاّم الجمحى أول طبقات الإسلام[6]. ولم تَحُل نصرانيته من أن يقف النقّاد وعلماء الشعر منه موقفًا منصفًا[7]؛ ومن ذلك ما يقوله أبو عمرو بن العلاء: «لو أدرك الأخطل يومًا واحدًا من الجاهلية ما فضّلتُ عليه أحدًا»[8]. وكان

(١) انظر: السابق ص١٣٣.

(٢) انظر: السابق: ص١٣٥. وفى رواية أخرى: أن أبا زُبيد حين وفد عليه أنزله دارًا لعقيل بن أبى طالب على باب المسجد، فاستوهبها منه فوهبها له؛ فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة؛ لأن أبا زبيد كان يخرج من منزله، حتى يشق الجامع إلى الوليد، فيسمر عنده، ويشرب معه ويخرج فيشق المسجد وهو سكران، فذلك نبههم عليه. السابق: نفس الصفحة. هذا؛ ويقال: إن الوليد بن عقبة دُفن هو وأبو زبيد فى موضع واحد. انظر: السابق ص١٤٦.

(٣) انظر: السابق: ص١٣٦.

(٤) انظر: السابق: ص١٤٧.

(٥) الأغاني: ج٨، ص٢٨٢، والجزيرة: منازل تغلب قبيلة الأخطل.

(٦) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٧) انظر: السابق، الصفحات، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٩.

(٨) السابق: ص٢٨٦.

يشبهه بالنابغة لصحة شعره[1].

ومكانه فى البيت الأموى وتقريب الأمويين له معروف مشهور، وفى الموقف التالى مع الخليفة عبد الملك بن مروان ما يثبت ذلك؛ إذ قال الأخطل لعبد الملك: يا أمير المؤمنين، إننى قد أقمت فى مِدْحتك:

خَفَّ القطين فراحوا منك أو بكروا

سنةً، فما بلغْتُ كل ما أردت. فطلب عبد الملك منه أن يُسْمِعه إياها، فأنشده. ويحكى الأخطل عن أثرها على عبد الملك بأنه رآه يتطاول لها، ثم قال: ويحك يا أخطل! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب؟! قال: أكتفى بقول أمير المؤمنين. وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم، وألقى عليه خِلعًا، وأعلن مولى عبد الملك على الناس: هذا شاعر أمير المؤمنين، هذا أشعر العرب[2].

ويلفت النظر استعانة الأمويين به فى الدفاع عنهم، والردّ على خصومهم، وربما أدّى هذا إلى إثارة النفوس، وتأليب أصحابها عليهم بصورة أعنف؛ وفى قصة هجائه الأنصار شاهد على ذلك. فلقد شبَّب عبد الرحمن بن حسَّان برَمْلة بنت معاوية فى شعر له، فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب، ودخل على أبيه مُحْنقًا، وقال: أترى إلى هذا العلج[3] من أهل يثرب، يتهكم بأغراضنا، ويشبب بنسائنا؟! وحين عرف معاوية أنه عبد الرحمن ابن حسان، طلب منه أن يمهله حتى قدوم وفد الأنصار، ثم يذكره به. ويمضى الخبر بأن يزيد لم يرضه ما كان من معاوية فى ذلك، فأرسل إلى كعب بن الجُعيل، فقال: اهُجِ الأنصار. فقال: أَفْرق من أمير المؤمنين، ولكن أدلُّك على هذا الشاعر الكافر الماهر الأخطل. وحين دعاه طالبًا منه هجاء الأنصار، أظهر خوفه الشديد من أمير المؤمنين، فقال له: لا تخف شيئًا، أنا بذلك لك. فهجاهم فى قصيدته التى فيها:

ذهبت قريش بالمكارم والعُلا   واللؤم تحت عمائم الأنصار

---

(١) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: السابق: ص٢٨٧-٢٨٨.

(٣) للعلج فى لسان العرب معان، منها: الرجل الغليظ، والرجل من كفّار العجم، وهو لفظ شائع عندهم فى السب.

فاستشاط النعمان بن بشير الأنصارى غيظًا، ودخل على معاوية، فحسر عمامته عن رأسه متسائلًا: يا أمير المؤمنين: أترى لؤمًا؟ قال: بل أرى كرمًا وخيرًا، فذكر له ما زعمه الأخطل، فى بيته السابق، فقال له: لك لسانه[1].

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن بن حسان - فى لقائه مع معاوية - اعترف بتشبيبه برملة بنت أمير المؤمنين، وأنه لو علم أن أحدًا أشرف لشعره منها لذكره، فإن النص السابق تلوح فى عباراته أماراتُ الغيظ من الأنصار، وهذا واضح من قوله: «ألا ترى إلى هذا العِلْج من أهل يثرب»، فنحن نعرف أن «أهل يثرب»، قد سُمُّوا «بالأنصار» وما أعظمها من تسمية! وقد يقول قائل: إن هذا التعبير مبعثه حالة الغضب التى كان عليها يزيد، الناجمة عن غيرة العربى الحرّ الشريف على عرضه من أن تنتهك حُرمتُه. ولكنا سنعرف - فيما بعد - ونحن نتحدث عن «العصبية» - أن القرشيين وفى مقدمتهم معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما كانوا ينفسون على الأنصار تلك المكانة، وذلك اللقب الذى اختصهم الله - عز وجل - به فى لون من التشريف والتكريم.

وهذا يتبدَّى لنا فى الرواية الأخرى التى تقول: «لمّا أمر يزيد بن معاوية كعب بن الجُعيل بهجاء الأنصار، قال له: أرادّى أنت إلى الكفر بعد الإسلام؟ أأهجو قومًا آوَوْا رسول الله - ﷺ - ونصروه؟! قال: أما إذ كنت غير فاعل فأرشدْنى إلى من يفعل ذلك. قال: غلامٌ منا خبيث الدين نصراني، فدلّه على الأخطل»[2].

وعلى أيّة حال؛ فلعل ما قدمناه عن هذه الطبقة كافٍ فى إعطاء صورة عنها، وعن علاقتها بغيرها من الطبقات، وبخاصة الطبقة الأولى الممثلة للعرب المسلمين الذين قدَّر لهم أن يقيموا دولة صِبْغتُها عربية أعرابية كما سبق أن ذكرنا.

وبعد؛ فقد تبين لنا من هذا الفصل ذلك التحول العظيم الذى أصاب المجتمع العربى بمجىء الإسلام، واتساع حركة الفتوحات الإسلامية بعد ذلك، ودخول كثير

---

(١) انظر: الأغاني: ج١٦، ص٣٤-٣٦. ويقال - فى رواية أخرى - إنه لما بلغت الأبيات التى هجا الأخطل فيها الأنصار معاوية أمر بدفع الأخطل إلى النعمان بن بشير، ليقطع لسانه، فاستجار بيزيد بن معاوية، فمُنع منه، وأرضوا النعمان، حتى رضى وكفّ. انظر: السابق ص٤٧.

(٢) السابق: ص٣٧-٣٨.

من غير العرب إلى الدين الجديد، وانعكاس ذلك على تعدد العناصر التى أصبحت تؤلف المجتمع الإسلامى وتنوعها؛ إذ أصبحت تضم - فيما تضم - الفارسى والرومى والقبطى وغيرهم. وعلى الرغم من هذا التحول الذى ساعد عليه الامتزاج السريع بين العرب وغيرهم، فإنه من الملاحظ أن العرب حملوا بداوتهم معهم فى تلك البلاد المفتوحة، والمدن التى أسسوها كالبصرة والكوفة، وانطبق على الدولة الأموية ما ذكره الجاحظ من أنها «عربية أعرابية».

وقد انعكس هذا التحول أيضا على الطبقات الاجتماعية فى هذا العصر، بدءًا بالطبقة العليا (أشرف الأشراف والبيت الأموى) وانتهاءً بالطبقة الدنيا (الرقيق)؛ فقد بدت الفئة الحاكمة من الأسر الأموية، فى نظر كثير من فئات المجتمع على أنها مغتصبة حق ليس لها؛ على حين تعلقت القلوب بتلك الفئة التى تمت لبيت النبوة بسبب من دم أو صهر أو ولاء. كما أن طبقة «الرقيق» قامت بدور مهم فى التحول الاجتماعى الذى مسّ كثيرًا من جوانب الحياة العربية فى ذلك العصر؛ ويكفى أن نستحضر إسهامهم فى عملية المزج بين العنصر العربى وغيره من العناصر، ومشاركتهم الموالى فى ذيوع الغناء وانتشاره مع ما صحبه من تحرر ومبالغة فى الرقة والتطيب والتزين بالملابس الزاهية الملونة - لندرك أهمية هذا الدور.

واهتم بإبراز الأثر الذى خلفته طبقة «الموالى» فى هذا التحول الاجتماعى والحضارى وبخاصة بعد أن اتسع مدلول «المولى» ليطلق على كل من دخل الإسلام من غير العرب سواء استرق أم لم يُسترق. وعلل لما يذكره كثير من الدارسين من إحساس هذه الطبقة بلون من الظلم، ووقوع بعض ألوانه عليهم، بأن كلمة «المولى» نفسها كانت تحمل فى دلالتها السابقة لونًا من الازدراء لمن يتصف بها؛ وبأن العرب كانوا المنتصرين والفاتحين، وطبيعى أن يتملكهم شعور بالزهو والسيادة والاستعلاء الذى يصيب عادة هؤلاء المنتصرين. بالإضافة إلى أن بعض الأحداث التى ارتبطت بهم بولغ فيها، أو فهمت على غير وجهها الصحيح.

ولم يغفل الإشارة إلى تلك الحياة الآمنة التى كان ينعم بها أهل الذمة، بما كفله لهم الإسلام من حرية فى العقيدة ومن حماية ورعاية فى ظل تعاليمه السمحة، وليس أدل على ذلك من ثقة الأمويين بكثير منهم، وإسناد الأعمال المهمة إليهم.

الفصل الثانى

العصبية

على الرغم من أن الإسلام حارب «العصبية» بصورها المختلفة قَبَليَّةً كانت أم عِرْقية، فإن بعض ظواهرها لم تنته تمامًا، كالاعتداد بالنسب[1]، ومهاجاة الخَصْم، والنيْل منه بكل سبيل.

وربما وجدنا شواهد لذلك فى حياة الرسول ﷺ. وقصة حسان بن ثابت مع صفوان ابن المعطَّل من خير النماذج لذلك؛ إذ يقال إن حسان بن ثابت قال شعرًا، يعرِّض فيه بابن المعطَّل، وبمن أسلم من العرب من مُضر، منه:

أمسَى الجلابيبُ قد عَزُّوا وقد كثُروا وابنُ الفُريعة أمسَى بَيْضَة البَلَد[2]

فاعترضه صفوان بن المعطَّل بالسيف فضربه، وقال:

تلقَّ ذُباب السيف عنى فإننى غلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعر[3]

---

(١) انظر فى ذلك: قصة حسان بن ثابت فى هجاء أبى سفيان بن الحارث بأنه «هجين»، وليس من العرب الخُلَّص. جـ٤ من الأغانى ص١٤١، ١٤٢. وقد ذكرت من قبل فى هذا البحث ص ٥٥.

(٢) تُروى مناسبة أخرى لهذا الشعر فى كتب التاريخ والأدب تتصل بحديث الإفك الذى رميت فيه السيدة عائشة بصفوان بن المعطل، وكان حسان بن ثابت ممن خاضوا فى هذا الحديث. انظر: ديوان حسان بن ثابت بشرح البرقوقى. دار الأندلس. بيروت، لبنان. ص ١٥٩ وما بعدها.

(٣) انظر: الأغانى. السابق ص١٥٧ هذا؛ وتتعدد الروايات حول هذا الحادث؛ فهناك رواية تذكر أن ثابت بن قيس قَبض على بن المعطل لضربه حسان، ثم انتهى الأمر إلى النبى ﷺ فاسترضاه. انظر: السابق ص١٥٧-١٥٨. ورواية الزُّهرى أن هذا كان بعد غزوة النبى ﷺ، بنى المصطلِق (بطن من خزاعة - والمصطلق: لقب جذيمة بن سعد بن عمرو بن أبى ربيعة)، وأنه وقع شجار بين رجلين من أصحاب الرسول ﷺ وبين فِتية من الأنصار على ورود فرسين الماء (واحد منهما للرسول ﷺ) فتنازعوا فاقتتلوا، فقال عبد الله بن أبى ابن سلول: هذا ما جَزَوْنا به، آويناهم ثم هم يقاتلوننا! وبلغ حسان بن ثابت ما حدث، فقال وهو يريد المهاجرين من القبائل الذين قدموا على رسول الله ﷺ فى الإسلام [يذكر أبو الفرج أن الشعر لمصعب]:

أمسى الجلابيبُ قد عزوا وقد كثُروا وابن الفُريعة أمسىَ بيضة البلد

ويقال إن هذا الشعر أغضب الرسول وقال: «يا حسان نفست على إسلام قومى»، فغدا صفوان بن المعطل السلمى على حسان فضربه بالسيف، وقال بيته السابق. وانظر: تفاصيل أخرى تتصل بهذا الحادث، السابق ص ١٥٨ - ١٦١.

وربما كان هذا بقيّة من جاهلية. وربما ساعد على ذلك أيضا ما كان يقوم به المنافقون، وعلى رأسهم عبد الله بن أُبى بن سلول، من إثارة الفتن والحزازات إلى غير ذلك.

وقد اتسعت دائرة هذه العصبية فى العصر الأموى وأصبحت لها جوانب متعددة، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. ويعنينا هنا بالتحديد الجانب الاجتماعى رغم أنه لا ينفصل فى أحيان كثيرة عن الجوانب الأخرى.

ويمكننا تلخيص أهم عوامل هذا الاتساع فيما يأتى:

أولًا: تحوُّل الخلافة إلى «مُلْك» على يد معاوية بن أبى سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد ساعد هذا على إذكاء نيران «العصبية»؛ فالأمويون – فى سبيل العمل على إبقاء هذا «المُلْك» فيهم، وفى من يواليهم – حرصوا على اتباع سياسة الترغيب والترهيب، وكان عليهم أن يتألّفوا هذه القبائل أو تلك، وهذا الشاعر أو ذاك نُصرة لهم، وتأييدًا لسياستهم. بل إن هناك من يرى أن خلافة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وهو من الأمويين – قد اتخذت لونًا من العصبية القائمة بين الهاشميين والأمويين منذ الجاهلية؛ إذ انتهزها الأمويون، وأخذوا يمكّنون لأنفسهم، ويُحيون نفوذهم القديم، متخذين من حِلم عثمان وقرابته وسيلة لتحقيق مآربهم[1].

العامل الثانى: ويتمثل فى مقتل عثمان رضى الله عنه، وما صاحبه وخلفه من آثار ذات صلة قوية بما نتحدث عنه:

فقد حركت «الفتنة» التى أدت إلى مقتل عثمان – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – الأحداث، ودفعت بها إلى الصدام؛ فمن «موقعة الجمل» إلى «موقعة صفين» «إلى» «مقتل الحسين» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى كربلاء. وقد جرَّ هذا التمزق الأمة الإسلامية إلى ألوان أخرى من الفتن والصراع، ذات صبغة سياسية أو فكرية، مما كان له انعكاسه على الجانب الاجتماعى. ولعل الأمة الإسلامية لم تُمتحن بمثل ما امتُحنت به آنذاك؛ إذ بدا هذا الصراع قويًا وعنيفًا، يكاد يقضى على وحدة الجماعة بل يكاد يفتك بها فتكًا، لولا أن تداركتها رحمة الله سبحانه.

فعلى بن أبى طالب – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – بعد أن بويع له بالخلافة – يبلغه عن حسان بن ثابت، وكعب بن مالك الأنصارى، والنعمان بن بشير – وكانوا عثمانية – «أنهم يقدِّمون بنى

---

(١) انظر: أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسى. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥ ص١١٧.

أمية على بنى هاشم، ويقولون: الشأم خير من المدينة· واتصل بهم أن ذلك قد بلغه، فدخلوا عليه، فقال له كعب بن مالك: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن عثمان: أَقُتِل ظالمًا، فنقول بقولك ؟ أم قتل مظلومًا، فتقول بقولنا، ونكِلَك إلى الشبهة فيه؛ فالعجب من تيقننا وشكك، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه، ثم قال الأبيات:

كفّ يديه، ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل[1]

فقال لهم علىّ عليه السلام: لكم عندى ثلاثة أشياء: استأثر عثمان فأساء الأثرة[2]، وجزعتم فأسأتم الجزع، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة. فقالوا: لا ترضى بهذا العرب، ولا تعذُرنا. فقال علىّ - كرم الله وجهه -: أتَردُّون علىّ بين ظهْرانى المسلمين، بلا بيِّنة صادقة، ولا حجة واضحة. اخرجوا عنى، ولا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبدا، فخرجوا من يومهم، فساروا حتى أتوا معاوية، فقال لهم: لكم الولاية والكفاية. فأعطى حسان بن ثابت ألف دينار، وكعب بن مالك ألف دينار، وولّى النعمان بن بشير حمص، ثم نقله إلى الكوفة بعد»[3].

إن هذا الخبر - مع غيره من الأخبار[4] - ليؤكد لنا ما ذكرناه من قبل من أن هذه

---

(١) انظر باقى الأبيات: ج ١٦ ص ٢٣٣.

(٢) يروى أبو الفرج خبرًا عن أنه بعد انتصار المسلمين على «جُرجير» - صاحب إفريقية - بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرْح، وقد غنموا أموالا كثيرة - قدِم مروان بن الحكم على الخليفة عثمان - رضي الله عنه - وكان قد صفّق على الخُمْس بخمسمائة ألف، فوضعها عنه عثمان، فكان ذلك مما تُكلم فيه بسببه». كما يروى خبرًا آخر أنه أعطى عبد الله بن أسيد بن أبى العيص مائة ألف درهم، وقيل ثلاثمائة ألف درهم من المال الذى قدم به أبو موسى الأشعرى من العراق، فأنكر الناس ذلك. انظر: السابق، جـ٦ ص٢٦٧-٢٦٩.
هذا؛ ويروى المسعودى أن سعيد بن العاص وَلى الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبى معيط، بعد أن كثرت الشكوى عن فسقه - فلما اتصلت أيام سعيَد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة؛ فاستبدّ بالأموال، فقال فى بعض الأيام، أو كتب به إلى عثمان: إنما هذا السواد قطين [أى خدم] لقريش. ويقال: إن مالكَ بن الحارث النخْعى الملقب بالأشتر قال له: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك؟ ثم خرج إلى عثمان فى سبعين راكبًا من أهل الكوفة، فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص، وسألوا عزله عنهم.
انظر: مروج الذهب - المجلد الثانى ص٣٧١-٣٧٢.

(٣) الأغانى: جـ١٦، ص٢٣٣-٢٣٤.

(٤) من هذه الأخبار ما يروى من أن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، سار من الزاوية - موضع قرب البصرة - يريد طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين - رضى الله عنهم - فالتَقوا عند قصر عُبيد الله بن زياد، فلما تراءى الجمعانِ خرج الزبير على فرس، وعليه سلاحه، فقيل لعلى: هذا الزبير، فقال: أما والله إنه أحرى الرجلين إن ذكِّر بالله أن يذكره· وخرج طلحة، وخرج علىّ إليهما، فدنا منهما، حتى اختلفت أعناق دوابهم،

الفتنة كانت من أشد ما امتُحن به المسلمون؛ فقد زجّت بهم فى دروب ومسالك متشابكة وملتوية يضل السائر فيها، ولا يستبين له الطريق.

كما أنه يبرز لنا كيف أن معاوية بن أبى سفيان استطاع - بسياسته ودهائه - أن يُفيد من هذا الموقف فى دعمْ نفوذه وسلطانه.

العامل الثالث: يحدثنا التاريخ عن أن «موقعة صفين»[1] أدت إلى ظهور عدد من الأحزاب: من سمُّوا «بالشيعة»، ومن سُمُّوا «بالخوارج»، بالإضافة إلى من صار الحكم فى أيديهم وهم «الأمويون»[2]، مع الأخذ فى الاعتبار أن ظهور هذا الحزب كان نتيجة بيعة معاوية لابنه يزيد.

ويلحظ الدارس أثر ظهور «الأحزاب» متمثلًا فى تأريث «العصبية» بينها؛ إذ سيعتمد كل حزب على قبائل بعينها، تدعمه وتشد من أزره؛ فضلا عن حرص كل فريق على اجتذاب من يقوّى جانبه ويؤيده، ممن أوتى حظًا من نفوذ أو تأثير.

ومن ثم كانت هذه «الأحزاب» من أقوى العوامل التى أدت إلى احتدام الصراع، وإثارة كثير من الفتن والثورات، التى اندلعت فى شتى بقاع الدولة العربية الإسلامية.

فقال لهما مستنكرًا متعجبًا: لقد أعددتما خيْلا ورجالا ! إن كنتما أعددتما عند الله عُذْرا فاتقيا الله، ولا تكونوا ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل -٩٢]. ألم أكن أخاكما فى دينكما، تحرّمان دمى وأحرّم دماءكما، فهل من حدث أحلّ لكما دمى؟ فقال له طلحة: ألّبت الناسَ على عثمان، فقال: يا طلحة، أتطلبنى بدم عثمان ؟ فلعن الله قتلة عثمان». ثم يذكّر على الزبير بيوم مرّ فيه مع رسول الله ﷺ. فنظر ﷺ إليه وضحك، فضحك على إليه، فقال الزبير: «لا يَدع ابن أبى طالب زهْوه». فقال له ﷺ: «مهْ؛ ليس بمزهوّ ولتقاتلنه وأنتَ له ظالم». ويستمر الخبر بتصديق الزبير له، وبأنه لو ذكر ما سار مسيره ذاك، وأقسم أنه لن يقاتله أبدًا. وانصرف على إلى أصحابه، قائلا لهم بأن الزبير قد أعطى عهدًا بعدم مقاتلته. وحين رجع الزبير إلى السيدة عائشة - رضى الله عنها - قال لها: «ما كنت فى موطنٍ مذ عَقَلْتُ إلا وأنا أعرف فيه أمرى غيْر موطنى هذا»؟ وأراد أن يتركهم ويذهب، لولا أن ابنه عبد الله لامه على تركهم، وأحفظه بأنه إنما خشى رايات على بن أبى طالب، بما تضمه من فتية أنجاد؛ فكفّر عن يمينه، وقاتله.

انظر: الأغانى، جـ١٨ ص٥٤-٥٥ وانظر ص٥٦-٥٧: رواية أخرى مقاربة للسابقة فى المعنى، وإن اختلفت فى بعض التفاصيل.

(١) كانت بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان. وكان ذلك فى أول يوم من صفر سنة سبع وثلاثين. ويقال: إن عدد جيش على بلغ تسعين ألفًا، على حين بلغ جيش معاوية خمسة وثمانين ألفًا وانتهت بخدعة رفع المصاحف والتحكيم. انظر: الطبرى. السابق جـ٤ من ص٥٦٣-٥٧٥.

(٢) انظر: أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسى، السابق، ص١٧٣. وانظر أيضا: د. شوقى ضيف: التطور والتجديد فى الشعر الأموى. دار المعارف - الطبعة السابعة ١٩٨١. ص٨٥.

هذا؛ إلى أن الأمويين أنفسهم اعتمدوا على «العصبية» القبلية، واتخذوها أساسًا لدعْم دولتهم، والتمكين لسلطانهم. وقد كانت الجذور القديمة «للعصبية» متأصلة فى نفس العربى، لم يُقْض عليها نهائيًا، وما فتئت تنتظر الفرصة لتنطلق من جديد، وتدفع بالأحداث دفعًا إلى المزيد من الصدام.

وتاريخ الأمويين يشهد بذلك؛ فقد اعتمد معاوية – على سبيل المثال – على اليمنية وأصهر إلى «كلب» منهم، وتزوج ميسون بنت بحدل أم يزيد ابنه[1]. وحاولت اليمنية أيضا أن تولّى خالد بن يزيد مُلْك الأمويين، ولكن مؤتمر (الجابية[2]) آثر عليه مْروان بن الحكم. ومع ذلك فقد ناصرت مروان «كلب» حين عارضته قيس، والتقى الجيشان فى موقعة «مرج راهط»[3]، وانتصرت «اليمنية» فيه، وتمّ الأمر لمروان سنة خمس وستين هجرية.

وفى عهد عبد الملك بن مروان تهدأ الفتن مؤقتًا؛ فقد صالح زُفَر بن الحارث الكلابى زعيم قيس، وأنزله من حصْن (قَرقِيسياء)[4]؛ وبذلك سكنت هذه الفتن مؤقتًا بين النزارية، كما سكنت بين قيس وتغلب بعد أيام عصيبة. واستمرت الأمور مستقرة إلى آخر عهد عمر بن عبد العزيز.

---

(١) فى خبر من الأغانى: أن معاوية تزوج امرأة من كلْب، فقال لامرأته ميسون أم يزيد بن معاوية: ادخلى فانظرى إلى ابنة عمك هذه.٠٠ ومن المعروف أن ميسون هذه كلبية أيضا، وكلب من قضاعة. انظر: الأغانى جـ١٦ ص٣٩.

(٢) يذكر الطبرى أنه اختُلف فى الوقعة التى كانت «بمرج راهط» بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم؛ فعن محمد بن عمر الواقدىّ: بويع مروانُ بنُ الحكم فى المحرم سنة خمس وستين. وقال غيرُ واحد: كانت الوقعة بمرج راهط فى سنة أربع وستين. ثم يذكر أنه حُدِّث عن ابن سعد، عن محمد بن عمر.٠٠ عن أبى الحُوَيْرث، قال: «قال أهل الأردنّ وغيرهم لمرْوان: أنت شيخٌ كبير، وابن يزيد غلام، وابن الزبير كهْل؛.٠٠ ونحن نبايعك؛ ابسُط يدك، فبسطها، فبايعوه بالجابية يوم الأربعاء لثلاث خلوْن من ذى القعدة سنة أربع وستين» السابق: تاريخ الرسل والملوك جـ٥ ص٥٣٤.

(٣) سوف نتحدث عن هذه الموقعة تحت «الفتن والثورات» ص ٢٠٣-٢٠٤ من هذا الجزء من البحث.

(٤) انظر: أحمد الشايب: السابق ص٢١٤. هذا، ويروى أبو الفرج خبرا يبرز مدى الأثر الذى كان لهذه الفتن؛ يقول الخبر: «لما استنزل عبد الملك زُفَر بن الحارث الكلابى من قرْقيسيا، أقعده معه على سريره، فدخل عليه ابنُ ذى الكَلاَع [الحميرى]. فلما نظر إليه مع عبد الملك على السرير بكى. فقال له: ما يُبكيك ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، كيف لا أبكى وسيفُ هذا يقطر من دماء قومى فى طاعتهم لك، وخلافِه عليه، ثم هو معك على السرير وأنا على الأرض ! » الأغانى: جـ٨ ص٢٩٦.

وحين ثار يزيد بن المهلَّب بالعراق فى عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) انضمت إليه الأزد قبيلتُه، ومن ثم سخط سائر اليمنية على الأمويين. وبالطبع ينحاز الخليفة إلى القيسية التى تمثّل مُضَر، فعلا شأنها وهان شأن اليمنيين. ولما تولى هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) خاف القيسية حين رآها ذات قوة وسلطان، فأخّرها، وقدّم اليمنية، وعزل ولاة مُضر، وولّى العراق خالد بن عبد الله القسْرى، ثم ولّى خراسان أسدًا أخاه؛ ولكنه لم يصبر على ذلك، فعاد إلى المضرية ينحاز إليها، ويولّى العراق يوسف ابن عمر الثقفى، ويرسل نصَر بن سيار إلى خراسان؛ ويعذِّب خالدًا القسْرى، حتى إذا مـات ذكرت اليمن زعيمها السابق يزيد بن المهلَّب، الذى قُتل فى عهد يزيد بن عبد الملك، فثارت للتخلص من الأمويين. ويأتى الوليد بن يزيد، فيقف بجانب مُضر، ولكن اليمنية تتخذ من يزيد بن الوليد بن عبد الملك ذريعة لقتله، وبصنيعهم هذا تم الانتقام من المضرية[1].

وحين جاء مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ) «تعصَّب للقيسية فثارت اليمنية فى نواحى الشام خاصة، وقامت الفتن فى أطراف المملكة، وانتهى الأمر بقدوم أبى مسلم الخراسانى وقيام الدولة العباسية»[2].

وهذا يعنى أن «العصبية» القَبلية قامت بدور كبير فى إثارة الفتن وقيام الثورات؛ وانعكس هذا بدوره على الحياة الاجتماعية فى كثير من جوانبها؛ ففضلا عن الحروب التى صحبت هذه أو تلك، كانت روح التعصب تدفع إلى مزيد من القتال، وسفك الدماء؛ وقد أثر هذا تأثيرًا سلبيًا فى استقرار الدولة الأموية، بل أدَّى – فى نهاية الأمر – إلى انهيارها وسقوطها.

هذه العوامل – كما ذكرنا – متداخلة ومتشابكة، يتصل كلّ منها بالآخر اتصالًا وثيقًا؛ فهى تعمل متآزرة، جليّة حينًا، وخفية أحيانا أخرى.

ومن هنا يلمس الدارس اتساع دائرة «العصبية» فى هذا العصر اتساعًا ملحوظًا؛ إذ لم

---

(١) انظر: أحمد الشايب. السابق ص٢١٤-٢١٥.

(٢) السابق: ص٢١٥.

تعد مقصورة على «العصبية القبلية»، ولكنها امتدت لتشمل «السياسية»، و«المذهبية»، وربما شملت «العِرْقية» أيضًا.

وقد وجدنا أبا الفرج يحتفى بهذا الجانب احتفاءً عظيمًا، وبخاصة إذا كان فى معرض الحديث عن «وقائع[1]» أو «شعراء»، كان لهم دور بارز فى تحريك الأحداث، وتوجيهها وجهة معينة، مما له صلة وثيقة بما نتحدث عنه.

ومن أمثلة ذلك: ما يقوله عن كعب بن مالك الأنصارى؛ فقد كان «عثمانيًا»، ومن ثَم فقد اعتزل الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ، إثْر مخاطبته فى أمر عثمان رضي الله عنه، وقتله[2]. وله مَرَاث فى عثمان، وتحريض للأنصار على نُصرته قبل قتله، وتأنيب لهم على خِذْلانه بعد ذلك[3].

ويقول أبو الفرج – فى معرض حديثه عن عبد الله بن الزبير الأسدى: «هو شاعر كوفىّ المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية. وكان من شيعة بنى أمية وذوى الهوى فيهم، والتعصُّب والنصرة على عدوهم[4]». ثم يقول بعد ذلك: «وهو أحد الهجّائين للناس، المرهوب شرُّهم[5]».

والربط بين «العصبية» و«الهجاء» – الذى كان من أقوى دواعى الشرِّ – ربط صحيح. وسنرى – فيما بعد – أن الهجاء كان من أقوى الظواهر التى شاعت فى العصر الأموى.

ويذكر أبو الفرج فى سياق حديثه عن «كثيِّر» أنه «كان يتشيَّع تشيّعًا قبيحًا؛ يزعم أن محمد بن الحنفية لم يمت»[6].

وكذلك عن الكميت؛ فبعد أن يذكر نسبه يقول عنه: «شاعر مقدَّم، عالم بلغات العرب، خبير بأيامها، من شعراء مُضر وألسنتها، والمتعصبين على القحطانية، المقارنين

(١) كموقعة «مرج راهط» وغيرها.
(٢) انظر: ص ١٨٦ – ١٨٧ من هذا البحث.
(٣) انظر: الأغانى. جـ١٦ ص٢٢٨.
(٤) الأغانى: ص١٤ ص٢١٧.
(٥) السابق: الموضع نفسه.
(٦) الأغانى: جـ٩ ص١٤.

المقارعين لشعرائهم، العلماء بالمثالب والأيام المفاخرين بها. وكان فى أيام بنى أمية، ولم يدرك الدولة العباسية، ومات قبلها»[1].

هذا التقديم للشاعر سوف ينعكس على مواقفه، وما يصدر عنه تجاه من يتعصب له أو عليه، مما نذكره فى موضعه إن شاء الله.

وسيتجلى هذا الاحتفاء أيضا من خلال حديثنا عن الجوانب السابقة بشىء من التفصيل.

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن الأمويين أنفسهم اعتمدوا على «العصبية» القبلية، فى دعْم دولتهم، فقد كانت هذه «العصبية» نفسها تتوارى داخل البيت الأموى الحاكم، ولكنها تظل تعمل عملها، فى استثارة النفوس، والزَّج بها فى ألوان من الصراع ترتبط بها.

وها نحن نراها قوية واضحة بين فرعى سفيان والحكم بن أبى العاص، متمثلة فى لون من التنافس، ومحاولة كلٍ أن تكون له الغلبة، وأن يكون صاحب السطوة والنفوذ.

والخبر الذى يرويه كتاب الأغانى عما دار بين مروان بن الحكم ومعاوية بن أبى سفيان إثْر عزل الأخير له[2] - له دلالته فى إحساس مروان بقرب تولّيه الحكم؛ مصداقًا لنبوءة النبى ﷺ لهم[3]. وقد خضع معاوية له، وحاول أن يترضاه، حتى قال له: لك العُتبى، وأنا رادُّك إلى عملك. فرفض مروان، وأقسم أنه لا يرجع إليه أبدًا[4].

---

(١) الأغانى: جـ١٧ ص١.

(٢) يذكر أبو الفرج عزل معاوية مروان بن الحكم عن الحجاز، وتولية سعيد بن العاص مكانه، فأرسل مروان أخاه عبد الرحمن إلى معاوية لمعاتبته واستصلاحه، فأخبره معاوية أنه عزله لأنه رأى ذلك صالحًا. وخرج عبد الرحمن فأخبر أخاه، فاستشاط غضبًا، وذهب إلى معاوية، ودار بينهما حوار حادٌّ، أبان خلاله عن سبب عزله له، فقال له مروان إن ولده كادوا أن يكملوا العدة أربعين. انظر: الأغانى جـ١٣ ص٢٥٩-٢٦١.

(٣) يروى الخبر نبوءة النبى ﷺ لآل مروان بهذه الصورة: «ابن المخزومية؛ ذلك رجل إذا بلغ ولده ثلاثين - أو قال أربعين - ملكوا الأمر بعدى». السابق، جـ١٣، ص٢٦٢. علمًا بأن هذا الحديث ورد فى كتاب ابن حجر العسقلانى: الإصابة فى تمييز الصحابة تحقيق: على محمد البجاوى. ط. دار الجيل بيروت، ١٩٩٢، جـ٢، ص١٠٥. ولم يرد فى أى من كتب الأحاديث الصحيحة.

(٤) انظر: الأغانى ج:١٣ ص٢٦١-٢٦٢. هذا؛ وهناك خبر آخر فى أن معاوية عرض على عبد الرحمن بن الحكم خيْله، فمرّ به فرس، فقال: كيف تراه ؟ فقال: هذا سابح، ثم عرض عليه آخر فقال له: هذا ذو

هذا الذى حدث داخل البيت الأموى قبل أن يتولى آل مروان الحكم، حدث مثله - وربما بصورة أقوى وأعنف - بعد أن أصبحوا المسئولين عن شئون المسلمين. فلقد روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية دخل على أخيه خالد، وقال له بأنه همّ بقتل الوليد ابن عبد الملك فى ذلك اليوم، وحين قال له خالد: بئس ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين، وولىّ عهد المسلمين ! ذكر له بأنه لقى خيله ونفّرها وتلاعب بها. فأخبره خالد بأنه سيكفيه هذا الأمر. وذهب خالد إلى عبد الملك وعنده الوليد، فأخبره بما حدث منه، وأن هذا شقّ على عبد الله. فنكس عبد الملك رأسه، وقرع الأرض بقضيب فى يده، ثم رفع رأسه إليه، فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1]، فرد خالد: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2] ويشتد الحوار بينهما، حتى يتدخل الوليد، فيقول لخالد: أتكلمنى ولست فى العير ولا النفير[3]، فيقول خالد: «ألا تسمع يا أمير المؤمنين ما يقول هذا ؟ أنا والله ابن العير والنفير، سيّد العير جدى أبو سفيان، وسيد النفير جدى عتبة بن ربيعة . ولكن لو قلت: حُبَيْلات - يعنى حبلة العنب[4] - وغنيمات، والطائف لقلنا: صدقت، ورحم الله عثمان[5]!».

ويعقّب أبو الفرج على ذلك فيقول: «يعيّره بأم مروان، وأنها من الطائف؛ ويعيّره بالحكم، وأن رسول الله ﷺ طرده إلى الطائف، وترحم على عثمان لردّه إياه»[6].

عُلالة، ثم مرّ به آخر، فقال: وهذا أجشُّ هزيم، فأدرك معاوية أنه قد عرّض به، بقول النجاشىُّ فيه:

ونجى ابن حَرب سابحٌ ذو عُلالة ... أجشُّ هزيمٌ، والرماحُ دوانِ

فقال له: اخرج عنى، فلا تساكنّى فى بلد. فلَقى عبد الرحمن أخاه مروان، فشكا إليه معاوية، وقال له عبد الرحمن: وحتى متى نُستذَل ونُضام ؟ ويمضى الخبر فيذكر أن مروان دخل على معاوية، فقال له: حتى متى هذا الاستخفاف بآل أبى العاص ؟ أما والله إنك لتعلم قول النبى ﷺ وآله فينا، ولقلّ ما بقى من الأجل. انظر: السابق ص٢٦٨.

(١) [سورة النمل: الآية: ٣٤].

(٢) [سورة الإسراء: الآية ١٦].

(٣) ليس فى عير ولا نفير: أى ليس شيئًا يعتدّ به.

(٤) الحَبَل: شجر العنب، واحده حبلة.

(٥) الأغانى: جـ١٧ ص٣٤٨.

(٦) السابق / ص٣٤٨-٣٤٩. وفيما يتصل بقوله: «حبيلات وغنيمات» فإنه أشار إلى أن رسول الله - ﷺ - لما

بل إن «العصبية» لتمتّد لتشمل (حليف) هذا الفرع أو ذاك من البيت الأموى؛ إذ يصبح هذا (الحليف) كأنه واحد من أبناء الفرع الواحد، يتعصب له، ويدفع عنه الأذى بكل سبيل.

وقصة عبد الرحمن بن أرطاة مع معاوية بن أبى سفيان من أقوى الأمثلة على ذلك؛ فعبد الرحمن هذا من «آل سيْحان»، وهم «حلفاء حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وبمنزلة بعضهم عندهم خاصة، وعند سائر بنى أمية عامة»[1].

وقد مدح عبد الرحمن أحلافه من بنى أمية، وكان معهم كواحد منهم، إلا أن اختصاصه بآل أبى سفيان، وآل عثمان خاصة كان أكثر؛ وخصوصه بالوليد بن عثمان أزيد؛ فقد كان - كما يقال - نديماً له[2].

وتذكر الروايات أن مرْوان بن الحكم أقام عليه حدّ الخمر أيام كان والى المدينة[3]؛ إذ كان قد ترصّد له، حتى وجده خارجًا من دار الوليد بن عثمان وهو سكران. وقدِم البريد من المدينة على معاوية، وعلم منه أن مرْوان ضرب ابن سيْحان الحد ثمانين، فغضب معاوية، وقال: والله لو كان حليف أبى العاص لما ضربه، ولكنه ضربه لأنه حليف حرب؛ أليس هو الذى يقول:

وإنى امرُؤٌ حِلْفٌ إلى أفضل الورى ... عديدا إذا ارفضّت عصًا المتحلّفِ[4]

وكذّب معاوية مرْوان فيما ادّعاه على عبد الرحمن، وأنه ليس من حقه أن يضربه فى

نفى الحكم بن أبى العاص - وكان جد عبد الملك المذكور - إلى الطائف، كان يرعى الغنم، ويأوى إلى حبيلة وهى الكرمة. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، المجلد الثانى، دار الثقافة، بيروت لبنان، (د ت)، ص٢٢٦.

(١) الأغانى: جـ٢، ص٢٤٢ مع ملاحظة أن «ابن أرطاة» يذكر فى نسبه أنه «عبد الرحمن بن أرطاة»، أو «عبد الرحمن بن سيحان بن أرطاة. انظر: السابق، نفس الموضع.

(٢) انظر السابق ص٢٤٣-٢٤٤.

(٣) كان معاوية يعاقب بين مرْوان بن الحكم وسعيد بن العاص فى ولاية الحرمين، وكان ابن أرطاة منقطعًا إلى سعيد يمدحه، ويظهر سروره بولايته، فرصده مروان حتى وجده خارجًا من دار الوليد بن عثمان وهو سكران فضربه الحد. السابق ص٢٤٦-٢٤٧. ولمزيد من التفاصيل حول هذه الواقعة. انظر: الأغانى، جـ٢، ص٢٤٧-٢٤٨.

(٤) ارفضت: تفرقت: المتحلف: مصدر بمعنى المحالفة. والعصا يراد بها الجماعة.

نبيذ أهل المدينة[1]، ثم قال لكاتبه: «اكتب إلى مروان: فلْيُبطل الحدَّ عن ابن سيْحان، وليخطب بذلك على المنبر، ولْيقُل: إنه كان ضربه على شُبهة، ثم بان له أنه لم يشرب مُسْكرًا، ولْيعطِه ألفى درهم»[2].

وإذا كانت «العصبية» داخل البيت الأموى قد بدت لنا سافرة، على الرغم من أن أصحابها كانوا يحرصون على أن تظل متوارية، أو - على الأقل - أن يُكْبَحَ جماحُها، حتى لا تنطلق - فإنها بدت فتيّة فى ذلك الصراع الدائر بين الأمويين وغيرهم ممن ينتمون إلى الأحزاب الأخرى، وفى تلك الفتن والثورات التى اندلعت فى كثير من أرجاء الأمة العربية الإسلامية؛ فقد كان على الأمويين أن يُحكموا قبضتهم على الدولة العربية الناشئة. وفى سبيل تحقيق هذا الهدف، كان عليهم أن يواجهوا هذه وتلك بكل ما أوتوا من قوة؛ ومن ثم فقد اعتمدت سياستهم على «البطش والتنكيل» مما كان له آثاره السيئة فى تصاعد الإحساس بالظلم.

ومن الطبيعى ألا يقتصر هذا البطش والتنكيل على طرف دون آخر، ولكنه يتجلى بصورة واضحة عند الطرف الذى آلت الأمور إليه؛ إذ يرى أنه صاحب الحق فى الخلافة أو فى تولّى شئون المسلمين، وأن غيره من الأطراف خارج عن الجماعة، ويستحق أن يُردع، أو أن يُقضى عليه.

ويتدرج «البطش والتنكيل» قوة وضعفًا، ويتخذ صورًا متنوعة؛ فمن سفْك للدماء، إلى منع للعطاء، إلى اتخاذ صكوك على الخارجين، والاحتفاظ بها؛ إمعانًا فى إخضاعهم وإذلالهم.

والتاريخ يحدثنا عن سياسة «البطش والتنكيل» هذه التى اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفى ومسلم بن عقبة المرّى المعروف «بالمسرِف»، وغيرهما مِمَّنْ سنشير إليهم فى ثنايا هذا البحث.

فالحجاج صلب جسد عبد الله بن الزبير - بعد قتْله - وبعث برأسه إلى عبد الملك

(١) فى رواية أخرى «فى نبيذ أهل الشأم الذى يستعملونه، وليس بحرام» السابق ص٢٥١.
(٢) السابق: ص٢٤٧.

ابن مروان[1]. ومن قبله بعث عبيد الله بن زياد بن أبيه برأس الحسين بن على إلى يزيد بن معاوية[2].

ومن البيِّن أن الإمعان فى القتل والتنكيل كانت وراءه عوامل كثيرة، حديثة وقديمة. ومما يروى فى ذلك أن الحجاج لمّا قدم الكوفة واليًا عليها، صعد المنبر، فخطبهم مهددًا متوعدًا، ثم حثّهم على اللحاق بالمهلّب بن أبى صفرة فى حربه ضد الخوارج، وأقسم ألا يجد منهم أحدًا اسمه فى جريدة المهلب بعد ثالثة بالكوفة إلا قتله، فجاء عُمير بن ضابئ البُرْجمى معتذرًا بكبَر سنه، وعرض عليه ابنًا له شابا جلْدا مكانه، فأخبره عَنْبَسَة ابن سعيد بن العاص بأن عميرًا هذا كان قد جاء إلى عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مقتول، فرفسه، وكسر ضلعين من أضلاعه، وهو يقول: أين تركت ضابئًا يانعثل[3]! فأمر الحجاج بضرب عنقه، وسمع إثْر ذلك ضوضاء، فقال: ما هذا ؟ فقيل: هذه البراجم جاءت لتنصر عميرًا، فقال: أتحفوهم برأسه، فرموهم برأسه، فولوا هاربين، فازدحم الناس على الجسْر للعبور إلى المهلب، حتى غرق بعضهم[4].

ومن الطبيعى أن تستخدم سياسة «البطش والتنكيل» هذه مع من يعتبرهم الأمويون أعداء لهم، خارجين على سلطانهم، يعملون على انتزاع هذه السلطة من أيديهم. ومن ثم وجدناها بصورة واضحة فى مواجهة «الفتن والثورات» التى قام بها الأحزاب المناوئة، أو غيرها، ممن يمتون إليها بصلة. وسنرى شواهد على ذلك ونحن نتحدث عنها.

---

(1) انظر: الأغانى، جـ١٤ ص٢٤٩.

(2) انظر: السابق جـ١٣ ص٢٦٣.

ولا شك أن هذا كان يستثير كثيرا من النفوس؛ فضلا عما يؤدى إليه من تقطيع وشائج القربى، وتمزيق أواصر الرحم. فهذا الخبر نفسه يذكر أن عبد الرحمن بن الحكم بن أبى العاص كان عند يزيد بن معاوية، حين بعث إليه عبيد الله بن زياد برأس الحسين بن على، فلما وضع بين يدى يزيد فى الطَّسْت بكى عبد الرحمن، ثم قال:

أبلغ أمير المؤمنين فلا تكنْ ... كُموتر أقواس، وليس لها نَبْلُ

فصَاح به يزيد: اسكت يا ابن الحمقاء، وما أنت وهذا ؟!. السابق ص٢٦٣-٢٦٤.

(3) يقال: إن «نعثلا» هذا كان رجلا من أهل مصر، طويل اللحية، وكان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا نيل منه، وعيب، شبه بهذا الرجل لطول لحيته، فكان أعداؤه وشاتموه يسمونه نعثلا لذلك. انظر: السابق جـ١٤ هامش (٢) ص٢٤٤.

(4) الأغانى: السابق ص٢٤٤-٢٤٥.

هذا؛ ومن المعروف أن عطاء بنى أمية للموالين لهم - أو من يسلكون فى عدادهم - كان بغير حدود. ومن الطبيعى أن يتعرض غير الموالين لهم لألوان من العقاب، فى مقدمتها حرمانهم من عطاياهم. والخبر التالى له دلالته فيما نذهب إليه؛ إذ يروى أنه بعد أن استقر الأمر لعبد الملك بن مروان، حجَّ وجلس للناس بمكة، فدخلوا إليه على مراتبهم، وقامت الشعراء والخطباء فتكلموا، ودخل أبو العباس الأعمى الشاعر، فلما رآه عبد الملك رحّب به ترحيبًا، وطلب منه أن يخبره بخبر «الملحد المُحل» - عبد الله ابن الزبير - حيث كسا أشياعه ولم يكْسُه، وأن يُنشده ما قاله فى ذلك، فأخبره بخبر ابن الزبير، وكيف أنه كسا بنى أسد وأحلافها، ولم يكسه، وأنشده الأبيات. فأقسم عبد الملك على كل من حضره من بنى أمية، وأحلافهم، ومواليهم، ثم على كل من حضره من أوليائه وشيعته، أن يكسوا أبا العباس. فخُلعت حُلل الوشى والخز والقُوهى، وجُعلت تُرمى عليه حتى غطته، بل سترت عنه عبد الملك وجلساءه، وأمر له عبد الملك بمائة ألف درهم[1].

فالعطاء اتُّخِذ سلاحًا فعالا فى ذلك الصراع الدائر؛ ومن هنا كان حرص عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية على أنْ يترضَّوْا من حرموا منه لولائهم لهم.

والنعمان بن بشير الصحابى الأنصارى - وكان عثمانيًا - يرفض أن ينفذ الزيادة التى أمر بها معاوية لأهل الكوفة فى أعطيتهم إبان أن كان عامله عليها، لبغضه لهم بسبب رأيهم فى على بن أبى طالب[2].

بل إن هناك خبرًا أورده أبو الفرج، يتسم بالغرابة والعموم، ويمكن أن يُفْهم منه أن أولى الأمر كانوا يريدون إذلال أهل المدينة وبخاصة من كان منهم من قريش؛ ربما لوقفتهم مع ابن الزبير، وربما لاستشعار خطرهم. يقول الخبر: «كان السلطان بالمدينة

---

(١) انظر: الأغانى، جـ١٦ ص٣٠٤. وانظر خبرًا آخر مشابهًا له مع أبى صخر الهذلى، حين حج عبد الملك بعد أن استقرت له الأمور وقضى على ثورة ابن الزبير؛ إذ قرّبه وأدناه منه لما رآه، وقال له: إنه لم يخْف عليه خبرُه مع «الملحد»، ولا ضاع عنده هواه وموالاته له. فاستأذنه أبو صخر فى الإنشاد، وبعد أن أنشد شعره، أمر له عبد الملك بما فاته من العطاء. انظر السابق جـ٢٤ ص١١٣-١١٦.

(٢) انظر: الأغانى، جـ١٦. ص٢٩.

إذا جاء مال الصدقة أدان من أراد من قريش منه، وكتب بذلك صكًا عليه، فيستعبدهم به، ويختلفون إليه، ويديرونه[١]، فإذا غضب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارون الرشيد، فأمر بها فُحِّرقت عنهم. فذلك قول ابن الزبير:

فما كنت ديَّانا؛ فقد دنْتُ إذ بدتْ صكوك أمير المؤمنين تدور[٢]

هذه بعض إشارات إلى ظواهر ارتبطت «بالعصبية» فيما يتصل بالحزب الحاكم، وهى تنبئ عن مدى خطرها فى توجيه الأحداث. فإذا ما أضفنا إلى ذلك اتساع دائرتها لتشمل الجانب السياسى والمذهبى، بل والعِرقى - كما ذكرنا من قبل = أدركنا مقدار ما خلّفته من آثار زلزلت كيان الدولة، وأدت إلى سقوطها.

إن المطّلع على تاريخ تلك الفترة ليلحظ مدى اتساع هذه الدائرة؛ فكانت إقليمية بين الشام والعراق: الأول مع معاوية، والثانى مع على؛ ثم غلب ابن الزبير على الحجاز فصار معه. وكانت مدنية بين الكوفة والبصرة؛ ففى ثورة المختار ـ على سبيل المثال = كانت البصرة تُدلّ على الكوفة بإنقاذها من أصحابه، فردّت الكوفة بما هزمت البصرة يوم الجمل. وكانت عرقية بين العرب والموالى، وقبلية بين الأمويين والهاشميين. واتسعت دائرة القبلية لتصبح الحرب بين القبائل الشمالية والجنوبية[٣] ولا شك أن الجانب الأخير (القبلى) كان من أقوى الجوانب وأشدها خطرًا.

وفى هذا الإطار يمكن أن يفسّر ما حدث بين بعض أهل مكة والأنصار؛ إذ يروى أن وفود الأنصار حضرت باب معاوية بن أبى سفيان فخرج إليهم حاجبه، فطلبوا منه الاستئذان للأنصار، فاستأذن لهم منه، وكان عنده عمرو بن العاص، فقال له عمرو: «ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟! اردُد القوم إلى أنسابهم. فقال معاوية: إنى أخاف من ذلك الشُّنْعة. فقال: هى كلمة تقولها، إن مضَت عضَّتهم ونقصتهم، وإلا فهذا الاسم راجع إليهم. فقال له: اخرج فقل: من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل. فقالها الحاجب، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار. فنظر معاوية إلى عمرو نظرًا

---

(١) يقال: أدرته عن الأمر، إذا طلبت منه تركه.
(٢) الأغانى: ج ١٥، ص ٥ ـ ٦.
(٣) انظر: أحمد الشايب. السابق ص٢١٣-٢١٤.

منكرًا، فقال له: باعدتَ جدًا. فقال: اخرج فقل: من كان ههنا من الأوس والخزرج فليدخل؛ فخرج فقالها، فلم يدخل أحد. فقال له معاوية: اخرج فقل: من كان ههنا من الأنصار فليدخل، فخرج فقالها، فدخلوا يقدُمهم النعمان بن بشير وهو يقول:

يا سعدُ[1]، لا تُعِد الدعاء فما لنا ... نسبٌ نُجيب به سوى الأنصار

نسبٌ تخيَّره الإله لقومنا ... أَثْقِلْ به نسبا على الكفار

إن الذين ثَوَوْا ببدر منكم ... يوم القَليب همُ وقود النار

فقال معاوية لعمرو: قد كنا أغنياء عن هذا[2]».

إن الخبر السابق يشير إلى أن معاوية وعمْرو بن العاص كانا ينفسان على «الأنصار» هذا اللقب، وربما استحال هذه إلى لون من «العصبية»، ساعد عليه أن الأنصار سعدوا بهذا اللقب، واعتزوا به؛ فهو نسب «تخيّره الإله» لهم، وأعظم به من نسب ! ولعل هذا اللقب نمّى فيهم الإحساس بخصوصية لا توجد فى غيرهم؛ مما جعل أهل مكة - أو بعضهم - يقفون منهم مثل هذا الموقف.

وعلى أية حال، فقد كشفت «العصبية» فيما عرضنا له عن جانب من وجهها القبيح؛ وبقى علينا أن نلمّ شتات ما ارتبط بها أو نجم عنها فى مجموعة من الظواهر.

أ-الفتن والثورات

فى الفتن والثورات تظهر «العصبية» جليّة واضحة، بما لها من آثار مدمّرة على الجانب الاجتماعى؛ فهى - فضلا عما يصحبها من تناحر وسفك للدماء - تدفع الساسة وأولى الأمر إلى اتباع سياسة «البطش والتنكيل» وما يرتبط بها من تمزيق لعلاقات اجتماعية يحرص الإسلام على أن تحاط بسياج منيع؛ حماية لها وحفظا. ولعل ثورة عبد الله بن الزبير من أدلّ الشواهد لذلك.

---

(١) هو سعد أبو درة حاجب معاوية.

(٢) الأغانى جـ١٦: ص٤٢-٤٣. وانظر ص٤٨ خبرا آخر فى نفس المعنى مع اختلاف يسير؛ إذ إنه بعد أن طلب النعمان من الحاجب الاستئذان لهم، دخل فقال لمعاوية: الأنصار بالباب، فقال له عمرو بن العاص: «ما هذا اللقب الذى قد جعلوه نسبًا؟ «اردده إلى أنسابهم» !.

ولقد كان وراء هذه «الثورة» بواعث كثيرة منها: ما كان يراه من خروج معاوية على نظام الشورى فى الإسلام، وتولية ابنه يزيد العهد؛ وبذلك تحوّلت الخلافة إلى مُلْك عضوض[1].

ولما تولّى يزيد بن معاوية الخلافة اعتصم عبد الله بن الزبير بمكة، ودعا لنفسه بالخلافة سنة ثلاث وستين هجرية، وبخاصة بعد مقتل الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وتروى المصادر أنه قد ساعد ابن الزبير أكثر الناس[2]؛ ولعل ذلك يرجع إلى إحساس الناس بهذا التحول الخطير فى الخلافة؛ ولا يستبعد أن يكون «للعصبية» دورها الخفىّ فى ذلك. فضلا عن أن يكون للجانب الدينى المعلن - كما سنرى - الأثر الأكبر فى جذب الناس إليه.

ومع ذلك فقد وجد ابن الزبير نفسه لا يواجه الأمويين فحسب، ولكن الهاشميين أيضا. وموقف ابن عباس وأخيه منه يدْعم ما نقول؛ فقد دخل عبد الله بن صفوان على عبد الله بن الزبير وهو يومئذ بمكة، فقال: أصبحت كما قال الشاعر:

فإن تصبْك من الأيام جائحةٌ ... لا أبْك منكَ على دنْيا ولا دين

وحين سأله ابن الزبير عن السّر فى قوله هذا، أجابه بأن: «هذا عبد الله بن عباس يفقّه الناس، وعبيد الله أخاه يُطعم الناس، فما بقَّيا لك»؛ فأحفظه ذلك، وأرسل صاحب شرطته عبد الله بن مطيع إليهما، طالبًا منهما أن يبدّدا جمعهما، ومن معهما (من ضُلاَّل أهل العراق) وإلا فعل وفعل ! فكان ردُّ ابن عباس: «قل لابن الزبير، يقول لك ابن عباس: ثكلتك أمك؛ والله ما يأتينا من الناس غيرُ رجلين: طالب فقه، أو طالب فضل، فأى هذين تمنع ؟! فأنشأ أبو الطفيل عامر بن واثلة يقول:

لادرَّ درُّ الليالى كيف تضحِكنا ... منها خطوبٌ أعاجيب وتبكينا»[3]

---

(١) هناك بواعث أخرى يمكن أن تستشف من قراءة سيرته منها: أنه كان قرشيًّا يرى فى نفسه أحقيته بالخلافة، وبخاصة أن فى سجل أبيه الصحابى الجليل الزبير بن العوام، أيام الرسول ﷺ وبعده ما يجعل الناس تلتف من حوله، وتناصره فى دعوته.

(٢) انظر: الأغانى، جـ١ ص٢٥.

(٣) انظر: السابق ج ١٥ ص ١٥١ ـ ١٥٢. وانظر باقى الأبيات ص ١٥٢.

ومن البيِّن أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومن نهج نهجه من الهاشميين آنذاك فى موقفهم من الزبير، كانوا مدفوعين بتلك الروح الدينية، التى تنأى بصاحبها عما يتقاتل الناس حوله من أعراض الدنيا، كما يظهر فى الخبر السابق.

لقد حاول عبد الله بن الزبير – ومن شايعه – أن يظهر للناس أن ثورته إنما كانت لله ورسوله والمهاجرين والأنصار نتيجة أثرة معاوية وابنه وأهله بالفىء، وربما كان ذلك سببًا فى انضمام كثير من الناس إليه، وتصديقهم له، ولكن الأخبار الواردة تعكس غيْر ذلك؛ إذ يذكر أبو الفرج – وهو بصدد حديثه عن «خروج ابن الزبير على بنى أمية» ما صرّح به ابن الزبير نفسه من أنه إنما خرج لمصلحة الأمة، لا لمطامع مادية، وأنه حاول إقناع (صفية) زوج عبد الله بن عمر بأن خروجه «كان غضبًا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه وأهله بالفىء، وسألها مسألته أن يبايعه[عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحين ذكرتْ أمر ابن الزبير، واجتهاده لزوجها، وأثنت عليه، وقالت: «ما يدعو إلا إلى طاعة الله ـ عز وجل ـ، وأكثرت القول فى ذلك، قال لها: أما رأيت بغلات معاوية اللواتى كان يحج عليهن الشُّهْبَ[1]؛ فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن[2]»!.

ولهذا دلالته فى أنه – من وجهة النظر هذه – لم يكن يختلف عن الأمويين فى طلب الدنيا والحرص عليها.

ولعل فى خروج محمد بن الحنفية عليه ما يدعم ذلك؛ إذ يروى أن ابن الزبير لما بدأ يدعو إلى نفسه، أخذ يظهر عيب بنى أمية، ومالأه على ذلك أكثر الناس. ودخل عليه أهل المدينة المسجد، وأتَوْا المنبر، فخلعوا يزيد، وأظهروا البراءة منه[3]، وأجمعوا على ذلك، وامتنع عبد الله بن عمر، ومحمد بن على بن أبى طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وجرى بين محمد خاصة، وبين أصحاب الزبير فيه قول كثير، إلى درجة أنهم أرادوا إكراهه على ذلك،

---

(١) يقال إن معاوية حج حجتين فى خلافته، وكان له ثلاثون بغلة، يحجُ عليها نساؤه وجواريه. انظر: الأغانى جـ٣ ص١٣٠.

(٢) االأغانى جـ١ ص٢٤-٢٥، (بتصرف).

(٣) ومما ورد فى ذلك أن عبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى قال: خلعت يزيد كما خلعت عما متى، ونزعها من رأسه؛ وقال آخر: خلعته كما خلعت نعْلى؛ وقال آخر: خلعته كما خلعت خُفِّى، حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف، وأظهروا البراءة منه. انظر السابق ص٢٥.

فخرج إلى مكة، وكان هذا أول ما هاج الشرَّ بينه وبين ابن الزبير خاصة[1].

ولقد صاحب ثورة ابن الزبير ما يحدث عادة فى مثلها من قتْل ونفْى وتشريد؛ بل إمعان فى الانتقام من غير الموالين له والمؤيدين لدعوته.

بل إن محمد بن الحنفية لم يسلم من بطش ابن الزبير؛ إذ يروى أنه لما رجع محمد بن الحنفية من الشام حبسه ابن الزبير فى سجن (عارم)، فخرج إليه جيش من الكوفة، عليه أبو الطفيل عامر بن واثلة، حتى أتَوْا سجن عارم فكسروه، وأخرجوه؛ وكان أن كتب ابن الزبير إلى أخيه مصعب أن يسيِّر نساء كل من خرج لذلك فأخرج مصعب نساءهم، وكان فيهن أم الطفيل (امرأة أبى الطفيل) وابن له صغير[2].

وهكذا أخذ ابن الزبير يتبع بنى هاشم بكل مكروه. ولم يكتف بحبس ابن الحنفية فى سجن (عارم)، بل يقال إنه جمعه وسائر من كان بحضرته من بنى هاشم، فجعلهم فى محبس، وملأه حطبًا، وأضرم فيه النار، لولا أن تداركهم أنصارهم، وعلى رأسهم أبو عبد الله الجدلى، فأطفأوا النار واستنقذوهم[3].

وخلال فتنة ابن الزبير ثار أهل المدينة على الأمويين وارتبط بذلك تلك الموقعة الشهيرة المعروفة بموقعة «الحرَّة» سنة ثلاث وستين. ومن الأخبار الواردة فى ذلك أن أهل المدينة اجتمعوا بعد أن شمل الناس جوْر يزيد، لإخراج بنى أمية عنها، وبدءوا بعثمان بن محمد بن أبى سفيان - عامل يزيد عليهم - ومروان بن الحكم؛ فمضوا إلى

---

(١) انظر: السابق. نفس الموضع. هذا؛ ولعل إظهار ابن الزبير فى دعوته أنها تقوم على جانب دينى، وأنه إنما ثار غضبًا لله تعالى ولرسوله - كان سببًا فى أن «الخوارج» حاولوا أن يناصروه؛ فقد مضَوْا إلى مكة سنة ٦٤هـ، ليمنعوا الحرم من جيش يزيد، وقاتلوا معْ ابن الزبير، ثم ناظروه، فلم يرُقْهم ما سمعوا منه، فتفرقوا عنه، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة، وبايعوا نافع بن الأزرق، وسمَّوْه أمير المؤمنين، وخرجوا إلى (الأهواز)، فغلبوا عليها وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان، ونسبوا إلى ابن الأزرق، فقيل لهم: الأزارقة. انظر: السابق جـ١٤ ص٢٤٤ هامش (١)٠ وانظر أيضا: الطبرى السابق جـ٥ ص٥٦٣-٥٦٦. ومن ذلك الوقت أصبح «الخوارج» يشكلون جبهة لا يستهان بها؛ فهم معروفون بالاستماتة فى القتال، وبذل الأرواح فى سبيل ما يعتقدونه؛ وكان على الأمويين أن يواجهوا هذا الخطر الذى يهدِّد دولتهم؛ مما كلفهم غاليًا فى سبيل ذلك.

(٢) انظر: السابق جـ١٥ ص١٥٠.

(٣) انظر: الأغانى. جـ٩ ص١٥.

«ذى خُشُب» (وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة)، واتَّبعهم العبيد والصبيان والسَّفِلة يرمونهم، ثم وجّهوا رجلا إلى يزيد بن معاوية يعلمونه، وكتبوا إليه يسألونه الغوث. وحين جاء الرسول بكتاب بنى أمية، وأخبره الخبر، قال: أما كان بنو أمية ومواليهم ألف رجل ؟! قال: بلى، وثلاثة آلاف. قال: أفعجزوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ! قال: غلبهم الناس، ولم تكن لهم بهم طاقة. فندب الناس، وجهَّز جيشًا، أمَّر عليه مسلم بن عقبة الذى يسمَّى «مسرفا» ويقال: إن مسلمًا قال: «إنى رأيتُ فى منامى شجرةَ غرْقد تصيح: على يدَىْ مُسلم، فأقبلت نحو الصوت، فسمعت قائلا يقول: أدْرِكْ ثأرَك أهلَ المدينة قتلة عثمان»[1]، فخرج مسلم إلى المدينة فقاتل أهلها وهزمهم، وأباحها ثلاثة أيام. ولما انتهى الجيش من المدينة إلى الموضع المعروف بالحَرَّة، وعليهم مسرف، خرج أهلها لحربه؛ وكانت وقعة عظيمة، قُتل فيها خلْق كثير من بنى هاشم وسائر قريش والأنصار وغيرهم[2].

وقد تم الأمر لابن الزبير فى كثير من الأقاليم: فى الحجاز واليمن ومصر والعراق، وكاد يتم له فى الشام، لولا أن تدارك الأمويون الموقف فى «مرْج راهط» - وهى الحرب التى كانت بين «قيس وكلب» - فقد قدم مروان بن الحكم بن أبى العاص بعد هلاك يزيد ابن معاوية، والناس يموجون؛ وكثير منهم بايعوا لابن الزبير، وكان النعمان بن بشير على حمص فبايع لابن الزبير؛ وقليل منهم كان مترددًا، كالضحاك بن قيس الفهرى - عامل يزيد بن معاوية على دمشق حتى هلك يزيد - فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى: إذا جاءته اليمانية وشيعة بنى أمية، أخبرهم أنه أموى، وإذا جاءته القيسية أخبرهم أنه يدعو لابن الزبير. ويقال إنه حاول أن يقنع مروان بن الحكم بالقدوم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام؛ وخرج مروان من عنده فلقيه جماعة منهم: عمرو بن سعيد بن العاص، ومالك بن هبيرة، وعبيد الله بن زياد، فسألوه عما أخبره به الضحّاك فأخبرهم، فقالوا له: أنت شيخ بنى أمية، وأنت عم الخليفة، هلُمَّ نبايعك. والتَفَّت القيسية حول الضحاك، وأظهروا بيعة ابن الزبير، ونزلوا فى (مرج راهط) فى الوقت الذى أتت اليمانية فيه حول

---

(١) انظر: الأغانى جـ١ ص٢٥-٢٨.

(٢) انظر: المسعودى. السابق. المجلد الثالث ص٨٤.

مروان فى دمشق، وساروا حتى نزلوا (المرج) على الضحاك، واقتتل الفريقان، فقتل الضحاك، وقتل معه أشراف من قيس[1].

ومن الطبيعى أن تثير هذه الحرب ما تثير من إحَن وعداوات، وقد تكون سببًا فى حروب أخرى، تستمر زمنًا طويلًا، يقتل فيها الرجال والنساء، وتستباح فيها الأموال، وتبقر بطون الحوامل، وتسيل فيها الدماء أنهارًا. ومن ذلك الحرب التى كانت بين (قيس وتغلب) - أيام ابن الزبير وعبد الملك بن مروان - وكان سببها «أن قيسًا وتغلب تحاشدوا؛ لما كان بينهم من الوقائع، منذ ابتداء الحرب بمرج راهط، فكانوا يتغاورون»[2].

والسبب المباشر لهذه الحروب يتمثل فى قتل (تغلب) عمير بن الحباب (من قيس)، فاندلعت الحرب، وتعددت أيامها؛ فمن الوقعة «الحَرِجيّة»، (لأنهم أحرجوا وألقوا أنفسهم فى ماء دجلة) إلى «يوم البِشْر»[3].

ويقال إنه لما كانت سنة ثلاث وسبعين، وقتل عبد الله بن الزبير، هدأت الفتنة، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان، وتكافّت قيس وتغلب عن المَغازى بالشام والجزيرة، وتكلم عبد الملك فى ذلك، ولكنه لم يُحكم الصلح فيه. وفى مجلس لعبد الملك أنشده الأخطل، وعنده وجوه قيس:

ألا سائل الجحّاف[4] هل هو ثائر　　بقتلَى أُصيبت من سُليم وعامر

فوثب الجحاف وثار، وقال عبد الملك للأخطل: ما أحسبك إلا كسيت قومك شرا ! وكان ذلك سببا فى (يوم البشر) - والبشر واد لبنى تغلب - وقد انتصرت فيه قيس على تغلب، وثأرت منهم. ويقال إن الجحّاف قتل ذلك اليوم ابنا للأخطل يقال له: أبو غياث[5].

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٩ ص١٩٥-١٩٦.

(٢) الأغانى. جـ١٢ ص٢٠٥.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٢ ص١٩٨، ١٩٩، ٢٠١.

(٤) هو الجحاف بن حكيم بن عاصم بن قيس بن سباع بن خزاعى بن محاربى... أورد أبو الفرج خبره ونسبه وقصته يوم البشر. انظر: جـ١٢ ص١٩٨-٢٠٨.

(٥) انظر فى تفصيل ذلك: السابق ص٢٠٠-٢٠١.

ومن المألوف أنه إذا وقع نزاع بين أفراد من بيت واحد، أن يتعصّب لكلٍّ أخواله؛ حدث هذا لما خرج ابن عباس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - إلى المدينة من البصرة؛ إذْ تبعه أبو الأسود الدؤلى فى قومه [من أنباء كنانة] ليردوه، فاعتصم عبد الله بأخواله من بنى هلال، فمنعوه، وكادت تكون بينهم حرب، فقال لهم بنو هلال: نُنْشدكم الله ألا تسفكوا بيننا دماء تبقى معها العداوة أبد الدهر، وأمير المؤمنين أولى بابن عمه، فلا تُدخلوا أنفسكم بينهما، فرجعت كنانة عنه[1].

والملاحظ أن ابن الزبير - فى هذه الفتنة - اتبع سياسة «الترغيب والترهيب» فكان يعطى من والاه، ويمنع من عاداه. هذا أبو العباس الأعمى - مولى بنى الدِّيل بن بكر - من المتشيعين لبنى أمية - كما ذكرنا من قبل - له أشعار كثيرة فى مدائح بنى أمية، وهجاء آل الزبير، نراه فيها يسجّل برَّ ابن الزبير بحلفائه فى خروجه على بنى أمية، حين رأى رجلا من حلفاء بنى أسد بن عبد العُزَّى فى حالة رثّة، فكساه ثوبين، وأمر له ببُر وتمر، فقال أبو العباس فى ذلك:

كستْ أسْد إخوانَها ولو انّنى ... ببلدة إخوانى إذا لكسيتُ
فلم ترَعينى مثل حيٍّ تحمّلوا ... إلى الشأم مظلومين منذ بُريتُ[2]

ونراه يحرِّض بنى أمية على عبد الله بن الزبير، فيقول:

أبنى أمية لا أرى لكم ... شِبْهًا إذا ما التفَّت الشيع[3]

ويذكر أبو الفرج أن «عْبد الله بن الزبير لما غلب على الحجاز، جعل يتتبع شيعة بنى مروان، فينفيهم عن المدينة ومكة، حتى لم يبق بهما أحد منهم، ثم بلغه عن أبى العباس الأعمى الشاعر نَبْذٌ من كلام، وأنه يكاتب بنى مروان بعوراته، ويمدح عبد الملك، وتجيئه جوائزه وصلاته، فدعا به، ثم أغلظ له، وهمَّ به، ثم كُلِّم فيه، وقيل له: رجل مضرور، فعفا عنه، ونفاه إلى الطائف، فأنشأ يهجوه، ويهجو آل الزبير:

بنى أسد، لا تذكروا الفخر إنكم ... متى تذكروه تكذبوا وتحمَّقوا[4]

---

(١) انظر: السابق. جـ١٢ ص٣٠١.
(٢) انظر الأغانى: ج ١٦ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.
(٣) انظر السابق: نفس الموضع. وانظر كذلك بقية الأبيات ص ٣٠٢.
(٤) السابق: ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥. وانظر كذلك بقية الأبيات ص ٣٠٥.

على أن هذه السياسة نفسها أثارت لابن الزبير كثيرًا من القلق؛ فقد صحبها الحرمان من العطاء مما يمكن أن يعد استمرارًا لشهوة الانتقام التى تقتل، ولكن بأسلوب آخر؛ ومن أمثلة ذلك ما صنعه ابن الزبير، حين ظهر بالحجاز، وغلب عليها، بعد موت يزيد ابن معاوية، وتشاغل بنو أمية بالحرب بينهم فى (مرج راهط) وغيره؛ إذ دخل عليه أبو صخر الهذلى فى هذيل. وقد جاءوا ليقبضوا عطاءهم. وكان ابن الزبير عارفا بهواه فى بنى أمية، فمنعه عطاءه[1].

هذا قليل من كثير فيما يخص «الفتن والثورات»؛ فقد اكتفت الدراسة بالوقوف عند فتنة ابن الزبير، وهى أيضا لم تستقص هذا الجانب بقدر ما كان اهتمامها منصبًا على ما أحاط بهذه الفتنه من ظروف، وما خلّفته من آثار، عملت عملها فى تمزيق وحدة الأمة، وتقطيع ما بين أبنائها من رحم وقربى.

ولا شك أن هذا كله كان يزيد من قوة الإحساس بالظلم الواقع من الأمويين. فالعوامل تتنامى لتعمّق هذا الإحساس، وتجعل منه قوة ضاغطة أخرى مناهضة لسياسة بنى أمية. وقد عرفنا - من قبل - كيف أن عبد الله بن الزبير قد استغل هذا (استئثار بنى أمية بالفىء) فى خروجه على بنى أمية. وهذا يجعلنا نتحدث عن الظاهرة الثانية، وتتمثل فيما يسمى بـ «المظالم».

ب-مظالم بنى أمية:

إن من يتأمل هذه «المظالم» يلمس مدى صلتها «بالعصبية»؛ فقد عرفنا - من قبل

---

(١) انظر: الأغانى. جـ٢٤ ص١١١. على أن هذا المنع للعطاء كان يستثير من الاستنكار والسخط ممن حُرمه، والإصرار والعناد ممن فرضه، ما يبرز للدارس جانبًا من العواقب السيئة لتلك «الفتن والثورات». وفى تكملة الخبر السابق تفصيلات تشير إلى هذا؛ ففيه حوار حاد وعنيف بين أبى صخر وابن الزبير؛ إذ قال أبو صخر له: «علام تمنعنى حقًا لى، وأنا امرؤ مسلم، ما أحدثت فى الإسلام حدثًا، ولا أخرجت من طاعة يدا؟! قال: عليك ببنى أمية، فاطلب عندهم عطاءك»، فأجابه أبو صخر بكلام طويل بليغ، فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه، وعرق جبينه، واهتز جسمه، وامتقع لونه، وأقسم أنه لولا الحرمات الثلاث: حرمة الإسلام، وحرمة الحرم، وحرمة الشهر الحرام، لقتله؛ ثم أمر به إلى سجن (عارم). ثم تحاول هذيل ومن له بين قريش خؤولة فى هذيل أن تستوهبه، فيطلقه ابن الزبير بعد سنة، مقسما ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبدا. انظر: السابق ص١١٢.

- كيف أن هذه «العصبية» كانت وراء تحوُّل «الخلافة» إلى «مُلْك» يرثه الخلف عن السلف[1]. وهذا ما دفعهم - بالطبع - إلى العمل على التمكين لدولتهم بكل ما أوتوا من أسباب القوة والمنعة، ولا شك أن المال والثروة فى مقدمة هذه الأسباب.

ويتبدّى الحرص على هذا الجانب مما نقرؤه من سير خلفاء بنى أمية وأمرائهم وولاتهم، لا نستثنى من ذلك إلا الخليفة عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -.

وعمر بن عبد العزيز نفسه هو الذى سمّى تلك الأعمال «المظالم»؛ إذ يُروى أنه لمّا ولى الخلافة «بدأ بلُحمته[2] وأهل بيته، فأخذ ما كان فى أيديهم، وسمَّى أعمالهم (المظالم)؛ ففزعت بنو أمية إلى فاطمة بنت مرْوان عمته. فأرسلت إليه بأنها قد عناها أمر تحتاج إلى لقائه فيه، وذهبت إليه ليلا، فلما أخذت مجلسها، وطلب منها الكلام لأن الحاجة لها، قالت: تكلم يا أمير المؤمنين، فقال: «إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ رحمة، ولم يبعثه عذابًا، إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده فقبضه إليه، وترك لهم نهْرًا شرْبُهم فيه سواء؛ ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله؛ ثم ولى عمر فعمل عمل صاحبه. فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرًا؛ ثم ولى معاوية فشق منه الأنهار - ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان، حتى أفضى الأمر إلىّ، وقد يبس النهر الأعظم، ولن يُروَى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه. قالت له: قد أردتُ كلامك ومذاكرتك، فأما إذا كانت هذه مقالتك فلستُ بذاكرة لك شيئا أبدا؛ ورجعت إليهم فأبلغتهم كلامه»[3].

إن المتأمل للنص السابق ليدرك مدى ما آلت إليه الأمور - فيما يتصل بهذا الجانب، منذ تولّى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - الخلافة إلى عهد عمر بن عبد العزيز. والواقع أن عدْل عمر بن عبد العزيز لم يقتصر على رد «المظالم»، بل تمثل فى كل ما يصدر عنه من أقوال أو أفعال[4].

---

(١) فى مروج الذهب للمسعودى أن أبا سفيان صخر بن حرب دخل دار عثمان - عقب بيعته - ومعه بنو أمية، فقال أبو سفيان - وكان قد عمى - أفيكم أحد من غيركم ؟ قالوا: لا، قال: «يا بنى أمية؛ تلقّفوها تلقُّفَ الكرة، فو الذى يحلف به أبو سفيان ما زلتُ أرجوها لكم، ولتصيرَنَّ إلى صِبيانكم وراثة»، فانتهره عثمان وساءه ما قال. انظر: جـ٢ ص٣٧٩.

(٢) اللحمة: القرابة.

(٣) الأغانى: جـ٩ ص٢٥٥-٢٥٦.

(٤) انظر حول ذلك: جـ٩، ص٢٦٤-٢٦٥، جـ١٩ ص٢٠٩-٢١٠.

وهناك شواهد وأمارات دالة على صدق ما قاله عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولعل سياسة عثمان ابن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فى إيثاره تولية أقاربه كانت بداية الطريق لما آلت إليه الأمور بعد ذلك.

ومن ذلك: عزله سعد بن أبى وقاص عن (الكوفة) وتولية الوليد بن عقبة - أخيه لأمه - على الرغم مما كان الناس يلغطون فيه بشأن الوليد. ومما له دلالة فى هذا، ما يروى من أنه «لما قدم الوليد على سعد، قال له سعد: ما أدرى أَكِسْتَ[1] بعدنا أم حَمُقنا بعدك ؟ فقال: لا تَجْزَعَنَّ أبا إسحاق، فإنما هو المُلك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون، فقال له سعد: أراكم والله ستجعلونه مُلكًا»[2] !.

ولما نزع عثمان بن عفان الوليد بن عقبة عن الكوفة، أَمَّر عليها سعيد بن العاص[3] بن سعيد بن العاص بن أمية. وبعد عثمان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - استعمل معاوية بن أبى سفيان سعيد ابن عثمان بن عفان على خراسان[4].

هذه بعض الأمثلة فحسب، لم نقصد منها الطعن، أو إثارة جدل حولها، فقد كانت لعثمان وجهته بكل تأكيد، ولكننا أردنا أن نربط كلام عمر بن عبد العزيز - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالواقع الماثل آنذاك.

بل إن معاوية نفسه - وهو خليفة - ألزم بنى مخزوم دية ابن أُثال - حين قتله خالد ابن المهاجر بن خالد بن الوليد؛ انتقامًا منه لقتله عمه عبد الرحمن بن خالد بن الوليد - اثنى عشر ألف درهم، أدخل بيت المال منها ستة آلاف، وأخذ ستة آلاف. ولم يزل ذلك يجرى فى دية المعاهد، حتى ولى عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذى يأخذه السلطان لنفسه، وأثبت الذى يدخل بيت المال[5].

والأخبار الواردة إلينا تبرز لنا أن هذه «المظالم» لم تكن مقصورة على الخلفاء الأمويين،

---

(١) أكست بعدنا: أى أصبحت أكثر ظرفًا وفطنة. والكياسة: تمكين النفس من استنباط ما هو أنفع.

(٢) الأغانى: جـ٥ ص١٢٤.

(٣) انظر: الأغانى. جـ٥ ص١٤٥.

(٤) انظر: الأغانى. جـ٢٢ ص٢٨٦.

(٥) انظر: الأغانى. جـ١٦ ص١٩٨.

بل امتدت لتشمل ولاتهم. فإبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى - خال هشام بن عبد الملك - وَلِى المدينة ومكة والطائف، واشتهر بشدته. وكثرت شكوى آل الزبير وغيرهم منه. ونجد عبد الله بن عروة بن الزبير[1] يقول لهشام بن عبد الملك عام قدم المدينة متظلماً من إبراهيم بن هشام هذا: «أخذ إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون إلى منابت القَرَظ[2]، فلم يُغْنِه كُثْرُ ما بيديه عن قليل ما فى أيدينا ! وإنا والله ما طبْنا أنفُسًا عن فراق الأحبة إلا بما تُرِك لنا من معايشنا؛ وقد أعطيتمونا عهدكم، وأعطيناكم طاعتنا، فإما وفَيتم لنا بما أعطيتمونا، وإما رددتُم علينا بيعتنا ! وإنى أعيذُك بالله أن تصل رحِمَنا بقطيعة أخرى»[3].

ويكشف لنا كتاب «الأغانى» نهاية إبراهيم بن هشام بن إسماعيل، هو وأخوه؛ حيث يذكر - أولًا - أنه كان قد أمعن فى عتوّه وظلمه؛ ثم يذكر ثانيًا أنه بعد موت هشام ابن عبد الملك، وتولِّى الوليد بن يزيد الحكْم، «أمر الوليد بأخذ ابنى هشام بن إسماعيل المخزومى، فأخذا بعد أن عاذ إبراهيم بن هشام بقبر يزيد بن عبد الملك، فقال الوليد: ما أُراه إلا قد نجا؛ فقال له يحيى بن عُروة بن الزبير وأخوه عبد الله: إن الله لم يجعل قبر أبيك معاذًا للظالمين، فخذه بردّ ما فى يده من مال الله، فقال: صدقتَ وأخذهما فبعث بهما إلى يوسف بن عمر، وكتب إليه أن يبسُط عليهما العذاب حتى يتْلَفا، ففعل ذلك بهما وماتا جميعًا فى العذاب، حتى بعد أن أقيم إبراهيم بن هشام للناس، حتى اقتضَوْا منه المظالم»[4].

---

(١) عبد الله بن عروة بن الزبير: من رجال آل الزبير؛ يشبَّه بعبد الله بن الزبير فى لسانه وجلَده. وقد زوّجه عبد الله بن الزبير ابنته أم حكيم، وكانت أحبَّ ولده إليه. ومما يروى عنه أنه فى «سُنيّات» خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكَم بن أبى العاص - وكان خالد واليًا لهشام بن عبد الملك على المدينة سبع سنين - قحط المطر فى تلك السبع، وكان يقال لها: «سُنَيّات خالد»؛ فجلا الناسُ من بادية الحجاز، فلحقوا بالشأم. فكان عبد الله بن عروة فى أمواله بالفُرْع: يُدخل الناس فى مِرْبد تَمره طرفى النهار: غدوةً فيتغدَّون، وعشيّة فيتعشَّوْن، فما زال كذلك حتى أحيا الناس. انظر: «كتاب نسب قريش» لأبى عبد الله المصعب بن عبد الله ابن المصعب الزبيرى. نشر وتصحيح وتعليق: ليفى بروفنسال. دار المعارف. الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٢ ص٢٤٦.

(٢) منابت القرظ باليمن: والقرظ: شجر يُدبغ به وقيل: هو ورق السّلم يُدبغ به الأدم (لسان العرب).

(٣) أبو عبد الله المصعب الزبيرى: السابق ص٢٤٦.

(٤) الأغانى: جـ٧ ص١٦.

ويبدو أن هذه «المظالم» أصبحت سُنة متّبعة، وطريقة لا يحيد عنها أحدٌ من الولاة، اللهم إلا فى القليل النادر. ويورد أبو الفرج مثالا يتسم بالطرافة؛ إذ إنه «لمّا ولِى عبد الرحمن بن أم الحكم الكوفة، مدحه عبد الله بن الزبير الأسدى، فلم يُثِبْه، وكان قَدِم فى هيئة رثّة، فلما اكتسب وأثرى بالكوفة تاه وتجبَّر، فقال ابن الزبير فيه:

تبقَّلْتَ لما أن أتيتَ بلادكُم ... وفى مصرنا أنت الهُمام القلمَّسُ[1]

ألسْت ببغْل أمُّه عربية ... أبوك حمارٌ أدبرُ الظهر يُنخَسُ

قال [الراوى]: وكان بنو أمية إذا رأَوْا عبد الرحمن يلقبونه (البغل)، وغلبت عليه حتى كان يشتم من ذكر بغلا، يظنه يعِّرض به»[2].

هذا؛ وربما قاومت بعض القبائل هذا النوع من «المظالم» الذى يحرمهم من عطائهم؛ وبخاصة إذا هُيئ لهم من يلوذون به، ممن عُرفوا بالقوة والمنعة؛ فقد فزِعت تميم والأزد وربيعة إلى مالك بن مِسْمَع، وكانت ربيعة مجتمعة عليه، كاجتماعها على كليب فى حياته، واستغاثوا به، حين حمل زياد إلى معاوية مالًا من البصرة، وقالوا: يحمل المال، ونبقى بلا عطاء ؟!. فركب مالك فى ربيعة، واجتمع الناس إليه، فلحق بالمال فردّه، وضرب فسطاطا بالمربَد، وأنفق المال فى الناس حتى وفّاهم عطاءهم، وما راجعه زياد فى ذلك. فلما ولى حمزة بن عبد الله بن الزبير البصرة، جمع مالا إلى أبيه، فاجتمع الناس إلى مالك، واستغاثوا به، ففعل مِثْلَ فعله بزياد[3].

ومن القليل النادر ما يروى عن قاضى سليمان بن عبد الملك (محمد بن حزم)، حين فرض سليمان للناس فى خلافته، وعُرض الفرض؛ فقد كان هذا القاضى محسنًا؛ إلى حدِّ أنه كان يأمر الغِلمان أن يتطاولوا على خفافهم ليرفعهم بذلك[4].

وكذلك ما يروى من أن عَراك بن مالك الغفارى (التابعى) كان من أشد أصحاب

---

(١) القلمس: البحر، والرجل الخير المعطاء والسيد العظيم، والرجل الداهية البعيد الغور. تبقل: خرج يطلب البقل.

(٢) الأغانى: جـ١٤ ص٢٤٩.

(٣) انظر: الأغانى جـ٢٢ ص٣٣٩-٣٤٠.

(٤) انظر: الأغانى. ص١٥ ص٤.

عمر بن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء والمظالم من أيديهم. ولكنّ الحال ما لبثت أن تبدّلت فى عهد يزيد بن عبد الملك؛ فقد ولّى يزيد عبد الواحد ابن عبد الله النصرى المدينة، فقَرَّب عراكَ بن مالك، وقال: صاحبُ الرجل الصالح، وكان لا يقطع أمرًا دونه، وإذا بكتاب يزيد بن عبد الملك له، بأن يبعث مع (عراك بن مالك) حَرَسيًّا، حتى ينزله أرض دَهْلك، ويأخذ من (عَراك) حمولته. فطلب والى المدينة من حرسىٍّ بين يديه أن يتباع من مال عَراك راحلة ويتوجّه به إلى (دَهْلك). ويقال: إن أهل دَهْلك يأْثُرون الفقه عن عَراك بن مالك[1].

جـ-الهجاء وفن «النقائض»

حارب الإسلام بعض ألوان من الشعر، كانت سائدة فى العصر الجاهلى، منها الهجاء المقذع، الذى ينال الأعراض والحرمات، ويستثير نوازع الشرِّ فى الإنسان؛ اللهم إلا ما كان موجَّهًا منه إلى المشركين.

ولكن هذا اللون من «الهجاء» قد عاد - وربما بصورة أقسى وأشدّ - فى هذه الفترة: فى العصر الأموى. ويخيَّل لمن يقرأ كتاب «الأغانى» أنه أضحى من أقوى الظواهر المتغلغلة فى كل جوانب الحياة العربية: سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية. ويبدو أنه لا يزال هناك فى النفس العربية ميراث أصيل من الحياة العربية الجاهلية[2]، كامن فى أعماقها، لا يحتاج إلا إلى مجرد الاستثارة.

وهناك - بالطبع - أسباب مباشرة، قد تطفو على السطح، ولكنها ترتدّ - عند التأمل - إلى تلك الجذور العميقة البعيدة «للعصبية»، وبخاصة القبلية منها.

من ذلك: «الغيرة على النساء»، والغضب من أجل «الجوار»، وما إلى ذلك من تنازع على ماء أو غيره. ومن شواهده ما كان بين «شبيب بن البرْصاء» و«عقيل بن عُلَّفة». يقول

---

(١) انظر: الأغانى جـ٤ ص٢٥٥.

(٢) يقول الأستاذ أحمد الشايب: «... ولكن العصبية كانت فى دم العرب ونفوسهم أصيلة معمَّرة، لا يسهل استئصالها، فبقيت حيَّة وإن توارت أحيانًا تحت حزم الرسول، وصرامة عمر، وكشفت عن وجهها إثر مقتل عثمان». تاريخ النقائض فى الشعر العربى. مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦م ص١٧١.

أبو الفرج عنهما: «وشبيب شاعر فصيح إسلامى، من شعراء الدولة الأموية، بدوى، ولم يحضر إلا وافدًا أو منتجعًا. وكان يهاجى عقيلَ بن عُلَّفة ويعاديه؛ لشراسة كانت فى عقيل، وشر عظيم. وكلاهما كان شريفا سيِّدا فى قومه، فى بيت شرفهم وسؤددهم»[1].

ثم يذكر أن الذى هاج الشرَّ بينهما، أنه كان لبنى نُشْبَة (رهط شبيب) جارٌ من بنى سلامان بن سعد، فبلغ عقيلا أنه يطوف فى بنى مُرَّة، ويتحدث إلى النساء، فامتلأ عليه غيظا. وبيْنا هو يومًا جالس وعنده غلمان له، إذ طلع عليه السلامانى على راحلته، فوثب عليه هو وغلمانه، فضربوه ضربًا مبرِّحا، وعقر راحلته، وانصرف من عنده بشرٍّ، فلم يعُد إلى ذلك الموضع، ولج الهجاء بينهما. ثم يقول: «وكان عقيل شرسًا، سيئ الخلق، غيورًا»[2].

ويبدو أن شبيبا هذا قد نال هجاؤه أعراض كثير من الناس إلى درجة أن رهط أرطاة ابن سُهيَّة استعْدوا عليه عثمان بن حيَّان المُرِّى، وقالوا له: يعمُّنا بالهجاء، ويشتم أعراضنا، فأمر بإشخاصه إليه، فأُشخص، ودخل إلى عثمان، وقد أُتى بثلاثة نفر لصوص، قد أفسدوا فى الأرض. وبعد أن أقام عليهم حدّ الحرابة، أقبل على شبيب فقال: كم تسبُّ أعراض قومك، وتستطيل عليهم؛ أقسم قسمًا حقًا، لئن عاودت هجاءهم لأقطعن لسانك[3].

وطبيعى أن يجلب الهجاء شرًا؛ أو يجلب الشر الهجاء. وكثيرا ما كان يؤدى هذا أو ذاك إلى الحرب والقتال. والشواهد أكثر من أن تحصى. منها: تلك الحرب التى نشبت بين بنى جوْشن وبنى سهم بن مُرَّة (رهط عقيل بن عُلَّفة المرى) – وهو من بنى غيظ بن مُرَّة بن سهم بن مُرة – فاقتتلوا فى أمر يهودىّ خمَّار كان جارًا لهم، فقتلته بنو جوشن من غطفان، وكانوا متقاربى المنازل، وكان عقيل بالشأم غائبًا عنهم، فكتب إلى بنى سهم يحرّضهم بأبيات من الشعر، فلما وردت الأبيات عليهم تكفَّل بالحرب الحُصَين بن الحُمام المرِّى، أحد بنى سهم، فأبلى فى تلك الحروب بلاء شديدًا[4].

---

(١) الأغانى: جـ١٢ ص٢٧١.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٢ ص٢٨١.

(٣) انظر: السابق ص٢٧٧-٢٧٨.

(٤) انظر السابق: ص٢٦٦.

هذه الرغبة المتأججة فى الهجاء، امتزجت فى كثير من الأحيان بالمفاخرة والمنافرة[1] بالأيام والأحساب والأنساب؛ وكثيرًا ما كانت تدفع هذا الشاعر أو ذاك إلى الزّج بالأحداث فى اتجاه بعينه.

فبالإضافة إلى ما كان يثيره هذا كله من حزازات وثارات فى النفوس - كان بعض الشعراء يتخذونه أداة للتحريض على القتال، أو توجيه الأمور وجهة تتفق وما يراه أولو الأمر وأصحاب السلطان.

من ذلك ما يرويه أبو الفرج من أنه «لما ظفر ابن الزبير بالعراق، وأخرج منها عمّال بنى أمية، خرج ابن عبْدل[2] معهم إلى الشأم، وكان ممن يدخل إلى عبد الملك، ويسْمُر عنده، فقال لعبد الملك ليلة:

ياليت شعرى، وليتٌ ربما نفعتْ ... هل أُبصرَنَّ بنى العوام قد شُملُوا
بالذُّل والأَسْر والتشريد، إنهمُ ... على البريَّة حتْفٌ حيثما نزلُوا
أم هل أَراك بأكناف العراق وقدْ ... ذلَّت لعزِّك أقوامٌ وقد نَكَلوا

فقال عبد الملك - ويُروى أنه قائل هذا الشعر:

إن يُمكن الله من قيس ومن جَدَس ... ومن جُذامٍ، ويُقتَلْ صاحبُ الحَرَم
نضربْ جماجمَ أقوامٍ على حَنَق ... ضرْبا ينكّل عنا سائرَ الأُمم[3]

والأبيات تفصح عن الدور الذى كان يقوم به الشعر آنذاك - فى مثل هذه المواقف - من حفْز وتحريض وتهييج من قبل الشاعر، ومن تأصُّل لروح الثأر والانتقام والعصبية من قبل عبد الملك ابن مروان نفسه !.

---

(١) ترتبط المنافرة بالمفاخرة بسبب وثيق؛ وإن كانت المنافرة تستلزم المحاكمة والمقاضاة؛ فهى من «النفْر» وهو التفرق. ونافرتُ الرجل منافرة: إذا قاضيته. والمنافرة: المفاخرة والمحاكمة؛ أو المحاكمة فى الحسب. قال أبو عبيد: المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه، ثم يحكما بينهما رجلا؛ كفعل علقمة بن عُلاثة مع عامر بن الطفيل، حين تنافرا إلى هرِم بن قطبة الفزارى. فهى تمتاز من المفاخرة - إذن - بلزوم التحكيم فيها.

انظر: لسان العرب مادة (نفر) و: أحمد الشايب. السابق ص٧-٨. علماً بأنها ترد كثيرًا فى «الأغانى» بمعنى المفاخرة فحسب.

(٢) هو الحكم بن عبدْل بن جبلة بن عمرو بن ثعلبة... ابن أسد بن خزيمة. شاعر مجيد من شعراء الدولة الأموية، هجَّاء، خبيث اللسان. انظر: الأغانى جـ٢ ص٤٠٤.

(٣) الأغانى: السابق ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

ومن ذلك أيضا ما يُرْوَى من أن أعشى بنى ربيعة دخل على عبدالملك بن مروان، وهو يتردد فى الخروج لمحاربة ابن الزبير، ولا يجدّ، فاستحثه على الإقدام وعدم الإحجام؛ لأن عوامل النصر تؤازره، فجدّه مُقبل، وجدُّ ابن الزبير مُدبر، وهم له محبون، وأصحاب ابن الزبير له ماقتون. ثم ذكر له أبياتًا قالها فى ذلك، وهى:

آلُ الزبير من الخلافة كالتى ... عجِل النِّتاج بحمْلها فأحالها
أو كالضِّعاف من الحَمولة حُمِّلتْ ... ما لا تُطيق فضيَّعت أحمالَها
قوموا إليهم، لا تناموا عنهمُ ... كم للغُواة أطلتمو إمهالَها
إن الخلافة فيكمُ لا فيهمُ ... مازلتمُ أركانَها وثِمالَها[1]
أمسَوْا على الخيرات قُفْلا مغلقا ... فانهض بيُمنك فافتتح أقفالَها

فضحك عبد الملك، وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خُبيب لقُفل دون كل خيْر، ولا نتأخر عن مناجزته إن شاء الله، وأمر له بصلة[2].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعدّاه إلى من يتولّى مقاليد الأمور فى الدولة الإسلامية؛ إذ يُروى أنه لّما همَّ عبد الملك بن مروان بخلع عبد العزيز أخيه، وتولية ابنه (الوليد) العهد، كان نابغة بنى شيبان منقطعًا إلى عبد الملك مدَّاحًا له، فدخل إليه يومًا، والناس حواليه، وولده قُدّامه، وأنشده أبياتًا فى مديحه، ومنها:

أزجُت عنا آل الزبير ولو ... كانوا هم المالكين ماصَلَحوا

إلى أن يقول:

لابْنكَ أوْلى بمُلْك والده ... ونجْمُ من قد عصاك مطَّرحُ

فتبسم عبد الملك، ولم يتكلم فى ذلك بما ينبئ عن رفض، فعلم الناس أن رأيه خلْعُ عبد العزيز وبلغ ذلك من قول النابغة عبد العزيز، فتوعّده، وأقسم بالله لئن ظفر به ليخضبنّ قدمه[3].

ويبدو أن التفاخر بالقوة والغلبة والنيْل من الخَصْم غَدتْ من أبرز ما يحرص العربى

---

(١) ثمالها: غياثها.
(٢) انظر: الأغانى، جـ١٨ ص١٣٣-١٣٤.
(٣) انظر: الأغانى، جـ٧ ص١٠٦-١٠٨.

على إظهاره، والتذكير به، كلما دعا الداعى إلى ذلك، وما أكثر الدواعى، وبخاصة إذا كان الشاعر ذا طبيعةٍ هجّاءة كالحكم بن عبْدل[1]؛ فقد دخل على ابن هُبيْرة، فقال له: أنشدنى شيئًا، فقال: أنشدك مقولة أيها الأمير ؟ قال: هاتِ، فأنشده الأبيات التالية [2]، وهى قديمة، وقد تمثَّل بها ابن الأشعث حين خرج:

نَجمُّ ولا نُعطَى، وتُعطَى جيوشُهم ... وقد ملأوا من مالنا ذا الأكارع[3]

وقد كلَّفونا عُدَّةً وروائعًا ... فقدْ وأبِى رغْناكمُ بالروائع

ونحن جلبنا الخيلَ من ألف فرْسخ ... إليكم بُمُحمرٍّ من الموت ناقع[4]

فغضب ابنُ هبيرة من تعريضه به، وأقسم أنه لولا أنه أمَّنه واستنشده لضرب عنقه[5].

ولا شك أن هذه الروح التى تؤرث العصبية، وتستثير الأحقاد، تنتقل من جيل إلى جيل، ويتوارثها الخلف عن السلف؛ فقد خرج يزيد بن عمر بن هُبيْرة يسير بالكوفة، فانتهى إلى مسجد بنى غاضرة، وأقيمت الصلاة، فنزل يصلى، واجتمع الناس لمكانه فى الطريق، وأشرف النساء من السطوح؛ فلما قضى صلاته، سأل عن المسجد، فقيل لبنى غاضرة، فتمثل قول الشاعر:

ما إن تركْن من الغواضر مُعْصِرًا ... إلا فصَمْنَ بساقها خلخالا

فقالت له امرأة من المشرفات:

ولقد عطفْن على فَزارة عطفةً ... كرَّ المَنيح، وجُلْن ثَمّ مجالا[6]

---

(١) سبق التعريف به هامش (١) ص ٢١٣ من البحث.

(٢) يذكر أبو الفرج أن هناك من ينسب الأبيات لأعشى همْدان.

(٣) الكراع من الإنسان: مادون الركبة من مقدم الساق. الجمع كُرُع وأكارع. والكراع أيضا: اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير.

(٤) ناقع: موت ناقع: أى دائم.

(٥) انظر: الأغانى. جـ٢ ص٤٢٢. هذا؛ ومن الملاحظ أن ابن عبدل، وابن هبيرة كانا من رجال الدولة الأموية، ومع ذلك فمن يتأمل الأخبار التى تدور حولهما هجاءً وتعريضًا يجد أن ابن عبدل كان ينتسب إلى قبيلة بنى غاضرة، وأن ابن هبيرة كان ينتسب إلى قبيلة بنى فزارة، ومن ثم فلعل العصبية القبلية كانت وراء ذلك كله.

(٦) المنيح: اسم فرس قيس بن مسعود الشيبانى.

فسأل يزيد: من هذه ؟ فقالوا: بنتُ الحكَم بن عبْدل، فقال: هل تلد الحيَّة إلا حيَّة ! وقام خجلا[1].

ونتوقف وقفة قصيرة عند شاعر كالكميت بن زيد؛ إذ تتجلى فيه جوانب كثيرة مما نتحدث عنه خاصًا «بالعصبية»؛ فهو مثال «لاتساع العصبية»، ومدى ارتباطها «بالهجاء»، ودور «الهجاء» فى إثارة الفتن، وتهييج الأحقاد.

فالكميت والطِّرمّاح[2] قد اتسعت نفس كل منهما لنوازع العصبية كلها؛ إذ «كان الكميت بن زيد صديقا للطِّرماح، لا يكادان يفترقان فى حال من أحوالهما، فقيل للكميت: لا شىء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطِّرمّاح على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلد: هو شآمى قحطانى شارىٌّ، وأَنت كوفى نزارى شيعىّ، فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال: اتفقنا على بغض العامة»[3].

هذا الاتساع - الذى يجمع بين العصبية القبلية والمذهبية والإقليمية - مكَّن له علمه بلغات العرب، وخبرته بمثالبها وأيامها ومفاخرته بها[4] ومن ثم كان هجاؤه أنكى وأقذع.

ولقد استمرت عصبيته للعدنانية، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة، كما استمرت المناقضة بينه وبينهم شائعة فى حياته وبعد مماته[5].

والأخبار تتعدد فى هجائه لليمن، وتتنوع أسباب هذا الهجاء؛ فمن ذلك: ما يُروى من أن قصيدة الكميت التى يهجو فيها اليمن، ومطلعها:

ألا حُييت عنا يا مدينا وهل بأسٌ بقول مسلِّمينا

---

(١) انظر الأغانى. جـ٢ ص٤٢١.

(٢) نشير - هنا - إلى أن الطِرماح من فحول الشعراء الإسلاميين؛ نشأ بالشام، وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهَل الشام، واعتقد مذهب الشُراة الأزارقة (طائفة من الخوارج، أصحاب نافع بن الأزرق) انظر: الأغانى: جـ١٢ ص٣٥.

(٣) الأغانى: جـ١٢ ص٣٦. وانظر أيضا: السابق جـ١٧ ص٢.

(٤) انظر: السابق ص١.

(٥) انظر: السابق نفسه.

قد بلغت خالد بن عبد الله القسْرى (عامل هشام بن عبد الملك على العراق)، فأحفظته عليه، فروَّى جارية حسناء قصائده الهاشميات، وأعدّها ليُهديها إلى هشام بن عبد الملك (الخليفة الأموى)، وكتب إليه بأخبار الكميت، وهجائه بنى أمية. وكان مما أنفذه إليه قصيدته التى يقول فيها:

فياربِّ هل إلا بك النصرُ يُبتغَى ويارَبِّ هلْ إلا عليكَ المعوَّل !

وهى طويلة يرثى فيها بعضًا من آل البيت، ويمدح بنى هاشم، فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه، واستنكرها، وكتب إلى خالد، يُقسم عليه أن يقطع لسانه ويده[1].

وهناك رواية أخرى تذكر أن حكيم بن عيَّاش الأعور الكلبى كان ولعًا بهجاء مُضر، فكانت شعراء مضر تجيبه وتهجوه، وكانت تطلب من الكميت أن يجيبه، فيعتذر بأن خالد بن عبد الله القَسْرى مُحْسن إليه، فلا يقْدر أن يرد عليه، فأسمعوه ما يقوله (الكلبى) فى بنات عمه وخاله من الهجاء، فحمى الكميت لعشيرته، وقال قصيدته (المُذْهَبة):

ألا حُييت عنا يا مدينا

وحين بلغ ذلك خالدًا، قال: فعلها ! والله لأقتلنه. ويقال: إنه اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن، وتخيّرهن نهاية فى الحسن والكمال والأدب، وروّاهن شعر الكميت فى بنى هاشم (الهاشميات)، وأرسلهن مع نخّاس إلى هشام بن عبد الملك. وحين استنشدهن شعرًا، أنشدْنه قصائد الكميت، فكتب إلى خالد: ابعث إلىّ برأس الكميت[2].

علـى أن هـناك رواية ثالثة تذهب إلى أن هشام بن عبد الملك كان قد اتَّهم خالد بن عبد الله القسْرى. وحدث أن وُجد بباب هشام رقعة فيها شعر، يحذره فيها صاحبه من خالد القسرى وتفاقم خطره، فدخل بها على هشام، فقرئت عليه، فعرضها هشام على من بحضرته من الرواة، وقرئت عليهم، فأجمعوا على أنه كلام الكميت بن زيد. وكتب إلى خالد بخبره، وبعث إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط، فكتب إلى واليه بالكوفة

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٧ ص٣-٤.هذا؛ ويذكر الخبر بعد ذلك أنه قد قبض عليه وحبس، وقد استطاع أن يهرب بمساعدة أبان بن عبد الحميد [عامل الأمويين على واسط، وكان صديقًا للكميت]. انظر تكملة الخبر: السابق ص٤-٥.

(٢) انظر: السابق ص٩-١٠.

يأمره بحبس الكميت. ثم طلب من أصحابه أن يأتوه بشيء من شعر الكميت الذى يمدح فيه بنى هاشم، ويهجو بنى أمية، فأُتى بقصيدته اللامية، ومطلعها:

ألا هل عمٍ فى رأيه متأملُ وهل مُدْبر بعد الإساءة مقبلُ

فأرسلها فى كتاب إلى هشام، وفيه يقول: «هذا شعر الكميت؛ فإن كان صدق فى هذا، فقد صدق فى ذاك» ! فلما قرئت على هشام اشتد غيظه، وكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدى الكميت ورجليه، ويضرب عنقه، ويهدم داره، ويصلبه على ترابها[1].

وأخيرًا؛ هناك رواية تتفق مع الأولى فى أن السبب فى هجاء الكميت لليمن كان هجاء حكيم بن عيّاش الكلبى، ولكنها تذكر أنه كان يهجو على بن أبى طالب - عليه السلام - وبنى هاشم جميعًا، وكان منقطعًا إلى بنى أمية، فانتدب له الكميت، فهجاه، وسبّه، واشتد الهجاء بينهما، وكان الكميت يخاف أن يفتضح أمره فى شعره عن علىّ وآل البيت، وكان يُظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان[2].

ويقال إن الكميت لم يترك حيًّا من أحياء العرب إلا هجاه[3] فى هذه القصيدة، إلا آل علقمة بن وائل الحضرمى وأم إسماعيل بن الصبّاح بن الأشعث بن قيس؛ فإنه قال فى آل علقمة:

---

(١) انظر: الأغانى: السابق ص١٥-١٧.

(٢) انظر السابق ص٣٦.

(٣) انظر السابق ص١٨ هذا؛ ومن البين أن هذه القصيدة صدرت عن نفس تتوزعها نوازع كثيرة - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ولعل أكثر ما استثار الكميت أن قصيدة الأعور الكلبى قد رمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبس. يُدعم ذلك ما تورده الروايات السابقة من أنه بعد أن حُبس الكميت استطاع - بتدبير منه ومن عامل واسط: أبان بن الوليد، وكان الكميت صديقه - أن يخرج من السجن، وأن تحل محله «حُبَّى» زوجته إذ ذهبت إليه مُنتقبة، وألبسته ثيابها وخرج، وحين ورد كتابُ خالد على والى الكوفة يأمره بأن ينفذ فيه ما كتب به إليه هشام، أرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فلم يجده، وكلمتهم المرأة من داخله، وخبَّرتهم أن الكميت قد خرج. فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حُرة كريمة آست ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبى بالشام، فقال قصيدته التى يرمى فيها امرأة الكميت بأهل الحبْس، ويقول:

فما وجدتْ بناتُ بنى نِزارٍ حلائل أسْودِينَ وأحمرينا

فهاج الكميت ذلك، حتى قال:

ألا حُييتِ عنـا يامدينـا

انظر: السابق ص ٤، ٥، ١٧، ١٨.

ولولا آلُ علقمة اجتدعْنا بقايا من أنوفِ مُصَلّمينا

وقال فى إسماعيل (فى قصيدة أخرى):

فإن لإسماعيلَ حقًّا، وإننا له شاعبو الصَّدْع المقارب للشّعْب

ومردّ ذلك - كما يقول أبو الفرج - أنه كان لآل علقمة عنده يدٌ؛ فقد آواه علقمة ليلة خرج إلى الشام؛ وأم إسماعيل من بنى أسد الذين ينتمى إليهم الكميت ! فكفّ عنهما لذلك[1].

ولعل النموذج التالى - من المهاجاة بين الكميت والكلبى يبين لنا إلى أى مدى كان الهجاء مقْذعًا، حافلًا بالمثالب والمعايب، راميًا المهجو بكل ما يناله فى نفسه وعرْضه وقومه. يقول الكلبى:

ما سرَّنى أن أُمّى من بنى أسدٍ وأن ربِّىَ نجَّانِى من النار
وأنهم زوجونى من بناتهمُ وأن لى كل يوم ألفَ دينار

فأجاب الكميت:

يا كلبُ، مالك أمٌ من بنى أسدٍ معروفة؛ فاحترقْ يا كلبُ بالنار
لكن أمَّك من قوم شُنئت بهم قد قنَّعوك قناع الخِزْى والعار

فقال له الكلبى:

لن يبرح اللؤمُ هذا الحىَّ من أسد حتى يفرِّق بين السبْت والأَحَدِ[2]

وإذا كان «الهجاء» قد غدا ظاهرة أصيلة فى الدولة الأموية، غذتْها العصبية، وأمدّتها بكل أسباب القوة، بل وتحوَّل إلى ما يعرف فى تاريخ الأدب العربى باسم «النقائض»[3]

---

(١) انظر: السابق ص٣٦-٣٧.

(٢) انظر: السابق، نفس الموضع.

(٣) يرجع تاريخ نشأة شعر «النقائض» إلى طفولة الشعر العربى فى البوادى والقفار؛ فلم تكد تستقيم أوزانه، ويستقر كفن له مقوّماته، حتى صار أداة لذلك التنافس الذى يتم عادة بين من أوتوا حظاً من موهبة الشعر وملكته؛ وإذا بنا نجد الآخر يلتزم موسيقى الشاعر الأول، ويردّ عليه معانيه بنفس الألحان والأوزان، فينقض عليه قوله، ويصبح نظيره وقصيدته تصبح نقيضة للأخرى، وكذلك كل قصيدة تجرى نفس المجرى؛ لذا رأينا هذا الفن ينشأ فى ظل الشعر الجاهلى طفلا يحبو، ثم تستقيم قدماه، ويشتد عوده، فينمو سريعًا، حتى نراه شابًا قويًا، ولا سيما فى ظلال السيوف وبين «الأيام». فلما جاء الإسلام، ظفر به فنًا كثير

- وفرسان هذا الفن - بلا شك - جرير والفرزدق والأخطل[1] - فإنه من أبرز الظواهر وأكثرها دلالة على طبيعة الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر؛ إذ تكْشف لنا - فيما تكشف - عن أن «البداوة» ظلت غالبة على المجتمع الأموى؛ فالشعر الأموى حافل بالفخر بالأنساب وأيام العرب، وبالكلام على الثأر، وغير ذلك من معان ارتبطت - فى المقام الأول - بحياة الصحراء، وما شكلّته فى وجدان الجماعة من قيم وأعراف.

لقد أبان هذا الجزء من البحث عن الدور الذى قامت به «العصبية» فى العصر الأموى، وكشف عن كثير من الجوانب المتصلة بالحياة الاجتماعية: من اشتعال «الفتن والثورات» فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى، وما نجم عنها وصحبها من قتال وتدمير وتنكيل، وما أدت إليه من تمزيق للأواصر، وتقطيع للأرحام، وحرمان من العطاء. وقد ذكرنا بعضًا من الشواهد لذلك فى سياقها.

ونضيف هنا نماذج أخرى؛ لنبرز إلى أى مدّى أظلّت «العصبية» بوجهها القبيح العالم الإسلامى آنذاك.

هذا أبو الأسود الدؤلى يتزوج من «بنى قشير» - وكانت بنو قشير عثمانية - فكانوا يؤذونه ويسبّونه، وينالون من علىّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بحضرته، ليغيظوه به، وكانوا يرمونه ليلا، فإذا أصبح قال لهم: أى جوار هذا يابنى قشير ! فيقولون له: لم نرمك، إنما رماك الله

الأبواب، فاستغله فى سبيل دولته. حتى إذا جاء الأمويون، أشعلوا ناره، وأججوها، بما أمدوها به من وقود العصبية وغيرها من الفتن والثورات. انظر: أحمد الشايب. تاريخ النقائض فى الشعر العربى، ص٢. هذا؛ و«النقائض»: جمع نقيضة، وهى - فى الأصل - مأخوذة من نَقَض البناء إذا هَدَمه، والحبل إذا حله؛ وضده: الإبرام. والمناقضة فى القول: أن يتكلم بما يتناقض معناه. وكذلك المناقضة فى الشعر: ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول. ولذلك قالوا: نقائض جرير والفرزدق. انظر: (لسان العرب. مادة نقض) ٠ «أما الصورة الاصطلاحية، التى انتهى إليها هذا الفن منذ الجاهلية، فالأصل فيها: أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجيًا أو مفتخرًا، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجيا أو مفتخرًا، ملتزمًا البحر والقافية والروىّ الذى اختاره الأول. ومعنى هذا أنه لابد من وحدة الموضوع فخرًا أو هجاء أو سياسة... إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة، ومادة النقائض. ولابد من وحدة البحر؛ فهو الشكل الموسيقى الذى يجمع بين النقيضتين... ولابد من وحدة الروى؛ فذلك هو النهاية الموسيقية المتكررة. ٠٠ أما المعانى فالأصل العام فيها المقابلة والاختلاف؛ لأن الشاعر الثانى همه أن يفسد على الأول معانيه فيردها عليه». السابق. ص٣ (بتصرف).

(١) انظر: فى جرير جـ٨ ص٦١، ٦٢ - ٧٢-٧٣. وانظر: فى الأخطل جـ٨ ص٣١٦. وانظر: فى الفرزدق: جـ٢١ ص٣٢٨-٣٣٠.

بسوء مذهبك، وقبح دينك. فقال فى ذلك:

يقول الأرذلون بنو قُشير طَوال الدهر لا تنسى عليّا!
فقلت لهم: وكيف يكون ترْكى من الأعمال مفروضا عليًّا
أحب محمدا حبًّا شديدا وعبَّاسا وحمزةَ والوصيًّا[1]

وهذا يزيد بن معاوية الخليفة الأموى يتعجّب حين قُتل يعقوب بن طلحة يوم (الحرَّة)، وكان يعقوب ابن خالته، فقال يزيد: ياعجبا؛ قاتلنى كلُّ أحد حتى ابن خالتى[2]!.

و«الهجاء» نفسه كان من أشد أنواع الأسلحة قتْلا وتدميرًا، وبخاصة ما يتركه من أثر فى الجانب النفسىّ والشعورى. ويبدو أن حُميًّا الخصومة بين الطرفين كانت تدفع الشاعر إلى النيل من خصمه بكل سبيل، وإلى هتك الأعراض، وانتهاك الحرمات؛ وقد رأينا ما كان بين الكميت والأعور الكلبى[3]. على أن بعض الشعراء كان ما يلبث أن يعود إلى نفسه، مستهولا عِظَم ما كان قد صدر عنه من شعر يندرج تحت هذا اللون. يروى المسْتهلُّ بن الكميت أنه قال: «حضرتُ أبى عند الموت، وهو يجودُ بنفسه، ثم أفاق ففتح عينيه، ثم قال: اللهم آل محمد، اللهم آل محمد، اللهم آل محمد، ثلاثا. ثم قال لى: يابنى؛ وددْتُ أنى لم أكنْ هجوْتُ نساء بنى كلب بهذا البيت:

مع العُضْروط والعُسَفَاءِ ألْقَوا برادعَهُنَّ غير محصَّنينا

فَعَمَمْتُهُنَّ قذفًا بالفجور؛ والله ما خرجتُ بليل قطُّ إلا خشيت أن أُرمى بنجوم السماء لذلك»[4].

ولا يستطيع أى دارس أن يُغفل الدور الذى قامت به «العصبية» المرتبطة بالعِرْق،

---

(١) انظر: الأغانى، ج ١٢ ص ٣٢١، وانظر باقى الأبيات. الموضع نفسه: الوصى: الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ.
(٢) انظر: الأغانى جـ١٤ ص٢٤٠.
(٣) انظر: ص ٢٦٥ من هذا البحث.
(٤) الأغانى: جـ١٧ ص٤٠ والعضروط: الخادم على طعام بطنه. والعسيف: الأجير أو العبد المستعان به. وجمعه: عسفاء.

أى التى كانت بين العرب والموالى؛ فقد تظاهرت- هى أيضا - مع غيرها من ألوان العصبيات، لتزعزع استقرار الدولة العربية الإسلامية، وتهدد كيانها فى نهاية الأمر.

نعم؛ «تأثر الموالى بالعصبية العربية؛ فكان موالى كل قبيلة ينتسبون إليها، ويحاربون معها، ويستخدمون فى شئونها»[1]؛ ومع ذلك تذكر كثير من الدراسات التاريخية أنه كان هناك إحساس بالظلم لدى هؤلاء الموالى، ساعد عليه هذا اللقب (الموالى) نفسه، والوضع الاجتماعى الذى وجدوا أنفسهم فيه؛ وهو وضع «التبعيّة»؛ إذ يستلزم هذا تبعيتهم للمسلمين. وربما ساعد عليه أيضا بعض الأحداث[2] التى لم تفهم على وجهها الصحيح.

ويبدو أن الأمور - فى أواخر الدولة الأموية - كانت تنبئ بلون من التحوُّل أصاب هذه الدولة فى طبيعتها[3]؛ ففضلا عن الوهن الذى بدأ يدبُّ فى أوصالها، أخذ الموالى، وبخاصة (الفرس) منهم، يعملون على إعادة سلطانهم وإرجاع دولتهم بطريقة ما[4]؛ فاحتضنوا الهاشميين، واعتمدوا على الدعوة لهم سرًّا، حتى إذا ظفروا بالحكم، كان للفرس نفوذ كبير مكنهم من تحقيق أغراضهم.

وعلى أية حال، فقد وجدنا بعضا من هؤلاء الموالى يتعصبون لأبناء جنسهم،

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام (سابق) ص٩٠.

(٢) انظر: السابق. نفس الموضع.

(٣) من المعروف أن الدولة الأموية كانت عربية خالصة، من حيث أشخاص الخلفاء، وولاتهم وقوادهم؛ ومن حيث التقاليد الاجتماعية كانت لا تخضع لنفوذ الفرس أو الروم.

(٤) هناك من العرب من تنبه إلى خطورة ما كان يهدِّد الدولة الأموية من ازدياد نفوذ الفرس، ودعا إلى لَمّ الشمل فى وجه هذا العدو الناهض؛ فقد قال نصر بن سيار يخاطب المُضرية واليمنية:

أبلغ ربيعة فى (مَرْو) وإخوتَهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضبُ
ولينصبوا الحربَ؛ إن القوم قد نصبوا ... حربا، يُحرَّقُ فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكمُ ... كأن أهل الحجا عن فعلكم غيَبُ
وتتركون عدوًّا قد أظلكمُ ... مما تأشّب، لا دينٌ ولا حسبُ
قِدْمًا يدينون دينا ما سمعت به ... عن الرسول، ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهم ... فإنَّ دينهم أن تُقتل العرب

انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م جـ٣ ص٤٧٨-٤٧٩. وانظر: أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسى ص١٨٨.

ويفخرون بهم. وفى أخبار إسماعيل بن يسار النِّسائى[1] ما يدْعم ذلك.

فأبو الفرج بعد أن يذكر نسبه، وأنه «مولى بنى تيْم بن مُرَّة: تيْم قريش»، وأنه عُمِّر طويلا إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية، ولم يدرك الدولة العباسية[2] - يذكر أنه «من سَبْى فارس»، وأنه كان «شعوبيا، شديد التعصب للعجم؛ وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم»[3].

ويورد بعضًا من الشعر؛ ومنه قصيدته التى أوّلُها:

ما على رسْم منزل بالجَنَاب[4] لو أبان الغَداةَ رجْع الجوابِ
غيرَّتْه الصَّبا، وكلُّ مُلِثٍّ[5] دائم الوَدْق، مكفَهِرَّ السَّحابِ
دارَ هند، وهل زمانى بهندٍ عائدٌ بالهوى، وصَفْوِ الجنَابِ

...

وفيها يفخر على العرب بالعجم فيقول:

رُبَّ خالٍ مَتوَّج لى وعمٍّ ماجدٍ مُجتدًى كريم النَّصابِ
إنما سُمِّى الفوارسُ بالفُرْ سِ مُضاهاةَ رفعةَ الأنسابِ
فاتركى الفخْر يا أُمام علينا واتركى الجَوْر، وانطقى بالصوابِ
واسألى - إن جهلتِ - عنا وعنكم كيف كنا فى سالف الأحقابِ
إذْ نُربِّى بناتِنا، وتدُسُّو نَ سَفَاها بناتِكم فى الترابِ[6]

---

(١) النسائى: نسبه إلى النساء، الذى هو من أسماء جموع المرأة، وفى اللسان: أن سيبويه يقول فى النسبه إلى (نساء) نِسْوِىّ؛ ردًّا له إلى واحده (نسوة). وإنما سُمِّى بالنَّسائى، لأن أباه كان يصنع طعام العُرْس، ويبيعه، فيشتريه منه من أراد التعريس، انظر: الأغانى ج٤ ص ٤٠٨ أو: لأنه كان:يبيع نجْدا وفرُشا تتخذ للعرائس السابق، ص٤٠٨.

(٢) انظر: الأغانى. السابق نفس الموضع ص٤٠٨.

(٣) السابق: ص٤١٢.

(٤) الجناب (بالفتح): الفناء وما قرب من محله القوم. وقيل: هو موضع فى أرض كلب السَّماوة بين العراق والشام. والجناب (بالكسر) موضع بِعِراض خيبر وسَلاح ووادى القرى. وقيل: هو من منازل بنى مازن: (انظر: ياقوت معجم البلدان).

(٥) يقال: «ألثَّ المطر، ولَثَّ»: إذا أقام أيامًا ولم ينقطع. والوَدْق: المطر.

(٦) انظر: السابق ص ٤١٠ - ٤١١.

ويُروى – أيضا – أن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك فى خلافته، وهو بالرُّصافة على بِرْكة له فى قصره، فاستنشده، وهو يتوقع أنه ينشده مديحًا له، فأنشده قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم:

يارَبْعَ رامةَ[1] بالعلياء من رِيم[2] ... هل تَرْجِعَنَّ إذا حَيَّيْتُ تسليمي

حتى انتهى إلى قوله:

إنى وجَدِّك ما عُودى بذى خَوَرٍ ... عند الحِفاظ، ولا حَوْضى بمهدوم

أصْلى كريمٌ، ومجدى لا يقاسُ به ... ولى لسانٌ كحدِّ السيف مسموم[3]

أحمى به مَجْدَ أقوام ذوى حَسَبٍ ... من كل قَرْم بتاج المُلْك مغموم

جحاجحَ[4] سادةٍ بُلْج مرازبةٍ ... جُرْدٍ عتاقٍ مساميح مطاعيمِ

مَن مثلُ كسرى وسابور الجنود معًا ... والهُرْمُزان[5] لفخر أو لتعظيمَ

أُسْدُ الكتائب يوم الرَّوع إن زحفوا ... وهمْ أذلُّوا ملوكِ الترك والروم

يمشون فى حَلَق الماذىِّ سابغةً ... مشْى الضراغمة الأُسْد اللهاميم[6]

هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأن لنا ... جُرثومةٌ قهرت عزَّ الجرائيم

فغضب هشام، وقال له: أعلىَّ تفخر، وإياى تُنشد قصيدة تمدح بها نفسك، وأعلاج قومك!! ثم أمر به فغُطِّى فى البركة، حتى كادت نفسُه تخرج، ثم أمر بإخراجه، ونفاه من وقته إلى الحجاز[7].

---

(١) رامة: منزل بينه وبين الرمادة ليلة فى طريق البصرة إلى مكة. وبين رامة وبين البصرة اثنتا عشرة مرحلة. وقيل: رامة: هضبة أو جبل ببنى دارم.

(٢) رئم أو ريم: واد لمزينة قرب المدينة، وقيل على ثلاثين ميلا من المدينة. وقيل على أربعة بُرد من المدينة أو ثلاثة (والبريد: فرسخان أو أربعة فراسخ. والفرسخ: ثلاثة أميال).

(٣) فى هامش ص٤٢٣ من السابق: الظاهر أن الكلمة مرفوعة، وبذلك يكون فى الشعر إقواء. على أنه يمكن أن يقال: إنها مجرورة؛ إما لأنها نعت لحد السيف، على مذهب من يجوز نعت المعرفة بالنكرة مطلقًا، أو نعت للسان على أن يكون أصل الكلام «إلى لسان...» بدل و «لى لسان» والتفسير الأخير هو الأصح.

(٤) جحاجح: جمع جحجح والجحجح والجحجاح: السيد الكريم. والمرازبة: جمع مرزبان وهو رئيس الفرس.

(٥) الهرمزان: الكبير من ملوك العجم.

(٦) جمع لهميم وهو: السابق الجواد من الخيل والناس.

(٧) انظر: السابق ص ٤٢٢ – ٤٢٤.

وربما كان هذا اللون من «العصبية» بداية لتلك الظاهرة التى انتشرت انتشارًا واضحًا فى الدولة العباسية، وهى ظاهرة «الشعوبية»؛ بل إن أبا الفرج نفسه - فيما أوردناه له - يصفه بأنه كان «شعوبيًا».

الأحلاف والجوار

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الفصل، تتصل «بالأحلاف والجوار»، وقد رأينا - حين كنا نتحدث عن «العصبية» فى الباب الأول - مدى ارتباطها بها، وكيف أن العصر الجاهلى شهد عديدًا من الأحلاف، لعل آخرها كان حلف «الفضول»[1].

ومن الطبيعى ألا يشجع الإسلام على إقامة أحلاف جديدة، وإن كان يتمسك بما كان عُقد من قبل، وتم الاتفاق عليه، ما دام يحقق مصلحة الجماعة الإسلامية. ومما يروى عن الرسول ﷺ فى ذلك: أن قيس بن عاصم سأل رسول الله عن الحلف، فقال: «لا حلفَ فى الإسلام، ولكن تمسّكوا بحلف الجاهلية»[2].

ومن الأخبار الواردة عن «حلْف الفضول» يتبين للدارس أنه منح المشتركين فيه لونًا من الشعور بالعزة والقوة، جعلهم يلوذون به لدفع ظلم، أو لاسترداد حق.

ومما يروى فى ذلك أنه كان بين الحسين بن على - كرم الله وجهه - وبين الوليد بن

---

(١) يقال: إن رجلا من بنى زبيد قدم مكة معتمرًا فى الجاهلية، ومعه تجارة اشتراها من رجل من بنى سهم، ثم تغيّب عنه فلم يُعطه حقه، فجاء إلى بنى سهم يستعديهم عليه، فأغلظوا له، فطوّف فى قبائل قريش يستعين بهم، فتخاذلت القبائل عنه، فلما رأى ذلك أشرف على أبى قُبيس، حين أخذت قريش مجالسها فى المسجد، ثم قال أبياتًا يستنصر قريشًا فيها، فأعظمت قريش ذلك، وخاف «الأحلاف» و «المطيَّبون» إن انفرد كل حلف بمؤزارته تُغضب الآخر، فقال ناس من قريش: «تعالوا، فليكن حلفًا فضولا، دون المطيبين ودون الأحلاف»؛ فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جُدعان، وصنع لهم طعامًا كثيرًا يومئذ. وقد شهد الرسول ﷺ هذا الحلف وهو ابن خمس وعشرين سنة. وكان الاجتماع يضم: بنى هاشم وبنى أسد وبنى زُهرة وبنى تيْم. وكان الذى تعاقد عليه القوم: ألا يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حرٌّ ولا عبد إلا كانوا معه، حتى يأخذوا له بحقه، ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم، ومن غيرهم. هذا؛ وقد امتدح الرسول ﷺ هذا الحلف، وأشاد به. انظر: الأغانى. جـ١٧، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) الأغانى: ج٤ ص٩٠.

عتبة بن أبى سفيان كلام في مال كان بينهما بذى المَرْوة[1] - والوليد يومئذ أمير المدينة فى زمن معاوية بن أبى سفيان - فقال الحسين: استطال علىّ الوليد بن عتبة فى حقى بسلطانه، وأقسم أن ينصفه فى حقه، أو ليأخذن سيفه، ويقومنّ فى مسجد رسول الله ﷺ، وليدعُوَن بحلف الفضول. فآزره عبد الله بن الزبير - وكان عند الوليد لما قال الحسين ما قال - وحلف بالله لئن دعا به ليأخُذَنَّ معه، حتى يُنصف من حقه. فبلغ ذلك المِسْوَر بن مخرمة بن نوْفل الزُّهْرى، فقال مثل ذلك؛ فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمى، فقال مثل ذلك؛ فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين بن على حتى رَضى[2].

والخبر التالى له دلالات كثيرة؛ فهو يذكر أن معاوية سأل عبد الله بن الزبير - وهو عنده بالمدينة فى ناس - عن الحسن، وأنه ما رآه منذ قدم المدينة إلا مرَّة، فقال له ابن الزبير: «دعْ عنك حسنًا؛ فأنت والله وهو كما قال الشّماخ:

أجاملُ أقواما حَياءً، وقد أرى ... صدورَهم تَغْلى علىَّ مِراضُها

والله لو يشاء حسنٌ أن يضربك بمائة ألف سيف ضربك ! والله لأهلُ العراق أرْأم له من أمّ الحُوار بحوُارها. فقال معاوية: أردتَ أن تُغرينى به ! والله لأصلنَّ رحمه، ولأقبلن عليه... فقال ابن الزبير: أما والله إنى وإياه ليدٌ عليك بحلف الفضول. فقال معاوية: من أنت، لا أعرض لك، وحلف الفضول ! والله ما كنت فيها إلا كالرهينة تُثْخَنُ معنا، وتَرْدَى هزيلا، كما قال أخو همْدان:

إذا ما بعيرٌ قام علَّق رحْلَه ... وإن هو أبقى بالحياة مقطّعا»[3]

ومن ثم فهو يبرز مدى القوة والمنعة التى كانت لمن ينتسب إلى حلف الفضول؛ كما يكشف عن قوة الحسن بن على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحبّ أهل العراق له؛ ثم هو يُبين عما كان يتمتع به معاوية من سياسة ودهاء فى معاملة من كانوا يهدّدون مُلْكه.

---

(١) ذو المَرْوَة: قرية بوادى القرى. وقيل بين خشب ووادى القرى.

(٢) انظر الأغانى. ج١٧ ص٢٩٥.

(٣) الأغانى: ج٩ ص١٧٣-١٧٤ (بتصرف). ومعنى (الحُوار): ولد الناقة من حين يوضع إلى أن يفطم ويفصل. ومعنى قوله (كالرهينة تثخن معنا وتردى هزيلا): أنه كان مقهورًا مغلوبًا ليس له شأن يذكر.

على أن «الإجـارة» كانت من الأمور الشائعة والمستقرّة، التى شكلت ظاهرة «اجتماعية» لها تبعاتها التى أقرّتها الجماعة، وتعارفت عليها؛ وقد استمر الحال على ما هو عليه كما كان قبل الإسلام.

نعم؛ قد تؤدى «الإجارة» - وما يصحبها من «تبعات» - أحيانًا، إلى بعض ألوان من الصراع؛ ولكن هذا لا يرجع إلى «الإجارة» فى ذاتها، كنظام اجتماعي، استقرّ فى وجدان الجماعة، وارتبط بحياتها فى حَلّها وترحالها، وأصبح جزءًا من نسيجها الاجتماعى، بقدر ما يرجع إلى الإخلال بما تقتضيه، وتستلزمه.

وشواهد «الإجارة» و«الاستجارة» هذه كثيرة فى كتاب الأغانى؛ منها ما يروى من أن الفرزدق كان يعتز بأبيه (غالب بن صعصعه) سيد بنى تميم، اعتزازًا قلَّ أن نجد له نظيرًا، وبلغ من تعظيمه إياه أنه كان يفاخر به الملوك، ويتعالى عليهم، وجعل قبره مستغاثًا، يُلاذ به من مواقف عديدة، فاحتملها الفرزدق[1].

والكميت بن زيد - وقد تحدثنا من قبل عن تشيعه لآل البيت، وتعصبه على القحطانية، وهجائه لهم - اضطر إلى أن يستجير ببنى أمية، وكان هشام بن عبد الملك قد أمر بقتله. والأخبار تروى أنه هرب من السجن إلى الشام، وتوارى فى بنى أسد وبنى تميم، وأرسل إلى أشراف قريش، وكان سيدَهم يومئذ عَنْبَسة بن سعيد بن العاص - فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض، وأتَوْا عَنبَسة قائلين له: إن هذه مكرمة أتاك الله بها، هذا الكميت لسان مُضر، كان أمير المؤمنين قد كتب فى قتله، فنجا حتى تخلّص إليك وإلينا. فطلب منهم أن يعوذ بقبر معاوية بن هشام بديْر حَنيناء[2]. فمضى الكميت، فضرب فُسطاطه عند قبره، ومضى عنبسة إلى مسلمة بن هشام، مستعينًا به، ومبينًا له أن ما جاء به مكرُمة يبلغ بها الثُّريَّا إن اعتقدها، وأن الكميت قد مدح الأمويين خاصة، وإياه بما لم يُسْمع مثلُه. وأعمل مسلمة حيلته فى خلاصه حتى أمّنه أبوه هشام، وطلب منه أن يعقد له مجلسًا، ينشدهم فيه ما قاله فيهم، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سُمع بمثلها

---

(١) انظر: الأغانى. ج٢١ ص٣٥٣-٣٥٤.

(٢) دير حنيناء: من أعمال دمشق (انظر: ياقوت: معجم البلدان) هذا؛ ويقال إن أمير المؤمنين هشامًا كان يحب ابنه معاوية حبًا شديدًا، وقد جعل على نفسه أن يزور قبره فى كل أسبوع يومًا بعينه. انظر: الأغانى. ج١٧ ص١٩.

قطُّ وامتدحه بقصيدته الرائية، ثم استأذنه فى مرثية ابنه معاوية، فأذن له، فأنشدها[1].

هذا؛ وقد لاحظت الدراسة أن دائرة العصبية - فى العصر الأموى- اتسعت، وتعددت جوانبها السياسية والمذهبية والاجتماعية والثقافية، على الرغم من أن الإسلام حاربها فى شتى أشكالها وصورها.

وكشفت عن عوامل اتساعها، وتمثلت فى: تحوّل الخلافة إلى مُلْك على يد معاوية ابن أبى سفيان، و بعد قتل الخليفة عثمان، وما صحب ذلك من فتن وحروب زلزلت كيان الدولة الإسلامية وأدت إلى ظهور عدد من الأحزاب أسهمت فى تأريث العصبية بينها، وإذكاء نيرانها، واحتدام الصراع فى كثير من بقاع الدولة الإسلامية؛ فضلا عن أن الأمويين أنفسهم اعتمدوا على العصبية «القبلية»، فى حكمهم، واتخذوها أساسًا للتمكين لسلطانهم.

وقد تبين لنا كثير من الآثار السلبية لهذه العصبية، تجلت فى: الفتن والثورات المصحوبة بالبطش والتنكيل كثورة ابن الزبير، وثورات العلويين، وصحب هذا ما وقع من «مظالم» عرفت بـ «مظالم بنى أمية»، وهى لم تقتصر على الخلفاء الأمويين أنفسهم، بل امتدت لتشمل ولاتهم من مثل: إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى (خال هشام ابن عبد الملك) وغيره. وقد أجج هذه وتلك ذيوع ظاهرة «الهجاء» المقذع، وما ارتبط به من فن «النقائض» ودور السياسة الأموية فى ذلك. وقد انعكست هذه الآثار فى: تمزيق الأواصر، وتقطيع الأرحام، وشيوع روح العداوة والانتقام.

وقد أدى هذا كله إلى الوهن الذى أصاب الدولة الأموية، مما مكّن للموالى وبخاصة الفرس منهم من تقوية نفوذهم، والعمل على إعادة سلطانهم، مما عُرف فيما بعد «بالشعوبية»، وفى الوقت نفسه كانت «العصبية» سببًا رئيسيًا فى انهيار الحكم الأموى.

***

(١) انظر: السابق ص٦-٨. وانظر أيضا: ص١٩.

الفصل الثالث

الغناء

عرف العرب «الغناء» فى العصر الجاهلي، وأذاعوه، وفتنوا به، وإن كان ذلك النوع الفطرى من الغناء، الذى يصدر عن النفس العربية فى تجاوبها مع أصداء تلك الحياة بجوانبها المختلفة.

فقد كانت الوحشة التى تسم حياة الصحراء بميسمها تدعو العربى إلى تلمس أسباب التسلية، وتزجية أوقات الفراغ، وفى مقدمتها «الغناء».

هذا؛ إلى أن حياة الجاهلى القائمة على التنقل والارتحال، كانت تدفعه دفعًا إلى التغني: أحيانًا لنفسه، وأخرى لراحلته؛ حفزًا لها، وبعثا لنشاطها، ودفعًا بها إلى مواصلة المسير فى تلك الفيافى والقفار.

ومن المعروف أن الشعر الجاهلى شعر غنائي، يتغنى فيه الشاعر بمشاعره، ويصدر عن نفسه، وما يختلج فيها من آلام وآمال، ويعبر عن رؤاه للحياة والأحياء من حوله، ومن هنا يمكن أن يقال: إن إنشاد هذا الشعر كان أول أنواع الغناء الجاهلي، فالجانبان قد ارتبطا ارتباطًا وثيقًا؛ عبر عنه الشاعر فى قوله:

تغنَّ فى كلِّ شعرٍ أنتَ قائلُهُ   إنَّ الغناءَ لهذا الشعرِ مِضمارُ[1].

هو غناء فطرى طبيعى إذن، لم يتكلف فيه العرب يومئذ علمًا، ولا عرفوا صناعة، يتمثّل فى ذلك «الحُداء» يسوقه فتيانهم لإبلهم، وفى «الترنم بالشعر» يتغنون به فى كثير من أحوال حياتهم، ومن هذا اللون الأخير عرف ما يسمى «بالتغبير»[2].

وقد أشرنا – من قبل– إلى أن المرأة فى العصر الجاهلي، كان لها حظ من الإنشاد

---

(١) ينسب هذا البيت إلى حسان بن ثابت.

(٢) قال الأزهري: وقد سموا ما يطربون فيه من الشعر فى ذكر الله تغبيرًا، كأنهم إذا ناشدوها بالألحان طربوا فرقصوا، وأرهجوا، فسموا مغبِّرة لهذا المعنى. وقد يكون «التغبير» نوعًا من الشعر فيه تهليل أو ترتيل يذكر بالغابر؛ فالمغبرة: قوم يغبرون بذكر الله تعالى بدعاء وتضرع، انظر: لسان العرب مادة «غبر».

والغناء، تردده فى أوقات الحروب؛ دفعًا للشباب إلى اقتحام الغارات، والأخذ بالثأر، وتحقيق الفوز، أو تحريضًا وتعبيرًا عن مشاعر الحزن والأسى، كما تمثل فى ألحان «المراثي» و«النواح».

هذه حالة الغناء بعامة فى جزيرة العرب، لاسيما بين من كانوا يعيشون فى البوادي. ومن المعروف أنه كانت هناك -قبل الإسلام- ممالك ذات مدنيات، كاليمن فى الجنوب وكالغساسنة فى الشام، واللخميين فى العراق. وقد بلغت اليمن قبل الميلاد بألفى سنة - درجة من الحضارة، تدل عليها أطلال المبانى الفخمة، والنقوش الكثيرة الجميلة، كما أنه كان للإمارتين الأخيرتين موسيقى تسمو على موسيقى البدو، تأثرت إلى حد ما بالمدنيات المجاورة[1].

وهذا يعنى أنه كان هناك نوعان من الغناء: الأول ارتبط بحياة العربى فى حله وترحاله، وقد أشرنا له سابقًا؛ والآخر يتمثل فى ذلك النوع الذى نجم عن تأثر العرب بمدنيات الفرس والروم، وهو تأثر نجد صداه قويًا فى الشعر الجاهلي.

ويحفل تاريخ الجاهلية بأخبار «القيان»[2] ، اللائى قمن بدور بارز فى إذاعة «الغناء» وانتشاره، سواء أكن من العرب أم من غيرهم[3].

وهناك إشارات كثيرة -فى الشعر الجاهلي- إلى هؤلاء القيان[4]، وما يرتبط بهن من

---

(١) انظر: د. محمود أحمد الحفني، إسحاق الموصلي، الموسيقار النديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٧.

(٢) «القينة»: الأمة المغنية ، وقيل: «القينة»: الأمة مغنية كانت أو غيرها.

(٣) تناولنا من قبل فى العصر الجاهلى - طبقة «الرقيق»، وقلنا، إنها تتكون من أرقاء أجانب مستجلبين إلى الجزيرة العربية عن طريق التجارة أو الإهداء، وكان بعضهم له معرفة -بالطبع- بالغناء والموسيقى، مما كان له أثر فى تنشيط هذه الفنون، وتنويعها، على نحو ما نعرف فى بلاط المناذرة والغساسنة. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هناك رقيق من العرب، مصدره - فى المقام الأول - الغارات والحروب، وما نتج عنها من أسر الرجال، وسبى النساء، ويبدو أنه كان هناك من دخل من العربيات فى زمرة القيان الأجنبيات، وأسهم أيضا بدوره فى نشر الغناء، وإن كن قليلات.

(٤) نشير -هنا- إلى دراسة د. ناصر الدين الأسد بعنوان: «القيان والغناء فى العصر الجاهلي» - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٨٦ . وفى مقدمتها ذكر أنه لم يجد فى مصادر بحثه التى اعتمد عليها - وهى متنوعة - عناية ذات بال بهذا الجانب، حتى كتاب أبى الفرج نفسه «الأغاني» لم يعن بالعصر الجاهلى فى هذا الشأن

غناء فى مجالس اللهو والشراب والطرب.

ومن أشهر ذلك أبيات طرفة بن العبد التى يقول فيها[1]:

ندامايَ بيضٌ كالنجوم، وقينةٌ ... تروحُ علينا بين بُردٍ ومُجْسدِ[2]
رحيبٌ قِطابُ الجَيبِ منها رقيقةٌ ... بجسِّ النَّدامَى، بضَّةُ المتجرَّدِ
إذا نحنُ قلنا: أَسمِعينا انبرَتْ لنا ... على رسْلِها مطروفةً لم تَشَدَّدِ[3]

إذا رجَّعتْ فى صوتِها خلتَ صوتَها ... تجاوُبَ أظآرٍ على رُبَعٍ ردى[4]

وهناك خبر منسوب إلى حسان بن ثابت، يصف فيه بعض أمسيات وفود جَبَلَةَ بن الأيْهَم زمنَ الجاهلية، يقول فيه: «لقد رأيت عشرَ قِيانٍ، خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمسًا يغنين غناء أهل الحيرة.. وكان جبلة إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين، وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب...»[5].

واشتهر من هؤلاء القيان كثيرات. ولعل أقدم من عرف منهن قينتان عرفتا

إلا عناية يسيرة، وكان فى ذلك عجلا قلقًا، لا يكاد يطمئن به حديث عن العصر الجاهلي، حتى يسرع الخطو إلى العصر الأموى والعباسي. ثم يختم مقدمته هذه بأن مصدره الأول فى بحثه كان «الشعر الجاهلي» الذى حاول دراسته بشيء من سعة وعمق، استبان منها ثلاثة أمور هى لب البحث:

الأول: كثرة القيان فى العصر الجاهلي كثرة واضحة، وانتشار الغناء انتشارًا واسعًا.

والثاني: رقى الغناء فى هذا العصر، وترف القيان فى الملبس والزينة، وازدهار مجالس غنائهم بألوان من مظاهر الحضارة المترفة.

والثالث: أثر القيان والغناء فى الشعر والشعراء الجاهليين عامة، وتطبيق ذلك على الأعشى خاصة.

(١) ديوان طرفة بن العبد: شرحه وقدم له: مهدى محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٧م ص ٢٤ – ٢٥.

(٢) المجسد هو الثوب المصبوغ بالزعفران.

(٣) مطروقة: فاترة الطرف كأن عينيها قد أصابتها طرفة من فتورهما. انظر د. على الجندى، عيون الشعر العربى القديم، الجزء الأول، المعلقات السبع، دار النصر للنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ٦٣، ٦٥.

(٤) رجعت: رددت الصوت، وتغنت به، أظآر جمع، مفرده: ظئر، وهى النافة التى لها ولد. الربع: ابن الناقة وهو صغير. الردى: الذى أصابه الهلاك.

(٥) الأغانى ج ١٧ ص ١٦٦-١٦٧.

بجرادتي[1] عاد، يضرب بهما المثل العربي: «تركته تغنيه الجرادتان»، وقد كانتا لمعاوية بن بكر، أهداهما لوفد من عاد حين نزل عليه. كذلك جرادتا عبد الله بن جُدعان، وهبهما لأمية بن أبى الصلت الثقفي[2] الشاعر المشهور.

هذا؛ إلى جانب الأخبار التى تؤكد ما سبق أن ذكرناه من ارتباط الشعر بالغناء حتى عند أقدم شعرائه؛ فهم يروون أن المهلهل غنى فى قصيدته:

طَفلةٌ ما ابنةُ المُحلَّلِ بيضا ءُ، لعوبٌ، لذيذةٌ فى العناقِ[3]

كما أن السُليك بن السُلكة تُغُنى ببعض شعره[4]، وكذلك علقمة بن عَبَدة الفحل.

والأعشى كان يغنِّى فى شعره، وكان يوقعه على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصَّنْج، ولعله من أجل ذلك كانت العرب تسميه «صناجة العرب»[5].

من البيِّن -إذن- أن الغناء فى هذا العصر مع شيوعه وتنوعه، ومع اتصال العرب بالحضارات الأجنبية المجاورة - كان يجرى فى حدود[6] ضيقة، تلائم موقع بلادهم الجغرافي، وحالتهم الاجتماعية والاقتصادية[7].

هذه مجرد لمحات سريعة عن «الغناء» فى العصر الجاهلي، لم نقصد بها الاستقصاء بقدر قصدنا تقديم صورة عامة له. ولا شك أنه قد حدثت تحولات كبيرة بين العصرين: الجاهلي، والإسلامي: تحولات فى العقيدة والفكر والاقتصاد وأحوال الاجتماع.

---

(١) انظر: د. ناصر الدين الأسد، السابق ص ٧١ - ٧٢.
هذا؛ ويذكر د. ناصر الدين أنه مع هذا الاتفاق فى جميع المظان على أن أقدم من غنى من العرب هاتان القينتان، فإن هناك اختلافًا كبيرًا فى اسميهما، ويورد روايات كثيرة فى ذلك، منها: أن اسم إحداهما وردة، والأخرى جرادة، فقيل جرادتان على التغليب، انظر السابق ص ٧٣ -٧٥.

(٢) انظر: الأغانى ج ٨، ص ٣٢٧.

(٣) انظر: الأغانى ج ٥، ص ٥١، وطفلة: رخصة ناعمة.

(٤) انظر: الأغانى ج٢ ص ٣٨٧، ٣٨٨.

(٥) انظر: الأغانى ج ٩ ص ١٠٩، وانظر أيضا: د. شوقى ضيف،ص ١٩٠ - ١٩١.

(٦) نشير -هنا مرة أخرى- إلى الدراسة التى قدمها د. ناصر الدين الأسد، انظر ص ٣ من هذا البحث؛ فمع أنها تتسم بالسعة والعمق، وتنتهى -فيما تنتهى إليه- إلى كثرة القيان فى العصر الجاهلى كثرة واضحة، وانتشار الغناء انتشارًا واسعًا، إلا أن هذا لا يعنى - من وجهة نظرنا- أن العرب قد نهضوا بهذا الفن بصورة تبرز رواده، وأصوله، ومدارسه، كما سنرى فى العصور اللاحقة.

(٧) انظر: د. محمود أحمد الحفني، السابق ص ٢٠ - ٢١

ومن الملاحظ أن «الغناء» ازدهر بصورة ملحوظة فى العصر الإسلامي، وبخاصة الأموى منه، إلى الحد الذى يمكن القول معه: إنه تطور ليشكل نظرية عربية، لها أصولها، والقائمون عليها.

وقبل أن نتحدث عن العوامل التى كانت وراء هذا التطور والازدهار - نتوقف وقفة قصيرة لنشير إلى نقطة قد يثيرها ذلك الانتشار الواسع للغناء فى بيئة تتجه مشاعر المسلمين نحوها بالتقديس والإجلال، ألا وهى «بيئة الحجاز». فقد يجد المرء نفسه - فى هذه الحال - مدفوعًا إلى التساؤل عن موقف مصادر التشريع الإسلامى من الغناء: حلًا أو حرمة[1]!.

والدارس لكتاب «الأغاني» لا يتوقع - بالطبع - من أبى الفرج أن يقتحم هذه القضية فى مستواها الشرعى والأصولى بقدر ما كان اهتمامه بها فى مستواها الاجتماعى، ومن ثم فلم يؤثِّر المستوى المسكوت عنه (الشرعى) (تأثيرًا سلبيًا) فى توجيه مادة كتابه، مما يتصل بحياة القيان والمغنين بصفة خاصة. ولا شك أن هذه المادة - بغزارتها وتنوعها - هى التى أتاحت لهذا البحث أن يرصد مظاهر التغير الاجتماعى الذى واكب انتشار الغناء وازدهاره.

---

(١) من الكتب النادرة التى ألفت حول موضوع « الغناء والسماع» كتاب السماع «لابن القيسراني» أحد أئمة الحديث فى القرن الخامس الهجرى (ت٥٠٧ هـ). وموضوع الكتاب هو: بيان حكم السماع بأنواعه، سواء أكان سماع الأغانى أم سماع الآلات الموسيقية، وسواء أكانت أغانى الرجال أم النساء. وقد ذكر المؤلف فى مقدمته للكتاب أن سائلا سأله عن «السماع» بسائر أنواعه، وأنه بين الإجابة عن ذلك مفصلًا مرتبًا بذكر الأدلة، وإقامة الشواهد. وقد قدم المؤلف للجواب بمقدمة خلاصتها: أن الرسول ﷺ كلف بتبليغ الرسالة، فبلغها كاملة، وبين فيها الحلال والحرام، وليس لأحد بعده وبعد الخلفاء الراشدين، الذين أمرنا بالاقتداء بهم، والاتباع لسننهم - أن يحرم ما أحل الله - عز وجل - ورسوله إلا بدليل ناطق، من آية محكمة، أو سنة مرضية صحيحة، أو إجماع من الأمة على مقالته. والظاهر أن قصده من المقدمة أن يرد ابتداء مقالة من حرم السماع؛ لأنهم استندوا فى التحريم على أحاديث الكذبة والمجروحين. وانتقل من المقدمة إلى المقصود من الكتاب، وعقده على فصلين، الأول يشتمل على جواز استماع الغناء بالأدلة الصحيحة الواضحة. والثاني: يشتمل على ما احتجوا به على تحريمه، وبيان بطلانه. انظر: ابن القيسراني: كتاب السماع، تحقيق أبو الوفا المراغي، القاهرة ١٩٩٩م، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ونحن لا نقصد من إيراد الكلام السابق أن نتبنى وجهة نظر معينة فى هذه القضية، بقدر ما نقصد تقديم وجهة نظر غير ذائعة، ربما تفيد فى تفسير كثير من المواقف لبعض الصحابة والتابعين، وغيرهم ممن عرفوا بالتقوى والورع.

وهذه المادة نفسها تقدم لنا طوائف من الصحابة والتابعين وبعض ولاة المدن (الحجازية وغيرها) وقضاتها، يرفضون السماع من حيث المبدأ: تحريمًا أو تنزيهًا أو ورعًا أو إشفاقًا وحرصًا على الأخلاق العامة، فى الوقت الذى قدم لنا أيضا خلفاء وولاة يحيطون أنفسهم بالقيان والمغنين، ويقترحون الألحان، ويحكمون بين أهل الغناء فى التنافس على الإجادة والتفوق، بل إن بعضًا منهم يمارس العزف والضرب على الآلات، ولا يتورع أن يظهر إعجابًا مبالغًا فيه ببعض المجيدين.

ويلفت نظرنا ما أورده أبو الفرج خاصًا بـ «أغانى الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم»؛ إذ يقول: «المنسوب إلى الخلفاء من الأغاني، والمُلصَق بهم منها لا أَصْلَ لجُلِّه، ولا حقيقةَ لأكثرِه، لا سيما ما حكاه ابن خُرْدَاذْبة؛ فإنه بدأ بعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فذكر أنه تغنى فى هذا البيت:

كأن راكبها غصنٌ بمروحة

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحدًا بعد واحد، حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة، أو ركن من أركان الإمامة لابد منه، ولا معدل عنه، يخبط خبط العشواء، ويجمع جمع حاطب الليل.

فأما عمر بن الخطاب فلو جاز هذا أن يُرْوَى عن كل أحد لبَعُدَ عنه، وإنما روى أنه تمثل بهذا البيت، وقد ركب ناقته فاستوطأها، لا أنه غنى به، ولا كان الغناء العربى أيضا عرف فى زمانه، إلا ما كانت العرب تستعمله من النَّصْب[1] والحُداء، وذلك جار مجرى الإنشاد، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسير ورفع للصوت»[2].

واضح أن أبا الفرج –هنا– يقدم رأيه الخاص فيما نسب إلى «الخلفاء من الأغاني»، وبخاصة فيما حكاه ابن خرداذبة، متهكمًا بما صنعه من موالاة بين جماعة من الخلفاء، منكرًا نسبة الغناء إلى عمر رضى الله عنه؛ متماديًا فى هذا الإنكار إلى الحد الذى جعل من عدم الغناء فى الجزيرة العربية حكمًا شاملا « ولا كان الغناء العربى أيضا عرف فى

(١) النَّصْب غناء للعرب شبيه بالحُداء.

(٢) الأغاني: ج ٩ ص ٢٥٠.

زمانه....» إلى آخر النص[١].

ومن الملاحظ أن حرصه على إنكار نسبة الغناء إلى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٢] لم يمنعه من أن يورد سماع الرسول (ﷺ) للغناء، (والسماع يختلف عن الأداء)، حين مر بمجلس تُغَنِّي فيه «سيرين» سيدها حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال معقبًا: «لا حرج إن شاء الله»[٣]، ولم يمنعه أيضا من أن يتخذ موقفًا يميل إلى تأييد ما نسب إلى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من صنعة فى الغناء، عملها إبان إمارته فى الحجاز، فهو - هنا - أميل إلى الموافقة حتى وإن زعم المنكرون أنه لا يقدر على مثلها إلا من طالت دربته بالصنعة وحذق الغناء ومهر فيه وتمكن منه؛ «لأن الذين أنكروا ذلك لم يأتوا على إنكارهم بحجة أكثر من هذا الظن والدعوى، ومخالفوهم قد أيدتهم أخبار رويت»[٤]. فمستويات الحرج تتدرج -عند

---

(١) يبدو أن هذا المسلك فى التأليف كان مألوفًا فى رصد الظواهر التى تتحمل الاختلاف؛ انظر - على سبيل المثال - ابن رشيق القيرواني: العمدة فى صناعة الشعر ونقده، تحقيق: د. النبوى عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠، ص ٣١ وما بعدها، حيث عقد بابًا عنوانه: «باب فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء» بدأ بأبى بكر فعمر فعثمان فعلي، فالحسن، فمعاوية، فالحسين بن علي، رضى الله عنهم أجمعين.

(٢) على أن هناك من روى رواية تدعم ما ذهب إليه ابن خرداذبة، فقد روى أن عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كان فى طريق مكة فى خلافته، ومعه المهاجرون والأنصار، فترنم ببيت، فقال له رجل من العراق، ليس معه عراقى غيره: «غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين»، فاستحيا عمر وضرب راحلته، حتى انقطعت عن الموكب. ابن القيسراني: السابق ص ٤١-٤٢. ويؤكد ابن القيسرانى هذا الموقف من عمر، بأنه - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - خرج ومن معه من المسلمين فى الحج الأكبر، حتى إذا كان «بالروحاء» (موضع بين الحرمين، على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة) كلم الناسُ رياح بن المعترف - وكان حسن الصوت بغناء الأعراب - وطلبوا منه أن يسمعهم، ليقصر الطريق، فقال: إنى أفرق من عمر، فكلم القوم عمر، فأذن له، بأن يسمعهم ليقصر عنهم المسير، حتى إذا جاء وقت السحر فليكف، وليأخذ لهم من شعر ضرار بن الخطاب، فرفع رياح عقيرته (صوته) يتغنى، وهم محرمون. انظر: السابق ص٤٢.

(٣) انظر الأغاني: ج ١٢ ص ٦٧. وانظر أيضا ابن القيسراني. السابق ص ٣٧-٤٠، حيث يورد أحاديث صحيحة كثيرة تدل على جواز استماع الغناء؛ منها: الحديث المشهور عن عائشة رضى الله عنها قالت: «دخل عليَّ رسول الله ﷺ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ فقال: دعها يا أبا بكر، فإنها أيام عيد، فلما غفل غمزتهما فخرجتا» ص ٣٨. ومنها ما روته أيضا، قالت: «كانت جارية من الأنصار فى حجري، فزوّجتها، ودخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناء، فقال: يا عائشة؛ ألا بعثت معها من يغنى ؟ فإن هذا الحى من الأنصار يحبون الغناء». ص ٣٩.

(٤) الأغاني: ج ٩ ص ٢٥١.

أبى الفرج - بما يتناسب ومكانة الصحابى أو التابعي، لتظل مقامات التنزه عما ينال من العدل والمروءة محفوظة. وهذا واضح فى موقفه من عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيما نسبه إلى واحد من فتيان بنى هاشم وظرفائهم وشعرائهم، وهو الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب؛ فقد قال عنه أبو الفرج: إنه «روى الحديث، وحُمل عنه»، وكما ذكر أنه قال شعرًا فى (عابدة) قبل أن يتزوجها؛ وهو شعر لا حرج فيه، يتفق وما حُمل عنه من الحديث النبوى السابق، المتعلق بغناء سيرين فى مجلس حسان بن ثابت رضى الله عنه، وسماع الرسول (ﷺ) لهذا الغناء وإجازته[1].

غير أن ما نسب إلى عمر بن عبد العزيز - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من إجادة اللحن[2]، وعذوبة الصوت له جوانب أخرى، تستحق أن نتبينها: أولها: أن هذا الخبر نقله أبو الفرج (وعبارته: نسخت هذا الخبر)[3] من كتاب محمد بن الحسن الكاتب، الذى رواه بدوره عن سلسلة من الرواة، تأتى فى نهايتها عُلية بنت المهدي، التى حدثت عن كَرْدَم بن معبد عن أبيه، وقد كان لعلية شغف بالغناء مشهود له، ولكن أن تختار أحد أعلام البيت الأموى - وقد طغت عليه شهرة العدل، والشدة فى الحق، وإنصاف أهل البيت، ورفع السب عن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - فهذا قد يثير الشكوك حول صحة الرواية، ولو أنها نسبت هذا وأكثر منه إلى يزيد بن عبد الملك، أو الوليد بن يزيد، لوجدت الرواية قبولا وشواهد من روايات أخرى، على أنها لو صنعت هذا لم تكن قد صنعت شيئا، لأن ما نسب إلى هذين الخليفتين من الاستهانة وسيطرة الهوى على سلوكهما يتجاوز المباح والمكروه من الغناء.

الجانب الثاني: يتعلق بما قاله كَرْدم بن معبد فى روايته السابقة: «وكان عمر أحسن خلق الله صوتًا، وكان حسن القراءة[4] للقرآن»؛ إذ ينقلنا هذا للحديث عن العوامل التى كانت وراء إقبال العرب على السماع وتنافسهم فيه.

---

(١) انظر: الأغاني: ج١٢ ص ٦٧.

(٢) يذكر أبو الفرج أن أول ما دونت له صنعة فى الغناء من الخلفاء عمر بن عبد العزيز، فإنه ذكر عنه أنه صنع فى أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان، يذكر سعاد فيها كلها.
انظر: الأغانى ج ٩، ص ٢٥٠-٢٥٣.

(٣) انظر: الأغانى ، السابق: ص ٢٥١.

(٤) انظر السابق: ص ٢٥٢.

ويتمثل العامل الأول فى رهافة الأذن العربية، وتشوفها لكل صوت جميل. ولعل مما زاد فى ذلك أن الشعر العربى قد روى مشافهة (أو سماعًا)، وأنه كان ينشد إنشادًا. وقد ارتبط به «الحداء» وهو فن أصيل فى البادية العربية.

ثم إن القرآن الكريم قد تلقاه الرسول (ﷺ) سماعًا (شفاهيًا)، وأداه سماعًا، وأحب أن يسمعه من أصحاب الأصوات الندية[1].

وهناك عامل طرأ على الجزيرة العربية، وبخاصة الحجاز؛ ويتمثل فى اتساع موجة الترف والثراء، التى عمت تلك البيئة فى أهم مدنها: أولًا فى (المدينة)، ثانيًا فى (مكة)، وقد حدث هذا بفضل ما جاءت به الفتوح فى فترة مبكرة، مما كان له انعكاسه على حياة كبار الصحابة أنفسهم؛ ثم بفضل ما كان يصب فى حجور أهلها من خزائن دمشق، بعد أن تحولت عاصمة الخلافة إليها أيام الأمويين. وقد اقترن بهذا تبدل واضح فى حياة العرب الاقتصادية والاجتماعية، ساعد عليه الأخذ بأسباب الحضارة الأجنبية، من مسكن، وملبس، ومطعم، وزينة وما إلى ذلك.

وقد رأينا من قبل كيف كثر الأرقاء والموالي، وامتزجوا بالعرب امتزاجًا أثر بصورة واضحة فى هذا التحول والتبدل، وفى ذيوع الغناء وازدهاره فى العصر الأموي.

ثم إنه كان هناك ولع بالغناء (سماعًا وأداءً)، لدى بعض من الخلفاء والأمراء، مما كان له أثر كبير فى تنشيط هذا الفن، وحفز أصحابه إلى التفنن فيه، والإجادة فى تقديمه. وسنرى شواهد لذلك فى ثنايا هذا الفصل.

يضاف إلى ما سبق من عوامل ما يمكن أن نسميه «بسعة النظرة»[2] إلى الغناء،

---

(١) يورد ابن القيسرانى هذا الحديث عن النبى محمد ﷺ: «للّه أشدُّ أَذَنًا (استماعًا) إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن يجهر به، من صاحب القينة إلى قينته»، السابق، ص٤٠ : ٤١. وابن القيسرانى يحتج بهذا الحديث – وغيره – على تحليل السماع؛ ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو: أن النبى ﷺ أثبت أن الله ـ عز وجل ـ يستمع إلى حسن الصوت بالقرآن، كما يستمع صاحب القينة إلى قينته، فأثبت تحليل السماع؛ إذ لا يجوز أن تقيس على محرم. السابق، نفس الموضع.

(٢) يذكر محقق «كتاب السماع» السابق أنه من « الملاحظ بوجه عام « أن المتقدمين كانوا أكثر تسامحًا، وأبعد عن

وبخاصة ما كان منه بعيدًا عن التحلل، واستثارة الغرائز. وقد تجلى هذا فى بعض من الفقهاء، والنساك؛ وقبل هذا وبعده فى بعض من آل البيت. والأخبار كثيرة تؤيد هذا، منها: ما تحدث به فضل اليزيدى عن إسحاق: « أن ابن سريج كان جالسا، فمر به عطاء[1] وابن جريج[2]، فحلف عليهما بالطلاق أن يغنيهما، على أنهما إن نهياه عن الغناء بعد أن يسمعا منه تركه، فوقفا له وغناهما.

إخوتى لا تبعدوا أبدا وابَلَى[3] والله قد بعُدوا

فغُشى على ابن جريج، وقام عطاء فرقص»[4].

ومن هذه الأخبار أيضًا ما حدث به سليمان الخشاب عن داود المكي، قال: « كنا فى حلقة ابن جريج وهو يحدثنا وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك[5] وعدة من العراقيين، إذ مر به تيزن المغنى وقد ائتزر بمئزر على صدره، وهى إزرة الشطار عندنا – فدعاه ابن جريج فقال له: أحب أن تسمعني، قال: إنى مستعجل، فألح عليه؛ فقال: امرأته طالق إن غناك أكثر من ثلاثة أصوات. فقال له: ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غننى الصوت الذى غناه ابن سريج فى اليوم الثانى من أيام منى على جمرة العقبة فقطع طريق الذاهب والجائى حتى تكسرت المحامل، فغناه:

عُوجِى عليَّ فسلِّمى جَبْرُ

التزمت فى سماع الغناء؛ وكذلك كان الصوفية. ولعل ذلك لأن المجتمعات الإسلامية الأولى كانت تقوم على أعراق متينة من الأخلاق الدينية، وعلى قواعد ثابتة من المروءة والفتوة». ص١٦ .

(١) عطاء بن أبى رباح: تابعى من أجلاء الفقهاء، كان عبدًا أسود. ولد فى جند اليمن، ونشأ بمكة، وكان محدثًا ومفتيًا، توفى عام ١١٤ هـ. انظر: معجم أسماء العرب – جامعة السلطان قابوس مكتبة لبنان. ط٢ ١٩٩١ مجلد ٢، ص ١١٧٩ .

(٢) ابن الجريج (عبد الملك بن عبد العزيز): فقيه الحرم المكي، وإمام أهل الحجاز فى عصره. رومى الأصل، من موالى قريش. مكى المولد والوفاة. توفى عام ١٥٠ هـ الأعلام: السابق.

(٣) وا: هنا أداة تعجب، كقوله:

وا بأبى أنت وفوك الأشنب كأنما ذر عليه الزرنب

انظر: الأغانى، ج ١، هامش ص ٣٢٦.

(٤) الأغانى ج١ ص٣٢٦.

(٥) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء، جامع أحاديث، وأول من صنف فى الجهاد، أفنى عمره فى الأسفار حاجًا ومجاهدًا وتاجرًا – من أهل خراسان ـ توفى بهيت على شاطئ الفرات عام ١٨١هـ .

فقال له ابن جريج: أحسنت والله ! (ثلاث مرات) ويحك ! أعده. قال: من الثلاثة فإنى حلفت، قال: أعده، فأعاده، فقال: أحسنت ! فأعده من الثلاثة، فأعاده وقام ومضى، وقال: لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك. فالتفت ابن جريج إلى أصحابه، فقال: لعلكم أنكرتم ما فعلت! فقالوا: إننا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه. قال: فما تقولون فى الرجز ؟ (يعنى الحداء) قالوا: لا بأس به عندنا. قال: فما الفرق بينه وبين الغناء ؟!(1)».

فى هذين الخبرين جوانب مهمة تبرز موقف بعض الفقهاء والمتصوفة من سماع الغناء؛ فابن جريج - فى النص الأول - قد سمع الغناء بعد إلحاف من المغنى ولكنه - فى النص الآخر - هو الذى يلحف فى طلب السماع؛ وفى هذا إشارة دالة على تغير بعض الرافضين والمتحرجين، وتحولهم إلى مستجيبين أو متحمسين لا يجدون حرجًا فى الدفاع عن موقفهم الجديد بالقياس: (قياس الغناء على الحداء).

وهنا - أيضا - ينبغى أن ندقق الفكر والتأمل فى النصوص المغناة فى مثل هذه الأخبار؛ فهى تدل على ما كان يتمتع به المغنون بعامة من حس اجتماعى راق، يراعى طبيعة الموقف فى اختيار الكلمة المناسبة له، دون إسفاف أو ابتذال. إن الأخبار تتوارد على مثل هذا البيت الذى غشى على ابن جريج ورقص عطاء حين سمعاه. ومع التجاوز عما يمكن أن يكون فى هذا التعبير من مبالغة؛ إذ المقصود إبراز مدى الاستجابة والتأثر لديهما - فإن المتلقى لهذا البيت يمكن أن تذهب نفسه فيه كل مذهب؛ من التعبير عن الإخوة والصحبة والصداقة، وعن حركة الزمن، وعن مطلق الفراق وحتميته، وعن الفراق بالموت؛ وهذه معان إنسانية، ذات صلة وثيقة بحياة الارتحال التى كان يعيشها العربى (بدويًا كان أو غير بدوى). فإذا كان المتلقى ورعًا أو صوفيًا، فالمرجعية متحققة لديه فى مبدأ الغناء الواقعى والرمزي؛ ومن ثم فإنه يستجيب للمعنى، وقد يرقص أو يغشى عليه، ولا تثريب عليه مع رقة الطبع المعروفة عند أهل الحجاز، كما سنرى؛ إذ يبرز الخبر الأخير بخاصة فارقًا يصل حد التناقض بين أهل الحجاز، وأهل العراق؛ ففى

---

(1) الأغانى، ج1، ص423 - 424.

حين كان الطبع الحجازى مستجيبًا طالبًا للغناء، كان الطبع العراقى حادًا نافرًا[1].

وحين نعود إلى الخبر الثانى لنتأمل العبارة التى اقترح بها ابن جريج على تيزن المغنى أن يسمعه غناءه، إذ قال: « غننى الصوت الذى غناه ابن سريج فى اليوم الثانى من أيام منى على جمرة العقبة، فقطع طريق الذاهب والجائى حتى تكسرت المحامل »، نتساءل: ما دلالة هذا الإسهاب فى تحديد الصوت، والزمن، والمكان، والأثر والاستجابة ؟ ألا يدل هذا على مزيد من العناية بالغناء ؟ وأن يحدث هذا من رجل ورع مشغول بالعلم (له حلقة علم يحدث فيها، وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك) يوصف بأنه إمام أهل الحجاز فى عصره، ألا يدل على أن الغناء وترديد الألحان أصبح من معالم الثقافة، ومن شواهد التفاعل مع حياة الناس ؟ لعل مما يقوى ما نذهب إليه ما نجده من تلك الأخبار الكثيرة التى تصف مناسبات بعض الألحان، فتحدد زمانها ومكانها لتكون فى موسم الحج، وفى أماكن المشاعر المقدسة ذاتها، أو على مقربة منها، فإذا عجبنا من جرأة المغني، فإن عجبنا سوف يكون أشد من تزاحم الناس من أهل الموسم القادمين لأداء فريضة الحج، ومن أهل مكة ذاتها على موقع الغناء دون أن يعترض أحد ! وحتى لو أن هذا (الاعتراض) قد حدث فإن رواة الأخبار وجدوا المبرر لإهماله بعدم الإشارة إليه؛ لأنه لم يكن له أثر يذكر.

وأخيرًا؛ فإن الحديث عن رقة طباع أهل الحجاز يسلمنا للحديث عن عامل مهم يتصل بالحالة النفسية أو المزاجية؛ وهى حالة ربما غذتها العزلة السياسية التى فرضها

---

(١) تتوارد أخبار مختلفة عن جفاف طباع العراقيين، فى مقابل نداوة طباع الحجازيين فى ذاك الزمان. وأبو الفرج يملك حاسة التنبه إلى تلك الفروق، والاختلاف بين البيئات. ولهذا يورد تعقيبًا يشبه سابقه، وإن يكن فى سياق غير الغناء. يرويه عن عبد الله بن عمر العُمَرى قال: « خرجت حاجًا، فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلام، أرفثت فيه، فأدنيت ناقتى منها، ثم قلت لها: يا أمة الله، ألست حاجة ! أما تخافين الله ! فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنًا، ثم قالت: تأمل يا عم ! فإننى من عناه العرجى بقوله:

أماطت كساء الخز عن حر وجهها	وأدنت على الخدين بـردا مهلهلا
من اللاء لم يَحْجُجْن يبغين حسبة	ولكن ليقتلن البـريء المغفـلا

قال: فقلت لها: فإنى أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار ! قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيب (أحد الفقهاء السبعة بالمدينة جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع) فقال: أما والله لو كان من بعض بغضاء العراق لقال لها: اعزبى قبحك الله ! ولكنه ظَرف عُبَّاد أهل الحجاز » الأغانى ج١، ص٤١٧ : ٤١٨ .

خلفاء بنى أمية بعد أن انتقلوا بعاصمتهم إلى دمشق، وما أدى إليه هذا من تحول مدن الحجاز من «المركز» إلى «الهامش»، وافتقاد الشعور بالخصوصية والصدارة. ولعلنا إذا ما تمكن علماء الموسيقى فى عصرنا من تحويل أوصاف أبى الفرج لألحان الأغاني، وطرائق الأصوات من الوصف اللغوى (الخاص بعصره) إلى الكتابة الرمزية على أسس «النوتة» الموسيقية - أن نجد مستويات من الشجن، ومشاعر الفقد والحزن، ولوعة الضياع، تمازج صور الغزل بالشوق. وليس غريبًا - إذن - أن نجد أصواتًا لقيان ومغنين تحترف «النَّوح»، وتجد فيه مصدرًا وفيرًا للرزق يجنبها المنافسة فى سوق الغناء، بل سنجد بعض من عرف بالنوح يهجره إلى الغناء، وقد يحدث العكس.

والجمع بين «الغناء» و«النوح» لا يتقبله المجتمع بالرضا من الناحية النفسية، ولكنه فى مجتمع الحجاز متقبل بل ومطلوب بفعل عوامل كثيرة متشابكة، وأحداث جسيمة متلاحقة، انعكست فى تلك الحالة النفسية أو المزاجية، التى ربما تفاعلت - بصورة أقوى - مع أصوات «النوح» وما يجرى مجراها. ولعل فى الأخبار التالية ما يبرهن على ما نذهب إليه.

يروى أبو الفرج خبرًا عن ابن جامع يقول: «حدثنى جماعة من شيوخ أهل مكة أنهم حدثوا أن سكينة بنت الحسين عليهما السلام بعثت إلى ابن سريج بشعر أمرته أن يصوغ فيه لحنًا يناح به، فصاغ فيه؛ وهو الآن داخل فى غنائه - والشعر:

يا أرضُ؛ ويحَكِ أكرمِى أمواتِى … فلقدِ ظَفِرْتِ بسادتى وحُمَاتِى !

فقدمه ذلك عند أهل الحرمين، على جميع ناحة مكة والمدينة والطائف»[1].

ولقد أتبع أبو الفرج الخبر السابق بخبر آخر يجرى فى مضماره، غير أنه أكثر تفصيلا، وقد جمعت روايته بين ابن جامع - راوية الخبر السابق - وابن أبى الكَنَّات، وخلاصته: أن السيدة سكينة[2] رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بعثت إلى ابن سريج بمملوك لها، يقال له «عبد الملك»

---

(١) الأغاني: ج١، ص٢٦٣.

(٢) من الملاحظ أن أبا الفرج ذكر ص٢١٩ من هذا الجزء الأول أن الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث هى التى ربت الغريض، وعلمته النوح بالمراثى على من قتله يزيد بن معاوية من أهلها يوم الحرة. وعلى أية

وأمــرته أن يعلــمه «النياحة» فتعلمها؛ وحدث أن توفى محمد بن الحنفية[1]، وكان ابن سريج مريضا، فألجأ الحادث النازل عبد الملك أن ينوح عليه، فكان نوحه فى الغاية من الجودة، وقالت النساء: هذا نوح غريض، فلقب عبد الملك بالغريض، حتى إذا ما أفاق ابن سريج من علته، وعرف الخبر حلف ألا ينوح، وعدل إلى الغناء، ولكن تلميذه الغريض تبعه إلى الغناء، فكان كلما غنى ابن السريج صوتًا عارضه فيه[2].

من الواضح - إذن - أن « النوح » كان يجد طريقه إلى القلوب. وإذا كان قد ارتبط - فى الأصل - بالجانب النفسي، فإنه ما لبث أن تحول إلى فن، يدخل فى صناعة الغناء والأصوات. وهناك أخبار - فى الأغانى - تذكر أنه كانت هناك نائحات يتخذن من « النوح » صناعة، منهن حوراء وبغوم[3]، وأن سلامة القس كانت تغنى وتنوح[4]. ونتوقف عند خبرين، يجمعان بين الدلالة الفنية والاستجابة النفسية الحجازية للغناء:

يذكر الخبر الأول أن معبدًا[5] زار ابن سريج والغريض بمكة، وأنهما خرجا به إلى التنعيم[6]، ثم قالوا: تعالوا حتى نبكى أهل مكة، فاندفع ابن سريج فغنى صوته، فأخذ أهل مكة فى البكاء وأنوا حتى سمع أنينهم. ثم غنى معبد، فتنادوا من الدروب، بالويل والحرب والسلب؛ وبقى الغريض عاجزًا عن الغناء، لما ارتفع حوله من البكاء

حال فكلا الخبرين يتفق فى تعلمه «النوح» وبراعته فيه. وفى خبر ثالث: أنه أخذ الغناء أولا عن ابن سريج، وخشى ابن سريج أن يتفوق عليه، بحسن وجهه، وطبعه وظرفه، وحلاوة منطقه، فطرده؛ فشكا ذلك إلى مولياته فقلن له: هل لك فى أن تسمع نوحنا فى قتلانا، فتأخذه وتغنى عليه ؟! ثم أسمعنه المراثى فاحتذاها، وخرج عليها غناء كالمراثي. وكان ينوح مع ذلك فى المآتم فيفتن كل من سمعه. ولما كثر غناؤه اشتهاه الناس، وعدلوا إليه لما كان فيه من الشجا. انظر: الأغاني، ج٢، ص٣٦٠.

(١) هو محمد بن على بن أبى طالب، عم السيدة سكينة. أمه خولة بنت جعفر الحنفية، وقد نسب إليها تمييزًا له عن أبناء فاطمة الزهراء رضى الله عنها. توفى عام ٨١ هـ.

(٢) انظر: الأغانى ج١، ص٢٦٤.

(٣) انظر: الأغاني، جـ ٢، ص٣٦١.

(٤) انظر: الأغانى جـ١، ص ٤٠ - ٤١.

(٥) معبد بن وهب - مولى بنى مخزوم - نشأ وعاش فى المدينة، فلما علا صيته فى الغناء رحل إلى الشام واتصل بالأمراء. وتوفى عام ١٢٦ هـ.

(٦) التنعيم: موضع بمكة على بعد فرسخين منها. ومنه يحرم المكيون بالعمرة. .

والصراخ[1].

أما الخبر الثانى فقد انفرد به معبد، الذى يقوم هو أيضا بروايته، يقول: « أتيت أبا السائب المخزومى – وكان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة – فلما رآنى تجوز[2] وقال: ما معك من مبكيات ابن سريج ؟ قلت: قوله:

وَلهُنَّ بالبيتِ العتيقِ لُبانةٌ ... والبيتُ يَعرِفُهُنَّ لو يتكلَّمُ
لو كانَ حيًّا قَبْلَهُنَّ ظَعَائنًا ... حَيَّا الحَطيمُ وجوههنَّ وزمـزمُ
لبِثُوا ثلاثَ مِنىً[3] بمنزلِ غِبطةٍ ... وهُمُ على سفر لعمرُكَ ما هُمُ
متجاورينَ بغيرِ دارِ إقامةٍ ... لو قَدْ أجدَّ تَفَرقٌ[4] لَمْ يندمُوا

فقال لي: غنِّه، فغنيته. ثم قام يصلى فأطال، ثم تَجوَّزَ إلى فقال: ما معك من مطرباته ومشجياته ؟ فقلت: قوله:

لسنا نُبَالِى حينَ نُدركُ حاجةً ... ما باتَ أو ظلَّ المطىُّ مُعقَّلا

فقال لي: غنِّه، فغنيته. ثم صلى وتجوز إلى وقال: ما معك من مرقصاته ؟ فقلت:

فلمْ أرَ كالتَّجميرِ منظرَ ناظرٍ ... ولا كليالى الحَجِّ أفْتنَّ ذا هَوى

فقال: كما أنت حتى أتحرم لهذا بركعتين»[5].

فى الخبرين ما يدل على دخول النوح فى الغناء، وقد حدث هذا فى غير مقام الموت. وكان المغنون يؤدونه للتأثير على مشاعر الناس، واستثارة أحزانهم؛ ففى خبر اجتماع الثلاثة (ابن سريج، والغريض، ومعبد) بمكة ما يؤكد قصد التأثير على أهل أم القرى، وكأن هذا المنحى الحزين هو بمثابة الإعلان عن حضور الغريض، ولو لم يكن هذا التغنى الناتج أقوى تأثيرًا فى نفوس المتلقين، وأكثر إثارة لأشجانهم، لما فضلوه على

---

(١) انظر: الأغاني: جـ٩، ص١٧٧.

(٢) تجوز فى صلاته: خفف فيها.

(٣) يريد : ثلاث ليالى التشريق، وهى التي يبيت فيها الحجاج بمنى.

(٤) أجد: يستعمل لازمًا ومتعديًا، يقال: أجد الرجل فى الأمر إذا كان فيه ذا جد، وأجد الرجل السير أو الرحيل: اعتزمه.

(٥) الأغانى: جـ١، ص٢٨٦ – ٢٨٧.

الغناء السعيد، الذى يجمّل الحياة، ويغرى بطيباتها. إن عبارة: «تعالوا حتى نبكى أهل مكة» تصف نقطة الالتقاء بين الغناء والنواح. ولعل هذا يحدث فى زماننا؛ إذ نجد الغناء السعيد، كما نجد الغناء الحزين، ولعل هذا النوع الأخير يجد صداه قويًا فى الأجواء الشرقية، التى تعانى من القهر والإحباط. وهنا يكون الغناء متنفسا، يطهر الإنسان به قلبه، ويخفف عنه ما تراكم فيه من أشجان وآلام.

وفى خبر أبى السائب المخزومى يتبدَّى لنا خبرة المتلقىِّ، وسَعة نظرته؛ فهو يبدأ بأن يطلب « المبكيات «يُعْقبها بالمطربات»، ثم يتمادى الطرب ليصل إلى «المرقصات»، ولقد تقبل النوعين الأولين بشعور مستجيب متحرر من لوم النفس، فلما استمع إلى «المرقصات»، وما تقترن به من معانى الغزل الجريئة المتجاوزة بذكر المشاعر المقدسة فى سياق من اللهو، قام ليصلى ركعتين؛ استغفارًا لما قد يكون ارتكبه من ذنب ! .

ومن الطبيعى أن تؤدى العوامل السابقة إلى انتشار « الغناء» وازدهاره فى هذا العصر، إلى الحد الذى يمكن أن يقال فيه: إنه كانت هناك مدرسة لهذا الفن، يتلقى فيها أصحابها أصوله، ويتخرجون فيها، ولا يزالون بعد ذلك يتبارون فى التفوق والإجادة.

لقد تظاهرت العوامل السابقة لتجعل من بيئة الحجاز مهادا صالحا لتخريج تلك الأعداد الوفيرة التى حفل بها كتاب الأغانى فى فن «الغناء».

والدارس لهذا الفن يلحظ أنه قد مر بمرحلتين أو طورين متعاقبين: التأسيس والنشأة، ثم الازدهار والانتشار.

مرحلة التأسيس والنشأة

وتلمع فى هذه المرحلة أسماء كثيرة كعزة الميلاء[1]، وجميلة وسائب خاثر، ونشيط الفارسى وغيرهم:

---

(١) قيل: سميت «الميلاء» لتمايلها فى مشيتها. وقيل: بل كانت تلبس « المُلاء» وتشبه بالرجال فسميت بذلك، وقيل غير ذلك. انظر: الأغانى، جـ١٧، ص١٦٢.

والأخبار تتحدث عن عزة هذه بأنها كانت « مولاة للأنصار، ومسكنها المدينة، وهى من أقدم من غنى الغناء الموقَّع بالحجاز». [1] كما تتحدث عن أنها كانت « مطبوعة على الغناء، لا يعيبها أداؤه ولا صناعته ولا تأليفه. وكانت تغنى أغانى القيان من القدائم، مثل: سيرين، وزرنب، وخولة، والرباب، وسلمى، ورائقة، وكانت رائقة أستاذتها، فلما قدم نشيط وسائب خاثر المدينة، غنيا أغانى بالفارسية، فلقنت عزة عنهما نغما، وألفت عليها ألحانًا عجيبة. فهى أول من فتن أهل المدينة بالغناء وحرَّض نساءهم ورجالهم عليه». [2]

وتلوح لنا فى النص السابق البدايات الأولى التى يختلط فيها القديم بالجديد: القديم متمثلا فى ذلك الغناء الطبيعي، الذى توارثته «عزة» عن سيرين وغيرها، وبخاصة رائقة؛ والجديد متمثلا فيما قدمه نشيط وسائب خاثر حين قدما المدينة. ولا ينسى النص أن يشير إلى الأثر الذى تركته من «افتتان» أهل المدينة بالغناء، و«تحريض» نسائهم ورجالهم عليه.

وبعد أن تثبت الأخبار أنها كانت «ممن أحسنَّ ضربا بعود»[3]، تذكر أن كثيرًا قد أخذوا عنها، وأعجبوا بفنها. فابن سريج كان فى حداثة سنه يأتى المدينة، فيسمع من عزة ويتعلم غناءها ويأخذ عنها، وكان يفضلها على كل من غنى وضرب بالمعازف من الرجال والنساء[4]».

وابن مُحرز «كان يقيم بمكة ثلاثة أشهر، ويأتى المدينة، فيقيم بها ثلاثة أشهر من أجل عزة، وكان يأخذ عنها[5].

وكذلك كان طويس؛ فكثيرًا ما كان يأوى إلى منزلها، وقد امتدحها كثيرًا خَلقًا وخُلقًا وفنًا[6].

---

(١) السابق: نفس الموضع.
(٢) السابق: نفسه.
(٣) الأغانى: جـ١٧، ص١٦٢.
(٤) انظر: السابق، ص ١٦٣.
(٥) السابق: نفس الموضع.
(٦) السابق: نفس الموضع.

وسمعها معبد وقد أسنَّت فأعجب بها. وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه معجبًا بها، مقدما لها على سائر قيان أهل المدينة. أما عمر بن أبى ربيعة فقد غُشِى عليه حين سمعها تغنى بشعره.[١]

و«جميلة» مولاة بطن من بنى سُليم يقال لهم: بنو بَهْز. ولكنها اشتهرت بأنها مولاة الأنصار؛ إذ كان زوجها من موالى بنى الحارث بن الخزرج؛ وكانت تنزل فيهم- وهى أصل من أصول الغناء، وعنها أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية، والشماسيتان: خُلَيدَة ورُبَيحَة. [٢]

ويبدو أنها سلكت الطريق التى سلكتها عزة الميلاء؛ إذ إنها تأثرت كثيرًا بغناء سائب خاثر، وضربه بالعود، على الرغم من أنها لم تفهمه. ولكنها أخذت نغماته وبنت عليها غناءها، فجاءت أجود من تأليف ذلك الغناء الذى كان يتغنى به. [٣]

وما لبثت أن ظهر أمرها، وشاع ذكرها، فجلست للتعليم، وقصدها الناس. وقد تزاحم الجوارى عليها؛ طلبًا للأخذ عنها، وربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئًا سوى ما سمعنه تطارح به غيرهن. ولقد كسبت لمولياتها ما لم يخطر لهن ببال كما تقول. [٤]

وقد بلغ من عِلْمِها بالغناء أن معبدا يقول عنها: « أصل الغناء جميلة، وفرعه نحن. ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين»[٥].

ولا ينسى أبو الفرج – فى مقام تأصيله لهذا الفن – أن يذكر « ابن مسجح»[٦]؛ فهو: «مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم؛ وأول من صنع الغناء منهم، ونقل غناء الفرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشأم، وأخذ ألحان الروم... وانقلب إلى فارس،

---

(١) انظر: السابق، ص١٦٤.
(٢) الأغانى: جـ٨، ص١٨٦.
(٣) انظر: السابق، ص١٨٧.
(٤) انظر: السابق، نفس الموضع.
(٥) السابق: ص١٨٦.
(٦) هو: سعيد بن مسجح أبو عثمان مولى بنى جمح. وقيل: إنه مولى بنى نوفل بن الحارث بن عبد المطلب. مكى أسود، الأغانى: جـ٣، ص٢٧٦.

فأخذ بها غناء كثيرًا، وتعلم الضرب؛ ثم قدم إلى الحجاز وقد أخذ محاسن تلك النغم، وألقى منها ما استقبحه من النبرات والنغم، التى هى موجودة فى نغم الفرس والروم، خارجة عن غناء العرب، وغني على هذا المذهب، فكان أول من أثبت ذلك ولحنه، وتبعه الناس بعد»[١].

والنص السابق - مع أنه يقدم تفصيلات كثيرة عن طبيعة الدور الذى قام به ابن مسجح - يخلو من ذكر الظروف التى هيأت له ذلك. وقد ذكرت هذه الظروف متفرقة فى ثنايا الحديث عن « أخبار ابن مسجح ونسبه»[٢].

لعل من أهمها أنه مر بالفرس وهم يبنون المسجد الحرام (أو يعملون الكعبة لابن الزبير)، ويتغنون بالفارسية، فقلبه فى شعر عربي[٣].

كما أنه لا ينسى الدور الذى قام به مولاه، من تعهده له، وعنايته به؛ فقد لمح فيه فطنة وذكاء، وكان معجبا به. وتنبأ له فى صغره بأن يكون له شأن؛ ومن ثم فقد آثر عدم عتقه حتى يظل على مقربة منه. وبعد أن سمعه يتغنى بشعر ابن الرقاع العاملى سأله: أنى لك هذا ! قال: سمعت هذه الأعاجم تتغنى بالفارسية، فثقفتها وقلبتها فى هذا الشعر، فقال له: أنت حر لوجه الله؛ فلزم مولاه، واتسع فى الغناء، ومهر فيه، وذاع صيته[٤].

وابن مسجح نفسه هو الذى تولى إعداد الغريض وابن سريج وغيرهما.

---

(١) السابق: نفس الموضع.

(٢) انظر: السابق، من ص٢٧٦ - ٢٨٤.

(٣) انظر: السابق، ص٢٧٦ - ٢٧٨. مع ملاحظة أن أكثر من رواية تذكر أنه أول من غنى هذا الغناء العربي، الذى نقله عن الفرس والروم؛ فالروايات تتفق فى هذا؛ ولكن هناك رواية تذكر أن أولئك البنائين الفرس كانوا يبنون دور معاوية بن أبي سفيان، التى يقال لها: «الرقط»، بالجص والآجر، وكان معاوية استقدمهم من العراق. انظر: السابق ص٢٨١. ويبدو أن ابن مسجح قد أفاد من الموقفين كليهما - إعادة بناء الكعبة، وبناء دور معاوية - وقد رأيناه من قبل ذا همة عالية؛ فقد رحل إلى الشام، وأخذ ألحان الروم، بعد أن نقل غناء الفرس إلى غناء العرب، بل إنه انقلب - مرة أخرى - إلى فارس، فأخذ بها غناء كثيرًا، وتعلم الضرب.

(٤) انظر: السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

أما «طويس»[1] فكان « أول من تغنى بالمدينة غناء يدخل فى الإيقاع»[2] وحين أراد أن يغني: «أخذ ملحفة فأتزر بها، وأرخى لها ذَنَبينِ، ثم أخذ المربَّعَ[3]، فتمشى، وأنشأ يغنى.[4]

وابن مُحرز[5] يذكر أنه « أول ما أخذ الغناء أخذه عن ابن مسجح».[6] ولكنه لم يتوقف عند هذا الأخذ، بل طور فيه، ونوع، وأضاف، وابتكر؛ فهو « أول من غنى الرمل، وما غُنِّيَ قبله»[7].

ويبدو أن هذا كان سبقًا منه، لم يرجع فيه إلى أصل يعتمد عليه؛ إذ إن إسحاق بعد أن يروى الخبر السابق، يذكر أنه سأل أباه: « ولا بالفارسية ؟ « فيجيب أبوه: «ولا بالفارسية « ! ثم يستكمل حديثه بأن «أول من غنى رملا بالفارسية سلْمك فى أيام الرشيد، استحسن لحنًا من ألحان ابن محرز، فنقل لحنه إلى الفارسية، وغنى فيه».[8] يضاف إلى هذا أنه «أول من غنى بزوج من الشعر، وعمل ذلك بعده المغنون اقتداء به وكان يقول: الأفراد لا تتم بها الألحان»[9].

مرحلة الانتشار والازدهار

هكذا نشأ الغناء فى بيئة الحجاز، وبخاصة فى مكة والمدينة، ولعل المدينة – بما عرف عنها من رقة – هى التى أظلته برعايتها، فنما، وتطور، وأزهر، وانتشر بصورة لم تعرفها البيئة العربية من قبل.

---

(١) اسمه: عيسى بن عبد الله، وكنيته أبو عبد المنعم، وغيرها المخنثون فجعلوها أبا عبد النعيم. وهو مولى بنى مخزوم. كان ظريفًا عالمًا بأمر المدينة وأنساب أهلها. الأغانى: جـ٣، ص٢٧.

(٢) السابق ص٢٩.

(٣) المربع: آلة من آلات الطرب، وهي: الدف؛ ففى نص آخر لأبى الفرج عن طويس: «............. فاندفع ونقر بدف كان معه مربع »، السابق ص٣٧.

(٤) السابق: ص٣٣.

(٥) هو: مسلم بن محرز. ويكنى أبا الخطاب. مولى بنى عبد الدار بن قصى. وقيل: اسمه سلم، وقيل: عبد الله. وكان أبوه من سدنة الكعبة. أصله من الفرس.

(٦) الأغانى: جـ١، ص٣٩١.

(٧) السابق: نفسه.

(٨) السابق: نفسه.

(٩) السابق: نفسه.

هذا الانتشار يتَبدَّى لنا فى مظاهر عديدة، من أبرزها: تلك الكثرة الكاثرة من أصحابه، وتلك الاستجابة القوية التى عمت المجتمع العربى بكل فئاته وطوائفه.

ونتوقف عند بعض من أصحابه، ممن كان لهم فضل إشاعته وازدهاره. ويلفت النظر فيمن عرضنا - ونعرض - لهم ذلك الحرص الشديد على الأخذ والتلقى ممن برع فى الغناء وأجاد فيه، وكان له فضيلة السبق. ليس هذا فحسب؛ بل إن اللاحق لا يزال يجوِّد فى فنه، وينوعٍّ مصادره، حتى يصبح إماما فى هذه الصناعة.

فالغريض - بعد أن تلقَّى أصول «الغناء» على يد ابن مسجح - يذهب إلى ابن سريج، ويبدو أنه أظهر مهارة جعلت ابن سريج يغضب عليه، فيهجره إلى جاريتين نائحتين هما «حَوْراء وبَغُوم» كانتا فى شعب ابن عامر بمكة، ولم يكن قبلهما ولا بعدهما مثلهما، فقالتا له: «الزُزْ[1] رأسك، بين ما أخذتَه عنه وبين ما تأخذه منا، فإن ضعت بعدها، فأبعدك الله»[2].

ولكنه لم يكتف بهذا؛ بل إنه حين سمع أصوات رهبان بالليل فى دير لهم، استحسنها، فطلب منه بعض من معه أن يصوغ على مِثل هذا الصوت لحنًا، فصاغ مثله فى لحنه:

يا أمَّ بكرٍ حبُّكِ البادي لا تصْرمينى؛ إننى غادي

فما سمع بأحسن منه[3].

وابن عائشة[4]: «أخذ عن معبد ومالك، ولم يموتا حتى ساواهما، على تقديمه لهما، واعترافه بفضلهما»[5].

---

(١) الزز رأسك: أى اجمع بين ما أخذته عن ابن سريج، وما ستأخذه عنا.

(٢) الأغانى: جـ٢، ص٣٦١. هذا؛ مع ملاحظة أننا ذكرنا من قبل أن الغريض تعلم النوح على يد السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما؛ أو على يد الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث؛ أو على يد مولياته حين طرده ابن سريج. وهنا: على يد جاريتين نائحتين هما «حوراء وبغوم». وربما يستدل منها على تنوع مصادر أخذه.

(٣) انظر: الأغانى: السابق ص٣٩٧.

(٤) هو: محمد بن عائشة، ويكنى أبا جعفر؛ ولم يكن يعرف له أب، فكان ينسب إلى أمه. وكانت أمه مولاة لكثير بن الصلت الكندي، حليف قريش. وقيل: إنها مولاة لآل المطلب بن أبى وداعة السهمي. الأغاني: جـ٢، ص٢٠٣.

(٥) السابق: نفس الموضع.

وهو يجمع إلى فن الغناء فن الضرب على الآلات، مع خلاف فى ذلك؛ فـ «قد قيل: إنه كان ضاربًا، ولم يكن بالجيد الضرب. وقيل: بل كان مرتجلا لم يضرب قط»[١]. وعن يونس أنه كان « يضرب بالعود ولم يكن مجيدًا، وكان غناؤه أحسن من ضربه، فكان لا يكاد يمسُّ العود إلا أن تجتمع جماعة من الضُّرَّاب، فيضربون عليه، ويضرب هو ويغنى، فناهيك به حسنًا !»[٢].

وقد اشتهر – مع هذا – بابتداءاته الحسنة فى الغناء، وكان يضرب به المثل فيقال للابتداء الحسن كائنًا ما كان، من قراءة القرآن، أو إنشاد شعر، أو غناء يبدأ به فيستجاد: كأنه ابتداء ابن عائشة[٣].

وحتى « معبد»[٤]: «فحل المغنين، وإمام أهل المدينة فى الغناء»، أخذ عن «سائب خاثر، ونشيط الفارسى مولى عبد الله بن جعفر، وعن جميلة مولاة بهز «بطن من سليم»[٥]، وفيه يقول الشاعر:

أجاد طويسٌ والسريجيُّ بعده   وما قصباتُ السبقِ إلا لمعبدِ[٦]

وهنا يأتى دور الرعاية والتعهد للموهبة، بتقديمها إلى من يأخذ بيدها، أو يبدى رأيًا يساعد فى صقلها؛ إذ يروى أن ابن أبى عتيق خرج إلى مكة، فجاء معه ابن سريج إلى المدينة، فأسمعوه غناء معبد وهو غلام، وسألوه عن رأيه فيه، فقال: إن عاش كان مغنى

---

(١) الأغانى: جـ٢، ص٢٠٤.

(٢) السابق: ص٢٠٥.

(٣) انظر: السابق ص٢٠٤. هذا؛ ويذكر إسحاق الموصلى أنه سمع العلماء قديمًا وحديثًا يقولون: ابن عائشة أحسن الناس ابتداء، أما هو فيرى أنه أحسن الناس ابتداء وتوسطًا وقطعا بعد أبى عباد معبد. انظر: السابق نفسه. كما يذكر رواية عن يونس – فى موازنة بينه وبين ابن سريج – بأنهم ما عرفوا بالمدينة أحسن ابتداء من ابن عائشة إذا غنى. ولو كان آخر غنائه مثل أوله لقدمه على ابن سريج. ويتفق إسحاق هو وإبراهيم أبوه معه فى هذا الرأى. انظر: السابق ص٢٠٥.

(٤) هو معبد بن وهب، مولى ابن قَطَن وقيل: بل مولى معاوية بن أبى سفيان، وكان أبوه أسود. وكان هو خلاسيا، مديد القامة، أحول. مات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده [والخلاسى: الولد بينَ أبوين أبيض وأسود]. انظر: الأغانى، جـ١، ص٣٩.

(٥) انظر: السابق ص٤١

(٦) السابق: ص ٤٢.

بلاده[١].

بل إن هناك رواية تذهب إلى أن معبدًا أتى ابن سريج، وابن سريج لا يعرفه، فسمع منه ما شاء[٢].

هذا الحرص على صقل الموهبة بكل سبيل، والتلقى عمن أجاد، جعل معبدًا يحرز قصب السبق كما يقول الشاعر؛ وهو ما يكاد يجمع عليه مؤرخو هذا الفن.

فإسحاق يرى أن معبدًا كان من « أحسن الناس غناء، وأجودهم صنعة، وأحسنهم خَلْقًا، وهو فحل المغنين، وإمام أهل المدينة فى الغناء»[٣].

ويؤكد على هذا مرة أخرى بأنه سمع من لا يحصى من أهل العلم بالغناء يقولون: «لم يكن فيمن غنى أحد أعلم بالغناء من معبد»[٤].

هكذا ازدهر فن الغناء فى بيئة الحجاز، وراج فيها رواجًا منقطع النظير، والمشتغلون به كانوا كثرة تستعصى على الحصر. ويخيل لمن يقرأ كتاب « الأغانى» أنه لم يكن هناك واحد يعيش فى تلك البيئة إلا وهو متعلق به بسبب. وقبل أن نفرغ من هذه النقطة نشير إلى أن البيئات الأخرى لم تخل من هذا الفن[٥]، وإن كانت شواغلها السياسية أو الحربية حالت دون اللحاق ببيئة الحجاز.

لقد ذكرنا من قبل – فى معرض الحديث عن « النوح»[٦] – ذهاب معبد إلى ابن سريج والغريض بمكة، واتفقوا على أن يُبكوا أهل مكة. وهذا الخبر نفسه يروى برواية أخرى، تنقلنا إلى الحديث عن الوجه الآخر للغناء، ويتمثل هذا الوجه فى الموقف المتشدد من

---

(١) الأغانى: جـ١، ص٤٢.

(٢) انظر: السابق. نفس الموضع.

(٣) السابق: ص٤١.

(٤) انظر: السابق ص٤٢.

(٥) نذكر – فى هذا المقام – حنين الحيري. وهو مختلف فى نسبه؛ فقيل: إنه من العباديين من تميم. وقيل: إنه من بنى الحارث بن كعب. وقيل: إنه من قوم بقوا من جديس وطسم فنزلوا فى بنى الحارث بن كعب فعدوا فيهم. ويكنى: أبا كعب. وكان شاعرًا فحلا من فحول المغنين، وله صنعة متقدمة. وكان يسكن الحيرة. وكان نصرانيًا. انظر: الأغانى، وما ذكره أبو الفرج من أخباره ونسبه. جـ٢، ص٣٤١ – ٣٥٧.

(٦) ص٢٩٨ من هذا البحث.

قبل البعض من الغناء والقائمين عليه. وتقول الرواية: « إن أميرًا من أمراء مكة أمر بإخراج المغنين من الحرم، فلما كان فى الليلة التى عزم بهم على النفى فى غدها، اجتمعوا على أبى قبيس – وكان معبد قد زارهم – فبدأ معبد فغنى واجتمع الناس إلى الأمير، فاستعفوه من نفيهم فأعفاهم»[1].

فهذه الرواية تجعل من الغناء الباكى نوعًا من إثارة الاعتراض، وتهييج المشاعر ضد قرار إخراجهم من مكة.

وإذا كان هذا الخبر لم يحدد من هو أمير مكة، فهناك أخبار أخرى حددت هؤلاء الأمراء الذين أصدروا قرارات نفى المغنين، وذكرت نتيجة هذه القرارات، التى كانت تنتهى – عادة – بالفشل الذريع، والتراجع عن إنفاذ التهديدات، التى كانت تتمثل فى عقوبات جسدية (كالخصاء)، أو النفى المؤقت من مكة والمدينة بخاصة. ولكن الأمر لا يلبث أن يعود كما كان. ولم ينقطع الغناء، بل لعله كان يزداد انتشارًا وإجادة، وما ذلك إلا لأنه كان يصدر عن حياة اجتماعية تستدعيه، وحياة نفسية تتطلبه، وتجد راحتها فيه، وأدوات مواتية تجتهد فى الإتقان والافتنان، فتخلب الألباب باستحداث الجديد من فنونه كل حين.

من هؤلاء المتشددين مروان بن عبد الملك – والى المدينة – الذى ألجأ «طويسا» إلى الهرب والاختباء فى «السويداء» وظل بها حتى أدركته الوفاة زمن الوليد بن عبد الملك[2].

ومنهم – فى المدينة أيضا – عثمان بن حيّان المُرِّي، وإن ذكرت بعض الأخبار أنه تراجع عن تحريم الغناء كما سنرى بعد قليل[3].

وفى مكة قام بأداء الدور نفسه – تقريبًا – واليها نافع بن علقمة الكناني[4]، وخالد بن عبد الله القَسْرى من بعده: شدد أولهما فى النبيذ والغناء والمغنين، وشدد الآخر فيما يمكن

---

(١) الأغانى: جـ٢، ص٣٦٣ – ٣٦٤.
(٢) انظر: الأغانى جـ٣ ص ٢٨٢ و«السويداء» فى طريق الشام، على ليلتين من المدينة.
(٣) انظر الأغاني: ج٨، ص٣٤١ – ٣٤٢
(٤) انظر الأغانى ج١٢، ص١١٨.

أن يطلق عليه فى زماننا «الاعتقال السياسي» أو « تحديد الإقامة». ويبدو أن عقوبات الغناء، أو منع الغناء اختلطت - فى العصر الأموى بعامة - بعقوبات الولاء السياسي، أو المعارضة الصريحة للحكم الأموى.

وكان هذا أشد ظهورًا فى «المدينة» التي ينسب إليها أنها قتلت عثمان، وبايعت عليًّا، وشايعت خلفاءه، وقد نالت مكة منه حظًّا، على الرغم من أنها احتسبت عثمانية بوجه عام؛ ولكنها شاركت المدينة - وإن كانت بدرجة أقل - فى تضررها، بنقل عاصمة الخلافة من الحجاز إلى الشام، حتى وإن حرص خلفاء بنى أمية على أن يكون ولاة مكة من قريش، ولم تخرق هذه القاعدة غير مرة أو مرتين ولمدة قصيرة. أما المدينة فقد أرسل إليها معاوية بُسْر بن أرطأة، وهو دموى متلهف إلى العقوبة[1]؛ وأرسل عبد الملك هشام ابن إسماعيل المخزومي، كما أرسل الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز، ومن بعده عثمان بن حيان المرى، وكانوا فى جملتهم - باستثناء عمر بن عبد العزيز- لا يشجعون الغنـاء، ولا يرضون عن أساليب الحياة الحديثة المترفة، التى كانت المدينة مغرمة فيها.

ويذكر أبو الفرج خبرًا مطولا عن خالد القسري، يكاد يتفق مع ما رواه المبرد عن عثمان بن حيان المري، وإن كان خبر المُرِّى فى المدينة، وخبر القَسْرى فى العراق، وكلا الخبرين له دلالته على التحول فى الذوق العام بين أقطار الخلافة.

روى أبو الفرج « أن خالد بن عبد الله القسرى حرم الغناء بالعراق فى أيامه، ثم أذن للناس يومًا فى الدخول عليه عامة، فدخل إليه حنين ومعه عود تحت ثيابه، فقال: أصلح الله الأمير، كانت لى صناعة أعود بها على عيالي، فحرمها الأمير فأضر بى وبهم؛ فقال: وما صناعتك ؟ فكشف عن عوده، وقال: هذا؛ فقال له خالد: غنِّ، فحرك أوتاره وغنى:

---

(١) يروى أبو الفرج أن معاوية بن أبى سفيان بعث بسر بن أرطأة، أحد بنى عامر بن لؤى بعد تحكيم الحكمين، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه حي، وبعث معه جيشًا آخر؛ ووجه الضحاك بن قيس الفهرى فى جيش آخر، ووجه برجل من غامد ضم إليه جيشًا آخر، وأمرهم أن يسيروا فى البلاد فيقتلوا كل من وجدوه من شيعة على بن أبى طالب وأصحابه، وأن يغيروا على سائر أعماله، ولا يكفوا أيديهم عن النساء والصبيان. فمضى بسر لذلك على وجهه، حتى انتهى إلى المدينة، فقتل بها ناسًا من أصحاب على وأهل هواه، وهدم بها دورًا من دور القوم، ومضى إلى مكة، فقتل نفرًا من آل أبى لهب. انظر: الأغانى ج١٦، ص٢٦٦.

أيها الشامتُ المعيِّر بالدهـ ـرِ أأنت المبرَّأُ الموفورُ
أم لديك العهد الوثيقُ من الأيَّـ ـام، بل أنت جاهلٌ مغرورُ
من رأيتَ المنون خلَّدن أم مَنْ ذا عليه من أن يُضام خفيرُ

قال: فبكى خالد وقال: قد أذنتُ لك وحدك خاصة، فلا تجالسن سفيهًا ولا معربدًا. فكان إذا دعى قال: أفيكم سفيهٌ أو معربد ؟ فإذا قيل له: لا، دخل»[1]. هكذا حدث التحايل على قرار المنع، أو تحريم الغناء.

وإذا كان القسرى - على قسوته ومسارعته إلى العقوبة - قد بكى لما استثارته الأبيات من الخوف الفطرى من انسحاب الحياة، وتغير الزمن، وعدم أمن الزلل - فإن المرى فى المدينة (وقد حرم الغناء أيضًا، وأمهل المغنين ثلاثًا لإنهاء نشاطهم) دخلت إليه سلامة الزرقاء فى حماية حفيد الصديق (ابن أبى عتيق)، وكانت خاشعة المظهر، بيدها سبحة - كما يروى أبو الفرج - ثم حدثت الأمير عن مآثر آبائه، ففكه لها، وبعد الحديث السردى يقول لها ابن أبى عتيق: اقرئى للأمير (أى القرآن)، ففعلت فأعجب بذلك، فقال لها: احْدِى للأمير، فحركه حداؤها. فقال للأمير: فكيف لو سمعتها فى صناعتها ؟ فقال: قل لها فلتقل، فأمرها فغنت:

سدَدن خَصاصَ الخَيْمِ لما دخلْنَه بكل لَبَانٍ واضحٍ وجبينِ[2]

فنزل عثمان بن حيان عن سريره، حتى جلس بين يديها، ثم قال: لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة، فقال ابن أبى عتيق: إذن، يقول الناس: أذن لسلامة فى المقام ومنع غيرها ! قال عثمان: فقد أذنت لهم جميعًا[3].

وهكذا - كما نرى - يصدر قرار المنع - عادة - من الوالى (صاحب السلطة). وهو قرار اتخذه بإرادته المنفردة، أو بحافز ممن يعدون مصلحين، أو أشراف المدينة ، ولكن هذا القرار يفرغ من محتواه بتأثير من الموروث القديم (الجاهلى)، وبمساندة من بعض الشرفاء أيضًا. والخبر الأخير شاهد لذلك؛ فهو يتضمن ألوانًا متنوعة من التأثير، تتمثل

---

(١) الأغانى ج٢، ص٣٤٨ - ٣٤٩.
(٢) الخصاص: الخروق. اللبان: الصدر.
(٣) انظر: الأغانى ج٨، ص٣٤١ - ٣٤٢.

في: تلاوة القرآن فى أوله، والحداء فى وسطه، لينتهى إلى الغناء؛ ولكنه غناء يستثير ذكريات الحياة البدوية، بما تختزنه من حنين إلى البداوة، وزمان الانطلاق على السجية.

ومن هنا يمكن أن يقال: إن هذا الانتشار الواسع للغناء، وهذه الاستجابة القوية له، تمثل تحولا كبيرًا فى الحياة الاجتماعية فى العصر الأموى. وما كان لهذا التحول الاجتماعى الواضح أن يتم إلا بمساندة راغبة ومؤثرة من أشراف القوم. وبعبارة أخرى: ما كان للغناء أن يبلغ هذا الشأو - فى مدينتى الحجاز المقدستين الكبيرتين - ما لم يكن مطلوبًا ومرغوبًا، يجد المساندة ممن لا تقضى دونهم الأمور. من الصحيح أننا نجد للقيان أسعارًا باهظة، ونفوذًا لدى العامة والخاصة، ولكن هذا ما كان ليتم لو لم يكن معبرًا عن حاجات الطبقة العليا، مرغوبًا فيه لدى الطبقات الأخرى؛ وفى كل الأحوال موافقًا عليه لإحداث تأثير ما ترتضيه «السياسة العليا»، وتسعى إلى الترويج له.

لقد بلغ الغناء منزلة مرموقة، ولم يعد فنًا يتنزه الشرفاء والكبراء عن شهوده أو مخالطة أهله. وقد نفاجأ حين نعرف أن قاضيًا مشهودًا له بالعفة والنبل كان فى بدء حياته يتصل بأهل الغناء؛ ألا وهو الأوقص المخزومى (قاضى مكة)[1]، يقول عنه أبو الفرج: إنه لم ير الناس مثله فى عفافه ونبله، وإنه لنائم ذات ليلة، إذ مر به سكران يتغنى:

عُوجى علينا ربة الهودج

فأشرف عليه وقال: «يا هذا شربت حرامًا! وأيقظت نيامًا! وغنيت خطأً! خذه عنى! فأصلحه له وانصرف»[2].

والخبر السابق عجيب من أوجه كثيرة، ومع ذلك فهو يحمل فى طياته مسوغات القبول، حتى وإن افترض أنه مصنوع. ولقد وصف أبو الفرج هذا القاضى بأنه لم ير الناس مثله فى عفافه ونبله، ومن هنا يكون إصلاح القاضى لأداء الصوت الذى غناه

(١) هو: محمد بن عبد الرحمن المخزومى الشامى القاضي. ولى قضاء مكة «فما رئى مثله فى العفاف والنبل». هذه عبارة ابن عبد ربه، وهو يروى خبر هذا السكران الذى كان يتغنى. وروايته لا تكاد تختلف عن رواية أبى الفرج، ولعله نقلها عنه. ثم يُعَقب ابن عبد ربه كلامه السابق برواية عن الأوقص «؛ إذ قالت أمه له: «أى بني؛ إنك خلقت فى صورة لا تصلح معها لمجامعة الفتيان فى بيوت القيان، فعليك بالدين، فإن الله يرفع به الخسيسة، ويتم به النقيصة» يقول: «فنفعنى الله بعلمها»، العقد الفريد: ج٦، ص١٤.
(٢) الأغاني: ج٢، ص٣٦٧.

سكران عابر تغليبًا لجانب الفن على أى اعتبار آخر. ثم إن هناك جانبًا آخر يكمن فى هذا التساؤل: كيف لم يفكر القاضى فى إعمال وظيفته بإقامة حد الشرب على السكران ؟ والجواب: يمكن أن يُعدَّ هذا لونًا من « الستر » على الخطأ أو الخطيئة[1].

لقد أمدَّنا « الأغانى » بكثير من النماذج والشواهد، التى ترسم لنا صورة « الغناء » فى هذا العصر، وكذلك العصر العباسي. ويمكن لمتأمل هذه الصورة أن يلمس آثارها، وما أحدثته من تغيرات اجتماعية فى مجال الذوق والتحرر والترفيه، انعكست بدورها على السلوك العام للمجتمع العربى الإسلامي. وهذا كله مما يتضح من ثنايا هذا البحث.

وغنىٌّ عن البيان أن مصدرًا ضخمًا كهذا لابد أن يحوى معلومات غزيرة عن «الأصوات» و«الغناء» و«الشخصيات» التى اضطلعت بالدور الأكبر فى التأصيل لهذا الفن أولًا، ثم ذيوعه وانتشاره ثانيًا. ولا شك أن أبا الفرج استطاع بخبرته الثقافية المكتسبة بالمعايشة، وممارسة الكتابة أن يرصد الأفعال البشرية، وما يصدر عنها من سلوك اجتماعي، له خصائص معينة، تجعل من فن الغناء أسلوبًا من أساليب التواصل البشري. وإذا كنا لا نستطيع أن نفرض على الظاهرات الاجتماعية طبائع المراحل والحقب السياسية؛ فإننا - فى الوقت نفسه - لا نستطيع أن نقول: إن هذه الظاهرة بمعزل عن تأثير الزمن. ومن هنا فإن العصر الأموى - كما وضحنا من خلال ما عرضه أبو الفرج - كان الأساس الذى انطلق منه فن الغناء، وارتقى، وازدهر، وأصبح له حضوره الفاعل فى كثير من جوانب الحياة.

---

(١) وربما يعد هذا لونًا من التسامح قد يدفع بمن وقع فى الإثم أن يكف عنه، ويعود إلى صوابه. وهناك خبر عن أبى حنيفة يسير فى الاتجاه نفسه؛ إذ كان له بالكوفة جار مغرم بالشراب والغناء. وكان أبو حنيفة يسمع غناءه - فيعجبه - وكان كثيرًا ما يغني:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

وحدث أن أخذه العسس ليلة وحبس، ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة، وحين علم بما حدث له، ركب إلى عيسى بن موسى، وأخبره بأن له جارًا أخذه العسس البارحة فحبس، وما علم منه إلا خيرًا. فأمر عيسى بإطلاق كل من أخذ فى تلك الليلة؛ إكرامًا لأبى حنيفة. وحين لقيه هذا الجار سأله أبو حنيفة: ألست كنت تغنى يا فتى كل ليلة:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

فهل أضعناك ! قال: لا والله أيها القاضي، ولكن أحسنت وتكرمت، أحسن الله جزاءك. انظر: الأغاني، ج١، ص٤٢٨ : ٤٢٩، وانظر أيضا: ابن عبد ربه، السابق ص١٥.

على أن المتأمل لظاهرة « الغناء » فى هذا العصر، قد يجد نفسه مدفوعًا إلى الدخول فى بعد فلسفى يجمله هذا التساؤل: هل كان الغناء وما حققه من رقى ثمرة من ثمرات الحياة المترفة والثراء، والحرية الاجتماعية التى تمتع بها مجتمع المدينة ومكة آنذاك، أم أن الأمر كان على العكس من ذلك؛ أى كانت له أسبابه المتضمنة فى موروثه (الكامن) منذ الجاهلية، وأنه - لهذا - كان سببًا من أسباب الترف، ولم يكن نتيجة من نتائجه ؟

والواقع أن الإجابة السريعة أو المباشرة على مثل هذا التساؤل قد توقع الباحث فى مزالق ينبغى عليه أن يتجنبها إذا ما كان يتحرى الدقة، ويتسم بالموضوعية. ولعل فيما قدمناه - من قبل - من عوامل رصدها أبو الفرج تلميحًا أو تصريحًا، وأسهمت إسهامًا فعالا فى ذلك الارتقاء والازدهار - ما يكشف عن الإجابة. فهذه الظاهرة - إذن - إن هى إلا نتاج لعوامل كثيرة متشابكة[1]. وإن هذا التميز الذى حققه فن الغناء إنما تحقق بعمل جمعي، شمل جوانب مختلفة متفاعلة فى تناغم، أثمر ثماره، وآتى أُكُله، فاستحق - لهذا - اهتمام كاتب مثقف، موسوعى المعرفة مثل أبى الفرج.

المحاور التى تجسِّد أهم خصائص فن الغناء وتفسِّر شيوعه

ويمكننا الآن أن نتوقف عند ثلاثة محاور تجسِّد لنا أهم خصائص هذا الفن، وتفسِّر شيوعه بتلك الصورة التى سجلها لنا أبو الفرج.

المحور الأول: اهتمام المجتمع العربى الإسلامى بالغناء

ويتجلى هذا المحور فى مدى اهتمام المجتمع بالغناء فى ذاته، وبالقيان والمغنين فى أشخاصهم وأغانيهم، وسلوكهم. وكلمة «المجتمع»- هنا - تشير إلى كيان حقيقى متمثل فى كل طبقاته وأعراقه، ولا يستثنى من ذلك أهل الغناء بالطبع، ولا الأقليات القاطنة فى مدن الجزيرة العربية، أو المجلوبة إليها بالاسترقاق أو غيره؛ بل إن هذه

---

(١) لا شك أن الترف وفراغ كثير من الشباب للهو كانا من أبرز العوامل التى أدت - مع غيرهما بالطبع - إلى تكون نظرية فى الغناء شارك فيها العرب والموالي، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام؛ إذ كان هناك اتصال دائم بين مغنى الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء. انظر: د. شوقى ضيف، التطور والتجديد فى الشعر الأموي، مرجع سابق، ص١٠١.

الأعراق المستجلبة من الفرس والروم، والأحباش وغيرهم؛ هم الذين أمدوا الصنعة بأشد الأصوات عذوبة، وأقوى العناصر أداء. وهم الذين أصَّلوا فن الأداء، وصنعوا قواعده، وقد وجدوا حماية ومساندة متحمسة من مجتمع الكبراء، وتفاعلا واستجابة قوية من العامة. ولو أن مجتمع العِلْية من الأشراف والسادة احتضن فنهم، وظل حبيس مجالس القصور، لا يتجاوزها إلى غيرها، لما كان للغناء فى ذلك العصر هذه الأهمية.

وتكشف الأخبار التى ساقها لنا أبو الفرج - فى هذا الصدد - اهتمامًا واسعًا، وشغفًا واضحًا بهذا الفن من طبقات المجتمع على اختلاف مستوياتها. ومن ثم فقد عرض - فيمن عرض له - لخلفاء البيت الأموى الشغوفين بالغناء، والمشاركين فى صنع الألحان حتى ذكر منهم من أجاد الضرب على آلة بعينها، ومن خرج عن حد الاستجابة المعقولة أو المقبولة للطرب، كما نجده فى أخبار يزيد بن عبد الملك، وابنه الوليد بن يزيد.

ونتوقف عند الأخبار التالية فى دلالتها على ما حظى به فن الغناء من اهتمام وشغف:

يذكر أبو الفرج فى « أخبار حنين الحيرى « أن هشام بن عبد الملك كان فى طريقه إلى مكة للحج فمر بالكوفة، فوقف له حنين بظهرها ومعه عوده وزامر له، وعليه قلَنْسية طويلة، فلما مر به هشام عرض له، فقال: من هذا ؟ فقيل: حنين، فأمر به فحمل على جمل وعديله زامره، وسير به أمامه وهو يتغنى.

أَمِنْ سَلْمَى بظهر الكو فة الآياتُ والطللُ
....

ويذكر بقية الخبر أن هشامًا لم يزل يستعيده حتى نزل من النجف، وأنه منحه مائتى دينار، كما منح زامره مائة[1].

كما يروى أن يزيد بن عبد الملك قدم مكة، «فبعث إلى الغريض سرًا، فأتاه فغناه بهذا اللحن:

(١) انظر: الأغاني، ج٢، ص٣٤٢-٣٤٣.

وإني لأرعى قومها من جلالها　　　وإن أظهروا غِشًّا نصحت لهم جَهدي
ولو حاربوا قومي لكنت لقومها　　　صديقا، ولم أحمل على قومها حقدي

فأشير إلى الغريض أن اسكت؛ وفطن يزيد، فقال: دعوا أبا يزيد حتى يغنيني بما يريد...»[1].

ويروى أيضا عن خالد صامة، وكان أحد المغنين، « قال: قدمت على الوليد بن يزيد، فدخلت إليه وهو في مجلس ناهيك به، وهو على سرير، وبين يديه معبد، ومالك، وابن عائشة، وأبو كامل، فجعلوا يغنون، حتى بلغت النَّوبةُ إلي، فغنيته صوت:

سرَى همى وهمُّ المرء يسْري　　　وغارَ النجمُ إلا قيسَ فِتْرِ

إلى آخر الأبيات الأربعة[2]: فقال لى الوليد: أعد يا صام، ففعلت، فقال: من يقول هذا الشعر ؟ قلت: عروة بن أذينة يرثى أخاه بكرا، فقال لي: وأى العيش لا يصفو بعده ؟ هذا العيش الذى نحن فيه على رغم أنفه، والله لقد تحجر واسعًا»[3].

هذه الأخبار الثلاثة لها دلالتها الثقافية والسلوكية تجاه الغناء والمغنين. ففى مرتين من الثلاثة يكون الخليفة فى طريقه إلى الحج، أو فى مدينة الحج ذاتها (مكة)، فلا يصرفه هذا عن الاحتفاء بالغناء، وأحيانًا السعى إليه. وفى الخبر الثالث تجمع أقطاب الغناء فى مجلس الخليفة. وفى الخبر الثانى يكنى الخليفة مغنيه (أبا يزيد) فلا يذكره باسمه (عبد الملك) أو لقبه المتداول (الغريض)؛ والتكنية لا تكون إلا بقصد الإجلال والتعظيم، والمتكلم هو خليفة المسلمين. وفى الخبر الثالث يقول الوليد لصامة «أعد يا صام»

---

(١) الأغاني: ج٢، ص٣٨٢. ما ظنه جلساء يزيد من كراهيته ذكر البيتين (وهما من شعر كثير) سببه - كما شرحه أبو الفرج فى سياق الخبر - أن عبد الملك (والد يزيد) تمثل بهما عندما تزوج عاتكة بنت يزيد بن معاوية، وكان شديد الحب لها، ولكن المنافسة بين فرعى عبد شمس: الفرع السفياني، والفرع المروانى جعلته يصور العلاقة فى هذا التمثل ببيتى كثير، وعاتكة هى أم يزيد بن عبد الملك، انظر السابق ص٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) الأبيات الثلاثة هى:

أُراقبُ فى المجرَّة كُلَّ نَجم　　　تَعرَّض للمَجرَّةِ كيف يَجْرى
لِهمٍّ مـا أزال له مُديمـًا　　　كأنَّ القلبَ أُضْـرِم حر جَمْر
على بكْر أخِى وَلَّى حَميدًا　　　وأى العَيْش يَصْفو بعد بكْرِ !

(٣) الأغاني: ج١٨، ص٣٣٣: ص٣٣٤. وقيس فتر: مقداره.

فيرخم الاسم، والترخيم فى هذا المقام يقصد به التدليل وإظهار المزيد من الرضا، ولا يكون إلا علامة على القرب، وإذا كان الخليفة «يزيد» قد فهم الإشارة على الفور، وهى تذكره بتمثل أبيه بالشعر عندما تزوج أمه (وهو مالا يرضى عواطفه تجاه أخواله من السفيانيين) فإن الخليفة الوليد ابنه لم يعرف شعر عروة. وإذا كان يزيد استوعب الموقف فضبط عواطفه، وكنى مغنيه، وأذن له فى أن يغنى بما يريد - وهذا شأن الكبار فى مواقف الاختيار - فإن ابنه سخر من عاطفة الحزن على الأخ، وأبدى زهوه بما تحقَّق له من ترف العيش. فى الأخبار الثلاثة - أخيرًا - تتجلى حفاوة ظاهرة بالغناء والمُغَنِّين؛ هذه الحفاوة لم تكن وقفًا على الخلفاء بالشام، فقد حذا حذوهم فى هذا ولاتهم على المدن والأمصار بوجه عام، باستثناء عدد محدود ممن عرفوا بالشدة من أمثال: الحجاج الثقفي، وخالد ابن عبد الله القسري.

كما عرض أبو الفرج شغف السادة والأشراف وعلية القوم باقتناء القيان والمغنين وتقريبهم، وتوفير سبل الراحة لهم، بكفالتهم المادية، وحسن رعايتهم، ولا يستطيع البحث أن يتعقب أخبار هذا المستوى الرفيع فى مجتمع مكة والمدينة لكثرتها، وحسبه أن يتوقف عند واحد من هؤلاء السادة الأشراف وهو: عبد الله بن جعفر، وعند سيدة من المستوى نفسه وهي: سُكينة بنت الحسين.

ويعد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، من أهم الأسماء ذات الحضور المؤثر فى موضوع الغناء، وهو صحابى جليل، كان يعرف ببحر الجود. وقد ورد ذكره فى مواطن كثيرة فى كتاب الأغاني، ولعل ما رواه يونس عن أبى عباد (معبد) يبرز لنا مكانة عبد الله بن جعفر، والدرجة التى بلغها الغناء آنذاك. يذكر (معبد) أنه أتى جميلة[1] يومًا، وكان له موعد، فإذا مجلسها غاص بالحضور، وحين سألها أن تعلمه شيئًا، اعتذرت بأن غيره قد سبقه، وبينما هم كذلك إذ أقبل عبد الله بن جعفر، ففرحت به فرحًا شديدًا، وقامت وقام الناس، فتلقته وقبلت رجليه ويديه، وجلس فى صدر المجلس، وقد أحاط به أصحابه، بعد أن أشارت إلى من عندها بالانصراف، وغمزت معبدًا ألا يبرح،

---

(١) انظر: ص ٢٤٨ من هذا البحث.

وخاطبته بما يليق به: «يا سيدى وسيد آبائى وموالي، كيف نشطت إلى أن تنقل قدميك إلى أمتك ؟»، فأجابها: بأنه علم أنها آلت على نفسها ألا تغنى أحدًا إلا في منزلها، وقد أحب الاستماع، فردت بأنها تذهب إليه، وتكفر عن يمينها، فقال: لا أكلفك ذلك، وطلب منها أن تغنى بيتين لامرئ القيس، بلغه أنها تجيد الغناء فيهما، فاندفعت تغني، فغنت بعودها فسبَّح عبد الله بن جعفر والقوم معه[1].

من الطبيعى أن يكون لرجل كعبد الله بن جعفر قدره، وأن يعامل بما هو أهل له من الإكبار والإعزاز، لكن أن يسعى إلى دار جميلة طلبًا للسماع، ويحترم ما عاهدت به نفسها من عدم الغناء لأحد إلا فى منزلها، فله دلالته: أولا فى المكانة التى أصبح الغناء يحظى بها؛ وثانيها: فى اعتزازها بفنها، وتقديرها لدورها فى هذا الفن: تعليماً وغناءً.

وفى أخبار عزة الميلاء ما رواه ابن جعْدُبة من أن ابن أبى عتيق كان معجبًا بها، فأتى يومًا عند عبد الله بن جعفر، وطلب منه أن يذهبا معًا إليها؛ فقد اشتاق لها، وحين اعتذر عبد الله بن جعفر بأنه مشغول، أقسم عليه أن يترك شغله ويساعده، ففعل، فأتياها، ورسول الأمير على بابها يطلب منها أن تترك الغناء؛ فقد ضج أهل المدينة منها، وذكروا أنها قد فتنت رجالهم ونساءهم، فقال له ابن جعفر: ارجع إلى صاحبك، فقل له عني: أقسم عليك إلا ناديت فى المدينة: أيما رجل فسد، أو امرأة فُتنت بسبب عزة إلا كشف نفسه بذلك لنعرفه، ويظهر لنا ولك أمره. فنادى الرسول بذلك، فما أظهر أحد نفسه، ودخل ابن جعفر وابن أبى عتيق معه، وخفف (ابن جعفر) عنها ما عساه أن يكون قد أصابها من سوء بسبب ذلك، وطلب أن تغنيهما، فغنته بشعر القُطاميّ[2].

ويبدو لنا فى هذا الخبر - على فرض صحته - لون من البصر بمعرفة ما كان يُثار حول الغَناء؛ فمن السهل - فى بيئة المدينة - أن يشاع عنه أنه يفسد الرجال، ويفتن النساء، ولكن الواقع كان غير ذلك؛ ومن ثم كان تصدى عبد الله بن جعفر لقرار المنع فى أسلوب مشوب بالسخرية. هذا؛ إلى أن توجهه برفقة ابن أبى عتيق إلى عزة الميلاء يكذب ما ادعاه رسول الأمير.

---

(١) انظر: الأغاني، ج٨، ص١٩٧ وعبارة: « فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه» لها مغزاها فى هذا السياق؛ إذ تنبئ عن درجة عالية من الاستجابة والتأثر.

(٢) انظر: الأغاني: ج١٧، ص١٧٦ - ١٧٧.

والواقع أن من يقرأ ما أُثر عن عبد الله بن جعفر وأمثاله من شغف بالغناء، وطلب له، لابد أن يستحضر فى ذهنه ما كان للغناء من تأثير فى النفوس؛ إذ يحركها ويحدث فيها خفة وروحًا وأريحية، لاسيما إذا كان من ذلك النوع الذى يرتقى بالوجدان، ويترك صداه فى النفس العربية[١].

والخبر التالى صريح فيما نذهب إليه؛ إذ يروى أن عبد الله بن جعفر قدم على معاوية وافدًا، فدخل عليه إنسان، فأخبره بأن ابن جعفر «يشرب النبيذ ويسمع الغناء، ويحرك رأسه عليه»، فجاء معاوية متغيرًا، حتى دخل على ابن جعفر، وعزةُ المَيْلاء تغنيه على عودها:

تَبِلتْ فؤادَكَ فى الظلام خَريدةٌ   تَشفى الضجيعَ ببارِدٍ بسامِ

وبين يديه عُسٌّ، فسأله: ما هذا يا أبا جعفر؟ فأقسم عليه بأن يشرب منه، فإذا عسل مجدوح (مخلوط) بمسك وكافور! قال: هذا طّيب، فما هذا الغناء؟ قال: هذا شعر حسان ابن ثابت فى الحارث بن هشام. وتمضى الرواية فتذكر أن معاوية سأله عن تحريك رأسه، قال: أريحية أجدها إذا سمعت الغناء، لو سُئلتُ عندها لأعطيت، ولو لقيتُ لأبليتُ؛ فقال معاوية: قبح الله قومًا عرضونى لك، ثم خرج وبعث إليه بصلة[٢].

أما سكينة بنت الحسين فيبدو أن أبا الفرج قد بالغ كثيرًا فيما يرويه عنها، وعن مجالسها، وبخاصة فيما يتصل بالغناء، ولكن ما يرويه بعامة له دلالته فيما نتحدث عنه من شغف هذه الطبقة بالغناء، وإسهامهم بطريق غير مباشر فى إذاعته ونشره. ففى خبر طريف يرسم أبو الفرج مشهدًا مسرحيًا، شارك فى صنعه مضحكها الشهير «أشعب»،

---

(١) فى الخبر الأول عن جميلة: أن بيتى امرئ القيس اللذين طلب منها أن تغنى بهما، كان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت. انظر: ج٨،ص١٩٧. وانظر: البيتين وما يتصل بهما: السابق ص١٩٨.

(٢) انظر: الأغانى ج٤، ص٢١٢، ٢١٣. والواقع أن مثل هذه الأخبار تروى عن بعض الصحابة الآخرين رضوان الله عليهم. فمما يروى عن النعمان بن بشير - وهو صحابى جليل - أنه دخل المدينة فى أيام يزيد ابن معاوية وابن الزبير، فقال: والله لقد أخفقت أذناى من الغناء، فأسمعونى فقيل له: لو وجهت إلى عزة الميلاء، فإنها من قد عرفت. فقال: إى ورب الكعبة؛ إنها لممن تزيد النفس طيبًا، والعقل شحذًا. وتمضى الرواية بأن بعض القوم، قالوا: إنها لا تستطيع الانتقال لثِقَل بدنها. وأرسلوا إليها فاعتذرت لعلة. فقام هو مع خواص أصحابه، حتى طرقوها، فأذنت وأكرمت واعتذرت. فقبل النعمان عذرها، وقال لها: غنى، فغنت. انظر: الأغانى: ج١٦ ص٣٢.

وأعانتها عليه عزة الميلاء، وشمل الجميع كرم سكينة وذوقها الرفيع. وخلاصة هذا الخبر أن ابن سريج عانى مرضًا حمله على الكف عن الغناء، فلزم الحرم حتى عوفى ثم خرج وفيه بقية من العلة، وقصد المدينة فأقام بها حولا دون أن يغني؛ فلما عزم على العودة إلى مكة اغتمت سكينة أنها لم تستمع إلى غنائه، فأرسلت إليه أشعب الذى استخدم حيلته فى حمل ابن سريج على الذهاب إلى بيت سكينة، التى تلقته بكثير من الرفق، وأُعد مجلس غناء وسماع، وأرسلت من أحضر عزة الميلاء، فتشاركا فى الغناء ثلاث ليال، كما أقسمت سكينة على ذلك، ومنحت هى كلا من ابن سريج وعزة دملجا[1] من دمالجها الذهبية، وزنه أربعون مثقالا. وحينئذ فقط أذنت له بالعودة إلى مكة[2].

وفى سياق آخر يجمِّل أبو الفرج شخصية سكينة وصورة حياتها المترفة، فيصفها بأنها كانت برزة عفيفة، تجالس الأَجِلَّة من قريش[3]، ويجتمع إليها الشعراء؛ كما كانت أحسن الناس شَعْرًا، تصفف جمتها على نحو خاص، لم يُر أحسن منه، حتى عرف ذلك؛ فكانت تلك الجمة تسمى «السكينية»، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا قد صفف جمته السكينية جلده[4] وحلقه. ومن صور ترفها أنها كانت ترمى الجمار، فسقطت من يدها الحصاة السابعة، فرمت بخاتمها مكانها[5].

هذه نماذج تصلح أن تكون رموزًا للسادة والأشراف، ممن يعْنَوْن بالغناء، ويهتمون بشئونه. ومن الملاحظ فى أخبار هؤلاء -مما لم نذكرها- ما نجده من رعاية وتشجيع وحفز على السبق والتفوق فى هذا المجال؛ فابن جعفر يذكر له أنه تولى رعاية المغنى العربى - ربما الوحيد تقريبًا- فى العصر الأموى: مالك بن أبى السمح الطائى[6]، الذى

---

(١) الدملج: السوار يلبس فى العضد.
(٢) انظر: الأغاني، ج١٧، ص٤٢ - ٤٧.
(٣) انظر: الأغانى ج١٦، ص١٤٣.
(٤) انظر: السابق ص١٤٤.
(٥) انظر: السابق ص١٥٩.
(٦) هو مالك بن أبى السمح الطائى، أمه قرشية من بنى مخزوم، وقد نشأ يتيمًا فى حجر عبد الله بن جعفر، فكفله ورعاه ورباه، وأدخله فى دعوة بنى هاشم، فهو فيهم إلى اليوم، أخذ الغناء عن جميلة ومعبد وعمر الوادى، وأدرك الدولة العباسية. انظر: الأغانى ج٥ ص١٠١ - ١٠٢.

نشأ فى كنفه، وكذلك ابن سريج[1] وغيره، ويُذكر للحسن بن الحسن بن على أن ابن عائشة كان منقطعًا إليه[2].

وإذا كان بعض الخلفاء والسادة يقيمون المسابقات، ويمنحون الجوائز[3]، فإن النساء من عقائل قريش، كعائشة بنت طلحة وغيرها دخلن هذا الميدان ينافسنهم فى ذلك[4].

ويتصل بهذا أمر آخر يبدو مستغربًا وطريفًا فى الوقت نفسه، ولكن هناك شواهد عليه من ذلك العصر؛ فقد رويت أخبار تظهر تعلق بعض أولئك النساء بأن ترد أسماؤهن فى شعر الغزل، ولا يضايقهن بحال أن يتغنى ببعض هذا الشعر، بل لعل هذا كان ما يسعين إليه؛ حرصًا على الشهرة. من هذه الأخبار ما روى عن عاتكة بنت معاوية ابن أبى سفيان والشاعر أبى دهبل الجمحى[5]، وعائشة بنت طلحة والشاعر الحارث بن خالد المخزومى[6]؛ بل إن أبا الفرج يذكر أن عائشة أمرت الغريض أن يغنيها، فغناها من شعر الحارث بن خالد، وكأنها أرادت أن تدفع عن نفسها لونًا من الحرج ربما استشعرته، فقالت - وكأنها تدافع عن نفسها- «والله ما قلنا إلا سددًا، ولا أردنا إلا أن نشترى لسانه»، وأجازته بخمسة آلاف درهم وأثواب؛ وقالت:زدنى، فغناها فى شعر الحارث ابن خالد أيضا، ثم طلبت منه أن يغنى من شعر غيره، فأدرك غرضها فغناها من شعر عمر بن أبى ربيعة فيها، فأمرت له بخمسة آلاف درهم أخرى[7]. وهنا نشير إلى جانب مهم يتعلق بمزاج هؤلاء النفسى الذى يسعى إلى لون من اللهو البرىء، والمتعة التى ترقى بأصحابها فى جو من الفن الرفيع، وينأى عن انتهاز الفرصة والتعلق بالحرام. لقد توفى زوج عائشة بنت طلحة (وهو عمر بن عبد الله التيمى) فقيل للحارث بن خالد

---

(1) انظر: الأغانى ج ١ ص٢٥٧ - ٢٥٨.

(2) انظر: الأغانى ج٢ ص ٢١٧.

(3) انظر فى ذلك خبرًا عن سليمان بن عبد الملك لما حج سبّق بين المغنين بدرة، (أى: جعلها سَبَقا بينهم، من غلب أخذها)، وقد فاز بها ابن سريج ، الأغانى ج١ ص٣٢٧.

(4) انظر: السابق ص٣٢٧.

(5) انظر: الأغانى ج ٧ ص١٢١.

(6) انظر: الأغانى ج ٣ ص٣١٩ - ٣٢٠.

(7) انظر: السابق ص٣٢٠-٣٢١.

المخزومى: «ما يمنعك الآن منها؟ فقال: لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبى بها كان لشىء من الباطل»[1].

لقد أشرنا من قبل إلى استجابات الزهاد والصلحاء والعُبَّاد للغناء؛ وأخبارهم فى الأغانى أكثر من أن تحصى، ويمكن أن يستعان على تصورها بعبارات مأثورة، جاءت عرضًا فى أخبار موثقة لأبى الفرج، وهى تدل على شغف واضح بالغناء، وتعظيم للأصوات وأصحابها، كما تدل -فى الوقت نفسه- على لون من الجرأة فى التعامل مع أقوال تستحق أن تستبعد فى مثل هذا المقام تقديرًا لسياقها الخاص.

فى خبر أن الحسن بن عمر الفُقَيمى سمع غناء وهو فى بيت الشعبى، فلما أظهر دهشته، أراه فى الجوار غلامًا كأنه فلقة قمر، وهو ابن سريج، وقد وصفه الشعبى بقوله: «هذا الذى أُوتى الحُكْم صبيًا!»[2]، وفى موطن آخر قال عن ابن عائشة: «يؤتى الحكمة من يشاء!»[3].

والتقى قنديل الجصاص وأبو الحديد بشِعْبِ الصفراء[4]، وحين سأل قنديل أبا الحديد: من أين وإلى أين؟، أخبره بأنه مر برقطاء الحَبَطيَّة[5]، رائحة تترنم برمل ابن سريج فى شعر ابن عمارة السلمى، ثم يذكر الأثر الذى تركه هذا الغناء فى نفسه؛ فقد تركه وكأنه أَودع قلبه لها، وخلفه لديها، فقال له قنديل: «سمعتَ شعر ابن عُمارة فى غناء ابن سريج من رقطاء الحبطية، لقد أوتيت جزءًا من النبوة»[6].

---

(١) السابق: ص٣٢٧.

(٢) الأغانى: ج١ ص٣٢٤.

(٣) الأغانى، ج٢ص ٢٢٨.

(٤) الصفراء: واد بناحية المدينة، كثير النخل والزرع والخير، فى طريق الحاج، وسلكه رسول الله ﷺ غير مرة. والشعب: مسيل الماء فى باطن الأرض.

(٥) الحبطية: نسبة إلى الحبط، وهو الحارث بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم. ويتحدث أبو الفرج عن رقطاء هذه بأنها كانت من أضرب الناس، وأنه قد «دخل رجل من أهل المدينة منزلها، فغنته صوتًا، فقال له بعض من حضر: هل رأيت قط أو ترى أفصح من وتر هذه ؟!، فطرب المدنى وقال: علىَّ العهد إن لم يكن وترها من معى بشكست النحوى، فكيف لا يكون فصيحًا ؟! «الأغانى، ج١ ص٢٩٩، وبشكست هذا كان نحويًا بالمدينة، كما تذكر الرواية.

(٦) الأغانى، ج١ ص ٢٩٩.

وحدث اعتداء على ابن عائشة، فخمشه المعتدى فى حلقه، فتصدى له ابن أبى عتيق، وضربه، وأقبل على من حضر فقال: «هذا أراد أن يكسر مزامير داود»[1].

إن هذه العبارات -وأمثالها- لم تقصد إلى الاستهانة بأمور تمس (المعتقد) أو تجرحه، بقدر ما كانت تعبر عن درجة من الشغف بالغناء، والإعجاب بأصحابه، قد تصل أحيانًا حد الهوس. وهى -بهذا- تصدر عن ميل شخصى، له مردوده العام، من حيث صدورها عن أشخاص لهم مكانتهم فى المجتمع.

يبقى لنا -فى رصد هذا التدرج الاجتماعى- أن نتلمس مظاهر الشغف العام بالغناء. ولهذا الجانب أهميته، ليس للكثرة العددية فحسب، وإنما لموقع العامة من رسم صورة المجتمع؛ فهم القوة الفاعلة فيه، والمحركة له. ومن الملاحظ أن التغيرات إذا ظلت حبيسة رغبات طبقة بعينها -كالحكام والسادة- فإنها لن تصمد طويلا، وما تلبث أن يصيبها الضمور. ولعل تنبه أبى الفرج لهذا دفعه إلى تلمس مظاهر هذه الاستجابة العامة، فى مواقف معينة، وأماكن محددة، تجاه مغنين بذواتهم.

ومن أمثلة ذلك غناء معبد صوتًا: « فتأوه أهل مكة، وأنّوا، وتمخطوا»[2]، وحين اجتمع الغريض وابن سريج ومعبد، وقرروا ذات ليلة أن يُبْكوا أهل مكة، غنى ابن سريج، فأخذ أهل مكة فى البكاء، وأنوا حتى سمع أنينهم، فلما غنى معبد (القادم من المدينة) « نادوا من الدروب بالويل والحرب والسلب، وبقى الغريض لا يقدر من البكاء والصراخ أن يغنى»[3]. وسيأتى -حين نعرض للشعر فى صحبة الغناء- كيف كان الشاعر والمغنى يخرجان إلى منى، أو إلى وادى العقيق، أو يقفان على جبل أبى قبيس ليسرى الصوت فى هدأة الليل، فيصنع بالنفوس صنيعه.

---

(١) الأغانى، ج٢ ص ٢٠٥.

(٢) الأغانى، ج٢ ص ٣٦٣. وتمخطوا: اضطربوا.

(٣) الأغانى، ج٩ ص ١٧٧. وانظر - على سبيل المثال - هذا الخبر: «.... سمعت ابن سريج على أخشب منى غداة النفر، وهو يغنى:

جدِّدى الوصل يا قريبُ وجُودى لمحبٍّ فراقُه قد ألَمَّا
ليس بين الحياة والموت إلا أن تردُّوا جمالَهم فتُزَمَّا

فما تشاء أن تسمع من خباء ولا مضرب حنينًا ولا أنينًا إلا سمعته». الأغانى: ج١ ص ٣٠٢-٣٠٣.

المحور الثانى: ارتقاء فن الغناء، واتساع مجالاته

من الملاحظ أن الغناء ارتقى فى هذا العصر بصورة لافتة للنظر. ارتقى فى ذاته، وفى الأشخاص القائمين به وعليه، وفى اتساع فنونه وتعدد مجالاته، وما كان لهذا المحور الثانى أن يعمل فى عزلة عن المحور الأول؛ فهو الذى يغذيه، ويستدعيه، ويثيب عليه، ويشعل المنافسة بين أربابه. ونحن نعرف أن جملة أهل الغناء كانوا من غير العرب (الموالى)، وكان البعض منهم زرى الهيئة،[1] كما كان منهم من لا يعرف له أب[2].

وقد يتصف البعض منهم بصفات نفسية يصعب تقبلها؛ كأن يلعب ابن سريج بجرادة يشدها بخيط؛[3] وقد يوصف آخر بالتخنث أو التعلق بالغلمان، أو أن يغرم بارتداء ملابس النساء؛ وقد يدعى الغريض أن الجن نهته عن غناء صوت بعينه[4].

هذه الأمور - وما يشبهها- حدثت ولا تزال تحدث فى طبقات الناس دون تخصيص، ولكن أن تكون لاصقة بشخص مرموق يحظى بإقبال الناس، فيتغاضون عن مثالبه ونزواته، ليستمعوا إلى غنائه، فإن هذا يعنى أن موهبة الصوت عنده كانت قريبة من السحر، وخاصة فى مجتمع يتمسك بمواريثه القبلية، ومقاماته الدينية، وأمجاده فى الفتوحات.

إن العقل ليجد مشقة فى تعليل الشهرة والاستقبال الحافل لهذه الشخصيات التى نعرف عنها هذه الصفات غير الكريمة، وليس لنا إلا أن نظن أن مواهبهم (الغنائية) كانت من التميز بحيث تكتسح فى طريقها كل العوائق الاجتماعية، أو أن المجتمع فى البيئتين المشهود لهما بالأمانة على تراث الإسلام (فى مكة والمدينة خاصة) كان يمارس -فى الخروج على المألوف وتقبل ما جرى العرف باستنكاره- ضربًا من رغبة فى التحرر، وكسر النمط السائد[5].

---

(١) انظر: الأغانى فى وصف ابن سريج، ج١، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) هو ابن عائشة الذى نسب إلى أمه، وإن ذكر هو أن لهذه النسبة سببا آخر، الأغانى ج٢، ص ٢٠٣.

(٣) انظر: الأغانى، ج١ ص ٢٦٥.

(٤) انظر: الأغانى، ج٢٢ ص ٣٢٣.

(٥) وهنا نلاحظ أن هذه الصور من المخالفة، وحتى التشوه الخلقى أو النفسى، كانت خاصة بأخبار المغنين، ولم يذكر عن القيان ما يشبهها.

هذه مقدمة تسلمنا إلى التعرف على ثقافة الغناء عند هذه الطائفة المشتغلة به. وهذه الثقافة يمكن معرفتها من أوصاف الغناء كما وصلتنا، ولا شك أنها وصلت من الرقى إلى الحد الذى كان له مردوده فى توجيه الأداء، بدءًا بكلمات الأصوات المختارة، إلى اجتهاد القيان والمغنين فى توليد الألحان المناسبة.

وقد ذكر أبو الفرج فى مواضع عديدة أن لهذا الصوت أو ذاك أكثر من طريقة لأدائه، ثم ينسب كل طريقة إلى صاحبها، ويصفها بالضبط الاصطلاحى، الذى اتسع له علم الموسيقى فى زمانه. كما لاحظ -أيضا- تلك التطورات التى لحقت بالغناء فى هذا العصر على أيدى الجماعات الكثيرة التى احترفته، وحولته إلى فن له مصطلحاته وتقاليده. وقد رأينا كيف أن «طويسا» كان أول من حاول السير فى هذه الطريق؛ فهو «أول من غنى الغناء المتقن»، وهو «أول من صنع الهزج والرمل فى الإسلام[1]»، ولا شك أن هذا الغناء المتقن الجديد كان يختلف عن الغناء العربى القديم، الذى كان يعتمد فى المقام الأول على عروض الشعر وذوق المغنى، وقلما افتن فيه المغنون؛ فذهبوا فيه مذاهب من التلحين والتوقيع تقوم على مصطلحات خاصة[2].

وواضح من كلام المؤرخين عن «الغناء» أن غناء العرب قديمًا كان على ثلاثة أوجه: النصْب، والسِّناد والهزج. فأما النصب فهو أغانى الركبان والقينات، وأما السناد فهو أنغام ثقيلة، وأما الهزج فهو غناء خفيف[3].

والمقصود بالسناد والهَزَج الغناء الإسلامى الحديث، وهو ما أسماه أبو الفرج «الغناء المتقن»؛ فالسناد هو الغناء الثقيل، والهَزَج ضرب من الغناء الخفيف. وقد نسب أبو الفرج الهزج إلى طويس، ونسب الغناء الثقيل إلى سائب خاثر، فقال: إنه «أول من غنى بالعربية الغناء الثقيل»[4]، وروى بجانب ذلك أن عزة الميلاء كانت من أقدم من

---

(١) الأغانى: ج٤، ص٢١٩. وأبو الفرج -كما سبق أن أشرنا- معنى بتسجيل الفروق، ورصد التطورات، ومتابعتها؛ فهو يقول مثلا عن ابن سريج: «كان ابن سريج أول من غنى الغناء المتقن فى الحجاز بعد طويس». الأغانى: جـ١، ص٢٦٢.

(٢) انظر: د. شوقى ضيف، الشعر والغناء فى المدينة ومكة، دار المعارف، الطبعة الخامسة ١٩٩٢ ص ٥١، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٣) انظر: السابق، ص٥١ وما به من مصادر.

(٤) الأغانى: ج٨، ص٣٢٢.

غنى الغناء الموقع بالحجاز[1]، وهو يقصد هذا الغناء الجديد، الذى يسميه تارة «المتقن» وتارة «الموقع».

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن هذا الغناء الموقع « ينوع إلى ستة ضروب، تجدها منتشرة فى أخبار مغنِّى المدينة لهذا العصر، وهى: ثقيل أول، وثقيل ثان، وخفيف الثقيل، ورمَل، وخفيف الرمل، وهزج. وهى ضروب ترجع إلى أنواع من النقرات؛ فقد تكون ثقيلة، والثقيلة على أنواع، وقد تكون خفيفة، والخفيفة على ألوان أيضا، وقد ميزوا بجانب ذلك مجرى الصوت بحسب الأصابع، فقالوا: ثقيل أول بالوسطى، وخفيف ثقيل بالسبابة، وخفيف رمل بالبنصر، أو يقولون: رمل بالسبابة فى مجرى البنصر، ونحو ذلك مما نقرؤه فى الأغانى منسوبا إلى مغنى العصر»[2].

ومع هذا الإيجاز الواضح لما ذكر من ضروب الغناء، فإن أبا الفرج قد عرض – فى رواياته– ما ذكر القدماء فى تمييز الأصوات. منها ما ذكره فى معرض الحديث عن «صوت حُنين بن بلْوع»؛ إذ يعقب على ذلك بقوله: «الشعر لحسان بن ثابت، والغناء لحنين بن بلوع، خفيف ثقيل أول بالسبابة فى مجرى الوسطى، وهذا الصوت من صدور الأغانى ومختاراتها، وكان إسحاق يقدمه ويفضله. ووجدت فى بعض كتبه بخطه قال: الصيحة التى فى لحن حنين:

لمن الدار أقفرتْ بمعان

أخرجت من الصدر ثم من الحلق، ثم من الأنف، ثم من الجبهة، ثم نبرت فأخرجت من القحف، ثم نونت مردودة إلى الأنف، ثم قطعت»[3].

ومن ذلك ما يرويه الجُمحى قال: «بلغنى أن معبدًا قال: والله لقد صنعت ألحانًا لا يقدر شبعانُ ممتلئ، ولا سقَّاء يحمل قربة على الترنم بها. ولقد صنعت ألحانًا لا يقدر

(١) انظر: الأغانى، ج١٧، ص١٦٢. وقد ورد النص ص ٣٠٣ من هذا البحث.
(٢) د. شوقى ضيف، السابق، ص٥١-٥٢.
(٣) الأغانى: ج١٥، ص١٥٥.

المتكئ أن يترنم بها، حتى يقعد مستوفزًا[1]، ولا القاعد حتى يقوم»[2].

والنص السابق يكشف عن وعى وإحساس عميقين بقيمة ما كان يقدمه معبد وأمثاله من أصوات، تحتاج إلى متلق نشط، يتقبلها ويستوعبها، ويضعها فى مكانها الصحيح. ولعل هذا الإحساس وذلك الوعى كانا وراء ما قاله معبد، وقد سمع رجلا يقول: «إن قتيبة بن مسلم فتح سبعة حصون أو سبع مدن بخراسان، فيها سبعة حصون صعبة المرتقى والمسالك، لم يوصل إليها قط؛ فقال: والله لقد صنعت سبعة ألحان، كل لحن منها أشد من فتح تلك الحصون[3]».

إننا لا نملك المعرفة التى تتيح لنا أن نستوعب هذا التفصيل وأشباهه، وهو يخرج بهذا الفصل عن غايته، وإنما أردنا به أن نبين درجة الاهتمام بفن الأصوات، هذا الاهتمام الذى امتد مثل موجة سارية تلقاها العصر العباسى، وحملت أبا الفرج على وضع كتابه، وإنفاق عمره فى جمع مادته.

فى هذا العصر الأموى اشتعلت المنافسة بين المغنين، حتى قيل عن بعض الأصوات: « هذا صوت قد تمعبد فيه ابن سريج»[4]، وفى المقابل، قد يقال -تعصبًا لابن سريج-: إنما معبد إذا أحسن قال «أصبحت سريجيًا»[5]؛ وهذا خاضع للذوق والهوى، وهنا تدخل عصبيات المدن لمطربيها، فكان أهل المدينة يفخرون بالدلال[6]، وكانت قريش تتعصب لعمر بن أبى ربيعة، وفى الغناء لابن سريج، فإذا استحكمت المنافسة تحولت إلى لون من الممكن أن يسمى بلغة العصر: «الإقطاع الفنى»، وأصبح كل مغن حريصًا على الانفراد بمدينته وجمهوره فيها.وقد ذكر أبو الفرج خبرًا مؤداه أن ابن سريج قصد

---

(١) قعدة المستوفز: هى قعدة الجالس على هيئة كأنه يريد القيام.

(٢) الأغانى، ج١ ص٤٢.

(٣) الأغانى: ج٩ ص١٣٧ وانظر ما ذكره معبد فى إجابته عن السؤال السابق، وكذلك رواية أخرى عن «مدن معبد» تختلف عما ورد عن معبد، السابق ص١٣٧-١٣٨.

(٤) الأغانى:ج١، ص٣٠٣.

(٥) السابق: نفس المصدر، والصفحة.

(٦) انظر: الأغانى، ج٤، ص٢٧٠.

الكوفة مخفيًا اسمه وصفته ليتعرف على أغانى حنين[1].

وفى أخبار حنين نفسه أن ابن محرز قدم الكوفة، فأدرك حنين أنه سينافسه فى مصره، فتلطف به حتى استدعاه، وقال له: «كم منتك نفسك من العراق؟ قال: ألف دينار، قال: هذه خمسمائة دينار عاجلة، فخذها وانصرف، واحلف لى أنك لا تعود إلى العراق، فأخذها وانصرف»[2].

عرف العصر الأموى (فى مدينتى الحجاز الكبيرتين بخاصة) فنون الغناء الجماعى المقترن بالرقص والتشكيل الحركي، (وهو ما يدعى بفن الاستعراض)، وهذا الخروج على الأداء الفردى يؤدى إلى اختلاف فى الإيقاعات، وتوزيع للأداء على المشاركين، ويتطلب تنسيقًا بين الأداء الصوتى والتمثيل الحركى، وهذه الفنون لم يكن للعرب بها عهد.

وهناك خبر نادر يرويه أبو الفرج عن كيفية استقبال «جميلة» عبد الله بن جعفر فى جو استعراضى طريف، يدل على أن فنون العرض قد بدأت تمتزج بفن الغناء، فتُرَوَّج له، وتَرُوج به[3].

وهذا الخبر يلتقى مع ما يرويه النصيب أبو محجن، وقد خرج إلى العقيق مع كثيِّر والأحوص غِبَّ يوم ممطر، وكانوا متنكرين، فإذا فى وادى العقيق وصائف ورجال من الموالى ونساء بارزات، فدعوهم إلى دخول المكان، فإذا امرأة جميلة بَرزة رحبت وحيَّت، وإذا كراسىُّ موضوعة، فجلسوا جميعًا فى صف واحد، ثم أومأت بيدها إلى بعض الخدم، فجاءت جارية جميلة قد سُترت بمُطْرَف، ثم كشف عنها، وإذا جارية ذات جمال قريب من مولاتها، فطلبت منها مولاتها أن تغنى بشعر أبى محجن[4]. وقد ذكر فى نهاية الخبر وجود سيدة من بنى أمية لم يحدد اسمها، ولكن هذا الخبر - حتى مع إمكان إلحاقه بالمتخيل - لا يبدو منافيًا للممكن الذى تقبلنا بوادره فى مجلس عبد الله بن جعفر.

---

(١) انظر الأغاني: ج٢، ص٣٥٣ - ٣٥٤.
(٢) الأغاني: ج٢، ص٣٤٥، وانظر الخبر نفسه: ج١ ص٣٩٣.
(٣) انظر تفصيل هذا الخبر: السابق، جـ٨ ص٢٢٧ - ٢٢٨.
(٤) الأغاني: ج١، ص٣٦٧-٣٦٨.

لقد تميز أهل الغناء بثياب خاصة بهم - ناهيك عن مخنثيهم - ويمكن أن ندرك من أخبارهم أنهم أقبلوا على لبس المصبغات (الثياب الملونة) وأن بعضهم كان يسرف فى التلوين والزركشة بدرجة تثير الدهشة، ونرجح أنهم فى هذا كانوا مسوقين بتأثيرات يوجهها جهازهم العصبى، وتنشئتهم كذلك، فقد روى أبو الفرج أخبارًا عن وجود مؤدبات لتخريج المغنيات. وقد سبق أن ذكرنا النصيحة التى قدمت للإمام مالك وهو صغير يتبع المغنين ويأخذ عنهم، إذ قالت له أمه: «يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، لأنه لا يضر معه قبح الوجه»[1].

تكوَّن فى ذاك الزمان المبكر إذن ما نطلق عليه فى زماننا «مجتمع أهل الفن»، هذا المجتمع الخاص المتسامح مع نفسه بغير تحفظ، تسرى منه بالطبع آثار يلتقطها المعجبون به والطامحون إلى حياته. إن ثياب أهل الفن الملونة المزركشة المثيرة للدهشة كانت تجارى، وكذلك ملابس العلية من السادة وأصحاب الثراء الذين لبسوا الحرير والقوهى والديباج والوشى[2]. كان معبد يلبس ثوبين ممشقين[3]، وكان من عاداتهم ارتداء الملابس الملونة عند الغناء، وكان ابن سريج - وهو يلعب بجرادة ربطها فى خيط- يدافع عن غرائبه فيقول: «وما على الناس من تلوينى ثيابى ولعبى بجراداتى»[4]؛ ويمكن أن تعزى هذه الغرائب والسلوكيات الشاذة إلى قلق هذا المجتمع الخاص، وتطلعه إلى الشهرة مهما كان الطريق إليها.

وقد أشرت من قبل إلى ابن تيزن وقد مر على مجلس ابن جريج، وكان ابن تيزن يأتزر بمئزر الشطار على صدره[5]، كما يمكن أن تعزى إلى الروح الاجتماعية السائدة فى

---

(١) الأغانى: ج٤، ص٢٢٢. وانظر أيضا ما سبق أن ذكرناه من نصيحة أم الأوقص المخزومى له، لتصرفه عن الغناء ص٣١٦، هامش (١) من هذا البحث.

(٢) انظر: الأغانى: ج١، ص٣٢.

(٣) الأغانى: ج١، ص ٤٣. وفى هامش (١) المشق بالكسر والفتح، وهى المغرة، وهى صبغ أحمر.

(٤) الأغانى: ج١، ص٢٦٥.

(٥) جاء فى كتاب الأغانى: «الشاطر من أعيا أهله خبثًا. قال أبو إسحاق: فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء. والمراد من الشطار هنا طائفة من أهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة وزى خاص، ففى أخبار أبى نواس ج١ ص ٣٥ طبع مصر ما نصه « زى الشطار: طرَّة مصفقة، وكمَّان واسعان، وذيل مجرور، ونعل مطبق. هامش (٤) جـ١، ص٤٢٣.

الحجاز، وقد كانت تتسم بنوع من الحرية فى السلوك والعمل، فى غير ما يتعلق بسلطة بنى أمية ومعارضة سياستهم.

المحور الثالث: الشعر والغناء

بقى أن نتحدث عن أثر رواج الغناء، وإقبال الناس عليه فى توجيه معانى الشعر، وصياغته وأوزانه. وهذا ما يجعلنا ننظر إلى هذه العلاقة على أنها إحدى معطيات التغير الاجتماعى. ومن البديهى أننا لا نبحث فى الشعر الأموى فى ذاته، فقد نال عناية الدارسين قديماً وحديثًا، وإنما فى الشعر الذى استجاب للغناء، وروج له وراج به، ومن ثم تحقق اكتمال دورة الفن فى المجتمع؛ فالكلمة تصنع اللحن، واللحن يستدعى الكلمة، وكل منهما يسعى للآخر، ليدخل فى ثقافة الناس، وينال إعجابهم، فيحرك مشاعرهم، ويشكل وجدانهم، ويؤثر فى سلوكهم.

ونشير هنا إلى الدراسة القيمة للدكتور شوقى ضيف عن «الشعر والغناء فى المدينة ومكة»[1] لعصر بنى أمية، ولاشك أن دراسة بهذا العنوان هى صلب ما نتحدث عنه الآن، وبخاصة أنها اعتمدت - بصورة أساسية- على كتاب «الأغانى» كمصدر لها، ومن ثم فقد انتهى فى بحثه إلى نتائج محددة، بعضها عام، والآخر خاص، أما العام فيمس الشعر فى توجهه وموضوعاته، وأما الخاص فيتصل بالصياغة والإيقاع.

فعلى المستوى العام اجتذب الغناءُ واهتمامَ الشعراء، فأقبلوا على شعر الغزل، وتوسعوا فيه، ذلك التوسع الذى نجده عند عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات فى مكة[2]، والأحوص فى المدينة[3]، ولم يسلم منه فقهاء المدينة، فاشترك بعضهم فى نظمه[4].

هذا؛ إلى أن شعر الغزل فى الحجاز فى ذلك العصر استطاع أن يعدل ميزان الشعر

---

(١) سبق أن أشرنا إليها فى الصفحات السابقة، ٢٧٠.

(٢) انظر: د. شوقى ضيف، الشعر والغناء فى المدينة ومكة ص٩٠-٩٢.

(٣) انظر: السابق، الفصل الخامس ص ١١٤ وما بعدها، وهو خاص بالأحوص.

(٤) انظر: السابق ص ٩٩ -١٠٤.

العربى فى الفترة ذاتها، هذا الشعر الذى شُغل بمديح الخلفاء وأصحاب السلطان فى الشام، واستهلكته المذهبية الدينية والسياسية فى العراق، وطغت عليه النقائض وتبادل الأهاجى فى غير موطن من هذين المصرين، فإذا أفرغ الحجاز طاقته فى شعر الغزل، فإنه بذلك يكون قد خلص الشعر من طغيان الظروف الخارجية، وأعاده إلى طبيعته فى صدوره عن المشاعر الخاصة، والعواطف الخالصة، وحفاوته بالفرح الإنسانى، وحب الحياة وتجميلها.

أما أثر الغناء فى صياغة الشعر وموسيقاه -على المستوى الخاص- فقد امتد ليشمل الأوزان واللغة، وطول القصيدة، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بالغناء كفن له أدواته المتنوعة المتناغمة التى تسهم فى إبداعه. ومن هنا راح الشعراء يفضلون الأوزان الخفيفة، والبحور المجزوءة، وينظمون المقطوعات القصيرة، أو القصائد التى تتكون من مقاطع، يمكن أن يختار بعضها للغناء. ومن ناحية اللغة فقد آثر الشعراء الكلمات والعبارات السهلة، الخفيفة النطق، ذات النزعة التصويرية الغنائية، دون إغراق فى المجاز، بحيث يسهل إدراك مرماها عند السماع، وقد أدى هذا إلى أن يتفوق شعر الغناء على الشعر التقليدى فى رأى د. شوقى ضيف، وأصبحت أغانى الغزل شعرًا شعبيًا عامًا متداولًا[1].

والواقع أن كتاب «الأغانى» حافل بهذا الجانب الذى نتحدث عنه، أى « الغناء والشعر»،وهو جانب خصب، يعبر عن مدى التفاعل بينهما، وانعكاس ذلك على الذوق العام، فى تحضره، وارتباطه بموروثه، وتغنيه بأيامه، وقيمه، وعواطفه، وهذه بعض النماذج الدالة على ذلك:

جاء فى أخبار ابن عائشة أنه مر بعروة بن أذينة، فقال له: قل أبياتًا هَزَجًا أُغَنِّ فيها، فقال له: اجلس، فجلس، فقال:

سُليمَى أزمعتْ بينَا

(١) انظر: د. شوقى ضيف السابق، ص١٨، ١٠٤.

الأبيات[1]

فالمغنى -هنا- وهو ابن عائشة توجه إلى الشاعر بطلب محدد، فوجد استجابة مباشرة، وانتهى الأمر إلى هذا المعنى الطريف، الذى يزيده الغناء طرافة. إن التأليف على «مواصفات» الموسيقى، ورغبات المغنين معترف به الآن. وهاهى سوابقه تدل على أن هذا كان يحدث فيوجه طاقة الشاعر وخياله ومعجمه وإيقاعه أيضا، إذ شرط ابن عائشة أن يكون الشعر هزجًا (مفاعيلن، مفاعيلن) وقد تحقق له ما أراد.

وفى فقرات متعاقبة طويلة، يبدى أبو الفرج اهتمامًا بالعلاقة بين الشاعر عمر بن أبى ربيعة وأهم مطربى زمانه: ابن سريج، والغريض، وكيف كانت العلاقة بين الشاعر والمغنى علاقة صحبة واتفاق مزاج، وسعيًا إلى استكمال السيطرة على الذوق العام وتوجيهه. وهذا بالنسبة لابن سريج خاصة؛ إذ كان يسكن مكة التى يقيم بها عمر بن أبى ربيعة، وكان يصحبه فى انطلاقه خارج مكة، فى الليل أو فى النهار يلبسان أحلى الثياب (الديباج) وقد خضبا نجيبيهما ولبسا حلّتين، فخرج الشاعر والمغنى بهذه الهيئة (الاستعراضية)، وكما يقول الخبر: «فجعلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء»[2] . وقد تسوقهما المغامرة المحسوبة إلى لقاء سريّ يكتشفان أنه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك، فيغنى المطرب من شعر صاحبه فيعجب الخليفة بالشعر وبالغناء.. فيهدى إليهما.... إلخ[3].

فى صفحات تالية للخبر السابق تتغير المواقع، وتظل الصور على طرافتها، وتنتهى المغامرة إلى الغناء، وقد تفضى إلى المكافأة[4]، وخلاصة ما تعنيه فيما نحن بصدده أن هذه الصلة (المستحدثة) فى العصر الأموى بين المغنين والشعراء، كانت فى خدمة الشعر كما كانت فى صالح الغناء، إذ حافظ الغناء على رقى لغته، وجمال صوره، وصدق تعبيره عن مشاعر المتلقين فى عصره، وعبر عصور التاريخ، وفاز الشعر بمزيد من الانتشار، وهو الهدف الأسمى للفن فى كل عصر، وإن اختلفت الوسائل والتصورات.

---

(١) انظر الأغانى، ج٢ ص٢٣٨. والأبيات مذكورة. نفس المصدر ص ٢٣٧.

(٢) الأغانى، ج١ ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) انظر: الأغانى، السابق، ص٢٦٧

(٤) انظر: السابق، ص٢٦٨ -٢٧١.

هذا؛ وقد كشف الفصل عن غزارة المادة المتعلقة بالغناء، سواء فى ذلك ما يتصل بالمغنين أنفسهم، أو ما يتصل بالمتلقين لعطاء هذا الفن على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم.

وقد تبين ازدهاره بصورة لافتة للنظر وبخاصة فى بيئة الحجاز، وعللت الدراسة لذلك، مركزة على اتساع موجة الثراء والترف، وكثرة الأرقاء والموالى وامتزاجهم بالعرب ورقة طبع أهل الحجاز.

كما لوحظ شغف السادة والأشراف وعلية القوم باقتناء القيان والمغنين، وتوفير الجو المناسب لهم، بكفالتهم ماديًا، ورعايتهم معنويًا.

وأبرز الفصل الأثر المتبادل بين الشعر والغناء، وانعكاس ذلك على الارتقاء بفن الغناء، ولم ينس فى هذا المجال إسهام المرأة القرشية التى كان لها صوت مسموع فى هذا العصر.

وأبانت الدراسة عما كان للغناء من أثر، وما أحدثه من تغيرات اجتماعية وحضارية فى الذوق والتحرر والترفيه، انعكست بدورها على الذوق العام للمجتمع العربى الإسلامى.

الفصل الرابع

المـرأة

يَحْتَاج مَوْضُوع «المَرْأة فى العَصْر الإسلامى» إلى تناول من نَوْع خَاصّ، تستدعيه طَبيعة المَوْضُوع، كَمَا تفرضه الطَرِيقة والمدى اللذان تعَامل بهما أَبُو الفَرَج معه. وإن السُّؤَال البديهى الَّذِى يفرض نَفْسه مدخلًا لِهَذَا الفصل: عن أَيَة امْرَأة نتحدث؟ وَمَا القضايا الَّتِى يستدعيها التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ باعتباره ركيزة الدراسة التاريخيَّة بمَا يحمل من دلائل التغيُّر والتطوُّر المرتبطَين بحركة الزمن واختلاف البيئة، وَهُوَ مَا اهتمَّ برصده علم الإيكولوجيا[1].

وقد كَانَ لِلْمَرْأة -شخصًا ومَوْضُوعًا- مُسْتَوَيَات من الحضور فى مَجَال العَصَبيَّة، إذ كَانَت عَاملًا مؤثِّرًا، وكَانَ حقُّها فى أن تُجير وتحمى متساويًا مع حق الرَّجُل، إن لَّم يكُن أكثر حساسية، وكذَلِكَ فى مَجَال الغناء؛ فقد كَانَ للقيان -وهُنَّ نساء غير عربيَّات- فى جملتهن تأثير واضح فى المشهد الغنائى ومجالس الطرب، قَد يرتفع حَتَّى يلامس أريكة الخِلاَفة.

ومن ثَمَّ فإننا نستبعد فى هَذَا الفصل مَا سبق التعرُّض لَهُ فى فصلَى العَصَبيَّة والغناء، لتكون مادتنا مقصورة عَلَى مَا يتصل مباشرةً بالوضع الاجْتِمَاعِيّ لِلْمَرْأة فى العَصْر الإسلامى.

وَهُنَا لاَ بد أن نعترف بأن المادة الَّتِى عرض لَهَا أَبُو الفَرَج منطلقًا من هَذَا المُسْتَوَى الإدراكى (الاجْتِمَاعِيّ) الخاص تُعَدُّ قليلة، وبخاصَّة إذا قيست إلى مَا ذُكِرَ عن القيان، أَو

---

(١) الإيكولوجيا Ecology علم البِيئة، وَمَا يخص دراستنا يتعلق بالإيكولوجيا الثقافية Cultual Ecology، وتَعنى دراسة تغيُّر الثقافة الناشئ عن التكيُّف مع البِيئة الطبيعية. وتفرِّق مصطلحات علم الاجتماع بين التطوُّر والتغيُّر، فالتطوُّر Evolution هو التحوُّل من أشكال سابقة عن طريق تنوُّع الوظيفة وتعقد البناء، أما التغيُّر Change فيعتمد عَلَى النقل عن الآخرين، والقدرة عَلَى الاختراع. انظر: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور ص٦٠، ١٠٢، ١١٦.

مَا كَانَت المَرْأة فيه أحد صُنَّاع الحروب القبلية وإثارة العصبيَّات. وَهَذَا التفوُّق الكمِّيُّ فى المَوْضُوعين يمكن تحديد أسبابه وَلاَ يَحْتَاج إلى بحث طويل؛ فمنهج الأغانى يتأسس عَلَى مبدأ تعقُّب الأصوات أَو الشِّعْر المغنَّى؛ ومن ثَمَّ توسَّع فى أهل الشِّعْر وأهل الغناء.

كَمَا كَانَت العَصَبيَّة انعكاسًا مباشرًا للقبيلة، وَهِيَ النظام الاجْتِمَاعِيّ الأساسى فى الجزيرة العربيَّة، فى جاهليتها وَفى إسلامها، وإن تعدَّدت مُسْتَوَيَات السُّلْطة وتدرَّجت مَا بين شيخ القَبيلة، والوالي، والخَليفة.

ويمكن ردُّ قلة مَا رُوِيَ من أَخْبَار وَمَا ذُكِرَ من شخصيَّات النِّسَاء المعبِّرات عن الشأن العَامِّ، فِى جانب منه إلى مَا أفاض أَبُو الفَرَج فى الحديث عنه، مما تعلَّق بالتبعية بالغناء، وبأشخاص الشعراء، وبعلاقات الحروب والجوار بين القبائل. عَلَى أن هَذِه القِلَّة يمكن أن تعود إلى سبب تاريخي/ اجْتِمَاعِيّ لاَ يمكن إنكاره، وَهُوَ أن المَرْأة، منذ أقدم حقب التاريخ البشري، نُظر إليها على أنها تابعة للرجل محسوبة عليه، مهما اكتسبت -فى بعض المجتمعَات البدائية، وحَتَّى زماننا الحاضر- من أهميَّة أَو مَنْزِلة أَو شهرة.

لقد عُنى ول ديورانت -فى كتابه الموسوعى «قصة الحضارة»- بنظام الأُسْرة (الأبويَّة) وكيف نشأ، ومكانة المَرْأة فى ذَلِكَ النظام. وابتداءً فإنه يربط بين تكوين الأُسْرة وتكوين القَبيلة من أسر ذات علاقة ومصالح. ويرى ديورانت أن «القَبِيلة» أسبق وجودًا، وأن الإنسان اهتدى إلى هَذَا الشكل العلائقى؛ لأن ضعفه الفسيولوجى لاَ يتيح لَهُ الدفاع عن نَفْسه ضد الكواسر، وَلاَ يتيح لَهُ توفير احتياجاته كافَّةً[1].

من ثَمَّ كَانَت المرأة فى ظل «الأُسْرة» -الَّتِي خضعت فى البداية لمطالب القَبِيلة، فى ذَلِكَ النمط البدائي- أهمَّ من الرَّجُل؛ لأنها تمنح الأُسْرة امتدادها بالإنجاب، وتقوم بكثير من الأعمال، بل يرجع تطوير الزراعة إلى المَرْأة؛ على مقربة من مجال السكنى[2] حول بيتها؛ ففى حين كَانَ الرَّجُل يخرج للصيد، ويقضى العَام متفاخرًا بتعرُّضه للأخطار، كانت المَرْأة تنهض لخدمة أسرتها وزوجها، وتمنحه مزيدًا من الأولاد.

---

(١) انظر: ول ديورانت قصة الحضارة، الجزء الأول من المجلد الأول، ص٥٥.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٦١.

ويحرص ديورانت عَلَى تأكيد أن علاقة المَرْأة بأبيها وأخيها كَانَت أقوى من علاقتها بزوجها[1]؛ كَمَا يذكر أنه فى علاقات الزواج البدائية كَانَ الرَّجُل يهجر قبيلته ويعيش فى كنف أسْرة زوجته، ولكن مَا لبثت «الأسْرة الأبوية أن أصبحت الوحدة الاقتصاديَّة والشرعية والسياسيَّة والخلقية فى المُجْتَمَع، وانقلبت الآلِهَةُ -وقد كانُوا نساءً فى أغلبهم- رجالًا ذوى لِحًى، هم لِلنَّاسِ بمثابة الآباء، يحيط بِهِمْ من النِّسَاء (حريم) كالَّذِى كَانَ يحلم بِهِ ذوو الطموح من الرِّجَال فى عزلتهم»[2].

لقد أُطلِقَت يد الرَّجُل فى معَاملة زوجته، أَو زوجاته، وبناته، ففى الروسيا القديمة -كما يقول ديورانت- كان الوالد عند زواج ابنته، يضربها ضربًا رقيقًا، ويمسك بسوط ويقدمه إلى من يتزوج ابنته[3]، رمزًا لانتقال سلطتها من أبيها إلى زوجها.

ويربط ديورانت بين هَذِهِ التغيُّرات ونشأة «المِلْكية» الَّتِى استوجبت مجموعة من القيم الأخلاقية الَّتِى تُلزم المَرْأة بالعفة والاقتصار عَلَى زوج واحد، وَلاَ تُلزم الرَّجُل بشيء من هَذَا. ولهذا ارتبط تعدُّد الزوجات بعدّة أسباب فى مقدمتها ثراء الزَّوْج وسطوته[4]، وأصبحت المَرْأة هِيَ الَّتِى تنتقل فتعيش فى كنف زوجها.

إنا لَمْ نسرد هَذَا القليل الضارب فى أعماق التاريخ لنبرِّر مَا قَد يُظَنُّ أنه تقصير فى رؤية صاحب الأغانى الاجتماعيَّة، أَو غفلة عن أهميَّة الكِيان الاجْتِمَاعِيّ لِلْمَرْأة فى الحياة العَامة.

بل إننا -فى سياق هَذَا الفصل- سنجد من الأخبار والأحداث، مما رواه أَبُو الفَرَج، مَا يمكن أن يعطى مؤشرًا قويًا عَلَى ملامح محدَّدة فى النظام الاجْتِمَاعِيّ السائد فى العَصْر الأُمَوِيّ تخص المَرْأة، ليس فى ذاتها بالطبع مَا دمنا نبحث فى المُجْتَمَع، وإنما فى النسق العلائقى الَّذِى يصل بينها وبين القَبِيلة، وغيرها من القبائل الأخرى، وَفِى حالات الزواج والفراق.

---

(١) هُنَا يشير إلى مسرحية «أنتيجونا» لسوفوكليس، وأنها ضحّت بحياتها من أجل أخيها لاَ من أجل زوجها. انظر: السابق، ج١، ص٥٨.

(٢) السابق، ص٦٢.

(٣) انظر: السابق ص٦٣.

(٤) انظر: السابق، ص٧٠-٧١.

ونشير هنا إلى أن المَرْأة الَّتِى تقصد إِليها الدراسات فى هَذَا المجال هِيَ المَرْأة الحجازيَّة بصفة خاصَّة، حَتَّى وإِن رحلت إلى بعض الأمصار الَّتِى نلاحظ قربَها النسبى واتصالها الجغرافى واقترابها من الحجاز وتكوينه السكَّانيِّ، ونقصد العراق والشام دون غيرهما من أقطارٍ أصبحت تحت سلطة دولة الخِلاَفة مثل مصر وفارسٍ وَمَا ولِيَهما غربًا وشرقًا[1].

وسوف نتناول فيما يأتى قضيتين أساسيتين تتعلقان بوضع المرأة خلال هذه الفترة وهما: الزواج، وتحرر المرأة.

أولًا: الزواج

تتعدد الأخبار الخاصَّة بالزواج فى كتاب الأغانى وتتنوع. ولا شك أن «الزواج» من أهم الظواهر الاجتماعيَّة التى يقوم عليها بنيان المجتمع وكيانه. وقد كانت عوامل التغيير -فى ذلك العصر- قوية، وتعمل عملها فى النفوس، حتى وإن لم تبدُ على السطح؛ ومن ثم فقد شغل موضوع «الكفاءة» -أو غياب الكفاءة- مساحة مهمّة فى أَخْبَار الزواج

(١) نشير -هنا- إلى عدة دراسات اتخذت من «المرأة» فى العصر الأموى محورًا لَهَا، الأولى والثانية تحت عنوان واحد: «صورة المرأة فى الشعر الأموي»، للدكتور محمد حسن عبد الله- عن مكتبة ذات السلاسل بالكويت (١٩٨٧م)- والدكتورة أمل نصيِّر- عن المؤسسة العربيَّة للدراسات والنشر ببيروت (٢٠٠٠م). أما الثالثة فبعنوان: «صورة المرأة فى شعر الغزل الأموي» للدكتور رفيق خليل عطوى- عن دار العلم للملايين- بيروت. ومن الملاحَظ أن هذه الكتب الثلاثة لم يشر أى منها إلى الآخر، كما أن المحتوى -على الرغم من تقارب العناوين- يختلف قليلًا أو كثيرًا حسب ما يثير الموضوع، ولكن الكتب الثلاثة تلتقى على اعتبار أن المرأة الداخلة فى نطاق البحث هى المرأة الحجازية أساسًا وجذورًا، وإن رحلت إلى المِصْرين المشار إليهما (العراق والشام) دون أهل البلاد الأصليين، ودون النساء فى الأقطار الأخرى الداخلة فى نطاق دولة الخلافة. وهذا لا يعنى أننا لن نجد فى هذه الدراسات إشارات إلى نساء تلك الأقطار الأخرى، كالشام والعراق وخراسان، بل على العكس من ذلك، فربما دعَت طبيعة الدراسة وطريقة المعالجة إلى الإشارة إلى تلك الأقطار؛ كما صنعت الدراسة الثانية فى وقفتها السريعة عند خراسان، وبلاد الشام (انظر ص٢٠٥). وهناك ملاحظة تتصل بالدراسة الأخيرة: «صورة المرأة فى شعر الغزل الأموي؛ إذ لم تبرح شعراء الحجاز ونجْد فى المدن والبوادي، وفى غرض الغزل بخاصَّة؛ ومن ثَمَّ فإن المرأة فى هذا الكتاب هى تلك التى كانت موضوعًا للغزل فى قصيدة. هذه ثلاث دراسات معاصرة، تملك من إمكانات البحث أضعاف ما كان متاحًا للأصفهاني، ومع هذا فقد عملت فى الإطار نفسه الذى أشبعه أبو الفرج بحثًا، ولعله - بحسِّه الاجتماعيِّ، وثقافته الإسلاميَّة- تجاوزها فى أمور مهمة، نعرض لَهَا فى سياق هذا الفصل.

وأسباب التَّفْريق[1] الَّتِى رواها أَبُو الفَرَج، وستكشف هَذِهِ الأخبار عن تحرُّك أَو تغيُّر فى أَوَّلِيَّات منظومة القيم العربيَّة الإسلاميَّةَ فى العَصْر الإسلامى.

لقد تناول الدكتور عبد السلام الترمانينى موضوع الكفاءة، واختلاف مرجعيتها عند العرب فى مختلف عصورهم[2]، وقد بدأ من الجماعَات القبلية الَّتِى تعيش متنقلة فى البوادى وغيرها من الأماكن، وكَانَت تتألف من طبقة واحدة يتساوى فيها الأفراد إذ يرتبطون بسلف مشترك، ومن ثم كَانَ معيار التمايز والكفاءة قوّة الرَّجُل وشباب المَرْأة، وبالقوّة كَانَ يتمايز رجَال القَبيلة العربيَّة فى عصرها الجاهلي، ولكن القبائل فيما بينها لَمْ تكُن متكافئة، شأنها شأن الطَبقات الاجتماعيَّة فى المجتمعَات المدنية الحديثة.

ونضيف إلى مَا ذكره الترمانينى أن بعض القبائل تحتل الذروة، كَمَا يحل بعض منها فى مكان وسط، ويقنع كثير منها بموقعه فى السفح. وكما يعود هَذَا التقسيم إلى عراقة النسب وجلالة الأجداد، فإنه لاَ يُغفل عوامل أُخْرَى: العدد والسطوة والثروة والموقع، وَهَذَا التفصيل مستفاد من قراءة «الأغاني» فى جملته، وبخاصَّة حين يعرض للأحلاف، وأحداث الجوار، والحروب والغزوات والإغارات، وَمَا يلحق بهذا كله من العَصَبيَّة وَمَا يترتب عليها من المصاهرات أو رفض المَصاهرات...

ويرصد الدكتور الترمانينى مؤشر التغير فى مرجعية الكفاءة بعد الإسلام فيقول: «لَمَّا جاء الإسلام وضع معيارًا جديدًا للكفاءة مستمَدًّا من مبدأ استحدثه وَهُوَ: الإخاء بين المؤمنين، والمساواة بينهم، فأحلَّ بذَلِكَ الرابطة الإيمانية محلَّ الرابطة النسبية وكل وصف آخر للكفاءة، وقد تقرَّر هَذَا المبدأ فى قوله تعَالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٠]، وبذَلِكَ أصبح المؤمنون متساوين فى الحقوق والواجبات، وَلاَ يتفاضلون إلاَّ بالتقوى، وقد تأيَّد هَذَا المبدأ بقوله تعَالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٣] ، وعَلَى أساسه وضع النبى (ﷺ) معيار الكفاءة فى النكاح فقال: [إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوِّجوه، إلاَّ تفعلوا

(١) التَّفْريق بين الزوجين بسبب انعدام الكفاءة هو الوصف الفقهى لهذه الحالة، من ثم لاَ يُعَدُّ طلاقًا، لأنه لاَ يتمُّ بإرادة الزوج، وَلاَ بنطق منه، وإنما بحكم ممن لَهُ الولاية.

(٢) الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام (دراسة مقارنة): سلسلة عالم المعرفة- الكويت- ١٩٨٤- ص١٦٩ وما بعدها.

تكُن فتنة فى الأرض وفساد عريض]»[1].

ثم يعلق عَلَى هَذَا التحوُّل فى مفهوم الكفاءة بقوله: «وقد روعى هَذَا المعيار فى حياة الرسول (ﷺ)، ويبدو أن النَّاس تقبَّلوه عَلَى مضض؛ لأنه حوَّل عُرفًا راسخًا إلى سلوك غير مألوف، ولكن نضارة الإيمان فى النفوس جعلت النَّاس ينزلون عَلَى حكم الرسول (ﷺ) ويلتزمون بطاعته»[2].

لقد ذكر الدكتور الترمانينى بعض حالات الزواج الَّتِى عُقدت زمن النبوة إعمالًا لمبدأ التكافؤ بالمفهوم الإسلامي، ومن بينها أربع حالات كَانَ «العقد الفريد» و «عيون الأخبار» مصدره فيها، «إذ زوَّج بنو ليث -وهم فرع من كنانة- بلالًا مؤذِّن الرسول (ﷺ)، وزوَّجوا أخاه من بناتهم، وزوَّج النبى (ﷺ) مولاه: زيد بن حارثة من ابنة عمَّته زينب بنت جحش بن رئاب بن خزيمة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم. وتقدم حجَّام يُدعَى أبَا هند يخطب امْرَأة من بنى بياضة -وهم فرع من الخزرج- فأبوا، فأمرهم النبى (ﷺ) وقال لهم: [يا بنى بياضة، أنكحوا أبَا هند وأنكحوا إليه، وإن كَانَ شيء مما تداوون بِهِ خيرًا فالحجامة]»[3].

كَمَا تُذكر حالات من رفض الانصياع لِهَذَا التوجيه، رواها أَبُو الفَرَجِ أيضًا وذكرها الترمانيني: فقد رُوى أن المقداد بن الأسود طلب إلى عبد الرحمن بن عوف أن يزوِّجه ابنته، فغضب عبد الرحمن وأغلظ لَهُ القول، فشكا المقداد ذَلِكَ إلى رسول الله (ﷺ)، فطيَّب خاطره وقال لَهُ: أَنَا أزوِّجك. فزوَّجه ابنة عمِّه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب[4].

وعَلَى تعدُّد الأخبار الَّتِى ذكرها الترمانينى وجلبها من مصادر غير «الأغاني»، فإن مَا ذكره أَبُو الفَرَجِ من أَخْبَار وأقوال وأفعَال تتعلق بمبدأ الكفاءة -أو افتقاد الكفاءة- فى

(١) الترمانينى: السابق، ص١٧٠-١٧١ وانظر فى الحديث: سنن الإمام الترمذى مطبعة دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م، جـ٢، ص٢٥٦.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) السابق: ص١٧١.
(٤) السابق: ص١٧٢.

الزواج في العَصْر الإسلامى يتجاوز كَمَا وتنوُّعًا مَا ذكره مؤلِّف «الزواج عند العرب»، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى حدّة الشعور بالتمايز والحساسية -المسرفة أحيانًا- فى الاعتزاز بالماضى (القبلي) الجاهلي، بالنسبة إلى مَا يعنيه الخبر فى ذاته، ويدلُّ عَلَى دقة رصد أبى الفَرَج للفروق بين الحالات الَّتِى تبدو فى ظاهرها ذات نهاية واحدة هِيَ الاعتراض عَلَى «زواج مَا» للقول بعدم الكفاءة، فى حين يحمل الاعتراض أسبابًا أُخْرَى متضمَّنة، لعلها الأجدر بالعناية لمن يبحث فى التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ.

فقد جاء فى «أَخْبَار عبد الله بن الزبير ونسبه» أن أم الحكم بنت أَبِى سفيان بن حرب، قَالَت لأخيها مُعَاوِيَة: «زوِّج ابنى بعض بناتك. فقال: ليس لهن بكفء. فقالت لَهُ: زوَّجَنى أَبُو سفيان أباه[1]، وأبو سفيان خير منك، وأنا خير من بناتك. فقال لَهَا: يا أُخَية: إنما فعل ذَلِكَ أَبُو سفيان؛ لأنه كَانَ حينئذٍ يشتهى الزبيب، وقد كثر الآن الزبيب عندنا، فلن نزوِّج إِلاَّ كفئًا»[2].

وجاء فى «أَخْبَار جَعْفَر بن الزبير ونسبه» -وليس لجعفر من علاقة بالخبر إلاَّ أبيات هجا بِهَا الحَجَّاج بن يوسف- أنه «لَمَّا تزوَّج الحَجَّاج -وَهُوَ أمير المدينة- بنتَ عبد الله بن جَعْفَر بن أَبِى طَالِب أتى رجل سعيدَ بن المسيِّب، فذكر لَهُ ذَلِكَ فقال: إِنى لأرجو أن لاَ يجمع الله بينهما... فإن أباها لَمْ يزوِّج إلاَّ الدراهم. فَلَمَّا بلغ ذَلِكَ عبد الملك بن مروان أبردَ البريدَ إلى الحَجَّاج، وكتب إليه يُغلِظ لَهُ ويقصِّر بِهِ، ويذكر تجاوزه قدرَه، ويُقسِم بالله لئن هو مسَّها ليقطعنَّ أحبَّ أعضائه إليه، ويأمره بتسويغ[3] أبيها المهر، وبتعجيل فراقها، ففعل، فَمَا بقى أحد فيه خير إلاَّ سرَّه ذَلِكَ»[4].

وجاء تحت عنوان «ذِكر خالد ورملة» أنه «لَمَّا قُتل ابن الزبير حجّ خالد بن يزيد بن مُعَاوِيَة، فخطب رملة بنت الزبير بن العوَّام، فأرسل إليه الحَجَّاج حاجبه عبيد الله بن مَوْهِب، وقال لَهُ: مَا كنت أراك تخطب إلى آل الزبير حَتَّى تشاورني، وكيف خطبت عَلَى

(١) أى: أبا ابنها وهو عبد الرحمن بن أم الحكم.
(٢) الأغاني: ج١٤، ص٢٢٣.
(٣) التسويغ: الإعطاء.
(٤) الأغاني: ج١٥، ص١٠.

قوم ليسوا لك بأكْفَاء؟ وكذَلِكَ قَالَ جدُّك مُعَاوِيَة، وهم الَّذين قارعوا أباك عَلَى الخِلاَفة، ورموه بكل قبيحة، وشهدوا عليه وعَلَى جدِّك بالضلالة. فنظر إليه خالد طويلًا، ثم قَالَ لَهُ: لولا أنك رسول والرسول لاَ يُعَاقَب لقطّعتك إرْبًا إرْبًا، ثم طرحتك عَلَى باب صاحبك. قل لَهُ: مَا كنت أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك فى خِطْبة النِّسَاء! وأما قولك لي: قارعوا أباك وشهدوا عليه بكل قبيح، فإنها قُرَيْش يقارع بعضها بعضًا، فإذا أَقَرَّ الله ـ عزَّ وجلّ ـ قراره كَانَ تقاطعهم وتراحمهم عَلَى قدر أحلامهم وفضلهم. وأما قولك: إنهم ليسوا بأكْفَاء، فقاتلك الله يا حجّاج، فَمَا أقلَّ علمك بأنساب قُرَيْش! أيكون العوَّام كفئًا لعبد المطّلب بن هاشم بتزوُّجه صفية، وبتزوُّج رسول الله (ﷺ) خديجة بنت خويلد، وَلاَ تراهم أهلًا لأبى سفيان؟!»[1].

هَذِهِ أَخْبَار ثلاثة، تدور حول مَوْضُوع الزواج، وتثير قضية الكفاءة، فتجعلها مناطًا لإتمامه أو لرفضه، وقد جمع بين هَذِهِ الأخبار أن أطراف العلاقة فيها من بَيْت الخِلاَفة (الأُمَوية)، أو مَن يُعَدُّ من رجالهم (الحَجَّاج)، ولم يكُن العَامل الدينى سبب القبول أو الرفض، وإنما هِيَ العَصَبِيَّة المؤسسة عَلَى أعراق القَبيلة وأنسابها.

وقد امتزج هَذَا العَامل بآخَر سياسيٍّ هُوَ رغبة أهل بَيْت الخِلاَفة أن يظل تلاحمهم قويًّا لاَ يشاركهم فيه بَيْت آخر مهما كَانَت ذرائعه؛ ويتضح هَذَا فى الخبر الأول، فها هُوَ ذا الأخ (الخليفة = مُعَاوِيَة) يضنُّ بابنته عَلَى ابن أخته (الَّذى هُوَ بالنَّسَب خالٌ لَهُ) حَتَّى وإن تكُن هَذِهِ الأخت زُوِّجَت -فى زمن سابق- فى بَيْت آخَر. لَمْ يجد مُعَاوِيَة حرجًا فى غمز سيرة أبيه، وكأنه يداعب أخته أو يخفِّف عَلَى نَفْسها وقع الرفض الحادِّ.

إن مُعَاوِيَة لَمْ يصرِّح بمبدأ عربيٍّ مستقرٍّ منذ القدم، وَهُوَ أن الأبناء هم أبناء الأبناء (الذكور)، أَمَّا أبناء البنات فإنهم ينتسبون إلى آبائهم[2]، ولكن هَذَا المبدأ متضمَّن فى قوله: «ليس لهن بكفء»، عَلَى الرغم من أنهن بنات خاله. أَمَّا المعنى السياسيّ المضمَر

---

(١) الأغاني: ج١٧ ص٣٤٣.

(٢) وَهَذَا مَا نظمه شاعر قديم بقوله:

بَنُونَا بَنُو أَبْنَائِنَا، وَبَنَاتُنَا ... بَنُوهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَبَاعِدِ

فهو فى حرص آل أَبى سفيان أن تظل السُّلْطة منحصرة فيهم[1].

وَهَذَا الهدف مستبطَن فى الخبرَين الآخَرين؛ فمع مَا تحمل محاولة الحَجَّاج الثقفى مصاهرة بَيْت النبوّة (حفيدة جَعْفَر بن أَبى طَالِب) من تطاوُل (فى رأى عبد الملك)، فإن هَذَا التطاول يرتفع فى الوقت نفسه بالْحَجَّاج من مَنْزلة العَامل (الموظَّف) لدى الخليفة -حَتَّى وإن كَانَ أثيرًا عنده أَو محلَّ ثقته- إلى مَنْزلة «النظير» الَّذى يصاهر أشراف قُرَيْش، وَهَذَا يفسد التراتب الَّذى يُحَدِّد مَجَال الحركة الممكنة لِكُلِّ طبقة أَو فئة؛ إذ لاَ شَكَّ فى أن طموح الحَجَّاج -لو أن هَذِه الزيجة اكتملت- كان سيتجاوز حكم العَراق، أو كان سيترتب لأبنائه منها حقوق مَا كَانُوا يتطلَّعون إليها.

وَفى الخبر الثالث الدلالة نَفْسها الَّتِى فى الخبرين السابقين، ولكن التحذير -وَهَذَا مَا يستحقُّ التأمُّل- يأتى من جانب الحَجَّاج. وقد ذهب لوم خالد بن يزيد للحجّاج إلى اتهامه بجهل معنى الكفاءة، وبالخطأ فى فهم حدود الصراع بين أبناء العمومة، الّذين يتقاتلون ويتصاهرون كَمَا هُوَ مشاهَد، وَمَا كَانَ مَن يملك عقل الحَجَّاج ليجهل هَذَا أو يذهل عن ذاك، ولكنه غرور السُّلْطة الممنوحة لَهُ، يجرِّبها عَلَى رجل لَمْ يكن ذا طموح لَهَا، ولعله يداهن خليفته (المرواني) بالتصدِّى لِهَذَا الفتى (السفيانيّ)، والدعَاية لغيرته عَلَى بَيْت الخِلاَفة.

لقد ذكر «الأغاني» قطعة من شِعْر خالد بن يزيد، قالها معبِّرًا عن حبِّه لرملة بنت الزبير، منها:

أَحِنُّ إلى بَنت الزُّبَيْر وَقد عَلَتْ ... بنَا العِيسُ خَرْقًا مِنْ تِهامَةَ أَوْ نَقْبَا
إِذَا نَزَلَتْ أَرْضًا تَحَبَّبَ أَهْلُهَا ... إِلَيْنَا، وَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا حَرْبَا
أُحِبُّ بَنِى العَوَّامِ طُرًّا لِحُبِّهَا ... وَمِن حُبِّهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا[2]

---

(١) ويمكن أن نجد لِهَذَا أشباهًا فى مواقف متعددة، منها أن الشاعر العرجى كَانَ من أحفاد عثمان بن عفّان (اسمه: عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان بن أَبى العَاصى بن أمية بن عبد شمس) وكَانَ ثريًّا كريمًا فارسًا، أهمل شأنه فلم يُسنَد إليه منصب حَتَّى تحوَّل إِلَى اللهو والغزل. انظر الأغاني: ج١، ص٣٩٦، ٣٩٨ - ٣٩٩، ٤١٧.

(٢) انظر: الأغانى، ج ١٧، ص ٣٤٤.

فَهَذَا هُوَ المغزى الَّذِى كَانَ يكبح جماح قصص الحب بين أبناء العمومة والأكْفاء المتصارعين عَلَى سدّة الحكم: أن تنقلب علاقة الزواج إلى انحياز ومناصرة تفتِّت كتلة الأُسْرة الحاكمة، وتجعل بعضها فى مواجهة بعض، بِمَا يؤذن بزوال سلطانها.

لقد تداولت علاقات التزوُّج مصطلح «الكفاءة» فى هَذَا المُسْتَوَى من أهل السلطان، كَمَا تداولته علاقات التزوُّج أيضًا فيما بين القبائل ذات العراقة، وقد استخدمت نقائض جَرِير والفَرَزْدَق هَذَا الأمر فى الفَخْر والمهاجاة عَلَى السواء[1].

وقد شهد العَصْر الإسلامى فى إطار علاقات الزواج نوعين من التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ: الأول يتعلق بأحقِّية ابن العمِّ فى الزواج بابنة عمِّه إعمالًا لحق العَصَبيَّة، وتحقّق مبدأ الكفاءة بالطبيعة بين أبناء العمومة. ولكن عواملَ أُخْرَى مَا لبثت أَن تسللت عَلَى استحياء، يمارسها البعض خفية ويدَّعون غيرها، ولكنها فى النهاية أسفرت عن وجودها، وَفِى مقدمتها عَامل الثروة، فلم يعُد تقدم ابن العم للزواج بابنة عمِّه محفوفًا بحراسة الأعراف الراسخة والحقوق المتمكنة كَمَا كَانَ الأمر زمن الجاهلية، إذا مَا ظهر الغريب مدعَّمًا بالثروة وَمَا يحفُّ بهَا من الجاه أَو الوجاهة.

والأخبار فى هَذَا المحور كثيرة فى «الأغاني»، وَفِى بعض هَذِه الأخبار يبدأ التمرُّد عَلَى حقوق علاقة القرابة من أم الفتاة، التى تريد لابنتها زوجًا ثريًّا يرفِّه حياتها، وقد يحاول الأب التصدِّى بالدفاع عن حق ابن أخيه، ولكنه لاَ يلبث أن يستسلم، فى حين يظلّ صوت الفتاة (العروس) غائبًا فى مثل تِلْكَ الأخبار الَّتِى توشك أن تكون نمطًا واحدًا، مما قَد يَدُلُّ عَلَى تدخُّل الصناعة الأدبية فى سبكها، ولكن هَذَا لاَ يُفقدها دلالتها التاريخيَّة / الاجتماعيَّة عَلَى مَا تعرَّضت لَهُ المَرْأة من تغيُّر، وبخاصَّة حين نجد اتجاهًا

(1) حين تقدم جَرِير والفَرَزْدَق إلى زريق بن بسطام بن قيس للتزوج بابنته حدراء، زكَّى الفرزدق نَفْسه كفئًا لَهَا فقال:

هُموا زَوَّجُوا قَبْلِى لَقِيطًا وَأَنْكَحُوا	ضِرارًا، وَهُمْ أَكْفَاؤُنَا فى المَنَاسِبِ

فَلَمَّا هدَّدهم جَرِير بالهجاء عدلواْ عن تزويج الفَرَزْدَق وزعمواْ لَهُ أن حدراءَ ماتت، فقالَ جَرِير هاجيًا للفرزدق:

فَأُقْسِمُ مَا مَاتَتْ وَلَكِنَّمَا التَوَى	بِحَدْرَاءَ قَوْمٌ لَمْ يَرَوْكَ لَهَا أَهْلاَ
رَأَوْا أَنَّ صِهْرَ القَيْنِ عَارٌ عَلَيْهِمُو	وَأَنَّ لِبَسْطَامٍ عَلَى غَالِبٍ فَضْلاَ

اقرأ الخبر بتفصيله: الأغانى ج٨، ص٨٥ وَمَا بَعدها.

واضحًا -فى حالات ليست نادرة- لتمرُّد الفتاة ذاتها عَلَى زواج ابن العم الفقير، وَهَذَا الجانب هُوَ الَّذِى نُعنَى بذكر مَا يتعلق بِهِ من أَخْبَار، لأنه الدالُّ عَلَى حدوث التغيُّر فى مفهوم القيمة.

وقد يُعَد خبر الصِّمّة القُشَيرى نموذجًا لأدبية الخبر التاريخى بهذا المعنى الَّذِى نحن بصدده؛ إذ رُدَّت خِطبتهُ لابنة عمه لاختلاف أبيه وعمه عَلَى مِقدار مَا ينبغى أن يسوق من إبل مهرًا لابنة العم[1].

وَفِى «أَخْبَار العُجَيْر السلولى ونسبه» أنه كان يهوى ابنة عم لَهُ وتهواه، فخطبها إلى أبيها فوعده وقاربه، ثم خطبها رجل من بنى عَامر موسر، فخيَّرها أبوها بينه وبين العُجَيْر فاختارت العَامرى ليساره[2].

وَفِى «أَخْبَار مزاحم ونسبه» أن مزاحمًا العقيليّ «خطب ابنة عم لَهُ دِنْية، فمنعه أهلها لإملاقه، وقلة ماله، وانتظروا بهَا رجلًا موسرًا فى قومها، كَانَ يذكرها ولم يحقق، وَهُوَ يومئذ غائب، فبلغ ذَلِكَ مزاحمًا من فعلهم، فقال لعمه: يا عمّ، أتقطع رحمى وتختار عليّ غيرى لفضل أباعر (جمع بعير) تحوزها... وقد علمتَ أنى أقرب إليك من خاطبها الَّذِى تريده، وأفصح منه لسانًا، وأجود كفًّا، وأمنع جانبًا، وأغنى عن العشيرة؟! فقال لَهُ: لا عليك، فإنها إليك صائرة، وإنما أعلِّل أمَّها بهذا ثم يَكُونُ أملها لك، فوثق بِهِ. وأقاموا مدة، ثم ارتحلوا ومزاحم غائب، وعَاد الرَّجُل الخاطب لَهَا، فذاكروه أمرها، فرغب فيها، فأنكحوه إياها...»[3].

وَفِى أَخْبَار «الأغاني» زيجتان من زيجات أبناء العم، انتهت كُلّ منهما -بعد تمامها- إلى نَوْع غير مألوف من الصراع؛ فقد تزوج محمد بن بشير الخارجيّ ابنة عم لَهُ سرية جميلة خطبها غير واحد من سَرَوَاتِ قُرَيْش فلم ترضَه، وبعد محاولة وافق العم عَلَى زواجها بابن عمها، «فغضبت الجارية وقالت لأبيها: خطبنى إليك أشراف قُرَيْش فرددتهم، وزوّجتنى هَذَا الغلام الفقير؟! فَلَمَّا بنى بهَا جعلت تستخفُّ بِهِ وتستخدمه» فى رعَاية

---

(١) الأغاني: ج٦، ص١-٩.

(٢) انظر: الأغاني: ج١٣، ص٧١.

(٣) الأغاني: ج١٩، ص٩٩-١٠٠. و«دِنْية» بمعنى: لاصقة النسب.

غنمها ونخلها، فقال أبياتًا تغنَّى بِهَا عَلَى مسمع منها يتوعّدها بزواج آخر، يجلب لَهَا ضُرّة تُحسِن محاسبتها، فكفَّت عنه[1].

أما العُديل[2] وإخوته فقد تصدَّوا لابن عم لهم يُدعَى عَمْرًا تزوَّج ابنة عمٍّ لهم بغير أمرهم، فغضبوا ورصدوه ليضربوه، وكَانَ بين أبناء العمومة دم وقتل، مِمَّا يُشعِر بأن كفاءة ابن العم أَو أحقِّيَّته لَمْ تكُن مسوِّغًا مطلَقًا للتحلل من قيود وشرائط واجبة[3].

إن الاتجاه السائد فى تِلْكَ الأخبار، عَلَى تعدُّدها، أن زواج ابنة العم لَمْ تَعُد لَهُ الأفضلية المطلَقة. ونلاحظ أنه فى جملة هَذِهِ الأخبار كَانَ ابن العم طالبًا وساعيًا إلى الزواج بابنة عمه، فى حين أهملت الصورة المقابلة، حين يَكُونُ أهل الفتاة راغبين فى أن يتزوجها ابن عمها، فى حين يفضِّل هُوَ غيرها. إن هَذِهِ الصورة غير المروية، أَو غير الواضحة، هِيَ الَّتِى تتفق والأعراف العربيَّة الَّتِى تحرص عَلَى أن تبدو المَرْأة مطلوبة متأبِّية، وليس العكس، ولعل هَذَا هو الذى وجَّه روايات أَبِى الفَرَجِ فى أخباره السابقة.

أما النوع الآخَر من أنواع التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ، ولعله الأقوى أثرًا فى منظومة العلاقات العشائرية والطبقية وأثرها فى النظام الاجتماعيِّ العَامِّ، فهو التمرُّد عَلَى قاعدة الكفاءة الَّتِى تعتمد عَلَى النَّسَب، وذَلِكَ بتفضيل الزَّوْج من غير العرب (المَوَالِي) لثرائه، ويعنى هَذَا أن مثل هَذَا الزواج كَانَ يحدث عَلَى ندرة فى قبائل متبدية تعيش حالة من الفقر بسبب جدب الصحراء وخطر المجاعة. وسنجد الرفض الاجْتِمَاعِيّ القاطع لمثل هَذِهِ الزيجات والإساءة إلى طرفَيها. فى «أَخْبَار محمد بن بشير الخارجيِّ ونسبه» أن أعرابًا من بنى سُلَيْم أقحمتهم السَّنَة (المجاعة) إلى الروحاء، «فخطب إلى بعضهم رجل من الموالى من أهل الروحاء، فزوَّجه، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة، وواليها يومئذ إبراهيم ابن هشام... فاستعداه الخارجيّ عَلَى المولى، فأرسل إبراهيم إليه وإلى النفر السُّليميين،

(1) الأغاني: ج١٦، ص١٣٣.

(2) هو: العُديْل بن الفرخ بن معن بن الأسود... بن ربيعة بن عجل... بن بكر بن وائل. شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية. انظر: الأغاني، ج٢٢، ص٣٢٧.

(3) انظر الأغاني، ج٢٢، ص٣٢٧.

وفرَّق بين المولى وزوجته، وضربه مائتى سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبَيه»[1]. وقال ابن بشير فى هَذِهِ الحادثة أبياتًا مدح فيها الوالى ووصف تصرُّفه بأنه عدلٌ وسُنّة، ووصف الموالى بأنهم عبيد؛ فهم أكْفاء فيما بينهم، حَتَّى لو تزوَّجوا بناتِ كسرى[2]!!

ونلاحظ فى هذا الخبر أن الذى سعى بالشكوى طرَف ثالث لاَ علاقة لَهُ بالمَوْضُوع، فوجد استجابةً فورية، ووصف الحاكم بالتفريق (لعدم الكفاءة) وليس التطليق، وأُنزلَت العقوبة بالمولى دون الفتاة أَو أهلها.

وَفِى «أَخْبَار العُجَيْر السلولى ونسبه» أنه جعل أمر ابنته إلى خالها؛ إذ غاب العُجَيْر فى الشام، وأمر الخالَ أن يزوِّجها بكفء، «فخطبها مولًى لبنى هلال كَانَ ذا مال، فرغبت أمُّها فيه، وأمرت خال الصبية الموصى إليه بأمرها أن يزوِّجها به، ففعل. فلاذت الجارية بأخيها الفَرَزْدَق بن العُجَيْر، وبرجال من قومها، وبابن عم لَهَا، يُقال لَهُ قَيْل، فمنعوا جميعًا منها سوى ابن عمِّها القيل فإنه ساعد أمها عَلَى مَا أرادت ومنع منها الفَرَزْدَق، فَلَمَّا قدم العُجَيْر أُخبرَ بِمَا جرى ففسخ النكاح، وخلع ابنته من المولى»[3].

يلتقى هذان الخبران فى دلالات اجتماعيَّة مشتركة، ففيهما تمَّ الزواج، ولكنه انتهى إلى التَّفْرِيق، وأُنزلَت عقوبة جسدية أو معنوية بالمولى الَّذِى تجرَّأ فسعى إلى الزواج بعربيَّة، ولم تَلحق عقوبة بمن ارتضاه من أهل الفتاة. وَفِى المرتين تحزَّب فريق من (المُجْتَمَع) بقصد إِبطال هَذَا الزواج، وكَانَ لَهُ مَا أراد بفعل الحَاكم، أو وليِّ الأمر.

وَهَذِهِ القطيعة بين العرب والموالى مؤسَّسة عَلَى قاعدة أن المنتصر أرفع عِرْقًا وكرامة من المهزوم، وَفِى هَذَا تجاوز لمبادئ إسلاميَّة مقرَّرة، وأحداث تاريخيَّة معلومة، وقد كَانَت

---

(١) الأغاني: ج١٦، ص١٠٦.

(٢) انظر: الأبيات. السابق ص ١٠٦-١٠٧.

ومنها:

قضيتَ بسنة وحكمت عدلاً	ولم تَرِث الحكومة من بعيـد
حمى حَدَبًا لحوم بنات قـوم	وهم تحت التراب أبو الوليـد
وفى المئتين للمـولى نكـال	وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسـرى	فهل يجد المـوالى مـن مـزيد
فأى الحق أنصف للموالى	من اصهار العبيد إلى العـبيد

(٣) الأغاني: ج١٣، ص٦٤.

هَذِهِ القطيعة من أهم أسباب بطء الدولة الأُمَوية فى تطوير إدارتها وترقية وسائل الحياة فيها[1].

لقد أخذت قاعدة «التكافؤ» فى الزواج مساحة واضحة فى مرويَّات أَبى الفَرَج وتعقيباته؛ فَفِى «أَخْبَار النعمان بن بشير ونسبه» وَمَا يلحق بهَا من أَخْبَار ابنته الشاعرة حُمَيْدة أنها قَالَت فى هجاء بعض مَن لَم ترتَضِه من أزواجها:

وَهَلْ أَنَا إلاَّ مُهْرةٌ عربيَّة سَلِيلةُ أَفْراسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلُ؟

فَإِنْ نَتجَتْ مُهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحرَى وَإِنْ كَانَ إِقْرَافٌ فَمَا أَنْجَبَ الفَحْلُ[2].

وقد تردَّد ذكر هذين البَيْتين فى أَخْبَار الزواج القائم عَلَى غير تكافؤ واعتقاد المَرأة -أَو أهلها- بأنهم أرفع مقامًا من أهل الزَّوْج، وكذَلِكَ قيل عن العربيَّة إذا تزوَّجت بغير العَرَبِيّ إنها تبرذنت[3].

ويروى أَبو الفَرَج أن المغيرة بن شعبة ركب «إلى هند بنت النعمان بن المنذر، وَهِيَ بدير هند، متنصرة عَمياء بنت تسعين سنة، فقالت لَهُ: من أَنْت؟ قَالَ: أَنَا المغيرة بن شعبة. قَالَت: أَنْت عَامِلُ هَذِهِ المدرة (تعنى الكوفة)؟ قَالَ: نعم. قَالَت: فَمَا حاجتك؟

---

(١) فى تعليق مهم للدكتور إبراهيم سلامة على قول ابن خلدون «إن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم» يقول: «تلاقت المدنيتان الفارسية والعربيَّة فقاومت المدنية الفارسية أول الأمر، وأشد مَا كَانَ وقوفها أمام الأمويّين الَّذين كوَّنوا دولة عربيَّة محضة، أساسها العَصَبِيَّة العربيَّة والتعصُّب للعرب، واعتبار الموالِي طبقة خارجة عن الدائرة العربيَّة، ممنوعة من الزواج بالعربيات، واعتبار الأعَاجم - فى نظرها - عنصرًا أقلّ كرامة وشرفًا من العنصر العَرَبِيّ، ولقد استدل المتعصبون للجنس العَرَبِيّ بكثير من الآيات الَّتِى تشير إلى أن القرآن عَرَبِيّ وبلسان عَرَبِيّ مبين، نزل عَلَى الرسول لِينذر به قومه من العرب. فأساس المدنية الجديدة اللسان العَرَبِيّ والجنس العَرَبِيّ، والاستئثار بفضل الدين الَّذى انحاز إلى هَذه الناحية فى زعم السياسيِّين من بنِى أمية». ويؤجِّل الباحث التأثير المتبادَل بين العرب والفرس إلى العصر العباسى حيث استقرَّت المساواة أو كادت. إبراهيم سلامة: تيارات أدبية بين الشرق والغرب- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٥١م، ص١٦٥، وانظر ص١٦٧. وعبارة ابن خلدون من مقدمته: الفصل الرابع والأربعون- مقدمة ابن خلدون، السابق، جـ٣، ص ١٢٥٧.

(٢) الأغاني: ج١٦، ص٥٤. وانظر الهامش رقم ١٣١ - السابق؛ حيث يذكر أن ابن قتيبة روى الشطر الأول فى أدب الكاتب: «وهل هند إلاّ مهرة عربيَّة» ونسب الشعر إلى هند بنت النعمان بن بشير، أخت حُمَيدة.

(٣) جاء فى «لسان العرب» إن البرذون دابّة من الخيل من غير نتاج العراب، ويذكر قول الشاعر:

رَأَيْتُكَ إِذْ جَالَتْ بِكَ الخَيْلُ جَوْلَةً وَأَنْتَ عَلَى بِرْذَوْنِةٍ غَيْرُ طَائِلِ

(انظر: مادة «برذن»).

قَالَ: جئت خاطبًا إليك نفسي. قَالَت: أما والله لو كنت جئت تبغى جمالًا أَو دنيًا أو حسَبًا لزوَّجناك، ولكنك أردت أن تجلس فى موسم من مواسم العرب فتقول: تزوّجت بنت النعمان بن المنذر، وَهَذَا والصليب أمر لاَ يَكُونُ أبدًا. أوَما يكفيك فخرًا أن تكون فى مُلك النعمان وبلاده، تدبِّرهما كَمَا تريد؟ وبكَت»[1].

وَهَذَا الخبر يحمل دلالة رمزية ضمنية، تُنبئُ عن حرص العَرَبيّ عَلَى التواصل مع أمجاد ماضيه، واعتقاده بأن هَذَا يرفع منزلته، ولكن العجوز العمياء -ولم يعُد لَهَا فى الزواج أرَب- فطنت إلى مَا أبطن المغيرة، وفضحت مَا أضمره، ووضعته فى موقعه (الاجْتِمَاعِيّ) كَمَا تدركه بخبرة الملوك.

وَفِى أَخْبَار المغيرة أيضًا خبر آخر يتجاوز الكفاءة -بالمعنى المستقر اجتماعيًّا فى الزمن الأُمَوِيّ، وَهُوَ تعَادل الأنساب والعصبيات- إلى مَا يمكن أن نطلق عليه «الكفاءة السلوكية أو المواءمة فى الطباع». فقد روى أَبُو الفَرَج أن بعض القُرَشِيِّينَ اقترح عَلَى عمر بن الخطاب أن يتزوج أم كلثوم بنت أَبِى بكر «فتحفظه بعد وفاته وتخلفه فى أهله»، فوجَّه عمر بصاحب الاقتراح إلى السيدة عَائشة الَّتِى وافقت، ولكنها -بعد الموافقة- شعرت بالهمِّ، وتصادف أن حضر إليها المغيرة، فأخبرته بِمَا جرى وبأنها كَانَت ترجو لأختها الحدثة حياةً أليَن عيشًا من حياة عمر. فوعدها المغيرة بأنه سيستدرج عمر ليحمله عَلَى التراجع عن طلب الزواج. ولكن ابن الخطَّاب لاَ ينخدع بِمَا نمَّق المغيرة، ويفطن إلى حقيقة مَا جرى، فيعدل عن المَوْضُوع وَلاَ يعود إلى ذكره[2]. وقد سبقت -فيما تقدم من هَذَا الفصل- حكاية مَا كَانَ من زواج محمد بن بشير الخارجى بابنة عمه واستخفافها بِهِ، ثم تهديده لَهَا بالضُّرَّة[3].

وَفِى بعض مَا روى أبو الفرج من الأخبار مَا يَدُلُّ عَلَى تغيُّر فى منظومة القيم السائدة، بحيث تبدو عراقة النسب وأمجاد الماضى (الجاهلي) قادرة عَلَى إثارة الإعجاب من أصحاب المكانة الرفيعة (نسبًا وإيمانًا وعملًا) فى الإسلام. فَفِى خبر طويل مصلوه

---

(١) الأغاني: ج١٦، ص٨٥.

(٢) انظر: الأغاني: ج١٦، ص٩٣ - ٩٤.

(٣) انظر: ص ٢٩١ - ٢٩٢ من هذا البحث.

عوف بن خارجة المرِّيُّ، أن امرأ القيس بن عديّ الكلبيّ أقبل عَلَى مجلس الخليفة وعرَّفه بنفسه، وأنه نصرانى يريد الإسلام، فلم يعرفه عمر بن الخطاب حَتَّى تدخَّل رجل فقال: هَذَا صاحب بكر بن وائل، الَّذِى أغار عليهم فى الجاهلية يوم فلَج[1]. وكَانَ أن قبل الرَّجُل الإسلام، فدعَا لَهُ عمر برمح، فعقد لَهُ عَلَى من أسلم بالشام من قضاعة، «فأدبر الشيخ واللواء يهتز عَلَى رأسه»، قَالَ عوف (راوية الخبر): «فوالله مَا رأيت رجلًا لَمْ يصلِّ لله ركعة قط أُمِّر عَلَى جماعة من المسلمين قبله. ونهض عليّ بن أَبِى طَالِب رضوان الله عليه من المجلس، ومعه ابناه الحسن والحسين عليهم السلام حَتَّى أدركه، فأخذ بثيابه»، وبعد أن عرَّف نَفْسه وولديه إلى الرَّجُل قَالَ عليٌّ: «قَد رغبنا فى صهرك فأنكحنا. فقال: قَد أنكحتك يا عليُّ المُحياة بنت امرئ القيس، وأنكحتك يا حسن سلمى بنت امرئ القيس، وأنكحتك يا حسين الرباب بنت امرئ القيس[2]».

إن هَذَا الرَّجُل الَّذِى زكّاه نسبه القبلى وشجاعته (الجاهلية) لأن يصبح أميرًا عَلَى قومه فى الإسلام، زكَّته الأسباب القديمة نَفْسها، فضلًا عن الإمارة الجديدة، لأن يسعى عليٌّ إلى مصاهرته. ولقد زوَّج الرَّجُل بناته الثلاث دون رجوع إليهن أَو تمهُّل فى التفكير والقرار، كَمَا يَدُلُّ سياق الخبر، مما يعنى أن الأمر كَانَ واضحًا ومحسومًا بالنسبة إليه، كَمَا كَانَ واضحًا محسومًا بالنسبة إلى عليٍّ وولديه، وَهَذَا مَا تطبعه طبائع مُجْتَمَع يحاول أن يوائم بين عوامل الأصالة العرقية (العَصَبِيَّة) الموروثة، والقيم المستحدَثة بقوة العقيدة.

هَذَا بعض ما ورد فى الأغانى متعلقًا بأخبار الكفاءة فى الزواج. وليس من شك فى ما أوردناه هنا من أخبار لَهُ دلالته فى شمول الاهتمام بمبدأ الكفاءة بين الطبقة الحاكمة

---

(١) يوم «الفلَج» كان بين بكر بن وائل وبنى كعب بن ربيعة؛ وقد بعثت بكر بن وائل عينًا لهم، فأخبروا أن القوم لا شوكة لهم، فركبت تريد بنى كعب، ولكنها فوجئت بأصوات الرجال، ورأوا جمعًا عظيمًا وخيولا كثيرة، فرجعوا من ليلتهم وفى الصباح اتبعتهم بنو كعب حين رأوا الأثر، وأصابت منهم رجالا وخيلا. انظر: الأغانى ج٥ ص ٢٢، ٢٣.

(٢) الأغاني: ج١٦، ص١٤٠، ١٤١، ويضيف أَبُو الفَرَج كلمة يرويها عن هشام بن الكلبى يخصُّ بهَا الرباب الَّتِى زُوِّجت للحسين، بأنها كَانَت من أفضل النِّسَاء، وَأنها خُطبت بعد مقتل الحسين فقالت: مَا كُنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن يدور فى فلكها، وحتى الأعراب الذين يلهثون وراء الرعي. وترجع الأسباب التى اعتمد الحكم عليها -فى جانب منها- إلى التغيُّر الاقتصادى (الثراء والفقر). وإذا كَانَ الأعراب قَد قبلوا تزويج بناتهم بالموالى هربًا مما يعَانون من جدب، فإن الطبقة العليا (من الجاه والثروة) قَد استخدمت المال فى تأكيد المَنْزِلة والكفاءة فى(المنافسة حول امْرَأة بعينها[1]).

إن هَذِهِ الأخبار الَّتِى ورد بهَا ذكر «الكفاءة» لفظًا وصراحةً، أو معنًى ومرمًى، فاتخذَت ذريعةً لإبطال زواج قَدَ تمّ، أو الاعتراض عَلَى عرض بالزواج- يتجلى فيها جميعًا العَامل الاقتصادي، بمَا يَدُلُّ عَلَى تغيُّر يصارع قيمًا مستقرّة (مثل أفضلية زواج ابن العم). وقد كَانَت الغلَبة دائمًا فى جانب الثروة، إلاّ فى حالتَى زواج بين امرأتين عربيَّتَين، ورجلين من الموالي، وَهُنَا نرصد حالة من الانقسام فى المواقف تَدُلُّ عَلَى تخلخل فى حالة الاقتناع، فانتصر فريق للثروة أولًا، ثم رجحت كفّة العَصَبيَّة فيما بعد.

إن مَا يمكن أن يلاحَظ فى هَذِهِ الأخبار أيضًا أنها تنوَّعت بين البوادى والحواضر، وبين الخاصَّة والعَامّة.

وإذا كنا قَد رصدنا -خلال حديثنا السابق عن «الكفاءة»- لونًا من «التغيُّر» يصارع ما كان مستقرًّا من قبل من قيم سائدة؛ فإن أبا الفرج -أيضًا- قدم لنا نماذج أخرى، لها دلالتها فى حرص المجتمع الإسلامى على ما كان قَد استقرَّ فى وجدان الجماعة الإسلاميَّة من قيم تحفظ للبيت المسلم كيانه، وتصونه مما قَد يهدِّده من عوامل الفرقة والاختلاف.

من هذه النماذج الخبر الذى يرويه الشعبي، وهو يبدأ بهذه النصيحة من شريح القاضي[2]: «يا شعبيُّ، عليكم بنساء تميم؛ فإنهن النساء!».

---

(١) انظر -عَلَى سبيل المثال- منافسة يحيي بن الحكم وعبد الملك بن مروان فى طلب الزواج من زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، التِى أطلق عليها «المُوصِلة» لجمالها ولين جسدها. الخبر بتمامه فى «الأغاني» ج١٦، ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٢) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجَهْم بن معاوية... الكِنْدِيّ. وَلِيَ القضاء لعمر بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب (رضي الله عنهما). وتُوُفِّي فى سنة ثمانين أو تسع وسبعين مَن الهجرة. انظر: الأغانى ج١٧، ص ٢١٦.

وفى طيَّاته ما يعطى صورة صحيحة للزواج فى الإسلام؛ إذ يذكر أن شريحًا انصرف يومًا من جنازة، فمرَّ بدور بنى تميم، فإذا امرأة جالسة فى سقيفة على وسادة، وتجاهها جارية لها فى سنِّ الزواج، فاستسقى، ولما شرب نظر إلى الجارية فأعجبته، وحين سأل أمها عنها، عرَّفتها لَهُ بنسبها الأصيل. فسأل عن حالها: أفارغة أم مشغولة؟ فعلم أنها فارغة فطلب الزواج بها، فأجابته الأم: «إن كنت كفيًّا، ولها عمٌّ فاقصده».

ويمضى الخبر بأن شريحًا أرسل إلى إخوانه «القُرَّاء الأشراف»، فوافى معهم صلاة العصر، فإذا عمُّها جالس، وحين سأله عن حاجته، ذكر لَهُ بنت أخيه «زينب بنت حُدَير»، فأجابه بالقبول. وحينئذٍ تكلَّم شُريح فحمد الله جلَّ ذكره، وصلَّى على النبى (ﷺ)، وذكر حاجته، فردَّ الرجل عليه وزوَّجه، وبارك القوم لَهُ، ثم نهضوا[1].

ففى الجزء السابق من الخبر وجدنا «الكفاءة»، و«الوليّ»، وما يسمَّى «الإشهار»، الذى تمَّ فى مجلس قوم فضلاء من العلماء شهدوا أركانه، وباركوه فى المسجد.

ثم يروى الخبر بعد ذلك أن شريحًا ما إن بلغ منزله حتى ندم، وقال فى نفسه: «تزوجت إلى أغلظ العرب وأجفاها»، وأنه همَّ بطلاقها. ولكنه تريَّث حتى يلتقى بها، فإن رأى ما أحب وإلاَّ طلقها.

وبعد أيام أقبل نساؤها يهادينها، وأُخلِىَ لَهُ البيت، ودار بينهما حوار يُبرز مدى وعى المرأة العربيَّة، وتقديرها لمسئولية الزواج، وطبيعة عمل الزوج؛ إذ أخبرته بأنها تريد أن تعرف ما يحب فتأتيه، وما يكره فتتجنبه؛ فحمد الله، وامتدحها، وأخبرها بما يحب وما يكره؛ فسألته عن أختانه[2]، وهل يحب أن يزوروه! فأجابها بأنه قاضٍ، وما يحب أن يملُّوه. ثم يذكر أنه بات بأنعم ليلة، وأنه خرج بعد ثلاثة أيام إلى مجلس القضاء، فكان لا يُرَى يومًا إلاَّ هو أفضل من الذى قبله. حتى إذا مرَّ عام دخل منزله فإذا عجوز تأمر وتنهى، وحين سأل زوجته عنها قالت: أمى فلانة[3].

---

(١) انظر: الأغاني: ج١٧، ص٢٢٠ - ٢٢١.
(٢) أختان: جمع ختن وهو: الصهر من قبل الزوجة.
(٣) انظر: السابق ص٢٢١-٢٢٢.

إن الخبر السابق يقدم لنا صورة مكتملة طيبة لزواج يقوم على أسس متينة من حسن الاختيار، وحسن التقدير، وحرص كل منهما -وبخاصة من جانب المرأة- على التعرف بصدق ومكاشفة على الطرف الآخر، ما يحب وما يكره؛ أملًا فى حياة هانئة سعيدة.

وفى إطار اختيار الزوجة[1]، قَد يعرض وليُّ الأمر إحدى بناته للزواج إذا أنس فى شخص ما أنه كفء لذلك. وعادةً ما يحدث ذلك إذا كان يعرفه نسبًا وخُلُقًا. ومن أمثلة ذلك ما يُروَى من أنه «كانت بنت لعبيد الله بن عمر بن الخطاب تحت إبراهيم بن نعيم النحام فماتت، فأخذ عاصم بيده، فأدخله منزله، وأخرج إليه ابنتيه حفصة وأم عاصم، فقال لَهُ: اخترْ، فاختار حفصة فزوَّجه إياها»[2].

وفى خلافة عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قدم جُنْدُب بن عمرو بن حُمَمَة الدوسيّ المدينة مهاجرًا، ثم مضى إلى الشام، وخلَّف ابنته عند عمر، وطلب منه أن يزوِّجها كفئًا إن وجد ولو بشراك نعله[3]، وإلاَّ فيُلحِقها بدار قومها بالسَّراة. فكانت عند عمر، واستُشهد أبوها، فكانت تدعو عمر أباها، ويدْعوها ابنته. وبينما عمر على المنبر يومًا يكلِّم الناسَ، إذ خطر على قلبه ذِكرُها، فقال: «من لَهُ فى الجميلة الحسيبة بنت جُنْدُب بن عمرو ابن حُمَمَة، وليعلم امرؤ مَن هو! فقام عثمان فقال: أنا يا أمير المؤمنين. فقال: أنت لعمْر الله! كم سُقتَ إليها؟ قال: كذا وكذا. قال: قَد زوَّجتُكَها، فعجِّله، فإنها مُعَدَّة»[4].

---

(١) من المعروف أن «الخاطبة» كانت تقوم -فى كثير من الأحيان- بالتعرُّف على ميول الرجل فيمن يرتضيها زوجة، وترشده إلى ذلك، واصفة لَهُ وصفًا دقيقًا كل محاسنها وعيوبها. ويروى أبو الفرج أنه «كان بالمدينة امرأة تدُل على النساء، يقال لها قُطنة، كانت تداخل القرشيات وغيرهن». الأغاني: ج١٩، ص٢١٢. وكان يقوم بالدور نفسه بعض المخنَّثين. وهذا أمر -على أهميته فى مجتمع يفصل بين النساء والرجال فى مباشرة الحياة اليومية- لم يكن وقفًا على العصر الأموي، بل ذُكرت بعض أحداث عن هذا الصنف تعود إلى عصر النبوة (انظر: الأغانى ج١٣ ص٢٠٠ وما رواه من إخبار غيلان بن سلمة الثقفي، وقد أدرك الإسلام فأسلم بعد فتح الطائف، وكانت ابنته بادية جميلة، ودل عليها هيت المخنَّث أحد ابنَى أم سلمة).

(٢) الأغاني: ج٩، ص٢٥٥. هذا؛ وأم عاصم هذه هى أم عمر بن عبد العزيز (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، وفى تكملة الخبر السابق أنه قيل لإبراهيم بن نُعيم: "تركت أم عاصم، وهى أجملهما!" فقال: رأيت جارية رائعة، وبلغنى أن آل مروان ذكروها، فقلت: علّهم أن يصيبوا من دنياهم، فتزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت له أبا بكر وعمر". السابق، نفس الموضع.

(٣) الشراك: سَيْر النعل على ظهر القدم، وهو مثل فى القلَّة.

(٤) الأغاني: ج١، ص٣٩٧. وانظر باقى الخبر وصنيع عمر معها فى إعطائها ما أحضره عثمان من مهر وطلبه من حفصة ابنته أن تصلح من شأن العروس، وتهيِّئها ليرسلها مع نسوة إلى عثمان. السابق: نفس الموضع.

وقد يتخيَّر الرجل امرأة من أسرة سبق أن تزوَّج منها أحد أقربائه؛ كما حدث فى زواج عثمان بن عفان (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) بنائلة بنت الفرافصة؛ إذ يُروَى أنه لما تزوَّج سعيد بن العاص -وهو على الكوفة- هند بنت الفرافصة، وبلغ ذلك عثمان، كتب إليه، أنه بلغه زواجه امرأة من كلب، وطلب منه أن يكتب إليه «بنَسبها وجمالها»، فكتب إليه بذلك، فطلب منه أن يزوِّجه بأخت لها إن كان لها أخت. فبعث سعيد إلى الفرافصة يخطب إحدى بناته على عثمان، فأمر ابنه «ضَبًّا»، فزوَّجها إياه، وكان ضبٌّ مسلمًا، على حين كان أبوه «الفرافصة» نصرانيًا»[1].

وقد تعرض المرأة نفسها على من تأمل أن يكون زوجًا لها، كما حدث مع أبى الأسود الدُّؤليّ؛ إذ يُروَى أنه كان يجلس إلى فناء امرأة بالبصرة، فيتحدث إليها، وكانت بَرْزَةً جميلة، فعرضت عليه أن تتزوجه لما تتحلَّى بِهِ من صفات؛ فهى «صَنَاع الكفِّ، حَسَنة التدبير، قانعة بالميسور»، فوافق أبو الأسود، فجمعت أهلها فتزوَّجتْه، فوجد عندها خلاف ما قدَّره، فجمع من كان حاضرًا تزويجه إياها، وأخبرهم -فى صورة شعر- بأنه أنكر منها أشياء، دون أن يفصح عنها لهم، وقد طلَّقها، فانصرفت معهم[2].

وطبيعى أن تتفاوت «المهور» حسب حظِّ المرأة من الشرف والحسَب والجمال، وحسب مكانة الرجل، ووضعه الاجتماعي، وقدره فى عالَم الثراء. ومن أمثلة ذلك: ما فعله مصعب بن الزبير لمَّا تزوَّج سُكَينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة؛ إذ أمهر كلَّ واحدة منهما ألْف ألْف درهم[3]. وكذلك ما صنعه الحَجَّاج بن يوسف الثقفى حين خطب هندًا بنت أسماء بن خارجة؛ إذ بعث إليها بمائة ألف درهم وعشرين تختًا من ثياب. وقيل: أرسل إليها بثلاثين غلامًا مع كل غلام عشرة آلاف درهم، وثلاثين جارية مع كل جارية تخت ثياب[4].

على أن الثراء هنا نسبيٌّ؛ فقد تتزوج امرأة برجُل لا يُعَدُّ ثريًّا بالمقاييس المادية المتعارَف

---

(١) انظر: الأغانى ج١٦، ص٣٢٢. وانظر أيضًا ص٣٢٣ من المصدر نفسه؛ حيث يذكر باقى الخبر أن أباها أوصاها، حين هُيِّئَت للرحيل إلى عثمان، بأن تحفظ عنه خَصْلتين: أن تتكحَّل، وأن تتطيَّب بالماء؛ فإنها تُقدمَ على نساء من قريش، هُنَّ أقدر على الطيب منها!.

(٢) انظر: الأغاني، ج١٢، ص٣١٠-٣١١.

(٣) انظر: الأغاني، ج٣، ص٣٦١.

(٤) انظر: الأغاني، ج٢٠، ص٣٦٦-٣٦٧.

عليها عادةً؛ لما تراه فيه من مزايا الفضل والشرف والتقوى؛ إذ قَد ترْجح هذه الصفات كلَّ ما يقابلها فى دنيا المال والثراء؛ هذه عابدة بنت شعيب (أمُّها عَمْرة بنت عُبيد الله بن العباس) -وكان يقال لها: عابدةُ الحُسْن، وعابدةُ الحسناءُ- يتقدم إليها بكّار بن عبد الملك، والحُسَيْن بن عبد الله[1]، فامتنعت على بكّار، وتزوَّجت الحُسَين، وحين سأله بكّار: «كيف تزوجَتْك العابدة، واختارتك مع فقرك؟! قال لَهُ الحسين: أتعيِّرنا بالفقر وقد نَحَلَنا الله تعالى الكوثر؟!»[2].

هذا؛ ويبدو أن «التعدُّد» فى الزواج كان أمرًا طبيعيًّا، وكان شائعًا، وكأنه الأصل؛ وفى أخبار عثمان بن عفان[3] وعمر بن الخطاب[4] ومحمد بن بشير الخارجي[5] وغيرهم ما يدْعم ذلك.

ومع ذلك، فإن طبيعة المرأة، ورغبتها فى أن يكون زوجها خالصًا لها، لا يشاركها فيه غيرُها من النساء، كانت تجعل من «التعدُّد» أمرًا مُبغَّضًا إلى نفس المرأة؛ ومن ثم فقد وجدنا بعض الحالات التى تشترط فيها المرأة فى موافقتها على الزواج أن يكون أمرها فى الفرقة إليها، ووجدنا حالات أخرى يحاول الزوج فيها أن يستثير غَيْرة زوجته، بأن يتزوج بأخرى؛ حتى يستقيم شأنها معه.

ومن أمثلة الحالة الأولى، ما صنعه محمد بن بشير الخارجي؛ إذْ قدم البصرة فى طلب ميراث لَهُ بها، وخطب عائشة بنت يحيى بن يعْمُر الخارجية، فأبت أن تتزوجه، إلاّ أن

---

(١) هو: الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب.

(٢) انظر: الأغاني، ج١٢، ص٦٧. ولا شكَّ أن المرأة العربيَّة الشريفة كانت ترى فى نسب آل البيت شرفًا لا يعدله شرف آخر؛ وليس أدلَّ على ذلك من أن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل بعد أن تزوجت عبد الله بن أبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، والزبير بن العوام، والحُسَين بن علىّ، أراد مرْوان أن يخطبها، فامتنعت عليه، وقالت: ما كنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله (ﷺ). انظر: الأغاني، ج١٨، ص٦٢. وقد سبق أن ذكرنا العبارة الأخيرة منسوبةً إلى «الرباب» بنت امرئ القيس بن عديّ الكلبى (هامش (٢) ص ٢٩٦ من هذا البحث).

(٣) انظر: ما أوردناه من قبل من زواجه ببنت جُندُب بن عمرو بن حَمَمَة، وكذلك من زواجه بنائلة بنت الفرافصة ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ من هذا الجزء.

(٤) انظر: ما أوردناه من قبل من أن بعض القرشيين اقترح على عمر أن يتزوج أم كلثوم بنت أبى بكر، لتحفظه بعد وفاته، وتخلفه فى أهله، ص ٢٩٥ من هذا الجزء.

(٥) انظر: الأغاني، ج١٦، ص١٣٠؛ إذ كان محمد بن بشير معجَبًا بزوجته سُعْدَى، وكان فى خلُقها شدَّة، فكان يلقى منها عنتًا، فغاضَبَها يومًا لقول آذته به، واعتزلها وانتقل إلى زوجته الأخرى.

يقيم بالبصرة معها، ويكون أمرها فى الفرقة إليها[1].

وفى الخبر الذى أوردناه من قبل عن محمد بن بشير نفسه -فى معرض الحديث عن زواج ابن العم[2]- أنه «لمَّا بَنَى بها، جعلت تستخفُّ بِهِ، وتستخدمه، وتبعثه فى غنمها مرة، وإلى نخلها أخرى. فلما رأى ذلك من فعْلها، قال شعرًا فى بيت يترنم بِهِ، ويُسمِعُها إياه، وهو:

تَثَاقَلْتِ أَنْ كُنْتُ ابْنَ عَمٍّ نَكَحْتِهِ فَملْتِ، وَقد يُشْفَى ذوو الرَّأْيِ بِالْعَذْلِ
فَإِنَّكِ إِنْ لاَ تَتْرُكِى بَعْضَ مَا أَرَى تُنَازِعْكِ أُخْرَى كَالْقَرِينَةِ فِى الحَبْلِ
تَلزُّكِ مَا اسْطَاعَتْ إِذَا كَانَ قِسْمُهَا كَقسْمِكِ حَقًّا فى التِّلاَدِ وَفى البَعْلِ
مَتَى تَحْمِليهَا مِنْكِ يَوْمًا لِحَالَةٍ فتتبعها تَحْمِلْكِ مِنْهَا عَلَى مِثْلِ

هذا؛ وقد يحدث الطلاق بين الزوجين لدواع تستدعيه؛ فقد أحلَّه الله، وشرعه علاجًا ولم يشرعه سلاحًا فى يد الرجل يوجِّهه إلَى المرأة وقتما يشاء. وقد رأينا -من قبل- فى الخبر المنسوب إلى أبى الأسود الدؤلى أنه طلَّق امرأته؛ لأنه لم يجد فى الزواج بها ما كان قَد أمَّله فيها[3].

وربما كان السببَ نصيحتُها لزوجها ولومها لَهُ فى تبذير ماله، فتكون مكافأتها من قِبَله الطلاق[4].

وهناك بعض الأخبار الطريفة التى تُبْرِزُ مدى تعلُّق بعض الرجال بأزواجهم. منها: ذلك الخبر عن عبد الله بن أبى بكر الصديق (رضي الله عنهما)؛ فقد تزوَّج عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفَيل، وكانت امرأة ذات جمال وكمال فى عقلها ومنظرها، وكانت قَد غلبته على رأيه، ويُحكَى أن أبا بكر مرَّ عليه يوم جمعة، وهو يناغيها فى عِلِّـية، فصلَّى أبو بكر الجمعة،

---

(١) انظر: الأغاني، ج١٦، ص١٣٠. وفى بقية الخبر أنه حينما خاطب أباها فى ذلك، أجابه بأنها: «امرأة برْزة عاقلة، لا يُفتات على مثلها بأمرها، وما عندها عنك من رغبة، ولكنها امرأة فى خُلُقها شِدَّة، ولها غَيْرة. وقد بلغنى أن لك زوجتين، وما أراها تصبر على أن تكون ثالثة لهما، فانظر فى أمرك، وشاور فيه...».

(٢) انظر: ص ٢٩١ من هذا البحث. وانظر: الأغانى: ج١٦، ص١٣٣.

(٣) انظر: ص ٣٠٠ من هذا البحث.

(٤) انظر: الأغاني، ج١٢، ص٣١، حيث يذكر أن عبد الله بن الحشْرج قال لابن عم لَهُ لامه فى إنهاب ماله، وتبذيره إياه وقال لَهُ فيما قال: «امرأتك كانت أعلم بك؛ نصحَتْك فكافأتَها بالطلاق».

ثم رجع، وكان لا يزال يناغيها، فسأله: يا عبد الله؛ أجمّعت؟ قال: أوَصَلّى الناس؟ قال: نعم. وكانت عاتكة قَد شغلته عن سوق وتجارة كان فيها، فأخبره أبوه أنها قَد شغلَته عن المعاش والتجارة، وألْهَتْه عن فرائض الصلاة، وطلب منه أن يطلِّقَها تطليقة، فطلَّقها، وتحوَّلت إلى ناحية. وبينما أبو بكر يصلِّي على سطح لَهُ فى الليل، إذ سمعه يُنشد شعرًا، يُبرِز مدى تعلُّقه بها، فرقَّ لَهُ قلبه، وطلب منه أن يراجعها، فقال: أشْهِدُكَ أنى قَد راجعتها، وأعتق عبدًا لَهُ يُقال لَهُ: أيمن[1].

فهذا الخبر يُبرِز لنا فهم المسلمين الصحيح لأمور دينهم ودنياهم، وأن التعلُّق بالمرأة - وبخاصة من كانت فى مثل عاتكة- أمر وارد، ولكنه لا ينبغى أن يكون سببًا فى إلهاء الرجل عن العبادة، وشغله عن المعاش والتجارة. كما يُبرِز لنا هذه العلاقة الأبوية الحانية الراعية الموجِّهة بين أبى بكر وابنه.

على أنه قَد يطلِّق الرجل امرأته دون سبب واضح -على الأقل لمن حوله من أقارب الزوجة- كما حدث من عُيَيْنة بن أسماء بن خارجة؛ إذ كان متزوِّجًا بأخت عويف بن مُعَاوِيَة بن عقبة الفَزَاريّ (المشهور بعويف القوافي)، ثم طلَّقها، «فكان عويف مراغمًا لعُيَينة، وقال: الحُرَّة لا تُطلَّق بغير ما بأس»[2].

ويلفت النظرَ أن أمور «الزواجِ والطلاق» كانت تسير بصورة ميسورة، ومرغوب

---

(١) انظر: الأغاني، ج١٨، ص٥٩. وفى تتمَّة الخبر طرافة أيضًا؛ إذ يُروى أن عبد الله أعطى عاتكة حديقة لَهُ حين راجعها، على أن لا تتزوج بعده، فلما مات من السهم الذى أصابه بالطائف أنشأت تقول شعرًا، منه:

فَأَقْسَمْتُ لاَ تَنفَكُّ عَيْنِى سَخِينَـةً ... عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِيَ أَغْبَـرَا
مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ ... وَمَا طَـرَدَ اللَّيْلُ الصَّبَاحَ الْمُنَوَّرَا

فخطبها عمر بن الخطاب (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ)، فأخبرته بما كان من صنيع عبد الله معها (من إعطائها حديقة على أن لا تتزوج بعده)، فقال لها: استفتي، فاستفتت عليّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) فقال: «رُدِّى الحديقة على أهله وتزوَّجي»؛ فتزوَّجت عمر. انظر: السابق ص٦٠، وانظر أيضًا: خبرًا مشابهًا عن عبد الرحمن بن سُهيل ابن عمرو؛ إذ تزوَّج أم هشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكانت من أجمل نساء قريش، وكان يَجِدُ بها وَجْدًا شديدًا، واستحلفها فى مرضه الأخير على أن لا تتزوج بعده، ثم هلك، فلما قضت عدَّتها خطبها عمر ابن عبد العزيز، وهو أمير المدينة. وتزوجها بعد أن كفر عن يمينها. انظر: الأغانى ج١٣، ص٣٨ - ٣٩.

(٢) الأغاني: ج١٩، ص٢٠٧. على أن لباقى الخبر دلالة أخرى فى أن «عويفًا» -على الرغم من مراغمته لَهُ- لم يتحمل ما صنعه الحَجَّاج به من حبس وتقييد؛ فقال فيه شعرًا يُشيد به، ويكرمه، ويصوِّر ما ناله من إيلام حين جاءه خبر ما حدث لَهُ. انظر: الأبيات، السابق ص٢٠٧-٢٠٨.

فيها. ولم تكُن محفوفة بما نشاهده اليوم من قيود أو عقبات. وهذا واضح من الأخبار الكثيرة التى تُبرز حرص كل من الطرفين (الرجل والمرأة) على أن لا تبقى المرأة دون زواج، سواء أُطْلِّقَت أم مات زوجها عنها. وفى قصة عاتكة بنت زيد والسيدة سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهن ما يدْعم ذلك.

ولا شكَّ أن الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، والوعى المستنير بما للزواج من قيم، استقرت فى وجدان المسلم، وانعكست فى حياته العملية، كالحرص على إحصان المرأة، والرغبة فى النسل الطيب، والذُّرِّية الصالحة- كان وراء هذا كله. ويبدو -من بعض الأخبار- أن إحصان أكثر من امرأة كان مما يعتزُّ بِهِ العربى ويفتخر بِهِ[1].

وفى سياق المعانى السابقة نفهم دفاع المرأة العربيَّة عن حقِّها فى الزواج إذا جوبهَت بما يعارض رغبتها فيه؛ ففى الحديث عن «أم حكيم وأخبارها»[2] تذكر الرواية أن أمها زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأن أم زينب: سُعْدى بنت عوف بن خارجة... ابن لأم الطائي. وكانت سُعْدى هذه «عند عبد الله بن الوليد بن المغيرة، فولدت لَهُ سَلَمة ورَيطَة، ثم تُوُفِّيَ عنها، فخلف عليها طلحة بن عبيد الله، فولدت لَهُ يحيى وعيسى، ثم قُتلَ عنها، فخطبها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فتكلم بنوها وكرهوا أن تتزوج وقد صاروا رجالًا، فقالت: إنه قَد بقى فى رحم أمكم فضلة شريفة لا بد من خروجها، فتزوَّجها، فولدت لَهُ المغيرة بن عبد الرحمن الفقيه، وزينب، وهى أم أم حكيم»[3].

ونختم هذا الجزء بالإشارة إلى أن هناك حالات فردية، تتسم بالتطرُّف، عُنِيَ بها أبو الفرج، ربما لما يصدر عنها من سلوك أو تصرُّف يبدو شاذًا، وربما لأنها تمثِّل لونًا من

---

(١) انظر: الأغاني، ج١٣، ص٢٠٥، حيث يذكر خبرًا عن وصية غيلان بن سلمة، حين حضرته الوفاة لأبنائه، فى حسن التأتِّي فى اختيار من تكون زوجة من «بيوتات العرب». وفى تقديمه لهذه الوصية يسجِّل أنه «كان قَد أحصن عشرًا من نساء العرب».

(٢) هي: «أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس». «وأمها: زينب بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وكانت هى وأمُّها من أجمل نساء قريش، فكانت قريش تقول لأم حكيم: الواصلة بنت الواصلة، وقيل: الموصِلة بنت الموصِلة؛ لأنها وصلتا الجمال بالكمال». الأغاني: ج١٦، ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٣) الأغاني، ج١٦، ص٢٧٥.

القيم التى حرص العربى على الاعتزاز بها، وإن بدَت لنا جافية خشنة. وخير شاهد على ذلك «عَقيل بن علَّفة»؛ وهو شاعر مُقِلّ، غُنِّيَ من شعره ببيت واحد، شفعه المغنِّى أحمد المكّى ببيت آخر لشبيب بن البرصاء، ليصلح لحنًا لَهُ معنًى[1].

لَقد تعقَّب أَبُو الفَرَج فى ثمانى عشرة صفحة من الأغاني[2] - أفعَاله الغريبة الَّتِى تدور في: اعتزازه المبالَغ فيه بنسبه وحياته البدوية الجافية، وأخبار من تعلَّقوا بالرغبة فى مصاهرته بزواج بناته، واستهانته بِهِمْ لدرجة معَاقبتهم، واصطدامه المتكرر بمن يقترب من حياته، حَتَّى أولاده.

هُنَا يبدو البدوى فى حال من الغطرسة والشعور بالانفراد يعلو بنَفْسه -اعتمادًا عَلَى نسبه- إلى ذروة يرغب فيها ملوك زمانه؛ ينتهِى نسب عقيل إلى قيس عيلان بن مضر، وأمُّه عمرة بنت الحارث بن عوف. ويقول أَبُو الفَرَج فى وصفه إنه كَانَ «أعرج جافيًا شديد الهوج والعجرفية والبذخ (الافتخار) بنسبه فَى بنى مرَّة، لَا يرى أن لَهُ كفئًا... وكَانَت قُرَيْش ترغب فى مصاهرته»[3].

وَفى هَذَا الفصل ذكرنا امرأ القيس بن عدى الكلبى (وَهُوَ بدوى أيضًا) الَّذِى نال إمارة قومه فور إعلان إسلامه وقبل أن يصلِّ ركعة واحدة -كَمَا روى أَبُو الفَرَج- وقبل أن يغيب عن نظر عمرَ بن الخطاب وجلسائه كَانَ قَد زوَّج بناته الثلاث بعليّ بن أبِى طَالِب وبالحسن وبالحسين!.

هَذِهِ بعض مظاهر التعلُّق المبالغ فيه بالنسب العريق، وقد زوج عقيل بن عُلَّفة بناته الثلاث: فقد زوج الجرباء يزيد بن عبد الملك[4]، وكَانَت متزوجة قبل يزيد، وتزوَّج عمرة رجل من آل المغيرة (قُرَيْش)، وتزوَّج أمَّ عمرو ثلاثةُ أزواج جميعهم من بنى الحكم ابن العَاص.

---

(١) البيتان هما:

أَلاَ هَلْ أَسيرُ المَالكيةِ مُطْلَقٌ ... فَقد كَادَ لَوْ لَمْ يُعْفِه اللهُ يَغْلَقُ
فَلاَ هُوَ مَقْتُول، وَفِى القَتْلِ رَاحَةٌ ... وَلاَ مُنْعَمٌ يَوْمًا عَلَيْهِ فَمُعْتَقُ

الأغاني: ج١٢، ص٢٥٣.

(٢) الأغاني: ج١٢، من صفحة ٢٥٣ إلى ٢٧٠.

(٣) الأغاني: ج١٢، ص٢٥٤.

(٤) كَانَت العرب تسمِّى بناتها بأسماء قبيحة أو مشوَّهة، تعويذةً ودفعًا للحسد، وكَانَت الجرباء جميلة، كَمَا كَانَت أم عقيل نَفْسها (عمرة) معروفة بالعوراء كَمَا يذكر أَبُو الفَرَج.

وخلاصة هَذِهِ الزيجات أن الرَّجُل لَمْ يرغب فى تجاوز مصاهرة قُرَيْش، ويذكر أَبُو الفَرَج أسماء مشاهير من الحكام مثل عثمان بن حيان المرى والى المدينة الَّذِى رغب فى مصاهرته فسخر منه، كَمَا ضرب آخر ومثَّل بِهِ... وتمضى هَذِهِ الجفوة حَتَّى يعَاقب أهل بَيْته إِذا وجدهم مجتمعين، وحَتَّى يغيب عن أهله أشْهُرًا ويتركهم وحدهم فى البادية.

وقد حدَّثه الخليفة عمر بن عبد العزيز فى ذَلِكَ، إِذ قَالَ لَهُ: «إنك تخرج إِلى أقاصى البلاد وتدَع بناتك فى الصحراء لاَ كالئ لهن، والنَّاس ينسبونك إِلى الغيرة، وتأبَى أن تزوِّجهن إِلاَّ الأكْفاء. قَالَ: إِنى أستعين عليهن بخُلَّتَين تكْلآنِهِنّ، وأستغنى عن سواهما. قَالَ: وَمَا هما؟ قَالَ: العُرْى والجوع»[1].

هكذا يترك البدوى الغيور بناته فى حراسة امتهان الجسد بحيث لاَ تجرؤ الفتاة، وَهِيَ جائعة ترتدى أسمالًا، عَلَى الظهور أَو التفكير فيما تفكِّر فيه نظائرها من الشابَّات.

ونوضِّح هُنَا أن الرَّجُل لَمْ يكُن «حالة منفردة» فى زمانه بالنسبة إِلى الترفُّع عن زواج بناته بغير الأكفاء[2]، فَهَذَا مما أقرَّته قيم العَصْر الَّتِى حصرت الكفاءة فى النسب، ومن ثم سخرت من الموالى كَمَا رفضت تزويجهم[3]، ولعل هَذَا لَمْ يكُن ينحصر فى البدو، وإِن وجدنا بعضًا منهم (أشرنا إِليه) يقبل تزويجهم تحت ظروف خاصَّة، ولكن الانفراد المستنكر يأتى من جهة هَذَا التعَالى المتعجرف، حَتَّى يزعم أنه ردَّ عبد الملك بن مروان فلم يقبل أن يزوِّجه[4]. من ثَمَّ يعَاقب من تقدم إِليه من بنى سلامان بن سعد عقوبةً بدنية مزرية، وَفِى حالة أُخْرَى هجا رجلًا وغمزه فى نسبه لأنه تقدم إِليه خاطبًا، وقال فى

---

(١) الأغاني: ج١٢، ص٢٥٩.

(٢) وهنا قد يثار تساؤل: كيف يترفع عن زواج بناته بغير الأكفاء ثم يتركهن عرايا جائعات ؟ وربما يرتبط هذا بلون من التفكير يرى أن الجوع – وما يقترن به من عرى – سبيل إلى إضعاف الغرائز؛ ومن ثم ففيه وقاية وحماية.

(٣) من طريف مَا يُروَى فى هَذَا المقام مَا ذكره المبرِّد فى كتابه «الكامل»، إذ سأل أعرابِيٌّ آخرَ قائلًا: أتُرى هَذه الأعَاجم تنكح نساءنا فى الجنة؟! فأجابه: أرى ذَلِكَ والله بالأعمال الصالحة. قَالَ: توطأ والله رقابنا قبلَ ذَلِكَ!! الكامل: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٩٨٦م ج٣، ص١٣٧٥ . والخبر منسوب إلى الأصمعي، وَفِى هَذَا الباب طرائف عديدة تعطى هَذَا المغزى.

(٤) الأغاني: ج١٢، ص٢٥٥.

هَذَا شعرًا وصفه فيه بأنه «هجين»[1]. والهجين يَكُونُ لأب عَرَبِيّ وأمُّه أَمة، وَهُوَ منتقَص عندهم حَتَّى وإِن كَانَ النسب عند العرب إلى الآباء.

ولم يكُن أبناء عقيل أقلَّ جفوة من أبيهم، الذكور والإِناث عَلَى السواء، وأخبارهم مروية فى ترجمة أبيهم.

ومن تلك الحالات ما أورده أبو الفرج عن بعض النساء اللائى عُرفن بالحدَّة المذهبية، وانعكس هذا على سلوكهن بطريقة عملية. من هؤلاء زوجة نافع بن الأزرق[2]، أحد قادة الخوارج، وتُنسب إِليه طائفة الأزارقة، وكَانَ نافع ضائق الصدر بتفرُّق آراء الخوارج وتعدُّد مذاهبهم، فأقام بسوق الأهواز وأعمالها، وكما تقول عبارة أَبى الفَرَج: «وقد كَانَ متشكِّكًا فى ذَلِكَ، فقالت لَهُ امرأته: إِن كنت قَد كفرتَ بعد إِيمانك وشككت فيه، فدع نِحْلَتَك ودعوتك، وإِن كنت قَد خرجت من الكفر إلى الإيمان فاقتل الكفار حيث لقيتَهم، وأثخن فى النِّسَاء والصبيان كَمَا قَالَ نوح: [لاَ تذر عَلَى الأرض من الكافرين ديَّارًا]. فقبِل قولها واستعرض النَّاس وبسط سيفه...»[3]، فإذا نشبت معركة دولاب كَانَت هَذِهِ الزوجة خلفه فى المعركة، وتعقَّبت قاتله لتثأر بِهِ[4].

ولم تكُن زوجة نافع حالة فريدة فى بابها، من الحدّة المذهبية والتحريض، بل وممارسة القتال الشرس ضد من يخالفون الخوارج، فهناك أيضًا أم حكيم، وقد ذكرها أَبُو الفَرَجِ، وذكر قصيدة حبيب بن سهم فيها، يمجِّد نضالها، ويفخر بشجاعتها، ومطلعها:

لَعَمْرُكَ إِنِّى فى الحَيَاةِ لَزَاهِدٌ ... وَفِى العَيْشِ مَا لَمْ أَلْقَ أُمَّ حَكِيمِ[5].

ويذكر أَبُو الفَرَجِ خبرًا يُعلِي من شأنها ويشيد بقدرتها القتالية: «أخبرنى أحمد بن

(١) الأغاني: ج١٢، ص٢٦٥.
(٢) نافع بن الأزرق من بكر وائل، كَانَ أمير قومه وفقيههم، قُتل عَام ٦٥هـ فى معركة دولاب عَلَى مقربة من الأهواز: الأعلام للزركلي. وانظر أيضًا عن الأزارقة: الكامل للمبرِّد، الباب رقم ٥٠ ، ج٣، (باب «من أَخبَار الخوارج») السابق.
(٣) الأغاني: ج٦، ص١٤٢.
(٤) الأغاني: ج٦، ص١٤٤.
(٥) الأغاني: ج٦، ص١٤٨.

جَعْفَر جحظة، قَالَ: حدَّثنى ميمون بن هارون، قَالَ: حُدِّثت أن امْرَأة من الخوارج كَانَت مع قطرى بن الفجاءة يُقال لَهَا أم حكيم، وكَانَت من أشجع النَّاس وأجملهم وجهًا وأحسنهم بدينهم تمسُّكًا، وخطبها جماعة منهم فردَّتهم ولم تُجب إلى ذَلِكَ، فأخبرنى من شهدها أنها كَانَت تحمل عَلَى النَّاس (تهجم فى أثناء المعركة) وترجز:

أَحْمِلُ رَأْسًا قَد سَئِمْتُ حَمْلَهْ وَقد مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

أَلاَ فَتَى يَحْمِلُ عَنِّى ثِقْلَهْ؟[1]

وَهَذَا التشدُّد المذهبيّ الَّذِى مارسته زوجة نافع بن الأزرق مع زوجها لَمْ يكُن حالةً فريدة؛ فقد وصل أحد زعماء الخوارج (الشراة)، وَهُوَ عمران بن حطان،إلى تطرُّفه الاعتقادى من خلال زوجته أيضًا. إذ يذكر أَبُو الفَرَجِ فى أخباره أنه «شاعر فصيح من شعراء الشراة ودعَاتهم والمقدمين فى مذهبهم، وكَانَ من القعدة لأن عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها، فاقتصر عَلَى الدعوة والتحريض بلسانه... [وكَانَ] من أهل السنة والعلم، فتزوَّج امْرَأة من الشراة من عشيرته، وقال: أردُّها عن مذهبها إلى الحق. فأضلَّته وذهبت بِهِ»[2].

وكذَلِكَ يروى أَبُو الفَرَجِ أَخْبَار غزالة الحرورية[3] الَّتِى هاجمت -مع شبيب- الكوفة واقتحمتها عَلَى الحَجَّاج بن يوسف الَّذِى أغلق عَلَى نَفْسه قصره. وهجاه عمران بن حطَّان فى هَذِهِ الحادثة[4].

هَذَا بعض مما روى أَبُو الفَرَجِ من أَخْبَار نساء من الخوارج، جاء فى سِيَاق سِيَر الرِّجَال

---

(١) الأغاني: ج٦، ص١٥٠.

(٢) الأغاني: ج١٨، ص١٠٩ - ١١٠ بتصرُّف.

(٣) نسبة إلى فرقة من الخوارج يُنسَبون إلى حروراء، وَهِيَ قرية قرب الكوفة شهدت أول اجتماعهم.

(٤) الأغاني: ج١٨، ص١١٦. ومِمَّا هجا بِهِ عمران بن حطان الحَجَّاج قوله:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِى الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ رَبْدَاءُ تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةَ فِى الْوَغَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِى جَنَاحَيْ طَائِرِ
صَدَعَتْ غَزَالَةُ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ تَرَكَتْ مَدَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

أَو ذكر المعَارك الشرسة الَّتِى خاضوها دفاعًا عن المذهب، وكَانَ الحضور النسويُّ فى جانب التطرُّف المذهبيِّ يصل إلى حدِّ المشاركة فى القتال، ولم يكُن هَذَا معروفًا عن المَرْأة فى الجاهلية، إذ كَانَت تكتفى بالتجمُّع خلف الجيش بقصد إثارة النخوة فى المقاتلين.

ومن الملاحظ أن المرأة المسلمة شاركت - فى صدر الإسلام - فى القتال مشاركة عملية، مثل نسيبة بنت كعب الأنصارية، وكنيتها أم عمارة، وصفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، ولكن هذه الإيجابية المندفعة فى الرأى وَفى المجالدة بالسيف عند نساء الخوارج تُعَدُّ أمرًا جديدًا (متغيِّرًا) فى السلوك النسويِّ، وقد ارتبط بالمَرْأة الخارجية؛ ولهذا لن نجد لَهُ آثارًا تُذكَرُ حين ذابت حركة الخوارج فيما بعد.

وبعدُ، فلعلَّها ليست مصادفة (تاريخيَّة) أن يَكُونَ أكثر الخوارج من البدو، وأن يَكُونَ الحب العذرى فى البادية، وأن يَكُونَ النموذج الجافى الفظُّ (نموذج عقيل بن علفة) بدويًّا أيضًا، فلقد عُرفَت البادية بقسوة مُناخها وجفاف عيشها، ولقد وَرِثَتْ تراثًا من الإغارات والغدرات، وكَانَ الميراث ثقيلًا ومرويًّا عبر الأجيال، فإذا تحقَّق الوفاء والأمان والرخاء والكرم فإن هَذَا كَانَ مما يستدعى المديح والإشادة.

ثانيًا: تحرّر المرأة

تتعدد الأقوال والاجتهادات فى حدود المأذون بِهِ من اجتماع الرِّجَال والنِّسَاء فى المكان الواحد، وَهَذَا أمر يختلف عن خلوةٍ طرفاها رجل وامرأة. وَفى ضوء أحكام الشريعة تحضر النِّسَاء صلاة الجماعة فى المسجد خلف صفوف الرِّجَال، وتحضر مواسم الحج وتطوف بثياب الإحرام مختلطة كذَلِكَ، وتشهد المعَارك فتعَالج الجروح، وقد تحمل السلاح... وَهَذَا كلُّه مقرَّر بحدوده.

ودون أن نتطرق إلى مَا كَانَ عليه أمر الجاهلية فى مُجْتَمَع القَبيلة وبين القبائل، فإننا نجد إشارات قولية وفعلية حرص أَبُو الفَرَج عَلَى ذكرها وتعقّب آثارها بِمَا يَدُلُّ عَلَى وجود اختلاف فى الموروث الاجْتِمَاعِيّ بين القَبائل فى هَذَا الأمر (اجتماع الرِّجَال والنِّسَاء) وحدوث تغيُّر فى السلوك الفردى قولًا وعملًا، والقبول الاجْتِمَاعِيّ أو الرفض لهذه المُسْتَوَيَات من السلوك.

قَد نجـد حادثـة دالّـةً فيما ذكر الأصفهانى من أَخْبَار العُجَيْر السلولي، إِذ رُوِيَ عن ابن الأعرابى أن العُجَيْر كَانَ «يتحدث إِلى امْرَأة من بنى عَامر يُقال لَهَا جُمْل، فألِفَها وعَلِقَها، ثم انتجع أهلها نواحى نصيبين، فتتبّعتها نَفْسه، فسار إِليهم فنزل فيهم مجاورًا، ثم رأوه منازلًا ملازمًا محادثة تِلْكَ المَرْأة، فنهوه عنها وقالوا: قَد رأينا أمرك، فإما أن انقطعتْ عنها، أَو ارتحلت عنَّا، أَو فائذن بحرب. فقال: مَا بينى وبينها مَا يُنكَر، وإنما كنت أتحدث إليها كَمَا يتحدث الرَّجُل الكريم إلى المَرْأة الحرة الكريمة، فأما الريبة فحاش لله منها. ثم عَاود محادثتها فانتهبوا ماله وطردوه، فأتى محمد بن مروان بن الحكم، وَهُوَ يومئذ يتولَّى الجزيرة لأخيه عبد الملك بن مروان، فأتاه مستعديًا عَلَى بنى عَامر، وعَلَى الَّذِى أخذ ماله خصوصية، وَهُوَ رجل من بنى كلاب يُقال لَهُ ابن الحسام... فأمر محمد بن مروان بإحضار ابن الحسام الكلابى فأُحضرَ، فحبسه حَتَّى ردّ مال العُجَيْر، وأمر العُجَيْر بالانصراف إلى حيِّه، وتَرْك النزول عَلَى المَرْأة أَو فى قومها»[1].

إن مواقف الأطراف الثلاثة المكوِّنة لِهَذَا الخبر (الَّذِى سكت عن ردِّ فعل المَرْأة أَو ذِكْر أقوالها مكتفيًا بدلالة الحال وَهِيَ أنها كَانَت تستقبل العُجَيْر وتجالسه منفردة) تتحرك بين مَا تدفع إِليه الغريزة وَمَا يتطلبه الأمان الاجْتِمَاعِيّ وكفُّ الشرِّ[2].

والواقع أن مثل هذا اللقاء بين الرجل والمرأة، ثم ما يكون من حديث بينهما، كان يتكرر كثيرًا، وبخاصة فى مدن الحجاز (مكة والمدينة). ويمكن القول بأنه كانت هناك موجة من التحرُّر عمَّت تلك البيئة، نتيجة لعوامل كثيرة[3]. ومن ثم كانت هناك مجالس

---

(١) الأغانى ج١٣، ص٧٢ - ٧٣.

(٢) مَا أملته الغريزة أن العجير الَّذِى تعلَّق بالمَرْأة تعقَّب منازل قومها دون أن يطلب الزواج بِهَا، مكتفيًا بِمَا يدَّعيه من الحديث معها، وَهُنَا عُرِض عليه اتباع أحد احتمالين وإلا فالحرب، وهكذا عَاقبوه بسلب ماله. ولكن الوالى لاَ يُقرُّ عقوبةً قَد تؤدِّى إلى الفوضى، ومن ثم أعَاد إلى العجير ماله، وأمره بالرحيل. وَفى الأغانى أَخبَار تأخذ هَذَا المنحى من تردُّد الرجل عَلَى امرأة بعينها، ولكن نتائج هَذَا التردُّد تختلف ترتُّبًا عَلَى اختلاف الطبائع العَامّة، وطبيعة المَرْأة خاصَّة، فَفِى أَخبَار محمد بن بشير الخارجى (الَّذِى عرفناه زوجًا لابنة عمه من قبل) أنه كَانَ يتحدث إلى عبْدةَ بنت حسان المزنية ويقيل عندها أحيانًا. وتقول الرواية: إنه رُبَّمَا بات عندها ضيفًا لإعجابه بحديثها، فنهاها قومها عنه، وقالوا: مَا مبِيت رجل بامرأة أيِّم؟ فلم تُدخِلْه خباءَها، ومنعَته المبِيت، وقالت: لاَ تبتْ عندنا، فيُظَنّ بى وبك شر، فانصرف، وقال فيها شعرًا. الأغانى ج١٦، ص١١٤.

(٣) هناك عوامل كثيرة سَاعدت على شيوع موجة التحرُّر هذه، وما صحبها من ظواهر عديدة - كانتشار مجالس

اللهو والطرب (الغناء)، وكانت هناك مجالس الشعر، ثم كانت هناك هذه اللقاءات العابرة، التى ربما كانت وليدة المصادفة، ولم يُعَدّ لها من قبل.

ومن هذه اللقاءات الأخيرة: ما يورده أبو الفرج من أنه «اجتمع محمد بن بشير الخارجي، وسائب بن ذكوان راوية كُثَيِّر بمكّة، فوافقا نسوةً من بنى غفار يتحدثن، فجلسا إليهن، وتحدَّثا معهن حتى تفرَّقن، وبقيَت واحدة منهن تحدِّث الخارجيَّ وتستنشده شعره حتى أصبحوا، فقال لهم رجل مرَّ بهم: أما تبرحون عن هذا الشعر، وأنتم حُرُم، ولا تدَعون إنشاده وقول الزور فى المسجد؟! فقالت المرأة: كذبتَ لعَمْر الله؛ ما قولُ الشعر بزور، ولا السلام والحديث حرام على مُحْرِم ولا مُحِلّ، فانصرف الرجل»[1].

فهذا الخبر -على فرض صحَّته- يُبرز قدرًا من الحرية والجرأة لدى المرأة لم يُعهَد منها من قبل. وله دلالته الواضحة علَى ما رأته فهمًا صحيحًا للدين. ومن ثم فقد كانت إجابتها حاسمة مُفحِمة لمن استنكر صنيعَها؛ فهى لم ترتكب منكرًا بقول الشعر والاستماع لَهُ؛ فضلًا عن أن السلام والحديث غير محرَّمَين على مُحِلٍّ أو مُحرِم.

وما ورد إلينا من أخبار وأشعار يُثبت لنا أن صورة المرأة فى هذا العصر قَد تبدَّلت تبدُّلًا واضحًا، مقارنةً بها فى العصر الجاهليِّ. وطبيعى أن يبدو هذا التبدُّل بصورة جلية فى المدن، وفى طبقة الصفوة بخاصة من عقائل بيوتات العرب من قريش، ومَن على شاكلتهن؛ فقد كانت هذه الصفوة تعيش حياة الترف والقصور، ومن ثم فقد شاعت قصص الحب ومغامرات العشق، وشملت المدن والبوادي، وشغلت خليفة المسلمين وصعاليك الصحراء على سواء[2].

اللهو والغناء، وشيوع الغزل شيوعًا لافتًا للنظر- انعكست بصورة واضحة على أنماط السلوك الاجتماعى للمرأة فى هذا العصر. وقد رصد الدارسون -وفى مقدمتهم د. طه حسين- أبرز هذه العوامل؛ فقد ذهب إلى أن الغزل بنوعيه فى مدن الحجاز وبواديها- إن هو إلاّ أثر من آثار الحياة السياسية فى بنى أمية؛ فقد اضطرَّت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل، وأوقعت فى قلوبهم اليأس، بعد أن انتقل مركز الحكم فيها إلى الشام، ومركز المعارضة إلى العراق. ولكنها -كما يقول- أغنتْ قومًا فلهَوْا وفسقوا، وأفقرت قومًا آخرين فزهدوا وعفوا، وطمحوا إلى المَثَل الأعلى. انظر: حديث الأربعاء، ج١، ص١٩٠.

(١) الأغاني: ج١٦، ص١١٦-١١٧.

(٢) انظر: الدكتور محمد حسن عبد الله، السابق ص١٤٨-١٤٩.

وقصص الحب، ومغامرات العشق هذه تتوزع بين لونين من الغزل شاعا فى بيئتين مختلفتين من بلاد الحجاز.

ومن خلال هذين اللونين يمكن أن نتعرف كثيرًا من ملامح «المرأة» فى العصر الأموي: تبدِّيًا وتحضُّرًا، وكذلك: تحرُّرًا وانعزالًا؛ وانعكاس ذلك فى النظرة إلى مكانة المرأة العربيَّة فى ذلك العصر.

ويتمثل «اللون الأول» فى «الغزل الحِسِّيّ»، أو «غزل المحقِّقين»[1] حسب تسمية الدكتور طه حسين لأصحابه؛ «وهم الذين كانوا يتغنَّون الحب، ولذَّاته العملية، كما يفهمها الناس جميعًا»[2]؛ ويمثِّله عمر بن أبى ربيعة، والأحوص، والعْرجى، وغيرهم. وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة.

والسمة العامة للمرأة من خلال ما ورد إلينا من أشعار تتغنى بها، وأخبار تتحدث عنها تُبرز لنا إقبالًا على الحياة، واستمتاعًا بها وبما فيها من جوانب جمالية، فى مقدمتها الشعر والغناء؛ وكأن هذا قد غدا الشعار الذى تبنَّته وحقَّقَته نساء تلك الطبقة بعامةَ.

ومن هنا، فإن المرأة فى هذه الطبقة نموذج للمرأة المتحضرة المنعَّمة المترفة، التى أُتيحَ لها من الفراغ وأسباب زينة الحياة، ما لم يُتَح لها من قبل فى العصور السابقة. وفيما أورده «الأغاني» من شعر عمر بن أبى ربيعة بخاصةٍ أبيات كثيرة تصف ملابس هذه المرأة المتحضرة، وما كانت تغرق فيه من الحُلِيِّ والطِّيب، وتصوِّر مدى ما وصلت إليه من ترف ونعيم[3].

ويلفت نظرنا هنا الوصف المتكرر للمرأة فى الأغانى بأنها كانت «برزة»[4]. وبالتعقُّب

---

(١) ويُطلق د. طه حسين عليه أيضًا «غزل الإباحيين» ص١٨٧، أو «الغزل العابث الماجن»؛ ربما لما فيه من قصص المغامرات النسائية، والتحرُّر من أسْر التقاليد والأعراف، التى كانت قد ترسَّخت فى وجدان الإنسان العربي. ولكن هذه التسمية ربما توحى بدلالات، لا تتفق مع روح هذا اللون من الشعر وطبيعته.

(٢) د. طه حسين: السابق، نفس الموضع.

(٣) انظر: الأغاني: ج١، ص٥٩. وانظر أيضًا: د. شوقى ضيف: التطوُّر والتجديد فى الشعر الأموي، ص٢٢٦-٢٢٧.

(٤) الدلالة المعجمية لِهَذَا الوصف لاَ تقتصر عَلَى الظهور المجرد للرِّجَال أو مجالستهم، وإنما [قَد] يُضاف بعض الشروط، فَفِى لسَان العرب: «امْرَأة برزة: بارزة المحاسن. قَالَ ابن الأعرابي: قَالَ الزبيري: البرزة من النِّسَاء الَّتِى لَيست بالمتزايلة الَّتِى تزايلك بوجهها تستره عنك وتنكبُّ إلى الأرض. وقيل امْرَأة برزة متجالّة

الدقيق لدلالات الكلمة نرى أنها تجاوزت مجرد مجالسة الرِّجَال.

وقد وصف مصعب بن الزبير زوجته سكينة بنت الحسين -وكَانَ زوجًا لَهَا- بأنها «عفيفة سلمة برزة، تجالس الأجلّة من قُرَيْش، وتجتمع إليها الشعراء[1]».

ووُصفت عَائشة بنت طلحة بمثل هَذِهِ الصفات، وتقول عبارة «الأغاني»: «كَانَت عَائشة بنت طلحة لاَ تستر وجهها من أحد، فعَاتبها مصعب [زوجها] فى ذَلِكَ، فقالت: إن الله تبارك وتعَالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه النَّاس ويعرفوا فضلى عليهم، فَمَا كنت لأستره، ووالله مَا فيَّ وصمة يقدر أن يذكرنى بِهَا أحد»[2].

وكذَلِكَ وُصفت إحدى حفيدات على بن أبى طالب (فاطمة بنت محمد)، وكَانَت زوجة لابن عمها الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بأنها كَانَت «برزة تجلس لأهلها كَمَا يجلس الرِّجَال، وتحدِّثهم»[3].

ولعلَّ عبارة عَائشة بنت طلحة تعبِّر عن موقف «نفسيٍّ» لِلْمَرْأة المتزوجة فى الطبقة العَالية من الشرف. وَفى هَذِهِ العبارة قدر من المباهاة والرغبة فى الشهرة، وقدر من الثقة بالنفس والتعويل عَلَى الدوافع (أَو النية)؛ ولعلِ هَذَا يعلِّل لنا تِلْكَ الأخبار الَّتِى حرص أَبو الفَرَجِ عَلَى ذكرها غير مرة، عن رغبة فريق من نساء العلية فى أن يذكرهن شعراء الغزل، ويمدحوهن بالجمال، دون مساس بمعَانى الشرف والترفُّع عن الدنية.

فقد ذكر الأصفهانى فى سياق سيرة بعض مشاهير شعراء الغزل فى العَصْر الأُمَوِيّ، أن نساءً من الطبقة العَالية أرسلنَ إليهم سرًّا أن يقولوا فيهنّ شعرًا يُشيد بصفاتهن وجمالهن، وكان عمر بن أبى ربيعة من أشهر من عُرف بذلك. هكذا يَدُلُّ خبره مع ليلى

تبرز للقوم يجلسون إليها، ويتحدثون عنها، وَفى حديث أم معبد: وكَانَت امْرَأة برزة تختبيء بفناء قبتها. أَبو عبيدة: البرزة من النِّسَاء الجليلة الَّتِي تظهر لِلنَّاس ويجلس إليها القوم، وامرأة برزة: موثوق برأيها وعفافها، ويُقال: امْرَأة برزة إذا كَانَت كهلة لاَ تحتجب احتجاب الشوابِّ، وَهِيَ مع ذَلِكَ عفيفة عَاقلة تجلس لِلنَّاسِ وتحدِّثهم. لسان العَرب، مادة «برز».

(١) الأغاني: ١٦، ص١٤٣.

(٢) الأغاني: ج١١، ص١٧٦.

(٣) الأغاني: ج٢٢، ص٢٨٣.

بنت الحارث بن عمرو البكرية، وزينب بنت موسى الجمحية، ومع جليسات السيدة سكينة بنت الحسين، وهند بنت الحارث المُرِّية، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان، وعَائشة بنت طلحة، والثريا بنت على بن عبد الله بن أمية الأصفر[١].

ولنا هُنَا ملاحظتان: الأولى أن الصناعة (الأدبية) ضالعة فى تشكيل هَذِهِ الأخبار، وكأن التشويق والإعلاء من التأثير الشعرى الغزلى لعمر بن أَبى ربيعة مقصد من مقاصدها، والملاحظة الأخرى أن اتجاهًا آخر كَانَ يُعَارض ويُحذر، مثل مَا نُسب إلى الحَجَّاج بن يوسف الَّذِى أرسل تحذيرًا وتوعُّدًا إلى عمر إذا مَا قَالَ شعرًا فى ابنة عبد الملك بن مروان الَّتِى حجَّت ذَلِكَ العَام[٢].

ومع هَذَا نجد شعرًا سجله «الأغاني» حول هَذِهِ الحادثة، وتدلُّ رواية خبر يتعلق بالعرجى (خليفة عمر بن أَبى ربيعة فى الغزل بمكة) أنه كَانَ يقوم بالدور نَفْسه الَّذِى قام بِهِ عمر[٣]. وقد يُروَى مثل هَذَا عن ذى الرمة، الَّذِى يذكر صاحبُ «الأغاني» أنه شبَّب بخرقاء (وكَانَ تعلُّقه بميّ) ليس عن هوًى، وإنما كَانَت كحَّالة داوت عينه، فقال لَهَا: مَا تحبين حَتَّى أعطيك؟ فقالت: عشرة أبيات تشبِّب بي، ليرغب النَّاس فى إذا سمعوا أن فى بقية للتشبيب؛ ففعل[٤].

وَفِى هَذَا المقام ونحن نُعنَى برصد ملامح التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ يستدعى السياق خبر المُحلَّق الكلابى مع الأعشى (الكبير) الشاعر الجاهلي، فقد استعَان الأب المئناث المُمْلِق بشعر الأعشى، إذ أغراه بأن يُشِيد بِهِ لتُقْبِل الرِّجَال عَلَى التزوُّج ببناته[٥].

إن هَذَا الخبر الذى يستند إلى مكانة الشِّعْر عند العرب فى زمانهم الجاهلي، كَمَا فى

---

(١) يُنظر فى هَذِهِ الأخبار الجزء الأول من الأغاني: أخبار ليلى بنت الحارث ص١٦٢ – ص١٦٥، وزينب بنت موسى الجمحية ص٩٦ – ٩٩، ص١٠٥ – ١٠٩، وجليسات السيدة سكينة ص١١٠، وهند بنت الحارث المرّية ص١٨٣، ١٨٤، وفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ص١٩٨ – ٢٠٣، وعائشة بنت طلحة ص٢٠٨ – ٢١٢، وثريا بنت على ابن عبد الله ص٢١٧ – ٢٢٠.

(٢) انظر الأغاني، ج٢، ص٣٥٨.

(٣) انظر الأغاني، ج١، لعلها ٣٩٨ – ٤٠٠.

(٤) انظر الأغاني: ج١٨، ص٣٦.

(٥) انظر: الأغاني، ج٩، ص١١٣ – ١١٤ والمئناث هو من اعتاد على أن يلد الإناث.

زمانهم الأُمَويّ، وأنه وسيلة دعَاية مؤثِّرة ورائجة ومقبولة، يتيح لنا إمكانية فهم نفسية المَرْأة رفيعة المَكانة الاجتماعيَّة بصفة خاصَّة، وكيف ترى أن ذِكْرَها من شاعر مشهور معروف بالإجادة الفنِّية، لاَ يُلحق بهَا ضررًا قدر مَا يجعلها معروفة مشهورة، ورُبَّما أخطأت التقدير فواجهت موقفًا صعبًا، كَمَا روى أَبُو الفَرَج فى سيرة وضَّاح اليمن مع أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، زوجة الوليد بن عبد المَلَك[1].

ولعل أبيات الشاعر الحارث بن خالد المخزومى القرشى وَمَا أحاطها من جوٍّ جمالى ونفسى تعطى تصوُّرًا واضحًا عن واقع المَرْأة العربيَّة (القرشية ومن يشبهنها) فى ذَلِكَ العَصْر؛ فقد ذكر أَبُو الفَرَج أنه لَمَّا تزوَّج مصعب بن الزبير عَائشة بنت طلحة (وتعرَّفنا من قبل عَلَى حُجَّتها فى عدَم ستر وجهها) ورحل بهَا إلى العراق، قَالَ الحارث فى صدر قصيدة :

ظَعنَ الأَمِيرُ بِأَحْسَنِ الخَلْقِ ... وَغَدَا بِلُبِّكَ مَطْلَعُ الشَّرْقِ

فى البَيْتِ ذِى الحَسَبِ الرَّفِيعِ وَمِنْ ... أَهْلِ التُّقَى وَالْبِرِّ وَالصِّدْقِ

فَظَلَلْتُ كَالْمَقْهُورِ مُهْجَتُهُ ... هَذَا الجُنُونُ وَلَيْسَ بِالْعِشْقِ

أُتْرُجَّةٌ عَبَقَ العَبِيرُ بِهَا ... عَبَقَ الدِّهَانِ بِجَانِبِ الحُقِّ

مَا صَبَّحَتْ أَحَدًا بِرُؤْيَتِهَا ... إِلاَّ غَدَا بِكَوَاكِبِ الطَّلْقِ[2]

إن صفات المَرْأة فى الأبيات السابقة تتوازن فيها فضائل الخُلُق والنسب والاستبشار، وصفات الجمال وشدّة التعلّق: «هَذَا الجُنُونُ وَلَيْسَ بِالْعِشْقِ»، ولم يذكر الخبر أن مصعبًا ضاق صدرًا بمَا تغنَّى بهِ الشاعر عن زوجته المشهود لَهَا بالجمال والشخصية فى زمانها، أو

---

(١) أورد أَبُو الفَرَج خبرين وثَّق أحدهما وصدَّر الآخَر بعوامل الشكِّ؛ فقد شبَّب الشاعر بزوجة الخليفة، فدبَّر قتْله؛ وَفى روايَة وصفها بأنها مَوْضُوعة أن أم البنين هَويَت الشاعر، وأنها خبَّأته فى صندوق، فدفن الخليفة الصندوق فى حفرة وردم عليه. ويُسند أَبُو الفَرَج هَذِهِ الرواية الثانية إلى ابن الكلبيِّ. انظر أَخْبَار وضَّاح اليمن وسيرته- الأغاني: ج٦، ص٢٠٩.

(٢) انظر: الأغاني، ج٣، ص٣١٩. ويقصد الشاعر بالبيت الأخير: أن من تصبحه برؤيتها يرى الزمان صافيًا سعيدًا، تفاءلًا بطلعتها واستبشارًا. وتمام الخبر أن عَائشة تزوَّجت -بعد مصرع مصعب- عمر بن عبد الله التميمي، فَلَمَّا تُوُفِّيَ قيل للحارث بن خالد: مَا يمنعك الآن منها (يقصدون الزواج بهَا)؟ فقال: لاَ يتحدث والله رجَال من قُرَيْش أن نسيبى بهَا كَانَ لشيء من الباطل!!. انظر السابق ص٣٢٧. وتُروَى فى أَخبَار الحارث بن خالد حكايات تعقُّبه للنساء من كبار البيوتات مثلما كَانَ يُروَى عن ابن أَبِى ربيعة معَاصره.

أنه تهدِّد الشاعرَ فضلًا عن معَاقبته، وَهَذَا المشهد وَمَا يشبهه يُحيى فى ذاكرة الحضارات التاريخيَّة مَا تكون عليه العقلية فى أزمنة القوّة والرخاء من ميل إلى التسامح فيما لاَ يمسُّ صميم الشرف، ويمكن أن نلاحظ أن شعراء هَذَا المُسْتَوَى من الغزل كانوا فى ذات الموقع الاجْتِمَاعِيّ (الطبقي) الَّذِى توجد فيه المتغزَّل بهَا؛ فقد كَانَ عمر كَمَا كَانَ الحارث قرشيَّين، وكذَلِكَ كَانَ العرجي، وإن لاقى مصيرًا مختلفًا (القتل)؛ لأنه تجاوز القول إلى مطاردة أم القاضى محمد الأوقص، وقد ذكرنا هَذَا فى الفصل السابق. وكذَلِكَ لاقى وضَّاح اليمن مصيرًا قاسيًا لتجاوُزه المدى (القولي) المقبول، الَّذِى لاَ ينمّ عن جرأة سلوكية أو ميل إلى التجريح.

وعلى أية حال فما أوردناه سابقًا لَهُ دلالته فى النزوع إلى التحرُّر. وهو تحرُّر كان نتاجًا طبيعيًّا لظروف دفعت بها رياح التغيير آنذاك إلى تلك البيئة، فعمَّ وانتشر، ولكنه لم ينَلْ من قدر المرأة وكرامتها، على كثرة ما رُوى من أخبار فى ذلك. ويبدو أن اتساع الرؤية فى فهم الدين والوعى بتعاليمه كان وراء ذلك. وفى الوقت نفسه كان يمثِّل حصنًا منيعًا يحول دون التردى إلى مهاوى الابتذال والامتهان.

وهناك خيط رفيع دائمًا بين «التحرُّر» و«التحلُّل»؛ وفرْق بين أن يكون المجتمع حرًّا وأن يكون ماجنًا. نعم؛ نالت المرأة المكِّية حرية واسعة فى هذا العصر، لم تنَلْها جدَّتُها أو أمُّها من قبل؛ وقد ساعدت عليها طبيعة الحياة نفسها، وما كان فيها من مزاحمة الجوارى الأجنبيات من فارسيات وروميات لها، الأمر الذى جعلها تخرج من حجابها القديم، وتطلب الرجل وتغازله. ولكن الرواة وسَّعوا الصورة، وأضافوا لها ما يكاد يجعلها عبثًا خالصًا، وفرْقٌ بين العبث والحرِّية[1].

ولعل ما يدعم ذلك ما يذكره د. طه حسين -بعد أن يتوقف عند عمر بن أبي ربيعة، باعتباره زعيم الغزلين من أهل الحضر فى عصره- من أن العصر الأموى كله لم يعرف شاعرًا وصف المرأة جملةً وتفصيلًا بمثل ما وصفها بِهِ عمر بن أبى ربيعة جودةً وكثرةً ودقَّةً بنوع خاص. وأن عمر «لم يكُن يتصور المرأة إلاَّ عَلى أنها مكمِّلة للرجل، لا يستطيع

---

(١) انظر: الدكتور شوقى ضيف: السابق ص٢٢٣.

أن يعيش بدونها، كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه»[1]. ثم يختم كلامه -عن طبيعة رؤية عمر للعلاقة بين المرأة والرجل، وأنها كانت واسعة متناوَلة جميع أطراف الحياة؛ وعن مدى «الحرية» المسموح بِهِ لها- بأن هناك شيئًا لا شكّ فيه، وهو: «أن شعر ابن أبى ربيعة كلّه ليس إلاّ تغنّيًا بجمال المرأة، وتأثيرها فى حياة الرجل ومكانها من نفسه»[2].

بعد أن ناقشنا الغزل الحسى نأتى الآن إلى مناقشة اللون الثانى من الغزل وهو: «الغزل العُذريّ» أو «العفيف»[3]، ويرتبط بظاهرة «الحب العذري»، الَّتِى أخذت مداها بخَاصَّة فى ذَلِكَ الْعَصْر، واتسعت بدرجَة تسمح بأن تُنسَبَ إلى الْعَصْر الأمَويّ، حَتَّى وإن كَانَت لها سوابق فى الْعَصْر الجاهلي. ذكر أَبُو الْفَرَج من عُشَّاق الجاهلية: الَمرقَّش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف وَهِيَ بنت عمه[4]، وَابن أخيه المرقَّش الأصغر وصاحبته فاطمَة بنت المنذر[5]، ولم يكونا من قَبيلَة عذرَة وَلاَ كَانَ لها ذكر بهذا الْمُسْتَوَى من العشق فى الْعَصْر الجاهلي، وإنما كَانَ يُطلَق عَلَيهم «المتيَّمون»، وهما من سادَة بكر بن وائل.

وَفى الْعَصْر الأمَويّ انتشرت أَخْبَار المتيَّمين وقصصهم حَتَّى أخذت حجم الظاهرَة (الاجتماعيَّة) الدالَّة عَلَى تغيُّر فى منظومَة القيم السائدَة.

لقد اهتمَّ الباحثون فى الأدب الأُمَويّ بظاهرَة الغزل العذرى (وَهُوَ ليس مختصًّا بقبيلَة عذرَة وإن اشتهرت به)، ورُبَّمَا استَعَان بعض منهم بالدراسات النفسية ليتمكن من تفسير موقَف العَاشق العذرى من الْمَرْأَة، وموقف أهل الْمَرْأَة المتصلب ضدَّ هَذَا الحب[6].

يذكر الدكتور محمد غنيمى هلال أن التسامى بالحب كَانَ نتيجَة للشعور الدينى والحرمان العَاطفي، ومن ثم فهُوَ ناتج صدق العَاطفَة وصدق العقيدَة[7]. وَلاَ يغفل أثر

---

(١) الدكتور طه حسين: السابق ص٣٠٨.

(٢) السابق: ص٣٠٩.

(٣) يقول عنه الدكتور طه حسين: إنه هذا النوع من الغزل الذى تغنّى فيه الشعراء من أمثال جميل، وعروة، وقيس بن ذُرَيح، والمجنون، «الحب الأفلاطونى العفيف»، وموطنه البادية. انظر: السابق ص١٨٧.

(٤) الأغاني: ج٦، ص١٢٧ وَمَا بعدها.

(٥) الأغاني: ج٦، ص١٣٦ وَمَا بعدها.

(٦) انظر مَا كتبه د. محمد غنيمى هلال فى كتابه: الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية. مرجع سابق.

(٧) المرجع السابق ص٣، وص١٨.

شظف العيش وجمال الْطَبيعَة، فضلًا عن حالَة العزلَة السياسيَّة وتمكُّن التقاليد[1]، وَهَذَا يفسِّر ظهوره فى البادية (بَادية الحجاز) عَلَى عكس المدن.

لقد عُنِيَ أَبُو الْفَرَج بأخبار العشاق العذريين، وَهَذَا يستتبع ذكر المعشوقات، فيكشف عن جانب من موقع المَرْأَة فى بادية الحجاز فى عصرها الأمَويّ. لقد أخذ المُجْتَمَع البدوى موقفًا من الانتقال بهذا الحب بين فتًى وفتاة إلى زواج، بدَعوى مَا ذكره أَبُو الْفَرَج من كراهية أن تُزوَّج الفتاة بشاعر شبَّب بهَا وذكر من أحوال حبهما مَا ينال من كرامتها عند النَّاس؛ إذ يصبح -إن تزوَّجته- صادقًا فيما وصف بِهِ حبَّهما.

يذكر أَبُو الْفَرَج أن قيسًا كَانَ يهوى ليلى وهما صبيَّان وهما يرعيان مواشي أهلهما «فعلق كُلّ منهما صَاحبه... فلم يزالا كذَلِكَ حَتَّى كبرا فحُجبَت عنه»[2]، ثم يَقُول: «لمَّا شهر أمر المجنون وليلى وتناشد النَّاس شعره فيها خطبها وبذل لها خمسين ناقَة حمراء، وخطبها ورد بن محمد العقيلى وبذل لها عشرًا من الإبل وراعيها»[3]، فأجبرها أهلها على أن تختار وردًا، فاختارته[4]. وَفِى روايَة أُخرَى لأبى الْفَرَج أن أَبَا ليلى قَالَ لوالد قيس: «أفضح نفسى وعشيرتى وآتَى مَا لَمْ يأتِه أحد من العرَب، وأَسِمُ ابنتى بِميسم فضيحَة؟!»[5].

سنضع فى الاعتبار مَا سبق فى روايات أَبى الْفَرَج المتعددَة عن حقيقَة مجنون بنى عَامر، فمن بين هَذِهِ الروايات مَا يرجِّح أنه شخَصية خرَافية، أَو أنه اسم «رمزيّ» لعَاشق لاَ يريد أن يُعرَف[6].

ومن وجه آخر يمكن أن نختبر ذَلِكَ القول بأن الفتاة إذا تزوجت من شبَّب بهَا فقد قدمت برهانًا عَلَى أن مَا ذكره صاحبها فى شعره إنما قاله عَن حقيقَة وليس تخيُّلًا. من ثم نعرض هَذَا الافتراض عَلَى مواقف مشابهَة لدى عُشَّاقِ آخَرين من الْبيئَة ذاتها (البدوية

---

(١) السابق ص٢٢ - ٢٣. ويرى الدكتور محمد غنيمى هلال أن الباعث لشعراء البادية على هذا الاتجاه فى الغزل لم يكن الفقر؛ إذ كان أكثر الغزلين العذريين على جانب من الثراء. وهو فى هذا يختلف عمّا ذهب إليه د. طه حسين فى «حديث الأربعاء». انظر: ص ٣١٠ من هذا البحث، هامش (١).

(٢) الأغاني: ج٢، ص١١ بتصرُّف.

(٣) السابق: ج٢، ص١٤.

(٤) السابق: ج٢، ص١٥.

(٥) السابق: ج٢، ص٢١.

(٦) السابق: ج٢، ص٥-٨.

الحجازيَّة) والزمن نَفْسه (أواسط القرن الهجرى الأول)، ففيما روى أَبُو الْفَرَجِ عن جميل ابن معمَر وأخباره لَمْ يذكر أنه تقدم يطلب الزواج ببثينَة، وقصارى مَا يذكره أن جميلًا وقف عَلَى بثينَة وأختها أم الجُسير وبعض نساء قومها فأعجبنه، وظهر هَذَا الإعجاب ببثينَة خصوصًا فى اتجاه حديثه وعينيه، فأدرك فتيان عشيرتها تعلُّقه بِهَا، وسعيه للقائها خلسَة وسعيها لذَلِكَ، ومن ثَمَّ بدأت المطاردَة واستمرَّت إلى مَا بعد زواجها[1].

وَلاَ نجد عند بثينَة هَذَا «الذعر» الَّذِى استولى عَلَى ليلى؛ إِذ كَانَت تدافع عن حبيبها وتلقاه، دون أن يمر ذكر «الزواج» بالموقف.

وَفِى ذكر «قيس بن ذُرَيح...» ولبنى، وَهُوَ شاعر أيضًا، لاَ تمرُّ مسألَة الزواج بشعر التشبيب، وإِنما بالثراء فى مواجهَة الفقر، فقد كَانَت أُسْرَة ابن ذُرَيح ثرية، وكَانَ والده يفضِّل أن يتزوج إِحدى بنات عمه[2].

وباستقراء هَذِهِ الحالات سنجد أن الزواج لَمْ يتمَّ، ليس بسبب شِعْر النسيب، وإنما بتفاوت الْمُسْتَوَى المادِّي، وقد كَانَ الرِّجَال الثلاثَة الَّذِين ذكرناهم أكثر مالًا، وكَانَ هَذَا سببًا كافيًا لمعَارضَة مشروع الزواج من جهَة والد الفتى. ونرجِّح أن الرواة حاولوا أن يجرِّدوا حكايات الحب التراثية من التأثُّر بالعَامل المادي، عَلَى وضوحه، ورُبَّمَا كانُوا متأثرين بمقولَة تكافؤ القبائل المتوازية فى درجَة الأنساب؛ وَهَذَا حق، وليس عجبًا أن أكثر قصص الحب (العذري) نشأت بين أبناء العم وبناته، فَهَذَا مركوز فى طباع البادية ونُظُمها العشائرية إلى اليوم، ولكن القول بالتكافؤ إنما يظهر فى العَصَبيَّة وَمَا تستتبع من الحماية والجوار والثأر والدِّية، أى فى مواجهَة القبائل الأخرى.

أما فى المصاهرات (داخل العشيرَة أَو الْقَبيلَة) فإن التمايز فى الثروَة وَفى عدد العشيرَة -بخَاصَّة الرِّجَال المقاتلون- يعيد ترتيب الأهميَّة والمكَانَة، أما التكافؤ المطلَق فإِن لَهُ مَوَاطِنَ أُخْرَى تفرضها وحدَة الْقَبيلَة فى مواجهَة قَبيلَة أُخْرَى.

إِن عناية أَبِى الْفَرَجِ بالمتيَّمين، أَو العُشَّاق العذريين، واضحَة، وله دافعه المنهجيّ؛ إِذ

(١) انظر: الأغاني: ج٨، ص٩٨ - ٩٩.
(٢) الأغاني: ج٩، ص١٨٢.

كَانَ هؤلاء العُشَّاق من الشعراء الَّذِين غُنِّيَ بشعرهم. كذَلِكَ كَانَ المجنون، وقيس لبنى وكُثَيِّر عزَّة، وتوبَة (وصاحبته ليلى الأخيليَّة)، وهؤلاء جميعًا عاشوا فى منتصف القرن الأول الهجري. ولم يكُن أَبُو الْفَرَج يحدِّد تاريخ الولادَة أَو الوفاة إلاَّ إذا اقترن بحادث مشهود، كَمَا أن سِيَرَ هؤلاء الشعراء ذُكِرَت موزَّعَة عَلَى أجزاء الكتَاب حسب مَا رتَّب من جودَة الغناء، مما يعنى أنه لَمْ يعرض لحيواتهم المميَّزَة بقصص عشقهم عَلَى أنها تصنع ظاهرَة استجدَّت، أَو عَلَى الأقلّ توسَّعت وظهر تأثير العَامل الدينى فيها (حسب تفسير د.محمد غنيمي هلال)، ولكن أَبَا الْفَرَجِ -مع هَذَا- ذكر فى سياق تراجم هؤلاء الشعراء كُلّ مَا يَدُلُّ عَلَى التغيُّر (الداخلى النفسيّ، والظاهرى السلوكي) فى حياة الْمَرْأَة (البدوية) فى ذَلِكَ الْعَصْر، مثلما صنع فيما ذكر من أَخْبَار عقائل الكبراء فى مدن الحجاز والعراق والشام، ممن ذكرنا بالاسم أَو بالصفَة، مثل عَائشَة بنت طلحَة، وسكينَة بنت الحسين، وأم البنين، وغيرهن.

لقد كَانَ أَبُو الْفَرَج واضح الاهتمام بالمتغيرات الاجتماعيَّة (النسوية) الَّتِى روى مَا يتصل بهَا من أَخْبَار، ويدور معظمها حول العلاقَة بين الرَّجُل والْمَرْأَة قبل الزواج، أَو بعده، وَمَا عرض لهذه العلاقَة من أمور لَمْ تدوَّن، وعندما يَقُول ذُرَيح لابنه قيس: «يا بُنَيَّ، عليك بإحدى بنات عمك فهُنَّ أحقُّ بك. وكَانَ ذُرَيح كثير المال موسرًا، فأحبَّ ألاَّ يخرج ابنه إلى غريبَة»[1]؛ فإن هَذِهِ العبارَة قسمَة بين ذُرَيح وراوية الخبر؛ إذ اكتفى الأب بتوجيه عواطف ابنه إلى «بنات العم»، وَهَذَا ميراث قَبَلِيٌّ لَهُ وجاهته فى نظَام العشيرَة، أما مَا ذكر بعد ذَلِكَ فهو تعليل أَو تفسير (مستحدَث) قَالَ بِهِ راوية الخبر، وتقبَّله أَبُو الْفَرَجِ، وهو يكشف عن «متغير» فى «مرغِّبات» الزواج.

ومع هذا كله فإننا إذا نظرنا إلى دلالة شعر هذا النوع من الغزل على مكانة المرأة، تبيَّن أنها حظيت فيه بتقدير وإكبار، قلَّ أن نجدهما فى أى عصر آخر من العصور اللهم إلا عصر النبوة. ولعل فى العوامل التى أشرنا إليها من قبل ما يفسِّر ذلك؛ فقد اختلطت هذه العوامل كلها: سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة ودينية، لتُفرِز لنا هذا الغزل العفيف،

(١) الأغاني: ج٩، ص١٨٢.

الذى هو - فى حقيقة الأمر- مرآة صادقة لطموح البادية إلى المثل الأعلى فى الحب. ومن ثم فقد استطاع أن يعبِّر -بصدق- عن عاطفة الحب، وما يعانيه صاحبه من آلام الجوى، ولوعة الحرمان.

ولا شكّ أن هذا يمثل لونًا من التحوُّل فى النظرة إلى المرأة، وعلاقة الرجل بها، رصَدَه الدكتور طه حسين فى دراسته عن هؤلاء الشعراء. وقد كشف فيه عن أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين؛ فقد كان غزل الجاهليين ماديًّا خالصًا؛ إذ لم يكونوا يُعْنَون بما يصنعه الحب فى نفوسهم؛ وإنما كان الغزل عندهم ضربًا من الوصف، وكانت عواطفهم تصدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شيء؛ ومن هنا نجد عندهم هذا الوصف الماديَّ الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفًا تفصيليًّا، فإذا ما تركوا هذا الوصف وانصرفوا إلى أنفسهم، فإنهم يصفون لذة الحب، كما يصفون لذّة الصيد ولذّة الحرب. أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة، وإنما كان غاية. نعم؛ إنه لم يبرأ من المادة تمامًا، ولا يستطيع الأدب ذلك؛ ولكنه أضاف إلى المادة شيئًا آخر جعله قوام الشعر: أضاف الحب نفسه، وما يترك فى القلب من أثر، وما يبعث فى النفس من عاطفة. ويخلص إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا يصفون المرأة، كما ينبغى أن يصفها إنسان يشعر ويُحسّ، ويمتاز بشيء من الشعور والحسِّ لا يخلو من رقّة ورقِيٍّ معًا. كانت المرأة عند هؤلاء الشعراء شطرًا من النفس، لا تطيب الحياة إلاّ به؛ وهذا فى ذاته رقِيٌّ عظيم. ولا شك أن العقل العربى والشعور العربى عندما بلغا هذا الطور من تصوُّر المرأة، والحكم عليها، والميل إليها، كانا قد جاوزا كل المجاوزة طوْر الوحشية التى كان يعيش فيها الجاهليون. وليس غريبًا أن يعظم الفرق بين هذين الطَّوْرين؛ فقد كان بينهما القرآن، وأثر القرآن فى نفوس المسلمين عظيم[1].

وبعدُ؛ فإن هَذَا الْعَصْر الأُمَويّ الَّذِى بلغ قرابة تسعين عاما قَد حقَّق فى هَذَا المدى المحدود أمرين لاَ يصعب أن نَجد تفسيرًا واحدًا لهما معًا، مستنَده حضاريٌّ تاريخيٌّ. أولهما أنه أعَاد إلى الحياة الاجتماعيَّة بعض الأعراف والأسس المهمَّة الَّتى كَانَت سائدَة فى الْعَصْر الجاهلي، بعد تراجُع أَو انقطاع كَانَت مبادئ العقيدَة الإسلاميَّة سببًا فيه. الأمر الثانى أن هَذِهِ العودَة ذاتها لَمْ تكُن استعَادَة للماضى المنقضى بكل طبائعه وعلاقاته

(١) انظر: الدكتور طه حسين. السابق ص٢٢٥ - ٢٢٦.

المَوْضُوعية، فَهَذَا مما ترفضه طبائع الحياة الإنسانية دائمَة التبديل والتجريب والتغيير؛ ومن ثم اكتسبت عودَة القديم -فى بعض جوانبها- صورًا مختلفَة تناسب زمنًا مختلفًا، ونظامًا اجتماعيًّا وسياسيًّا عرف السُّلْطَة المركزية (فى دمشق)، وإن كَانَ فى بعض مستوياته قَبَلِيًّا عشائريًّا أكثر مما كَانَ فى زمن الراشدين.

وفيما يخصُّ المَرْأَة - وَهِيَ الَّتِى عقدنا لها هَذَا الفصل- عرف مستوياتٍ من النِّسَاء ذوات الشهرَة والمكَانَة والطموح، مثل: سكينَة بنت الحسين، وعَائشَة بنت طلحَة، وعقيلَة بنت عقيل بن أَبى طَالِب، ورملَة بنت مُعَاوِيَة، وأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، وزينب أخت الْحَجَّاج الثقفي، وغيرهن.

ونحن لَمْ نعقد هَذَا الفصل لنتعرف عَلَى سِيَرِهِنّ، وقد سجَّلها صاحب الأغانى مجتمعَةً أحيانًا، ومتفرقَة فى سياقات مختلفَة لاَ يصعب جمعها أحيانًا أُخْرَى؛ ذَلِكَ لأننا نتلمَّس الجوانب الاجتماعيَّة الَّتِى تعرَّضت للتغيير، ولهذا تراجع الجانب الفردى ليتقدم كُلّ مَا تحوَّل إلى ظاهرَة أَو أوشك أن يَكُونَ كذَلِكَ، مع وضوح الاختلاف عن عصر الراشدين، وعن الْعَصْر الجاهلى أيضًا، وقد أعطينا أمثلَة لذَلِكَ.

أما مشاهير الْعَصْر من القيان فقد أفردنا لهن قسمًا فى فصل الغناء، وإذا كَانَ غناء القيان وعقد الألحان معروفًا فى الجاهلية، منقطعًا زمن الراشدين أَو كَانَ خافت الأصوات، فإنه عَاد بكل زهوه ورواجه وتعدُّد فنونه، وانتشاره، والتهافت عليه من جميع الطبقات كَمَا بيَّنَّا فى موضعه، وَهَذَا وجه من أوجه التغيُّر الاجْتِمَاعِيّ لاَ يجوز إغفاله.

ومَا سكتنا عنه هو مَا كَانَ سائدًا فى الْمُجْتَمَع عَلَى امتداده، حَتَّى وإن لحقه تغيُّر طفيف لاَ يعود إلى اختلاف فى منظومَة القِيَم السائدَة، أَو التوزيع الطبقى الَّذِى استقرَّ عليه النظام الاجْتِمَاعِيّ.

وقبل أن ننهى هَذَا الفصل عن المتغيرات الاجتماعيَّة الَّتِى تتصل بأوضاع الْمَرْأَة فى الْعَصْرِ الأُمَوِيّ نودُّ أن نوضِّح جانبًا مهمًّا فى رصد هَذِه المتغيِّرات، فقد أهملنا من مرويَّات أَبِى الْفَرَج مَا ظلَّ يدور فى إطار السلوك الفردى أَو الاستثناء، ووجَّهنا اهتمامنا إلى الأعمال المتكررَة الَّتِى تحمل دلالَة اجتماعيَّة عَامَة، أَو تقارب أن تكون كذَلِكَ، وَهُنَا

نذكر أن بعض السلوكيات الفردية أَو المرهونَة بحدث استثنائى يمكن أن تعطى إِشارَة إِلى تغيُّر اجْتِمَاعيّ ماثل أَو قادم.

من هَذَا الصنف الأخير مَا رواه أَبُو الْفَرَج وصفًا لموكب جبلَة بن الأيهم -زمن عمر بن الخطاب- حين قدم المدينَة «فلم يبقَ فيها بِكر وَلاَ عَانس إِلاَّ تبرَّجَت تنظر إِليه وإِلى زيه»[1].

إِن الدافع الاستثنائى حاضر فى صنع هَذَا المشهد الَّذِى نرجِّح أنه كَانَ من العسير أن يحدث فى زمن عمر، ورُبَّمَا كَانَ تكراره أشدَّ عسرًا، لكنه -كَمَا يطمئن أَبُو الْفَرَج- قَد جرى عَلَى الصورَة الَّتِى وصف. لقد خرجت نساء المدينَة بكامل زينتهن ليشاهدنَ سيد غسان القادم بكامل زينته كذَلِكَ، ولعل أَبَا الْفَرَج لو لَمْ يكُن سياق الحديث يخصُّ أَخْبَار حسَّان مدخلًا لأخبار جبلَة لأفاض فى تفصيل هَذَا المشهد النادر بالنسبَة إِلى أهل المدينَة.

عَلَى أنه لَمْ يضنَّ عَلَى جبلَة وموكبه بِمَا يؤكِّد طابع الترف ومظاهر العظمَة؛ إِذ جاء فى خمسمِائَة من أهل بَيْته، حَتَّى إِذا كَانَ عَلَى مرحلتين كتب إِلى عمر يُعلمه بقدومه: «فسُرَّ عمر رضوان الله عليه وأمر النَّاس باستقباله، وبعث إِليه بأنزال[2]. وأمر جبلَة مائتَى رجل من أصحابه فلبسوا الديباج والحرير، وركبوا الخيول معقودَةً أذنابها، وألبسوها قلائد الذهب والفضَّة، ولبس جبلَة تاجه وفيه قرطا مارية (وَهِيَ جدَّته) ودخل المدينَة»[3].

وقد استقبله عمر وَهُوَ فى زينته، وتقول رواية أَبِى الْفَرَج: «فَلَمَّا انتهى إِلى عمر رحَّب بِهِ وألطفه وأدنى مجلسه»[4].

إِذن فقد كَانَ عمر سعيدًا بقدوم جبلة لإعلان إسلامه واستقبله مع ما كان عليه من أُبهة، وَهَذَا من كياسَة السياسَة وسعَة الأفق. وكذَلِكَ كَانَ خروج نساء المدينَة «متبرِّجاتٍ»، عَلَى الرغم مِمَّا يلاحق هَذَا الوصف حاليًّا من مظنَّة وسوء إِيحاء، وذكر هَذَا الخبر لاَ يرمى إِلى مناقشَة المشهد من وجهه «الشرعي»، فَهَذَا شأن آخر، وإِنما يحرص عَلَى

(١) الأغاني: ج١٥، ص١٦٢.
(٢) جمع نُزُل: معناه هنا - وفى هذا السياق - ما يقدم للتزيل أى الضيف.
(٣) السابق نَفْسه ص١٦٢.
(٤) نفس المصدر والصفحة.

تلمُّس حدث استثنائي قوبل بمَا يناسبه، دون أن يفرض الرواة عليه -أَو عَلَى وصفه- تِلْكَ الجِدِّية الَّتِي تصل إلى حدِّ الجهامَة حين يروون أخبارًا تتصل بعصر عمر بخَاصَّة.

وهناك وجه آخر يصحُّ أن نُجمله في القول بأن صور التغيُّر الاجْتِماعِيّ الماثلة فى الْعَصْر الإسلامى لَمْ تكُن متوازية متشابهَة لدى «كُلّ القبائل»، بمَا قَد يعنى أن بعض الخصال الخاصَة أو السلوكيات تستند -رُبَّمَا- إلى موروث اجْتِماعِيّ أَو نفسى خَاصّ، استهدفت لَهُ قَبيلَة دون قَبيلَة أُخْرَى، قَد تقترب أَو تبتعد عن مواقعها حسب ضرورات الحياة الرعوية. سنجد هَذَا ماثلًا -عَلَى الْمُسْتَوَى الفردي- فى سيرَة الشاعر يزيد بن الطثرية[1]، وعَلَى الْمُسْتَوَى الجمعى (أَو الاجْتِماعِيّ) فيما كَانَ بين قبيلتَى قُشَير وجَرْم من مفارقات سلوكية قَد تصل حد التناقض وتوشك أن تؤدِّى إلى اشتباك بين القبيلتين.

عَلَى الْمُسْتَوَى الفردى ذكر أَبُو الْفَرَج أن يزيد بن الطثرية -وكَانَ شاعرًا غزلًا رقيقًا حَتَّى قَالَ: «من أُفحم عند النِّسَاء فلينشد من شعري»[2]- كَانَ من أحسن من مضى وجهًا وأطيبه حديثًا، وَهُوَ من بنى قُشَير، وقد ساق جدب الصحراء ذات عَام صِرْمًا[3] من جَرْم إلى بنى قُشَير، فأذنت لهم قُشَير بانتجاع مراعيها وأجارتهم. وكَانَ فى جَرْم فتًى يُقال لَهُ ميَّاد، غزِلٌ يأخذ بقلوب النِّسَاء: «والغزل فى جَرْم جائز حسَن، وَهُوَ فى قُشَير نائرَة»[4]، أى عداوَة، هُنَا «أصبح مياد الجَرْمى فغدا إلى القُشَيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث واستبراز الفتيات عند غيبَة الرِّجَال، فدفعنه عنهن وأسمعنه مَا يكره»[5]. وقال عجائز قُشَير لرجالها عَلَى سبيل الإِثارَة والتحريض: «والله مَا ندرى أرْعيتُمْ جَرْمًا المرعى أم أرعيتموهم نساءكم!»[6]. فسعى رِجَال قُشَير إلى جَرْم ووصفوا مَا جرى، وعرضوا كف هَذَا السفيه، أَو الرحيل، أَو الحرب، لِمَا ارتكب من الجرأَة عَلَى

(١) ذكر الزركلى فى «الأعلام» أن ابن الطثرية توفى عَام ١٢٦هـ (٧٤٤م).
(٢) الأغاني: ج٨، ص١٥٦.
(٣) الصِّرم (بالكسر): الجماعة من الناس.
(٤) الأغاني: ج٨، ص١٥٧.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) نفس المصدر والصفحة.

تحريض النِّسَاء، «فقهقهت جَرْم من جفاء القُشَيريين وعجرفيتها»[1]، ورأوا فيما جرى من مياد والخوف من نتائجه دليلًا عَلَى ضعف أخلاق نساء قُشَير، مما أثار القُشَيريين... وانتهى الحوار العنيف إلى نَوْع من «الرهان»: أن يذهب رجل مِن كُلّ فريق إلى نساء الفريق الآخَر ليروا مَاذَا يَكُونُ من تأثيره، وَهَذَا دون إعلام النِّسَاء من الفريقين بهذا الاتفاق... هكذا «غدا مياد الجَرْميُّ إلى القُشَيريات، وغدا يزيد بن الطثرية القُشَيرى إلى الجرميات»[2].

وينتهى هَذَا الصراع إلى نجاح يزيد بن الطثرية (القُشَيري) فى نيل المواعيد والهدايا من نساء جَرْم، وفشل مياد الجرمى فى مهمته الإغوائية، فضلًا عمَّا نال من الضرب والطرد، إلخ.

وكما هُوَ مألوف فى مثل هَذه المواقف أوشك الأمر أن يؤدِّى إلى حرب شاملَة بين القبيلتين. عَلَى أن يزيد (القُشَيري) وقع فى عشق فتاة تُدعَى وحشيَّة (الجرمية)، واستجابت الفتاة لعشقه وتعلَّقت به، ولكن قومها وقفوا لهَذَا الحب بالمرصاد، ولم تنفد حيل يزيد حَتَّى استطاع -فى رواية أَبِى الْفَرَجِ- أن يقضى عند وحشية ثلاثَة أيام ذكرها فى شعره[3].

لن نتوقف عند تفاصيل مَا روى الأصفهانى من حيل الحب وعبارات الغزل بين شباب جَرْم وشباب قُشَير من الرِّجَال أو النِّسَاء، فمثل هَذِه الحيل والأقوال والأوصاف مما فاضت بِهِ أَخْبَار شعراء الغزل وأشعَارهم من أمثال: عمر بن أبى ربيعَة، والعرجي، والأحوص الأنصاري... وإنما نستخلص مَا تَدُلُّ عليه المفارقَة الَّتى بُنيَت عليها الأحداث المتعَارضَة والأخلاَق المتعَاكسَة؛ إذ تستوقفنا بصورَة خَاصَّة تِلْكَ العبارَة: «والغزل فى جَرْم جائز حسن، وَهُوَ فى قُشَير نَائرَة». ولعل هَذَا يعيدنا إلى مَا وُصفت بِهِ قَبيلَة «عُذْرَة» -فيما كُتب عن المجنون بخَاصَّة- وَمَا كَانَ من استجابَة قوم ليلى؛ فقد ذكر أَبُو الْفَرَجِ -فى بعض مَا رُوِيَ عن أَبِى عمرو الشيباني-: «كَانَ المجنون أول مَا علق ليلى

---

(١) نفس المصدر والصفحة.
(٢) الأغاني: ج٨، ص١٥٩.
(٣) الأغاني: ج٨، ص١٦١ - ١٦٢.

كثير الذكر لها، والإتيان بالليل إليها، والعرب ترى ذَلِكَ غير منكَر أن يتحدث الفتيان إلى الفتيات، فَلَمَّا علم أهلها بعشقه لها منعوه من إتيانها»[1].

وقد ذكر مَا يقارب هَذَا فى أَخْبَار جميل وبثينَة، وذكرناه فى هَذَا الفصل، ومن ثم يمكن أن نجد فروقًا واضحَة فى بعض جوانب السلوك الاجْتِمَاعِيّ، بين قبائل كَانَت تعيش فى الْعَصْر نَفْسه، وَفِى الْبيئَة الصحراوية ذاتها، ورُبَّمَا كَانَت متقاربَة فى المكَان، ومع هَذَا تختلف درجات الاستجابَة للتغيُّر، ودرجات التمسُّك بالموروث.

هذا؛ وقد لاحظت الدراسة قلة المادة المتصلة بالمرأة الحرّة ودورها فى الحياة الاجتماعية، مقارنة بالتى تتناول (القينة) أو (الجارية)؛ وهذا ليس غريبًا على كتاب يقوم على مبدأ تعقب الأصوات أو الشعر المغنى.

وأثبتت أن معيار (الكفاءة) فى الزواج فى هذا العصر قد تغير عما كان فى العصر الجاهلى؛ إذ أحل الرابطة الإيمانية محل الرابطة النسبية. وإذا كان هذا المعيار قد روعى فى حياة الرسول محمد ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، فقد حدث ما يمكن أن نسميه خروجًا على هذا المبدأ فى العصر الأموى؛ فهناك أخبار كثيرة تتعلق بهذا الجانب (الكفاءة فى الزواج)، وتبدو فى ظاهرها أنها تقوم على الاعتراض على زواج ما استنادا إلى عدم الكفاءة، فى حين يحمل الاعتراض عند التأمل أسبابا أخرى متضمنة، سياسية كانت أو غير ذلك.

وكشفت – فى إطار علاقات الزواج – عن نوعين من التغير الاجتماعى: الأول يتعلق بأحقية ابن العم فى الزواج بابنة عمه؛ إذ تسللت عوامل أخرى كالثروة وما قد يحف بها من الجاه. الآخر: التمرد على قاعدة (الكفاءة) التى تعتمد على النسب، وذلك بتفضيل الزوج من غير العرب (الموالى) لثرائه؛ وقد كان يحدث هذا نادرًا فى قبائل متبدية تعيش حالة من الفقر تلجئها إلى ذلك، وقد جوبه هذا بالرفض القاطع، وأنزلت العقوبة بالمولى.

كما أبانت عن أن «التعدد» فى الزواج كان أمرًا شائعًا، وكأنه الأصل؛ عفة للمرأة، ورغبة فى التناسل.

---

(١) الأغاني: ج٢، ص٤٣.

وبين الفصل أن صورة المرأة فى هذا العصر قد تبدلت تبدلا واضحًا مقارنة بها فى العصر الجاهلى، وبخاصة فى المدن، وفى طبقة الصفوة من عقائل بيوتات العرب من قريش ومن على شاكلتهم؛ فقد أتيح لها من حياة الترف والقصور ومجالس الغناء ما لم يتح لها من قبل؛ فضلا عن أن قصص الحب ومغامرات العشق شاعت وعمت بأخبارها المدن والبوادى على السواء.

وارتبط بقصص الحب هذه شيوع لونين من الغزل فى بيئتين مختلفتين فى الحجاز، وهما «الغزل الحسِّى»، و«الغزل العذرى»، وقد أبان هذا وذاك عن كثير من ملامح المرأة فى العصر الأموى، وجلَّى - فى الوقت نفسه - المكانة التى حظيت بها، وعلاقة الرجل بها، مما يعد تحولا فى النظرة إليها يستحق التنبيه له والوقوف عنده.

ولم ينس الفصل أن يسجل أن نزوع المرأة إلى التحرر كان نتاجًا طبيعيًا لظروف دفعت بها رياح التغيير آنذاك، وأنه لم ينل من قدرها وكرامتها، ولم يتحول إلى لون من التحلل أو العبث.

***

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى

الفصل الأول

عناصر السكان وطبقات المجتمع

تقديـم

هل يستطيع دارسى التاريخ أن يضع خطًا فاصلاً بين العصور فيقول: إن هذا نهاية عصر، وذاك بداية عصر جديد لاسيما إذا كان يكتب عن التاريخ الاجتماعى ؟ إن الظاهرة الاجتماعية لا يمكن أن تنتهى بنهاية عصر، وإنما تظل تتحرك وتتطور مع تحرك السنوات وتطورها، لتستقر فترة من الزمن على ملامح وسمات يستجليها كاتب التاريخ ويسجلها فيقول: إنها استقرت فى عصر كذا وسماتها كذا وكذا، ثم تضيف إليها معطيات التطور الاجتماعى ملامح أخرى فتزداد تطورًا وتصاعدًا فى اتجاه السهم إلى أعلى؛ وربما مع اختلاف الزمن تضمحل وتهبط فتقوم على بقاياها ظاهرة جديدة تبدو لمن يتناولها أنها ليس لها أية علاقة بالظواهر السابقة، ولكن المتأمل المدقق يجد لها أصولاً ربما فى الماضى البعيد؛ فالمجتمع فى حالة ديناميكية دائمة، تفرز الجديد، وتحتفظ ببقايا القديم لتبنى عليه هذا الجديد، وسيتضح هذا من خلال تتبع الظواهر الاجتماعية فى العصر العباسى.

وقبل أن نرصد هذه الظواهر نقدم توطئة، نلقى من خلالها بعض الضوء على الأحداث السياسية التى أدت لانهيار الدولة الأموية، وظهور الدولة العباسية.

وقدم بعض المؤرخين الذين عرضوا لهذه المرحلة، ورصدوا جوانب من تفاصيلها، تحليلاً جيدًا لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية؛ إذ يرون أن الدولة الأموية قامت على مبدأ قهر المجتمع وإخضاعه للسلطة، وابتعدت عن مبدأ الشورى والاختيار الذى يقوم عليه الفكر الإسلامى. وبالتالى رأوا أن للحركات الشيعية المناوئة للحكم الأموى الأحقية فى السلطة؛ لأنها حركات تؤسس لمبدأ الحرية المفقودة. وهذا ما أدى إلى التفاف عدد كبير من أفراد هذا المجتمع المستعبد حول هذه الحركات ومؤازرتها؛

حيث إنها أشبعت لديهم رغبة الإنسان فى البحث عن تلك الحرية وإقرار مبدأ العدالة الإنسانية[١].

وربما بالغ المستشرقون فى تناولهم للثورات التى قامت فى العهد الأموى، وسلطوا الضوء عليها وبخاصة تلك التى شارك فيها الموالى، فرأوا أن الدولة الأموية لم تطبق مبدأ المساواة بين من دخلوا فى الإسلام من أهل الذمة والموالى وبين المسلمين العرب، فاتسعت الهوة الاجتماعية بين هذه الطبقات، مما أدى إلى تأجج نار الثورة التى كانت مكبوتة فى النفوس[٢].

هذا؛ ويمكن القول: إن أهم الثورات التى قوضت دعائم الحكم الأموى هى: ثورات الشيعة، وثورات الخوارج، وثورات القبائل العربية[٣].

ثورات الشيعة

نظر قطاع عريض من المجتمع العربى إلى التحكيم بين على ومعاوية على أنه خدعة، وإلى معاوية على أنه مغتصب حق، وتحزب المجتمع ما بين مشايع لعلى، ومؤيد لمعاوية، وخارج على الاثنين معًا؛ فأما الشيعة فلم تظهر كحركة لها فكر منظم وأتباع إلا عقب موت الحسين - رضي الله عنه - وقامت كجماعة سياسية وعسكرية منظمة بقيادة سليمان ابن صرد الخزاعى فى سنة خمس وستين[٤]. وتوالت الحروب بين الطرف الأموى والطرف الشيعى بقيادة المختار بن أبى عبيد الثقفى[٥]. وبعدما قتل فى المعارك الطاحنة بالعراق

---

(١) يرى د/ عبد العزيز الدورى أن هناك تصادمًا بين مبدأ الحزب الأموى الذى تبنى فكرة الجبر وبشّر بها، ومبدأ الأحزاب الأخرى التى بشرت بالحريات ومسئولية الأفراد فى هذه الحريات. انظر د. عبد العزيز الدورى: نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م ص١٤٨.

(٢) انظر - على سبيل المثال - الفصل الذى عقده فان فلوتن فى كتابه «السيادة العربية»، وعنوانه: «حالة الموالى السياسية والاجتماعية»، ص٣٥ وما بعدها.

(٣) انظر: د. عبد المنعم عبد الحميد سلطان، أضواء جديدة على تاريخ الدولة العباسية - دراسة وثائقية، مركز الإسكندرية للكتاب ط ٢٠٠٣م ص١٨.

(٤) انظر: المسعودى: مروج الذهب جـ٣ ص١١١-١١٥.

(٥) انظر: اليعقوبى: السابق، ص١٨٠.

مع مصعب بن الزبير سنة ثمان وستين[1]، لجأت الشيعة إلى التنظيم السرى وكتمان أمرها[2] فتأسست الحركات التى تنتسب لها.

ومن أهم هذه الحركات حركة «الهاشمية» وهم أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية. وهناك أقوال متضاربة تفضى إلى أن الدعوة الهاشمية مع ما لاقاه أصحابها من تعذيب وقتل وتشتيت آلت إلى بنى العباس بتفويض من أبى هاشم؛ حيث تذكر المصادر أن أبا هاشم مات بأرض الشراة بالشام، وأوصى إلى على بن عبد الله بن العباس، فآلت هذه الوصية إلى محمد بن على بن عبد الله الذى استغلها أحسن استغلال؛ فقد رأى العباسيون أن لهم فى الخلافة حقًا لانتسابهم إلى رسول الله ﷺ، وأن عم الرسول العباس أولى بالوراثة[3]. وأيًا كانت صحة الأخبار الواردة بشأن الدعوة العباسية، وهل انبثقت من الدعوة الهاشمية أم أنها حركة خاصة بنفسها، فلقد تزامن ظهور الدعوة العباسية مع الدعوة الشيعية وعودة الشيعة إلى الحروب مرة أخرى ضد الأمويين، فكانت ثورة زيد بن على بن الحسين[4]. وقد وجه إليه الأمويون يوسف بن عمر فسار إليه فى جموع والتقى الفريقان واقتتلا قتالاً شديدًا أسفر عن مقتل زيد بعدما خذله أهل الكوفة[5]. وقد واصل الجهاد المسلح بعده ضد الأمويين يحيى بن زيد وانتقل إلى خراسان فى نفر من الزيدية[6]، وقد التقى بعمرو بن زرارة فى عشرة آلاف وهو فى سبعين رجلاً، فَهُزِم جمع عمرو بن زرارة وقتل عمرو، ثم بعث إليه نصر بن سيار فى أعقابه سلم بن أحوز فلحقه بالجوزجان وقتله[7].

---

(١) انظر: اليعقوبى: جـ٢، ص١٨٤.

(٢) انظر: ابن الطقطقى. الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٠٥، ود. عبد المنعم عبد الحميد سلطان: السابق ص٢١.

(٣) انظر: الشهرستانى، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلانى، دار صعب، بيروت ١٩٨٦م، جـ١، ص١٥٠-١٥١.

(٤) زيد بن على بن الحسين إمام الزيدية، من عظماء أهل البيت علمًا وزهدًا وورعًا وشجاعة ودينًا وكرمًا، كان دائما يحدث نفسه بالخلافة» واتخذ الكوفة مقرًا له، وبايعه الشيعة من الكوفة، والمدائن، والبصرة، وواسط والموصل، وأهل خراسان، والرى، وجرجان، والجزيرة. ابن الطقطقى: السابق: ص١٠٤ - ص١٠٥، و: الطبرى: جـ٧، ص١٧١.

(٥) انظر: ابن الطقطقى السابق: ص١٠٥.

(٦) انظر الطبرى: جـ٧، ص١٨٩.

(٧) انظر الطبرى: السابق، ص٢٢٩-٢٣٠.

وكان من نتائج ذلك أن تولد لدى الخراسانيين شعور بظلم الأمويين لآل بيت النبى، مما جعل هذا المناخ تربة صالحة لبنى العباس فى إقامة دعوتهم، وخصوصًا أنهم كانوا يدعون الناس دعوة مبهمة سرية للرضا من آل محمد، ومن ممن وقر الإسلام فى قلبه وأنار عقله لا يرضى بهذه الدعوة !.

لم تنته ثورات الشيعة عند هذا الحد، وإنما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بثورة عسكرية جديدة ضد الأمويين وذلك فى سنة ١٢٨هـ[١].

وقد دعا فى ثورته تلك كلاً من العلويين والعباسيين، وقد انضم إليه أبو جعفر المنصور فولاه على إحدى كور خراسان وأسند إليه جباية أموالها[٢].

والمتتبع لحركة الشيعة يجد أن العباسيين كانوا فى رحابهم طوال دعوتهم، وحينما أحسوا بخطورتهم لطموحاتهم فى الوصول للحكم، انقلبوا عليهم، وبدءوا فى التخلص من أنصارهم، حتى استتب لهم الأمر[٣].

وقد تجلّى ذكاء العباسيين فى استغلال الظروف لإقامة دولتهم، فقد استغلوا ضعف الدولة الأموية من جانب، والعصبية القبلية من جانب آخر، ورأوا فى الوقت نفسه أن البيئة الخراسانية بيئة صالحة لهذا؛ لأنها لم تتنازعها الأهواء، ومن كان فيها من العرب هم العرب الساخطون على حكم بنى أمية والهاربون من قبضتهم الحديدية على البلاد لبعدها عن مقر الحكم الأموى.

---

(١) يقول أبو الفرج: «كان عبد الله من فتيان بنى هاشم وجودائهم وشعرائهم، ولم يكن محمود المذهب فى دينه، وكان يرمى بالزندقة، ويستولى عليه من يعرف ويشهر أمره فيها، وكان قد خرج بالكوفة فى آخر أيام مروان بن محمد، ثم انتقل عنها إلى نواحى الجبل ثم إلى خراسان فأخذه أبو مسلم فقتله» . الأغانى جـ١٢، ص٢٢٥.

(٢) انظر: مقاتل الطالبيين: ص١٦٧.

(٣) فى بداية دعوة عبد الله بن معاوية أعلن فى دعوته أنه يطالب بالرضا من آل محمد، ودعا كلاً من العلويين والعباسيين للانضمام إليه. فلما استتب له الأمر بايع لنفسه. انظر الطبرى: جـ٧، ص٣٧١. وانظر أيضًا: مقاتل الطالبيين، ص١٦٧ . ولمزيد من التفصيل انظر: الأغانى، جـ١٢، ص٢٢٨-٢٣١.

وكان لثورات الخوارج أثر كبير فى إضعاف دولة بنى أمية، والخوارج - كما تطالعنا الكتب - جماعة خرجت عن الإذعان لرأى الأمة والجماعة فى اختيار وليها وأميرها، وقد خرجوا على الإمام على - كرم الله وجهه- وكذلك معاوية، وقاتلوا الإمام عليًا فى معركة النهروان وقتله واحد منهم وهو عبد الرحمن بن ملجم المرادى سنة ٤٠هـ[١].

وقد تابع الخوارج مناهضة الأمويين من بداية حكمهم، وثاروا عليهم، ثورات متعددة، وقد حاول الأمويون إخماد هذه الثورات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا[٢]. ومن أهم فرقهم فرقة الأزارقة نسبة إلى أبى راشد نافع بن الأزرق، وقد غلبوا على الأهواز وكورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان[٣].

وقد انشغل البيت الأموى بإخماد ثورات الأزارقة تسع عشرة سنة بقيادة المهلب بن أبى صفرة، وقد بويع لقطرى بن الفجاءة بعد نافع بن الأزرق وسمى أمير المؤمنين[٤]، ثم ظهر بعد الأزارقة فرقة الصفرية، وهى - وإن اختلفت مع الأزارقة فى بعض الأحكام اتفقت معها فى استمرار ثورتهم ضد الأمويين[٥]، وقد حاربهم الحجاج بن يوسف الثقفى، وكان قائدهم شبيب بن يزيد الشيبانى، وقد قتل وأخمدت ثورتهم عام ٧٧هـ[٦].

---

(١) انظر الطبرى: جـ٥، ص١٤٥. وفى سنة ٤٢هـ تولى أمر الخوارج المستورد بن علفة التيمى من تيم الرباب، واتفقوا أن يخرجوا على الأمويين فى غرة هلال شعبان سنة ٤٣هـ وبلغ المغيرة بن شعبة أن الخوارج قد قامت لمناهضته، فجمع الناس، وذكر لهم الخبر، وقلد معقل بن قيس على ثلاثة آلاف رجل، وبعث بهم لإخماد ثورة الخوارج بقيادة المستورد الذى سمى نفسه بأمير المؤمنين، واقتتلوا قتالاً أفضى إلى موت القائدين.

(٢) انظر: الطبرى: جـ٥، ص١٨١، ١٨٨، ٢٠٩.

(٣) انظر: الشهرستانى، الملل والنحل، جـ١، ص١١٨-١١٩.

(٤) انظر: السابق: جـ١، ص١٢٠.

(٥) «الصفريَّة الزياديَّة هم أصحاب زياد بن الأصفر. خالفوا الأزارقة، والنجدات، والإباضية فى أمور منها: أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد. ولم يسقطوا الرحم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار.» الشهرستانى: السابق، جـ١ ص١٣٧.
وانظر أيضا: د. عامر النجار. مذاهب الإسلاميين. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥، ص١٠١.

(٦) انظر: الطبرى. جـ٦ ص ٢٧٩.

ثم ما لبث الخوارج أن عاودوا الثورة بعد هزيمتهم أمام الحجاج، وكانت من أخطر ثوراتهم ثورة الضحاك بن قيس الشيبانى عام ١٢٧هـ؛ فقد استولى على العراق؛ فقد استولى على العراق، وحارب عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بواسط، ثم سار إلى الجزيرة، واستولى على الموصل وكورها، فكتب مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله (خليفته بالجزيرة) يأمره بأن يسير إليه، ولكن الضحاك استطاع أن يحاصره فى نصيبين. وصار مروان إلى حرّان، وبلغ الضحاك خبره، فأقبل نحوه، ثم نفذ إلى حران، حتى واجه مروان، فحاربه محاربة شديدة، وانتصر عليه، وعزله عن سريره، وجلس عليه[١]. وما لبث مروان أن استعاد قوته وقاتله بنواحى كفرتوثا من أعمال ماردين ثم قتل الضحاك سنة ١٢٨هـ على يد جند مروان[٢].

ومن البين أن شوكة الخوارج قد انكسرت بعد ذلك، فلم يعد لهم إلا بقية من المقاومة، متمثلة فى بعض المواقع التى هزموا فيها[٣]. ويقال: إن آخر فلول الخوارج التى فرت من حصار بنى أمية بقيادة شيبان بن عبد العزيز اليشكرى انضمت إلى صفوف الثورة العباسية[٤]، ولكن المصادر لم تشر إلى ذلك، غير أن الطبرى يذكر أنه لما ولى شيبان أمر الخوارج رجع بأصحابه إلى الموصل، فاتبعه مروان ينزل معه حيث حلّ، فقاتله شهرًا، ثم انهزم شيبان حتى لحق بأرض فارس، فوجه مروان فى أثره عامر بن ضبارة، ومضى شيبان بمن معه حتى صار إلى عمان، فقتله جلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأزدى[٥].

وسواء انضمت فلول الخوارج إلى الثورة العباسية أم لم تنضم، فقد كان لثوراتهم الأثر البالغ فى زعزعة الاستقرار بالدولة الأموية، وكانت من الأسباب التى أضعفتها وقوضت دعائمها.

---

(١) انظر: اليعقوبى: جـ٢، ص٢٣٥-٢٣٦.

(٢) انظر: ابن الأثير الكامل: جـ٥، ص٣٤٩ . كفرتوثا: قرية كبيرة من قرى ديار ربيعة بالجزيرة الفراتية بين دارا ورأس عين. ياقوت: معجم البلدان: جـ٤، ص٤٦٨ وانظر الأغانى: جـ٨، ص٢٦٦ حيث ذكر أن الذى قتل الضحاك دِلْهِم من بنى لأى ثم من بنى يزيد بن هلال بن بذل بن عمرو بن الهيثم وقد قتله بيده مع مروان بن محمد ليلة كفرتوثا.

(٣) انظر: ابن الأثير الكامل: جـ٥، ص٣٥٠، ٣٥٥.

(٤) انظر: د/ عبد المنعم سلطان: أضواء جديدة على تاريخ الدولة العباسية، ص٣٥.

(٥) انظر: الطبرى السابق: جـ٧، ص٣٥٣.

وهناك عامل لا يقل أهمية عن العاملين السابقين فى القضاء على الحكم الأموى؛ ويتمثل فى «العصبية القبلية» التى أسهمت بدورها فى إقامة الدولة العباسية. لقد تحدثنا من قبل عن العصبية، واعتماد الدولة الأموية فى حكمها عليها، ونبرز هنا جانبًا من دورها فى قيام دولة بنى العباس. فقد تحمس مجموعة من الأنصار للوقوف فى وجه بنى أمية فكانت موقعة «الحرة»، وظل انتصار الأمويين عليهم نارًا متأججة فى قلوبهم، تشتعل باشتعال أى ثورة ضد الأمويين. وكان من نتائج ذلك أيضًا أن تفرق عددٌ لا بأس به من الأنصار فى الأمصار، وقد اضطر بعضهم إلى التحرك إلى خراسان[١]، وقد تجمع حولهم حلفاء هاشم وأحلاف الرسول من خزاعة وأسلم، وقد قاد خزاعة فى انضمامها إلى البيت الهاشمى فى خراسان بريدة بن الحصيب الأسلمى سيدها، الذى لازم على بن أبى طالب وكان صاحب لوائه فى مسيرته إلى اليمن[٢].

وقد حاول البيت الأموى جمع كلمة العرب من الكلبيين والقيسيين، والمضريين إلا أن هذه الكلمة ما لبثت أن تفتتت بعد موقعة مرج راهط، وثارت الفتنة بين القيسية والكلبية واشتدت تلك الفتنة فى خراسان بالذات لهجرات العرب الدائمة إليها من الأمصار[٣]. أما الثقل الآخر الذى مثل دورًا مهمًا فى قيام تلك الدولة فيتمثل فى قبيلة الأزد، الذين تحولوا عن بنى أمية إلى بنى العباس بسبب ولاية سليمان بن عبد الملك التميمى[٤]. كما كان لقبيلة تميم دور مهم حيث إن عددهم كان كبيرًا، فقد تحولوا إلى مستضعفين ـ لأنهم كانوا يميلون إلى حياة البداوة، وقد قربهم إليه سليمان بن عبد الملك، ولكن ما لبث أن انقلب خلفاء سليمان عليهم؛ فمالوا إلى الدعوة العباسية ظانين أنها الملاذ من نار الأمويين وظلمهم. وقد ثار من قبيلة تميم الحارث بن سريج الذى انضم إلى الترك وحارب الأمويين[٥].

---

(١) يذكر أبو الفرج فى خبره عن عبد الله بن معاوية ونسبه أنه لما وقعت العصبية بالكوفة «أخرجه أهل الكوفة على بنى أمية». الأغانى، جـ١٢، ص٢٢٨.

(٢) د/ حسين مؤنس: تاريخ قريش، دار الرشاد، القاهرة ٢٠٠٧ ص٥٨١. وانظر أيضًا عن موقعة الحرة، الأغانى جـ١، ص٢٥-٢٦.

(٣) انظر: الأغانى جـ١٢، ص٤٦-٤٧، وانظر: الطبرى: السابق جـ٥، ص٥٤٥. وما بعدها.

(٤) د. حسين مؤنس: تاريخ قريش: ص٦١٣.

(٥) انظر فى خروج بنى تميم بخراسان على عبد الله بن حازم: الطبرى السابق جـ٥، ص٥٤٦، ص ٦٢٣.

وأخيرًا كان لقبيلة بكر بن وائل دورٌ فى هذا الصراع، حيث انقلبوا على الأمويين بسبب المعاملة السيئة التى لاقوها على يد ولاة بنى أمية[1].

وخلاصة القول: إن الأمويين لعبوا دورًا مهمًا فى انهيار دولتهم؛ إما بإذكاء العداوات بين القبائل، كما فعلوا بين القيسية واليمنية، وإما بمعاملتهم السيئة لبعض القبائل كما حدث مع قبيلتى تميم وبكر بن وائل؛ مما أدى إلى استغلال دعاة العباسيين هذا الصراع فانضم إليهم اليمنية والخزاعية لسخطهم على المضرية، ووجدت القبائل الضعيفة أن الملجأ لاستعادة مكانتهم هو الانضمام للدعوة الجديدة العباسية. لاسيما أن معظم هذا الصراع كان يدور فى خراسان، وهى على الأطراف من البيت الحاكم الأموى. وقد أدى هذا كله إلى إحكام الانقلاب الذى لم تكن تتوقعه السلطة الأموية، فما أن انتبهت الدولة الأموية حتى كانت الحركة العباسية قد أَحْكَمَت قبضتها على عنق الدولة الأموية وانتهى الأمر، ولم تكن الحروب التى قضاها مروان بن محمد إلا لونًا من الانتفاضة الأخيرة لجسد كان يودع الحياة.

عناصر السكان

انتقلت الخلافة إلى البيت العباسى، وكانت الدولة الإسلامية آنذاك مترامية الأطراف. وتذكر المصادر أن شرقيها «أرض الهند، وبحر فارس، وغربيها مملكة الروم وما يتصل بها من الأرمن واللان والران والسرير والخزر والروس والبلغار والصقالبة وطائفة من الترك، وشماليها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الترك، وجنوبيها بحر فارس»[2].

فكانت حدود الدولة – إذن – أقصى المشرق عند كاشغر فى الصين إلى السوس الأقصى على شاطئ المحيط الأطلسى[3].

---

(١) انظر: الطبري، السابق جـ٥ ـ ص٥٤٧.
(٢) الإصطخرى: المسالك والممالك. ص١٦.
(٣) انظر: الدكتور عبد اللطيف عبد الهادى السيد. موسوعة التاريخ الإسلامى– العصر العباسى، الكتاب الخامس، المكتب الجامعى الحديث ٢٠٠٨م. ص٦٣.

هذا الامتداد الكبير لأطراف الدولة الإسلامية أدى إلى وجود عناصر غير عربية ظهرت فى العهدين الراشدى والأموى. ولكن إلى أى مدى امتد نفوذ هذه العناصر فى عروق الدولة ؟ هذا ما سيتضح لنا فى الصفحات القادمة. ونشير هنا إلى أن الدراسة ستعتمد على ما قدمه أبو الفرج - فى سياق الترجمات والأخبار - من إشارات ولمحات إلى نوعية هذه العناصر ومدى تأثيرها فى مسيرة الحياة الاجتماعية.

تنوعت أقاليم الدولة الإسلامية تنوعًا كبيرًا - كما هو واضح فى الكلام السابق - وتبع ذلك تنوع فى عناصر السكان التى شكلت تلك الأقاليم. فهناك العنصر العربى الأصيل المتمثل فى العدنانيين والقحطانيين . وهناك العنصر الفارسى الذى مثلته خير تمثيل أسرة البرامكة، وقد كان لها من النفوذ والسطوة ما جعل كل من ينتمى إلى البيت الفارسى يدور ببابهم ويطلب ودهم[1].

ولهذا دلالته فى انتشار هذا العنصر فى بداية الدولة العباسية وقربه من بيت الخلافة وامتداد نفوذه. كما أن له أسبابه؛ فعلى أكتاف أصحابه الفرس قامت دعائم الدعوة العباسية، وبهم قويت شوكتها. كما أن الدعوة العباسية فى أثناء قيامها ادعت أنها جاءت لتزيل الفوارق الطبقية بين العرب وغير العرب. تلك الفوارق التى كانت أحد أسباب سخط تلك العناصر على الدولة الأموية، وفى الوقت نفسه كانت أحد أسباب انهيارها. وهناك سبب جغرافى يضاف إلى الأسباب السابقة ويتمثل فى انتقال مركز السلطة من الشام إلى العراق التى كانت فى الأصل موطن الفرس[2].

---

(١) انظر - على سبيل المثال - الرّقاشى الشاعر، فقد كان آل برمك يدنونه ويصولون به على الشعراء، ويروون أشعاره لأولادهم، ويدونون أشعاره القليل منها والكثير، حتى علا ذكره بين شعراء عصره؛ وذلك لأنه كان من العجم من أهل الرى كما يذكر أبو الفرج فى الأغانى: جـ١٨، ص٢٤٥.

(٢) يذكر السيوطى أن أبا جعفر المنصور بنى (بغداد) سنة أربعين ومائة. انظر السابق ص٢٦١. هذا؛ ومن المعروف أن العباسيين اتخذوا من العراق موئلاً لخلافتهم، فعلا نجمه، وهوى نجم الشام؛ إذ أصبح تابعًا له. وقد اتجه العباسيون إلى إقامة كثير من المدن، فبدأ أبو العباس السفاح ببناء (الهاشمية) لتكون مقرًا لسلطانه. وفى عهد أبى جعفر المنصور ثار نفر من شيعته (ثورة الراوندية عليه)، وقد دفعه هذا إلى أن يحول حاضرته من الهاشمية إلى موضع يأمن فيه الفتن؛ وبعد بحث ودراسة تم اختيار بقعة (بغداد) فأقيم عليها (بغداد)، وتوالى إنشاء المدن فى عهد خلفاء آخرين كمدينة (سر من رأى) فى عهد المعتصم. ولهذا دلالته فى التطور العمرانى الكبير الذى حدث فى المجتمع الإسلامى، الذى يصفه بعض الباحثين بأنه

وهناك سبب أخير متعلق بأخلاق أهل فارس، ذكره الإصطخرى فقال: «أما أخلاق ملوكهم والمخالطين للسلطان من عمال الدواوين وغيرهم فالغالب عليهم استعمال المروءة فى أحوالهم، والنزاهة عما يقبح به الحديث من الأخلاق الدنيّة، والمبالغة فى تحسين دورهم ولباسهم وأطعمتهم، والمنافسة فيما بينهم فى ذلك. والآداب الظاهرة فيهم»[1].

فالنص السابق يتحدث عن أخلاق تلك الطبقة المتصلة بالسلطان من وزراء وكتاب، وقد لمسناها فى أسرة البرامكة، التى بكاها الناس، وأظهروا الجزع لما حلّ بهم، والشواهد كثيرة على ذلك.

ومن النماذج الدالة على ذلك عبد الله بن طاهر حيث يذكر أبو الفرج قصيدته التى يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله، ويفخر بقتلهم المخلوع فيعارضه محمد بن يزيد الأموى الحصنى بقصيدة أفرط فيها بالسب وتجاوز الحد[2].

ويتضح جانب من تلك الصفات النفسية فى خبرين:

الخبر الأول: يكمل ما سبق من افتخار عبد الله بن طاهر بنسبه، وتطاول محمد بن الحصنى فى الرد عليه حتى إنه «أربى فى التوسط والتعصب» على حد قول أبى الفرج، ويذكر أن عبد الله بن طاهر وُلِّى مصر وتدبير أمر الشام، فعلم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب، فاستقر فى موضعه، وفتح باب حصنه وجلس عليه، فلما وصل عبد الله مع خواصه وغلمانه يريد أن يقتله، وجد باب الحصن مفتوحًا. فتواجها ثم تعاتبا وقد قال

مجتمع مدن بالدرجة الأولى؛ فقد «عرف العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثانى إلى القرن الرابع الهجرى تطورًا عمرانيًا كبيرًا، ويعد إنشاء المدن من أبرز سماته». د٠ الحبيب الجنحانى: المجتمع العربى الإسلامى – الحياة الاقتصادية والاجتماعية. عالم المعرفة. المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٥م. ص٧٥.

(١) الإصطخرى: السابق: ص٨٣.

(٢) انظر الأغانى: جـ١٢، ص١٠٤. وانظر أيضًا: ابن عبد ربه: العقد الفريد: جـ٢، ص١٩٦ -١٩٧، حيث يذكر عن طاهر بن الحسين الخراسانى أنه كان شريف النفس، بعيد الهمة، وأنه لما قتل محمد بن زبيدة وخاف المأمون أن يغدر به، امتنع عليه بخراسان ولم يظهر خلعه. ثم يذكر شعرًا لدعبل بن على الخزاعى يفتخر فيه بقتل طاهر بن الحسين محمدًا، لأنه كان مولى خزاعة؛ وشعرًا آخر لطاهر بن الحسين نفسه يفتخر به بما صنعه من قتله أمير المؤمنين.

عبد الله فى عتابه له: «لابد من عتاب يا أخى جعلنى الله فداك ! قلت شعرًا فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك، ولا ادعيت فضلاً عليك، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك، فهم القوم الذين ثأرك عندهم، فكان يسعك السكوت، أو إن لم تسكت لا تغرق ولا تسرف. فقال: أيها الأمير، قد عفوت، فاجعله العفو الذى لا يخالطه تثريب، ولا يكدر صفوه تأنيب. قال: قد فعلت، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقًا بالضيافة»[1].

يوضح لنا النص السابق مدى التسامح والمروءة التى اتسم بها عبد الله بن طاهر حتى إنه عفا عن المسىء، وهو فى أوج قوته وسلطانه. ومما يدعم كلامنا هذا ما قاله أبو الفرج عند ذكر بعض أخبار عبد الله بن طاهر: «فإن عبد الله كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكانٍ من الخلفاء، يستغنى به عن التقريظ له والدلالة عليه. وأمره فى ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله فى الأدب، مع ذلك، المحلُّ الذى لا يدفع، وفى السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه كبير أحد»[2].

فهذا الكلام يوضح لنا المكانة العالية التى نالها عبد الله بن طاهر، مما دفع بأبى الفرج أن يقول فى نهاية الخبر (ما لا يقاربه فيه أحد) وهى عبارة تؤكد لنا المكانة التى وصل إليها العنصر الفارسى.

أما الخبر الثانى: فمتعلق بالندى والكرم؛ حيث تذكر لنا بعض الروايات أن عبد الله ابن طاهر عندما افتتح مصر فى عهد المأمون، قلده المأمون خراجها، وكان ثلاثة ملايين من الدنانير فلم ينزل من على منبره إلا وقد أنفقها كلها على الناس[3].

تلك الصفات. وغيرها كثير - قربتهم من أولى الأمر، وفتحت لهم أبواب السلطة على مصاريعها، ولعل هذا ما حدا بأبى الفرج أن يقول عن عبيد الله بن طاهر عند ذكر نسبه: «له محلٌ من الأدب، والتصرف فى فنونه، ورواية الشعر وقوله، والعلم باللغة

(١) الأغانى: جـ١٢، ص١٠٤-١٠٥.
(٢) الأغانى: جـ١٢، ص١٠١.
(٣) انظر: الأغانى: جـ١٢، ص١٠٢.

وأيام الناس، وعلوم الأوائل من الفلاسفة فى الموسيقى والهندسة وغير ذلك مما يجل عن الوصف ويكثر ذكره»[1].

والأخبار السابقة تمتد بنا لعمق زمنى من القديم إلى الحديث؛ حيث تذكّر بالجد (طاهر بن الحسين)، الذى انتصر على الأمين فى حربه ضد المأمون؛ ولئن لم يذكره أبو الفرج صراحة، فقد عرّض به عندما ذكر أن ولده (عبد الله بن طاهر، فخر بقصيدة يذكر فيها شجاعة أبيه (طاهر)، وكيفية الانتصار ويتباهى بأجداده الفرس، فانتصار طاهر بن الحسين يؤكد لنا صفاته النفسية والخلقية، وأبسط تلك الصفات التى تتبادر إلى الذهن الشجاعة والنخوة.

ثم يذكر لنا صفات الابن عبد الله بن طاهر من أنه صاحب سماحة وشجاعة لايقاربه فيها كبير أحد. ثم ينتقل إلى (الحفيد) (عبيد الله بن عبد الله بن طاهر) فيجمل صفاته أيضًا فى تذييل بقوله: «مما يجل عن الوصف ويكثر ذكره»[2].

هذه الصفات – وإن وجدت فى أبناء الفرس جبلة كما يذكر الإصطخرى وأيّده فى ذلك أبو الفرج – فإن من الملاحظ أنهم حاولوا وغيرهم أن يحافظوا عليها ويتمثلوها فى كل أحوالهم، حتى يظلوا فى مرتبة عليا من أبناء أمة بدأت نظرتها إلى غير العرب تتحول بفعل عوامل كثيرة لا يتسع المقام لذكرها.

فإذا ما تركنا العنصر الفارسى إلى العنصر التركى وجدناه يشكل نسيجًا جديدًا لهيكل المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى. ولقد ظهر العنصر التركى من عهد المأمون؛ واستعان بهم المعتصم فى تكوين الجيش حتى إنه بنى مدينة (سر من رأى) ونقل جيشه إليها كما نقل مقر الخلافة أيضًا.

---

(١) الأغانى: جـ٩، ص٤٠ . هذا؛ ومن الملاحظ أن أبا الفرج يتحدث عن هذه الأسرة مما ينبئ عن عظيم شأنها وكبير خطرها فيما قامت به أو تولته من أعمال. فأحيانا يقول: «آل طاهر» أو «الطاهرية»٠ والأخبار الواردة عن هذه الأسرة فى الأغانى – وغيره – تدعم ما يذهب إليه بعض الدارسين فى العصر الحديث من أن المأمون ولى طاهر بن الحسين خراسان، فأسس لنفسه ولأولاده من بعده دولة شبه مستقلة متصلة بالدولة العباسية: انظر: د/ إبراهيم العدوى: نهر التاريخ الإسلامى، دار الفكر العربى: د٠ت، ص٤١٥.

(٢) الأغانى، السابق، نفس الصفحة .

وقد ذكرت كتب التاريخ أسبابًا عدة للاستعانة بالعنصر التركى، من أهمها: ما ذهب إليه الإصطخرى وهو يتحدث عن صفات هذا العنصر، فيذكر أنهم أشد شوكة فى الحروب، وأصحاب بأس وشجاعة[1]. ولعل هذا ما حدا بالمعتصم أن يتخذهم حاشية له ويستكثر منهم. ويذكر لنا المسعودى أنه جمع منهم أربعة آلاف، وألبسهم الديباج، ومنطقهم بالمذهبة، وأبانهم بهذا الزى عن سائر جنوده[2].

ويمكن القول أيضًا بأن الخلافة العباسية استبدلت بالعنصر الفارسى - حين حلت بهم النكبة - العنصر التركى، فكانت كالمستجيرة من الرمضاء بالنار، ويذكر لنا أحد المؤرخين أن الأتراك أخوال المعتصم وهذا سر استكثاره منهم والميل إليهم[3]. ويبدو أنه استشعر خطرهم، ويقال إنه خاف من العسكر الموجود فى بغداد فأراد بناء مدينة، يعسكر فيها فإذا رابه من عسكر بغداد شىء هاجمه من خلال مدينته الجديدة (سر من رأى)[4].

ومن أبرز العناصر التركية التى أشار لها كتاب الأغانى من خلال أخباره (الأفشين خيذر بن كاووس)، وقد قدمه المعتصم وولاه حرب بابك الخرّمى، وكان معه أبو دلف القاسم العجلى، وقد حارب معه، ثم تنكر له الأفشين وهم بقتله لمسألة (لم يوضحها أبو الفرج) فأرسل المعتصم أحمد بن أبى دُوَاد ليخلصه من يد الأفشين، وقال له: «أدركه وما أراك تلحقه، فاحتل فى خلاصه منه ما شئت»[5]. ويذكر الخبر كيفية تخليص أبى دُوَاد أبا دلف من يد الأفشين؛ إذ اعتمد على فهمه للصفات النفسية للعبد، وأنه لا يستجيب إلا بالشدة، وهذا ما حدث؛ إذ إنه لما كلمه بالرفق واللين لم يزده هذا اللين إلا غلظة، فأخذه بالرهبة والصدق، حيث قال له: «تقتل أولياء أمير المؤمنين واحدًا بعد

---

(١) انظر: الإصطخرى: السابق ص١٦٣-١٦٤. وانظر أيضًا؛ الجاحظ: رسائل الجاحظ تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجى. القاهرة ١٩٦٤م. جـ١، ص٧٣.

(٢) انظر: المسعودى: مروج الذهب: جـ٤، ص٦٢. وانظر أيضًا: السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص٣٣٥-٣٣٦ حيث يذكر أن المعتصم كان أول خليفة أدخل الترك الديوان.

(٣) انظر د/ عبد المنعم سلطان: السابق ص٢٤٤.

(٤) انظر: الطقطقى: السابق ص١٨٨.

(٥) الأغانى: جـ٨، ص٢٥٠-٢٥١.

واحد، وتخالف أمره فى قائد بعد قائد ! قد حملت إليك هذه الرسالة عن أمير المؤمنين، فهات الجواب ! قال: فذل حتى لصق بالأرض وبان لى الاضطراب فيه. فلما رأيت ذلك نهضت إلى أبى دلف وأخذت بيده، وقلت له: قد أخذته بأمر أمير المؤمنين. فقال: لا تفعل يا أبا عبد الله. فقلت: قد فعلت. وأخرجت القاسم فحملته على دابة ووافيت المعتصم»[١].

وهذا الخبر له دلالته فى تجبر الأتراك، وبداية اشتداد نفوذهم، ومع هذا فقد جعلهم المعتصم خاصته وأساس جيشه ورفع من قدرهم، حتى إن الأفشين لما قدم من حرب بابك الخرمى، مدحه الشعراء فأمر لهم المعتصم بثلاثمائة ألف درهم، وأمر ابن أبى دواد بتفرقتها عليهم[٢].

ويقابلنا نموذج آخر من تلك العناصر التركية وهو: إبراهيم بن العباس وأخوه عبد الله[٣]. فبعد أن يذكر نسبه بقوله: (إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول) يتوقف عند (صول) باعتباره الأصل؛ فقد كان رجلاً من أشراف الأتراك ملك هو وأخوه (فيروز) على جرجان، فلما فتح يزيد بن المهلب بلدهما، أمنهما وأسلم صول على يديه، ولم يزل معه حتى قتل يوم العقر[٤].

ولما دعا يزيد بن المهلب إلى نفسه لحق به صول لينصره، فوجده قد قتل، ولم تكن النظرة العربية المتمثلة فى يزيد بن عبد الملك تضعه فى مكانه الذى وضع نفسه فيه، إذ يقال إنه «كان يقاتل كلّ من بينه وبين يزيد من جيش بنى أمية، ويكتب على سهامه: صول يدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه. فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك، فاغتاظ، وجعل يقول ويلى على ابن...! وماله والدعاء إلى كتاب الله وسنة نبيه! ولعله لا يفقه صلاته[٥]».

أما ابنه محمد – ويدعى أبا عمارة – فكان من رجال الدولة العباسية وأحد دعاتها،

---

(١) السابق: نفس الموضع.
(٢) انظر الأغانى: جـ١٩، ص٩٣؛ وانظر أيضًا اليعقوبى: جـ٢، ص٣٣٣.
(٣) انظر الأغانى: جـ١٠، ص٤٣.
(٤) هو عقر بابل، وهو موضع عند كربلاء، قتل عنده يزيد بن المهلب. نفس المصدر، هامش (٢) ص٤٣.
(٥) السابق: نفس الصفحة.

وقتله عبد الله بن على لما خالف مع مقاتل بن حكيم العكِّى وعدة آخرين[1]. وأما إبراهيم وأخوه عبد الله فقد كانا من وجوه الكتاب، وكان إبراهيم آدبهما، وأحسنهما شعرًا. وكانا من صنائع ذى الرياستين، وترقى إبراهيم فى الأعمال الجليلة إلى أن مات وهو يتقلد ديوان الضياع والنفقات بسر من رأى[2].

ومن خلال الأخبار الماضية يمكننا ملاحظة الفرق بين وضع عناصر الفرس وعناصر الترك فى المجتمع الإسلامى. فعناصر الفرس دخلت إلى التركيبة السكانية، فأصبحت خيطًا من خيوط النسيج العام، لا يمكن فصلها؛ ولعل ما وصلت إليه أسرة البرامكة يؤكد ذلك. هذا؛ بالإضافة إلى أن هناك عددًا لا بأس به من الشعراء الفرس وكذلك المغنين، تشعر وأنت تقرأ أخبارهم أنهم نسيج غير شاذ من المجتمع الإسلامى. بينما ونحن نرصد الأتراك، نجد أنهم لم يصبحوا بعد جزءًا لا يتجزأ من نسيج المجتمع، حتى إن المعتصم بنى لهم مدينة أخرى وهى «سر من رأى» ليكونوا بذلك دولة داخل الدولة، وقد اتفق أن انحرف الترك عن (المتوكل) لأمور، فاتفقوا مع ابنه المنتصر (ولى العهد) على قتله، فدخل عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس لهوه، فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان سنة ٢٤٧هـ[3]. ومنذ ذلك الوقت سيطر الأتراك على الدولة تمامًا حتى صارت فى أيديهم لا فى أيدى الخلفاء.

ومن العناصر الأخرى المكونة للتركيبة السكانية العنصر السندى، وقد أشار أبو الفرج إليه عندما ترجم لأبى العطاء أفلح بن يسار، فذكر أنه مولى بنى أسد، أو مولى عنبر وكان منشؤه فى الكوفة، وكان أبوه (يسار) سنديًا لا يفصح[4].

وأخباره توضح لنا الشكل الاجتماعى للموالى؛ حيث إن مواليه بعدما أعتقوه طمعوا فى ماله، فكاتبهم على أربعة آلاف ويُعتق[5]. وكان أبو العطاء يجمع بين لثغة

---

(١) انظر: السابق: نفس الصفحة.

(٢) انظر: السابق: جـ١٠، ص٤٣-٤٤.

(٣) انظر السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص٣٥٠-٣٥١.

(٤) انظر: الأغانى: جـ١٧، ص٣٢٧.

(٥) انظر: السابق نفس الصفحة. والمكاتبة: أن يشترى العبد نفسه بكتابة صك يذكر فيه مبلغًا من المال فإن أداه إلى سيده أعتق.

ولكنة فلا يفهم كلامه، فأتى سليمان بن سليم فأنشده قصيدة شرح فيها حال لغته فأمر له بوصيف بربرىّ فصيح، فسماه عطاء وتكنى به[١]. وربما يرجع ثراء أبى العطاء إلى اهتمامه بالصيرفة على الرغم من أن أبا الفرج لم يذكر ذلك صراحة؛ فمن المعروف أن أهل السند كانوا يشتهرون بالصيرفة والعلم بالعقاقير[٢].

هذا؛ ولم يغفل أبو الفرج - فى أخباره التى أوردها - النصارى الذين ظلوا على دينهم ولم يسلموا؛ ومن ذلك: عيسى بن إبراهيم النصرانى المكنّى أبا الخير، كاتب سعيد بن صالح وقد نكب لما مات سعيد[٣]. وعيسى بن البرّاء العبادىّ الصيرفى، وهو غلامٌ نصرانى، كتب فيه بكر بن خارجة قصيدة يذكر فيها شرائع النصارى وأعيادهم، ودياراتهم، ويفضّلهم[٤]. وكذلك نجد خبرًا عن المأمون يذكر فيه أن المأمون كان يحاط بعشرين وصيفة رومية فى يوم السعانين، عليهن ديباج رومى مزنرّات، علقن فى رقابهن الصلبان الذهب وفى أيديهن الخوص والزيتون[٥].

وبعد؛ فلعله قد اتضح مما سبق أن الإسلام أظل - بسماحته وسعة أفقه - تلك العناصر المختلفة الأهواء والمشارب بل والعقائد أيضًا دون تفرقة فى الجنس أو اللون أو الدين.

ولا شك أن تلك العناصر السابقة، بصفاتها التى عرضنا لبعضها، وبما استجد من عوامل = قد أثرت فى الشكل الطبقى للمجتمع فى العصر العباسى كما سيتضح من خلال حديثنا عنه.

طبقات المجتمع

لقد شكلت العناصر السابقة المجتمع فى هذا العصر، وإن كنا نلاحظ - بدايةً -

---

(١) انظر: الأغانى، جـ١٧، ص٣٢٨-٣٢٩.
(٢) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ط ١، مكتبة النهضة المصرية ٢٠٠٠م، جـ١ ص٥.
(٣) انظر الأغانى: جـ٢٢، ص١٧٥.
(٤) انظر الأغانى: جـ٢٣، ص١٨٩ «يفضلهم» - هنا - بمعنى: يذكر فضلهم.
(٥) انظر الأغانى: جـ٢٢، ص ٢١٣-٢١٤ مزنرات: لابسات الزنار، وهو منطقة للنصارى والمجوس، كانوا يتميزون بها فى زيهم.

لونًا من التغير بهذه الطبقات، وبالتالى فى موقعها من السلم الاجتماعى؛ فقد ارتفعت أسهم الموالى نتيجة للثقة التى أولاها لهم الخلفاء العباسيون؛ فضلاً عن أنهم أسهموا بجهود كبيرة فى إقامة الدولة العباسية، وقد دخل عدد كبير منهم فى الإسلام فى هذا العصر. ولكى تحقق الدولة العباسية مبدأ المساواة الذى نادت به أتاحت الفرصة لهؤلاء الموالى فى تقلد مناصب عليا فى المجتمع الجديد، فاقتربوا من قصر الخلافة ومركز اتخاذ القرار، وأثروا فى الحكم، من أمثال الأسرة البرمكية والأسرة الطاهرية، كما استعين بهم فى الدفاع عن الدولة كالأتراك الذين أصبحوا أصحاب نفوذ منذ عهد المعتصم.

هكذا أصبح (الموالى) جزءًا من نسيج المجتمع العربى الإسلامى، فلم يعد المجتمع ينظر إليهم نظرة دونية - وإن بقى شيء من هذه النظرة تدل عليه بعض الأخبار الواردة فى كتاب الأغانى - بعدما أظهروا تفوقًا فى كل المجالات التى دخلوها فى إدارة شئون الدولة، كالوزارة والكتابة وقيادة الجيش، وفى مجال اللغة والشعر والأدب. والأمثلة كثيرة فى كتاب الأغانى ترد فى موضعها من الطبقات. وقد دفعهم هذا التفوق إلى محاولة إعلاء شعوبهم على الشعب العربى، والتعصب لبنى جنسهم مما أفرز لنا تلك الحركة المعروفة باسم (الشعوبية)(١).

وعلى الرغم من تأجج نار تلك الحركة، فإنه كان هناك من الموالى من حاول الانتساب إلى الدم العربى؛ بإلحاق نفسه به اسمًا ونسبًا، مما يدل على أن النظرة إلى البيت العربى الشريف كانت لا تزال أكثر قوة وأعلى مكانة(٢).

للأسباب السابقة لن نفرد للموالى طبقة خاصة بهم لأنهم امتزجوا بالمجتمع فى طبقاته المختلفة؛ ففى الذروة منه وصلوا إلى بيت الخلافة، وقد ذكر لنا كتاب الأغانى أن زبيدة زوجة الرشيد أهدت له عشرًا من الجوارى ثلاثًا منهن أصبحن أمهات أولاد

---

(١) أفرد البحث الفصل الثالث فى الباب الثالث عن الشعوبية لما لها من أهمية فى هذا العصر.

(٢) يذكر أبو الفرج فى معرض حديثه عن على بن الجهم أن عليًا كان له صديق من الدهاقين غاب مدة ثم عاد إلى الكوفة، فأصاب مالاً ورفعة، وعاد فادعى نسبه إلى العرب إلى بنى تميم فقال فيه شعرًا:

يروح بنسبة المولى	ويصبح يدعى العربا
فلا هـذا ولا هـذا	ك يدركه إذا طـلبـا

انظر: الأغانى. جـ١٤ ص١٨٢-١٨٣.

منهن ماردة أم المعتصم، ومراجل أم المأمون، وفاردة أم صالح[1]. وقد ساعد على هذا المزج ما كان من تزاوج بينهم وبين العرب، غير أنه من الملاحظ أن حركة الزواج التى تمت على نطاق واسع فى تلك المرحلة كانت باتجاه الداخل إلى الخارج وليس العكس؛ بمعنى أنها تتم من الرجال العرب إلى نساء الموالى، بينما ترفض القبيلة أن تزوج بناتها من الموالى خصوصًا إذا كانت قبيلة ذات عراقة. فلقد رفضت قبيلة قريش تزويج على ابن الجهم لامرأة منهم فبلغ ذلك المتوكل وسأل فيه؛ فقيل له إن سامة بن لؤى لم يدخل فى نسب قريش، وإن عمر بن الخطاب وأبا بكر لم يدخلاهم فى قريش بينما أدخلهم عثمان ثم أخرجهم علىٌّ منه فارتدوا مع الحارث، فقتل علىٌّ من ارتد منهم وسبى بقيتهم، وباعهم من مصقلة بن هبيرة[2].

فهذا الخبر يبرز موقف العرب الرافض لتزويج بناتهم من الموالى، وطبيعى أن يكون حالهم مع (الموالى الجدد) أكثر تشددًا.

فطبقة الموالى إذن - بمعناها الواسع الذى تحدثنا عنه من قبل - أصبحت ممتزجة بغيرها من طبقات المجتمع، بحيث يتعذر فصلها عنها والحديثُ عنها كطبقة لها استقلالها وتميزها. ومن ثم لن يفردها البحث بالدراسة. على أنه من الملاحظ أنها فى هذا العصر رجحت كفتها، وعلا صوتها، وظهر حضورها جليًا على الرغم من انخراطها فى النسيج العام للدولة. أما الطبقات التى سنتناولها بالحديث فى الصفحات المتبقية من هذا الفصل فهى: طبقة الأشراف، وطبقة الوزراء والكتاب والقواد، وطبقة الشعراء والمغنين، وطبقة الرقيق والجوارى والغلمان، والطبقة المتوسطة، وطبقة المهمشين (أو العامة). وسنبدأ بمناقشتها الآن بهذا الترتيب .

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٨ ص٦٧.

(٢) انظر الأغانى: جـ٢٣، ص٢١٣.

ولعل هذا ما دعا أبا السمط أن يهجو على بن الجهم بقوله:

إن جهمًا حين تنسبه ... ليس من عُجم ولا عرب

لج فى شتمى بلا سبب ... سارق للشعر والنسب

من أناس يدعون أبًا ... ماله فى الأرض من عقب

انظر: السابق، نفس الصفحة.

أولاً: طبقة الأشراف

تحدثنا فى الفصل الأول من الباب الثانى عن فئة أشرف الأشراف، وحددناها بأنها كل من انتمى إلى بيت الرسول - ﷺ- بالنسب أو الصهر أو الولاء، وأوضحنا كيف وضعها الناس فى مكانة عليا، وأخلصوا فى حبهم لها، وقد عرفنا من قبل كيف قامت الدعوة العباسية على شعار (الرضا من آل محمد) فاندفعت العامة للوقوف إلى جانب الدعوة الجديدة، التى تمحو الظلم الواقع على كاهل العديدين فى الدولة الإسلامية، وتعيد ميزان العدل المفقود. إلا أنه يبدو وأن تلك الفئة أخذت شكلاً آخر فى العصر العباسى إذ اقتصرت على أبناء البيت العلوى، وبدأت العامة تشعر بأن العباسيين مغتصبو حق بعدما أخفقوا فى أن يطبقوا مبدأ العدالة الاجتماعية.

وليس أدل على هذا الكلام من إسراف الخلفاء العباسيين فى عطاياهم لأولئك الشعراء الذين كانوا يصورون - فى شعرهم - أحقية بنى العباس فى الحكم ونفيه عن أبناء عمومتهم العلويين، وقد سيطر الشعور بالغبن على هذه الطبقة مما جعلها مصدرًا لكثير من الثورات ضد خلفاء بنى العباس، نذكر منها: ثورة محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن الحجازيين الخارجين فى أيام المنصور، وقد غلب محمد على المدينة وعزل عنها أميرها، فبعث إليه المنصور بالقائد العباسى الشهير عيسى بن موسى فقتله وحمل رأسه إلى المنصور[1].

وعلى الرغم من أن هذه الفئة فقدت مكانتها السياسية، فإنها لم تفقد مكانتها الاجتماعية فى نفوس الناس، ومن ثم لجأ إليها كل طالب حاجة، وكل متعلق بأحقيتها فى الخلافة؛ يظهر ذلك من تلك الأخبار التى يرويها أبو الفرج من أنهم اتخذوا من (السويقة)[2] دارًا لهم، يقصدها كل من تعلق بهم بسبب.

فمن ذلك خبر عن سعيد بن عقبة الجهنى يذكر أنه كان عند عبد الله بن الحسن، فأتاه

---

(١) انظر: الأغانى: جـ١٤، ص٣٦٩، وانظر: د٠ عبد المنعم سلطان، أضواء جديدة على تاريخ الدولة العباسية: ص١٢٧. والمنصور هو: أبو جعفر عبد الله بن على بن محمد بن عبد الله بن العباس. أما عيسى فهو: عيسى ابن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب.

(٢) السويقة: موضع قرب المدينة كان يسكنه آل على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ.

آتٍ يدعوه لرجل جاءه بالخارج، فإذا به أبو عدى الأموى الشاعر فخرج إليه عبد الله بن حسن وابناه بأربعمائة دينار، وأمهما هند بمائتى دينار[1].

ومن ذلك أيضًا عبد الله بن عمر بن عبد الله العبلى طريد بنى العباس الذى أتى (السويقة) فاستنشده عبد الله والحسن ابنا الحسن شيئًا مما كان قد رثى به بنى أمية فلما انتهى من إنشاده بكى محمد بن عبد الله بن حسن، فقال له عمه الحسن بن حسن بن على عليهم السلام مستنكرًا بكاءه: أتبكى على بنى أمية وأنت تريد ببنى العباس ما تريد ! فأجابه بأن بنى أمية كان لهم فضل لم يكن لأبى جعفر المنصور[2].

وقد دخل دعبل على على بن موسى الرضا فأنشده قصيدته التى يقول فيها:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

إلى أن وصل إلى:

إذا وُتِروا مدوا إلى واتريهمُ أكفًّا من الأوتار منقبضات

فبكى وأمر له بعشرة آلاف درهم، وذكر دعبل أنه كانت مما ضرب باسمه ولم تكن قد دفعت لأحد بعد، فاشتراها منه الشيعة الدرهم بعشرة دراهم[3].

فشراء الشيعة تلك الدراهم ناتج عن حب صادق وإخلاص فيه. هذا الحب يمثل النفوذ الروحى الذى تمتع به أصحاب البيت العلوى، وهو ما دعا بدعبل إلى استيهابه ثوبًا من علىَ الرضا لبسه على ليجعله فى كفنه، فخلع حبة كانت عليه، فأعطاه إياها، وقد أصر أهل قمٍّ حينما بلغهم هذا الخبر على أخذها منه وإعطائه ثلاثين ألف درهم مقابلها؛ ولكنه لم يفعل، فخرجوا إليه وأخذوها منه غصبًا، وخيروه بين المال والثوب، فما زالوا به وما زال بهم حتى أعطوه الثلاثين ألف درهم وفروة من كم من بطانتها[4].

إن الخبر السابق ليدل على المكانة العليا التى بلغتها الأسرة العلوية فى نفوس الناس. وإن ظلت علاقة الأسرة العلوية بالدولة العباسية علاقة توتر، فأحيانًا تقربهم وترفع

---

(١) انظر: الأغانى: جـ١١، ص٢٩٧.
(٢)انظر الأغانى: جـ١١، ص٢٩٨-٣٠٠.
(٣) انظر الأغانى: جـ٢٠، ص١٤٨-١٤٩.
(٤) انظر الأغانى: السابق، ص١٤٩.

شعارهم الأخضر كما فعل المأمون، وأحيانًا تحبسهم وتقتلهم كما فعل المتوكل[1].

أما الفئة الثانية من هذه الطبقة فهى الفئة الحاكمة، وفى القمة منها الخلفاء من بنى العباس، ولم يعد للدم العربى النقى دور فى تولى مقاليد الحكم كما كان فى الدولة الأموية، وتغيرت النظرة إلى أمهات الأولاد؛ فأم أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسيين - (سلامة) بربرية وأم ولد[2]. ويُعدُّ هذا تحولاً كبيرًا له انعكاسه القوى فى الحياة الاجتماعية؛ إذ أصبح غير مستهجن ولا مستنكف. وعلى الرغم من أن هذه النظرة تتسم بالاتزان وتتواءم مع الواقع الاجتماعى الذى فرض نفسه، وتتفق - فى الوقت نفسه - مع روح الشريعة الإسلامية، التى لا تفرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى، فإن كتب التاريخ لا تزال «تذكر نسب محمد الأمين بشىء من التقدير، باعتباره الخليفة الذى اجتمع فى نسبه الدم الهاشمى من جهة الأم والأب[3]»، وربما يشير هذا إلى النظرة التى تجنح لفكرة نقاء الدم العربى.

وقد حرصت هذه الطبقة (الحاكمة) على أن تحيط نفسها بنفر من الشعراء، يُشيدون بها، ويعملون على ترسيخ دعائم ملكها. وهم هنا بمثابة الوسيلة الإعلامية المتعارف عليها فى هذا الوقت والتى اعتمد عليها الأمويون من قبل. وقد حظى هؤلاء بمنزلة لم ينلها غيرهم من الشعراء من قبل، ولم يكن بلوغ هذه المنزلة سهلا.

ويحدثنا أبو الفرج فى معرض حديثه عن أبان بن عبد الحميد اللاحقي أنه عندما عاتب البرامكة على تأخير إيصاله إلى بيت الخلافة كما حدث مع مروان بن أبى حفصة، كان جواب البرامكة أن مروان وصل إلى مكانته بمدح بنى العباس وإعلاء قدرهم على

---

(١) انظر فى حبس المتوكل لمحمد بن صالح: الأغانى: جـ١٦، ص٣٦١، وكان قد خرج عليه مع من بيّض فى تلك السنة، فظفر به أبو الساج وخرب بيتهم بالسويقة، وحمل محمد بن صالح إلى سر من رأى فحبس بها ثلاث سنوات؛ وفى حبس المتوكل على بن عبد الله ابن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب - وأمه ولادة بنت الحجل بن عنبسة، انظر: الأغانى: جـ٢٢، ص٢٢٣.

(٢) انظر السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص٢٥٩.

(٣) يقول السيوطى: «ما ولى الخلافة إلى وقتنا هذا هاشمى ابن هاشمية سوى ابن أبى طالب وابنه الحسن، والأمين؛ فإن أمه زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور واسمها أمة العزيز وزبيدة لقب لها». السابق ص٣٠٣.

منافسيهم العلويين، وأن لمروان مذهبًا فى هجاء آل أبى طالب، فرفض استحلال ذلك، فأجابه البرامكة أنه لا يحل طلب الدنيا إلا بما لا يحل، فقال أبان أبياتًا أعلى فيها من شأن العباسيين دون تجريح العلويين ومنها:

نشدت بحق الله من كان مسلمًا ... أَعُمُّ بما قد قلتُه العجم والعربْ
أعَمُّ رسول الله أقربُ زلفةً ... لديه أم ابنُ العمّ فى رتبة النسبْ؟
وأيهما أولى به وبعهده ... ومن ذا له حق التراث بما وجبْ؟!
فإن كان عباسٌ أحق بتلكم ... وكان علىٌّ بعد ذاك على سَبَبْ
فأبناء عباس همُ يرثونه ... كما العمُّ لابن العم فى الإرث قد حَجَبْ[1]

وقد أثابه الرشيد عليها بعشرين ألف درهم[2].

ويذكر لنا أيضًا الأبيات التى قالها أبو السمط فى العباسيين دون الحط من قدر العلويين، فحشا المتوكل فمه بجواهر لا يُدْرى ما قيمتها بعدما أنشده:

الصهر ليس بوارث ... والبنت لا ترث الإمامهْ
لو كان حقكم لهم ... قامت على الناس القيامهْ
أصبحت بين محبكم ... والمبغضين لكم علامهْ[3]

ونرى أيضًا النمَرى يصل إلى الرشيد على يد البرامكة، ولكن بعدما استوعب مذهب الرشيد فى الشعر من نفى الإمامة عن ولد على بن أبى طالب والطعن عليهم، فلم يفعل كما فعل مروان بن أبى حفصة فى الطعن عليهم، ولكنه على حد قول أبى الفرج (حام ولم يقع)[4].

راجت - إذن - بضاعة الشعراء المنادين بأحقية بنى العباس بالخلافة، وإن حاول هؤلاء الشعراء إخفاء هواهم الحقيقى فى أحقية بنى على بالخلافة، إلا أنهم حاولوا

---

(١) انظر الأغانى: ج ٢٣، ص ١٦١.
(٢) انظر: السابق نفس الصفحة.
(٣) انظر: السابق: ص
(٤) انظر: الأغانى، جـ١٣، ص١٤٠-١٤١.

إرضاء البيت العباسى بأبيات تؤكد هذه الأحقية، دون الطعن على بنى على، ولكنهم فى قرارة أنفسهم كانوا يميلون كل الميل إلى آل على. والأمثلة كثيرة لذلك، نذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر -: تكملة الخبر السابق من أن منصورًا النمرى على حد قول أبى الفرج علم «مذهب الرشيد فى المدح بنفى الإمامة عن ولد على» (فحام ولم يقع لأنه كان يتشيع) فالسبب فى عدم طعن النمرى على آل على يكمن فى تشيعه، ولكنه على الرغم من هذا لم يستنكف أن يمدح العباسيين(١).

وقد دفع ولع الخلفاء بالشعر وإثابتهم عليه بعضَ الشعراء إلى أن يكتب أشعارًا فيما يتوقعه من حوادث، ليظهره أمام الخليفة على أنه وليد اللحظة ليثاب عليه، كما فعل سلم الخاسر فى كتابة أشعار رثى فيها أم جعفر، وقد كانت على قيد الحياة، وكذلك أشعار له أخرى فى جارية غير مسماة. ولهذا دلالته فى المدى الذى بلغه الخلفاء من إسراف فى مكافأة الشعراء، واستغلال هؤلاء لهذه الحال، ومن ثم كان هذا الانتقال بالموهبة إلى نمط الصنعة والتكسب بها(٢).

ومن مظاهر ذلك إعطاء المعتصم للشعراء الذين مدحوا الأفشين ثلاثمائة ألف درهم جرت تفرقتها على يد ابن أبى دُوَاد(٣).

إن المتأمل لحال الدولتين الأموية والعباسية يجد أنهما لا تختلفان كثيرًا فى استخدام الآلة الإعلامية (الشعر) للضغط على الرأى العام بكثرة القصائد التى تعلى من قدرهم وتحط من قدر منافسيهم (العلويين)، بل إن العدو فى الدولتين واحد. على أن العودة للأشعار السابقة يعكس فى الوقت نفسه ما وقر فى نفوس العامة من أن البيت العلوى هو الأحق بالخلافة؛ فكثرة الأخبار التى وردت من خلال كتاب الأغانى ترصد مدى إيمان العامة بأحقية البيت العلوى بالخلافة، بل يضعونهم فى المرتبة العليا بعدما ذاقوا

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر الأغانى: جـ١٩، ص٢٧٦. هذا؛ وقد دفع هذا بعض الخلفاء إلى أن يأمر صاحب المصلى أن يسمع من الشعراء فمن كان منهم مجيدًا يوصله إلى الخليفة. فقد أمر المأمون على بن صالح أن يسمع من الشعراء لما كثروا ببابه ويدفع بجيدهم إلى الخليفة. انظر فى ذلك الأغانى: جـ١٣، ص١٠٩.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٩، ص٩٣-٩٤.

الويلات من كلتا الدولتين[1].

وقد بارت بضاعة بعض الشعراء، وخمل ذكرهم بسبب بعدهم عن قصر الخلافة، وعدم خدمتهم فيه. ومن نماذج هؤلاء ربيعة الرَّقىّ؛ فإنه يعد من المكثرين المجيدين و«إنما أخمل ذكره، وأسقطه عن طبقته، بعده عن العراق، وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء»[2].

وعلى الرغم من توطد دعائم الحكم للبيت العباسى، فإنهم لم يوفوا بالعهود، وكانوا أهل مكر وحيل، وسنجد أول المخلوعين فى البيت العباسى عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس، وقد خلعه أبو جعفر المنصور وبايع لابنه المهدى[3]. كما نجد الفتنة التى حدثت بين محمد الأمين والمأمون بسبب محاولة الأمين خلع المأمون[4]. وقد لجأت الأسرة العباسية إلى سلاح الشعر فى تدعيم تلك المواقف الجائرة. على أن هناك من الشعراء من أكلوا على موائد المتنافسين مرة لصاحب الحق ومرة لمنافسه، ومن هؤلاء الشعراء التيمي أبو محمد (عبد الله بن أيوب) الذى مدح الأمين بقصيدته التى يقول فيها:

لابد من سكرة على طرب ... لعل رَوحًا يُديل من كُرب
خليفةُ الله خير منتخب ... لخير أُمٍّ من هاشم وأب
خلافة الله قد توارثها ... آباؤه فى سوالف الكتب
فهى له دونكم مورَّثة ... عن خاتم الأنبياء فى الحقب[5]

فقام الحسن بن سهل مغاضبًا عندما أعلمه طاهر بن الحسين بأن التيمى هذا هو صاحب تلك القصيدة، وكان التيمى قد دخل عليهم بمدح فى المأمون ومدح فى الحسن

(١) انظر: الجزء السابق ص ٤٣٣-٤٣٥ من هذا البحث.
(٢) الأغانى: جـ١٦، ص٢٥٤.
(٣) انظر الأغانى: السابق، ص٢٤١.
(٤) انظر فى ذلك الطقطقى: الفخرى: ص١٣٧-١٣٨ وانظر الطبرى: جـ٨، ص٣٧٤ وما بعدها. وانظر الأغانى: جـ٢٠، ص٥٤.
(٥) انظر: الأغانى: ج ٢٠، ص ٥٤.

ابن سهل طالبًا ود الخليفة، فلما فرغ التيمى من المديح، أعلم الحسن المأمون بأن التيمى صاحب القصيدة المادحة للأمين. ولكن موقف المأمون يدل على ألمعية وذكاء إذ قال لهم: «والله لقد أحسن بنا وأساء إليه إذ لم يتقرب إليه إلا بشرب الخمر»[١]. وقد أثابه وخلع عليه.

كما نجد المأمون يعفو عن دعبل بن على فى حضور إبراهيم بن المهدى عندما حرضه إبراهيم عليه فأجابه المأمون: إنما أردتَ التحريض به لقوله فيك :

يا معشر الأجناد لا تقنطوا	وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تُعْطَوْن حُنَيْنِيَّةً	يلتذها الأمرد والأشمط[٢]

هكذا استخدم الشعر فى تثبيت دعائم الحكم والتعريض بالأعداء، ودخلت طبقة من الشعراء إلى قصر الخلافة، واقتربوا منه، وخلع عليهم الخلفاء العطايا حتى أغنوهم، وأصبحوا من الطبقات العليا في المجتمع .

وقد ارتفعت فئة أخرى وعلا شأنها، وهي مرتبطة بطبقة الشعراء تتمثل في فئة المؤدبين . الذين اختارهم الخلفاء لتأديب أبنائهم[٣]. وقد كانوا يختارون على أساس من الأخلاق والعلم باللغة والشعر، ومن هؤلاء قطرب النحويُّ مؤدب ولد المهدى. وقد كان حماد عجرد يطمع في هذا المنصب، ولكنه لم يُخْتَر لتهتكه وشهرته في الناس، فأوغر صدر الخليفة بأبيات يتهم فيها قطرب بأنه لوطيٌّ، فخشى المهدى على ولده، ثم قال: انفوه من الدار، فأخرج وجىء بمؤدب آخر، ووكل به تسعون خادمًا يتناوبون

---

(١) انظر: الأغانى، السابق نفس الصفحة.

(٢) الأغانى: ج ٢٠، ص ١٢١ . ويقصد بقوله: حنينية، أغانى منسوبة إلى حنين المغنى.

(٣) من البين أنه كان هناك حرص من الخلفاء على تنشئة أبنائهم التنشئة التي تعدهم ليتولوا المسئولية من بعدهم، وهي تنشئة أخلاقية علمية - بالمعنى الواسع لكلمة علم - وقد رأينا هذا الحرص من قبل لدى الأمويين . ومن الأخبار الواردة نعرف أن مرحلة التأديب هذه تؤتي ثمارها كلما كان النبت غضًا طريًا؛ ومن ذلك ما يروى عن أشجع السلمى، إذ دخل على محمد (الأمين) حين أجلس مجلس التعليم والأدب وهو ابن أربع سنوات، وكان يجلس فيه ساعة ثم يقوم، فمدحه بقوله:

مَلِكٌ أبـوه وأمه من نبعـة	منها سـراج الأمة الوهاج
شَربت بمكة في رُبا بطحـائها	مـاء النبـوة ليس فيه مزاج

فأمرت له زبيدة بمائة ألف درهم. انظر الأغاني: جـ١٨، ص٢٢٦

ويحفظون الصبى[1].

ولم يكتف الشعراءُ بارتياد الخلفاء، بل كان لنساء البيت الحاكم أيضا حظ فى ذلك، ويبدو أنهن كنّ على ثدر كبير من التذوق الفنى. ومن ذلك ما يروى من مكوث الشعراء أمام باب أم جعفر، حتى خرجت إليهم جارية وكمها مملوء دراهم فقالت: أيكم القائل:

من ذا يعيرك عينه تبكي بها ... أرأيت عينا للبكاء تعار

فأومئ إلى العباس بن الأحنف، فنثرت الدراهم في حجره[2].

هذه العطايا والهبات من الخلفاء ونسائهم لها دلالتها - كما سبق أن ذكرنا- في حالة البذخ والترف التي عمت العصر، واستأثر بها فئات معينة كانت الطبقة الحاكمة تحيط نفسها بها، وربما لو قارنا هذه الفئات بالسواد الأعظم من الرعايا لهالنا عمق الهوة بين الجانبين.

وعلى أية حال؛ فإن مظاهر البذخ والترف هذه لم تقتصر على ذلك وإنما تمثلت أيضًا في تلك المدن التي أنشئت، وما عمرت به من دُور وقصور، وقد ذكرنا من قبل بناء المنصور مدينة بغداد[3]، ونضيف هنا أنه في تصميمه لها استعار الشكل الفارسي؛ إذ يقال إنه كلَّف مهندسًا فارسيًا بمهمة بناء المدينة، فبنيت على شكل دائرة كاملة، واستخدم في البناء قوالب من الطين اللبن يبلغ وزن الطوبة نحو ٢٠٠ رطل وحجمها ذراع مكعبة، واستخدم البوص كرباط بين المداميك[4]، وهكذا ازدهرت المدينة الجديدة، وأصبحت

(١) انظر: الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٣٢.

(٢) انظر: الأغاني، جـ ٨، ص ٣٦٩.

(٣) انظر: هذا الفصل، ص ٤١٧، هامش (٢).

(٤) يذكر: د. م / يحيى وزيرى أن انتقال مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد أدى إلى ظهور ملامح فنية عراقية قديمة، كانت قد نمت من خلال مرحلة الفن الأخمينى والساساني، وكانت هي البذور الأولى التي ترعرعت في سامراء، وأن الدولة في الفترة العباسية الأولى التي بدأت من عام ١٣٢هـ إلى ٢١٨هـ قد بلغت قمة مجدها الحضارى، وتعرف بالعصر الزاهي: انظر: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٠م، ص ٦٨ - ٦٩.

منارة الإسلام[1] .

وكذلك بنى المعتصم مدينة القاطول سنة ٢٢٠هـ، وأقطع الناس، وبنى لهم فيها القصور والدور والأسواق، ثم ارتحل إلى سر من رأى، فبنى فيها قصره المعروف بالجوسق على دجلة، وبنى هناك قصورًا للقواد والكتاب[2] .

إن حالة البذخ والترف هذه لم تتمثل في الإكثار من تلك القصور والدور، والإنفاق عليها بسخاء فحسب؛ بل تمثلت أيضًا فيما كانت تعج به من مجالس اللهو والغناء؛ وكتاب الأغاني حافل بوصف تلك المجالس، وما كان يدور فيها مما سنعرض له فى الفصل الرابع الخاص بالغناء .

على أن هناك مظاهر تعكس هذا الترف، وما ارتبط به من لهو ومتاع، وتتمثل فى الاحتفال بالأعياد، وما كان يصحبها من مهرجانات، وبخاصة أعياد الفرس، ويبدو أنها كانت من الشيوع، لاحتفاء الناس بها - وفي مقدمتهم الخلفاء وكبار الدولة - إلى حدٍّ أنهم كانوا يتهادون فيها، ويتبارى الشعراء في تقديم قصائد التهاني والمديح؛ أملاً في العطايا والهبات . ومن أشهر هذه الأعياد: عيد النيروز، وعيد السَّعانين؛ ولهذا دلالته في التحوّل الذي أصاب المجتمع في ذلك الوقت .

ومما يبرز غلبة التأثير الفارسي على العرب اهتمام أبى الفرج برصد جوانب هذا التأثير؛ فمن ذلك ما يرويه عن على بن جبلة؛ إذ قال له رجل بأنه بلغ في مديح حميد الطوسي ما لم يبلغه في غيره، فقال له على: وكيف لا أفعل ذلك وأدنى ما وصل إلى منه ما قيمته مائتا ألف درهم فى قصيدة لى أهديتها له فى يوم نيروز وقد تكرر مثل هذا فى أعياد أخرى[3] .

ومن ذلك أيضًا ما يرويه عن أحمد بن صدقة؛ إذ دخل على المأمون في يوم السعانين[4]،

---

(١) انظر: السابق، ص ٩٢ . وانظر أيضًا: اليعقوبي، جـ٢، ص ٢٦١ .

(٢) انظر: اليعقوبي، جـ ٢، ص ٣٣٢ .

(٣) انظر: الأغاني: (على بن جبلة) جـ٢٠، ص٢٩ - ٣٠ .

(٤) انظر: الأغاني: جـ ٢٢، ص ٢١٣ . عيد السعانين: عيد النصارى يخرجون فيه بصلبانهم قبل الفصح بأسبوع . انظر: هامش (٤) من المصدر المذكور .

فوجد بين يديه عشرين وصيفة: «جُلْبًا روميات مزنرات، وقد تَزَيَّنَّ بالديباج الرومى، وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وفي أيديهن الخوص والزيتون» . ويمضي الخبر ليذكر أن المأمون أمر أحمد بن صدقة أن يغني أبياتًا وضعها المأمون وهي:

ظباءٌ كالدنانير ملاح في المقاصير
جلاهن السعانين علينا في الزنانير
وقد زرّفن أصداغا كأذناب الزرازير

يقول أحمد بن صدقة: «فحفظتها وغنيته فيها، فأمر لي بألف دينار، وأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار»[1] . هذا الاهتمام بأعياد المجوس والنصارى يدلّ على السماحة الدينية التي تحلى بها العصر العباسي .

وقد دخل حكم الوادى على محمد بن العباس يومًا وهو بالبصرة وبيده الكأس لا يطيق شربها وبين يديه ندماؤه، وكان يوم نيروز فطلب أن يغنيه حكم الوادى فغناه فأمر له بكل الذي بين يديه من هدايا وكانت ثلاثين ألف درهم[2].

على أن هناك من الأخبار ما يدل على أن الخلفاء كانوا يرون أن الأعياد الحقيقية هى أعياد المسلمين مثل الفطر والأضحى وغيرهما، ومن ثم فإن احتفالهم بأعياد غيرهم يمثل لونًا من ألوان المجاملة الاجتماعية، وكسب وُدِّ تلك الأعداد الضخمة من الموالى، الذين تغلغلوا في نسيج المجتمع كما ذكرنا من قبل، ولعل الخبر التالي يبرز ما نذهب إليه؛ فقد مدح على بن الجهم المتوكل بقصيدة بدأها بقوله:

اغتنم جِدَّة الزمان الجديد واجعل المهرجان أيمن عيد

وأنشدها وأبو السمط مروان بن أبي حفصة حاضر[3]، فغمزه المتوكل على عليّ بن الجهم، وأمره أن يُعْنته . فقال له: «يا على، أخبرني عن قولك:

واجعل المهرجان أيمن عيد

---

(١) الأغاني: جـ ٢٢، ص ٢١٤ .

(٢) انظر: الأغاني: جـ ١٨، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) أبو السمط: هو مروان بن أبى الجنوب بن مروان الأكبر بن أبى حفصة، ويكنى مروان الأصغر أبا السمط، وكان يتشبّه بجده فى شعره، ويمدح المتوكل . الأغانى: جـ٢٣، ص٢٠٦ .

المهرجان عيد أم يوم لهو، إنما العيد ما تعبد الله به الناس مثل الفطر والأضحى والجمعة وأيام التشريق . فأما المهرجان والنيروز، فإنما هما أعياد المجوس، لا يجوز أن يقال لخليفة الله في عباده وخليفة رسول الله في أمته: اجعل المهرجان عيدًا . فلم يلتفت إليه وأنشد حتى بلغ قوله:

نحن أشياعكم مِنَ آل خراسا ن أولو قوة وبأس شديد
نحن أبناء هذه الخرَق السو د وأهل التشيع المحمود[1]

بقي لدينا في مجالس الخلفاء ظاهرة الشراب وما ارتبط بها من سكر؛ فقد حفل كتاب الأغاني بالأخبار التي تتحدث عن هذه الظاهرة وما يصحبها؛ من ذلك: خبر عن المعتصم هو ومن معه ممن كانوا بين يديه ذات ليلة يشربون إلى أن سقطوا سكارى، فنام، وناموا في مواضعهم ثم استيقظ فصاح، فلم يجبه أحد[2]. إلى آخر الخبر .

وهناك خبرٌ آخر قريب من الخبر السابق ولكن بإسناد قوى يروى عن حماد بن إسحاق عن أبيه قال: «اصطبح الواثق في يوم مطير واتصل شربه وشربنا معه حتى سقطنا لجنوبنا صرعى، وهو معنا على حالنا، فما حرَّك أحدٌ منا عن مضجعه، وخدم الخاصة يطوفون علينا ويتفقدوننا وبذلك أمرهم ... فكان هو أول من أفاق منا فقام وأمر بإنباهنا فأنبهنا، فتوضأنا وأصلحنا من شأننا، وجئت إليه، وهو جالس وفي يده كأس وهو يروم شربها، والخمار يمنعه فقال لي: يا إسحاق، أنشدني في هذا المعنى شيئًا؛ فأنشدته قول أشجع السلمى:

ولقد طعنت الليل في أعجازه بالكأس بين غطارف كالأنجم

...

فطرب وقال: أحسن والله أشجع، وأحسنت يا أبا محمد، أعد بحياتي، فأعدتها وشرب كأسه وأمر لى بألف دينار»[3] .

---

(١)الأغانى: ج ٢٣، ص ٢١٢.
(٢) الأغاني: جـ١٨، ص٣٦٠ .
(٣) الأغاني: جـ١٨، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

وهناك خبرٌ عن مخارق أن محمدًا الأمين دعاه يومًا وقد اصطبح فاقترح عليه:

استقبلتْ ورق الريحان تقطفه   وعنبر الهند والوردية الجدُدا
ألست تعرفني في الحى جارية   ولم أخنك ولم ترفع إلى يدا

فغناه إياه، فطرب طربًا شديدًا، وشرب عليه ثلاثة أرطال ولاءً، وأمر له بألف دينار وخلع عليه جبة وشى كانت عليه مُذْهبة، ودُرّاعة مثلها وعمامة مثلها تكاد تُغشى البصر من كثرة الذهب[1] .

وهذه المجالس وما اقترن بها من غناء ورقص وشراب تثير لمؤرخ الحياة الاجتماعية في ذلك العصر تساؤلاً عن مدى انغماس خلفاء بنى العباس في حياة اللهو والشراب .

إن الأخبار الواردة عن تلك المجالس - بالشكل الذي أوردنا بعضًا منه - لتؤكد ذيوع ذلك وانتشاره؛ بل تؤكد - أيضًا - على أن ما يشربونه كان «مسكرًا»؛ وهذا واضح فيها وفي غيرها، وهو كثير أيضًا .

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل نشير إلى ملاحظة ذكرناها من قبل، وهي أن شيوع الخمر والمجون في العصر العباسي كان امتدادًا لموجة حادة بدأها الوليد بن يزيد من قبل، وساعد عليها كثير من الموالى في الكوفة والبصرة من أمثال: مطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، وبشار وغيرهم، مما يؤذن بأن اتساع هذه الموجة كان بسبب من ذلك التحول الذي حدث؛ «فقد أحسّ الفرس أن الحياة واتتهم، وأخذوا يعبُّون كئوس الخمر مترعة، وتهالك الشعراء عليها من حولهم، حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته، على نحو ما هو معروف . ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج يخيَّل إليه أن الناس جميعًا - شرفاء ومشروفين - قد تورطوا في إثمها تورطًا، وكان منهم من يسرف في شربها إسرافًا شديدًا، حتى ليتناول منها عشرة أرطال دفعة واحدة»[2] .

لكن أن تمتد هذه الموجة لتشمل أشخاص الخلفاء بأعيانهم - بما يحاطون به من جلال

---

(١) انظر: الأغاني: جـ١٨، ص ٣٦١ .

(٢) د . شوقي ضيف: العصر العباسى الأول (مرجع سابق)، ص٦٧ . وانظر الأغاني: ج ٥، ص ٢٥٥ .

الخلافة، ووقار الدين، فهذا مما يحتاج إلى وقفة؛ فالمتتبع لتاريخ الدولة العباسية يجد أنها - في بداية أمرها - كانت بحاجة إلى الجد والحزم لمواجهة أعدائها حتى يستتب لها الأمر؛ ومن ثم كانت بحاجة إلى خلفاء جادين غير لاهين، ينفقون كل وقتهم في توطيد دعائم الدولة والقضاء على الثائرين والخارجين، حتى إذا انتهى هذا الدور، وتحقق للدولة ما أرادت وهدأت الأمور أصبح هناك من الفراغ متسع لشيء من اللهو والجد، ومن ثم وجدنا من الخلفاء من يجمع بين هذا وذاك وينفق حياته مراوحًا بينهما؛ حتى إذا استتب الخارج والداخل، جاء خلفاء فرأوا أن الأمور تجرى في نصابها على أسس متينة وضعها السابقون، وفي الوقت نفسه وجدوا المال الكثير يجيء إليهم في سعة، فنعموا وأسرفوا في النعيم، وكان من وقتهم متسع لذلك . وتاريخ الخلفاء العباسيين شاهد لذلك[١].

ويقال إن الهادي كان أول خليفة عباسي أغرى بالخمر[٢]، وتبعه الرشيد[٣]، ومن جاءوا بعده . وأغلب الظن - كما يذكر أحد الباحثين - أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحللة إلى الأنواع المحرمة اللهم إلا ما كان من الأمين، الذي كان يعيش للخمر المسكرة، يشربها أرطالاً[٤].

---

(١) انظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام . جـ١ ص١٠٧-١٠٨ . هذا؛ ومن المعروف - مثلاً - أن أبا العباس السفاح، كان يؤثر الجد على اللهو . وكذلك كان أبو جعفر المنصور الذي يعد مؤسس الدولة، فلم يكن أيضًا له في اللهو مجال، ولم يكن يحب الشراب، ولا يقرب على مائدته شراب . وكان المهدى مترفًا في ملبسه ومأكله . وقد اتفق صاحب الأغاني والطبرى على أنه لم يكن يشرب النبيذ، ولكنه كان يسمح لأصحابه بالشرب عنده . انظر السابق . ص١٠٨-١١٢ وما به من مصادر .

(٢) انظر الأغاني جـ ٥، ص ١٦٠؛ حيث يذكر رواية عن إبراهيم الموصلي أن المهدى كان لا يشرب، فأراده على ملازمته وترك الشراب فأبي، وكان يغيب عنه الأيام، فإذا جاءه جاء منتشيًا، فغاظه ذلك منه، وضربه وحبسه ثم لما علم المهدى استمراره في الشراب بعد ذلك غضب غضبًا شديدًا، وتوعده إذا دخل على موسى وهارون وحين بلغه أنه دخل عليهما وشرب معهما وكانا مستهترين بالنبيذ، ضربه ثلاثمائة سوط، وقيده وحبسه. وانظر أيضًا: الجهشيارى: السابق، ص ١٧٢ .

(٣) انظر: الهامش السابق . هذا؛ ويبدو أن عصره شهد نقلة من حيث الإسراف في الترف وما صحبه من لهو ومجون؛ ساعد عليها ازدياد ثروة البلاد بصورة ضخمة؛ وعظم سلطان الفرس في عهده، وفي مقدمتهم البرامكة . وقد كان الفرس من قديم يعرفون بالميل إلى اللهو والسرور والإفراط في حب النبيذ الذي تبيحه الديانة الزرادشتية . انظر: أحمد أمين: السابق ص ١١٥ .

(٤) انظر: د. شوقي ضيف: السابق ص ٦٦، هذا، وقد ورد في كتاب الأشربة لابن قتيبة تعريفات لبعض الأنبذة منها: نبيذ العسل: وهو الذي يسمى البِتْع، وهو شراب يتخذ من العسل في اليمن . ونبيذ الحنطة: وهو الذي يسمى المِزْر، وذلك إذا صار الكثير منه مسكرًا . ونبيذ الشعير: ويسمى الجعة . ونبيذ الذرة

وفي ختام الحديث عن هذه الطبقة نتحدث في إيجاز عن الطعام والملابس؛ ففي خبر الأمين مع مخارق السابق أنه بعد أن غناه، فطرب طربًا شديدًا وشرب، . . . خلع عليه جبة وشْى كانت عليه مُذهبة، ودُرّاعة مثلها، وعمامة مثلها، تكاد تُغْشى البصر من كثرة الذهب. ثم قال لبعض الخدم: قل للطباخ يأتينا بِمَصْلِيَّة معقودة الساعة[1] .

وهناك طعام خفيف يسمى: بَزْماوَرْد[2]، أمر المأمون غلامه أن يأتيه به، بعد أن دخل دمشق، وأخذ يدور على قصور بنى أمية، ويتبع آثارهم[3] . ومن أنواع الطعام أيضًا ما ذكر عن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن أبيه أنه قال: « لو خيرت لونًا من الطعام لا أزيد عليه غيره لاخترت الدّرّاجة[4]: لأني لو زدت في خلها صارت سِكْبَاجة[5]، وإن

ويسمى السُكْرُكة . ويقول الإمام السرخسي: «ولا بأس بهذه الأنبذة كلها من العسل والذرة والحنطة والشعير والزبيب والتمر وكل شيء من ذلك أو غيره من النبيذ، عُتّق أم لم يعتق، خلط بعضها ببعض، أو لم يخلط بعد أن يطبخ» . وقال الكاساني: «وأما المِزْر والجعة والبتْع، وما يتخذ من السكر والتين ونحو ذلك فيحل شربه عند أبي حنيفة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قليلاً أو كثيرًا مطبوخًا أونيًا، ولا يحد شاربه وإن سكر . ويعلل الكاساني لذلك بقوله: «وإنما لا يجب الحد، وإن سكر منه؛ لأنه سكر حصل بتناول شيء مباح، وأنه لا يوجب الحد، كالسكر الحاصل من تناول البنج والخبز في بعض البلاد، بخلاف ما إذا سكر بشرب المثلث فإنه يجب الحد لأن السكر هنا حصل بتناول المحظور، وهو القدح الأخير» . أما الإمام محمد بن الحسن، فإنه يقول بحرمة هذا النوع من الأشربة، بناء على أصله، وهو أن ما أسكر كثيره، فقليله حرام كالمثلث، واستدل بما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: الخمر من خمسة: من النخل والكرم والحنطة والشعير والذرة». وتابعه جماعة من الشافعية في ذلك فأطلقوا لفظ الخمر على الأنبذة إطلاقًا حقيقيًا؛ وأما المالكية فإنهم كالشافعية، جعلوا الأشربة المسكرة كالخمر في الحرمة، ووجوب الحد على شاربها فهم يرون أن كل شراب مسكر، يخامر العقل ويدعو إلى اللهو والطرب، هو خمر، ويحد شاربه، ولو قليلاً، ويحرم شرب قليله، كما يحرم شرب كثيره . أما الحنابلة: فهم يرون أن الأشربة المسكرة هي خمر في الحرمة، وفي وجوب الحد بشربها، وقد سوى أحمد بين عصير العنب، وكل المسكرات، في وجوب الحد بالشراب . ولعل هذا يلقي الضوء على أنه كان هناك اجتهاد لبعض الفقهاء فى تحليل بعض الأنبذة . انظر ابن قتيبة . كتاب الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها. دراسة وتحقيق: د . حسام البهنساوى . مكتبة زهراء الشرق . القاهرة ١٩٩٨م. ص ٨٠- ٨٢ .

(١) انظر: الأغاني: جـ ١٨، ص ٣٦١ . والمصلية يقصد بها هنا: الشاة المشوية .

(٢) طعام يتخذ من اللحم المقلى بالزبد والبيض . وهو طعام يسمى: لقمة القاضى، ولقمة الخليفة، ويقال عليه: البزماورد . ويقال: إن العرب استخدمتها للرقاق الملفوف باللحم . انظر: الأغاني: جـ ٤، هامش (٢) ص ٣٥٣.

(٣) انظر: الأغاني: جـ ١١، ص ٣٥٦ .

(٤) الدُراج: (بالضم) ضرب من طير العراق أسود باطن الجناحين، وظاهرهما أغبر، على خلقة القطا إلا أنه ألطف. جـ ١١، ص ٣٤٢، هامش (١) .

(٥) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل: معرب سكبا، مركب من سك أى خل، ومن (با) أى طعام . السابق نفس الصفحة .

زدت في مائها صارت إسفيدباجة[١] . وإن زدت في تصبيرها بل في تشييطها صارت مطجنة»[٢] .

أما الملابس فكانت الخلفاء يرتدون العمامة والدراعة محلاة بالذهب والجوهر كما عرفنا من الخبر السابق عن محمد الأمين مع مخارق[٣]. فالخلفاء كانوا يلبسون الملابس الموشاة وغالبية لباسهم الجبة والدراعة والعمامة . ومن ذلك الدُّوّاج سَمُّور[٤] . وكذلك لبس المُطَرف من الخز الأسود[٥] .

وقد ورد إلينا شكل مواكب الخلفاء؛ فمن ذلك خبر عن الرشيد حينما ذهب لعزاء البرامكة في العباس بن محمد بن خالد البرمكى، وقد جاء فيه: أُخرجت المضارب إلى مقابر البرامكة بباب البَرَدَان، وفرش المسجد، وجاء الرشيد في الحِلَق بالأعلام والحراب[٦] .

وهناك أيضًا خبر يذكر أن موكب الرشيد كان يتقدمه خدم صغار يسميهم النمل في يديهم قسى البندق، يرمون به من يعترض موكبه[٧] .

طبقة الوزراء والكتاب والقواد

ارتبطت طبقة الوزراء والكتاب والقواد بقصر الخلافة ارتباطًا وثيقًا؛ إذ إن كلا من الكاتب والوزير هو أمين سر الخليفة، والقائد حافظ الدولة والمنافح عنها، ولذلك

(١) الاسفيدباجة: لون من الطعام يتكون من البصل والزبدة . السابق نفس الصفحة .
(٢) مطجنة: مقلوة بالطاجن . السابق نفس الصفحة .
(٣) انظر: الأغاني: جـ١٨، ص ٣٦١ .
(٤) الدواج سَمُّور: ضرب من الثياب يتخذ من جلد حيوان يشبه السنور وهى فراء ثمينة تتخذ للينها وخفتها وحسنها، والخبر ورد عن إبراهيم الموصلي أن خادمًا لأبي جعفر المنصور سمعه عند بعض أهل الرى، فشغف به وخلع عليه هذا الملبس . انظر: الأغاني: جـ٥ ، ص ١٥٨ .
(٥) انظر: الأغاني، جـ٥، ص ٧٠ - ٧٢ .
(٦) انظر: الأغاني، جـ١٦، ص ٢٤٧ .
انظر: لسان العرب مادة حلق . والحِلَق: جمع حَلْقة وهو: كل شيء استدار (جمع نادر) .
(٧) انظر: الأغاني، جـ٢٣، ص ٢١٨ .

كانت هى الطبقة التي تلى طبقة الأسرة الحاكمة مباشرة . ويلفت نظرنا أن أبا الفرج تناول عددًا من الكتاب والوزراء في الجزء الثالث والعشرين، ولولا أنه أشار في مقدمة الكتاب لمنهجه حيث لا يستقر له قرار على منوال واحد حتى لا يمل قارئه لقلنا إنه تتبع أخبار الكتاب والوزراء في هذا الجزء .

ومن خلال تلك الأخبار نجد أن هناك صفات يجب أن يتحلى بها الوزير . هذه الصفات أوردها إبراهيم بن محمد المدبر في «الرسالة العذراء» عن الكتّاب؛ حيث يوضح أن أدوات الكاتب هي جميع المحاسن، وآلات المكارم، وما دام الكاتب خاض هذا المجال فلابد أن يتحلى بالصواب في كل عمل، وأن يتجنب جحد السابقين عليه بإهمال حق المصيب، وأن يتسم بالحكمة وإتيانها أيًا كانت، كما أوصاه أن يجعل البرهان دائمًا دليله، والحق قائده[1] .

وقد تمثلت هذه الصفات بصورة واضحة في أسرة البرامكة التي وصلت إلى أعلى مكانة في العصر العباسي، ثم انهارت على يد الرشيد، وتذكر لنا المصادر أن أول من خدم الخلفاء منهم خالد بن برمك، إذ دخل على أبي العباس السفاح فأعجب بفصاحته ولباقته حتى إنه توهمه من العرب ثم ولاه ديوان الخراج والجند والغنائم[2] .

وقد صرف أبو جعفر المنصور خالدًا عن الديوان وقلده أبا أيوب، وقلد خالدًا فارس فأقام بها سبع سنين، وكان مقامه بطبرستان وخلف ابنه يحيى بالرى، فلما بعث بالمهدى إلى الريِّ خدمه يحيى، ثم ولدت الخيزران هارون بن المهدى سنة مائة وتسع وأربعين، وكان للفضل بن يحيى بن خالد سنة، فتبادلت الخيزران وأم يحيى إرضاع الأولاد «فتأكدت حرمة يحيى واتصل سببه»[3] .

هذه الحرمة دفعت بالخيزران إلى أن تتوسط له عندما غضب عليه المهدى ونكبه[4] .

---

(١) انظر: رسائل البلغاء: اختيار وتصنيف: محمد كرد على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م، ط٤، ص ٢٢٨ .

(٢) انظر: الجهشيارى . السابق . ص ٨٩ .

(٣) انظر السابق: ص ٩٩، ١٣٦ .

(٤) انظر السابق: ص ١٥١ . هذا؛ وكان سبب غضب المهدى أنه أنفذه إلى فارس عاملاً عليها، واستخلف

وهي التي دفعت بالرشيد أن يذهب لتأدية واجب العزاء لهم في وفاة العباس بن محمد ابن خالد البرمكي وأن يقف إلى أن يسوى التراب عليه على الرغم من محاولة يحيى ومحمد أخوى العباس أن يصرفا الرشيد فأبى ذلك وأصر على الوقوف حتى يسوى عليه التراب[1] .

وقد بلغ نفوذ البرامكة أنهم حاولوا أن يوغروا صدر الرشيد على يزيد بن مزيد الشيباني القائد الشجاع حينما خرج الوليد بن طريف الشيباني على الرشيد واشتدت شوكته بالشماسية، وقد أخذ يخاتل يزيد بن مزيد، فتكلم فيه البرامكة وأوغروا صدره عليه وقالوا إنما يتجافى عنه لصلة الرحم . فوجه الرشيد إليه مغاضبًا، فقام إليه مع أصحابه فحاربه حتى ظفر به وأخذ برأسه، وقدم على الرشيد بعد ظفره، فحجب برأى البرامكة عنه، فحلف لَيُصَيِّفَنَّ ويَشْتُوَنَّ على فرسه أو ليدخل، فدخل وعرف نقاءه وسريرته فرحب به الرشيد وأجلسه وأكرمه [2].

وقد استخدمت البرامكة كل فضيلة ليتقربوا بها إلى الناس حتى علا أمرهم وقصدهم الشعراء والمغنون .

تلك المكانة هي ما دفعت بأبى النَّضِير عمر بن عبد الملك مولى بنى جمح أن يقول فيهم:

إذا كنتُ من بغداد منقطع الثرى　　وجدتُ نسيم الجود من آل برمك[3]

وقد كثر الشعراء بباب الفضل بن يحيى حتى قال عنه نُصيب:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى　　ترك الناس كلهم شعراء[4]

ومع تلك المكانة التي ارتفع إليها البرامكة حلّ ما حلّ بهم من نكبتهم من قبل

خالد ابنه يحيى، فأسقط خراج الشجر على الناس، واستكثر من الصلات السنية، وأحسن إلى الناس كافة، فشغب الجند، فقتل شاكرًا التركي قائدهم، وكانت لهذا القائد قرابة بفرج خادم المهدى، فحربه عليه فنكبه وحبسه وألزمه مليون درهم تقضى كل جمعة، حتى شفعت له الخيزران بالرضاع الذي كان بين هارون ويحيى .

(١) انظر: الأغاني: جـ ١٦، ص ٢٤٧ .

(٢) انظر: الأغاني: جـ ١٢، ص ٩٤ - ٩٦ .

(٣) الأغاني: جـ ١١، ص ٢٨٦.

(٤) الأغانى: ج ٢٣، ص ٢٠.

الرشيد، وصحب ذلك كساد سوق عدد كبير من الشعراء؛ إذ تروى الأخبار أن ابن مناذر دخل على الرشيد يوم التروية وقد حج بعد نكبة البرامكة فكتب قولاً تأنق فيه، وكان الفضل بن الربيع بين يدي الرشيد، فقال له: هذا شاعر البرامكة ومادحهم، فما انتفع بنفسه وأمر الرشيد بلطمه بعدما أجبره على قول مدحته في البرامكة وهي:

أتانا بنو الأملاك من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر[١]

وهناك من الوزراء من تقلد منصب السيف والقلم وعرف بذى الرياستين كالفضل ابن سهل وكان من أولاد ملوك الفرس المجوس[٢] .

وقد كان مسلم بن الوليد وأخوه سليمان منقطعين إليه، وقلد الفضل مسلماً المظالم بجرجان فمات بها[٣] . ومن الواضح أن الوزارة التي تولاها الفضل كانت وزارة تفويض تُجِيزُ للوزير أن يولى المظالم من رآه مناسبًا لذلك[٤] .

ولقد قصد الشعراءُ الوزراءَ بمدائحهم كما كانوا يصنعون مع الخلفاء . فلقد مدح محمد بن وُهَيب بن عباد، وكان له صديقًا، فلما ولى الوزارة اطرحه لانقطاعه إلى الحسن ابن سهل فقال فيه شعرًا[٥] يعاتبه، كما سأل محمد بن عبد الملك الزيات حاجة أبطأ فيها فقال أبياتا مطلعها:

طُبِعَ الكريمُ على وفائه وعلى التفضل في إخائه

«فقال له حسبك؛ فقد بلغت إلى ما أحببت، والحاجة تسبقك إلى منزلك، ووفى له بذلك»[٦] .

ومن الوزراء الذين طلبوا المعالى محمد بن عبد الملك الزيات؛ فقد كان أبوه تاجرًا

---

(١) السابق: ج ١٨، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.
(٢) انظر: الفخرى: السابق . ص ١٧٩ .
(٣) انظر: الأغاني: جـ١٩، ص ٣١ .
(٤) انظر: الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية – ط ٣ بيروت، لبنان ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ٢٨ .
(٥) انظر: الأغاني، جـ١٩ ص ٩١ . ولعل في هذا الخبر: تصحيفًا فى اسم (ابن عباد) إذ اسمه (أبو عباد ثابت بن يحيى) وزير المأمون، وكان كاتبًا حاذقًا بالحساب، سريع الحركات أهوج محمقًا . انظر: ابن الطقطقى، السابق، ص١٨٤ .
(٦) الأغاني: جـ١٩، ص ٩٥ – ٩٦ .

من تجار الكرخ الأغنياء، وكان يحثه على تعلم التجارة فيأبى إلا الكتابة . وقد وزر ثلاث دفعات[١]، وكان في أخلاقه شدة وفظاظة، ومن أقواله: « الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المُنَّة، ما رحمت شيئًا قط»[٢] .

فلما نكب وضع في تنور، مساميره إلى الداخل كان قد صنعه ليعذب به من أراد، فكان هو أول من وضع فيه، وكان يصرخ: ارحموني فيقولون: وهل رحمت أحدًا؛ هذه شهادتك على نفسك[٣].

ومن الكتاب الذين ذكرهم أبو الفرج: الحسن بن وهب وأخوه سليمان بن وهب . وكان سليمان عريقًا في الكتابة ولأولاده نجابة، ويقال إن أصلهم نصارى، وجاءوا من قرية يقال لها (سارقيقا)[٤] .

ومن الكتاب أيضًا أحمد بن يوسف بن صبيح، وأصله من الكوفة، تولى ديوان الرسائل للمأمون[٥] . وهناك محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية مولى بني ليث بن بكر ابن عبد مناة، بصري المولد والمنشأ، وكان شاعرًا كاتبًا، كتب لأحمد بن أبى دُوَاد فلما مات ابن أبى دُوَاد نقصت حاله[٦] .

ومن الذين خدموا الوزراء عبد الله بن محمد بن عَتَّاب بن إسحاق هو وأبوه محمد بن عتاب، فقد انقطعوا إلى آل الربيع؛ فكان عبد الله بن محمد هذا يخلف الفضل بن الربيع على حجبة الخلفاء، وكان أبوه محمد بن عتاب يخلف الربيع في أيام أبي جعفر[٧] .

وقد كان للسياسة دورها في أن ترفع من تشاء، وتخفض من تشاء، بل وتنكل بمن تشاء؛ فقد حلت النكبة أيضًا ببعض من هذه الطبقة، وكانت الشعوبية تهمة يرمى بها

---

(١) انظر: الأغاني: جـ ٢٣، ص ٤٦ . وقد وزر محمد بن عبد الملك الزيات للمعتصم والواثق فلما تولى المتوكل قبض عليه وقتله. انظر أيضًا: الابن الطقطقى السابق، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) الأغاني: جـ ٢٣، ص ٥٢ .

(٣) انظر: ابن الطقطقى: السابق ص ١٩١ .

(٤) انظر: الأغاني: جـ ٢٣، ص ٩٨ - ٩٩ . و«سارقيقا»: قرية من سواد واسط فى جسر سابور .

(٥) انظر السابق: جـ ٢٣، ص ١١٨ .

(٦) انظر السابق: جـ ٢٣، ص ١٢٣ .

(٧) انظر السابق: جـ ٢٣، ص ٣٨ .

الكتاب والوزراء، وكان من يراد التخلص منه تلصق به تهمة الشعوبية؛ فمن ذلك سعيد بن حميد بن سعيد من أولاد الدّهاقين، وكان فصيحًا متحدثًا لبقًا وشاعرًا وكاتبًا، وقد خالف أبوه أحمد بن أبى دواد في بعض مذهبه، فأغرى به المعتصم واتهمه بالزندقة والشعوبية، فحبس ثم ظهرت براءته فعفا عنه[1] .

ومن الذين نكبوا أيضًا سليمان بن وهب؛ فقد حبسه محمد بن عبد الملك الزيات وطالبه بالأموال التي عنده[2] .

وقد عرف العصر العباسي الثاني بأنه عصر فتن، ولذلك دلالته على الفساد الإداري، الذي أدى إلى نكبة الكتاب والوزراء في ثرواتهم ابتداءً من عهد الواثق [3].

وكانت التهمة التي يمكن أن تودي بمركز وزير أو كاتب هي تهمة السرقة؛ فقد ولى أحمد بن المدبر بعض الأعمال لعبيد الله بن يحيى بن خاقان، فلم يحسن القيام بها فعمل على نكبته فهرب أحمد فأوغر صدر المتوكل على أخيه إبراهيم بن المدبر وذكر له خبر أخيه وادعى عليه مالاً جليلاً، وذكر أنه عند أخيه إبراهيم فحبس حتى فك حبسه وخلصه محمد بن عبد الله بن طاهر[4] .

كما كانت تهمة «التشيع والزندقة» من أهم الأسباب لاستبعاد وزير أو كاتب؛ فقد كان جعفر بن محمد وزيرًا للمهتدى في أول أمره فوصل إليه أنه يتشيع، فرفضه وقال: هذا رافضي لا حاجة لي فيه، ثم استوزر جعفر بن محمد بن عمار لمدة سنة، ثم استوزر سليمان بن وهب، ولقبه الوزير حقًا؛ لأن من قبله كان غير مستحق للوزارة، ولا مستقل بها[5].

(١) انظر السابق: جـ ١٨، ص ١٥٥ .

(٢) الأغاني: جـ ٢٣ ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) يذكر الدكتور شكري عياد أن الثراء الفاحش الذي وصلت إليه بغداد بعد أقل من نصف قرن في عهد الخليفة هارون الرشيد كان شاهدًا على كفاءة هذا النظام المالي الذي وضعه مؤسس الدولة . على أن النظم الضرائبية لم تتطور تطوُّرًا يتفق مع تزايد أهمية التجارة والتعدين مما أدى إلى عجز النظام المالي، وشجع على انتشار الفساد الإداري وبلوغه درجات فاحشة كما تشهد تقديرات ثروات كبار الكتاب والولاة التي لجأت الدولة إلى مصادرتها ابتداء من عهد الواثق . انظر: شكرى عياد. الحضارة العربية . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، أبريل ١٩٦٧، ص ٣٢ - ٣٣ .

(٤) انظر الأغاني: جـ ٢٢، ص١٥٩-١٦١ .

(٥) انظر الأغاني: جـ ٢٣، ص١٤٣ .

ومع ذلك فقد نعمت هذه الطبقة بحياة تتسم بالثراء والترف في ظل الطبقة الحاكمة؛ فملابسهم كانت من الخز الأسود والكتان، وقد كانوا يرتدون القَباء، فمن ذلك أن أبا جعفر قد كسا عتاب بن إسحاق قَباء خز وكساه تحته قباء كتان مرقوع القب . وقال هذا يخفى تحت ذاك[1] .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات لما ولى الوزارة اشترط ألا يلبس القباء، وأن يلبس الدُّرّاعة ويتقلد عليها سيفًا، وكان أول من فعل ذلك من الوزراء[2] .

وربما تتجلى قيمة هذه الملابس، وما تدل عليه من إكبار فيما وجهه الحسن بن وهب من خلع فيها خز ووشي إلى أبى تمام وهو بالموصل فامتدحه بقصيدة ووصف الخلعة فيها فقال:

قد أتاني الرسول بالملبْس الفخـ	ـم لصيف امرئ ومرتبعه
لو أنها جللت أُويْسا لقد	أسرعت الكبرياء في ورعه
رائقُ خَزٍّ أُجيد سابرُهُ	سكبُ تَدين الصِّبا لمدَّرعه
وسرٌّ وشي كأن شعري أحيا	نًا نسيبُ العيون من بدعه
تركتني ساهر الجفون على	أزْلم دهر بحسنها جَذَعِه[3]

وإذ قد عرفنا حال هذه الطبقة في اللهو والطرب، وما كانت تحظى به من مكانة فمن الطبيعي أن يكون لها مجالسها . فمن ذلك اجتماع أحمد بن المدبر مع أبي عبيس بن حمدون في اليوم التاسع والعشرين من شعبان على شرب، فلما سكرا اتفقا أن يصير إبراهيم إلى أبي عبيس إذا لم ير الهلال، وأخذ ما كان معه من الخواتم رهنًا[4] .

---

(١) انظر السابق: جـ ٢٣، ص٣٨ .

(٢) انظر: الأغاني جـ٢٣، ص٥٢ .

(٣) الأغاني: ج ٢٣، ٩٧. هذا، والدهر يقال له: الأزلم الجذع، والأزلم: الطويل والجذع: الجديد. يقول: هو قديم سالف، ويومه جديد. السابق نفسه.

(٤) انظر الأغاني: جـ٢٢، ص ١٦٥ . ومن ذلك أن على بن يحيى المنجم اجتمع هو وإبراهيم بن المدبر عند بعض وجهاء القوم بسر من رأى في حال من الأنس، وكانت تغنيهم جارية تسمى نَبْتُ من جوارى القيان . انظر الأغاني: جـ ٢٢، ص ١٦٢ .

وهناك فئة أخرى كانت تقف مع السابقة على قدم المساواة ولكن مع اختلاف الأدوار؛ فإذا كانت الفئة السابقة تجاهد بالقلم فتلك الفئة كانت تجاهد بالسيف وهي فئة القواد .

ويطالعنا في كتاب الأغاني اهتمام بالقائد العربى يزيد بن مزيد الشيباني؛ فتتعدد الأخبار عنه، وعن شجاعته، ومكانته، فقد أخمد ثورة الوليد بن طريف الشيباني، إذ كان رأس الخوارج وأشدهم بأسًا وصولة، وكانت شوكته قد اشتدت، فاستطاع يزيد بن مزيد القضاء على تلك الثورة، وحمل رأس الوليد رغم انحراف البرامكة عنه، وإيغار صدر الرشيد عليه[1] .

ولم ينل انحراف البرامكة عن يزيد بن مزيد الشيباني من مكانته؛ وليس أدل على ذلك من أن الرشيد أرسل إليه يومًا في وقت لا يرسل إليه فيه، فلبس سلاحه واستعد لأمر يحسبه الحرب، فلما رآه الرشيد ضحك وسأله عن القائل فيه:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يُدْعى على عجل

فأجابه بنفى معرفته بالقائل، فقال له الرشيد: «سوءة لك من سيد قوم يمدح بمثل هذا الشعر»[2]. إن هذه المرتبة التي وضعها الرشيد لقائده ووصفه فيها بأنه سيد القوم، تدل على المكانة التي احتلتها هذه الفئة، وهي مكانة تستمد قوتها من أمور كثيرة قوامها البطولة والتضحية والإخلاص والتفاني، إذا ما حزب الأمة ما يهدِّدها، ويعصف بأمنها.

والواقع أن هذه الصفات لم تكن مقصورة على القواد من أمثال يزيد بن مزيد، فقد كانت تتجلي في كثير من خلفاء العصر العباسي الأول، ومن ثم نجد الخليفة نفسه يتصدر القيادة، كما حدث مع الرشيد حين بعث إليه نقفور بخطاب يهدده فيه ويتوعده، فشخص الرشيد إليه في جمع لم يسمع به من قبل، فوصل الرشيد إلى طرق ضيقة دون

---

(١) انظر الأغانى، جـ١٢، ص٩٤-٩٦ . هذا؛ ويذكر اليعقوبى: أن الوليد بن طريف الحرورى خرج سنة ١٧٩هـ بالجزيرة . اليعقوبى: جـ٢، ص٢٨٨ .

(٢) وباقي الخبر يذكر أن الرشيد عرَّفه من القائل، وهو مسلم بن الوليد، وأنه بلغه هذا الشعر فوصله، فلما انصرف من عند الرشيد دعا بمسلم فوصله وولاه . جـ١٩، ص ٣٥.

القسطنطينية، وقد أمر نقفور بالشجر يقطع ويرمى في تلك الطرق، ويشعل به النيران، فكان أول من لبس ثياب النفاطين محمد بن يزيد بن مزيد فخاضها وتبعه الناس[1] .

ومن القواد الذين حاربوا الشراة مالك بن على الخزاعي، ويقال إن الشراة عاثوا بالجبل فسادًا وقتلاً، فخرج إليهم حتى ورد حلوان، فأجلاهم عنها وأخذ يتتبعهم إلى قرية يقال لها حُدَّان فأصيب في رأسه ومات هناك فبنيت على قبره قبة على قارعة الطريق[2] .

ومن القواد الشجعان الذين اهتم بهم أبو الفرج أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، وله مواقف مشهودة . ويقال: إن على بن جبلة استنفد شعره في مدح أبي دلف، وحميد الطوسى، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة، حتى فضل من أجله ربيعة على مضر وجاوز الحد في ذلك[3] .

ومن الشعراء من كان يرتاد أبواب القواد؛ فقد كان داود بن يزيد ابن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السنة مجلسًا واحدًا[4] .

وبلغ من ترف تلك الطبقة أن عبد الله بن طاهر أعد لكل رجل من قصّاده في يوم واحد مائة ألف دينار، وكان أبو السمراء الغسّاني أحد العِدَّة الذين وصلهم عبد الله بن طاهر بهذا المبلغ المبالغ فيه[5] .

وقد أجزل الخلفاء العطاء للشعراء الذين مدحوا قوادهم؛ فنجد المعتصم يعطى ثلاثين ألف درهم للشعراء الذين مدحوا الأفشين بعدما رجع من قتال بابك الخرمي[6]،

---

(١) انظر: الأغاني: جـ١٨، ص٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) انظر الأغاني: جـ١٩، ص ١١٤ .

(٣) انظر الأغاني: جـ٢٠، ص ١٤ . هذا؛ ومن أقواله فيه:

كل من في الأرض من عرب	بيـن باديه إلـى حضـره
مستـعيـر منك مكـرمـة	يكتسيهـا يـوم مفتخـره

(٤) انظر الأغاني: جـ١٩، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٥) انظر الأغاني: جـ٢٢، ص ٢٠٨ .

(٦) انظر السابق: جـ١٩، ص ٩٣ - ٩٤ .

وكذلك نجد عطاء الرشيد لمسلم بن الوليد على مدحته ليزيد بن مزيد[1] .

ولقد ازداد نفوذ القواد الأتراك على عهد المتوكل إلى أن وصل بهم الأمر إلى قتله[2] . وظل هذا النفوذ طوال العصر الثاني .

ومن قواد المتوكل أبو الساج الذي ظفر بمحمد بن صالح[3] وقد خرج مع منَ بيَّض في هذه السنة، فأخذهم أبو الساج وقيدهم وقتل جماعة منهم . وحبس محمد بن صالح في سرمن رأى لمدة ثلاث سنوات[4] .

طبقة الشعراء والمغنين

إن عصرًا يحكم فيه خلفاء أمثال: الرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم، ويتولى الوزارة فيه أو الإمارة أمثال: الفضل بن الربيع، والبرامكة، وآل طاهر، ويقود فيه الجيوش أمثال: أبي دلف ويزيد بن مزيد وحميد الطوسيّ وغيرهم – لهو عصر جدير بأن يحل فيه الشعر والشعراء مرتبة ربما لم ينلها من قبل، ومن ثم فإن الشعراء في هذا العصر – وكذا المغنون – يشكلون طبقة اقتربت كثيرًا من الطبقات السابقة، وتفاعلت معها، وأثرت فيها تأثيرًا كبيرًا؛ بل ربما أسهمت –بطريقتها الخاصة – في صنع الحياة وتصريف الرياح في اتجاه بعينه .

وقد تألق في سماء الشعر أسماء مثل: بشار، وأبي نواس، وأبي العتاهية، ومسلم ابن الوليد، ودعبل الخزاعي، والسيد الحميرى، ومروان بن أبي حفصة، وأبي تمام، والبحترى، والمتنبي، وغيرهم .

ولا يدخل فى اهتمام هذه الدراسة أن تتوقف عند هذه الطبقة بالتفصيل[5]، ولكن

---

(١) انظر السابق: جـ ١٩، ص ٣٨ .
(٢) انظر السابق: جـ ٢٢، ص ٣٠٢ .
(٣) هو: محمد بن صالح بن عبد الملك بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب . شاعر حجازى ظريف . انظر: الأغانى، جـ١٦، ص٣٦٠ .
(٤) انظر الأغاني: جـ١٦، ص ٣٦٠ – ٣٦١ .
(٥) نتجاوز – هنا – عما ذكرناه خاصًا بالشعراء، في معرض الحديث عن «الطبقة الحاكمة» وكذلك عما ورد خاصًا بالمغنين، في معرض الحديث عن «الغناء»؛ وهو فصل مستقل .

حسبها أن تبرز مكانها في السلم الاجتماعي، ودورها في تلك التغيرات التي مست الحياة في جوانبها المختلفة في ذلك العصر .

وهناك من العوامل ما مكن لهذه الطبقة، فاقتربت كثيرًا من الفئات الحاكمة . ومن الملاحظ أن هذه الفئات (الحاكمة) كانت على درجة كبيرة من الثقافة، كما كان لها ذوقها الخاص، الذي يجعلها تميز أقدار الشعراء؛ يستوى في ذلك الخلفاء أو من يحيط بهم من الحاشية ورجال البلاط . ومن يتأمل الروايات التي تروى عنهم في هذا الصدد يخيل إليه أنهم قد استوعبوا ما ورثوه عن شعر . وكذلك ما نظم في عصرهم.

ومن شواهد ذلك ما يروى من أنه وفد إلى عبد الله بن طاهر جمع من الشعراء، فقال لخادم له أديب: اخرج إلى القوم، وقل لهم: من كان منكم يقول كما قال العتَّابي للرشيد:

مستنبط عزمات القلب من فكر ... ما بينهن وبين الله معمور

فليدخل، وليعلم أني إن وجدته مقصِّرًا عن ذلك حرمته، فدخلوا جميعًا إلا أربعة نفر[1].

كما كانت هذه الطبقات بحاجة إلى تلك الطائفة من الشعراء، وبخاصة من جادت قريحته منهم، وأهلته موهبته الشعرية إلى أن يكون شاعر القصر، أو شاعر الأمير، وما إلى ذلك من ألقاب . فهذه الطائفة هي التي تذيع مناقبه، وتبقى ذكره على مر الأيام . وفي أخبار أشجع السلمى أن أول ما نجم به أنه اتصل بجعفر بن أبى جعفر المنصور، وهو حدث، وصله به أحمد بن يزيد، وابنه عوف، فقال أشجع في جعفر بن المنصور:

اذكروا حرمة العواتك منا ... يا بنى هاشم بن عبد مناف

(١) انظر الأغاني: جـ ١٣، ص ١١٢ . وانظر أيضًا ص ١٠٩ - ١١٠، حيث يتحدث عن تكاثر الشعراء بباب المأمون، فأوذن بهم، فقال لعلى بن صالح صاحب المصلى: اعرضهم، فمن كان مجيدًا فأوصله، وإلا فاصرفه . وصادف ذلك شُغلاً من على بن صالح، فقام مغضبًا، وأقسم ليحرمنّهم جميعًا، ودعا بهم، فجعلوايتدافعون فقال: هل فيكم من يحسن أن يقول كما قال أخوكم العتّابي:

ماذا عسى مادح يثنى عليك وقد ... ناداك في الوحى تقديس وتطهير

فُتَّ المـــادح إلا أن ألســنتـــا ... مستنـــطقات بما تخـوى الضمائر

فنفوا أن يحسن واحد منهم ذلك . فانصرفوا جميعًا .

فشاع شعره، وبلغ البصرة، ولم يزل أمره يتراقي إلى أن وصلته زبيدة بعد وفاة أبيها بزوجها هارون الرشيد، فأسنى جوائزه، وألحقه بالطبقة العليا من الشعراء، ويقال إن الذي أوصل أشجع إلى الرشيد جده الفضل بن الربيع(١) .

هذا؛ إلى أنه كان هناك الكثير من الأحداث والأعمال الكبرى التي نهض بها الخلفاء، وعاصرها الشعراء، فصوروها في أشعارهم، ومن ثم فقد قام شعرهم في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة مما يعطيه قيمة بعيدة؛ إذ يصبح وثائق تاريخية، يمكن الرجوع إليها، والاعتماد عليها في الكشف عن جوانب كثيرة مما وقع في ذلك العصر . ومن أجل ذلك نرى الطبرى في تاريخه يتوقف من حين إلى حين لينشد ما نظمه بعض الشعراء في الحادث الذي يرويه، ليجلوه جلاء تامًا على لسان هؤلاء الشعراء الذين عاصروه(٢) .

وفي هذا كله قد يختلط الفن بالسياسة عند الشاعر، فتزداد مكانته عند أولى الأمر؛ وقصة مروان بن أبي حفصة مع المهدى ذائعة وسيأتى ذكرها(٣) . وبيته المشهور في الوراثة الذي سار في الناس:

أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبنى البنات وراثة الأعمام(٤)

كان له صدى هائل عند الموالين لبني العباس(٥) - وقد عرفنا - من قبل - كيف وصل إلى بيت الخلافة (٦).

---

(١) انظر الأغاني: جـ١٨، ص ٢٣٢ .

(٢) وإذا كان الطبرى اعتمد على الشعر فى تأريخه للأحداث، فإن أبا الفرج - وقد احتفل بالغناء- كثيرًا ما تعرض لأحداث مهمة عرضت لهذا الخليفة أو ذاك، وسجل بعض ما قيل فيها من أشعار، وما غنى فيها من أصوات . انظر - على سبيل المثال - غزو الرشيد هِرقْلة فى بلاد الروم، والشعر الذى أورده أبو الفرج عن أبى العتاهية وغيره . جـ١٨ ص٢٣٩ وما بعدها . وانظر: د٠ شوقى ضيف . السابق ص١٦١ .

(٣) انظر: ص ٤٦٥ - ٤٦٦ من هذا البحث .

(٤) انظر الأغانى: ج ١٠، ص ٨٩.

(٥) ويقال إنه كان سببًا في قتله . انظر السابق: جـ ١٠، ص ٩٥ .

(٦) انظر فيما سبق: ص ٤٣٦ .

وقد يختلط الفن بالعصبية السافرة حينًا، والمتوارية حينًا آخر، ومن شواهد ذلك ما يقال من أن «الفضل الرقاشيّ»[1] كان منقطعًا إلى آل برمك، مستغنيًا بهم عمن سواهم، يصولون به على الشعراء، ويُرَوُّون أولادهم أشعاره؛ تعصبًا له، وتنويهًا باسمه، فحفظ ذلك لهم . فلما نكبوا صار إليهم في حبسهم، ينشدهم ويسامرهم، حتى ماتوا ثم رثاهم فأكثر وأفرط، حتى نشر من محاسنهم ما كان مطويًّا[2] .

ويقال: إنه لما دارت الدوائر على آل برمك، وقتل جعفر بن يحيى وصُلب، اجتاز به الرقاشي وهو على الجذع، فوقف يبكي أحر البكاء، ثم أنشأ يقول:

أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

فكتب أصحاب الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحضر، وسأله عما حمله على ما قال، فقال: يا أمير المؤمنين، كان إليَّ محسنًا، فحين رأيته على الحال التي هو عليها، حركني إحسانه حتى قلتُ ما قلت . فسأله: وكم كان يجري عليك ؟ قال ألف دينار في كل سنة، قال: فإنا قد أضعفناها لك[3] .

وقد كان لموجة الترف وما صحبها من مجون وزندقة أثرها في كثير من الشعراء، الذين اندفعوا يتغنون بهذه الأمور المستحدثة التي تبدو غريبة على الذوق العربي، وقيمه وتقاليده، ولكنها – على أية حال – تصور واقعًا اجتماعيًا لا يمكن إنكاره أو تجاهله .

أسهمت هذه العوامل – إذن – في أن يحتل الشعراء فى جملتهم مكانة هيأت لهم أن يقوموا بدور فاعل ومؤثر، لمسنا بعضًا من مظاهره في الكلام السابق . وفي الوقت نفسه هيأت لهم من أسباب الحياة ما جعلهم يعيشون حياة مترفة، ينعمون بها في ظل الفئة الحاكمة، بل وغير الحاكمة ممن أسميناهم «أشرف الأشراف» .

---

(١) هو: الفضل بن عبد الصمد، مولى رقاش، وكان من العجم من أهل الرَّى . وقد مدح الرشيد وأجازه، إلا أن انقطاعه كان إلى آل برمك . انظر الأغاني: جـ١٦، ص ٢٤٥ .
(٢) انظر السابق: نفس الصفحة .
(٣) انظر السابق: جـ١٦، ص ٢٤٩ .

ومن يتأمل ما كان يغدق من أموال على هؤلاء الشعراء جزاء ما كان يقدم منهم، يلمس حالة الثراء والترف التي كانوا يعيشونها؛ فهذا مروان بن أبي حفصة ينشد المهدى إحدى روائعه فيه:

طرقتك زائرة فحيِّ خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال[1] دلالَها؟
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ... قاد القلوب إلى الصِّبا فأمالها؟

فأنصت الناسُ لها حتى بلغ قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها ... بأكفكم أوتسترون هلالها؟
أو تجحدون مقالة عن ربكم ... جبريل بلَّغها النبيَّ فقالها؟
شهدت من الأنفال آخر آية[2] ... بتراثهم فأردتم إبطالها

فزحف المهدى من صدر مصلاه، حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع، ثم قال: كم هي ؟ قال مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم؛ فكانت أول مائة ألف درهم أعطيها شاعر في أيام بني العباس[3] .

ويبدو أن ما وصل إليه مروان بن أبى حفصة من مكانة أصبح يمثل المستوى الذى يمكن أن يطمح إليه الشعراء آنذاك؛ فمحمد بن وهيب يحاول أن يصل إلى المأمون عن طريق أبى محمد الحسن بن سهل، فلما أنشده استحسنه المأمون، وقال لأبى محمد: احتكم له، فقال: أمير المؤمنين أوْلى بالحكم، ولكن إن أذن لى فى المسألة سألته له، فقال: سل، قال: يلحقه بجوائز مروان بن أبى حفصة، فوصله بألف درهم على كل بيت، وعدت أبيات القصيدة فكانت خمسين[4].

---

(١) جاء فى بعض النسخ: «بالحياء».

(٢) يريد قوله تعالى: «والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم» [سور الأنفال: الآية ٧٥] .

(٣) انظر الأغاني: جـ ١٠، ص ٨٧ – ٨٨ .

(٤) انظر: الأغانى: جـ١٩، ص٨٧–٨٨.

وربما بالغ الخليفة - أو غيره من ذوى النفوذ والسلطان - فى العطاء إمعانًا منه فى التقدير؛ فقد أعطى الرشيد مسلم بن الوليد مائتى ألف درهم لشعره الذى أنشده فيه. وأعطاه يزيد بن مزيد مائة وتسعين ألفًا، وقال لا يجوز لى أن أعطيك مثل ما أعطاك أمير المؤمنين، وأقطعه إقطاعات تبلغ غلّتُها مائتى ألف درهم[1].

وكثيرًا ما نقرأ عن شاعر من الشعراء أنه قُلِّد عملاً من الأعمال، أو بلدة من البلدان مكافأة له؛ ومثال ذلك ما حدث مع مسلم بن الوليد، إذ طلبه ذو الرياستين (الفضل بن سهل)، فحمل إليه، فقال له: أنشدنى قولك:

بالغمر من زينب أطلال ... مرّت بها بعدك أحوال

فأنشده إياها حتى انتهى إلى قوله:

فاقعد مع الدهر إلى دولة ... ترفع فيها حالك الحالُ

فلما أنشده هذا البيت قال: هذه والله الدولة التى ترفع حالك، وأمر له بمال عظيم وقلده جَوْز جُرجان[2].

هذا؛ ومن الملاحظ أن كثيرًا من هؤلاء الشعراء لم يكونوا - فى الأصل - من أصحاب الثراء والجاه العريض؛ فقد كان أبو بشار طيّانًا يضرب اللّبن[3]، وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة[4].

على أن هناك فئة من الشعراء آثرت حياة التقشف، حتى وإن مُدَّ لها أسباب الغنى والثراء العريض؛ ومن هؤلاء العتابى[5]؛ إذ يقال إن الرشيد أنشد[6] قصيدة للعتابىّ كان

---

(١) انظر: السابق: ص٣٩، والأخبار الواردة عن مسلم بن الوليد فى هذا الصدد تبرز عمق الصلة بينه وبين القائد يزيد بن مزيد ومدحه له، ونيله لكثير من عطاياه، وفى الوقت نفسه تدل على تقدير عميق من الرشيد لقائده وشاعره. انظر السابق: ص٣٥-٣٦.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٩، ص٥٣-٥٤. وجوز جرجان: اسم لكورة واسعة من كور بلْخ بخراسان.

(٣) انظر الأغانى: جـ٣، ص١٣٧.

(٤) انظر السابق: جـ٤، ص١.

(٥) هو كلثوم بن عمرو العتابى: شاعر مترسِّل بليغ مطبوع، متصرف فى فنون الشعر ومقدّم. من شعراء الدولة العباسية، ومنصور النمَرى تلميذه وراويته. وكان منقطعًا إلى البرامكة، فوصفوه للرشيد، ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ. انظرَ الأغانى: جـ١٣، ص١٠٩.

(٦) سنعرض للظروف التى أنشأ فيها الشاعر قصيدته فى سياق آخر. على أن أبا الفرج يتوقف بعد ذلك عند رواية ترى أن القصيدة قيلت فى الرشيد نفسه: انظر السابق ص١٢٤.

قد قالها من قبل وأولها:

ماذاشجاك بحُوَّارين من طلل ودمنةٍ كشفت عنها الأعاصير

فسأل عن صاحبها، فقيل: لرجل من بنى عتّاب يقال له: كلثوم بن عمرو، فقال: وما يمنعه أن يكون ببابنا، وأمر بإشخاصه من رأسِ عين[1]، فوافى الرشيد وعليه قميص غليظ، وفروة وخُفّ، وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل، فلما رُفع الخبر بقدومه، أمر الرشيد بأن تفرش له حجرة وتقام له وظيفة، ففعلوا، فكانت المائدة إذا قامت أخذ منها رُقاقة وملحًا، وخلط الملح بالتراب فأكله بها، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض، وكان الخدم يتعجبون من فعله، وحين علم الرشيد بذلك أمر بطرده، فذهب إلى يحيى بن سعيد العقيلى، وعرّفه بنفسه، فرحب به، وطلب منه الجلوس، فأخبره بحاجته إلى دابة يبلغ بها رأس عين، فنادى على الغلام بأن يعطيه الفرس الفلانى، فقال: لا حاجة لى فى ذلك، ولكن تأمر أن تشترى لى دابة أتبلّغ عليها، فطلب من الغلام أن يمضى مع العتابى ليبتاع له ما يريد. فمضى معه، فعدل به العتابى إلى سوق الحمير، واشترى حمارًا بمائة وخمسين درهمًا، وركب الحمار عُرْيا بِمرشحة عليه وبِرذعة، وساقاه مكشوفتان[2].

ويذكر أبو الفرج أن امرأته - من باهلة - لامته، وقالت: هذا منصور النمرى قد أخذ الأموال فحلّى نساءه، وبنى داره، واشترى ضياعًا، وأنت هاهنا كما ترى ! فأنشأ يقول:

تلوم على ترْك الغِنَى باهليةٌ زوى الفقر عنها كلَّ طِرْف وتالد[3]
رأت حولها النسوان يرفلن فى الثرا مقلِّدة أعناقها بالقلائد[4]
أسرّك أنى نلتُ ما نال جعفرٌ من العيش أو ما نال يحيى بن خالد

---

(١) رأس عين: مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين.

(٢) انظر الأغانى: جـ١٣، ص١٢٢-١٢٣. ويبدو أن هذا كان قبل أن تتوطد صلته بالرشيد؛ إذ عرفنا من خلال ما قدمناه عنه (هامش ٤ الصفحة السابقة) أن البرامكة وصلوه بالرشيد، فبلغ عنده كل مبلغ.

(٣) الطرف: الجديد، والتالد: القديم.

(٤) يرفلن: تجر الواحدة ذيلها وتتبختر.

وأن أمير المؤمنين أغصَّنى مُغصّها بالمشرقاتِ البوارد[1]
رأيت رفيعاتِ الأمور مشوبةً بمستودعات فى بُطون الأساود[2]
دعينى تَجئْنى مِيتَتى مطمئنةً ولم أتجشم هولَ تلك المواردِ[3]

فإذا ما انتقلنا إلى الفئة الأخرى التى تشكل هذه الطبقة، وتتمثل فى «المغنين» وجدناها تتصل بسابقتها بكثير من الأسباب؛ فكثير منهم كانوا شعراء، ومن ثم كانت لهم مكانتهم التى جعلتهم يعيشون فى ظل الخلفاء وأصحاب السلطان، ينعمون بوافر من الترف والثراء.

واللافت للنظر أن «الموالى» قد نهضوا بهذا الفن (الغناء) نهضة عظيمة، وأسهموا فى العمل على إتقانه. وشاركهم - بالطبع - كثير من العرب ممن رزق حظًا من الفن، وأوتى نصيبًا من الذوق المتحضر، الذى لا يقتصر صاحبه على مجرد الاستماع والاستمتاع، بل يسهم كذلك فيه بما جادت به قريحته، وواتاه طبعه.

وزعيم هذا الفن غير منازع «إسحاق بن إبراهيم الموصلى»[4] ويكنى أبا محمد. وفيه تتجمع ملكات حباه الله بها ربما لم تتوافر لغيره. وسنتحدث عن الدور الذى قام به فى «الغناء» فى موضع آخر، وحسبنا أن نشير هنا إلى دور الموالى فيه، والمنزلة التى كانوا يحظون بها من خلاله. وقد مضى إسحاق - وأبوه من قبله - يخرِّج كثيرًا من القيان وكثيرًا من المغنين الذين كوَّنوا مدرسة لها أصولها وأهدافها.

فمن أخبار «عُلَّويه»[5] أنه كان: «مغنيًا حاذقًا، ومؤدبًا محسنًا، وصانعًا متفننًا وضاربًا متقدمًا، مع خفة روح، وطيب مجالسة، وملاحة نوادر. وكان إبراهيم الموصلى علمه

---

(١) أغصنى: من الغصة، وهى ما يعترض فى الحلق فتحتبس الأنفاس به. المشرقات: السيوف اللوامع. البوارد: التى تثبت فى الضريبة لا تنثنى.
(٢) الأساود: جمع أسود وهو الحيّة.
(٣) انظر: الأغانى. السابق ص١٢٣-١٢٤
(٤) انظر: الأغانى جـ٥ ص١٥٤ وما بعدها.
(٥) هو: على بن عبد الله بن سيف. وكان جدّه من السُّغد الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفان، واسترق منهم جماعة. انظر: الأغانى: جـ١١، ص٣٣٣.

وخرجه وعنى به جدًا، فبرع وغنى لمحمد الأمين»[١].

ولم يقتصر الأمر على هذا، بل وجدنا كثيرًا ممن ينتسبون إلى علية القوم يسهمون فى التشجيع على الغناء، والعمل على تطويره؛ ومن ذلك عبد الله بن طاهر الذى كان يجمع المغنين ويجرى لهم امتحانًا، ويمنح المتقدم منهم جائزة مالية بحضور إبراهيم بن المهدى؛ وقد صنع ذلك مع المشهورين منهم من أمثال: مخارق، وعلويه، وعمرو بن بانة، ومحمد ابن الحارث بن بسخنّر، وقد نالها عمرو بن بانة[٢].

ولهذا دلالته فى ارتفاع شأن الغناء، ورقيه إلى الدرجة التى أغرت أبناء الخلفاء بالإقبال عليه تعلمًا وإتقانًا، فصنعوا فيه ألحانًا وأصواتًا تنسب إليهم، على نحو ما هو معروف عن الواثق؛ إذ يقال: إنه صنع مائة صوت، ما فيها صوت ساقط[٣]. بل يروى يزيد بن محمد المهلبى أنه دخل عليه يومًا، وهو خليفة، ورباب فى حجره جالسة، وهى صبية وهو يلقى عليها قوله:

ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ ... فى حفظه عجب وفى تضييعه

وهى تغنيه، ويردّده عليها، فلم يسمع غناء قط أحسن من غنائهما جميعًا، وما زال يردده عليها حتى حفظته[٤].

وقد بلغ من شغف خلفاء العصر العباسى بالغناء، وحرصهم عليه أن «المتوكل» أحسّ بنوع من النقص، لافتقاده القدرة على ذلك. ومما يروى فى ذلك أن الشاعر على ابن الجهم انصرف يومًا من عند المتوكل، وما إن دخل منزله حتى جاءه رسول الخليفة يطلبه، فراعه ذلك، وظنه بلاء لحق به، فرجع إليه وجلاً، فأدخل عليه، وهو فى مرقده، فلما رآه ضحك، فأيقن السلامة؛ فأخبره أنه منذ فارقه وهو ساهر وقد خطر على قلبه شعر يغنى فيه أخوه، وذكر الشعر، فحرص على أن يعمل مثله فلم يمكنه أن يعمل مثل اللحن، فوجد فى نفسه نقصًا. فقال: ياسيدى، كان أخوك خليفة يغنى، وأنت خليفة لا

---

(١) السابق: نفس الصفحة.

(٢) انظر: الأغانى: جـ٥، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٣) انظر: الأغانى: جـ٩، ص٢٧٧.

(٤) انظر السابق: جـ٢٠، ص٨٣-٨٤.

تغنى، فقال: والله أهديت إلى عينى نومًا، وأمر له بألف دينار[1].

وإذا كان أبو الفرج قد أفرد فى كتابه صفحات كثيرة عن أغانى الخلفاء[2] وأولاد الخلفاء فإنه لم ينس الأمراء والقواد الذين كانت لهم صنعة فى هذا الفن، وتوقف عندهم طويلاً، مبينًا ما خلّفوه من آثار فى هذا المضمار. لم ينس عبد الله بن طاهر، وابنه عبيد الله، ولم ينس القائد المشهور أبا دلف، وغير هؤلاء كثير.

أنستطيع - إذن - أن نقول: إن العصر العباسى كان عصر الغناء ؟ سوف نجد إجابة عن هذا التساؤل فى الفصل الذى خُصَّ بدراسة «الغناء» فى هذا العصر.

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نستشف الإجابة فيما نعرض له هنا من حيث ما يتصل بالمغنين كفئة شكلت - مع غيرها من الشعراء - طبقة تميزت عن غيرها من الطبقات.

لقد لاحظنا اشتراك كثير من عناصر المجتمع فى الغناء، ويأتى فى مقدمتهم: الخلفاء وأولادهم والوزراء والكتاب والقواد، فضلاً عن الجوارى والقيان اللائى أسهمن بنصيب كبير؛ لأنهن يشاركن هؤلاء جميعًا حياتهم بصورة أو بأخرى.

واللافت للنظر أن كثيرًا من هؤلاء كانوا شعراء؛ ولهذا دلالته فى امتزاج الشعر بالغناء !.

ويلفت نظرنا ما كانت عليه هذه الفئة من ثقافة واسعة، وأداء متميز، ومن ثم كان لها هذا الحضور المؤثر فى سائر الأنحاء فى ذلك العصر.

والواقع أن كثيرًا من التراجم فى كتاب الأغانى[3]، لتلفت الدارس إلى ذلك الإعداد الجيد المتقن لأصحابه، يتعهده ويقوم عليه خبراء من ذوى الاختصاص والعلم به، وهذا جانب سنتحدث عنه فيما بعد. ويعنينا - هنا - تلك المنزلة التى كان عليها من عرفوا به، وأسهموا فيه بنصيب كثير أو قليل.

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٨، ص٣٦٣.

(٢) انظر: الأغانى. جـ٩ ص٢٥٠ وما بعدها؛ حيث تناول أبو الفرج «أغانى الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم» وفيه يناقش المنسوب إلى الخلفاء من الأغانى، ويذكر أن أول من دُونت له صنعة منهم عمر بن عبد العزيز. ويهمنا - هنا - خلفاء بنى العباس الذين تحدث عنهم مثل: الواثق، والمنتصر، والمعتز بالله. كما أنه عرض لغير هؤلاء من أمثال: إبراهيم بن المهدى، وعُليّة أخته فى مواضع أخرى من مؤلفه.

(٣) سنتوقف عند بعضها فى معرض الحديث عن «الغناء».

ولعل وقفة عند ما أورده أبو الفرج عن «دنانير» تبرز لنا هذه المكانة؛ يقول: «كانت دنانير لرجل من أهل المدينة، وكان خرّجها وأدبها، وكانت أروى الناس للغناء القديم، وكانت صفراء صادقة الملاحة، فلما رآها يحيى وقعت بقلبه فاشتراها»[١].

ويقول: «كانت دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكى وكانت صفراء مولّدة، وكانت من أحسن الناس وجهًا، وأظرفهن وأكملهن أدبًا، وأكثرهن رواية للغناء والشعر، وكان الرشيد لشغفه بها يكثر مصيره إلى مولاها ويقيم عندها ويبرها ويفرط، حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته، فعاتبوه على ذلك»[٢].

وكان لها كتاب فى الأغانى مشهور، وقد خرجتها بَذل فاعتمدت في غنائها على ما أخذته عنها، كما أخذت عن الأكابر الذين أخذت عنهم بذل أمثال: فليح، وإبراهيم، وابن جامع، وإسحاق، ونظرائهم[٣].

فإذا ما تركنا أخبار «دنانير» إلى أبى حفص «الشطرنجى»[٤] وجدناه يتربى فى ظل الخلافة؛ حيث نشأ فى دار المهدى، ومع أولاد مواليه، وكان كأحدهم، وتأدب، وكان لاعبًا بالشطرنج مشغوفًا به، فلقب به. فلما مات المهدى انقطع إلى عُليّة ابنته وخرج معها لما زوجت، وعاد معها لما عادت إلى القصر، وكان يقول لها الأشعار فيما تريده من الأمور وربما انتحلت بعض ذلك[٥].

ويحدثنا محمد بن الجهم البرمكى عنه، فيقول: «رأيت أبا حفص الشطرنجى الشاعر، فرأيت منه إنسانًا يلهيك حضوره عن كل غائب، وتسليك مجالسته عن عموم المصائب، قربه عُرس وحديثه أنس، جده لعب، ولعبه جد، ديِّن ماجد، إن لبستَه على ظاهره لبست

(١) الأغاني: جـ١٨، ص٦٧.
(٢) الأغاني: جـ١٨، ص٦٥.
(٣) انظر: السابق نفس الصفحة. بَذْل صفراء مولدة من مولدات المدينة، ورُبِّيت بالبصرة وكانت من أحسن الناس غناءً فى دهرها، ولها كتاب فى الأغانى منسوب الأصوات يشتمل اثنى عشر ألف صوت، وكانت حلوة الوجه ظريفة، ضاربة متقدمة، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة. الأغانى: جـ١٧، ص٧٥.
(٤) أبو حفص: عمر بن عبد العزيز، مولى بنى العباس، وكان أبوه من موالى المنصور، وكان اسمه اسمًا أعجميًا، فلما نشأ أبو حفص وتأدب، غيرَّه وسماه عبد العزيز. انظر: الأغانى: جـ٢٢. ص٤٤.
(٥) انظر: السابق: نفس الصفحة.

موموقًا لا تمله، وإن تتبعته لتستبطن خبرته وقفت على مروّة لا تطير الفواحش بجنباتها، وكان فيما علمته أقل ما فيه الشعر»[١].

ولقد مكن هذا الفن لأصحابه حياة حافلة بالثراء والجاه، وهيأ لهم من المكانة ما جعل كثيرًا منهم ينادمون الخلفاء، ويجالسون الكبراء، ويحيون حياة القصور بما فيها من ترف ورغد.

فمن أخبار «دنانير» أن الرشيد كان يسير إلى منزلها فيسمعها، حتى ألفها واشتد عجبه بها، فوهب لها هبات سنية منها: أنه وهب لها فى ليلة عيد عقدًا، قيمته ثلاثون ألف دينار فرد عليه فى مصادرة البرامكة بعد ذلك[٢].

ومن أخبار «شارية»[٣] أن الخليفة الواثق كان يسميها «ستى»[٤] وكان المعتمد قد وثق بشارية، فلم يكن يأكل إلا طعامها[٥].

ويروى جحظة أنه كان عند المعتمد يومًا، فغنته شارية بشعر مولاها إبراهيم بن المهدى ولحنه، فقال لها: أحسنت والله. فقالت: هذا غنائى وأنا عارية فكيف لو كنت كاسية ؟ فأمر لها بألف ثوب من جميع أنواع الثياب الخاصية، فطلب على بن يحيى المنجم أن يكون انصرافه معه، ففعل، فسأله: هل بلغك أن خليفة أمر لمغنية بمثل ما أمر به أمير المؤمنين لشارية ؟ فقال: لا . فأمر بإخراج سير الخلفاء، فتصفحاها كلها، فما وجدا أحدًا قبله فعل ذلك[٦].

إن هذه الأخبار وغيرها - مما يشبهها - لتدل على ما كانت تنعم به هذه الفئة فى ظل خلفاء بنى العباس، وفى الوقت نفسه على ما كان عليه هؤلاء الخلفاء من إسراف وتبذير.

---

(١) الأغانى: جـ٢٢، ص٤٤-٤٥.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٨، ص٦٧.

(٣) كانت شارية من مولدات البصرة، يقال إن أباها كان رجلاً من بنى سامة بن لؤى بن غالب، المعروفين ببنى ناجية، وأنه جحدها، وكانت أمها أمة، فدخلت فى الرق. وقيل بل سرقت فبيعت، فاشترتها امرأة من بنى هاشم، فأدبتها، وعلمتها الغناء، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدى، فأخذت غناءها كله أو أكثره عنه، وقد ألف ابن المعتز كتابًا عنها الأغانى: جـ١٦، ص٣-٤.

(٤) انظر: الأغانى: السابق: ص١٢.

(٥) انظر: السابق: ص١٤.

(٦) انظر الأغانى: جـ١٦، ص ١٤ ـ ١٥.

ومع ذلك قد نجد بعض المغنين يشكو من حاله التى عليها، على الرغم من أنه أوتى حظًا عظيمًا من ذلك الثراء والجاه. (فعلويه) - وهو من هو شهرة ومكانة - كان مع المأمون لما خرج إلى الشام - فدخلوا دمشق، وجعل يطوف على قصور بنى أمية ويتتبع آثارهم، فدخل صحنا من صحونهم، فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله، وفيه بركة ماء، يدخلها ويخرج منها من عين تصب إليها، وفى البركة سمك وبين يديها بستان على أربع، زواياه أربع سَرَوات، كأنها قصت بمقراض، فاستحسن ذلك، فطلب طعامًا خفيفًا وشرابًا، وأقبل على علوية، وقال: غننى ونشطنى، فكأن الله ـ عز وجل ـ أنساه الغناء كله إلا هذا الصوت:

لو كان حولى بنو أمية لم　　　تنطق رجالٌ أراهُم نطقوا

فنظر إليه مغضبًا وقال: «عليك وعلى بنى أمية لعنة الله ! ويلك ! ألم يكن لك وقت تذكر فيه بنى أمية إلا هذا الوقت تعرّض بى ! فتحيلت عليه وعلمت أنى قد أخطأت، فقلت، أتلومنى على أن أذكر بنى أمية ! هذا مولاكم زرياب عندهم يركب فى مائتى غلام مملوك له، ويملك ثلاثمائة ألف دينار وهبوها له سوى الخيل والضياع والرقيق، وأنا عندكم أموت جوعًا»[1].

وعلى الرغم من تلك المكانة التى حظى بها من ينتسب إلى هذا الفن من أمثال إسحاق الموصلى وغيره، فإنه من الملاحظ أن بعضًا منهم كان يكره أن يشيع عنه ذلك. فهذا إسحاق يقول عنه أبو الفرج بعد أن يذكر أنه «إمام أهل صناعته جميعهم ورأسهم ومعلمهم»: «على أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدهم بغضًا لأن يُدْعى إليه، أو يسمى به. وكان يقول: لوددت أن أضرب - كلما أراد مريد منى أن أغنى، وكلما قال قائل: إسحاق الموصلى المغنى - عشر مقارع، لا أطيق أكثر من ذلك، وأُعْفَى من الغناء ولا ينسبنى من يذكرنى إليه»[2].

وقريب من هذا الكلام ما يورده أيضًا فى شأن عبد الله بن طاهر على لسان عبيد الله حين كان يتحدث عن «صوت» صنعه أبوه، من أنه لما صنع هذا الصوت لم يحب أن

(١) الأغانى: جـ١١ ص٣٥٦-٣٥٧. وهو - هنا - يشير إلى ذهاب زرياب - وهو على بن نافع المغنى مولى بنى العباس = إلى الأندلس حيث أكرمه الأمويون هناك، حاشية (٧) جـ١١ ص٣٥٦.
(٢) الأغانى: جـ٥، ص٢٦٨.

يشيع عنه شيء من هذا، ولا ينسب إليه؛ لأنه كان يترفع عن الغناء وماجسَّ بيده وترًا قط، ولا تعاطاه، ولكن كان يعلم من هذا الشأن بطول الدربة وحسن الثقافة ما لا يعرفه كبير أحد[1].

فهل كان هذا لعراقة أصلهم ونباهة شأنهم، وعلو منزلتهم ؟ لكنا نعرف أن الغناء - فى هذا العصر - قد ارتقى ارتقاءً محمودًا، وارتفع شأنه فى النفوس حتى أقبل أبناء الخلفاء، وعلية القوم على تعلمه وإتقانه. أغلب الظن أن إسحاق وعبد الله بن طاهر قد تمثلت فى كل منهما صفات أخرى يود كلٌّ منهما أن لو عرف بها وشهر، ويخشى أن تطغى هذه الصفة (الغناء) وتشيع على الألسنة فلا يعرف إلا بها، وتتوارى الصفات الأخرى كالشجاعة، والعلم، والحلم، والوفاء، وما إلى ذلك من صفات تعلى من شأن صاحبها، وتضعه فى مكانه الصحيح.

الرقيق والجوارى والغلمان

كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة لعوامل كثيرة ساعدت على ذلك من أبرزها: كثرة من كانوا يؤسرون فى الحروب، وشيوع تجارته حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى «شارع الرقيق»[2].

ومن الملاحظ أن رقيق النساء من الجوارى كان أكثر من رقيق الرجال، ومن ثم فقد عمرت بهن الدور والقصور، إذْ أحل الإسلام للشخص أن يمتلك من الجوارى ما شاء، وبينما قيد حريته فى الزواج من الحرائر، فحرم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع، أطلق حريته إزاء الجوارى، فلم يقيده بعدد منهن، وإن كان قد حرّم عليه بيع من يستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته، وجعل أولاده منها أحرارًا منذ ولادتهم[3].

وكانت هؤلاء الجوارى من أجناس مختلفة؛ فمنهن السنديات والفارسيات والروميات، والحبشيات والخراسانيات، والأرمنيات والتركيات؛ ولهذا فقد كان

(١) انظر الأغانى: جـ١٢، ص١١١-١١٢.
(٢) انظر: المسعودى: مروج الذهب جـ٣، ص٤٩٣. وانظر: د٠ شوقى ضيف - السابق: ص٥٦.
(٣) انظر: د٠ شوقى ضيف: السابق، نفس الصفحة.

الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر - وربما كان للحجاب دخل فى ذلك؛ فقد كانوا لايرون شيئًا ممن يريدون الافتران بهن من الحرائر، على العكس من الجوارى اللائى كن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم[1].

ومع التوسع فى استيلاد الإماء من غير العرب، وشيوع تملكهن ظهرت آثارهن واضحة فى ذلك التحول الذى حلّ بالمجتمع العربى إبان العصر العباسى، وهى آثار امتدت إلى قصور الخلافة؛ إذ كان أكثر الخلفاء من أبنائهن كما ذكرنا من قبل[2].

وقد أخذ الجوارى يكثرن فى القصر منذ خلافة المهدى، ويقال إنه اشترى «مكنونة» وهى جارية مغنية بمائة ألف درهم فغلبت عليه، حتى كانت الخيزران تقول: ما ملك امرأة أغلظ علىّ منها. وقد ولدت له عُلية[3]. وقد استكثر الرشيد وزوجته زبيدة من الجوارى؛ حتى قيل إنه كان عند كل واحد منهما زُهاء ألفى جارية فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر[4].

وكان قصر الأمين يزخر بالجوارى الغلاميات اللائى يلبسن لبس الغلمان[5]، وزخر قصر المأمون بالجوارى المسيحيات، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق[6].

وطبيعى أن تمتلئ قصور الوزراء والأمراء بهن، ويفيض كتاب «الأغانى» بأخبارهن وبخاصة (المغنيات) منهن فى تلك القصور، وفى دور النخاسة والقيان[7]، ويصور كيف

---

(١) انظر: السابق نفسه.

(٢) انظر: الفصل الخاص بالشعوبية من هذا البحث.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٠، ص١٦٢.

(٤) انظر: السابق: ص١٧٢.

(٥) انظر المسعودى: جـ٤، ص٢٤٤.

(٦) انظر: الأغانى. جـ٥ ص٣٨٨؛ جـ٧ ص٢٩٨؛ جـ ١٢ ص٥١.

(٧) يروى أبو الفرج: أنه كان فى الكوفة صاحب قيان يقال له: ابن رامين، قدمها من الحجاز، فكان من يسمع الغناء، ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنه، مثل: يحيى بن زياد، وشراعة بن الزندبوز، ومطيع بن إياس، وغيرهم، وكان لابن رامين جوار يقال لهن، سلامة الزرقاء، وسعْده وربيحة. وابن رامين هذا - كما يذكر أبو الفرج أيضًا - هو: عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك بن بشر بن مروان. انظر الأغانى: جـ١١، ص٢٦٤. ويروى أن إسماعيل القراطيسى كان مألفًا للشعراء مثل: أبى نواس وغيره؛ يجتمعون عنده،

كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء، والجوارى يستصبين قلوبهن، وتنشأ بين الطرفين علاقات الحب والغرام.

راجت - إذن - تجارة الجوارى والقيان، ووجد هناك «المقيِّنون» وهم الذين يتولون إعدادهن وتعليمهن فن الغناء، ليكنَّ فى أجمل حال، وكانوا يجنون من وراء ذلك الأرباح الطائلة، وقد جاراهم فى ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال: إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق وغيرهما وهو ما سنعرض له فيما بعد.

وعلى أية حال؛ فإن الحديث عن القيان ودورهنَّ فى الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى جدُّ متشعب. ونقتصر - هنا - على الحديث عن المنزلة التى كن يحظين بها، ثم نتناول الآثار الناجمة عن شيوع دور القيان وما شاكلها.

وفيما يتصل بمكانة هؤلاء الجوارى والقيان، فمن الطبيعى أن يؤثر قربهن أو بعدهن من الطبقة الحاكمة على تلك المكانة. بالإضافة إلى الجوانب الأخرى - كالجمال وعذوبة الصوت وقول الشعر - التى ترفع من شأنهن عند من يرغب فيهن. ونتوقف عند الأخبار التالية لنرى مدى النفوذ الذى كان يحظى به بعضهن.

فمن ذلك ما قالته جارية للواثق - وكان يهواها، وقد جرى بينهما عتب -: «إن كنت تستطيل بعزِّ الخلافة، فأنا أدِلّ بعز الحب. أتراك لم تسمع بخليفة عشق قبلك قط فاستوفى من معشوقه حقه، ولكنى لا أرى لى نظيرًا فى طاعتك. فقال الواثق: لله درُّ ابن الأحنف حيث يقول:

أما تحسبينى أرى العاشقين بلى، ثم لست أرى لى نظيرًا
لعل الذى بيديه الأمور سيجعل فى الكره خيرا كثيرًا[1]

فهذا الخبر له دلالته فى مدى تعلق الخليفة بهذه الجارية، وحبه لها، ومعرفتها ذلك؛

ويقصفون، ويدعو لهم القيان. انظر: الأغانى جـ٢٣ ص١٩٤. كما يروى أيضا عن مجلس أبى عُكل المقيِّن، وكان فيه كعب جاريته، وكان بعض أهل المجلس يهواها، فدخل سعيد بن حميد، فقام إليه أهل المجلس جميعًا سوى الجارية والفتى، فأخذ سعيد الدواة، فكتب رقعة وألقاها فى حجرها، إلى آخر الخبر. انظر: جـ١٨، ص١٥٨. ويهمنا هنا لقب «المقيِّن - الذى يجمّل الجوارى، ويهيئهن بالتعليم والتدريب ليكن قينات.

(١) الأغانى: جـ٨، ص ٣٥٨ .

وإدراكها أن هذا التعلق - بما ينطوى عليه من حب وعشق - ضعف بشرى يصيب الإنسان مهما كانت درجته.

ومما يرويه عمرو بن بانة، أنه ركب يومًا إلى دار صالح بن الرشيد، فاجتاز بمحمد ابن جعفر بن موسى الهادى - وكان معاقرًا للصبوح - فألفاه فى ذلك اليوم خاليًا منه. فسأله عن السببِ فى تعطيله إياه، فقال: «نيران» على غضبى - يعنى جارية لبعض النخاسين ببغداد - وكانت إحدى المحسنات، وكانت بارعة الجمال، ظريفة اللسان، وكان قد أفرط فى حبها حتى عُرف به. وتمضى الرواية بأن محمد بن جعفر طلب منه أن يذهب إلى مولاها، ليحضرها له، ويعطيها رقعة فيها بيتان من الشعر، يبرزان حفظه لعهدها، وتضييعها له، وذهاب جمالها بفؤاده فذهب وصنع ذلك، فرجعتْ إلى الموضع الذى أقبلت منه، فجلست جلسة خفيفة، ثم إذا بها وافته ومعها رقعة، فيها أبيات غزل، تشكو الهجر والنسيان والحيرة فيما هى فيه فأخذها، وأوصلها إليه، وصار إلى منزله فصنع فى الأبيات لحنين، ثم صار إلى الأمير صالح بن الرشيد، فعرّفه ما كان من أمره، وغناه الصوتين فأمر بإسراج دوابه، فأسرجت، وركبوا إلى النخاس، فاشتراها منه بثلاثة آلاف دينار، وحملها إلى دار محمد بن جعفر فوهبها له[1].

ونختم هذه الأخبار بما ورد عن «خالصة» (جارية من جوارى الخيزران أم الهادى والرشيد)؛ فقد كانت ذات شأن ونفوذ عظيم لقربها من سلطة الخلافة، ومما يروى فى ذلك أنها كانت فى موكب زبيدة، فوقفت على آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وقالت: يا أخى، طلبت منا حاجة فرفعناها لك إلى السيِّدة، وأمرَتْ بها وهى فى الديوان فقعدْتَ عن تنجزُّها[2].

أما الآثار التى ارتبطت بها فتتمثل فى أنها أشاعت فى المجتمع كثيرًا من ضروب الرقة والظَّرف؛ فقد جعلتهن كثرة الاختلاط بالرجال والتعامل معهم يتعوَّدْن كيف يتلطَّفْن إليهمْ وكيف يُحطْنَهُمْ بأشراك الحديث الساحر، الذى يشغف قلوبهم، ويملؤها بالعطف

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ص٨٣-٨٤.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٥، ص٢٨٩.

والحنان. وكان لذلك أثره البالغ فى الشعر والشعراء، فقد شاعت فى الكثير من معانيهم الرقة المفرطة، واللَّمحة الدالة المعبِّرة[1].

كما أن الحرص على إعدادهن بما يرفع من أثمانهن وأقدارهن انعكس فى الارتقاء بالذوق (بمعناه العام) عن طريق الغناء، وما أشاعوه فيه من ضروب الألحان والأنغام.

على أننا إذا قرنّا هذه الظاهرة بغيرها من الظواهر - كالخلاعة والمجون وما صحبهما أحيانا من زندقة - تبين لنا وجهها السلبى، وما قد ينجم عنها من ألوان العبث والإباحية، وبخاصة أن المجتمع كان يزخر آنذاك بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية، فمضى كثيرون من هؤلاء يطلقون لأنفسهم العنان، مرتكبين الآثام، متحررين من كل خلق أو دين أو عرف[2].

وكانت من أهم العوامل التى هيأت لذلك السلع التى كانت تباع وتشترى من الجوارى والقيان، وهن من أجناس وشعوب مختلفة. وهؤلاء لم يكُنَّ يشعرن - إلا فى النادر - بشىء من الكرامة، ولاكُنّ يصطنعن شيئًا من التحفظ والاحتشام. وربما دفع هذا النخاسين والمقينين إلى ابتزاز أموال السَّراة عن طريق علاقتهن بالشباب.

ومن ثم يمكن القول بأن كثرتهن تحوَّلن إلى أدوات فتنة وإغراء ومجون وعبث، وأخذن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء . وقد صور لنا الجاحظ هذه الحال مبينًا أسبابها. فهو - أولاً - يذكر أنه من الآفة عشق القيان، على كثرة فضائلهن وسكون النفس إليهن، وأنهن يجمعن للإنسان من اللذات، ما لا يجتمع فى شىء على وجه الأرض[3].

---

(١) انظر: د. شوقى ضيف. السابق، ص٦٣.

(٢) انظر: السابق: ص٧١.

(٣) كتاب القيان - ضمن رسائل الجاحظ السابق، جـ٢ ص ١٧٠. ويبين الجاحظ أن اللذات كلها إنما تكون بالحواس، وفى عشق القيان اشتراك ثلاثة من الحواس، وصار القلب لها رابعًا. فللعين النظر إلى القينة الحسناء والمشهيّة، وللمس فيها الشهوة، وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حدّق إليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، وألقى القلب إليها المِلك، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدى إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيتوافيان عند حبة القلب فيفرغان ما وعياه، فيتولد منه مع السرور خاصة اللمس، فيجتمع له فى وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له فى شىء قط. انظر كتاب القيان، السابق ص١٧٠-١٧١.

كما ذكر أن «القينة لا تكاد تخالص فى عشقها، ولا تناصح فى ودها؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين. وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة فتبكى لواحد بعين، وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطى واحدًا سرها والآخر علانيتها، وتوهمه أنها له دون الآخر، وأن الذى تظهر خلاف ضميرها. وتكتب إليهم عند الانصراف كتبًا على نسخة واحدة، تذكر لكل واحد منهم تبرُّمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم[1]».

ثم يعلل الجاحظ لذلك، رادًّا له إلى «التنشئة»، يقول: «وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يُسمع منه كلمةُ جد ولا يُرجَع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروَّة»[2].

ولعل ظاهرة الجوارى والقيان، وما ارتبط بها من دور النخاسة والمقينين تذكّر بالجزء الأخير فى هذا البحث وهو ظاهرة «الغلمان». ونتحدث عنه باعتبارين: الأول أنه يشكل ظاهرة اجتماعية لا يمكن إغفالها أو إنكارها. الآخر: أنه ربما كان من العوامل التى ساعدت على ما ذكرناه سابقًا من شيوع ألوان العبث والمجون والإباحية.

فقد شاعت فى هذا العصر آفة مزرية هى: التعلّق بالغلمان المرد. وأول من اشتهر بالغزل فيهم هو والبة بن الحباب[3]، وقد مضى يصرح بذلك فى غير مواربة ولا استحياء. ويرى البعض أنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس، بل هو فى رأى الدكتور شوقى ضيف «يتحمل وزر العصر كله، وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت، الذى يخنق كرامة

---

(١) رسائل الجاحظ: السابق جـ٢، ص١٧٥.

(٢) السابق: ص١٧٦.

(٣) والبة بن الحباب: أسدىّ صليبة، كوفى. شاعر من شعراء الدولة العباسية، يكنى أبا أسامة وهو أستاذ أبى نواس. وكان ظريفًا شاعرًا غزلاً وصّافًا للشراب والغلمان المرد. ويقرنه الجاحظ بمطيع بن إياس، وحماد عجرد، وبشار، وابن المقفع، وأبان اللاحقى، وغيرهم فى أنهم كانوا ندماء، يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضًا هزلاً وعمدًا وكلهم متهم فى دينه. انظر: الأغانى: جـ١٨، ص١٠٠-١٠١.

الشباب والرجال خنقًا»[1].

وهناك عوامل كثيرة هيأت لهذه الظاهرة، وكانت من أسباب شيوعها، يأتى فى مقدمتها: ما يراه بعض الدارسين من كثرة الغلمان الخصيان فى بغداد وغيرها من مدن العراق[2].

ويبدو لنا أن الإكثار من الرقيق والانغماس فى موجة الخلاعة والمجون - وقد ذكرنا من قبل أنها وافدة من الفرس - كانا أيضًا من عوامل شيوعها.

وهناك عدة ملاحظات تتصل بهذه الظاهرة.

أولها: أن من يقرأ كتاب الأغانى يهوله كثرة الأخبار التى تتحدث عن ذلك مما ينبئ بأنها كانت متفشية بين طبقات المجتمع، لايكاد يسلم منها أمير أو خفير كما يقال.

ثانيها: أن التعلق بالغلمان والرغبة فى تملكهم ربما يرجع إلى الفترة التى سبقت العصر العباسى ومهدت له[3].

ثالثها: أن هذه الظاهرة ربما اتخذت فى البداية شكل التعلق بالجمال، أيًا كانت صوره وأشكاله، ومنها بالطبع الغلام الجميل، ثم تطورت بعد ذلك إلى ما آلت إليه من انحراف عن الفطرة والخلق والدين. وهناك خبر عن محاورة بين إبراهيم النظام[4] وغلام حسن الوجه ربما تؤيد ذلك. يورد أبو الفرج هذا الصوت للقائد المشهور أبى دلف:

بنفسى يا جنانُ وأنتِ منى ... محلُّ الروح من جسد الجبان
ولو أنى أقول مكان نفسى ... خشيتُ عليكِ بادرةَ الزمان
لإقدامى إذا ما الخيلُ حامتْ ... وهاب كماتُها حَرَّ الطعان

---

(١) د. شوقى ضيف: السابق ص٧٣.
(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.
(٣) سبق أن ذكرنا أن كثيرًا من «الظواهر» فى العصر العباسى كانت لها جذور فى العصر الأموى، كالزندقة والمجون. وهناك أخبار كثيرة مبثوثة فى كتاب «الأغانى» تدعم ما نقول من أن التعلق بالغلمان يرجع أيضًا إلى العصر الأموى.
(٤) هو: (أبو إسحاق المعتزلى) إبراهيم بن سيّار بن هانى النظّام، أحد شيوخ المتكلمين والمعتزلة فى دولة المعتصم وكان شاعرًا أديبًا جيّد الترسل، وله مؤلفات كثيرة . انظر: ابن النديم، السابق ص٢٨٧ - ٢٨٨ .

ويعقّب عليه بأن البيت الأول أخذه من كلام إبراهيم النظّام، ثم يورد سياقه، بأن إبراهيم النظام لقى غلامًا حسن الوجه، فاستحسنه، وأراد كلامه فعارضه، فبيَّن له أنه لولا ما سبق من قول الحكماء: «لا ينبغى لأحد أن يكبر عن أن يسأل، كما أنه لا ينبغى لأحد أن يصغر عن أن يقول» – لما رجعت إلى مخاطبتك، ولا انشرح صدرى لمحادثتك، لكنه سبب الإخاء، وعقد المودة، ومحلّك من قلبى محلُّ الروح من جسد الجبان. ويرد عليه الغلام – وهو لا يعرفه – بأن أستاذه إبراهيم النظام قال: الطبائع تجاذبُ ما شاكلها بالمجانسة، وتميل إلى ما قاربها بالموافقة، وكيانى مائل إلى كيانك بكليتى. ولو كان الذى انطوى عليه عرضًا لم أعتد به وُدًّا، ولكنه جوهر جسمى، فبقاؤه ببقاء النفس، وعدمه بعدمها». ومن هذا أخذ أبو دلف قوله:

أحبك ياجنان وأنت منى محلُّ الرُّوح من جسد الجبان[1]

وهذه الملاحظة تسلمنا إلى الملاحظة الرابعة، وتتمثل فى أن بعض الشعر الذى قيل فى الغلمان – وهو كثير – يندرج تحت الغزل الرقيق، الخالى من الفحش، ويشعر القارئ له وكأن الشاعر يتغزل فيه بحسناء قد شغف بها حُبًا. ومن أمثلة ذلك ما يقوله ديك الجن فى غلام يعرف ببكْر من أهل حمص، كان يهواه، وقد جلسا يومًا يتحدثان إلى أن غاب القمر:

دع البدر فلْيغربْ فأنت له بدر إذا ما تجلَّى من محاسنك الفجرُ
إذا ما انقضى سحر الذين ببابل فطرفك لى سِحْرٌ، وريقُك لى خَمْرُ[2]
ولو قيل لى قُمْ فَادْعُ أحسن من ترى لصحْت بأعلى الصوت يا بكْرُ يا بكْرُ[3]

وفى إطار هذه الملاحظة نجد شاعرًا مثل عبد الصمد بن المعذَّل يتغزل فى «الأفشين»؛ ففى رواية محمد بن يزيد المبرد أن عبد الصمد بن المعذَّل نظر إلى الأفشين بسُرَّ من رأى،

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٨، ص٢٤٨-٢٤٩. هذا، والخبر له دلالته فى أن «الطبائع تجاذب ما شاكلها بالمجانسة، وتميل إلى ما قاربها بالموافقة» وهذه فكرة فلسفية، لعلها مستمدة من الفكر الدينى فى قوله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». كما أن الخبر يحفل بكلمات فلسفية: الحكماء – العرض – الجوهر. هذا؛ مع ملاحظة أن هناك اختلافًا فى رواية البيت الأول.

(٢) بابل: مدينة بالعراق ينسب إليها السحر والخمر.

(٣) الأغانى: جـ١٤، ص٦٠-٦١.

وهو غلام أمرد، وكان من أحسن الناس، وهو واقف على باب الخليفة مع أولاد القواد، فأنشد فيه:

أيُّها اللاحظى بطرف كليل ... هل إلى الوصل بيننا من سبيلِ
علم الله أننى أتمنَّى ... زورةً منك عند وقت المقيل
بعد ما قد غدوتَ فى القُرطُق الجَوْ ... ن، تهادى وفى الحسام الصقَيلِ

ويمضى الشاعر فى القصيدة التى تزيد عن عشرين بيتًا مزاوجًا بين الغزل والمديح مع غلبة الغزل عليها، ولكنه غزل لم يكن يألفه الذوق العربى من قبل:

ثم أجْلوكَ كالعروس على الشَّر ... ب، تهادى فى مُجْسَد مصقول[1]
ثم أسقيك بعد شُربى من ريـ ... قكَ كأسًا من الرحيق الشَّمول[2]

فهل كان هذا نتاج الترف، أم كان نتاج تبدُّل فى الذوق نجم عن احتكاك العرب بغيرهم من الأمم والشعوب، وظهر أثر هذا فى نتاجهم الشعرى ؟

وعلى كلٍّ فمع شيوع الترف، وما اتصل به من خلاعة ومجون، وزندقة فى بعض الأحيان ومع الاحتكاك بالأجناس الأخرى - وبخاصة الفارسىّ منها - بدأت تتسرّب للحياة الاجتماعية ظواهر غريبة عن المجتمع العربى، منها: الغزل بالمذكر. وإمعانًا فى الترف الذى قد يفسد صاحبه وجدنا أخبارًا كثيرة[3] عن هذا اللون من الغزل بما ارتبط به من سلوك شاذ، تأباه الفطرة السليمة[4].

الطبقة المتوسطة

ظهرت الطبقة المتوسطة فى العصر العباسى مرتبطة بما ظهر من عوامل اقتصادية

---

(١) المجسد: الثوب المعصفر بالزعفران.
(٢) انظر: الأغانى: جـ١٣، ص٢٤٧-٢٤٨. الشمول: الباردة.
(٣) انظر ـ على سبيل المثال - الأغانى، جـ١٤، ص٦١-٦٢.
(٤) لم يشأ البحث أن يتوسع فى الحديث عن هذا الجانب، فأخباره كثيرة متناثرة فى أجزاء الأغانى، وبحسبه ما ذكر منه. ولمزيد من الشواهد انظر: جـ١٨ ص١٥٦. وانظر أيضا: الأغانى جـ٢٣، ص٩٨ .

جديدة فى المجتمع العربى. ومن المعروف أن هذه الطبقة تمثل عصَب المجتمع؛ إذ هى المسئولة عن تماسك الطبقات الأخرى، وهى - أيضًا - المسئولة عن نمو المجتمعات العمرانية. إلا أنه من الملاحظ أنها اصطدمت بالنظم الإدارية المركزية مما أدى إلى تفككها وانهيارها. وربما كان هذا من أسباب «تعميق الهوة بين الفقر والغنى بما أدى إليه من صراع طبقى استغلته بعض الفئات الطامحة»[1].

والدارس لهذه الطبقة يجد أنها تتكون من مستويين: الأول كان يدور فى فلك قصور الخلفاء وأصحاب السلطان من ذوى الشأن، مثل: الحجّاب، وأصحاب المصلّى، وبعض الولاة والأطباء. والثانى: يتمثل فى التجار وأصحاب الحرف، والنخاسة، والخفارة، وغيرهم مما هو مبثوث فى كتاب الأغانى، وجرى ذكره عرضًا لمناسبة ما. ولعل ما أورده الجاحظ خاصًا «بالحُجّاب» يمثل الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها الحاجب[2]؛ فقد ذكر «ما قاله بعضِ الخلفاء لحاجبه»، وفيه: «إذا جلست فأذنِ للناس جميعًا علىّ، وأبرز لهم وجهى، وسكِّن عنهم الأحراس، واخفض لهم الجناح، وأطِبْ لهم بشرك، وألن لهم فى المسألة والمنطق، وارفع لهم الحوائج، وسوِّ بينهم فى المراتب، وقدّمهم على الكفاية والغناء، لا على الميل والهوى[3]».

من هنا نجد فى النماذج الواردة فى «الأغانى» من يمتلك القدرة على مواجهة الأمور وتصريفها بحكمة، مثل: حاجب القائد العربى يزيد بن مزيد الشيبانى، الذى حجب

---

(1) انظر: شكرى عياد: الحضارة العربية: ص٣١، حيث يذكر هذا فى معرض كلامه عن أن الفضل الأكبر فى التقدم السريع الذى تحقق خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين يرجع إلى هذه الطبقة النامية طبقة البرجوازية، مما أدى إلى تطور فى شتى مجالات الحياة المادية والفكرية، ولكنها اصطدمت بالنظم الإدارية المركزية، فأدى ذلك إلى تفككها وانحدارها عكس البرجوازية الأوروبية؛ لأنها خلقت الحكومة المركزية فنمت بنموها.

(2) للجاحظ رسالة بعنوان: «كتاب الحجّاب» جمع فيها ما جاء فى الحجاب من خبر وشعر، ومعاتبة وعُذر، وتصريح وتعريض. وفى بداية الكتاب يذكر «ما جاء فى الحجاب والنهى عنه» ويروى أولاً عن النبى - ﷺ - أنه قال: «ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بأمانته وأمره: إذا عدل فى حكمه، ولم يحتجب دون غيره، وأقام كتاب الله فى القريب والبعيد» - ثم يروى عنه ﷺ أنه وجه على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ إلى بعض الوجوه فقال له فيما أوصاه به: «إنى قد بعثتك وأنا بك ضنين فابرز للناس، وقدِّم الوضيع على الشريف، والضعيف على القوى والنساء قبل الرجال، ولا تدخلنَّ أحدًا يغلبك على أمرك، وشاور القرآن فإنه إمامك». جـ٢، ص٣٠. ثم يتبع هذا بذكر سياسة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فى هذا الشأن وأنه كان يحذر عماله من اتخاذ الحجاب. انظر: رسائل الجاحظ. السابق: جـ٢، ص٢٩-٣١.

(3) السابق: ص٣٣.

عنه مسلم بن الوليد لمعرفته بضائقة سيده المالية[1]؛ وحاجب داود بن يزيد بن حاتم المهلبى، الذى كان معه أدب يفهم به ما يسمع - كما يقول أبو الفرج - وقد أذن لراوية مسلم بن الوليد فى الدخول بعد ما سمع منه، وعلم أنه يقول شعرًا حقيقيًا مميزًا[2]، وكذلك حاجب محمد بن سليمان أمير البصرة الذى خشى لسان بشار بن برد فأذن له بالدخول[3].

وهناك صاحب الوضوء، وصاحب المصلى، وصاحب العذاب، وصاحب البريد؛ فهؤلاء جميعًا مرتبطون بالقصر، فصاحب الوضوء هو الموكل بوضوء الخليفة، وصاحب المصلى هو المسئول عن إقامة الصلاة بالقصر[4]، أما صاحب البريد فهو المسئول عن نقل البريد والأخبار والناس من وإلى القصر، يضاف إلى هؤلاء صاحب العذاب وهو المسئول عن تأديب المعارضين والمجرمين؛ فمن ذلك ما ورد عن مساور، الذى ولاه عيسى بن موسى عملاً فانكسر عليه الخراج، فدفع به إلى بَطين صاحب عذاب عيسى ابن موسى يستأديه[5].

ومن المرتبطين بالقصر أيضًا عمال العشور والصدقات؛ ومنهم غَيلان جد عبد الصمد بن المعذَّل؛ وقد استعمله محمد بن أبى العباس وهو يلى البصرة على بعض أعشار البصرة فظهرت منه خيانة فعزله وأخذ ما خانه منه[6].

ونجد فئة مضحكى القصر كحاتم الرِّيش الضراط[7] وأبى العبر الذى كان يقول الشعر الصالح فى بداية حياته إلى أن ولى المتوكل الخلافة فاشتهر بالحمق وترك الجد، وهذه الحالة من الحالات التى تندرج تحت ما يمكن أن يسمى بالتحايل على الرزق، ومحاولة التكسب، ويذكر أبو الفرج أنه كسب بالحمق أضعاف ما كسبه كثير من الشعراء بالجد[8].

---

(١) انظر: الأغانى: جـ١٩، ص٣٦.
(٢) انظر: السابق: ص٤٣-٤٤.
(٣) انظر: الأغانى: جـ٣، ص١٦٧.
(٤) انظر: الأغانى: جـ١٤، ص٣٤٠.
(٥) انظر: السابق: جـ١٨، ص١٥٠.
(٦) انظر: الأغانى: جـ١٤ - ص٣٦١-٣٦٢.
(٧) انظر: الأغانى: جـ٧، ص٢٠٥.
(٨) انظر: الأغانى: جـ٢٣، ص١٩٧.

ومن الأطباء: خصيب الطبيب النصرانى الذى سقى محمد بن أبى العباس شربة دواء مرض منها، ثم مات فى بغداد على أثرها واتهم به فحبس حتى مات[1].

فإذا ما انتقلنا إلى المستوى الثانى فإننا نجده متمثلاً فى التجار وأصحاب المهن. والتجارة تتنوع؛ ومن ذلك النخاسة؛ والنخاس هو المسئول عن بيع الجوارى وشرائهن؛ ومنهم أبو عمير نخاس الكرخ، ويقال كان له جوار ذوات أدب وظرف[2].

ومما يندرج فى هذا الباب ما كان يقوم به عيسى بن سليمان بن على صاحب المزارع السمكية حيث يذكر لنا أبو الفرج بأن عيسى هذا كان مبخَّلاً، وكانت له محابس يحبس فيها البياح ويبيعه. كما كان أول من جمع السماد بالبصرة وباعه[3].

ومن المهن التى تلفت نظرنا مهنة (الإسكافى)؛ ففى خبر عن ابن أبى حشيشة أن أول من اصطنعه بنو الجنيد (الإسكافيون)، وأول منزل ابتاعه كان من أموالهم[4].

بقى أن نشير إلى أن فئة التجار - وإن كانت تتمتع بالثراء وتملك المال - لم تصل فى مكانتها إلى طبقة الكتاب والوزراء. وخبر محمد بن عبد الملك الزيات يدل على هذا؛ حيث كان أبوه من تجار الكرخ المياسير، فكان يحثه على التجارة ولكنه كان يأبى إلا الكتابة وقصد المعالى[5].

طبقة المهمشين (العامة)

لم تأل الخلافة العباسية جهدًا فى محاولة تقريب الفجوة بين طبقات المجتمع ومساواة الموالى بنظرائهم العرب، إلا أن فوضى الاقتصاد الناتج عن الفساد الإدارى أوجد لنا

---

(١) انظر: الأغانى: جـ١٤، ص٣٧٦-٣٧٧. ومن هؤلاء (يحيى بن مَاسَوَيْه) حيث يذكر أبو الفرج فى معرض حديثه عن وفاة (علويه)، أنه أصابه جرب، فشكا إلى يحيى ابن ماسويه فبعث إليه بدواء مسهل وطلاء، فشرب الطلاء، واطلى بالدواء المسهل فقتله ذلك. انظر الأغانى: جـ١١، ص٣٣٣.
(٢) انظر: الأغانى: جـ٢٣، ص٤٠.
(٣) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ص٨٤ و«البياح» (ككتاب، وكتّان): ضرب من السمك.
(٤) انظر: الأغانى: جـ٢٣، ص٧٨، ويبدو أن هذه المهنة وصلت من الانتشار والإقبال عليها حدًا جعل أسرة كاملة، مثل أسرة بنى الجنيد، تقبل عليها وتمتهنها.
(٥) انظر: الأغانى: جـ٢٣، ص٤٦.

فروقًا طبقية هائلة بين بسطاء الشعب والقريبين من دار الخلافة، ولذلك نجد ثورات العامة وحركات الصعاليك، وإغارات القبائل[1]. كل هذه الإغارات، والحركات، والثورات - وإن أتت عرضًا فى كتاب الأغانى - لها دلالتها على حياة البؤس التى كانت تحياها هذه الطبقة؛ إذ يتجلى الفرق واسعًا بين طبقات تنعم بالدنانير والدراهم، وفئات لا تملك إلا أن تتطفل على تلك الطبقة، أو تثور عليها، أو تقطع الطريق من أجل الحياة.

ويتجلى البون شاسعًا بين الطبقات العليا وهذه الطبقة فى قصة ناهض بن ثومة الكلابى الأعرابى الذى مضى - فى عدة صفحات من الأغانى - يصور لنا حاضرة بغداد، وما شاهده من ألوان الطعام والمعازف والملابس الملونة فى حفل عرس رآه وليس معتادًا عليه فى البادية[2].

وقد أدى هذا الفرق الشاسع بين البادية والحاضرة، إلى إغارات القبائل بعضها على بعض؛ ومن تلك الغارات: غارة عشيرة أبى مالك النضر بن أبى النضر التميمى، فقد قطعوا الطريق على بعض القوافل، فخرج عامل ديار مضر، وكان يقال له (جيّال) فقصدهم وهم غارون، فأخذ منهم جماعة، وكان فيهم طوائف من بنى تميم فكان فيمن أخذ أبو النضر أبو أبى مالك الأعرج، وكان ذا مال فطلب فيمن طلب[3].

كما أن ظاهرة الصعاليك استمرت أيضا خلال العصر العباسى؛ ومن المعروف أن هذه الفئة كانت تبحث عن العدل الاجتماعى ولكن بطريقتها الخاصة: بالسلب والنهب. ومن الغريب أن نجد شخصًا له شهرته كدعبل بن على الخزاعى يتشطر فى أول حياته بالكوفة، وكان يُصلت على الناس بالليل (أى: يجرد السيف عليهم)، وقد

---

(١) انظر: د. محمود إسماعيل: المهمشون فى التاريخ الإسلامى، رؤية للنشر والطباعة، القاهرة ٢٠٠٤م. ص١٩.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٣، ص١٧٨-١٨١.

(٣) انظر: الأغانى: جـ٢٢، ص٢٥٣. وغارون بمعنى: «غافلون».

قتل رجلاً صيرفيًا وهو شاب[1]. وربما كان مرد ذلك إلى طبيعته الهجاءة وخبث لسانه؛ ومن ثم لم يسلم منه أحد حتى الخلفاء، ولذا فقد عاش طريدًا فى حياته، وكان يقول: أنا أحمل خشبتى منذ أربعين عامًا فلا أجد من يصلبنى عليها[2].

وقد مكنته صفات الشطارة التى يحملها داخل نفسه من أن يفهم نفوس الناس؛ إذ لما سئل عن سبب اتجاهه للهجاء قال: إنى «وجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة، ولا يبالَى بالشاعر وإن كان مجيدًا إذا لم يُخَفْ شره، ولَمن يتقيك على عرضه أكثرُ ممن يرغب إليك فى تشريفه. وعيوب الناس أكثر من محاسنهم»[3].

وتوجب الجماعات الخارجة أمثال الشراة والصعاليك حقًا لبعضهم على بعض؛ فمن أخبار دعبل: أنه كان يخرج فيغيب سنينَ ويرجع وقد أثرى وكانت الصعاليك والشراة تلقاه فلا تؤذيه، ويؤاكلونه ويشاربونه. وكان إذا شاهدهم وضع طعامه ودعاهم إليه، ودعا بغلاميه يغنيان لهم ويسقيهم ويشرب معهم[4].

هذا؛ وقد يستفحل خطر هؤلاء الشطار والصعاليك، مما يلجئ أولى الأمر إلى أن يستعينوا عليهم بالقادة الكبار من أمثال أبى دلف؛ إذ يقال: إن قرقورا الصعلوك «كان من أشد الناس بأسًا وأعظمهم؛ فكان يقطع هو وغلمانه على القوافل وعلى القرى، وأبو دلف يجتهد فى أمره فلا يقدر عليه»[5].

ويرتبط بهذا خروج بعض الأعراب فى حالة من الفوضى للقتل والسلب والنهب، فقد خرج أحمد بن صدقة إلى الشام لما بلغه موت ابنته فخرجت عليه الأعراب، وقتلوه وسلبوا ما معه من الأموال[6].

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ص١٣٢.
(٢) السابق نفس الصفحة.
(٣) الأغانى: جـ٢٠، ص١٢٥.
(٤) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ص١٣٦.
(٥) الأغانى: جـ٢٠، ص٢١.
(٦) انظر: الأغانى: جـ٢٢، ص٢١٥ . هذا؛ وأحمد بن صدقة بن أبى صدقة، كان أبوه حجازيًا مغنيًا، قدم على الرشيد وغني له، وكان طنبوريًا محسنًا مقدمًا حسن الغناء محكم الصنعة، اتصل بالمتوكل وغناه فاستحسن غناءه وأجزل صلته . انظر: الأغانى، السابق، ص٢١٢.

ولما بويع لإبراهيم بن المهدى ببغداد، وقلّ عنده المال، خرجت عليه الأعراب وأوغاد الناس، وقد احتبس عنهم العطاء، فخرجوا فيما يشبه الثورة حتى خرج إليهم رسوله، فصرح لهم بأن إبراهيم لا مال عنده، فما كان منهم إلا السخرية اللاذعة التى لا تخرج إلا فى أشد الأوقات مرارة، وتكون مرآة صادقة للحقيقة الموجعة؛ فقد قالوا له: أخرج إلينا خليفتنا يغنىّ لهذا الجانب ثلاثة أصوات، ولهذا الجانب ثلاثة أصوات، فيكون هذا عطاءنا[1]. تلك السخرية اللاذعة توضح شظف العيش الذى كانت العامة تعيش فيه بينما الطبقة الحاكمة لاهية بمعازفها وأغانيها ونعيمها.

وهناك فئة ربما ألجأتها حياة الحرمان والبؤس إلى أن تضع نفسها حيث تطلبها الدولة فى حروبها ومواجهة أعدائها الخارجين عليها؛ وهى فئة الجند المرتزقة من أمثال أبى عيينة (أبى المنهال) الذى يقول عنه أبو الفرج: إنه كان جنديًا فى عداد الشطار[2]. ومنهم المؤمل بن أميل بن أسيد المحاربى من مخضرمى شعراء الدولتين، وكانت شهرته فى الدولة العباسية أكثر، لأنه كان من الجند المرتزقة[3].

أخيرًا؛ هناك فئة لم تستطع أن تنتفع بنفسها فى عمل من الأعمال فما كان منها إلا أن تحايلت على رزقها بأن تطفلت على الفئة الأعلى منها، واتسمت صفاتها النفسية بالظرف والفكاهة، وسماهم المجتمع المتطفلين، ومنهم عثمان بن الدرّاج[4].

هذا؛ ويبدو لنا من هذا الفصل أنه لم يحدث تغيّر فى عناصر السكان فى هذا العصر، ولكن مع التطور الكبير للدولة العباسية، وحركة التغيير التى واكبت هذا التطور أصبح لبعض هذه العناصر تفوذ فى توجيه شئون الدولة، وبخاصة تلك العناصر التى أسهمت فى قيامها كالعنصر الفارسى . من هنا يمكن القول إن الطبيعة العربية التى كانت صبغة للدولة الأموية قد تغيرت، وتغيرت معها أمور كثيرة .

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) انظر: الأغانى: جـ٢٠، ص٨١.

(٣) انظر: الأغانى: جـ٢٢، ص٢٤٥ . هذا؛ ومن الملاحظ أن مصطلح المرتزقة فى ذلك الوقت كان مفهومه مخالفًا لمفهومه لدينا الآن؛ حيث كان يعني: الجنود النظاميين الذين يتقاضون «رزقًا» دوريًا من بيت المال.

(٤) انظر فى تطفله: الأغانى: جـ١٦، ص٢٥١ -٢٥٢، وانظر أيضا: جـ١٣ ص٢٣١-٢٣٢ فى تطفل من يُكنى بأبى سلمة، وكيف أنه كان إذا بلغه خبر وليمة لبس لبس القضاة، وأخذ ابنيه معه، وعليهما القلانس الطوال، والطيالسة الرقاق: فيتقدمانه بالدق على الباب، معلنين قدوم أبى سلمة ! .

فلم يعد هناك حرص على نقاء الدم العربى فى من يتولى الخلافة (كما كان فى الدولة الأموية)؛ إذ كان كثير من خلفاء بنى العباس من أمهات أولاد . ولم يعد الشعور بالزهو والسيادة شائعًا فى هذا العصر وبخاصة بعد أن أسهم الموالى بجهد واضح فى قيام الدولة، وتولى كثير منهم مناصب مهمة فيها، ومشاركتهم فى أوجه النشاط المختلفة، ومن ثم أصبحوا جزءًا من النسيج العام للمجتمع .

وانعكست حركة التطور والتغيير هذه على الطبقات الاجتماعية التى كان يتكون منها المجتمع العربى آنذاك؛ فمن طبقات تنعم بالثراء والترف وحياة القصور إلى طبقات تحيا حياة الحرمان والبؤس، وربما ألجاتها الظروف إلى أن تسلك سبلا تضعها مع المارقين والخارجين على أمور الدولة، وفى هذا كله يبدو التفاوت البيّن بين هذه الطبقات وما أدى إليه من صراع، على الرغم مما قد يبدو على السطح من مظاهر البذخ والرخاء .

وفى هذا السياق لاحظت الدراسة الخيوط التى تربط بين بعض الجماعات لتشكل منها طبقة: طبقة (الوزراء والقواد والكتّاب)، وطبقة (الشعراء والمغنين)، وقبل ذلك تأتى (الطبقة الحاكمة)، وفى أدنى السُّلَّم الاجتماعى تأتى طبقة المهمشين (العامة) . وفى كل ذلك كشفت الدراسة عن موقع كلٍّ، ودورها فى حركة المجتمع . كما أبانت عن مظاهر الثراء الذى أحاط بكثير من تلك الطبقات، ولم تغفل مظاهر الحرمان والفقر الذى حلّ (بالعامة) .

وقد تبين لنا من الدراسة ما كانت تنعم به فئات (الوزراء والقواد والكتاب) وكذلك فئات (الشعراء والمغنين) من مكانة كبيرة، وحياة تتسم بالثراء الواسع، والجاه العريض.

على أن كثرة الرقيق والغلمان والجوارى فى هذا العصر أشاعت فى المجتمع كثيرًا من ضروب الرقة والظرف، وربما اختلط ذلك بلون من الخلاعة والمجون .

وقد كشفت الدراسة عن العوامل التى ساعدت على ذيوع تلك الآفة المزرية وهى (التعلق بالغلمان)، وناقشتها سواء أكانت تتصل بحياة البذخ وما يصحبها من خلاعة ومجون أحيانًا، أم كانت ناجمة عن تبدّل فى الذوق كأثر لاحتكاك العرب بغيرهم من الأمم والشعوب وبخاصة الفرس .

الفصل الثانى

العصبيــة

تقديـم

استمرت جذوة «العصبية» متقدة فى العصر العباسى، يُمدها الصراع القبلى والمذهبى والسياسى والعِرْقى بمداد لا ينقطع ولا يهدأ، وإن تبدّلت الأحوال، وتغيرّت الأيام.

ويمكن أن يقال: إنه بازدياد النفوذ الفارسىّ - فى العصر العباسى - وظهور حركة «الشعوبية»[1] فتية قوية، تشعبت «العصبية» وتمثلت - فى أجلى صورها - فى هذه الحركة؛ وهذا يعنى أن انشطارها وتجزأها قد يوهم بأنها ضعفت أو تلاشت، وربما ينصرف الذهن إلى أنها قد تحوّلت إلى تلك الحركة المشار إليها سابقًا؛ ولكن الدراسة المتأنية تثبت أن «العصبية» كانت ما زالت مستمرة وفتيَّة لسبب واضح وهو استمرار العوامل المؤدية إليها.

على أنه من الملاحظ أنها لم تكن بالحدّة التى كانت عليها فى العصر الأموى؛ ففضلا عن زوال بعض العوامل التى كانت تدفع إلى تأججها فى هذا العصر، من مثل: قيام الدولة الأموية على العصبية، وظهور الأحزاب السياسية والصراع المحتدم بينها، فإن أثر بعضها الآخر كان ما زال قائمًا. وإذا كانت الدولة العباسية قد حرصت على مواجهتها بكل حزم، فإن الأحزاب السياسية كانت ما زالت مستمرة، إلا أن أثرها لم يكن بالقوة والشدة، كما كان فى العصر الأموى. وإن نظرة إلى الفتن والثورات وما ارتبط بها من حروب أيام بنى أمية مقارنة بها أيام بنى العباس لتثبت صحة ذلك.

عوامل استمرار «العصبية»

وأهم العوامل التى كانت وراء «العصبية» بأشكالها المختلفة هى:

---

(١) أفرد البحث فصلا مستقلا «للشعوبية» هو الفصل الثالث من هذا الباب.

أ-الصراع المذهبى

ويتمثل فيما كان من صراع دائر بين العباسيين وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى، وعلى رأسهم «العلويون» ، وبخاصة بعد أن استقر الأمر لبنى العباس، واستأثروا بالحكم دونهم، مع أن الدعوة العباسية قد وجدت استجابة قوية لها بفضل هؤلاء العلويين. وكان طبيعيًا أن تندلع ثورات للشيعة هنا وهناك، وأن تشكل الشيعة أقوى الأحزاب المناوئة للدولة العباسية [١].

وتأتى «الخوارج» فى المرتبة التالية - فى هذا الصراع -؛ فقد ضعف شأنهم بسبب فتْك الأمويين بهم فتكا ذريعًا؛ بحيث لم يبق منهم فى العصر العباسى سوى فلول فى أنحاء متفرقة بعُمان، والجزيرة، وخراسان، وتونس [٢].

ب-الصراع القبلى:

وهناك صراع آخر استمر قويا، وكان الباعث عليه بقايا مترسبة فى النفس العربية، ومرتبطة أوثق ارتباط بما كان يعتز به العربى من فخر بالأصول وتغنٍّ بالأمجاد، ويتمثل فى ذلك الصراع القبلى وما كان ينجم عنه من فخر أو هجاء.

جـ-الهجاء

وكان «الهجاء» من أبرز العوامل فى استثارة العصبية بألوانها المتعددة. نعم؛ ضعف

---

(١) ظل العلويون يقاومون العباسيين سرًّا وجهرًا، وظلت شوكتهم قوية فى ظهر الدولة العباسية. وكان أتباعهم يزيدون، والعباسيون يرصدونهم جميعًا، ويفتكون بكل من تسول له نفسه الثورة أو الفتنة والخروج على طاعة السلطان. ومن ثم فقد استمرت ثوراتهم طوال العصر العباسى لا تهدأ ولا تلين. ومن أمثلة ذلك: ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب، المعروف بالنفس الزكية، ضد المنصور، وثورة أخيه إبراهيم ضد المنصور أيضا فى سنة ١٤٥هـ؛ وكذلك خروج الحسين بن على سليل الحسن بن على بن أبى طالب فى مكة والحجاز - فى عصر الهادى - فلقيه ومن معه جيش عباسىّ بالقرب من مكة فى مكان يقال له «فخ» وقاتل قتالًا عنيفًا، حتى قُتل، وقُتل معه كثير من أنصاره، وظلوا فى العراء حتى أكلتهم السباع والعقبان (انظر فى تفصيل ذلك: الطبرى. السابق جـ٨ ص١٩٢ وما بعدها، واليعقوبى: السابق جـ٢ ص٢٨٣) .

(٢) انظر - على سبيل المثال - فى ثورات الخوارج: ثورة الإباضيين بعمان بقيادة الجُلَندى، وقد جرد له السفاح جيشًا جرارًا بقيادة خازم بن خزيمة فقضى عليه (الطبرى): جـ٧، ص٤٦٢ - ٤٦٣؛ وثورة ملبَّد بن حرملة الشيبانى بالجزيرة فى عهد المنصور فقضى عليه خازم بن خزيمة أيضًا (السابق): ص٤٩٥، ص٤٩٨-٤٩٩؛ وثورة الإباضية بتونس فى عهد المنصور، وقد قضى عليهم يزيد بن حاتم المهلبي (اليعقوبى): جـ٢، ص٢٧٠ . وانظر: د. شوقى ضيف . السابق ص٣٢ .

منه فن «النقائض» الذى كان قد ازدهر بصورة لافتة للنظر فى العصر الأموى، ولكن بقيت منه بقايا تظهر من حين إلى حين، كما بقى الهجاء بوجه عام من أمضى الأسلحة وأشدها فتكا بمن يوجه إليه.

أبرز صورها

ولعل من أبرز صور «العصبية» ما كان من خلفاء بنى العباس مع بنى أمية بعد أن آلت الأمور إليهم. وفيها تتجلّى عوامل الاستثارة، وإيقاظ الثارات القديمة، والظهور بمظهر «المنقذ» الذى يُعلى كلمة الدين، وينشر العدل بين الناس.

والواقع أن ما أورده أبو الفرج - خاصًا بهذا الجانب - ليجعل القارئ فى حيرة من أمره، غير مصدق لما يقرأ، وكأنه محض خيال؛ ولكن الصراع السياسى لا يعرف حدًا فى الانتقام ينتهى إليه، أو رحمة تحول بينه وبين الإمعان فيه.

وتتنوع الأخبار فى هذا الجانب، فمن ذلك ما يروى من أنه اجتمع عند السفّاح جماعة من بنى أمية فأنشده «سُدَيف»[١] - مولاه - شعرًا يغريه بهم، مطلعه:

أصبح المُلكُ ثابتَ الآساسِ ... بالبهاليل[٢] من بنى العباس
بالصدور المقدَّمين قديمًا ... والرءوس القماقم الرُّؤاس[٣]

ثم يقول:

أَقْصِهم أيُّها الخليفةُ واحْسِمْ ... عنك بالسيف شأفَةَ الأرجاس
واذكرنْ مصرع الحُسين وزيدٍ[٤] ... وقتيل بجانب المِهْراس[٥]
والإمام[٦] الذى بحرّان أمسى ... رهْنَ قبر فى غربة وتناس

ويمضى الخبر فيذكر أن لون أبى العباس تغيّر، وأخذته رِعدة، فالتفت بعض ولد

---

(١) تنسب بعض المصادر هذا الشعر إلى شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم إذ دخل على عبد الله ابن على، وقد أجلس ثمانين رجلا من بنى أمية على سُمْط الطعام فمثل بين يديه وقال هذا الشعر، مع ملاحظة لون من الاختلاف بين الأبيات. انظر: المبرد، الكامل، السابق، جـ٢ ص٣٠٧.

(٢) البهاليل: جمع بهلول، وهو: العزيز الجامع لكل خير، أو هو: الحيىّ الكريم.

(٣) الرؤاس: الولاة والحكام.

(٤) هو: زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، قتل فى أيام هشام بن عبد الملك.

(٥) المهراس - فيما ذكر المبرد -: ماء بأحد؛ روى أن النبى ﷺ عطش يوم أحد فجاءه علىّ فى ذرقة بماء من المهراس، فعافه فغسل به الدم عن وجهه. قال المبرد فى الكامل: وإنما نسب شبل قتل حمزة إلى بنى أمية، لأن أبا سفيان بن حرب كان قائد الناس يوم أحد. انظر السابق، ص٣١٠.

(٦) الإمام الذى بحران: هو إبراهيم بن محمد بن على، وهو الذى يقال له: الإمام أخو أبى العباس السفاح. السابق، نفسه.

سليمان بن عبد الملك إلى رجل منهم، وكان إلى جنبه، فقال: قتلنا والله العبدُ. ثم أقبل أبو العباس عليهم قائلا: يا بنى... أرى قتْلاكم من أهلى قد سلفوا، وأنتم أحياء تتلذّذون فى الدنيا، وأمر بقتلهم، فأخذتهم الخراسانية، فأهمدوا إلا ما كان من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، فإنه استجار بداود بن على، فأجاره واستوهبه من السفاح؛ وكتب إلى عماله فى النواحى بقتل بنى أمية[1].

ومن الأخبار أيضا خبر يتعلق ببعض الأمويين فى مجلس دواد بن على بالرويثة[2] - وكان فيهم عبد الله بن عنبسة بن سعيد بن العاص؛ حيث أنشده إبراهيم بن هَرْمة قصيدة يقول فيها:

فلا عفا اللهُ عن مروانَ مظلمةً ... ولا أُمية، بئس المجلسُ النادى

كانوا كعادٍ، فأمسى الله أهلكهم ... بمثل ما أهلك الغاوين من عادِ

---

(١) انظر: الأغانى جـ٤ ص٣٤٤-٣٤٦ وانظر أيضا: ص٣٥١ نفس الرواية - عن طريق آخر - ولكنها تضيف: أنه لما أنشده ذلك، التفت إليه أبو الغمر سليمان بن هشام فقال: أتجبهنا بهذا ونحن سَرَوات الناس فغضب أبو العباس... إلى آخر الرواية. وانظر رواية أخرى عن سديف يحض أبا العباس على بنى أمية ويذكر من قتل مروان وبنو أمية من قومه، ص٣٥٠، وفى رواية أخرى ص٣٤٨-٣٤٩ من السابق: «أنشد سديف أبا العباس، وعنده رجال من بنى أمية:

يا ابن عمّ النبى، أنت ضياءٌ ... استبنّا بـك اليقيـن الجليّا

فلما بلغ قوله:

جرّد السيف، وارفع العفو حتى ... لا ترى فـوق ظهرها أُمويا

لا يغرنّك ما ترى من رجـال ... إن تحت الضلـوع داءً دَويّا

بَطَنَ البُغض فى القديم فأضحى ... ثاويا فى قلوبهـم مطويـا

- وهى طويلة - قال: يا سُديف، خلق الإنسان من عجل، ثم قال:

أحيا الضغائن آباء لنا سلفـوا ... فلـن تبيد وللآبـاء أبنـاء

ثم أمر بمن عنده منهم فقتلوا».

(٢) الرويثة: موضع على ليلة من المدينة.

فلن يكذِّبَنى من هاشمٍ أحدٌ فيما أقول، ولو أكثرتُ تَعْدادى

فنبذ داود نحو ابن عَنبسة ضِحْكة كالِكشرة؛ فما هو إلا أن قدم المدينة حتى قتل ابن عَنبسة[1].

والأخبار الأخرى تسير فى نفس الاتجاه؛ وإن كان بعضها يُلمح إلى نوع من المبالغة فى الترف، كان يتمتع به حكام بنى أمية، وكأن هذا نوع من التبرير لما كان يرتكب فى حقهم من انتقام. ومنها: ما يُروى من «أنهم حضروا سليمان بن على بالبصرة، وقد حضره جماعة من بنى أمية عليهم الثياب المَوْشيّة المرتفعة، فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسودَّ شيب فى عارضيه من الغالية[2]، فأمر بهم فقُتلوا وجُرُّوا بأرجلهم، وألقوا على الطريق؛ وإن عليهم لسراويلات الوشْى، والكلاب تجرّ بأرجلهم»[3].

ومن الملاحظ أن الذى أنشد أبا العباس السفاح - أو عبد الله بن على - كان أحد الموالى، كما أن المحيطين به كانوا من «الخراسانية»؛ ولهذا دلالته على مدى احتقان النفوس وغليانها تجاه حكام بنى أمية.

ويبدو أن الأمر لم يكن مقصورًا على «سديف» أو على «إبراهيم بن هَرْمة» فى قيامهما بالتحريض على بنى أمية؛ فما أكثر شيعة بنى العباس الذين كانوا يستغلون هذه المناسبة ويقومون بذلك[4].

وقد صحب هذا كله - كما سبق أن ذكرنا - رغبة عارمة فى الثأر والانتقام من بنى أمية، ممزوجة بروح التشفى والتلذذ بما يصيبهم من قتل وتنكيل. من ذلك: أنه لما قتل عبد الصمد بن على - أخو عبد الله بن على - مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية) ظفر برأسه، ووجه به إلى عبد الله بن على، فأنفذه عبد الله بن على إلى أبى العباس؛ فلما وُضع بين

(١) انظر: الأغانى السابق ص٣٤٧-٣٤٨.

(٢) الغالية: ضرب من الطيب.

(٣) السابق: ص٣٤٩.

(٤) انظر: شعرًا لرجل من شيعة بنى العباس يحرضهم على بنى أمية أورده أبو الفرج (السابق ص٣٥١) دون أن ينسبه روايه إلى شخص بعينه.

يديه خرَّ لله ساجدًا، ثم رفع رأسه وقال: «الحمد لله الذى أظهرنى عليك، وأظفرنى بك، ولم يُبق ثأرى قِبَلك وقِبَل رهطك أعداء الدين: ثم تمثّل قول ذى الإصبع العَدْوانى:

لو يَشربون دمى لم يُرو شاربهم ولا دماؤهم للغيظ تُروينى»[1]

ومنها: ما يروى من أن أبا العباس السفاح «دعا بالغَداء، حين قُتلوا، وأمر ببساط فبُسط عليهم، وجلس فوقه يأكل وهم يضطربون تحته. فلما فرغ من الأكل قال: ما أعلمنى أكلْت قطُّ أهنأ ولا أطيب لنفسى منها. فلما فرغ قال: جُرُّوا بأرجلهم، فأُلقوا فى الطريق، يلعنهم الناس أمواتًا، كما لعنوهم أحياء. قال (الراوى): فرأيت الكلاب تجرُّ بأرجلهم وعليهم سراويلات الوشْى حتى أَنْتنوا، ثم حُفر لهم بئر فأُلقوا فيها»[2].

وإذا كان هذا اللون من «العصبية» المشفوعة بروح التشفى والانتقام قد صحب تولّى بنى العباس لمقاليد الأمور فى الدولة، فإنها استمرت - بصور أخرى وبواعث مختلفة - طوال العصر العباسى.

إن حركة الصراع بين العباسيين وغيرهم - من المناوئين لهم - لم تهدأ، بل ظلت فتية تؤججها رواسب متغلغلة فى أغوار النفس العربية.

من هنا يمكن القول بأن «العصبية» المذهبية السياسية لم تضعف، وكانت تجذب إليها أنصارًا وأتباعًا، وتمثل شوكة فى جنب الدولة العربية الإسلامية.

ومن شواهد ذلك: خروج الوليد بن طريف الشيبانى (وكان رأس الخوارج، وأشدهم بأسًا وصولة، وأشجعهم)، واشتدت شوكته، وطالت أيامه. فوجه إليه الرشيد يزيد بن

---

(١) الأغانى: السابق ص٣٤٣. هذا؛ وهناك رواية أخرى للبيت فى (الأمالى) جـ١ ص٢٥٦ طبع دار الكتب المصرية - فى قصيدة ذى الإصبع العدوانى هكذا:

لو تشربون دمى لم يرو شاربكم ولا دماؤكم جمعا تُرَوِّيني

(٢) الأغانى: جـ٤، ص٣٤٧ . وشبيه بهذا ما تذكره الرواية الأخرى (السابق ص٣٥١) من أن سليمان بن هشام التفت إلى «سُديف» - حين أنشد أبا العباس السفاح شعره يغريه فيه ببنى أمية - وقال: أتجبهنا بهذا ونحن سَرَوات الناس ! وأن أبا العباس غضب، وكان سليمان بن هشام صديقًا قديمًا وحديثًا، يقضى حوائجه فى أيامهم ويبره، فلم يلتفت إلى ذلك، وصاح بالخراسانية: خذوهم، فقتلوا جميعًا إلا سليمان، ولكن أبا العباس أقبل عليه قائلا: يا أبا الغمر، ما أرى لك فى الحياة بعد هؤلاء خيرًا، وأمر بقتله؛ فقتل؛ وصُلبوا فى بستانه، حتى تأذى جلساؤه بروائحهم، فكلموه فى ذلك، فقال: والله لهذا ألذ عندى من شمّ المسك والعنبر، غيظًا عليهم وحَنَقًا.

مزيد الشيبانى، فكان يخاتله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به أمير المؤمنين، قائلين: «إنما يتجافى للرحم، وإلا فشوكة الوليد يسيرة»، فوجه إليه الرشيد كتابَ مغضَب، يعنفه، ويتهمه فيه بأنه مُداهنٍ متعصب، ويتوعده بأنه لو أخّر مناجزة الوليد ليوجِّهن إليه من يحمل رأسه إلى أمير المؤمنين[١].

والموقف - كما يدل عليه الخبر - كان متشابكًا معقدًا؛ إذ يبدو أن الوليد بن طريف كان قد اشتدت شوكته، وكثر أتباعه[٢]، واستفحل خطره، وكان يزيد بن مزيد الشيبانى المكلفَ به، وبالقضاء على ثورته، وكلاهما من قبيلة واحدة؛ ثم إن البرامكة - وهم من هم نفوذًا وسلطانًا - قد أغَروْا به أمير المؤمنين، وأمير المؤمنين حانق مغضَب. وفى هذا كله يتبين مدى تعقد الموقف وتأزمه، ومن ثم كانت المواجهة عنيفة، حتى إن خبر الأغانى يروى أن يزيد بن مزيد جُهد عطشًا، حتى رمى بخاتمه فى فيه، وجعل يلوكه، ويقول: «اللهم إنها شدة شديدة فاسترها»، وحمل هو ومن معه حملة شديدة، حتى انكشف أصحاب الوليد بن طريف، واتبع يزيد الوليد فلحقه بعد مسافة بعيدة، فأخذ رأسه[٣].

وحين خرج زيد بن موسى بن جعفر[٤] مع الطالبيين وبيَّض فى أيام أبى السرايا[٥] - وكان إسماعيل بن جعفر[٦] على الأهواز، فهرب من زيد بن موسى - قال دعبل

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٢ ص٩٤-٩٥.

(٢) انظر: الطبرى. السابق جـ٨ ص٢٥٦؛ حيث يذكر أنه فى سنة ١٧٨هـ خرج الوليد بن طريف الشارى بالجزيرة، وحكم بها، ففتك بإبراهيم بن خازم بنصيبين، ثم مضى منها إلى أرمينيَّة. ثم يذكر ص ٢٦١ أنه فى سنة ١٧٩هـ رجع الوليد إلى الجزيرة، واشتدت شوكته، وكثر تبعه، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيبانى..

(٣) انظر: الإغانى. السابق نفس الصفحة.

(٤) هو زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب؛ خرج على المأمون مع الطالبيين، وهو الذى يقال له: زيد النار؛ لكثرة ما حرّق من الدور بالبصرة؛ من دور بنى العباس وأتباعهم، وكان إذا أُتى برجل من المسوّدة كانت عقوبته أن يحرق بالنار.

(٥) خرج أبو السرايا واسمه: السرىّ بن منصور الشيبانى - بالكوفة فى سنة ١٩٩هـ (٨١٥م) داعيًا لمحمد بن إبراهيم سليل الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بابن طباطبا، وقُضى على ثورته قضاء مبرمًا. (انظر: اليعقوبى: جـ٢ ص٣١٢-٣١٤، وانظر أيضا: الطبرى: السابق. جـ٨ ص ٥٢٨).

(٦) هو: إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٣٤.

الخزاعى يعيِّر إسماعيل بذلك:

لقد خلّف الأهواز من خلف ظهره	يريد وراء الزاب من أرض كسكَر[1]
يهوِّل إسماعيلَ بالبيض والقنا	وقد فرَّ من زيد بن موسى بن جعفر
وعاينته فى يومَ خلَّى حريمَه	فياقبحَها منه، ويا حُسْنَ منظرِ[2]

على أن صورة «العصبية القبلية» ما زالت أكثر الصور انتشارا؛ ولعل ذلك لكثرة دواعيها، واشتراك فئات كثيرة فيها. وسيظل «الهجاء»- كفن شعرى - من أقوى عوامل إثارتها. وقبل أن نورد شواهد لذلك نتوقف عند بعض الأخبار التى تبرز ما يتركه «الهجاء» من أثر مفزع على المهجو. ومما يورده أبو الفرج فى هذا السياق أن أبا العتاهية لما هجا عبد الله بن معن بن زائدة بقوله:

فصغ ما كنت حليت به	سيفك خلخالا
وما تصنع بالسيف	إذا لم تك قتّالا

قال عبد الله بن معن: ما لبست السيف قط فلمحنى إنسان إلا قلت إنه يحفظ شعر أبى العتاهة فىَّ، فينظر إلى بسببه.

ويقال: إنه لما اتصل هجاء أبى العتاهية بعبد الله بن معْن غضب من ذلك أخوه يزيد بن معن، فهجاه أبو العتاهية، فقال:

بنَى معنٌ ويهدمه يزيدُ	كذاك الله يفعلُ ما يريدُ
فمعنٌ كان للحُسَّاد غمًّا	وهذا قد يُسَرُّ به الحسودُ
يزيدُ يزيد فى منعٍ وبخل	وينقص فى النوال ولا يزيدُ[3]

لقد أوردنا نموذجا لهجاء أبى العتاهية عبد الله بن معن وأخاه يزيد، وأثره النفسىّ عليهما، مع أنه كان مولى لهما؛ لنبرز كيف كان «الهجاء» من أمضى الأسلحة وأقواها فتكا بالمهجو، فما بالنا إذا اتكأ عليه الشاعر فيما كان يثار من خصومة فى «العصبية القبلية».

---

(١) الزاب: أكثر من نهر، ولعل يريد هنا النهر القريب من واسط. وكسكر: كورة تشمل البصرة ونواحيها.
(٢) انظر: الأغانى. جـ٢٠ ص١٣٢.
(٣) انظر السابق. نفس الصفحة.

ومن الأخبار الواردة فيها يتضح أنه كانت لا تزال هناك بقيّة مترسِّبة فى النفس العربية، تعمل عملها إذا ما هاجها أمر، أو نالها بسوء. ومن ثم يبدو أن العوامل الموروثة، مثل: المزاحمة على الماء، أو التنافسِ والغيرةِ – وما يشبهها – كان لها أكبر الأثر فى إشعال نيران هذه العصبية. ومن أمثلة ذلك ما حدث بين قبيلة بنى كعب وبنى كلاب من حرب شديدة، بسبب ورود إبل لرجل من بنى كلاب الماء، فوردت إبل لرجل من بنى كعب، وتطورت الأمور إلى أنها ألقت الرجل الذى ينتسب إلى قبيلة بنى كلاب على ظهره، فتكشف، وقام مغضبًا بسيفه إلى إبل الكعبى، فعقر منها عدة، وجلاها عن الحوضِ، وبلغت الأحداث ذروتها بأن استصرخ كلٌّ قبيلته، فتحاربوا فى ذلك حربًا شديدة، وتمادى الشرِ بينهم حتى تساعى حلماؤهم فى القضية، وأصلحوا ما بينهم[1].

على أنه من الملاحظ أنه أصبح هناك ميل إلى حَقْن الدماء، والاستجابة لداعى السلام كما يذكر النص السابق، وكما حدث فى وقعة كانت بين بنى نُمير وبنى كلاب بنواحى ديار مضر، إذ كانت الغلبة لكلاب، واستغاثت نمير ببنى تميم، فلجأت إلى مالك بن زيد سيد تميم يومئذ بديار مضر، فمنع تميمًا من إنجادهم، وقال بين ما قال: وما قيس وما خندف ؟ أنتم وهم لنا أهل وإخوة، فإن سعيتم فى صُلح عاونّا، وإن كانت حَمالَة أعنَّا، فأما الدماء فلا مدخل لنا بينكم فيها»[2].

هذه النغمة المتعقلة، التى تؤثر السعى فى صلح، والإعانة فى حمالة، والبعد عن سفك الدماء، تلفت النظر، وتدل – فيما تدل عليه – على تحولات كثيرة فيما يختص بهذا الجانب الذى نتحدث عنه – العصبية القبلية – وفى مقدمتها: تحكيم العقل، والنظر إلى الأمور من منظور «مصلحة الجماعة»، لا «مصلحة القبيلة»، واستشعار المسئولية تجاه المجتمع.

وربما يتبدى هذا – بصورة أوضح – فى الخبر التالى، الذى يذكر أنه حدث – فى أيام الرشيد – أن أثرى أخوان من فَزَارة، كانا يخفران قرية من ضياع بنى ربيعة، فحسدهما

(١) انظر: الأغانى جـ١٣ ص١٨٢.
٢) السابق: ص١٨٤.

قوم منهم، وجمعوا لهما جمعا، وساروا إليهما، فقتلوا واحدًا، وكان على الجزيرة يومئذ عبد الملك بن صالح الهاشمى، فشكا القيسىّ (أى الفزارى) أمره إلى وجوه قيس، وعرّفهم قتلَ ربيعة أخاه، وأخْذَهم ماله، فطلبوا منه أن يذهب إلى الأمير (عبد الملك بن صالح)، ويشكوه ما لحقه؛ ثم قال له القيسىّ: وحسْب الأمير أنهم لما قتلوا أخى، وأخذوا مالى، قال قائل منهم:

اشربا ما شربتما إن قيسا ... من قتيل وهالك وأسير

لا يحوزَنَّ أمرنا مُضرىٌّ ... بخفير ولا بغير خفير

فقال عبد الملك: أتندبنى[1] إلى العصبية، وزجره، فخرج الرجل مهمومًا، وشكا ذلك إلى وجوه قيس، فقالوا: لا تُرَع؛ فو الله لقد قذفتَها فى سويداء قلبه؛ فعاوده مرة أخرى، فزجره، وقال له قوله الأول، فقال له: إنى لم آتك أندبك للعصبية، وإنما جئتك مستعديًا[2]، فطلب منه أن يحدثه ما فعل القوم، وكيف حدث ذلك؛ فحدثه وأنشده، فغضب وقال: كذب، لعمرى، ليحوزنَّها، ثم دعا بأبى عصمة (أحد قواده)، فقال: اخرج فجرِّد السيف فى ربيعة، فخرج وقتل منها مقتلة عظيمة. فقال كلثوم بن عمرو العتّابى[3] قصيدته التى أولها:

ماذا شجاكِ بِحُوَّارِين من طللٍ ... ودمنة كشفت عنها الأعاصير[4]

يقول فيها:

هذى يمينُك فى قُرباك صائلةٌ ... وصارم من سيوف الهند مشهور

إن كان منّا ذوو إفْكٍ ومارقةٌ ... وعُصْبَةٌ دينُها العدوان والزور

فإن منّا الذى لا يُستحثُّ إذا ... حُثَّ الجياد، وضمَّتها المضامير

---

(١) أتندبنى: أتحثنى وتدعونى.

(٢) مستعديًا: مستنصرًا مستعينًا.

(٣) هو: كلثوم بن عمرو بن أيوب ... وهو ابن مالك عتَّاب بن سعد بن زهير ينتهى نسبه إلى تغلب. شاعر مترسل بليغ مطبوع، متصرف فى فنون الشعر. من شعراء الدولة العباسية. انظر: الأغانى، جـ١٣، ص١٠٩.

(٤) حوارين: (بضم أوله وتشديد الواو وكسر الراء وياء ساكنة): قرية من قرى حلب. والدمنة: واحدة الدمن، وهي آثار الديار.

مستنبط عزماتِ القلب من فِكَر ما بينهن وبين الله معمور

فبلغت القصيدة عبد الملك، فأمر أبا عصمةَ بالكف عنهم(١).

ومع أن الخبر السابق يصرح بأن عبد الملك بن صالح لم يستجب من فوره لداعى العصبية التى حاول القيسى إثارتها مستنكرا - فى الوقت نفسه - أن يزج به إليها، فإنه ما زال به حتى دعا أحد قواده طالبا منه أن يجرد السيف فى ربيعة. ويلاحظ أن الخبر يحوى من الشعر ما يحمل على التحريض والاندفاع إلى الانتقام:

اشربا ما شربتما إن قيسا من قتيل وهالك وأسير

وفيه أيضا لون من التشفى فيما حدث للأخوين، بل فيما حدث للقبيلة بأسرها؛ وكذلك لون من التمرد على أن يتملّك أمرهم مُضرى بأية حال من الأحوال.

وهناك لون من «العصبية» يعيد للأذهان ما كانت عليه فى العصر الأموى؛ بل ربما كان ما أثارته - فى العصر الأموى - الباعث والمحرك لها فى العصرِ العباسى. لقد رأينا من قبل - ونحن نتحدث عنها فى العصر الأموى - الكميت يقدم قصيدته المذهبة التى هجا بها قبائل اليمن:

ألا حييت عنا يا مرينا(٢)

ولمسنا ما تركته من آثار اجتماعية ونفسية(٣). وفى العصر العباسى يقدم «دعبل

---

(١) انظر: الأغانى. جـ١٣ ص١٢١-١٢٢. وانظر تعقيب أبى الفرج على الخبر السابق بأن فيه اضطرابًا؛ لأن القصيدة المذكورة التى أولها:

ماذا شجاك بُحوارين من طلل

للعتابى قيلت فى الرشيد لا فى عبد الملك. وقد قالها حين عتب الرشيد على العتابى أيام الوليد بن طريف، فقطع عنه أشياء كان عوّده إياها، فأتاه متنصلا بهذه القصيدة:

ماذا شجاك بحوّارين من طللٍ ودمنةٍ كشفت عنها الأعاصير

وفيها:

نادتك أرحامنا اللاتى نمتُّ بها كما تنادى جلادَ الجلّة الخورُ

(الجلاد: النوق الصلاب، وما غزر لبنها أو قل. والجلة: المسان من الإبل من «جلّت الناقة» إذا أسنّت. والخور: جمع خوارة على غير قياس، وهى الناقة الغزيرة اللبن) السابق: ص١٢٤.

(٢) فى بعض النسخ «مدينا».

(٣) انظر: ص ٢٦١ وما بعدها من هذا البحث.

الخزاعى» قصيدة، ردًّا على ما صنعه الكميت، يناقضه فيها؛ إذ كان شديد التعصب على النزارية للقحطانية[1].

وقد أثارت هذه القصيدة أبا سعد المخزومى فناقضه فيها، «وهاجاه، وتطاول الشر بينهما[2]، فخافت بنو مخزوم لسان دعبل، وأن يعمَّهم بالهجاء، فنَفَوا أبا سعد عن نسبهم، وأشهدوا بذلك على أنفسهم»[3].

ويبدو أن هذه القصيدة كان لها انعكاساتها السيئة، التى مسَّت الحياة الاجتماعية بعامة، ونالت الشاعر بخاصة. يدعم ذلك ما يرويه أبو الفرج من أنه «لم يزل دِعبل عند الناس جليل القدر، حتى ردّ على الكميت بن زيد:

ألا حُييت عنا يا مرينا

فكان ذلك مما وضعه»[4]. ويروى أنه رأى النبى ﷺ فى النوم، فنهاه عن ذكر الكميت بسوء[5].

وقد ذكر أبو الفرج أسباب هجاء دعبل لأبى سعد المخزومى، وما خرج إليه الأمر بينهما، وهى كثيرة، بعضها مباشر[6]، مما اعتاد الشعراء أن يهجوا بسببه، ولكن من

---

(١) انظر: الأغانى، جـ٢٠ ص١٢٠. ومطلع قصيدة دعبل:

أفيقى من ملامكِ ياظَعينا   كفاكِ اللومَ مرُّ الأربعينا
ألم تحزنك أحداثُ الليال   يشيِّبنَ الذوائبَ والقرونا

انظر: ديوان دعبل بن على الخزاعى، جمع وتقديم وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدّجيلى. دار الكتاب اللبنانى. بيروت. ط٢، ١٩٧٢م. ص٢٦.

(٢) مما قاله فيه أبو سعد المخزومى:

وأعجب ما سمعنا أو رأينا   هجاءٌ قاله حىٌّ لِميْت
وهذا دعبل كلفٌ معنًّى   بتسطير الأهاجى فى الكميت
وما يهجو الكميت وقد طواه الر   دى إلا ابن زانية بزيتِ

الأغانى: السابق. ص١٢٣.

(٣) السابق ص١٢٠.

هذا؛ ومن الملاحظ أن عادة نفْى واحد من القبيلة لخروجه عليها، وخلْعه، والإشهاد على ذلك لا تزال مستمرة حتى العصر العباسى.

(٤) السابق: ص١٢٣.

(٥) انظر: السابق ص١٢٠.

(٦) كأن يروي أنه نزل بقوم من بنى مخزوم، فلم يضيّفوه، فهجاهم، فأجابه أبو سعد، ولجّ الهجاء بينهما. انظر: السابق ص١٦٤.

الواضح أن «العصبية القبلية» كانت الدافع الأول، والسبب الحقيقى الكامن وراء هذا الهجاء. فبالإضافة إلى النص فى أكثر من موضع[1] على أن سبب العداوة بين الاثنين قصيدة دعبل التى هجا فيها قبائل نزار، يورد رواية أخرى تذهب إلى أن سبب ذلك قولُ دعبل فى قصيدة يفخر فيها بُخزاعة، ويهجو نزارًا، وهى التى يقول فيها:

أتانا طالبا وَغْرًا فأعقبناه بالوعر
وتَرناه فلم يرْضَ فأعقبناه بالوِتر

فغضب أبو سعد، وقال قصيدته التى يقول فيها لدعبل، وهى مشهورة:

وبالكرْخ هوًى أبقى على الدهر من الدهر
هوًى والحمد لله كفانى كُلْفة العذر

ثم التحم الهجاء بينهما بعد ذلك[2].

ويورد لنا أبو الفرج خبرين لهما دلالتهما فى هذا السياق؛ أولهما: أن دعبلا كان ينحو فى شعره إلى السهولة والخفة، مع ما يحويه من سبٍّ وشتم، وقذف وفحش[3]؛ وكان هذا النوع يجد طريقه سريعًا إلى صبيان الكتاب ومارة الطريق والسِّفَل، فما يجتاز أبو سعد موضعًا إلا سمعه من سِفْلةٍ يهذرون به؛ وفى هذا من التشهير به ما فيه.

الآخر: أن أبا سعد المخزومى استطاع أن يدسّ فى قصيدة دعبل من الأبيات، ما جعله يفزع، حين قرئت عليه، وسمع منها ما لم يَقُلْه[4]، ولهذا دلالته فى الرغبة العارمة

---

(١) انظر: السابق ص١٢٠، ١٦٤، ١٦٥.
(٢) انظر: السابق ص١٦٥.
(٣) انظر: السابق ص١٦٧.
(٤) انظر الخبر ص١٦٧-١٦٨ السابق نفسه؛ وهو مروى عن إسماعيل بن إبراهيم بن ضَمرة الخُزاعى؛ إذ سأل دعبلا أن يقرأ عليه قصيدته التى يناقض بها الكميت، فطلب منه أن يكون معه رجل يقرؤها عليه، فاختار صديقا له من (شيبان ربيعةَ)؛ وحينما سأله مستنكرًا: كيف يأتيه برجل يسمعه ما يكره فى قومه، قال له: إنه رجل يحب أن يسمع ماله وما عليه. فقرأوا عليه الشعر، حتى انتهوا فى القصيدة إلى قوله:

منَ أى ثنيّة طلعت قريش وكانوا معشـرا متنبّطينـا

فقال دعبل: «معاذ الله أن يكون هذا البيت لى، ثم قال: لعنه الله وانتقم منه - يعنى أبا سعد المخزومى - دسّه والله فى هذا الشعر، وضرب بيده إلى سكين كانت معه، فَجَرَد البيت بحدها». ومن الملاحظ أن البيت المذكور ورد فى القصيدة (فى الديوان المطبوع).

من كلا الطرفين على أن يبلغ في النكاية بخصمه حدًا، يملأ حياته خوفًا وقلقًا!.

وشبيه بموقف «دعبل» ما يروى عن ابن أبى عيينة (محمد بن أبى عُيَيْنة بن المهلَّب ابن أبى صُفرة)؛ فقد هجا نزارًا بقصيدة له مشهورة، وفضّل عليها قحطان؛ فقال ابن زغبل[1] يهجوه، ويرد عليه:

بُنَىَّ أبى عُيينة ما نطقْتَ به من اللغط ؟

. . . .

وفيها يقول:

أعبْدٌ من عبيد عُما ن عاب مناقب السّبِط[2]
وتهجو الغُرّ من مُضر كفى هذا من الشطط

ويختمها بأبيات أفحش فيها[3].

ويقال: إن «ابن أبى عُيينة لما هجا نزارا بلغ شعره المأمون، فنذر دمه، فهرب من البصرة، وركب البحر إلى عُمان، فلم يزل بها متواريًا فى نواحى الأزد حتى مات المأمون»[4].

هذا؛ وربما تؤدى المبالغة فى «المديح» إلى لون من «العصبية»، تتمثل فى تفضيل الممدوح على غيره، مما قد يؤذن بتفضيل قبيلته على قبيلة أخرى. ومن شواهد ذلك: ما كان من الشاعر على بن جبَلة؛ إذ «استنفد شعره فى مدح أبى دُلف القاسم بن عيسى العِجْلى، وأبى غانم حُميد الطوسىّ، وزاد فى تفضيلهما، وتفضيل أبى دُلف خاصة؛ حتى

---

(١) كان عمرو بن زغبل مولى بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وكان منقطعًا إلى إسماعيل بن جعفر وولده، وكان إسماعيل بن جعفر واليًا على البصرة من قبل طاهر بن الحسين – فى عهد المأمون – فاحتكم عليه أبو عيينة فى عزل إسماعيل عن البصرة، فعزله عنها، فقال أبو عيينة فيه بعد عزله:

لا تعدَم العزلَ يا أبا الحسنِ ولا هُزالا فى دولة السِّمن

انظر: الأغانى جـ٢٠ ص٩٨-٩٩.

(٢) السبط: بالكسر، وحرك للشعر: ولد الولد؛ يريد من انحدر من نزار.

(٣) الأغانى: جـ٢٠ ص١٠٠.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

فضَّل من أجله ربيعة على مضر، وجاوز الحدّ فى ذلك، فيقال: إن المأمون طلبه حتى ظفر به، فسلَّ لسانه من قفاه؛ ويقال: بل هرب، ولم يزل متواريًا منه حتى مات، ولم يقْدر عليه»[1]. ويرجح أبو الفرج الرواية الأخيرة، ويحكم على الأولى بالشذوذ[2].

ومع أن أبا الفرج قد رجح الرواية الأخيرة، فإنه ما يلبث أن يعود إلى الأولى – التى تذكر أن المأمون أمر بسلّ لسانه من قفاه – فيذكر أنه لما بلغ المأمون قول على بن جبلة لأبى دُلف:

كلُّ من فى الأرض من عربِ	بين باديه إلى حَضَرهْ
مستعيرٌ منك مكرمةً	يكتسيها يوم مفتخره

غضب المأمون، وطلب إحضاره، وكان قد هرب إلى الجزيرة، فلما جدّوا فى طلبه، هرب من الجزيرة، وتوسط الشام، فظفروا به، وحملوه إلى المأمون؛ وحين راجعه المأمون فيما قال فى بيتيه السابقين مستنكرًا ما ذهب إليه؛ إذ جعل المأمون وأهله ممن يستعير المكارم من أبى دُلف، حاول على بن جبلة أن يبرر قوله، بأنه عنى بقوله فى القاسم: أشكال القاسم وأقرانه؛ لأن أهل بيت الخلافة لا يُقاس بهم أحد؛ لأن الله ـ عز وجل ـ فضَّلهم على خلقه، واختارهم لنفسه، فقال المأمون: والله ما استثنيتَ أحدا من الكل؛ سُلُّوا لسانه من قفاه[3] !.

هذا؛ وهناك لون من «العصبية» يمكن أن يطلق عليه «عصبية الولاء». وقد توقف عندها ابن خلدون فى مقدمته، وبيَّن كيف أنها البديل – مع متغيرات مستجدة – عن عصبيات النسب، وسند لها، فيقول فى فصل بعنوان: «فى أن البيت والشرف للموالى

---

(١) الأغانى: جـ٢٠ ص١٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) انظر: السابق، ص٤١. هذا؛ ويقال: إن المأمون لما أُدخل عليه علىُّ بن جبلة، قال له: إنى لست أستحل دمك لتفضيلك أبادُلف على العرب كلها، وإدخالك فى ذلك قريشا، وهم آل رسول الله ﷺ، ولكنى أستحله بقولك فى شعرك، وكفرك؛ حيث تقول:

أنـتَ الذى تُنزل الأيام منزلهـا	وتنقل الدهرَ مـن حال إلى حال
وما مددت مدى طرْف إلى أحد	إلا قضـيـت أرزاق وآجـال

انظر: السابق، ص٤١، ٤٢.

وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم»[1]: «ألا ترى إلى موالى الأتراك فى دولة بنى العباس، وإلى بنى برمك من قبلهم، وبنى نوبَخْت، كيف أدركوا البيت والشرف، وبنَوا المجد والأصالة بالرسوخ فى ولاء الدولة؛ فكان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتًا وشرفًا بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه، لا بالانتساب فى الفرس، وكذا موالى كل دولة وخدمها، إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ فى ولائها، والأصالة فى اصطناعها، ويضمحل نسبه الأقدم من غير نسبها، ويبقى مُلغًى لا عبرة به فى أصالته ومجده. وإنما المعتبر نسبة ولائه واصطناعه؛ إذ فيه سرّ العصبية التى بها البيت والشرف، فكان شرفه مشتقًا من شرف مواليه، وبناؤه من بنائهم؛ فلم ينفعه نسب ولادته، وإنما بنى مجدَه نسبُ الولاء فى الدولة، ولُحْمة الاصطناع فيها والتربية»[2].

إن ابن خلدون هنا ينظر إلى «العصبية» خارج دائرة النسب، لتتسع له دائرة الولاء والاصطناع؛ فيذكر أن «آل برمك» كان لهم فى زمنهم الفارسى الكسروى مجد ورياسة، ولكنهم لم يعتزوا بهذا المجد الذى أدبر زمانه، وكان تمسكهم بالولاء لآل العباس. وابن خلدون - بهذا التصور - يقدم تفسيرًا مختلفًا لغلبة طبائع الحياة الفارسية ونظمها على الدولة العباسية؛ إذ لم يصرح بأن هذا كان نتيجة لغلبة النفوذ الفارسىّ على جهاز الدولة (وعرش الخلافة أحيانًا) بقدر ما كان ناتجًا عن رغبة هؤلاء الفرس فى أن يعلنوا عن ولائهم للدولة التى اجتبتهم، وبوّأتهم مناصبهم، فقدموا إليها خبراتهم التى لا يملكها غيرهم.

على أننا إذا أنعمنا النظر فيما أشار إليه ابن خلدون عن «عصبية الولاء» يمكن أن نرى فى هذا التحول - وإن حمل اسم «العصبية» فى قول ابن خلدون - «عصبية» تمهّد للشعوبية؛ بمعنى أن انتماء هذه الأسر القريبة من قمة السلطة إلى الفرس بالدم والتاريخ، والولاء للأسرة (العباسية) الحاكمة، لم يكن يُلزمها أن تصطنع أساليب الحياة العربية، وأن تُعلى من قيم التاريخ العربى. فضلا عن أنها - وقد كان لكثير من أفرادها مواقع مرموقة مكنتها من أن توجّه سياسة الدولة أنّى شاءت - كانت بجاهها وبمالها خير معين

(١) المقدمة: مرجع سابق، المجلد الثانى. الفصل الرابع عشر ص٤٩٣.
(٢) السابق: ص٤٩٤-٤٩٥.

لغيرها من الطبقات الفارسية فى إشعال نيران تلك الحركة المعروفة «بالشعوبية» وهو ما سنتناوله فى موضع آخر إن شاء الله بشىء من التفصيل.

وقد تجلت «عصبية الولاء» عند بعض الشعراء فى العصر الأموى كبشار بن برد؛ وإن كان قد تحوّل عنها بعد نجاح الثورة العباسية.

وكان بشار بن بُرد - وهو مولى من أب فارسىّ وأم رومية - يفتخر بانتصارات (قيس) على القبائل اليمنية، ويتعصب لهم تعصبًا حادًا؛ لأنه كان من موالى قيس؛ حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب، وأخذ يعنف بهم عنفًا شديدًا [1]. وقد أشار إلى هذا أبو الفرج عندما ذكر أن بشارًا كان «كثير التلوّن فى ولائه»[2].

ومن نماذجه التى تظهر تعصبه فى مدحه لقيس، وافتخاره بولائه فيها، قوله:

أمنْتُ مضرَّة الفُحَشاء[3] أنى ... أرى قيسًا تضُرُّ ولا تُضارُ
كأن الناس حين تغيبُ عنهم ... نباتُ الأرض أخطأه القِطَارُ[4]
وقد كانت بتدْمُرَ خيلُ قيس ... فكان لتدمرٍ فيها دمارُ
بحيٍّ من بنى غَيْلان شُوس[5] ... يسير الموتُ حَيث يقالُ ساروا
وما نلقاهُم إلا صَدَرْنا ... برِىٍّ منهم، وهمُ حِرارُ[6]

وقوله يفتخر بولاء بنى عُقيل:

إننى من بنى عُقيلِ بن كعبِ ... موضعَ السيف من طُلَى الأعناقِ[7]

هذه أبرز صور «العصبية» فى العصر العباسى؛ ويمكن أن نلمح - من خلال ما

---

(١) انظر: د. شوقى ضيف. السابق ص١٧٠.
(٢) الأغانى: جـ٣ ص١٣٩.
(٣) الفحشاء: جمع فاحش كجاهل وجهلاء. والفاحش: السَيئ الخلق.
(٤) القطار: جمع قطر، وهو المطر.
(٥) شوس: جمع أشوس، وهو الذى ينظر بمؤخر عينيه.
(٦) الأغانى: السابق. نفس الصفحة. وحرار: جمع حرّان، وهو الشديد العطش.
(٧) الأغانى: السابق. نفس الصفحة. والطلى: أصول الأعناق؛ واحدتها طلية أو طلاة.

قدمناه - أنها لم تعُد حادة أو عنيفة - كما كانت فى العصر الأموى. ولعل ذلك راجع إلى أن العباسيين قاوموا تلك النزعات التى تستثيرها، وتصدَّوا لها بكل حزم وقوة؛ فقد حبس الأمين أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية[1]، وطلب الرشيد بكر بن النطاح؛ حيث كان فخره ينزع إلى العصبية القبلية[2] فهرب منه. بالإضافة إلى ظهور نزعة تحكم العقل، وتحاول أن تكبح جماح الاندفاع إلى ما تسببه «العصبية» من الاحتراق بآثارها المدمرة.

ومع ذلك فقد كان لها من الآثار السيئة ما انعكس بصورة مباشرة واضحة على الحياة الاجتماعية فى الدولة العباسية.

آثارها

تتعدد هذه الآثار وتتنوع؛ ولعل من أبرزها ما تؤدى إليه «العصبية» من فتن وثورات

---

(١) ورد فى الأغانى (ط دار الشعب - مجلد ٢٩ ص٩٨٩٥-٩٨٩٦): أن أبا نواس لمّا عمل قصيدته:

ومستَعبِد إخوانَه بثرائه لبِسْتُ له كِبْرًا أبرَّ على الكِبْر

إذا ضمنى يومًا وإياه محفِلٌ رأى جانبِى وعْرًا يزيد على الوعْر

...

فلا يطمعنْ فى ذاك منىَ طامعٌ ولا صاحبُ التاج المحجَّب فى القصر

بلغت الأمين، فبعث إليه، وعنده سليمان بن أبى جعفر، وواجهه بما قال وشتمه أقبح الشتم، مبينًا له أنه مُدّعى ولاء ألأم قبيلتين فى اليمن، وأنه يكتسب بشعره أوساخ أيدى الناس اللئام، ويقول:

ولا صاحبُ التاج المحجَّب فى القصر

وأقسم ألا ينال منه شيئا أبدًا؛ فقال له سليمان: إنه - مع هذا - من كبار الثَنَوية، وأتاه بعدة نفر شهدوا بذلك، فغضب الأمين، وأمر به إلى السجن. وانظر أيضا: الطبرى. السابق جـ٨ ص٥١٨.

(٢) انظر: الأغانى ج ١٩ ص١٠٧. والخبر يحكى أن الرشيد وجّه إلى يزيد بن مزْيد الشيبانى فى وقت يرتاب فيه البرىء، فلما مثَل بين يديه سأله عن الذى يقول:

ومن يفتقرْ منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يَسْألِ

فأجابه مقسمًا بأنه لا يعرف، قال: فمن الذى يقول:

وإن يكُ جَدُّ القوم فهرَ بن مالك فجدِّى لُجَيْمٌ قَرْمُ بكر بن وائل

فأقسم أنه لا يعرفه، ولكن الرشيد أصرّ على أن يزيد يعرفه؛ وأضاف أنه لا يخفى عليه شىء من شئون يزيد، وأن عيونه لعليه فى خلواته ومشاهده، وبخاصة أنه شرفه بصنيعته فيه؛ ثم قال: «هذا جلْف من أجلاف ربيعة، عدا طورَه، وألحق قريشًا بربيعة فأتنى به» فانصرف يزيد وسأل عن قائل الشعر، فقَيل له: هو بكر بن النطاح، وكان أحد أصحابه، فدعاه وأعلمه ما كان من الرشيد، وأمر له بمال، وأسقط اسمه من الديوان، وطلب منه ألا يظهر ما دام الرشيد حيًا.

وحروب تستنزف كثيرًا من جهود الدولة فى العمل على استتباب الأمن، واستقرار الأمور. وهذا واضح فيما كان يحدث من ثورات الخوارج والشيعة، فضلا عما كانت تثيره العصبية القبلية من حزازات تستثير أولى الأمر، وتدفعهم إلى الانتقام.

هذا؛ إلى أن تلك الفتن والثورات والحروب، تختلط فيها الأمور، وتتشابك العلاقات وتتعقد، نتيجة لتداخل العوامل التى أدّت إليها؛ ومن ثم قد تستحيل بعض هذه الفتن والثورات إلى حرب ضروس، لا تُبقى ولا تذر. ولعل خروج زيد بن موسى[١] بن جعفر مع الطالبيين على العباسيين، وكذلك الوليد[٢] بن طريف، من أقوى الشواهد على ذلك[٣].

يضاف إلى ذلك ما كان تحدثه من تمزيق للأواصر، وتقطيع للأرحام. وقد رأينا – من قبل – موقف يزيد ين مزيد من الوليد بن طريف، وكلاهما من قبيلة واحدة، وقد انتهز البرامكة الفرصة ليوغروا صدر الرشيد على يزيد. وكذلك موقف الرشيد منه أيضا فى الشعر الذى قاله بكر بن النطاح؛ فقد ظن أنه يعرف صاحبه ولكنه يتستّر عليه. وقد

---

(١) انظر: ص ٥١٠ من هذا الفصل.

(٢) انظر: ص ٥٠٩ من هذا الفصل.

(٣) من الأخبار الدالة على ما كان يقوم به «الشراة» من تهديد للحياة الآمنة، ما يروى من أنهم عاثوا بالجبل عيثًا شديدًا، وقتلوا الرجال والنساء والصبيان، فخرج إليهم مالك بن على الخزاعى، وكان يتولى طريق خراسان – وقد وردوا حُلوان، فقاتلهم قتالا شديدًا، وثبت الفريقان إلى الليل حتى حجز بينهم، وأصابت مالكا ضربة على رأسه أماتته؛ وكان معه بكر بن النطاح يومئذ، فأبلى بلاءً حسنًا؛ وقد رثاه بأكثر من قصيدة، وفى إحداها يقول:

أىُّ امرئ خضب الخوارجُ ثوبه ... بدم عشيَّة راح من حلوانِ
يا حفرةً ضمت محاسن مالك ... ما فيك من كرم ومن إحسان
لهفى على البطل المعرَّض خدُّه ... وجبينُه لأسنَّة الفُرسان
ذَهَبَت بشاشةُ كل شىء بعده ... فالأرض موحشةٌ بلا عُمران
هدم الشراة غداة مصرع مالكٍ ... شرفَ العُلا ومكارم البُنيان
قتلوا فتى العرب الذى كانت به ... تقوى على اللّزبات فى الأزمان
حرموا معدًّا ما لديه وأوقعوا ... عصبيَّةً فى قلب كل يمانى

...

الأغانى: جـ١٩، ص١١٤-١١٥ . و(اللزبات): جمع لَزْبة وهى: الشدة أو القحط.

عبَّر الشعر عن هذا الأثر أصدق تعبير؛ إذ يورد الطبرى – بعد أن يذكر قتل يزيد للوليد ابن طريف وجماعة كانوا معه – قول الشاعر:

وائلٌ بعضُها يقتل بعضًا لا يفلُّ الحديدَ إلا الحديدُ[1]

وقد ذكرنا – من قبل أيضا – قصيدة كلثوم بن عمرو العتابى التى وجهها إلى عبد الملك بن صالح، أو الرشيد؛ وفيها:

هذى يمينك فى قُرباكَ صائلةٌ وصارمٌ من سيوف الهند مشهور

وقد صاحب هذا كلَّه روحُ التشفى والرغبة العارمة فى الانتقام، مما يؤرّث البغض والسخط، ويبعث على التمرد وشق عصا الطاعة متى واتت الفرصة لذلك؛ وما أوردناه عن «خلفاء بنى العباس» وما صنعوه مع بنى أمية خير شاهد على ذلك. وكثيرًا ما نقرأ أن هذا الخليفة أو ذاك أمر قائده بأن «يجرد السيف»، أو «يبسط السيف» فى قبيلة كذا. ومن أمثلة ذلك ما كان من أبى جعفر المنصور ومعن بن زائدة الشيبانى؛ إذ إنه بعد أن قاتل عنه فى يوم الهاشمية، فأبلى بلاءً حسنًا، ودفع القوم عنه حتى نجا، ولم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال – «أمّنه على نفسه وماله[2]، ثم أخذه معه، وخلع عليه وحباه وزيّنه. ثم دعا به يومًا وقال له: إنى قد أمَّلتك لأمر، فكيف تكون فيه ؟ قال: كما يحب أمير المؤمنين، قال: قد وليتك اليمن، فابسط السيف فيهم، حتى يُنقض حلف ربيعة واليمن. قال: أبْلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين؛ فولاه اليمن، وتوجه إليها، فبسط السيف فيهم حتى أسرف»[3].

ويروى أبو الفرج أنه لمّا قدم معن بن زائدة من اليمن استقبله الناس، وتلقّاه مروان

---

(١) الطبرى: السابق ج ٨، ص ٢٦١.

(٢) كان معن بن زائدة قد أبلى فى حرب يزيد بن عُمر بن هبيرة – والى الأمويين على العراق – بلاءً حسنًا، جعل المنصور يطلبه ويجدّ فى طلبه، ويجعل فيه مالا، فاستتر معن حتى كان يوم الهاشمية (مدينة بالكوفة. كانت فيها وقعة بين أبى جعفر المنصور والراوندية)، فاستمات فى الدفاع عنه، وقد وثب القوم على المنصور، وكادوا يقتلونه. انظر: الأغانى، جـ١٠ ص٨٤–٨٥، وهامش (١) ص٨٤ فى المصدر المذكور.

(٣) الأغانى: جـ١٠ ص٨٦. وانظر أيضا جـ١٣ ص١٥١ حيث يقول: «وكان هارون الرشيد قد جرَّد السيف فى ربيعة»؛ وكذلك الخبر الذى أوردناه من قبل عن قتل ربيعة واحدًا من فزارة، فاستعدى القيسىّ الحاكم (عبد الملك بن صالح الهاشمى)، حيث ينتهى الأمر بعبد الملك إلى أن يقول لأبى عصمة أحد قواده: «اخرج فجرّد السيف فى ربيعة» انظر: ص ٥١٣–٥١٤ من هذا الفصل.

ابن أبي حفصة، فأنشده قصيدة يهنئه فيها بقدومه، وبرأى المنصور فيه، على حين تلقاه أبو القاسم محرز (أحد قواد أبى مسلم الخراسانى. صاحب الدعوة العباسية)، فجعل يقول له: سفكت الدماء، وظلمْت الناس، وتعديت طورك بذلك[1].

ونختم هذا الفصل بخبر له طرافته - إن صح - إذ يبرز الأثر السلبى للعصبية القبلية، وانعكاسه حتى فى أمور العبادة. وهو يحكى أن «خطيب أهل حمْص كان يصلى على النبى ﷺ على المنبر ثلاث مرات فى خطبته، وكان أهل حمص كلهم من اليمن، لم يكن فيهم من مُضَرَ إلا ثلاثة أبيات؛ فتعصبوا على الإمام وعزلوه؛ فقال ديك الجنّ:

سمعوا الصلاة على النبى تَوالَى ... فتفرقوا شِيَعا وقالوا: لا لا
ثم استمر على الصلاة إمامُهم ... فتحزَّبوا ورقى الرجالُ رجالا
يا آل حمصَ توقعوا من عارها ... خِزْيا يحلُّ عليكمُ ووبالا
شاهت وجوهكمُ وجوها طالما ... رغمتْ معاطسها وساءت حالا»[2]

على أننا ذكرنا فى سياق هذا الفصل أن هناك لونًا من «العصبية» غذّته عوامل كثيرة، ودفعت به إلى أن يكون بارزًا على السطح؛ هذا اللون يتمثل فيما سُمى «بالشعوبية»، وهى حديثنا التالى إن شاء الله.

وبعد فقد رصد الفصل استمرار جذوة «العصبية» فى صورها المختلفة فى هذا العصر، وإن كان قد خفّت حدّة العصبية القبلية وأصبح هناك ميل إلى حقن الدماء والاستجابة لنداء السلام . على العكس من العصبية المذهبية والسياسية التى ارتبطت بثورات الخوارج والشيعة . وقد بيّن آثارها السيئة على الحياة السياسية والاجتماعية فى الدولة العباسية .

كما لاحظ ازدياد الصراع العرقى بين العرب والفرس وتحوُّل ذلك إلى ما يعرف «بالشعوبية»، التى أُفردت بفصل خاص بها .

* * *

(١) انظر: الأغانى: السابق جـ١٠ ص٩١.
(٢) الأغانى: جـ١٤ ص٦٧. وشاهت: قبحت. ورغم أنفه: ذلّ عن كره. والمعطَس: الأنف.

الفصل الثالث

«الشعوبية»

يبدو للدارس المتأمل فى التحّولات الكبرى لحياة الأمم والشعوب أن التغيرات الاجتماعية لا تحدث طفرة، بل هناك - دائمًا - جوانب خفيّة مستكنّة فى أعماق النفس البشرية تعمل عملها فى إحداث هذه التغيرات على مرّ الأيام والسنين، حتى إذا ما بدت لنا بدت وكأنها وليدة اللحظة الحاضرة. ونحسب أن قيام الدولة العباسية وزوال سلطان الأمويين خير شاهد لذلك.

فقد كانت الدولة الأموية عربية خالصة[1]، من حيث أشخاص الخلفاء وولاتهم وقوادهم؛ «كما كانت عربية إسلامية غير خاضعة لطغيان الفارسية أو الرومية»[2].

وقد تمكن العرب - فى فترة وجيزة - من نشر الإسلام فى كثير من بقاع الأرض، وأظلّت عقيدة التوحيد شعوب تلك الأماكن، على اختلاف أجناسها وألوانها. ودانت لهم - فيما دان - دولتا الفرس والروم، وانتقلت سيادة العالم التى كانت لهاتين الدولتين لهم، وكل هذا رفع من نفسيّة العرب، وغلا كثير منهم فى ذلك، فداخلهم الإحساس بأن الدم الذى يجرى فى عروقهم دم ممتاز. ومن ثم فقد تملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة، فنظروا إلى غيرهم من الأمم نظرة السيد إلى المسود، وكان الحكم الأموى مؤسسا على هذه النظرة[3].

ويمكن القول بأن هذه النظرة كانت نتاجًا طبيعيًا نجم عن شعور الزهو والغلبة الذى يملأ عادة جوانح المنتصر، فيجعله ينظر إلى المنهزم تلك النظرة المشوبة بالاستعلاء. وربما كان هذا سببًا فى استطالة العرب على الموالى، الذين دخلوا فى الإسلام. ولم تكن

---

(١) يتحدث الجاحظ عن دولة «بنى مروان»، وأنها كانت «عربية أعرابية». البيان والتبيين جـ٣ ص٣٦٦.
(٢) أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى. مرجع سابق، ص١٨٦.
(٣) انظر: أحمد أمين. ضحى الإسلام جـ١ ص١٣.

هذه النظرة – بالطبع – تتفق مع ما كان يؤمّله أولئك الموالى ويطمحون فى تحقيقه. فضلا عن أنها تخالف ما يدعو إليه الدين الإسلامى، وينادى به من تسوية بين الأجناس وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وقد تحوّلت هذه النظرة إلى لون من «العصبية» العربية القوية التى تحقِر من لم يكن منها، واتخذت – فى بعض الأحيان – صورًا وأشكالا بغيضة، مما ولّد فى نفوس الموالى تيارًا عكسيًا، نقموا به على العرب خروجهم على أصول الإسلام، التى تسوّى بين أهله، ولا تفرّق بينهم باختلاف الجنس أو الطبقة[1].

هى – إذن – عصبية مرتبطة بالجنس، اتخذت لونًا من الصراع بين العرب والموالى، بدت بعض ملامحه وآثاره فى ظل الحكم الأموى، وأعلن عن نفسه بصورة قوية فى ظل الحكم العباسى.

وهناك شواهد كثيرة[2]، ترويها كتب الأدب والتاريخ، تبرز تلك الروح التى سيطرت على العرب، ومن ذلك ما يروى عن جرير الشاعر الأموى، وقد نزل بقوم من بنى العَنْبَر ابن عمرو بن تميم فلم يقْرُوه، حتى اشترى منهم القِرى، فانصرف وهو يقول:

يا مالكُ بنَ طريف إن بيعكمُ	رفْدَ القِرَى مُفسدٌ للدين والحسب
قالوا نبيعُكَه بيعا، فقلت لهم	بيعوا الموالى واستحيُوا من العرب

ويقال: إن جلَّة الموالى أنِفت من البيت الأخير؛ لأنه حطّهم ووضعهم، ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيبا[3].

وكان طبيعيًا أن نجد لونًا من ردّ الفعل عند بعض الموالى، وبخاصة من العنصر الفارسىّ، تمثّل فى الفخر على العرب بأنهم أصحاب حضارة عظيمة، عرفوا بها كيف يسوسون المُلْك. وقد ذكرنا – من قبل – ما رواه صاحب الأغانى من قصة إسماعيل بن

---

(١) انظر: أحمد الشايب. السابق نفس الصفحة.

(٢) سبق أن تحدثنا عن هذا الجانب فى العصر الأموى، وأوردنا بعض الشواهد لذلك. انظر: الفصل الخاص بـ «العصبية» فى العصر الأموى.

(٣) انظر: المبرد. الكامل فى اللغة والأدب. جـ١ ص٢٧٣. وانظر أيضا: أحمد أمين. السابق ص٢٤.

يسار النسائى مع هشام بن عبد الملك فى خلافته؛ إذ دخل عليه وهو بالرصافة جالس على بركة له فى قصره، فاستنشده شعرًا يمدحه به، فأنشده قصيدته التى يفتخر فيها بالعجم[١].

وإذا كان الأمويون قد وقفوا بحزم ضد هذه النزعة، وعاقبوا عليها فى قوة وعنف، فإنها ما لبثت أن تحوّلت من فخر ظاهر إلى دعوة سرّية تمثلت فى الدعوة العباسية[٢].

جذور الشعوبية وعوامل ظهورها

نستطيع – إذن – أن نقول: إن جذور «الشعوبية» قد وُجدت فى العصر الأموى، وإن موقف الأمويين تجاه «الموالى» كان من أقوى العوامل فى استثارة نفوسهم، واستنهاض مشاعر الاعتزاز بالماضى المجيد، وبعثها حيَّة فى الصدور .

هذا ما لمسناه من الكلام السابق، وما تؤكده كثير من الأخبار. فهذه الأخبار تتحدث عن إحساس الموالى بنوع من الظلم، وعن كرههم العميق للحكم الأموى، وقد عبّروا عن ذلك بطرق مختلفة، عنيفة أحيانًا، كالاشتراك فى الفتن والثورات، التى كثيرًا ما كانت تندلع فى أرجاء الدولة العربية الإسلامية ضد البيت الأموى، بُغية إسقاطه[٣].

وقد تتخذ طريقًا آخر، تمثّل فى الدعوة إلى نقل الخلافة من يد الأمويين إلى يد الهاشميين؛ وبهذا يتحقق لهم ما عجزوا عنه من قبل، من تحويل الأمر من العرب إلى الفرس، ليكون زمام الأمور بأيديهم. فهم إذا عضّدوا الهاشميين، رأى هؤلاء أنهم وصلوا إلى الحكم بمعونتهم، ونجحوا بتدبيرهم، فيكون ظاهر الحكم لهم، وباطنه للفرس؛ إذ يتولَّون المناصب العُليا فى إدارة شئون الدولة، ويترك للعرب أبَّهة الخلافة ومظهرها الخارجى[٤].

---

(١) انظر: الأغانى جـ٤ ص٤٢٢. وانظر: هذا البحث ص٢٧٣-٢٧٤.
(٢) انظر: أحمد أمين. السابق ص٣١. وانظر أيضًا: أبا الفرج فى إيراده بعض ما يتعلق بهذه الدعوة، وانتشارها فى خراسان، وتحذير نصر بن سيّار الولاة من البيت الأموى من أن تخرج الأمور من أيديهم، فلا يملكون السيطرة عليها. الأغانى. جـ٧ ص٥٦ . وانظر أيضا: الجاحظ: البيان والتبيين جـ١ ص١٥٨.
(٣) انظر: أحمد أمين. السابق. جـ٣٤.
(٤) نفس المرجع، ص٣٢.

لهذا يرى كثير من الدارسين أن اعتماد الدولة العباسية فى قيامها والتأسيس لها على الفرس كان مؤذنًا بكثير من التحولات فى الدولة العربية الإسلامية، وبعبارة أدق: بالإسراع فى إبراز تلك التحولات، وظهورها ماثلة للعيان[1].

بالإضافة إلى العامل السابق هناك عامل آخر تمثل فيما سُمّى بعملية «التوليد» ويُقصد بها ذلك النتاج – أو النسل – الذى يحدث من زواج العربى بامرأة غير عربية، أو من التسرّى بها. ومن الطبيعى أن يكتسب النتاج الجديد (المولّد) صفات جسمية وعقلية ونفسية من كلا الجانبين، لحمْله الدم العربى من جهة الأب، والأجنبى من جهة الأم.

وقد نشأت هذه الظاهرة مع الفتوحات الإسلامية، وما صحبها من غنائم وسبايا وُزّعت على الجيش العربى. ومن ثم كان لكل جندى عبيد وإماء يستخدمهم فى حوائجه، ويتسرى بمن شاء من الإماء، فكن يلدْن أولادًا.

وربما كره العرب هذا النوع من التناسل فى بداية الأمر؛ أنفةً منهم، وحرصًا على نقاء الدم العربى. يدل على ذلك قول الأصمعى: «كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد، حتى نشأ فيهم الثلاثة [على بن الحسين بن على بن أبى طالب، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب]، ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا، فرغب الناس فى السرارى»[2].

وقد امتاز العصر العباسى الأول بكثرة هذا الجيل من المولّدين، ولم يعد يحرص البيت الإسلامى على هذا النقاء المشار إليه سابقًا. بل إن بيت الخلافة، الذى يعد قمة الهرم الاجتماعى، كان عامرًا بأولئك الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات مختلفة، ومن ثم كان أكثر الخلفاء من أبنائهن؛ فالمنصور أمه حبشية، والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية، والمأمون أمه مراجل فارسية، وكذلك أم المعتصم ماردة، وكانت أم الواثق رومية تسمى قراطيس[3].

---

(١) انظر: السابق ص٣٥-٣٦.
(٢) ابن قتيبة: كتاب العرب أو الرد على الشعوبية ص٣٥٢.
(٣) انظر الأغانى: جـ١٨، ص٦٧.

وكان لهذا انعكاسه فيما نتحدث عنه وهو «الشعوبية»؛ فقد بلغت هذه الحركة أوْجها فى القرن الثالث الهجرى، وساعد على ذلك كما يقول أحمد أمين: «أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام، ولم يتعصبوا كثيرًا للعربية، فحاربوا الزندقة، ولم يحاربوا – فى شدة – النزعة العجمية؛ وذلك طبيعى لأن أكثرهم... مولّدون»[1].

يضاف إلى العاملين السابقين عامل ثالث كان من صنع العرب أنفسهم؛ فقد وجد هؤلاء المتعصبون للعجم تحت أيديهم مادة وفيرة تتحدث عن «مثالب العرب» قوامها تلك الأهاجى القبلية العنيفة التى وصلت ذروتها فى شعر «النقائض» فى العصر الأموى، وتلك الكتب التى وضعها أمثال: زياد بن أبيه وغيره، فاستغلوها فى ذمهم، وأضافوا إليها مادة مختلفة صاغوها فى قصص وأشعار ونسبوها إليهم[2].

تآزرت العوامل السابقة – إذن – فى إيجاد هذه الظاهرة ونموها وانتشارها وتغلغل آثارها فى كثير من جوانب الحياة العباسية. وقبل أن نتناول ذلك نتوقف لنبحث عن دلالة هذه الكلمة (الشعوبية).

الشعوبية: الدلالة والظاهرة

يورد ابن منظور فى حديثه عن المادة اللغوية لكلمة «شعب» ما يرتبط بها من: «شُعَب» و «شعوب» و«شعوبى». ويفهم مما أورده أن هناك من يرى أن لا فرق بين «الشَّعْب» و«القبيلة»؛ على حين أن هناك من يرى أن «الشَّعْبَ» أكبر من «القبيلة»، مستدلا لذلك بما رتّبه الزبير بن بكّار، وهو: الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم الفصيلة[3].

ويورد أيضا أن أصل «الشعب»: «ما تشعب من قبائل العرب أو العجم»، ويطلق على الجيل من الناس، عربًا كانوا أم غير عرب؛ فالعرب شعب، والفرس شعب، والروم شعب، وهكذا[4].

---

(١) أحمد أمين: السابق ص٤٥.

(٢) انظر: د. شوقى ضيف. السابق ص٧٦.

(٣) انظر: لسان العرب – مادة «شعب».

(٤) انظر: السابق، نفس المادة.

ويذكر - فيما يذكر - أن «الشعوب»: «فرقة لا تفضل العرب على العجم»؛ وأن «الشعوبى»: «الذى يصغِّر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم»[1].

وبتأمل ما سبق نجد أن هناك فرقًا بين المعنيين الأخيرين؛ إذ الأول ينفى تفضيل العرب على العجم، وهو ما يعرف بمذهب «أهل التسوية»، وهو ما سنتوقف عنده بعد ذلك. على حين أن الثانى يصغِّر من شأن العرب، ولا يضعهم فى الموضع اللائق.

على أن هناك من يذهب إلى أن «الشعوبية» مأخوذة من «الشعوب» فى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[2]؛ إذ المراد «بالشعوب» - هنا - بطون العجم، و«القبائل»: قبائل العرب[3]. وهو تفسير - فى نظر كثير من الدارسين- غير صحيح، وأوضح دليل على ذلك - كما يقول أحمد أمين - أن العرب لم تكن تفهمه بهذه الصورة حين نزول الآية؛ فقد نقل إلينا الطبرى آراء كثير من الصحابة والتابعين فى تفسيرها، وكلها تدور حول أن المراد بالشعوب. النسب البعيد، أو البطون، والقبائل دون ذلك[4].

ثم يقول أحمد أمين: «والذى يظهر أن تفسير الشعوب بالعجم، والقبائل بالعرب تفسير شعوبى، وضعه أعجمى واستطرد منه إلى القول بأن العجم أفضل من العرب، لأن الله قدّمهم فى الذكر. قال ابن قتيبة: وبلغنى أن رجلا من العجم... احتج بقول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ). الآية «وقال: الشعوب من العرب[5]، والقبائل من العرب، والمقدَّم أفضل من المؤخر. وقد كنت أرى أهل التسوية يحتجون بهذه الآية، وقد غلطوا من وجهين: أحدهما: أن تقديم الذكر لا يوجب تقديم الفضل؛ قال الله - عز وجل -: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾[6] فقدم الجن على الإنس، والإنس أفضل منها. والوجه الآخر:

---

(١) انظر: السابق، نفس المادة.
(٢) (سورة الحجرات: الآية ١٣].
(٣) انظر: أحمد أمين. السابق ص٥٧.
(٤) انظر: السابق. نفس الصفحة.
(٥) هكذا ! والصواب: «الشعوب من العجم».
(٦) [سورة الرحمن: الآية ٣٣].

أن العجم ليست بالشعب أولى من العرب، وكل قوم كثروا وانشعبوا فقد صاروا شعوبًا»[1].

وعلى أية حال تبقى الدلالتان الأُوليان أحق بالقبول، وأقرب إلى التصور؛ لأنهما تتفقان وما يمكن أن يلحق بالتطور الدلالى للكلمة تاريخيًا؛ فطبيعى أن يحاول الموالى أولا - وقد أحسُّوا بنوع من الظلم مردّه تلك العصبية العربية القوية التى سيطرت على سواد العرب وحكّام بنى أمية وولاتهم - أن يثبتوا أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم، وأن الأمم والشعوب مهما اختلفت أجناسها وألوانها سواء، ما دامت قد استظلت بالإسلام، وانضوت تحت لوائه، حتى إذا ما سيطر الفرس على زمام الأمور فى الدولة العباسية، وأصبحت لهم اليد الطولى فى تحريك الأحداث ودفْعها حسبما يتراءى لهم، انبرى نفر منهم يحاربون العروبة والإسلام، بالانتقاص من العرب، والإزراء على ما لهم من موروث، طالما أشادوا به، واعتزوا بقيمته[2].

ومن هنا يمكن أن نذهب مع بعض الدارسين[3] إلى أن اسم «الشعوبية» لم يستعمل إلا فى العصر العباسى الأول. وآية ذلك: «أن هذه النزعة التى تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم لم تتخذ شكلا قويًا واضحًا يصح أن يطلق على معتنقيه اسم إلا فى هذا العصر»[4].

فالشعوبية - طبقًا لهذا الرأى - «تطلق على هاتين النزعتين، وإن كانت النزعة الأخيرة - التى تحقّر من شأن العرب - هى التى اشتهرت بهذه التسمية. ويرى أحمد أمين أن أحق الناس بهذا الاسم أصحاب النزعة الأولى - التى تسوّى بين العرب وغيرهم من الأمم - لأنهم يقولون (بالشعوب): أى بأنه لا فرق بين الشعوب من عرب وغيرهم فى الشرف والخسَّة، فكان أمامهم أن يتسموا باسم مشتق من المساواة، أو باسم مأخوذ من الشعوب يدل على أن الشعوب سواء، فاختاروا الثانى، وسُمُّوا (الشعوبية). ويستدل

---

(١) أحمد أمين السابق، نفس الصفحة.

(٢) انظر: السابق ص٥٦.

(٣) انظر: السابق ص٥٧-٥٨.

(٤) السابق: نفس الموضع.

بقول صاحب العقد الفريد: (الشعوبية وهم أهل التسوية)، وصاحب الصحاح: (الشعوبية فرقة لا تفضل العرب على العجم)[١].

قد يُقال إن بعض المؤلفين - كأبى الفرج - وصف بعض شعراء بنى أمية - ممن هم من أصل فارسى - بالشعوبية، مثل: إسماعيل بن يسار النسائى[٢]، وهذا يتعارض مع ما سبق أن ذكرناه. ويمكن دفع هذا التعارض إذا عرفنا أنه يصفه بما هو معروف وشائع فى عصر أبى الفرج، ولا يعنى ذلك أن إسماعيل بن يسار عُرف بذلك الاسم فى العصر الأموى[٣].

ويلفت نظرنا ما أورده ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) فى رسالته «الرد على الشعوبية»[٤]؛ إذ يذكر أنه لم ير فى هذه الشعوبية أرسخ عداوة، ولا أشدَّ نصبًا للعرب من «السفِلة والحشوة، وأوباش النبط»؛ فأما أشراف العجم، وذوو الأخطار منهم، وأهل الديانة، فيرون الشرف نسبًا ثابتًا[٥].

ويذهب إلى أن «السفلة» منهم إنما لهجت بذم العرب؛ لأن قومًا منهم تحلَّوا بالأدب، وعُرفوا بالكتابة، فجالسوا الأشراف، وقُرِّبوا من السلطان، فمنهم من ألحق نسبه بأشراف العجم، وانتسب إلى ملوكهم وسادتهم؛ ومنهم من بقى على خساسته، ينافح عن لؤمه، ويدّعى الشرف للعجم كلها، ليكون من ذوى الشرف، ويُظهر بغض العرب، بتنقصها وإظهار مثالبها[٦].

ومن يتأمل ما ورد متصلا بهذه الظاهرة فى كتب التاريخ والأدب وغيرها، يجدها تمتد

---

(١) انظر: السابق ص٥٦.

(٢) انظر: الأغانى جـ٤ ص٤١٢. وقد أوردنا عبارته من قبل، ونحن نتحدث عن العصر الأموى؛ إذ يقول عنه: إنه من سبْى فارس، وكان شعوبيًا شديد التعصب للعجم، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم، بل إننا سنجد أبا الفرج يصف بعض الموالى بهذا الوصف فى فترة متقدمة قبل العصر الأموى.

(٣) انظر: أحمد أمين. السابق ص٥٨.

(٤) هناك رسالة ألفها ابن قتيبة بعنوان: «كتاب العرب أو الرد على الشعوبية»، نشرت ضمن رسائل البلغاء. وقد سبق ذكرها.

(٥) انظر: السابق. ص٣٤٥.

(٦) انظر: السابق. ص٣٤٥-٣٤٦.

لتشمل «السفِلة» و «الأشراف» على السواء؛ ويبدو أن ابن قتيبة اقتصر على من يتظاهر بالشعوبية، أو من يعلن عن نفسه بصورة سافرة، وهؤلاء كانوا كما ذكر ابن قتيبة. أما الأشراف من أصحاب النفوذ والسلطان فكانت حركتهم سرية خفية، لا يجرءون أن يظهروها أو يعلنوا عنها، لكبر مراكزهم، وخشيتهم من الشك فيهم[1].

ومن يتأمل ما ذكره أبو الفرج من أخبار عنها يدرك أن هناك عناصر كثيرة قد أسهمت فى إمدادها بوقود زَاد فى تأججها ولهيبها. ومن ثم فلم تكن محصورة فى «السفِلة» وحدهم. ولم يكن هؤلاء «السفلة» الآخذين بزمامها، وإنما كان معهم كثير من الطبقة المتعلمة الراقية، وإن كانت لا ترقى فى نسبها إلى الملوك والأشراف؛ ومن وراء هؤلاء طبقة بلغت أعلى المناصب فى الدولة، كانت تُمدهم سًّرا بما لديها من جاه ومال[2].

والناظر إلى حركة «الشعوبية هذه يجد أنها كانت - فى جوهرها- مبالغة فى الرد على العرب، وما كانوا يعتدون به، ويذيعونه لهم من فضائل وأمجاد، من أشهرها:

أنهم قادة الأمم فى البيان والبلاغة، وهم معدن الشعر، ولهم فى حسن البديهة، وقول الأمثال السائرة، وإبداع الكلام ما ليس لغيرهم.

ثم هم خير الأمم؛ فقد عاشوا حياتهم يتمتعون بالاستقلال، ويحمون ديارهم وأرضهم، ولم تجرؤ دولتا الفرس والروم أن تمسّ هذا الاستقلال، بل ربما استعانت هاتان الدولتان باللخميين فى الحيرة، والغسانيين فى الشام، ومنحوهم المال ليحموهم من غارات عرب الجزيرة عليهم.

كما أن لهم صفات خلقية امتازوا بها؛ فهم أكرم الناس لضيف، وأسرعهم لمستصرح، وأوفاهم لعهد. وهم أحفظ الناس لأنسابهم، وأقدرهم على الذود عنها. ثم إن الإسلام قد نشأ بينهم، ورسول الله من أنفسهم، وهم الداعون إليه، والناشرون له بين الأمم؛ فكل من أسلم من العجم ففى عنقه منَّة من العرب لا تقدّر؛ إذ أنقذوه مما كان يتردى

(١) انظر: أحمد أمين. السابق ص٦٤.

(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.

فيه من مهاوى الشرك والضلال[1].

هذه هى أبرز حجج المتعصبين للعرب. وقد واكب هذه النزعة ما سبق أن ذكرناه من إحساس الفاتح المنتصر بالزهو والغلبة والسيادة، مما انعكس أثره عمليًا فى تلك المعاملة التى عانى منها كثير من الموالى إبّان الحكم الأموى.

وطبيعى أن تحاول النزعة الأخرى: (الشعوبية) الردّ على النزعة السابقة، أو نقضها والمبالغة فى الطعن على أصحابها. ومن ثم فقد انقسمت إلى مذهبين: ما يسمى «بمذهب أهل التسوية»، و«مذهب الطعن على العرب».

مذهب أهل التسوية

ويمثله المعتدلون من العجم - وكذلك أكثر المتدينين من العرب - الذين وقفوا عند حدّ التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى. ومن حججهم: أن الناس كلهم من أصل واحد، وهذا ما تؤكده الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة. من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]. ومن مثل قول النبى ﷺ فى خطبته فى حِجَّة الوداع: أيها الناس، إن الله قدْ أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتفاخرها بالآباء. ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب»[4]، وقوله: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم»[5].

وهذا الذى ذهبوا إليه لم يخرج عما أورده أبو الفرج فى معرض حديثه عن ديك

---

(١) انظر فى ذلك: أحمد أمين. السابق ص٥٠-٥١ وهو يستمد - فى هذا - من ابن قتيبة والجاحظ وابن عبد ربه فيما كتبوه فى هذا الشأن.

(٢) [سورة الحجرات: الآية ١٣].

(٣) [الحجرات: الآية ١٠].

(٤) أحمد بن حنبل - مسند ابن حنبل: جـ٥ ط المكتب الإسلامى. الحديث رقم (٤١١).

(٥) انظر ابن عبد ربه. العقد الفريد. كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب جـ٣ ص٤٠٣-٤٠٤، ٤٠٨. وانظر: مسند ابن حنبل، السابق، قسم (١) الحديث رقم (٨١).

الجن[1]، إذ يقول: «وكان شديد التشعب والعصبية على العرب، يقول: ما للعرب علينا فضل؛ جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم ﷺ، وأسلمنا كما أسلموا، ومن قتل منهم رجلا منّا قُتل به، ولم نجد الله ـ عز وجل ـ فضلّهم علينا، إذ جمعنا الدين»[2].

مذهب الطعن على العرب:

على أن النزعة الثانية التى تتخذ من الطعن فى كل ما يعتز به العربى سلاحًا توجهه إلى صدره، هى التى أثارت حفيظة العرب، ودفعت بكثير منهم إلى الرد عليها[3].

ويلفت النظر أن أصل هذه المثالب كان زيادًا؛ «فإنه لما ادُّعى إلى أبى سفيان، وعلم أن العرب لا تقرُّ له بذلك مع علمها بنسبه، ومع سوء آثاره فيهم، عمل كتاب (المثالب)، فألصق بالعرب كلِّها كل عيب وعار، وحق وباطل، ثم بنى على ذلك الهيثم بن عدى - وكان دعيًّا، فأراد أن يعُرَّ أهل البيوتات تشفيًا منهم»[4].

---

(١) ديك الجن: اسمه: عبد السلام بن رغْبان بن عبد السلام بن حبيب. .. وديك الجن: لقب غلب عليه، وهو شاعر مجيد، يذهب مذهب أبى تمام والشاميين فى شعره. من شعراء الدولة العباسية وكان يتشيع تشيعًا حسنًا. انظر: الأغانى، جـ١٤ ص٥١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) من أبرز من تولى الرد على تلك المطاعن: الجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه. أفرد الجاحظ كتابًا فى: «البيان والتبيين» سماه: «كتاب العصا، للرد على الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية» - الجزء الثالث. هذا عدا كتاباته الأخرى المتفرقة التى وردت فى «الحيوان» وغيره، مما له صلة بذلك. وكذلك فعل ابن قتيبة، إذ ألّف رسالة عنوانها: «كتاب العرب» أو «الرد على الشعوبية» (نشرت ضمن رسائل البلغاء). أما ابن عبد ربه فقد أورد «قول الشعوبية وهم أهل التسوية»، ورد ابن قتيبة على الشعوبية، ورد الشعوبية على ابن قتيبة، ثم «باب المتعصبين للعرب» فى كتابه الذى أسماه: «كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب». الجزء الثالث من «العقد الفريد». هذا وابن قتيبة بعد أن دافع عن العرب، وأبان فضلهم على غيرهم، ثم عاد فنقض كل ذلك، وقرر المساواة؛ حيث يقول بعد ذلك: «وأعدل القول فى الشرف، أن الناس لأب وأم، خلقوا من تراب، وأعيدوا إلى التراب. ..» ص٣٥٦ - رسائل البلغاء، (السابق).

(٤) الأغانى: جـ٢٠ ص٧٧. وانظر: ابن قتيبة. السابق ص٣٤٦ حيث يقول: «وقد كان زياد بن أبى سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية فى استلحاقه عمل كتابًا فى (المثالب) لولده، وقال: من عيّركم فاقرعوه بمنقصته، ومن ندّد عليكم فابدهوه بمثلبته؛ فإن الشر بالشر يتّقى، والحديد بالحديد يفلح». هذا؛ والهيثم ابن عدى يكنى بأبى عبد الرحمن، وهو عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب. وكان يطعن فى نسبه وتوفى سنة ٢٠٧هـ، وله من الكتب كتاب المثالب. انظر ابن النديم السابق: ص١٥٩.

ثم جدّت أمور أدت إلى أن يتولى كِبْرِها كثير من الموالى[١] فى العصر العباسى على اختلاف عناصرهم ومشاربهم.

وفى مقدمة هذه الأمور ما شاع من «مجون وزندقة» فى هذا العصر. ومن يقرأ ما أورده أبو الفرج عن كثير من شعراء العصر العباسى يلحظ أنه يقرن – عادة – الزندقة بالخلاعة[٢] والمجون. وشواهد ذلك كثيرة متكررة. فهو – حين يتحدث عن مطيع بن إياس – يذكر أنه شاعر من مخضرمى الدولتين: الأموية والعباسية، وكان ظريفًا، خليعًا، حُلو العشرة، مليح النادرة، ماجنًا، متهمًا فى دينه بالزندقة[٣].

وعن صُحبته يقول: «كان مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثى، وابن المقفّع، ووالبةُ بن الحُباب يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملْك، وكانوا جميعًا يُرمَوْن بالزندقة»[٤].

وعن حماد عجرد يقول: «كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم (الحمّادون): حمّاد عجرد، وحمادُ الراوية، وحمّاد بن الزبرقان، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار،

(١) بعد أن يتحدث أبو الفرج عن أن أصل المثالب «زياد» يُتبعه بالحديث عن أبى عبيدة معمر بن المثنى، وأنه فعل ذلك، وكان أصله يهوديًا، أسلم جده على يد بعض آل أبى بكر الصديق، فانتمى إلى ولاء بنى تيْم، فجدد كتاب زياد وزاد فيه. انظر: الأغانى، السابق، نفس الصفحة.

(٢) من يتأمل ما ورد بكتاب «الأغانى» متصلا بالخلاعة والمجون وما صحبهما من زندقة يجد أن بذور «المجون» وضعت فى العصر الأموى، وبدأت فى النمو، ولكنه النمو البطىء، وفى قلّة من الناس؛ لعدم توافر الظروف المساعدة على ذلك. حتّى إذا ما واتت الظروف، انطلق كثير من الناس، فانغمسوا فيه، وأشاعوه، بل وجاهروا به، ولهذا دلالته فى أن «الظاهرة الاجتماعية» لا توجد طفرة، وليست وليدة فترة زمنية معينة. آية ذلك أن الوليد بن يزيد أمر شُراعة بن الزَّنْدبوذ أن يسمِّى له جماعة ينادمهم من ظرفاء أهل الكوفة، فسمَّى له مطيع بن إياس وحماد عَجْرد والمطيعىَّ المغنى، فكتب فى إشخاصهم إليه، فأشخصوا، فلم يزالوا فى ندمائه إلى أن قُتل، ثم عادوا إلى أوطانهم (الأغانى: جـ١٤ ص٣٣٥). وفى أخبار «آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز» – وهو أحد من منّ عليه أبو العباس السفّاح من بنى أمية، لما قتل من وجد منهم – أنه كان «فى أول أمره خليعًا ماجنًا، منهمكا فى الشراب، ثم نسَك بعد ما عُمِّر، ومات على طريقة محمودة». جـ١٥ ص٢٨٦. والروايات التى تتناول خبره فى شرب الخمر، والإفراط فى المجون، وشعره فيهما مع المهدى تتعدد، ولكنه فيها يؤكد حين اتهم بالزندقة أنه ما أشرك بالله طرْفة عين، متسائلا فى إنكار: «ومتى رأيت قرشيا تزندق ؟!». انظر: السابق ص٢٨٦-٢٨٨.

(٣) انظر: الأغانى جـ١٣ ص٢٧٦.

(٤) السابق: ص٢٧٩.

ويتعاشرون معاشرة جميلة، وكانوا كأنهم نفْس واحدة، يُرْمون بالزندقة جميعا، وأشهرهم بها حمّاد عجرد»[1].

هذا الكلام يتردّد كثيرًا فى كتاب «الأغانى» وغيره من الكتب التى أرخت لهذه الفترة أو كتبت عنها[2] إذا عرضوا لهؤلاء الشعراء العابثين الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى. ومن الملاحظ أن موطن هؤلاء كان العراق؛ فكانوا موزعين بين مدنها الثلاث: الكوفة والبصرة وبغداد ولا نكاد نجد شيئًا يذكر عن دمشق ولا عن مصر. وهذا يعنى - كما يذهب إلى ذلك د. طه حسين - أن «الزندقة» عراقية؛ لأنها فارسية ! مصدرها الفرس وأهل العراق الذين تأثروا بالفرس، وكانوا بهم أشد اتصالا[3].

فإذا ما تأملنا الأخبار المتعلقة بهذه النزعة وجدناها تعبر عن لونين شاعا بصورة تلفت النظر فى ذلك العصر، أحدهما: ارتبط بنوع من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم بنوع خاص؛ ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم، وما ذاع فيهم من عقيدة دينية. وأكثر هؤلاء الزنادقة والعابثين كانوا يتخذون من عقائد الفرس وسيلة إلى النعْى على الإسلام، والتخلص من قيوده، وما أخذ الناس به من واجبات، ويؤثرون عليها ضروبًا من البدع، تدعو إلى الإباحة واللذة، وتعين عليها. كانوا - إذن - يطمحون قبل كل شىء إلى أن يستمتعوا باللذات فى غير حساب ولا تقتير، ولا سيما هؤلاء الذين كانوا لا يحفلون بالسياسة، ولا يكرهون سلطان الدولة العربية، ولا يريدون أن يثأروا للفرس من العرب[4].

---

(١) الأغانى. جـ١٤ ص٣٢٢.

(٢) انظر: ابن المعتز. طبقات الشعراء. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف بمصر. الطبعة الرابعة ١٩٨١م. فهو يورد النص السابق فى معرض حديثه عن «أخبار الحمادين» ص٦٩ وما بعدها. ومن الواضح أن أبا الفرج نقل عنه ما أخذه. وانظر أيضا ما ذكره ابن المعتز عن «مطيع بن إياس» بأنه «أحد الخلعاء المجان» السابق، ص٩٥.

(٣) انظر د. طه حسين. حديث الأربعاء جـ٢، ص١٦٠ - ١٦١.

(٤) انظر: السابق ص١٦٢ وربما كان الدكتور طه حسين يستمد فى هذا من أبى الفرج عندما روى عن أبى نواس قوله: «كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما رمى بالزندقة لمجونه فى شعره...» الأغانى جـ١٤ ص٣٢٤.

والآخر: يتمثل فى عدد كبير من أصحاب النفوذ والسلطان، الذين كانوا يظهرون ولاءهم للدولة، ويخفون ما يضمرونه من حقد دفين على الدين الحنيف، وكل ما اتصل به من عرب وعروبة. أولئك الذين يحفلون بالسياسة، ويريدون أن يثأروا للفرس من العرب.

وفى هذا وذاك يتجلى قول الجاحظ: «إن عامة من ارتاب بالإسلام، إنما كان أولُ ذلك رأى الشعوبية والتمادىَ فيه، وطول الجدال المؤدى إلى الضلال؛ فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام؛ إذ كانت العرب هى التى جاءت به، وهى السلف والقدوة»[1].

وقد حفِل كتاب الأغانى - وغيره بالطبع - بالحديث عن اللونين، وما ارتبط بهما من صراع سافر فى كثير من الأحيان بين العرب والفرس.

ومن أبرز الشواهد لذلك: بشار بن برد»[2]؛ إذ يذكر أبو الفرج أن أباه كان طيَّانًا يضرب اللبِن، وقد هجاه حماد عجرد بذلك [3].

وكان يعتد بأصله العجمى؛ من ذلك ما يُروى من أنه لما دخل على المهدىّ سأله: فيمن تعتدّ يا بشار ؟ فقال: أما اللسان والزِّى فعربيان، وأما الأصل فعجمى، وأنشده قوله:

ونُبئتُ قوما بهم جِنَّةٌ	يقولون: من ذا وكنت العلمْ
ألا أيها السائلى جاهدا	ليعرفنى أنا أنْفُ الكرمْ
نمت فى الكرام بنى عامرٍ	فروعى وأصلى قريش العَجَمْ

---

(١) الحيوان: تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت ١٩٨٨م، جـ٧ ص٢٢٠.

(٢) هو بشار بن برد بن يرجُوخ... وكان يرجُوخ من طخارستان من سبى المهلّب بن أبى صفرة. وكان يُكنى أبا مُعاذ. وكان ولاؤه لبنى عُقيل. ومما يروى فى ذلك: أن رجلا من ولد بشار يقال له حمْدان - كان قصَّارًا (القصَّار: محوِّر الثياب أى مبيضها) بالبصرة ذكر أن ولاءهم لبنى عُقيل، فلما سئل: لأيهم ؟ قال: لبنى ربيعة ابن عُقيل. انظر: الأغانى. جـ٣ ص١٣٥-١٣٦.

(٣) انظر: أبيات الهجاء: السابق ص١٣٧.

فإنى لأُغنّى مقام الفتى وأُصبى الفتاة فما تَعتصمْ

وحين سأله المهدى: فمن أى العجم أصلك ؟ قال: من أكثرها فى الفرسان، وأشدها على الأقران: أهل طُخارَستان. فقال بعض القوم: أولئك الصُّغدُ، فنفى بشار ذلك وقال: «الصُّغد تجار»، فلم يردُد ذلك المهدى[1].

كما كان «كثير التلوُّن فى ولائه، شديد الشغْب والتعصب للعجم»[2].

ويورد لنا أبو الفرج ما قال الجاحظ فى بشار من أنه كان «يدين بالرجعة، ويكفِّر جميع الأمة، ويصوّب رأى إبليس فى تقديم النار على الطين. وذكر ذلك فى شعره، فقال :

الأرضُ مُظلمة، والنارُ مشرقةٌ والنار معبودةٌ مُذْ كانت النارُ»[3]

وقد تآزرت فيه مجموعة من الخصال لتجعل منه واحدًا من أهم الشعراء الذين ظلوا يُمدون «الشعوبية» بمدد لا ينقطع من أشعارهم، فيزيدها ضراوة واتقادًا.

فبالإضافة إلى محلِّه فى الشعر، وتقدُّمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة[4]، كان من أصحاب الكلام الستة بالبصرة: عمرو بن عُبيد، وواصل بن عطاء، وبشار الأعمى، وصالح بن عبد القُدّوس، وعبد الكريم بن أبى العوْجاء، ورجل من الأزْد يقال له: جرير بن حازم: فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ويختصمون عنده. ثم افترقوا؛ فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال، وأما غيرهما فذهبوا مذاهب مختلفة فى الكلام، ومنهم من ألحد ولم يُخف إلحاده. وأما بشَّار فبقى متحيِّرًا مخلّطًا، كما يقول أبو الفرج[5].

---

(١) انظر: السابق ص١٣٨. وانظر أيضا: الجاحظ. البيان والتبيين. جـ١ ص٤٩؛ حيث يذكر أن لبشار مديحًا كثيرًا فى فرسان أهل خراسان ورجالاتهم. وهو الذى يقول:

من خراسان وبيتى فى الذُرى ولـدى المسعاة فرعـى قد بَسَقْ

وقال:

وإنى لمن قوم خراسان دارُهم كرام، وفرْعى منهُمُ ناضرٌ بَسَقْ

(٢) الأغانى: السابق ص١٣٩ معَ ملاحظة أن كلمة «الشغْب» وردت فى نسخ أخرى «التشعب». انظر: السابق، نفس الصفحة. هامش (١).

(٣) الأغانى: ج٢، ص ١٤٥.

(٤) انظر: الأغانى: السابق ص١٣٥.

(٥) انظر: السابق ص١٤٦-١٤٧.

ويأخذ د. طه حسين من هذا الكلام دليلا على إسراف بشار فى «النفاق»، وليس يمثل إسرافه فى النفاق أكثرُ من مكانه من الزنادقة، ورأيه فيهم، وسيرته معهم؛ فإن بشَّارا لم يعلن شيئًا خاصًا، وإنما مضى فى سيرته، يخيِّل للناس أنه يرى رأى الجماعة، ويضمر الزندقة والإلحاد، ويزدرى رأى الجماعة، وكان الناس يعلمون منه ذلك، ولكنهم يتقّونه، لإسرافه فى الهجاء. فهو لم يتورّع عن هجاء واصل، حين أنكر عليه ما كان يضمره، وهتف به، حتى سكت عنه واصل، وكذلك كان يفعل مع كل من يخشى منه شرا. ولم يكن يكتفى بهذا، وإنما كان يدفع عن نفسه الزندقة بهذه الطريق التى يسلكها الجبناء وأنذال الناس، فيتهم بها غيره من خصومه، ومن أصدقائه أيضا[1].

وهو – فى هذا – يختلف عن كثير غيره من الشعراء الماجنين العابثين، الذين يحبون المجون واللذة على غير عقيدة، ولا مذهب فلسفى؛ فقد كان من أشد الناس إلحادًا فى الدين، وتهالكًا على اللذة. وكانت زندقته قائمة على رأى وبصيرة؛ ومن ثم كان لها وجهان: «أحدهما علمى نظرى، فيه ذكر لمذهبه، ودفْع عنه، وحوار دونه؛ والآخر عملى أدبى، يشارك فيه حمَّادا ومطيعًا وغيرهما من المجان»[2]. وقد ذكرنا شيئًا مما كان يدين به فى الصفحات السابقة، وهو من هذه الناحية فارسىّ الزندقة.

والحق أنه كان – كما يذهب كثير من الدارسين – «فارسيًا فى كل شىء؛ كان فارسيا فى زندقته، يقدّم النار التى يعبدها الفرس. وكان فارسيًا فى أهوائه وميوله السياسية؛ فلم يكن يحب العرب، ولا يرتاح إليهم، وإنما كان يحتملهم احتمالا. وكان ينكر الولاء، ويحث الموالى على أن ينكروه. وكان يرى أن الفرس ليسوا أقلّ كرامة ولا شرفًا ولا حرية من العرب، ولم يكن يكره أن ينتسب إلى آبائه من الفرس، وربما فاخر بنسبه الفارسىّ»[3].

بل إنه اعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم، على الرغم من أصله المعروف؛ فقد مضى يزعم أنه ينتسب إلى قياصرة الروم من جهة أمه، على نحو ما نجد فى قصيدته:

(١) انظر: د. طه حسين حديث الأربعاء. السابق ص١٩٢.
(٢) د. طه حسين: السابق. نفس الموضع.
(٣) د. طه حسين: السابق. ص١٩٣.

هل من رسول مُخبرٍ   عنى جميع العرب

فهذه القصيدة تفصح عن ضراوة حقده العنيف على العرب. ويتجلى ذلك فى مقارنته بين بداوة العرب الجافية، وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم[1].

وممن كثر الحديث عنه، واختلف الناس من حوله: «أبو نواس» الحسن بن هانئ، مولى آل الحكم بن الجرّاح من بنى سعد العشيرة. وهو فارسىّ الأم والأب أيضًا[2].

وقد اشتركت عناصر كثيرة فى تكوين طبيعة أبى نواس؛ فقد كان فارسيا حادّ المزاج، وثقف كل الثقافات التى عاصرها من عربية وإسلامية[3] ومن هندية وفارسية ويونانية ومن مجوسية ويهودية ونصرانية. وغرق فى حضارة عصره المادية، وما ماجت به من آثام وخطايا. وتردّى فى أسوأ صور المجون، المتمثلة فى غزله الشاذ بالغلمان. وهو – فى بعض الأحيان – يقرن بمجونه وعبثه لونًا من التمرد والإلحاد فى الدين، يراها بعض

---

(١) انظر: د. شوقى ضيف: السابق ص٧٧-٧٨.
وفى ديوان بشار:

هل من رسول مخبر	عنى جميع العرب
من كان حيًّا منهم	ومن ثوى فى الترب
جدى الذى أسمو به	كسرى، وساسان أبى
وقيصرٌ خالى إذا	عددتُ يوما نسبى
كم لى وكم لى من أب	بتاجه معتصب

انظر: الديوان جمع وتحقيق وشرح: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للتوزيع جـ١، ص٣٨٩ وما بعدها.

(٢) انظر: الأغانى. طبعة دار الشعب، السابق، المجلد ٢٩ ص ٩٨٣١. هذا؛ ومن المعروف أن طبعة دار الكتب تخلو من ترجمة خاصة بأبى نواس. وقد استغرق الحديث عن أبى نواس فى طبعة دار الشعب مجلدا كاملا وشطرًا من المجلد ٣٠ . وانظر أيضا: ابن المعتز. طبقات الشعراء ص١٩٣-١٩٤.

(٣) ليس أدلّ على هذه الثقافة العربية الإسلامية مما يذكره ابن المعتز، من أن أبا نواس لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب، فما ظننا بالرجال ؟! وقد حدّث عن نفسه فقال: «أحفظ سبعمائة أرجوزة، وهى عزيزة فى أيدى الناس، سوى المشهورة عندهم». كما يروى ابن المعتز: «كان أبو نواس عالمًا فقيهاً، عارفًا بالأحكام والفتيا، بصيرًا بالاختلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. وقد تأدب بالبصرة، وهى يومئذ أكثر بلاد الله علمًا وفقهًا وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدَثين» طبقات الشعراء ص٢٠١. وانظر أيضا ص١٩٤.

الدارسين إلحادًا عابرًا، لا إلحاد عقيدة كإلحاد بشار؛ فقد كان بشار زنديقًا، وكان يظهر زندقته حين لا يخشى على نفسه، ويبطنها حين يأخذه الخوف، أما أبو نواس فلم يكن يعتنق الزندقة، إنما كان يعتنق المجون، ويتعبّد لملاذ الحضارة التى عاشها، فصاح بالدين الحنيف كأنه يرى فيه عائقًا عن خمره ومجونه وإثمه(١).

وأبو نواس يمثل الجيل الذى خلف بشارًا، وطبيعى أن نجد تأثره بالحضارة الفارسية المادية يزداد اتساعًا، كما تزداد ثورته على العُرْف والخلق والدين. وهو يُعَدُّ أهم شاعر يصور الفساد الخُلقى من جميع نواحيه(٢).

ويروى أبو الفرج أن أبا نواس كان يفضل العجم، ويمدحهم، ويشتهى أن يذكر مناقبهم وآثارهم، وأن يتزيا بزيِّهم، ويُظهر للناس أنه منهم(٣).

ومن أشعاره التى أوردها ابن عبد ربه له «على مذهب الشعوبية»(٤):

وجاورْتُ قوما ليس بينى وبينهم	أواصرُ إلا دعوةٌ وظُنونُ
إذا ما دعا باسمى العريفُ أجبتُه	إلى دعْوة ممّا علىَّ تهونُ
لأزْد عُمان بالمهلّب نزوةٌ	إذا افتخر الأقوامُ ثم تلينُ
وبكرٌ ترى أن النبوة أُنزلتْ	على مسْمَع فى البطْن وهو جنينُ
وقالت تميمٌ لا نَرى أن واحدًا	كأحنفِنا حتى المماتِ يكونُ
فلا لمتُ قيْسًا بعدها فى قتيبة	إذا افتخرت إن الفَخَار فنونُ

ومن الشعر الذى يورده «الأغانى»(٥) لأبى نواس هذه الأبيات :

عاجَ الشقىُّ على ربْع يسائله	وعُجْت أسأل عن خمَّارة البَلَدَ
كم بين من يشترى خمرا يلَذُّ بها	وبين باك على نُؤى ومُنتَضَدِ(٦)

(١) انظر: د. شوقى ضيف، السابق ص٢٢٦.

(٢) انظر: السابق ص٢٢٠.

(٣) انظر: الأغانى. طبعة دار الشعب. مجلد ٣٠ ص ١٠٠٧٧.

(٤) العقد الفريد: السابق. «كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب» ص٤٠٨.

(٥) السابق: ص١٠٠٨٧-١٠٠٨٨. وسنجد بعض الاختلاف فى رواية الديوان.

(٦) النؤى: الحفير حول الخيمة يمنع عنها السبيل.

قالوا: ذكرْتَ ديارَ الحيِّ من أسَدِ ... لادرّ درُّك قُل لى: من بنو أَسَدِ
ومن تميمٌ ومن قيسٌ وإخوتُهم ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحَدِ
لا يُرْقِئ الله عينىْ من بكى حجرا ... ولا شَفَى وجْدَ من يصبو إلى وَتِدِ
دعْ ذا، عدمْتك، واشربها معتّقة ... صفراءَ تُعنِق بين الماء والزبَدِ[1]

لقد ذكرنا من قبل أن «الشعوبية» كانت تتفاوت حدَّةً واعتدالا، ورأينا - أيضًا - أن أبا نواس يعدّ أهم شاعر يصور الفساد الخلقى لذلك العصر، بما فيه من عبث ومجون، ويمزج هذا كلَّه - فى بعض الأحيان - بنوع من الإلحاد العابر؛ ومن ثم فإن الدارسين اختلفوا فيه وفى شعوبيته كثيرًا.

فالدكتور طه حسين بيَّن مجونه هذا وما كان يقصد إليه أبو نواس ويدعو له، وهو: أن يتخذ - ويتخذ الناس معه - فى الشعر مذهبًا جديدًا، يتمثل فى: التوفيق بين الشعر والحياة الحاضرة، بحيث يكون الشعر مرآة صافية، تنعكس فيها الحياة؛ فيصف القصور والرياض، ويتغنى الخمر والقيان. وهذا يعنى: العدول عن طريقة القدماء، وما ألفوه من وصف الخيام والأطلال، أو تغنى الإبل والشاء[2].

ويتابع رأيه بأن هذا المذهب الجديد «ليس مذهبًا شعريًا فحسب، وإنما هو مذهب سياسىّ أيضا. يذم القديم - لالأنه قديم، بل لأنه قديم، ولأنه عربى؛ ويمدح الجديد - لالأنه حديث - بل لأنه حديث، ولأنه فارسىّ؛ فهو - إذن - مذهب تفضيل الفرس على العرب، مذهب الشعوبية المشهور»[3].

ويدْعم رأيه بُسخْط كثير من العرب وأنصار العربية على هذا المذهب الجديد، وبحبْس الرشيد أبا نواس لقصيدة هجا بها العرب[4].

على حين يرى د. شوقى ضيف أن «شعوبيته - إن صح هذا التعبير - من لون

---

(١) تعنق: تتحرك بسرعة.
(٢) انظر حديث الأربعاء: السابق ص٩٠.
(٣) السابق: نفس الموضع.
(٤) انظر: السابق ص٩١.

آخر؛ ذلك لأنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس، كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية، وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفًا، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار، ودعوة حارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله[1] :

عاج الشقىّ على رسْم يسائلُه — وعُجت أسألُ عن خَمَّارة البَلَد
يبكى على طلل الماضين من أسدٍ — لادرَّ درُّك قل لى من بنو أسدِ ؟
كم بين ناعتِ خمْر فى دساكرها — وبين باكٍ على نُؤْيٍ ومنتضَدِ[2]
دعْ ذا، عدمتُك، واشربها معتَّقةً — صفراء تفْرق بين الروح والجسدِ[3]»

ثم يتابع كلامه مشيرًا إلى وجهة نظر د. طه حسين السابقة بأننا «نظلم أبا نواس إذا سمينا ذلك - كما ذهب بعض المعاصرين - شعوبية حقة، إنما هو تماجن وإمعان فى التماجن. ولذلك لم يرفض هو نفسه البكاء على أطلال البادية، بل لقد بكاها كثيرًا»[4].

ويبدو لنا أن وجهة النظر الأخيرة أقرب للقبول؛ لأنها تتفق مع ما نعرفه من حياة أبى نواس وأشعاره. هذا؛ إلى أن ما يورده ابن المعتز من أنه كان شديد التعصب لقحطان على عدنان، وله فيهم أشعار كثيرة، يمدحهم ويهجو أعداءهم - يدْعم وجهة النظر هذه[5]. فمما يُروى له فى تفضيل اليمن والافتخار بهم قوله:

لسْتُ لدار عَفَتْ وغيَّرها — ضربان من قَطْرها وحاصِبها

وفى هذه القصيدة يقول:

فنحن أربابُ ناعِطٍ ولنا — صنعاء والمسك فى محاربها[6]

---

(١) الديوان: ص٢٦٦. هذا؛ ومن البيّن أن هناك اختلافًا بين هذه الأبيات، والأبيات التى أوردناها من قبل فى هذا البحث ص٥٥٢-٥٥٣.

(٢) الدساكر: جمع دسكرة وهى القرية العظيمة. منتضد: مكان تجمع الناس، يريد: ديار الحبيبة.

(٣) د. شوقى ضيف: العصر العباسى الأول: السابق ص٢٣١.

(٤) السابق: نفس الصفحة.

(٥) انظر: ابن المعتز السابق. ص١٩٥.

(٦) المحارب: الأجمات. ناعط: أحد مخاليف اليمن.

ودان أذواؤُنا البريةَ من مُعترِّها رغبةً وراهبها[١]
وكان منا الضحّاك يعبده الْـ خابلُ والوحش فى مساربها[٢]
ونحن إذْ فارسٌ تدافع بَهْـ رامَ قسطْنا على مرازبها[٣]
حتى جمعنا إليه مملكة يجتمع الطرْفُ فى مواكبها
وفاظ قابوس فى سلاسلنا سنينَ سبْعا وفَتْ لحاسبها[٤]
ويوم ساتيدَ ما ضربنا بنى الْـ أصفر، والموتُ فى كتائبها[٥]
فافخر بقحطان غير مكتئب فحاتم الجود من مناقبها[٦]

وتتجلّى لنا «الشعوبية» بصورة واضحة فى شخصية أبان بن عبد الحميد بن لاحق، مولى بنى رقاش. ومن أخباره التى أوردها أبو الفرج يتبين مدى صلته بالبرامكة[٧]؛

---

(١) المعتر: هو المعترض رغبة فى المعروف. وقوله: ودان أذواؤنا: أى التبابعة ملوك حمير، مثل: ذى يزن وذى كلاع وذى أصبح.

(٢) يعنى بالخابل: الجن. «وكان منا الضحاك» يقول ابن المعتز: «إن الضحاك كان رجلا بعيد الصوت، كثير العجائب، والعجم تدعيه، وذلك حق، وكان اسمه بالفارسية أزدها، ومعناه: الشَّيْن؛ لأنه كان شريرًا رديًا، فعرّبته العرب فقالت: الضحاك، وإنما كانت أمه قحطانية، فادعته اليمن لذلك، والعرب تزعم والعجم أيضا أن الجن كانت تطيعه، وأن الوحش كانت تألفه وتأنس به؛ فلذلك قوله»: وكان منا الضحاك.٠٠ طبقات الشعراء: السابق ص١٩٧.

(٣) قسطنا على مرازبها: يقال: قسط، إذا جار، وأقسط: إذا عدل. وإنما أراد بذلك قصة بهرام جور، واستعانته بالنعمان جدّ أبى النعمان الأصغر، حين زَوَت الفرسُ عنه الملك لما مات أبوه، وولّوا ابن عمه.

(٤) فاظ: مات.

(٥) بنو الأصفر: هم الروم.

(٦) ابن المعتز: السابق ص١٩٥، وانظر باقى القصيدة ص١٩٥-١٩٧.

(٧) لعل مما له دلالته فى عمق هذه الصلة ما يذكره أبو الفرج من أن أبانًا نقل للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» فجعله شعرًا، ليسهل حفظه عليهم؛ وأوله:

هذا كـتابُ أدب ومحنـهْ وهو الذى يُدْعَى كليلة دمنهْ
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشدُ وهـو كتـابٌ وضعتْه الهندُ

وعمل أيضا القصيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق، وأمر الدنيا، وشيئًا من المنطق، وسمّاها ذات الحُلل. انظر: الأغانى. جـ٢٣ ص١٥٥.

ويذكر د. طه حسين أنه ابتكر فى الأدب العربى فنًا لم يتعاطه أحد قبله، وهو فن «الشعر التعليمى»، طرق فيه فنونًا مختلفة، من العلم والحكمة والدين. ويرجح أن مكانه من البرامكة هو الذى حمله على اختراع هذا الفن؛ فقد كان مكانه منهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم؛ وكان من الحق عليه أن يسهّل لهم العلم تسهيلا. انظر: السابق ص٢٢٠، ٢٢٣.

فقد كان صديقًا لهم، يستشيرونه ويعتمدون عليه فى تدبير أمورهم، واتخذوه أديبهم الرسمى، وبالغوا فى ذلك، حتى جعل إليه يحيى بن خالد البرمكى امتحان الشعراء، وترتيبهم فى الجوائز، فغضب الشعراء لذلك، وكان أشدهم غضبًا أبو نواس، فقال يهجوه:

جالسْتُ يوما أبانا | لادرّ درُّ أبانِ
حتى إذا ما صلاة الأُ | وْلى دنَتْ لأوان
فقام ثَمّ بها ذو | فصاحة وبيان
فكلما قال قُلنا | إلى انقضاء الأذان
فقال: كيف شهدتم | بذا بغير عِيانِ
لا أشهد الدهرَ حتى | تعاينَ العينان
فقلت: سبحان ربى | فقال: سبحان مانى[1]

ولم يكن أبو نواسٍ وحده هو الذى اتهم أبانًا بالكفر والزندقة اتهامًا صريحًا منكرًا، فقد هجاه صديقه المعذَّل بن غيْلان بالكفر، يقول:

رأيت أبانًا يوم فِطْر مصلِّيا | فقُسِّم فكرى، واستفزَّنىَ الطربْ
وكيف يصلِّى مُظلمُ القلب، دينُه | على دين ماني، إن ذاك من العجبْ[2]

ولعل هذا هو الذى دفع د. طه حسين إلى أن يسلكه فى الشعراء الزنادقة الذين كانوا زنادقة حقًا، والذين كانوا يكفرون عن يقين وعقيدة، لا عن شك أو رغبة فى اللذة. كان هؤلاء وأمثالهم يتخذون لحياتهم العامة قاعدة تؤلف شخصيتهم من رجلين مختلفين: أحدهما يكره العرب ودينهم، ويزدريهم ويزدرى دينهم، والآخر يظهر الإسلام

(١) الأغانى: السابق ص١٥٦. وانظر أيضا: د. طه حسين. السابق ص٢٢٥-٢٢٦؛ حيث يذكر القصيدة، ولا يقتصر على الأبيات المذكورة لأبى الفرج؛ ليستدل منها على أنها لا تمثل رأى أبان وحده، بل تمثل أيضا رأى هذه الطائفة من الفرس، الذين أظهروا الإسلام دينا، ورفضوه فيما بينهم وبين أنفسهم، ورفضوا معه المسيحية أيضا، وأبَوْا أن يؤمنوا إلا بما هو فارسىّ، لأنهم اتخذوا ذلك سياسة ومذهبًا فى السياسة.

(٢) انظر: الأغانى، السابق ص١٥٧. وانظر أيضا: ص١٦٦ من نفس المصدر؛ حيث ذُكر أبان فى مجلس أبي زيد الأنصارى، فقالوا عنه: كان كافرًا، فغضب أبو زيد، وقال: كان جارى، فما فقدت قرآنه فى ليلة قط!

ويتكلفه، ويمدح به، ويحرص على أن يحسن رأى الناس فيه[1].

ومكمن الخطر فى هذا أنه كان من تلك الطائفة التى كانت تريد أن تثأر للفرس، وتعيد سلطانهم إلى الأرض. ولما كانت تعلم حق العلم أن ذلك غير ميسور، فإنها لجأت إلى وسيلة أبلغ فى الانتقام للفرس، وردّ السلطان الفعلى إليهم، وهى: التقرب إلى الخلفاء، وأخذهم من مواطن الضعف، والسيطرة عليهم، حتى يترك الخلفاء لهم تدبير الأمور، ويعتمدوا عليهم فى ذلك، فيتركوا السلطان الفعلى للفرس، ويحتفظوا لأنفسهم بظاهر القوة، واسمها، ومقامها العالى[2].

وليس أدلّ على شخصيته من أنه كان يضحِّى فى سبيل المال بأشياء كثيرة، منها: العقيدة والرأى؛ فقد كان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانه من الرشيد ولظفره بالصلات الضخمة؛ إذ يقال إن الأمر انتهى ببنى العباس مع مروان بن أبى حفصة إلى أن كانوا يجزلون له العطاء، فيمنحونه بالبيت ألف درهم، فغاظ ذلك أبان بن عبد الحميد، ويقال إنه عاتب البرامكة على تركهم إيصاله إلى الرشيد، وإيصال مديحه إليه، حتى يصيب من عطائه مثل ما يصيب مروان، فقالوا له: إن لمروان مذهبًا فى هجاء آل أبى طالب وذمّهم، به يحظى، وعليه يُعَطى، وطلبوا منه أن يسلكه، فقال: لا أستحل ذلك، ثم عاد فاستحله، وقال:

نشدتُ بحق الله من كان مسلما	أعُمُّ بما قد قلتُه العُجْمَ والعربْ
أَعَمُّ رسولِ الله أقربُ زُلفةً	لديه أم ابنُ العمِّ فى رتبة النسبْ
وأيُّهما أَوْلى به وبعهده	ومن ذا له حقُّ التراث بما وَجَبْ !
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ	وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ
فأبناءُ عباسٍ هُمُ يرثونه	كما العمُّ لابن العَمِّ فى الإرث قد حجب

وهى قصيدة طويلة كما يشير إلى ذلك أبو الفرج. ويقال إنه أنشدها الرشيد، فأمر له

(١) انظر: د٠ طه حسين، حديث الأربعاء. السابق ص٢١٤.

(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.

بعشرين ألف درهم، ثم اتصلت بعد ذلك خِدْمتُه الرشيد، وخُص به[1].

لا نريد أن نستطرد فى الحديث عن هؤلاء الذين اتصفوا «بالشعوبية» ممن عرض لهم أبو الفرج، وبحسبنا أننا عرضنا لبعض منهم[2]. ويبقى أن نتوقف - بالدرس - عند تلك الطائفة من ذوى النفوذ وأصحاب السلطان ممن ينتمون إلى أصل أجنبى كالبرامكة وآل طاهر وغيرهم.

ومن الطبيعى ألا تظهر شعوبية أصحابها سافرة؛ فهى - فى كثير من الأحيان - تتوارى خلف ما يقومون به من أفعال، ويتصفون به من خصال، وفى بعض الأحيان تندّ عنهم أقوال أو أعمال تظهر ما يضمرون . وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الطبقة كانت

---

(١) انظر: الأغانى. السابق ص١٦١. وانظر أيضا: د. طه حسين. السابق ص٢٢٣-٢٢٤.

(٢) من الشعراء الذين أثاروا جدلا أبو يعقوب الخُريمى إسحاق بن حسّان بن قوهىّ الخريمى، من صُغد الترك من مرو. كان له ولاء فى غطفان جعله يلزم عثمان بن خريم، وكان يختلف إلى مجالس الأدب والمتكلمين. تألق نجمه فى عصر الرشيد والبرامكة. انظر: الأعلام، جـ١، ص٢٩٤. وقد سلكه بعض الدارسين فى «الشعوبية»؛ لأنه يكثر فى شعره من الاعتزاز بالنسب الأعجمى، والتحقير من شأن العرب، فيقول:

إنى امرؤ من سراة الصُّغد ألبسنى ... عِرْقُ الأعاجم جِلْدا طيبَ الخَبَرِ

ويقول:

أبا الصغد بأسٌ إذ تعيِّرنى جُمْلُ ... سِفاها، ومن أخلاق جارتَى الجهْلُ

فإن تفخرى يا جُمْلُ، أو تتجملى ... فلا فخرَ إلا فوقه الدينُ والعقلُ

أرى الناس شَرْعًا فى الحياة، ولا يُرى ... لقبر على قبر عَلاءٌ ولا فضْلُ

وما ضرّنى أن لم تلدنى يحابرٌ ... ولم تشتمل جَرْمٌ علىّ ولا عُكْلُ

إذا أنت لم تحم القديم بحادث ... من المجد لم ينفعك ما كان من قبلُ

انظر: أحمد أمين. السابق، جـ١ ص٦٥-٦٦. وهناك نموذج آخر للفخر ص٦٦. على حين ينفى آخرون عنه تلك «الشعوبية»، واضعين النص السابق فى الفخر فى سياقه الذى ورد فيه؛ إذ يُروى أنه فى أثناء رفقته لعثمان بن خُريم فى ولايته على أرمينية، عقد له فى بعض حروب للترك على أشراف ممن معه، فكرهوا ذلك، وما زالوا به حتى عزله، وأثاره هذا الحادث، فنظم قصيدة فخر فيها بآبائه من الصّغد، ومنها الأبيات السابقة. والمتأمل يجد أنه يستمد من نظرة الإسلام، التى تسوِّى بين الناس عربًا وموالى، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى. بالإضافة إلى أن فى أشعاره ما يدل على حسن تدينه، وأنه لم ينغمس فيما انغمس فيها بعض معاصريه من مجون أو زندقة؛ يقول داعيًا إلى الزهد والتقوى والعمل الصالح:

تزوّدْ من الدنيا متاعا لغيرها ... فقد شمِرّت حذّاءَ وانصرم الحبلُ

وهل أنتَ إلا هامةُ اليوم أو غدٍ ... لكل أناس من طوارقها الثُّكل

انظر: د. شوقى ضيف. السابق ص٣٥٧. و«حذاء»: سريعة الإدبار.

وراء غيرها من الطبقات المفاخرة بشعوبيتها، تُمدها سرّا بما لها من جاه ومال[1].

وفيما يتصل بالبرامكة فهناك من الأخبار ما يؤكد أن نفوذ الفرس زاد فى عهد الرشيد، فقد كانوا هم المصّرفين للدولة وشئونها، واتخذوا لذلك سياسة محكمة منها ما يرويه الطبرى من أن الفضل بن يحيى - وكان واليًا على خراسان من قبل الرشيد - «اتخذ بخراسان جندًا من العجم سمّاهم (العباسية)، وجعل ولاءهم لهم، وأن عدّتهم بلغت خمسمائة ألف رجل، وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل، فسُمّوا ببغداد (الكرنَبيّة)، وخلّف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم»[2].

والواقع أن سيرة «البرامكة» تحمل فى طياتها جوانب خفية، لا تزال بحاجة إلى الدرْس المتأنى؛ فإذا كانت عوامل صعود نجمهم وتألّقه واضحة، فإن عوامل انطفاء هذا النجم لا يزال يلفها الغموض؛ فهل كان لشعوبيتهم دخلٌ فى ذلك ؟!.

يورد الجاحظ بعض الأشعار التى تتصل بذلك، يقول: «وقال بعضهم فى البرامكة:

إذا ذُكر الشرك فى مجلس ... أنارتْ وجوه بنى برْمكِ
وإن تُليت عندهم آيةٌ ... أتَوْا بالأحاديث عن مْروك»[3]

---

(١) انظر: هذا البحث ص ٤٣٧ .

(٢) تاريخ الطبرى: جـ٨ ص٢٥٧. وانظر تعقيب الأستاذ / أحمد أمين. السابق ص٤٣؛ حيث يذكر أن هذا نوع من الولاء جديد فى هذا العصر ساعد على هذا النفوذ، ولم يكن يعرف من قبل؛ ذلك هو ما يسميه ابن خلدون (ولاء الاصطناع)، ويتمثل فى أن الخليفة يتخذ قومًا من الفرس، أو من الترك مثلا، يمنحهم شرف الانتساب إليه وإلى دولته، ويستخدمهم فى القيام بشئونه والحرب معه، ويجرى عليهم الأرزاق، فيسمون مواليه وموالى دولته، كما استخدم العباسيون الأولون بنى برمك، وبنى نوبخت من الفرس، فأطلق عليهم موالى الدولة العباسية، وكما فعل المعتصم بالأتراك. ويضيف: بأن هذا معنى لم نلحظه فى دولة بنى أمية. وبأنه كان يُشعر أصحابه بأن الدولة دولتهم، وأن لهم سلطانًا على الرعية مستمدًا من سلطان خليفتهم.

(٣) البيان والتبيين: جـ٣ ص٣٥٠ وبالهامش: فى بعض الروايات «سورة» بدل آية. ومرْوك: كذا ورد فى جميع النسخ، وعيون الأخبار. وفى حواشى «هـ»: «مروك: اسم رجلٍ من الأعاجم، له فى الأعاجم تواليف، وصوابه (مزدك)»؛ ومزدك: صاحب المزدكية، خرج فى أيام قباذ بن فيروز، فبدل شريعة زرادشت، واستحل المحارم، وسوّى بين الناس فى الأموال والنساء والعبيد، فكثر أتباعه، وعظم شأنه، وتبعه قباذ نفسه، ولم يزل كذلك حتى ولى كسرى أنوشروان فقتله ونكّل بأتباعه». وانظر: مروج الذهب جـ١: ص٢٧٣.

والأخبار الواردة عن «آل طاهر» تبرز - أيضًا - ازدياد نفوذهم فى عهد المأمون بصورة واضحة، إلى الحد الذى نرى فيه المأمون يولى عبد الله بن طاهر مصر، ويعهد إليه - فى الوقت نفسه - تدبير أمر الشام[١].

ومن المعروف أن غيلان الشعوبى[٢] ألّف كتابًا فى مثالب العرب، فأجازه طاهر بن الحسين عليه بثلاثين ألف درهم، أو بمائتى ألف[٣].

ويروى أبو الفرج - فى الأغانى - أنه «لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التى يفخر فيها بمآثر أبيه وأهله، ويفخر بقتلهم المخلوع، عارضه محمد بن يزيد الأموى الحِصْنى، وكان رجلا من ولد مسلمة بن عبد الملك، فأفرط فى السبّ، وتجاوز الحدّ فى قبح الرد... فكان مما قال فيه:

يابن بيْت النار موقدُها ... ماالحاذَيْه سراويل[٤]
من حسينٌ ؟ من أبوك ومن ... مصعب ! غالتكمُ غُول
نسبٌ فى الفخر مؤتشب ... وأبوات أراذيلُ[٥]
قاتل المخلوع مقتولُ ... ودم المقتول مطلولُ[٦]

كما يذكر من أخبار دعبل الخزاعى أنه كان منحرفًا عن «الطاهرية» مع ميلهم إليه، وأياديهم عنده[٧].

---

(١) انظر: الأغانى، جـ١٢، ص١٠٤.

(٢) يتحدث ابن النديم عنه بأن أصله من الفرس، وكان رَّاوية عارفًا بالأنساب والمثالب والمنافرات، منقطعًا إلى البرامكة، وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة. عمل كتاب الميدان فى المثالب، الذى هتك فيه العرب، وأظهر مثالبها. الفهرست ص١٦٩-١٧٠.

(٣) يذكر أبو الفرج - فى معرض حديثه عن أصل «المثالب» - أن غيلان الشعوبى - وكان زنديقا ثَنويا لا يشك فيه - عُرف فى حياته بعضِ مذهبه، وكان يوّرى عنه، ثم انكشف أمره بعد وفاته؛ وأنه أبدع كتابًا عمله لطاهر بن الحسين، وكان شديد التشعب والعصبية، خارجًا عن الإسلام بأفاعيله، فبدأ فيه بمثالب بنى هاشم، وذكر مناكحهم وأمهاتهم وصنائعهم، وبدأ منهم بالطاهر رسول الله (ﷺ) فغمصه وذكره، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء عليهم السلام، ثم ببطون قريش على الولاء، ثم بسائر العرب، فألصق بهم كل كذب وزور، ووضع عليهم كل خبر باطل، وأعطاه طاهر على ذلك مائتى ألف درهم. انظر: الأغانى جـ٢٠ ص٧٧.

(٤) الحاذق من الدابة: ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين. يريد هنا: الفخذين.

(٥) نسب مؤتشب: غير صريح.

(٦) انظر الأغانى: ج ٢٠ ص ١٠٤.

(٧) انظر: الأغانى جـ٢٠ ص١٥٦.

آثار هذه الظاهرة:

لعل من أبرزها، ما لقيه العرب من جرّائها من عنت شديد، وتحكّم الفرس فى شئونهم وأحوالهم؛ فالوزراء أكثرهم عجم، والدسائس تُدسّ فى القصور لإضعاف شأن العرب. وإذا ما حدث أن ثار العرب فى جزيرتهم أو فى الأطراف نكّل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل، يدفعهم إلى ذلك شعور عميق بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية[1].

يضاف لذلك أن ظاهرة «الشعوبية» هذه تعدُّ من أهم الظواهر التى أدت إلى تغيير المجتمع فى العصر العباسى، وأسهمت فى خلق صورة لم تكن معهودة من قبل؛ إذ ساعدت - مع غيرها من الظواهر التى صحبتها كالمجون والزندقة وغيرهما - على انتشار كثير من المعايب والقبائح التى لم يكن المجتمع يعرفها قبل ذلك؛ كالإسراف فى المجون، والتحرر من القيم، والعبث بالموروث الخُلُقى للعرب، والمجاهرة بما يخالف روح الإسلام، ويشذ عما تعارف العرب عليه.

كما أن ارتباط «الشعوبية» بالزندقة أحالها تهمة يؤاخذ بها كلُّ من تحوم حوله شبهة، ويمكن أن يستغلها كلُّ من تسوِّل له نفسه من أصحاب النفوذ والسلطان الإيقاع بمن يشاء. ومن شواهد ذلك ما يروى عن «سعيد بن حُميد»، من أن أباه كان وجهًا من وجوه المعتزلة، فخالف أحمد بن أبى دُواد فى بعض مذهبه، فأغرى به المعتصم، وقال: إنه شعوبى زنديق، فحبسه مدة طويلة، ثم بانت براءته له، أو للواثق بعده، فخلَّى سبيله[2].

ويبقى بعد ذلك كله ما ارتبط بها من تلك العصبية المقيتة، التى كانت دائما تحاول أن تمكِّن لغير العرب فى كل مجال، حتى فى مجال الفكر والثقافة. ومما له دلالة فى هذا ما يقال

---

(١) انظر: أحمد أمين. السابق، جـ١، ص٦٥.

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٨ ص١٥٥. هذا؛ وأحمد بن أبى دواد هو: أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد بن جرير بن مالك ينتهى نسبه إلى إياد بن نزار بن معد. من أفاضل المعتزلة. كان مولده بالبصرة. توثقت صلته بالمأمون والمعتصم، وتوفى سنة ٢٤٠هـ فى خلافة المتوكل. انظر: ابن النديم، السابق، ص ٢٩٦.

منِ أنه كان هناك فى هذا العصر ثلاثة أئمة فى اللغة والشعر وعلوم العرب، أُخِذ عنهم جُلُّ ما فى أيدى الناس من هذا العلم، هم: أبو زيد الأنصارى، وأبو عبيدة، والأصمعى. وقد اشتهر أبو زيد بحفظ الغريب من اللغة والنحو. وتنازع الرياسة الاثنان الآخران. ويظهر أن الأصمعى - بحكم عربيته - كان يتعصب للعرب؛ ومن ثم كان يتشدد فيما يروى، فلا يجيز إلا أصح اللغات، وكان لا يجيب فى القرآن ولا فى الحديث خشية الخطأ، وكان لا يفسر شعرًا فيه هجاء، كأنه يرى أن ذلك يمسُّ دينه ! أما أبو عبيدة فيظهر أنه كان أوسع علمًا، وأكثر ثقافة؛ فهو يعرف تاريخ الفرس لفارسيته، والثقافة اليهودية ليهودية آبائه، والثقافة الإسلامية لنشأته فيها. ولكنه لم يكن يحسن التعبير كالأصمعى، وكان حُرّ الرأى، يفسّر القرآن برأيه، فيؤاخذه الأصمعى على ذلك. وليس للعرب حرمة فى نفسه، بل فى نفسه الكراهة لهم؛ فهو يطلق لسانه فى هجوهم، وذكر مثالبهم[1].

ويبدو أن كلا من الأصمعى وأبى عبيدة كان يمثل فكرة واتجاهًا؛ فالأصمعى يمثل العربية والتعصب لها، وحب العرب وإكبارهم والإشادة بهم؛ وأبو عبيدة يمثل فكرة الشعوبية، والبحث عن مثالب العرب، والتشهير بهم. وكان كل زعيم يلتف حوله من يؤيدون فكرته، ويناصرونه، ويتعصبون له: العرب حول الأصمعى، والفرس حول أبى عبيدة[2].

ولعل مما يدعم هذا ما يورده أبو الفرج عن إسحاق الموصلى، من أنه كشف للرشيد معايب الأصمعى، وأخبره بقلة شكره، وبخله، وضعة نفسه، وأن الصنيعة لا تزكو عنده، ووصف له أبا عبيدة بالثقة والصدق والسماحة والعلم؛ وفعل مثل ذلك للفضل ابن الربيع، واستعان به، حتى وضع مرتبة الأصمعى، وأسقطه عندهم، وأنفذوا إلى أبى عبيدة من أقدمه[3].

---

(١) انظر: أحمد أمين. السابق، جـ١، ص٧٤ - ٧٥ وما به من مصادر.

(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر الأغانى. جـ٥ ص٣٨٦ . والأصمعى هو عبد الملك بن قُريب (١٢٢ -٢١٦هـ) وأبو عبيدة معمر ابن المثنى (١١٠هـ-٢٠٩هـ)، وكلاهما من البصرة، وكلاهما استقدمه الرشيد إلى بغداد ليستمع إلى علمه، وكان الأصمعى مؤدبًا لبعض ولد الرشيد . الأصمعى عربى صليبة من قيس عيلان، وأبو عبيدة من الموالى، كان أبوه يهوديًا فأسلم، وكان هو شعوبيًا ألف فى مثالب العرب . انظر عن الأصمعى: مقدمة

هذا؛ وقد لاحظت الدراسة أن ظاهرة «الشعوبية» تضرب بجذورها فى العصر الأموى، ولكنها بدت قوية سافرة فى ظل الحكم العباسى، وكشفت عن أن خطورة هذه الظاهرة تكمن فى تلك الجوانب الخفية للموالى من الفرس وبخاصة من كان ينتمى منهم إلى البرامكة أو آل طاهر؛ إذ كان هؤلاء يهدفون إلى أن يكون زمام الأمور بأيديهم ولا يكون للعرب إلا أبهة الخلافة ومظهرها الخارجى .

وأبرز مدى ارتباط هذه الظاهرة بالمجون والزندقة والتعلق بالغلمان وما إلى ذلك من جوانب وصمت الحياة الاجتماعية بسوءاتها وآثارها المدمرة .

وخلص إلى أن من آثارها ما لقيه العرب بسببها من عنت شديد، وتحكم الفرس فى كثير من شئونهم وأحوالهم؛ فضلاً عن الدسائس التى كانت تحاك فى القصور لإضعاف العرب . بالإضافة إلى أنها أسهمت مع غيرها من الظواهر فى خلق صورة لم يكن موجودة من قبل؛ إذ ساعدت على انتشار كثير من المعايب والقبائح التى لم تكن المجتمع يعرفها قبل ذلك . ولعل ما صحب ذلك من حركة فكرية نجمت عن المؤلفات التى صورت هذه الظاهرة يدعم ما نذهب إليه .

* * *

الأصمعيات – تحقيق: عبد السلام هارون. وأحمد محمد شاكر. دار المعارف، القاهرة. ط٥، د٠ت . وانظر عن أبى عبيدة: ابن النديم، مصدر سابق، ص٨٣.

الفصل الرابع

الغنـــاء

تحدثنا – أثناء تناولنا للعصر الأموى– عن فن الغناء والموسيقى، وذكرنا أنه تعبير فطرى عن حاجات نفسية عميقة فى النفس البشرية. وذكرنا كذلك كيف تطور تطورًا ملحوظًا فى ذلك العصر. غير أن ظاهرة الغناء فى ذاتها – حين اختلفت الأمصار التى شهدت ازدهارها، فانتقلت عن مكة والمدينة ودمشق، إلى بغداد وسامراء والكوفة والبصرة – اختلفت معها أمور كثيرة، واستحدثت أمور أخرى، هى محاور الاهتمام فى هذا الفصل.

لقد سبق أن طرحنا السؤال التالى[1]: هل كان العصر العباسى عصر «الغناء» ؟ يستطيع الدارس هنا إذا تأمل ما قدمه أبو الفرج عنه أن يجيب باطمئنان: نعم؛ كان هذا العصر عصر الغناء، دون أن يعنى هذا خلو الحياة من كل جد ودأب فى سبيل إحراز تقدم فى كل أنحائها.

فقد كان هذا العصر عصر تلاقح الحضارة العربية بغيرها من الحضارات، وأسفر هذا التلاقح عن ازدهار يمسُّ كل مقومات الحياة ومنها: فن الغناء.

ولعل أهم عامل من عوامل ازدهار هذا الفن فى العصر العباسى، وهو «الإعداد الجيد للموهوبين»، وهو إعداد أسهمت فيه عناصر كثيرة؛ إذ لابد له من الموهبة أولاً، ومن يتولى إعدادها، ويقوم برعايتها ثانيًا، ولابد أيضًا أن تكون البيئة مهيأة ماديًا وثقافيًا وذوقيًا لتلقى ذلك، فضلاً عن أن تشجعه وتدفع به إلى مزيد من التقدم والإثمار.

والإعداد الجيد يتحقق عندما تكون هناك مواهب وملكات منحها الله من شاء من عباده، فيتلقفها خبراء مهرة، وأساتذة يقومون بالتثقيف والصقل والدربة لهذه المواهب، حتى تؤتى أكلها أنغامًا عذبة، فيما يمكن أن يسمى مدرسة لها أصولها وتقاليدها.

---

(١) طرح هذا السؤال فى معرض الحديث عن «طبقة الشعراء والمغنين» فى الفصل الأول من هذا الباب.

ولعل إبراهيم الموصلى (١٢٥-١٨٨هـ) أول من اشتهر بذلك؛ فقد عنى بصقل موهبة كثير من الجوارى والقيان، كما كان يعنى بأصحاب المواهب ممن رزق حظًا من الطبيعة المواتية التى تستجيب لتعليمه.

وقد ذكرنا من قبل ما رواه إسحاق (١٥٥ - ٢٣٥هـ) من أن الناس لم يكونوا يُعَلِّمون الجارية الحسناء الغناء وإنما كانوا يعلمون الصفر والسود، وأول من علَّم الجوارى المثمَّنات كان أباه؛ فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن[١].

هذا؛ وقد تخرّج على يدى إبراهيم من المغنين المشهورين أمثال مخارق وعلّويه. وفيما يتصل بمخارق[٢]، يقال: إنه كان ينادى على اللحم الذى يبيعه أبوه، فيُسمع له صوت عجيب فاشترته عاتكة بنت شُهدة، وعلمته شيئًا من الغناء، ثم باعته من آل الزبير، فأخذه منهم الرشيد وسلمه إلى إبراهيم الموصلى، فأخذ عنه. وكان إبراهيم يقوّمه ويؤثره ويخصه بالتعليم لما تبينه فيه من جودة طبعه[٣]. وفى هذا الخبر يلتقى الطبع الجيد مع الرعاية المميزة من قبل الرشيد. وعندما تسلمه (إبراهيم الموصلى) لم يبخل عليه بعلم أو خبرة أو جهد؛ وقد نشأت بين الطرفين علاقة التقدير من المعلم للتلميذ، وعلاقة التبجيل والوفاء من التلميذ للأستاذ؛ فمخارق يقول عنه: «أستاذى إبراهيم»[٤]، ولا

---

(١) انظر الأغانى: جـ٥، ص١٧٠.

هذا؛ وهناك أخبار كثيرة عن أن إبراهيم كان على درجة كبيرة من الثراء؛ لمكانته فى فنه عند الخلفاء والكبراء. يقول ابنه إسحاق عنه: «لو عاش لنا لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة». ويذكر أنه امتلك ثروة كبيرة من الأموال والغلات وثمن ما باع من جواريه، ولكن لمروءته كان له طعام معدّ فى كل وقت. ولقد اتفق أن كان عندهم مرة من الجوارى الودائع لإخوانه ثمانون جارية، ما منهن واحدة إلا ويجرى عليها من الطعام والكسوة والطيب مثل ما يجرى لأخص جواريه، فإذا رُدّت الواحدة منهن إلى مولاها وصلها وكساها، ومات وما فى ملكه إلا ثلاثة آلاف دينار، وعليه من الدين سبعمائة دينار قضيت منها. ومن سياق الكلام يُعرف أنه كان يعلّم هؤلاء الجوارى الثمانين فن الغناء. انظر: السابق ص١٦٤.

(٢) هو: مخارق بن يحيى بن ناووس الجزّار، مولى الرشيد. ويكنى أبا المهنأ، كناه الرشيد بذلك. ويبدو أنه قد ظهرت عليه علامات النبوغ فى الغناء وهو غلام؛ إذ اشتراه إبراهيم الموصلى، ثم وهبه إلى الفضل بن يحيى. ثم صار إلى الرشيد بعد ذلك، فأعتقه إثر غنائه له صوتًا أبكاه. انظر: الأغانى. جـ١٨، ص٣٣٦-٣٣٨، ص٣٤٠-٣٤١.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٨، ص٣٤٣.

(٤) انظر: الأغانى: جـ٥، ص١٧٨.

يتحدث عنه إلا بهذا اللقب ! وإبراهيم الموصلى يقول عنه للرشيد: إنه «يساوى خراج مصر وضياعها[1]». ومن المعروف أنه كان بينه وبين علّويه منافسة قوية، لتمكن كل منهما فى فنه[2].

ولا يستطيع الدارس أن يذهب إلى أن إسحاق الموصلى كان يتبع نهج أبيه فى تخريج المغنين والقيان؛ فقد عرف ببخله فى غنائه[3]؛ ومما يُروى فى ذلك أن جاريته «دِمْن» - وكانت من كبار جواريه وأحظاهُنَّ عنده - حين سئلت: أى شىء أخذت عن مولاك فى الغناء ؟ فقالت: لا والله ما أخذت عنه ولا واحدة من جواريه صوتًا قط ! كان أبخل بذلك. وما أخذت منه قط إلا صوتًا واحدًا رغمًا عنه. وذكرت قصة ذلك[4].

ويمكن القول بأن أستاذيته فى فنه، وتفرّده فى صنعته، جعلته يمثل بالنسبة إلى هؤلاء جميعًا المعلم والمثال الذى يطمح إليه كل من نبغ فى الغناء، واشتهر به، فضلاً عن أن يكون مبتدئًا، يتلمس فى نفسه قدرته على الغناء. ويمكن أن يقال أيضًا إن غالبية معاصريه - حتى الذين لم يكونوا يسيرون على منهجه كإبراهيم بن المهدى - كانوا متأثرين به، ومفيدين منه بطريق أو بآخر.

ولقد أسهم كبار المغنين لهذا العصر - من أمثال: ابن جامع، ومخارق، ويزيد بن حوراء، وبعض الجوارى المحسنات للغناء - مع إسحاق الموصلى وأبيه فى هذا التعليم والتثقيف. وكثيرًا ما نجد فى «الأغانى» النص على أساتذة المغنى المتقن، والقينة المحسنة وتلامذتها.

وقد ذكرنا من قبل الدور الذى كان يقوم به «المقين» من أمثال: ابن رامين، وعُكْل، وغيرهما؛ حيث كان يُعْنى هؤلاء المقينون بتعليم الجوارى فن الغناء، حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة[5].

---

(1) الأغانى: جـ١٨: ص٣٣٨.

(2) سبق التعريف بعلّويه ص٤٧ من هذا البحث.

(3) يُقال: إنه احتيل على إسحاق فعلّم غلامين - لبعض أمراء البيت العباسى - نظير مائة ألف درهم: انظر الأغانى: جـ٥، ص٢٩٣ وما بعدها. على أن أبا الفرج نفسه صرّح بذلك حين ذكر أنه - مع كراهته الغناء - كان «أضنَّ خلق الله وأشدَّهم بخلا به على كل أحد، حتى على جواريه وغلمانه، ومن يأخذ عنه منتسبًا إليه متعصبًا له؛ فضلا عن غيرهم». السابق ص٢٦٩.

(4) انظر: الأغانى: جـ٥، ص٢٨٢-٢٨٣.

(5) انظر: ص ٣٨٨، هامش (٧) من هذا البحث.

وهذا يعنى أن الدور الذى قام به المقيِّن كان دورًا أساسيًا فى التعليم والإعداد لتلك القيان. وطبيعي أن يحدث توسع فى نشاط أصحاب بيوت القيان الذين يشترون الجارية ذات الاستعداد لثقافة العزف والغناء، ويقومون على تدريبها ليغلو سعرها عند عرضها للبيع، وقد ارتفع سعر بعضهن إلى درجة واضحة المغالاة؛ وما كان هذا ليكون لو لم تكن البضاعة رائجة مطلوبة. وسنرى أن إهداء القيان إلى الخليفة نفسه من وزرائه وكبراء الدولة كان أمرًا مستحبّا؛ فضلاً عن إقبال الخلفاء وأولياء العهد وكبراء البيت العباسى ومن يتطلع إلى تقليد أساليب حياتهم الزاهية على التباهى باقتناء الجميلات البارعات فى العزف والغناء. وكانت المنافسة، وأحيانًا إعمال الحيلة، للاستحواذ على قينة ذات تفوّق فى صناعتها عملاً لا يثير العداوة بين هؤلاء جميعًا.

وربما لم تكن بيوت المقينين فى المدن حريصة على صيانة فن الغناء من الابتذال؛ فقد كان يهمهم - فى المقام الأول - الحصول على المال بأية طريقة، وربما كان يلجأ المقين إلى رجل من ذوى النفوذ والثراء ليبسط حمايته على صناعته وبيته. ويروى لنا أبو الفرج عن ابن رامين - وهو صاحب قيان كان يعيش فى الكوفة - «أن محمد بن الأشعث كان ملازمًا لابن رامين ولجاريته سلامة الزرقاء، فشهر بذلك... حتى رأى بعض ما كره فى منزل ابن رامين، فمال إلى سحيقة جارية زريق بن منيح، مولى عيسى بن موسى، وكان زريق شيخًا كريمًا نبيلًا، يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حىّ، وكان الغالب على منزله رجلاً من ولد القاسم بن عبد الغفار العجلى، كغلبة محمد بن الأشعث على منزل ابن رامين، فتواصلا على ملازمة بيت زريق»[1]. ويمضى أبو الفرج متعقبًا سلوكيات ابن رامين والدور المنوط بقيانه، فيذكر كيف بذل جهدًا خارقًا لاستعادة ابن الأشعث لزيارة بيته، فأبى حتى توسط بوالى الكوفة نفسه ! فقبل ابن الأشعث أن يعود إلى بيت ابن رامين، دون أن ينقطع عن بيت زريق[2]. وهناك أخبار أخرى فى ذات الاتجاه تعطى المغزى نفسه، وكان هذا فى زمن أبى جعفر المنصور[3]. وفى أخبار أبى الشيص (الشاعر:

---

(١) الأغانى: جـ١٥، ص٥٨. ومحمد بن الأشعث القرشى الزهرى كان كاتبًا، وكان من فتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم، وكان يقول الشعر ويُتغنى فيه . الأغانى: جـ١٥، ص٥٦.
(٢) انظر: السابق: جـ١٥، ص٥٩.
(٣) انظر: السابق ص٦٣.

محمد بن رزين بن سليمان، من عامر بن ثعلبة) أنه «تعشق قينة لرجل من أهل بغداد فكان يختلف إليها، وينفق عليها فى منزل الرجل حتى أتلف مالاً كثيرًا، فلما كُف بصره، وأخفق، جعل إذا جاء إلى مولى الجارية حجبه، ومنعه من الدخول»[1].

تحدثنا عن الدور الذى قام به إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق فى الإعداد الجيد للموهوبين ونتحدث هنا عن المكانة المتميزة التى أضفاها كل من إبراهيم وإسحاق على فن الغناء فى ذلك العصر، وعن نفوذهما الأدبى فى البلاط . وهنا نشير إلى عدة أمور، منها: أن إبراهيم وإسحاق كانا فى صدارة المشهد الغنائى لزمن ليس بالقصير، ولكنهما لم يكونا وحدهما بالطبع - ولم يكن الطرب فى جملته رهن إرادتهما. ومنها: أن الغناء والموسيقى مثل أى إبداع إنسانى آخر كالشعر على سبيل المثال[2] - لا يمكن أن يعيش فى عزلة عن غيره، وبخاصة فى عصور ازدهاره، وإذا كان أبو الفرج نفسه عاش حياته فى القرن الرابع الهجرى الذى يعد أزهى أزمنة الحضارة العربية الذى شهد أعظم منجزاتها[3]، فإن هذين الرجلين عاشا زمنهما المؤثر ما بين منتصف القرن الثانى والثالث الهجريين، وهذه المسافة الزمنية - ذاتها - يمكن أن توصف بأنها مرحلة التفاعلات، وتأسيس التحولات واحتضان البذور؛ فقد كانت تشمل الموروث البدوى الذى حرص عليه خلفاء بنى أمية؛ وهنا يمكن أن يعد انتقال مركز القرار إلى بغداد - قريبًا من فارس - بمثابة تمهيد الطرق لتواصل وتفاعل لم يكن لعرب الجزيرة - حتى فى عصرهم الأموى - به عهد.

---

(١) الأغانى: جـ١٦ ص٤٠٥.

(٢) هناك تلازم بين الشعر والغناء؛ فالبيت المنسوب إلى حسان بن ثابت - وقد ذكرناه من قبل - يشير إلى العلاقة بين الشعر والغناء:

تغن فى كل شعر أنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وهذا التلازم هو الذى شكل مادة كتاب الأغانى فى محورها الأساسى . وقد فسرت الغنائية Lyricism بأنها تلك النزعة فى الشعر التى تدفع الشاعر إلى التعبير عن انفعالاته بطريقة أخاذة تستميل النفوس، مستعينًا بموسيقى الشعر والصورة الشعرية. انظر: د٠ مجدى وهبة٠ معجم مصطلحات الأدب . مكتبة لبنان ١٩٧٤م، ص٢٩٧ .

(٣) أطلق المستشرق آدم ميتز على القرن الرابع الهجرى: عصر النهضة فى الإسلام. انظر: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو عصر النهضة الإسلامية. دار الكتاب العربى، مكتبة الخانجى ١٩٦٧.

لقد أوردنا من قبل - فى معرض الحديث عن الشعوبية[1] - خبرًا عن إسحاق الموصلى، وكيف أنه كان كثير الأخذ والرواية عن الأصمعى ثم فسد ما بينهما فكشف للرشيد معايبه، وزكَّى عنده أبا عبيدة معمر بن المثنى، ولم يزل حتى أسقط الأصمعى عند الرشيد، وفى هذا ما يؤكد النفوذ الأدبى لرجل الغناء الأول زمن الرشيد، ويشير إلى صفة أخرى تتصل بمكانته العلمية، ورغبته الملحة فى أن يحتسب فى زمرة العلماء . ولعل هذه الحادثة تجسِّد حالة من التداخل بين الأدب والغناء، أو بين الأدباء والمغنين.

نكتفى فى هذه النقطة بهذا التقريب الذى سنجد فيه ضوءًا مهمًا - وإن يكن جانبيًا - فى التعرف على موقف إبراهيم وإسحاق من الموسيقى والغناء، وسنجد فى إبراهيم طبائع الشخص المتطلع الطموح؛ فقد انتسب إلى بيت شريف فى العجم، وجعل هرب والده (الذى غير اسمه من ماهان بن بهمن إلى ميمون) بسبب من جور عمال بنى أمية، فغادر فارس إلى الكوفة، وجعل لنسبه من جهة الأم ما يوازى نسبه من جهة الأب شرف أرومة، فهى - كما يقول الأغانى - امرأة من بنات الدهاقين[2].

ولعل إبراهيم الموصلى من أسماء الأعلام القليلة - فى كتاب الأغانى - التى حدد أبو الفرج سنة مولدها وسنة وفاتها، وقد نص على عمره بعبارة قاطعة[3]، ويدخل احترافه الغناء فى سياق هذه الحياة (الشريفة) المترفعة؛ فقد فسر نسبته إلى الموصل بما يجعل احترافه الغناء بمثابة اندفاعة طائشة، أو نزوة لفتى غرير؛ إذ هرب إلى الموصل[4] ليفلت

---

(١) انظر: الفصل الخاص بالشعوبية، ص ٤٢٧ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) انظر: الأغانى، جـ٥ ص١٥٤. هذا؛ وقد جاء فى المعجم الوسيط فى مادة: (دهقن): الدُّهقان: رئيس القرية، ورئيس الإقليم، والتاجر ويجمع على دهاقنة ودهاقين.

(٣) عبارة الأغانى: «وكان مولد إبراهيم سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، وتوفى ببغداد سنة ثمان وثمانين ومائة، وله ثلاث وستون سنة». جـ٥، ص١٥٥.

(٤) هناك تعليلات أخرى أوردها أبو الفرج ص١٥٦-١٥٧ نفس المصدر، منها: ما ذكره ابن خُرداذبة من أن سبب نسبته إلى الموصل أنه كان إذا سكر كثيرًا ما يغنى على سبيل الولع:

أناجتْ من طرق موْصل ... أحمــل قلل خَمريــا
من شـــارب الملوك فـلا ... بدّ مــن سُكْريـــا

وأبو الفرج - كعادته مع ابن خرداذبة - يقلّل من قيمة ما يروِيه عنه. ولعل هذا الشعر من لغة العامة فى ذلك العهد.

من رقابة أخواله، ومنها إلى الرَّى (فى فارس)٠ وكما هو شأن الشخصيات الموعودة بأداء دور مهم فإنه أفاد من وجوده فى فارس فى جمع الغناء الفارسى إلى الغناء العربى، ولم يكن هذا بالأمر الجديد، فله سوابق منذ العصر الجاهلى، ولكن الجديد – فى هذه المرحلة المبكرة – تطلعه إلى أن يكون فى حيز الطبقة العليا من مجتمع بغداد، واكتشافه لقدرته على نظم الشعر، ومن ثم اصطناع ألحان موسيقية شديدة الامتزاج بالكلمات المغناة؛ إذ مصدرهما (اللحن والشعر) واحد، ولابد أن تكون درجة التوافق الصوتى فى كلمات الشعر موضع رعاية إذ تولد مع «دندنة» اللحن فيكتملان معًا، ويتكاملان عضويًا. وهذا – فيما نرجح – أهم ما خص به إبراهيم، وتابعه فيه ابنه إسحاق، وقلده مغنون آخرون، ولا يعنى هذا أنه مبتدع مبدأ «الشاعر المغنى» أو «المغنى الشاعر»، ولكنه كان أصيلاً فى الفنين، وسيحصل على شهادات من نقاد الشعر بما يؤكد صحة موهبته؛ أما صنعته فى الغناء، فقد شهدت بها العصور بما لا سبيل إلى التقليل من شأنه.

وكما هو معروف لدى المتطلعين إلى المقامات العالية، فإن إبراهيم الموصلى راح يقترب من هدفه، فغادر الرَّىّ إلى الأُبُلَّة، حيث التقى بأمير المنطقة: محمد بن سليمان ابن على، وفى مجلسه كان اللقاء برسول الخليفة المهدى، ومن المألوف فى مثل هذا المقام – وقد حدث كثيرًا – أن الولاة فى الأقاليم يؤدون دور مكتشف المواهب، ومن ثم فإنه انطلق من هناك إلى منادمة المهدى، وأصبح أحد وجوه الطرب فى بغداد[1].

لقد غنى إبراهيم فى زمن الخليفة المهدى، ثم الهادى، فالرشيد، ومات فى زمن الرشيد، وعلى افتراض أنه صحب المهدى منذ بدايته، فإن هذا يعنى أن إبراهيم بدأ الغناء فى بغداد وعمره ثلاثة وثلاثون عامًا، وهى سن تناسب المنادمة أكثر مما تناسب الغناء، ومع افتراض صحة هذا التصور، فإن صحبته للخلفاء الثلاثة استمرت قرابة ثلاثين عامًا أيضًا، جمع فيها ثروة طائلة، ولكن ثروة الألحان التى خلفها لابنه، ولتلاميذه كانت – فى رونقها وتنوعها وأصالتها – أكبر مما جمع من المال[2].

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٥ ص١٥٨، ١٥٩.

(٢) تولى المهدى الخلافة عقب وفاة أبيه المنصور عام ١٥٨هـ وتولى الهادى عام ١٦٩هـ، والرشيد ١٧٠هـ وقد استمر إلى عام ١٩٣، أى إلى ما بعد وفاة إبراهيم الموصلى بخمسة أعوام تقريبًا. وانظر إحصاء أبى الفرج لما ترك إبراهيم من مال وعقار وقيان وعبيد: الأغانى جـ٥، ص١٦٣–١٦٥.

فكيف صنع إبراهيم نجاحه، ورفع من شأن الغناء فى زمانه ؟

فى قراءة تحليلية لسيرته كما سجلها الأصفهانى يبدو فى المقام الأول التكوين الثقافى الفريد، وفى إطار الممارسة العملية والدربة الفنية؛ فضلا عن جمال الصوت الذى أتاح لهذا التكوين الثقافى أن يصل إلى مداه فى نفوس سامعيه من مختلف الطبقات، ما بين أولئك الصعاليك الذين يقطعون الطريق - وكان قد عرف سبيله إليهم حين هرب من أخواله - وحتى مجلس الرشيد وخلفائه من بعده.

إن هذه الثقافة هى مصدر ما تمتع به من كياسة ولباقة فى السلوك وضبط حركة ردّ الفعل إذا ما وجد نفسه فى مأزق أو حاصرته أسئلة صعبة. يذكر أبو الفرج خبرًا طريفًا محرجًا رواه حماد عن أبيه إسحاق، يصف فيه ما وجد فيه جده (إبراهيم) نفسه من مواجهة للفضل بن يحيى، وكان خارجًا من عند الفضل بن الربيع، «وكانا متجاورين فى الشماسية، فقال الفضل بن يحيى: من أين يا أبا إسحاق ؟ أمن عند الفضل بن الربيع؟ قلت، نعم، غير معتذر من ذلك؛ فقال: خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى ! هذان والله أمران لا يجتمعان لك[1]. فقال إبراهيم: والله لئن لم يكن فىّ ما يتسع لكما حتى يكون الوفاء لكما جميعًا واحدًا ما فىّ خير، والله لا أترك واحدًا منكما لصاحبه، فمن قبلنى على هذا قبلنى ومن لم يقبلنى فهو أعلم. فقال له الفضل بن يحيى: أنت عندى غير متهم، والأمر كما قلت وقد قبلتك على ذلك»[2]. وفى هذا الموقف المحرج نجد الموصلى يؤثر المصارحة من موقع من يعرف قدر نفسه، وينأى بها عن التملق والنفاق، كما يتجلى أثر ثقافته فى هذا الاتجاه نفسه، فقد كان إبراهيم مع ذوقه الفنى فى اختيار ما يتغنى به من أشعار الشعراء ينظم البيتين أو الأبيات القصار ويؤديها بلحنه، وقد بدأ بأن يرتجل القطعة أو أن يجيز بيتًا لشاعر[3]، ولعل بداياته فى هذا الاتجاه حملت الرشيد ذات

---

(١) الإشارة هنا إلى ما بين آل الربيع (العرب) وآل برمك (الفرس) من تنافس سياسىّ، لم يتوقف إلا بنكبة البرامكة وذهاب دولتهم بالكلية. ولم يكن الفضل بن الربيع بعيدًا عن المؤثرات فى توجيه الرشيد إلى الإيقاع بالبرامكة.

(٢) الأغانى: جـ٥، ص١٦٥-١٦٦.

(٣) انظر الأغانى: جـ٥، ص١٦٧-١٦٨.

مرة أن يعلق على بعض ألحانه بقوله: «صنعتك فيه أحسن من شعرك»[1].

وفى ترجمة أبى الفرج (فى الجزء الخامس من الأغانى) لإبراهيم جاء تعقيبه المأثور على الأصوات بعبارة: «الشعر والغناء لإبراهيم» تسع مرات[2]، ونرجح أن هناك إشارات إضافية من هذا القبيل، فى أثناء تراجم أخرى، ومما يقوِّي هذا الترجيح ما ذكره إسحاق عن عدد الأصوات التى غناها أبوه، فقد قال - فيما رواه حماد -: «صنع جدك تسعمائة صوت منها دينارية، ومنها درهمية، ومنها فلسية... فأما ثلثمائة منها فإنه تقدم الناس جميعًا فيها، وأما ثلثمائة فشاركوه وشاركهم فيها، وأما الثلثمائة الباقية فلعب وطرب. قال (حماد): ثم أسقط أبى الثلثمائة الآخرة بعد ذلك من غناء أبيه، فكان إذا سئل عن صنعة أبيه قال: هى ستمائة صوت»[3]، فإنه لو صح لإبراهيم نصف هذا الرقم لكان بحرًا زاخرًا بالغناء؛ وقد كان.

ولهذا نرى أن الأصوات التسعة التى ذكر صاحب الأغاني أنها كلامًا ولحنًا من صنع إبراهيم تبدو - بالقياس إلى جملة إبداعه - نسبة ضئيلة، ولابد أن له أضعافها مما لم يشر إليه. وفى محور تعامل إبراهيم مع أشعار من صنع غيره نجده يعاود الاختيار من شعر ذى الرمة[4]، لما فى شعره من تشبيب وشجن ورقة مبعثها وقوفه على الأطلال. ومن طريف علاقة إبراهيم بشعر ذى الرمة أنه التمس من الرشيد أن يقطعه شعر ذى الرمة، يغنى ما يشاء منه، ويحظر على المغنين أن يداخلوه فيه. وقد أجابه الرشيد إلى رغبته[5].

---

(١) السابق: ص١٦٩.

(٢) هذه الأصوات التسعة فى الصفحات رقم: ١٧٦، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٥.

(٣) السابق، ص١٨٧. وباستطاعتنا ألا نتمسك بحرفية الأرقام، ولو صح لإبراهيم نصف هذا الرقم لكان مكثرًا على الأقل بالقياس إلى عصره، أما تفاوت درجة الإتقان فهذا متوقع لدى المبدعين.

(٤) هو: غَيْلان بن عقبة بن مسعود بن حارثة ... بن عبد مناة ... بن إلياس بن مضر. شاعر بدوى من شعراء العصر الأموى. كان كثيرًا ما يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة، وأكثر شعره فى النسيب والأطلال وذكر «مية»، وكان أحسن أهل عصره تشبيهًا. انظر فى ترجمته: الأغانى، جـ١٨، ص١ وما بعدها.

(٥) انظر: الأغانى، جـ٥، ص٢٣٨-٢٣٩. ويذكر أبو الفرج أن هذا كان بوازع من الوزير جعفر بن يحيى البرمكى، الذى عرّف إبراهيم عن حفظ الرشيد لأشعار ذى الرمة، وإعجابه بها إذا سمعها مُغَنَّاةً. وإذا كنا لا نستبعد سعى الوزير فى إرضاء خليفته وإشباع ميوله، فإننا نرجح - وعلاقة إبراهيم بشعر ذى الرمة أسبق - أنه فطن إلى استجابة الرشيد للغناء الصحراوى ومعانى البداوة، وهى نقيض ما كان يعيشه على مستوى الواقع.

كما يدخل فى محور الثقافة والكياسة قدرته على أن يصنع ألحانًا بأكثر من طريقة للقصيدة ذاتها. فله فى بيتيه:

وزعمتِ أنى ظالم فهجرتنى ... ورَمَيْتِ فى قلبى بسهم نافذِ
ونعْم ظلمتُك فاغفرى وتجاوزى ... هذا مَقَام المستجير العائذِ

« لحنان» أحدهما ثقيل أول، والآخر ثانى ثقيل»[1]. ومما يرويه حماد بن إسحاق يتبين اتساع الثقافة الموسيقية؛ إذ ينقل عن محمد بن الحسن قوله: «كان لكل واحد من المغنين مذهب فى الخفيف والثقيل، وكان معبد ينفرد بالثقيل، وابن سريج بالرمل، وحكم بالهزج، ولم يكن أحد يتصرف فى كل مذهب من الأغانى إلا ابن سريج وإبراهيم جَدُّكَ وأبوك إسحاق»[2].

وأخيرًا؛ هناك عامل مؤثر فى دعم مكانة إبراهيم فى الغناء العباسى، وهو اهتمامه البالغ بتعليم المثمنات[3] وقد بلغ بهن كل مبلغ، ورفع من أقدارهن[4].

وهكذا استكمل إبراهيم، بموهبته وبحسه وذوقه، مطالب علم الموسيقى حتى أصبح فيه حَكمًا، كما أصبحت الصناعة نفسها ومجالسها مرصعة بالمباهج واتساق الحركات، مع الاتساع فى إعداد المتدربات[5].

---

(١) السابق: ص٢٤٠.
(٢) الأغانى: جـ٥، ص٢٣١.
(٣) من سياق بعض الأخبار فى الأغانى يفهم من «المثمنات» أنها القيان الجميلات، يتعلمن الغناء، ويتقنَّه فيرفع من أقدارهن . انظر: الأغانى، جـ٥، ص١٧٠.
(٤) الأغانى: جـ٥، ص١٧٠ وفى هذا المعنى قال ابن سيابة شعرًا مدح به إبراهيم:

ما لإبراهيم فى العلـ ... ـم بهذا الشأن ثانى
إنما عمر أبى إسـ ... ـحاق زين للزمان
جنة الدنيا أبو إسـ ... ـحاق فى كل مكان
فإذا غنى أبو إسـ ... ـحاق أجابته المثانى
منه يُجنى ثمرُ اللهـ ... ـو وريحانُ الجِنان

وفى البيت الأخير إشارة ذكية إلى ما يجاوز الغناء من مشاهد المكان وصور الجمال.
ومن الملاحظ أن الشطرة الثانية فى البيت الرابع مكسورة ولعلها (جاءته) بدلاً من (أجابته).
(٥) عن الاحتكام إلى إبراهيم انظر: خبر يحيى بن خالد حين طلب من إبراهيم سماع جاريته دنانير والحكم

وقد حمل إسحاق رسالة أبيه، وإن كان قد فاقه شعرًا وثقافة وعلمًا؛ كما أنه مات فى الثمانين من عمره، مما أتاح له أن يكون صدرًا فى عدة عهود؛ فشهد فى حضرة أبيه وبعد وفاته مدة من عصر الرشيد، وكان نديمًا للأمين، ثم بزغ نجمه فى عصر المأمون فالمعتصم، وشهد عصر الواثق، ومات فى العام الثالث من ولاية المتوكل، وقد اعتزل الغناء بعد المعتصم لكبر سنه.

يبدأ أبو الفرج ترجمته لإسحاق بأسلوب غير مسبوق فى كتابته عن أهل الغناء؛ إذ يؤكد على مكانته فى العلم ومحله من الأدب والرواية وتقدمه فى الشعر. أما الغناء فكان أصغر علومه وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، ومع هذا فلم يكن له فيه نظير. وكان أكره شىء إلى نفسه أن يدعى إليه أو يسمى به، وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتى؛ فإنه أولى به، وأعفّ، وأصدق، وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة»[1].

وهذا إيجاز فريد فى تصوير حياة عالم فنان، وقد راح أبو الفرج يورد من أخباره ما ينبئ عن مكانته عند الخاصة، وصورته عند الخاصة، وصورته عند العامة. وتعقب منجزاته وعلاقاته ومنافساته فى نحو مائة وسبعين صفحة من أوفى ما قدم من تراجم على اتساع مساحات كتابه[2].

وقد سجل أبو الفرج أسماء من أخذ عنهم علوم الرواية واللغة والشعر وعلوم الشريعة: الكسائى والفراء والأصمعى وابن الأعرابى، والمحدِّث سفيان بن عيينة. وأما الضرب على الآلات والغناء فقد تلقاه عن أبيه وكان مرجعه الأساسى، كما كان يتلقى عن زلزل وعاتكة بنت شهدة[3].

عليها أو لها: السابق: جـ٥، ص٢٤٨ ويشير د٠ محمود الحفنى إلى تعليمه الجوارى وأنهن بلغن ثمانين جارية، وأن هذه أول مدرسة نسوية لتعليم الموسيقى والغناء. انظر: د٠ محمود أحمد الحفنى. إسحاق الموصلى الموسيقار النديم . ص٣٩.

(١) الأغانى: جـ٥، ص٢٦٨-٢٦٩. وقد سبق أن ذكرنا هذا النص فى موضع آخر.

(٢) انظر فى ترجمة إسحاق الموصلى: الجزء الخامس من الأغانى من صفحة ٢٦٨ إلى ٤٣٥.

(٣) والواقع أن تنوع مصادر معرفته ليتضح لنا من خلال تعدد الأسماء التى تلقىّ على يديها علمه ومعرفته؛ فقد روى الحديث عن أهله من أمثال: مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وهُشَيم بن بشير، وروح بن عبادة،

ولقد دل الكلام السابق على ما فى نفس إسحاق من صراع، وما يعانى من شعور بالانقسام والتناقض بين العالم والمغنى، واستطاع أن يوائم بينهما أحيانًا؛ كأن يوجه نشاطه إلى دراسة كتب الموسيقى التى ترجمت فى عصر المأمون، واقترب بهذا من دقة التوصيف العلمى للألحان؛ إذ «جعل الثقيل الأول أصنافًا»، وميز بين الأصابع والمجارى[1]، «حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل إقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى، ووافقهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور، من غير أن يقرأ لهم كتابًا أو يعرفه»[2].

ويكرر أبو الفرج مقولة أن إسحاق أعاد تقسيم (السلم) الموسيقى، وحدد أوصاف المقامات والحركات دون أن يطلع على ما ترجم فى زمانه من كتب اليونان، وبخاصة كتاب إقليدس الأول فى الهندسة[3].

غير أننا نميل - اعتمادًا على شواهد استخداماته وتوصيفاته - إلى القول بأنه اطلع على جانب مما أمكن فهمه للمشتغلين بالموسيقى فى ذاك العصر؛ فضلاً عن أن طموح إسحاق وتطلعه ونزعته العلمية كلها تأبى على طبعه أن يُغفل هذا الرافد الجديد.

إن تكوينه الثقافى المتفرد تجاوز حدود ما حصَّل أبوه؛ لأنه تلقى عن أهل الاختصاص معرفة منظمة أهّلته - فى قول المأمون - لتولى القضاء، وأهلته - فى رأيه عن نفسه - أن يسأل المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة، لا مع المغنين، فإذا أراده للغناء غنّاه، فأجابه إلى ذلك، ثم سأله بعد حين أن يأذن له فى الدخول مع الفقهاء

وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز. الأغانى: جـ٥، ص٢٦٩. واختلف إلى أهل العلم والاختصاص يأخذ عنهم فى عزم وجد. الأغانى: السابق ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(١) من المعروف أن الضارب بالعود يستخدم فى ضربه: السبابة والوسطى والبنصر والخنصر. والمجرى عند إسحاق نوعان: مجرى السبابة والوسطى. ومجرى السبابة على مسافة ٢٠٤ سنتًا من مطلق الوتر، والوسطى على مسافة ٩٠ سنتًا من دستان السبابة. انظر فى ذلك: رسالة ابن المنجم فى الموسيقى وكشف رموز كتاب الأغانى، تحقيق وشرح وتعليق: د. يوسف شوقى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ص٢٨٦.

(٢) الأغانى: جـ٥، ص٢٧٠.

(٣) انظر: السابق: ص٢٧١.

فأذن له[1]. وقد كرر الطلب ذاته فى زمن الواثق[2]؛ ومع هذا فقد لزم موقعه بين الندماء والمغنين. ولعل الشعر - وهو موهبة طبيعية لا يمكن اصطناعها أو تمحلها - كان نقطة جامعة بين العالم والمغنى، ارتضاها إسحاق وأخذت مداها عنده بما يتجاوز صنيع أبيه؛ فعلى كثرة ما غنى من شعره، فإن له قصائد مستوفية شرائط القصيد فى أغراض مختلفة تدل على سخاء موهبته واستمرارها واستجابتها لحالات متباعدة. ففى ترجمة إسحاق ترددت العبارة التى لاحقت اسم أبيه من قبل: «الشعر والغناء لإسحاق» اثنتين وعشرين مرة[3]، وقد مدح الرشيد بقصيدة فأثنى على شعره، كما مدح المعتصم بأخرى حين تولى الخلافة، كما استقبله حين عودته من إحدى غزواته بقصيدة[4]، وله - إلى ما تقدم - قصيدة حنين إلى مجلس إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وجهها إلى أحد الندمان فى ذلك المجلس وهو موسى بن صالح، وفيها عتاب لمحمد بن راشد، إذ لم يحسن ذكره فى غيابه ومرضه[5]، وحين أجابه محمد بن راشد أعاد مراسلته بقصيدة على ذات الوزن والقافية[6]. ويذكر فى دلائل قدرته على الشعر أنه كان يرتجله حين تستجد دواعيه[7]، وأنه كان يحاكى الأعراب بأشعار يذكرها على ألسنتهم؛ ويدَّعى لأصحابه - على سبيل المداعبة - أنها لهم[8].

أما خبرته فى الموسيقى فقد تجاوزت قدرته على الغناء، وقد فطن أبو الفرج لهذا الفارق، وغذاه بطائفة من الأخبار التى تبرزه؛ فقد حدث جحظة عن محمد بن أحمد المكى عن أبيه قال: «كان المغنون يجتمعون مع إسحاق وكلهم أحسن صوتًا منه، ولم

---

(١) انظر: السابق: ص٢٨٦.

(٢) انظر: السابق: ص٢٩٦.

(٣) هذه العبارة لاحقت أصواتًا رواها أبو الفرج فى الصفحات جـ٥، ص٢٦٧، ٢٨٣، ٣٠٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٣٢، ٣٤٢، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤١٥، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٨.

(٤) القصائد الثلاث فى الأغانى: جـ٥، ص٣٢٢، ٣٠٢، ٣٠٣.

(٥) نص القصيدة فى السابق: ص٣٣٧، وقد ضمن البيت الأخير منها عبارة بالفارسية.

(٦) القصيدة الجوابية من إسحاق فى: السابق: ص٣٣٩.

(٧) الخبر والأبيات فى السابق ص٣٢٣.

(٨) انظر: السابق: ص ٣٢٠ - ٣٢٢.

يكن فيه عيب إلا صوته فيطمعون فيه، فلا يزال بلطفه وحذقه ومعرفته حتى يغلبهم ويبذهم جميعًا ويفْضُلهم ويتقدمهم. قال: وهو أول من أحدث التخنيث[1] ليوافق صوته ويشاكله، فجاء عجبًا من العجب، وكان فى حلقه نبوٌّ عن الوتر...»[2] وأخبر جحظة أيضًا عن الهشامى عن أبيه، قال: «كان المغنون إذا حضروا وليس إسحاق معهم غنّوا هوينى غير مفكرين، فإذا حضر إسحاق لم يكن إلاّ الجِد»[3]. وفى الأغانى غير خبر يؤكد هذا المستوى من الحذق وقوة الحضور فى شخص إسحاق وغنائه، وتفوقه على من هم أندى منه صوتًا[4]. فنحن مع فنان يعرف مصادر قوته، ونواحى ضعفه، ويعرف كيف يدارى نواحى الضعف وكأنها غير موجودة؛ إضافة إلى قدرته على تمييز الأصوات حتى يعرف بمجرد السماع أن هذا لحن رومى، وذاك لحن لامرأة ضاربة. بل إنه – لفطنته وحساسية أذنه للموسيقى – عرف فى مجلس المأمون خطأ فى وتر بين ثمانين وترا وعشرين جارية يغنين، على حين عجز إبراهيم بن المهدى عن اكتشاف ذلك[5]. وتبدو براعته بصورة فائقة فى أنه أخذ عودًا فى مجلس المعتصم فشوش أوتاره وتحدى إبراهيم بن المهدى أن يضرب به، ثم أظهر هو قدرة على ذلك[6]. ولم يكن هذا منه محض مصادفة، ولكنه وليد الاجتهاد والمثابرة، ونتاج الكياسة وبعد النظر؛ إذ يروى فى مجلس الواثق أنه راض نفسه على هذا بضع عشرة سنة، حتى لم يبق فى الأرض موضع على طبقة من الطبقات إلا عرف نغمته كيف هى، والمواضع التى يخرج النغم كلها منه فيها، من أعاليها إلى أسافلها[7].

---

(١) التخنيث: معناه التكسر والتثنى مع لين فى الأداء يتفق والصوت الصادر من أوتار الآلات وبحوحة فى الحلق تجعل الغناء أحسن وقعًا فى السمع، بما يلتذه الشرقيون د· محمود الحفنى، السابق؛ ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) السابق: جـ٥، ٣٢٦-٣٢٧. ولعله يقصد بعبارته «كان فى حلقه نبو عن الوتر» أن حنجرته كان بها بعض العيوب. د· محمود الحفنى. السابق ص٢٠٦.

(٣) الأغانى: جـ٥، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٤) انظر: تعليل زرزور الكبير لفوز إسحاق بجوائز الخلفاء وتقديرهم، وتميزه عن سائر أهل صناعته. السابق: ص٣٢٦.

(٥) انظر السابق: ص٢٨٤-٢٨٥.

(٦) انظر السابق: ص٣٥٣-٣٥٤.

(٧) انظر السابق: ص٢٨٠-٢٨٢. هذا؛ وكان إسحاق فى هذا المجلس قد فضل (زلزلاً) على (ملاحظ) فى الضرب، مع أنه كان لملاحظ الرياسة على جميعهم، وقد أجرى امتحانًا لهما، أثبت صحة رأيه، فالتمس

ولا شك أن اجتماع الشعر والموسيقى بهذا القدر من الإجادة يعد من نوادر التاريخ العربى.

وهناك عامل آخر وراء ازدهار فن الغناء فى تلك الفترة، ويتمثل فى اشتراك عناصر المجتمع بكل طبقاته فى «الغناء» بدءًا بالجوارى والقيان، ومرورًا بكبار رجال الدولة، حتى الخلفاء وأولادهم وأولاد أولادهم. ولهذا دلالته فى كثرة الإنفاق عليه، ورعاية الدولة له، والارتقاء به من جانب؛ وفى أن أصحابه – وبخاصة الجوارى والقيان منهم – قد شاركوا الطبقات العليا حياتهم؛ ومن ثم كان «الغناء» من أبرز العوامل فى تلك التحولات الاجتماعية فى المجتمع آنذاك.

لقد ذكرنا بعض الأخبار عن الخلفاء وأولادهم فى هذا الشأن، ونضيف الآن بعض النماذج التى احتفى بها أبو الفرج، لما لها من أثر فى الغناء[1].

ففى أخبار عبد الله بن طاهر، يذكر أبو الفرج أن الأصوات التى غنى فيها عبد الله كثيرة. وكان عبيد الله بن عبد الله إذا ذكر شيئًا منها قال: الغناء للدار الكبيرة، وإذا ذكر شيئًا من صنعته قال: الغناء للدار الصغيرة. من هذه الأصوات ومختارها ومقدَّمها لحْنُه فى شعر أخت عمرو بن عاصية – وقيل لأخت مسعود بن شداد – فإنه صوت نادر جيد، امتدحه أبو العميس بن حمدون وقال: جاء به عبد الله بن طاهر صحيح العمل، مزدوج النغم بين لين وشدة على رسم الحُذَّاق من القدماء. وهذا الصوت:

هلاَّ سقيتم بنى سهم أسيركم	نفْسى فداؤك من ذى غُلَّة صادى
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها	مضرَّجٌ بعد ما جادت بإزبادِ[1]

وفى أخبار ابنه عبيد الله أن له صنعة فى الغناء حسنة متقنة عجيبة، وقد توصّل إلى ما عجز عنه الأوائل من جمع النغم كلها فى صوت واحد تتبعه. وكان المعتضد بالله ربما

ملاحظ من أمير المؤمنين أن يضرب هو (أى إسحاق) فطلب إسحاق من ملاحظ أن يشوش عوده، ويخلط أوتاره، ثم قال: يا ملاحظ غنّ أى صوت شئت، وضرب عليه إسحاق حتى استوفى اللحن كله.

(١) انظر: ص ٤٧٣-٤٧٤ من هذا البحث.

(٢) انظر: الأغانى: ج ١٢، ص ١٠٦.

أراد أن يصنع في بعض الأشعار غناء وبحضرته أكابر المغنين فيعدل عنهم إليه، فيصنع فيها أحسن صنعة، ويترفع عن إظهار نفسه بذلك، ويومئ إليه أنه من صنعة جاريته (شاجى)؛ وكانت إحدى المحسنات المبرِّزات المقدمات، بتخريجه وتأديبه، وكان بها معجبًا، ولها مقدمًا[1].

ويورد الأصوات التى تجمع النغم العشر، ومنها:

توهمتُ بالخَيْف رسما مُحيلاً   لعزة تعرف منه الطُّلُولا
تبدل بالحىّ صوت الصدى   ونوح الحمامة تدعو هديلا

الغناء - كما يذكر أبو الفرج - لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، ونسبه إلى جاريته، وكنى عنها فذكر أن الصنعة لبعض من كثرت دربته بالغناء، وعظم علمه، وأتعب نفسه حتى جمع العشر فى هذا الصوت[2].

ويلفت نظرنا ما أورده أبو الفرج خاصًا بأبى دُلف العجلى القائد المشهور[3]؛ فله أشعار جيدة، وصنعةٌ كثيرة حسنة. ثم يذكر بعض الأصوات له فى جيد شعره[4].

كما يذكر صوتًا له غنّاه فى شعر جرير:

بان الخليط برامتين فودَّعوا   أو كلما اعتزموا لبيْن تجزع
كيف العزاء ولم أجد مذغبتم   قلبا يقرُّ ولا شرابًا ينقع[5]

إن هذه الأخبار - وغيرها مما يشبهها - لها دلالتها فى أن الغناء لم يكن يلهى أصحابه عن مهامهم وأعمالهم، وربما كانَ العكس صحيحًا؛ إذ كان حافزًا على الجد وبخاصة بعد أن تزيل النفس ما قد يكون علق بها من متاعب وأوجاع، وتنال حظها من الرَّوْح

---

(١) انظر الأغانى: ج ٩، ص ٤٠.
(٢) الأغانى: جـ٨، ص٣٧٣.
(٣) هو القاسم بن عيسى بن إدريس، أحد بنى عِجْل بن لجيم... بن بكر بن وائل، ومحله فى الشجاعة وعلو المحل عند الخلفاء، وعظم الغناء فى المشاهد، وحسن الأدب وجودة الشعر محلٌ ليس لكبير أحد من نظرائه؛ وكان نديمًا للمعتصم والواثق. الأغانى: جـ ٨، ص٢٤٨-٢٥١.
(٤) انظر: الأغانى: السابق ص٢٤٨-٢٤٩-٢٥٠.
(٥)الأغانى: ج ٨، ص ٢٥٢.

والمتعة[1].

وقد صحب هذا كلّه ما وجدناه من تشجيع الخلفاء وذوى النفوذ والسلطان لهؤلاء المغنين والمغنيات ومنحهم الهبات السخية؛ ولكن إذا ربطنا هذا السَّرف بالعصر، وبتلك الطبقات القادرة على العطاء، والتى اعتاد أصحابها على البذل والسخاء فيه، وربما تنافسوا فى ذلك، على نحو ما هو معروف من أسرة البرامكة، وصنائعها مع إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق من بعده[2]، وغير ذلك مما ورد فى «الأغانى» ويندرج تحته - إذا فعلنا ذلك تقبلنا ما ورد من أخبار، دون أن نتشكك فيها، ووضعناها مع ما يشبهها مما ورد فى الشعر وغيره من المجالات الأخرى.

إن كتاب الأغانى ليفيض بالأخبار التى تبرز لنا ذلك السخاء المتأصّل، والعطاء المتدفق بغير حساب. ظهر ذلك واضحًا فيما صنعه الرشيد مع دنانير[3]، ومع ابن جامع[4] وفيما صنعه إبراهيم بن المهدى مع «شارية»[5]، ومن بعده الواثق والمعتمد[6].

---

(١) من الأخبار المروية فى ذلك: ما يروى من أن أبا دلف كان ذات ليلة بالسرادن (موضع ببلاد فارس) جالسًا يشرب، وعليه ثياب ممسّكة، إذ أتاه الصريخ بطروق الشراة أطراف عسكره فلبس الجوشن، ومضى، فقتل وأسر وانصرف فى آخر الليل وهو يغنى:

ليلتى بالسرادن كللت بالمحاسن
وجوار أوانس كالظباء الشوادن
بُدِّلت الممسّكا ت ادراع الجو

والشعر له، وهو مما غنى فيه - انظر: السابق ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) انظر: الأغانى: جـ٥، ص٣٠٦-٣١٠.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٨، ص٦٧.

(٤) انظر: الأغانى - جـ٦ ص٣١٨.

(٥) تذكر بعض الروايات أنها كانت مولّدة من مولدات البصرة، وأن امرأة من بنى هاشم اشترتها، فأدبتها وعلمتها الغناء، ثم اشتراها إبراهيم بن المهدى، فأخذت غناءها كله أو أكثره عنه. انظر: الأغانى: جـ١٦، ص٣.

(٦) تروى الأخبار الواردة عنها: أنها كانت أحسن الناس غناء منذ توفى المعتصم إلى آخر خلافة الواثق، ويقال: إن الواثق كان يسميها (ستّى). انظر: السابق ص١٢. كما أن المعتمد قد وثق بشارية؛ فلم يكن يأكل إلا طعامها. انظر: السابق ص١٤. وعن عطائه لها، يقال: إنه منحها ألف ثوب من جميع أنواع الثياب الخاصيّة، حين غنت بشعر مولاها إبراهيم بن المهدى ولحنه:

ياطول علة قلبى المعتاد إلف الكرام وصحبة الأمجاد

وإنه لم يأمر خليفة لمغنية بمثل ما أمر به المعتمد لشارية: انظر السابق: ص١٤-١٥.

وقد حظيت شارية هذه بالاهتمام، لدرجة أن ابن المعتز العباسىّ ألف كتابًا عنها[1].

ويمكن أن ينظر إلى هذا التقدير «المادى» المتمثل فى تلك العطايا بصورها وأنواعها المختلفة على أنه لون من الرعاية كفلته الدولة - أو أصحاب المال والثراء - لأصحاب الملكات على اختلافها؛ ومن ثم كان هذا التفوق والتميز فى الفن بعامة والغناء بخاصة.

وقد صحب هذا التقدير (المادى) لونٌ من التقدير (الأدبى) أو (المعنوى) يبرز قيمة (الغناء) وأثره البالغ فى النفوس؛ ويبين - فى الوقت نفسه - المكانة التى كان يحظى بها الصفوة من طبقة المغنين عند الخلفاء، وأصحاب الشأن من الطبقة الحاكمة. وقد ذكرنا ما قاله المأمون عن إسحاق بشأن تولّيه القضاء[2].

وهل هناك أبلغ فى الدلالة على هذه المكانة وذلك التقدير من قول الواثق: «ما غنّانى إسحاق قطُّ إلا ظننت أنه قد زيد لى فى مُلكى.. وإن إسحاق لنعمة من نعم المُلْك التى لم يُحظ بمثلها. ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى»[3].

لعلنا نستطيع - بعد هذا كله - أن نقول: إن هذه العوامل جميعها قد هيأت الجو للارتقاء بفن «الغناء»؛ إذ دفعت القائمين عليه إلى لون من التنافس فى الإجادة، وإلى نوع من التميز فى الأداء.

لقد كان وراء عدد كبير من أولئك الذين قُدِّر لهم أن يكونوا الصفوة التى تنادم الخلفاء، وتجالس الوزراء والكبراء طموحٌ كبير فى أن يحقق كلٌ منهم التميّز والتفرد، ليظل متربعًا على عرش «الغناء» لا يزاحمه فيه مزاحم.

وهذا كله يحتاج إلى نوع من الحِذْق والمهارة والدربة والخبرة الطويلة القائمة على المعرفة الواعية بما يقدم، ولمن يقدَّم. ولعل خبر إسحاق الموصلى فى تشويشه أوتار

---

(١) انظر: السابق، ص٤.

(٢) انظر: ص ٤٧١ من هذا البحث. وانظر الأغانى: جـ٥، ص٢٦٩.

(٣) الأغانى: جـ٥، ص٢٨٥-٢٨٦.

العود - وقد كان عالج هذا الأمر زمنًا طويلاً[1] - ثم تقديمه للصوت وكأن الأوتار فى وضعها الطبيعى، أو مستوية، وعجز الآخرين عن ذلك - من أدل الشواهد على ما نقول. ومن ثم استحق لقب «الأستاذ»، واستحق ما خلعه الخلفاء عليه من أوصاف، وظلت الساحة الفنية تحت إمرته عقودا من الزمان.

وقبل أن نتحدث عن المجال الذى دار فيه التنافس، وعن أهم فرسانه، تجدر الإشارة إلى أمور؛ منها: طبيعة الذوق السائد آنذاك، وهو ذوق متحضر معقد، يستجيب للحن الرومى[2]، والفارسىّ[3]، فضلاً عن العربى. ولئن دلّ هذا على الجانب الحضارى المرتبط بالتطور والتقدم، فإنه يدل - من زاوية أخرى - على جانب اجتماعى له أهميته، يتمثل فى أن طبقة (الموالى) قد نعمت فى ظل الدولة العباسية بما لم تكن تحلم به من قبل.

ومنها: الاهتمام بثقافة «المغنى» والحرص على تمكنه فى فنه. وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى معرض الكلام عن «الإعداد الجيد»، ولكنا هنا نتناوله من حيث انعكاسه على الذوق، وأثره فى الحياة الاجتماعية. وإذا كان هذا يمثل جانبًا ثقافيًا حضاريًا فإن له مردوده على الجانب الاجتماعى؛ بما يذيعه فى الناس، ويتردد على أسماعهم ليل نهار؛ ومن هنا فإن الحديث عن «الأصوات» يرتبط بالضرورة بالشعر المختار المغنَّى، وذوق صاحبه فى اختياره، وذوق المستمع المتلقى فى عطاء هذا كله.

ونتوقف عند بعض الأخبار المتعلقة بصنعة أولاد الخلفاء: الذكور منهم والإناث

---

(١) انظر ص ٤٧٤ من هذا البحث. وانظر أيضًا: الأغانى جـ٥، ص٢٨١، حيث أورد أبو الفرج قصة من التراث الغنائى الفارسى على لسان إسحاق هى التى حفزته على هذه الإجادة.

(٢) انظر: الأغانى: جـ٥ ص٢٧٩ والخبر متعلق بمهارة إسحاق الموصلى، وقدرته على التعرف على نوع اللحن مهما تنوعت أنغامه؛ إذ امتحن بإدخال لحن رومى فى شعر عربى، وغنى به فى درج أصوات مرت قبله، وامتزجت نغمته، فلما سمعه إسحاق، جعل يتفهمه ويقسمه ويتفقد أوزانه ومقاطعه، ويوقع عليه بيده، ثم قال - هذا صوت رومىّ اللحن.

(٣) انظر: الأغانى: جـ٥، ص٢٩٣-٢٩٥ والخبر يتعلق بأبى أحمد بن الرشيد؛ حيث دسّ إلى اسحاق غلامين على أنهما لأحد وجوه خراسان مع هدية ليعلمهما؛ وقد تعلّما منه الكثير. وفى مجلس الواثق - وفى حضور إسحاق - دخل هذان الغلامان فى أقبية خراسانية تمويها على إسحاق، وطلب منهما الواثق أن يغنيا، فضربا ضربًا فارسيًا، وغنيًا غناء فهلذيًا، فطرب الواثق وقال: أحسنتما، فهل تغنيان بالعربية ؟ قالا: نعم، واندفعا يغنيان ما أخذاه عن إسحاق، وهو ينظر إليهما، وهما يتغافلان عنه... إلى آخر الخبر.

والشخصية التى نالت الشهرة فى ذلك هى: شخصية إبراهيم بن المهدى[1]. وعنه يقول أبو الفرج: «كان رجلاً عاقلاً فهماً دينا أديبًا شاعرًا راوية للشعر وأيام العرب خطيبًا فصيحًا حسن المعارضة. وكان إسحاق الموصلى يقول: ما ولد العباس بن عبد المطلب بعد عبد الله بن العباس رجلاً أفضل من إبراهيم بن المهدى. فقيل له: مع ما تبذَّل له من الغناء ؟ فقال: وهل تم فضلُه إلا بذاك![2]». كما يروى: أنه كان يحسن الإيقاع على الطبل والناى[3].

وعن أو: عُلَيَّة بنت المهدى[4] يقول: «كانت علية بنت المهدى من أحسن الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة»[5]؛ كما كانت «حسنة الدين. . لا تغنى ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب»[6].

وأخيرًا؛ فإنه من الملاحظ كثرة المؤلفات التى تناولت فن «الغناء»، وقد ورد ذكر بعضها فى كتاب «الأغانى»؛ من ذلك ما يرويه أبو الفرج عن محمد بن إبراهيم بن قُريص، أن ابن المعتز دفع إليه كتابه الذى ألفه فى أخبار «شارية»، وطلب منه أن يرويه عنه[7]؛ وما يذكره من تأليف جماعة من المغنين كتبًا، «منهم يحيى المكى - وكان شيخ

---

(١) يكنى أبا إسحاق، وأمه شكلة مولاة. كان أبوها من أصحاب المازيار، يقال له: شاه أفرندا فقتل مع المازيار، وسُبيت بنته شكلة، فحملت إلى المنصور، فوهبها لمحيّاة أم ولده، فربتها وبعثت بها إلى الطائف ، فنشأت هناك، وتفصَّحت، فلما كبرت رُدَّت إليها. فرآها المهدى عندها فأعجبته فطلبها من محيّاة، فأعطته إياها، فولدت منه إبراهيم. الأغانى: جـ١٠ ص٩٥-٩٦.

(٢) الأغانى: جـ١٠، ص٩٦.

(٣) انظر: الأغانى: جـ١٠، ص١٣٨-١٣٩ وفى هذا السياق يورد الخبر أن «الأمين» قال له فى بعض خلواته: ياعم أشتهى أن أراك تزمر، فقال: يا أمير المؤمنين، ما وضعت على فمى نايًا قط، ولا أضعه، ولكن يدعو أمير المؤمنين بفلانة - من موالى المهدىّ - حتى تنفخ فى الناى، وأمرّ يدى عليه؛ فأحضرت، وصنعت ما قاله، وكلما مرَّ الهواء فى الناى أمرَّ أصابعه، فأجمع سائر من حضر على أنه لم يسمع مثله قط.

(٤) هى: عُلية بنت المهدى، أمّها أم ولد، مغنية يقال لها «مكنونة»، كانت من جوارى المرْوانية المغنية - وليست من آل مروان بن الحكم - فاشتريت للمهدى فى حياة أبيه بمائة ألف درهم، فغلبت عليه، واستتر أمرها عن الحضور حتى مات، فولدت له عُليّة بنت المهدى . انظر: الأغانى جـ١٠ ص١٦٢.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) السابق: ص١٦٣.

(٧ انظر: الأغانى: جـ١٦، ص٤.

الجماعة وأستاذهم، وكلهم كان يفتقر إليه، ويأخذ عنه غناء الحجاز، وله صنعة كثيرة حسنة متقدمة، وقد كان إبراهيم الموصلى وابن جامع يضطران إلى الأخذ عنه. ألف كتابًا جمع فيه الغناء القديم، وألحق فيه ابنه الغناء المحدث إلى آخر أيامه»[١]؛ ومنهم دنانير، ولها كتاب فى الأغانى مشهور[٢]، وطبيعى أن يكون لإسحاق الموصلى إسهام فى هذا النتاج بكتاب «النغم وعللها»[٣] كما أن يحيى بن على بن يحيى له كتاب فى «النغم»[٤] أيضًا.

هذه مجرد شواهد قصد بها التدليل على اتساع حركة التأليف فى ذلك العصر حول «الغناء». ونحسب أن مرد ذلك إلى ما وصل إليه من تقدم وازدهار، دفع بالمهتمين به إلى أن يرصدوا ظواهره، ويحللوا جوانبه، ويميزوا جيده من رديئه.

لا عجب بعد هذا كله أن نجد ذلك التنافس» الذى تحدثنا عنه سابقًا، وقد كان من أبرز العوامل فى ذلك التقدم والازدهار؛ ومن ثم يستحق أن نتوقف عنده بالدراسة.

لقد هيأت العوامل السابقة[٥] مجتمعة الجو للون من المنافسة القائمة على الرغبة فى التفوق والإجادة. ومن الطبيعى أن نجدها تقوى وتشتد بين أولئك الأعلام الذين قدِّر لهم أن ينهضوا بهذا الفن، من أمثال: إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق وإبراهيم بن المهدى وغيرهم.

ولقد بدأ الاختلاف فى مذاهب الغناء والألحان بين إبراهيم الموصلى ومعاصره إبراهيم بن المهدى. وقد تحركت المنافسة بين الرجلين، وأشار إليها أبو الفرج مرة واحدة لم تتكرر، فى حين استمرت وتكررت طوال تعاصر إسحاق وإبراهيم بن المهدى. أما هذه المرة الواحدة فكانت بسبب من تدخل ابن المهدى لتصويب لحن أداه ابن جامع

---

(١) الأغانى: جـ٥، ص٢٦٩-٢٧٠.
(٢) انظر: الأغانى: جـ١٨، ص٦٥.
(٣) انظر: الأغانى: جـ٨، ص٣٧٤.
(٤) انظر: السابق نفس الموضع. وانظر أيضًا: جـ١٥، ص٢٦٩ فى معرض حديث أبى الفرج عن «عمرو بن بانة»؛ إذ يذكر أن كتابه فى الأغانى أصل من الأصول.
(٥) تحدثنا عنها فى الصفحات السابقة، وهى: الإعداد الجيد للموهوبين، واشتراك عناصر المجتمع بطبقاته فى الغناء، وتشجيع الخلفاء وأصحاب السلطان له ولأصحابه.

فى حضرة الرشيد، وكان الموصلى حاضرًا وسعيدًا بخطأ ابن جامع، ومن ثم غضب لتدخل إبراهيم بن المهدى[1]. لم يكن المقام يسمح بالكثير بين الرجلين (الموصلى، وابن المهدى) فقد عاش إبراهيم بن المهدى بين عامى (١٦٢-٢٢٤هـ) وهذا يعنى أنه كان فى السادسة والعشرين من عمره حين وفاة إبراهيم الموصلى (١٨٨هـ)، فقد كان لا ينهض إلى منافسته وهو شيخ متمكن مستقر المكانة عند مريديه، ويتضح هذا فى الخبر المتقدم، فيما كان من حوار بين الرشيد وأخيه إبراهيم، وإلحاح إبراهيم فى الحصول على رضا الموصلى! إن بداية الخبر المشار إليه آنفًا تقول: «كان إبراهيم بن المهدى يقدم ابن جامع ولا يفضل عليه أحدًا»، مما يعنى أن الخلاف أساسه اختلاف فى تقدير الصناعة (الغناء والموسيقى)، وهو من جانب إبراهيم بن المهدى لا يأخذ شكل المنافسة، لأن ابن المهدى - وهو من بيت الخلافة فى الذروة - لا يتكسب بالغناء، ولا ينال مكانه فى حاشية الخليفة بصفة المغنى، حتى وإن غنّى، فهو أخو الرشيد وعم الأمين والمأمون والمعتصم، وقد مات إبراهيم بن المهدى فى السنوات الأولى من ولاية المعتصم.

ويمكن القول بأن المنافسة تأجلت بين إبراهيم بن المهدى وآل الموصلى حتى أخذ إسحاق مكان أبيه؛ إذ كان عمراهما متقاربين، ولم يكن إسحاق فى دهاء أبيه وإن كان يتجاوزه شعرًا وفنًا وثقافة وعلمًا، كما أنه مات فى الثمانين من عمره، مما أتاح له أن يكون صدرًا فى عدة عهود فشهد فى حضرة أبيه وبعد وفاته مدة من عصر الرشيد، وكان له موقف مميز إبان أزمة الأمين، ثم بزغ نجمه بعصر المأمون فالمعتصم، وشهد عصر الواثق، ومات فى العام الثالث من ولاية المتوكل، وكان بعد المعتصم قد صار شيخًا واعتزل الغناء. ويمكن أن يضاف اسم آخر وهو زرياب، لتتضح - أو لتكتمل - صورة المنافسة بجوانبها المتعددة.

الثلاثة: إسحاق وإبراهيم بن المهدى وزرياب[2]

إن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة سبيلاً مختلفًا، ولكن إسحاق كان الفاعل المؤثر

---

(١) انظر: الأغانى، جـ٥، ص١٧٣-١٧٤.

(٢) اسمه: على بن نافع، مولى العباسيين، يوصف بأنه نابغة الموسيقى فى زمانه، وكان عارفًا بالعلوم، كما كان شاعرًا مطبوعًا، ولد - فى استنتاج المستشرق بروفينسال - عام ١٧٢هـ، ودخل الأندلس عام ٢٠٧هـ، وتوفى ٢٤٢هـ. وقد شاع فى المصادر: أن الزرياب طائر أسود حسن الصوت، وقد أخذ الزركلى بقول آخر، أن زرآب محرفة عن كلمة فارسية معناها ماء الذهب. انظر: الأعلام للزركلى: جـ٥، ص٢٨.

(سلبًا أو إيجابًا) فى كل من الآخرين، وإذا كانت طرائق الكتابة الموسيقية فى زمانهم قد قطعت امتداد تواصل ألحانهم إلى زماننا، فإن القضايا (الفنية) التى أثيرت بينهم، أو بسبب من تنافسهم، لا تزال تثار حضاريًّا فى هذا العصر بالنسبة للحضارة العربية. لدينا أكثر من مدخل للنظر إلى موضع التشابك بين الثلاثة؛ فهناك مدخل أخلاقى عن قيم التنافس وحدود المنافسة، ومدخل طبقى عن الفنان والأمير الفنان، ومدخل حضارى وهو الصراع بين القديم الموروث ورغبة التجديد. وقد أومأنا إلى هذا المعنى فى مقدمة الفصل، إذ وصفنا القرن الثانى الهجرى والقرن الثالث أيضًا بأنه زمن الصراع والتفاعل بين القديم والحديث، فعلى الرغم من حضور المدخل الأخلاقى فى «مطاردة» إسحاق لزرياب، حتى يضطره إلى الهجرة إلى الأندلس، فيغيب ذكره قسرًا عن كتاب الأغانى على الرغم من نهوضه بفن الموسيقى والغناء فى أقصى الغرب الإسلامى ذلك الحين، وحضور المستوى الطبقى فيما كان بين إبراهيم بن المهدى وإسحاق من تنافس فنى - فإن الصراع بين القديم والجديد كان العامل المشترك.

من المتوقع ألا يغيب التنافس عن أهل الفن (الموسيقى والغناء) فى أى عصر، وقد يكون الاقتراب من أهل السلطان، أو الحصول على المال سببًا كافيًا، وكان هذا ماثلاً فى العصر الأموى، فقد كان لكل كبير من كبراء الطرب مريدوه، وكان له من تلاميذه من يتعصب لطريقته ويعيش فى كنفها.

وفى مختلف عصور الفن وجد من العازفين والمغنين من لا يبارح ما تعلّم من أستاذه ولا يجد حرجًا فى الانتساب إليه، أما فى عصر جمع بين هؤلاء الأقطاب الثلاثة فقد أخذت المنافسة شكلاً مختلفًا، وتحولت إلى ما يشبه المواجهة بين حزبين، لكل منهما مبادئه وأنصاره الذين لا يترددون فى إعلان الوفاء له، والإعلاء من شأن طريقته فى الألحان. وسنرى أن هذا النسق من استقطاب المواجهة الفنية فى حزبين، وليس أكثر، هو ما تأسس فى عصر إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى، وقد تصعّد من أوساط الناس وأهل الصنعة إلى علية القوم، كما أنه استمر فى الأزمنة التالية متجاوزًا أسماء الأشخاص إلى أسماء جديدة حلّت فى أماكنها مع حركة الزمن، وحتى لا يلتبس وجه ما استجد فى معنى التنافس أو مداه؛ فإن التنافس كان حاضرًا دائمًا، وربما بلغ حدّ التآمر

وسرقة الألحان[1] لانتزاع الإعجاب.

وهذا غير ما نتعقبه الآن فى أخبار الأغانى، من حيث شكله، ودلالته، وهدفه. وقد وصف إسحاق بأنه كان آفة إبراهيم بن المهدى، وأن إبراهيم كان «يجندر» صنعة القدماء فى الغناء ويحسنها[2]. وقد كان لإسحاق موقف حاد (رافض)، وواضح من هذا التدخل (وإن كان بزعم التحسين الفنى) فى أصوات لم يؤلفها إبراهيم بن المهدى سواء كانت من الموروث أو من صنعة أبناء جيله الذين يؤثرون النمط القديم.

وقد حدث منصور بن محمد بن واضح أن إبراهيم بن المهدى طرح فى منزل أبيه (أبى منصور بن محمد) بيتين لكعب بن زهير، كان فيهما لحنان لإسحاق (ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر، ماخورى بالوسطى) وفيهما أيضًا لحن للزبير بن دحمان. قال المحدث: «فجاءنا إسحاق يومًا وأقام عند أبى، وأخرجنا إليه جوارينا، ومرّ الصوت الذى طرحه إبراهيم بن المهدى من غنائه، فقال إسحاق: من أين لك هذا ؟ قال: طرحه أبو إسحاق إبراهيم بن المهدى ـ أعزه الله تعالى ـ، فقال إسحاق: وما لأبى إسحاق أعزه الله ولهذا الصوت ! هذا أنا صنعته، وليس هو كما طرحه. قال: فسأله أبى أن يغنيه، فغناه وردده حتى صح لمن عنده[3].

وقد كتب محمد بن واضح رسالة مهذبة تنقل خبر ما جرى إلى إبراهيم بن المهدى،

---

(١) ينظر الخبر الطريف الذى رواه أبو الفرج عن عدة مصادر، وفيه دلالات نفسية وذوقية، عن اقتراح الرشيد أن يقتسم المغنين مع وزيره جعفر، وأن يتبارى الفريقان فى منافسة، فكان ابن جامع فى حيز الرشيد، وإبراهيم الموصلى فى حيز جعفر، فغنى ابن جامع أصواتًا أحسن فيها ولم يكن الموصلى يعرفها، حتى قال له جعفر: أخزيتنا أخزاك الله. ولكن الموصلى احتال على ابن جامع فدسّ عليه محمد المعروف بالزفّ، وهو ماهر فى اقتناص أسرار الأصوات، فجاءه بالخبر، ومن ثم استطاع الموصلى فى اليوم التالى أن يتهم ابن جامع بسرقة هذه الأصوات بعينها، وأن يؤديها هو بين يدى الرشيد، مدعيًا أن امتناعه أمس عن أدائها كان تأدبًا أمام إعجاب أمير المؤمنين بهذه الأصوات...

انظر الخبر وخاتمته: الأغانى: جـ٥، ص٢٠٤-٢٠٩.

(٢) انظر السابق: ص٢٩١، ٢٩٢ وانظر أيضاً ص٣٩٤. وفى الأصل المعجمى للجندرة، جاء فى المعجم الوسيط: وجندر الثوب ونحوه: أعاد رونقه بعد ذهابه، وصقله بالجندرة، وجندر الكتاب ونحوه: أمرّ القلم على ما درس منه ليتبيّن، والجندرة: آلة خشبية تتخذ لصقل الملابس وبسطها.

(٣) الأغانى: جـ ٥، ص٢٩٠-٢٩١.

لأنه يدرك سلفًا أن هذا الاختلاف (الفنى) سيكون حديث المجالس ولا يليق أن يفاجأ به إبراهيم، وكانت الرسالة متحسبة مكان إبراهيم فى أسرة الخلافة أكثر من تحسبها مكان إسحاق فى الطرب، وهو متوقع حتى وصف ما أعلنه إسحاق بأنه «زعم»، وأنه يريد أن يعرف منه حقيقة ما يقال. فكتب إليه إبراهيم بن المهدى: «نعم؛ جعلت فداك، صدق أبو محمد (إسحاق الموصلى) أعزه الله. الصوت له، وهو على ما ذكره، لكنى لعبت فى وسطه لعبًا أعجبنى»[1].

فى بضع عبارات أجمل إبراهيم بن المهدى أسباب الخلاف، ولكن له بقية مهمة، جاءت فى صيغة رسالة مقترحة (اقترح إسحاق إرسالها إلى إبراهيم، وما نظنها أرسلت). تقول هذه الرسالة التى لم ترسل: «إذا أردت يا هذا (ولنتأمل الفرق بين مناداة عم الخليفة بـ «يا هذا» وبين تكنيته، وإلحاق الدعاء - أعزه الله - باسمه فى الرسالة السابقة التى كتبها إسحاق نفسه) أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس، وما حاجتك إلى هذا الشعر أكثر من ذلك، فاصنع أنت إن كنت تحسن (!!) والعب فى صنعتك كما تشتهى مبتدئًا باللهو واللعب غير مشارك فى جد الناس بلعبك ومفسد له بما لا تعلمه. يا أبا إسحاق، أيدك الله ليس هذا الصوت مما يتهيأ لك أن تُمَخْرِق فيه وتقول «جِنْدِرتُه»[2].

لقد أوضحت الرسالتان المتبادلتان بالفعل، والرسالة التى نرجح أنها لم ترسل، غير أنها لم تفقد دلالتها - أوضحت الفرق الحاسم بين مدرستين فى الغناء: مدرسة الموصلى وارث أبيه فى التمسك بأداء القديم على أصول أدائه الموروث، وأداء الحديث على النهج نفسه؛ ومدرسة إبراهيم بن المهدى التى استحدثت طرقًا جديدة فى صناعة الألحان، وتمادت فلم تجد بأسًا فى أن تقدم الأصوات المتوارثة بطريقتها المستحدثة.

ولقد أبى عليها إسحاق الموصلى هذا الحق الذى منحته لنفسها، وكان أشد إباءً - إلى

(١) السابق: نفس الموضع. ومن طريف هذه المكاتبات المتبادلة أن إسحاق حين اطلع على ردّ إبراهيم طلب من ابن واضح أن يكتب إليه ردًا لا يخلو من الحِدّة، استوفاه الخبر دون أن يقول: هل أرسلت هذه الرسالة الأخيرة أم ظلت بمثابة تعقيب يصف ويشرح ويعلل ما يراد بجندرة الأصوات، والمدى الذى يصح أولا يصح الأخذ به.

(٢) السابق: نفس الموضع. تمخرق: تموّه وتعبث على غير قاعدة.

درجة الغضب والاستنكار - أن تعاد أصواته هو التى صنعها بنفسه، بغير طريقته التى رسمها تحت مزاعم «الجندرة»، وكان التحدى مصحوبًا بالتهكم فى قوله: «إذا أردت يا هذا أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس».

وهناك خبر آخر - وبين الخبرين مائة صفحة فى سيرة إسحاق وأخباره - كان إبراهيم فيه الغائب الحاضر، وكان إسحاق الغاضب الناقم على الجندرة وما تُلْحِق بالألحان، مما يعده تدميرًا لها؛ وخلاصة الخبر أن الخليفة الواثق (وكان شديد الثقة والإعجاب بفن إسحاق) خرج يتصيد إلى القاطول، ومعه جماعة من المغنين، ومعه إسحاق أيضًا، وحدث أن غنى عمرو بن بانة لحن إبراهيم الموصلى، متبعًا فى أدائه ما أخذه عن إبراهيم ابن المهدى، فقال الواثق لإسحاق: «أتعرف هذا اللحن ؟ ففال: نعم، هذا لحن أبى، ولكنه مما زعم إبراهيم بن المهدى أنه جندره وأصلحه، فأفسده ودمر عليه. فقال له: غنه أنت. فغناه فأتى به على حقيقته واستحسنه الواثق جدًا، فغمَّ ذلك عمرو بن بانة، فقال لإسحاق: أفأنت مثل إبراهيم بن المهدى حتى تقول هذا فيه ؟ قال: لا والله ما أنا مثله؛ أما على الحقيقة فأنا عبده وعبد أبيه، وليس هذا مما نحن فيه؛ وأما الغناء فما دخولك أنت بيننا فيه !»[1].

لقد تلاحى الرجلان فى مجلس طرب الخليفة، مما حمل الواثق على تأنيب ابن بانة وإبعاده عن مجلسه حفاظًا على كبير مطربى عصره وموضع إعجابه، وسنعرف شيئًا عن هذا الإعجاب. على أنه من المقرر عند أبى الفرج أن الواثق كان من الملتزمين فى ألحانه لصنعة الأوائل[2].

إن هذا التلاحى بين إسحاق وعمرو بن بانة فى مجلس الواثق يتجاوز موضوع الجندرة (أو التدخل بتغيير الألحان) إلى انتقال عصبية المذهب الغنائى إلى المريدين وجرأتهم فى الدفاع عنه، وإن تكن جرأة محسوبة تضع فى اعتبارها قرابة ما بين الخليفة وعم أبيه؛ على أن إسحاق كان يعرف منزلته لدى الخليفة (المغنى) المعجب به، ولم يتجاوز كثيرًا.

---

(١) الأغانى: جـ٥، ص٣٩٤-٣٩٥.

(٢) انظر: السابق، نفس الموضع.

وهنا يبقى سؤال لم يقدم أبو الفرج جوابًا عليه، ربما لأنه كان يروى الأخبار دون أن يحاول اكتشاف الجانب المضمر فيها. وهذا السؤال عن سر هذه «الجندرة» التى ابتدعها إبراهيم، هل كان الأداء المختلف بسبب من اكتشاف آلات عزف جديدة لم تكن معروفة من قبل ؟ فمن المتوقع أن تؤثر إضافة آلة جديدة فى أداء لحن كانت الآلات القديمة تؤديه فى حدود المتاح لها من الإيقاعات. وقد نستأنس فى الإجابة عن هذا السؤال بالإشارة إلى أن زرياب أضاف إلى آلة العود وترًا (فأصبح فى خمسة أوتار) أو اتخذه من نوع من الخشب، واتخذ له من الأوتار ومن المضراب ما يؤهله لأداء مستوى من الأصوات لم يكن للألحان الموروثة به عهد[1].

والذى نراه – وإن كان لا يزال بحاجة إلى تدقيق ومراجعة – أن زرياب أصغر عمرًا من إبراهيم بن المهدى بعشر سنوات[2]، وتتلمذ فى الموسيقى والغناء على يد إسحاق وكان من مريدى إبراهيم، وكان طموحه الموسيقى يتجاوز الجندرة؛ ولا شك أن هذا يزعج إسحاق جدًا ويخرجه عن اعتداله، وأنه إذا كان لا يطيق التصدى لإبراهيم – ابن الخليفة، وأخى الخليفة، وعم الخليفة – فإنه يطيق تهديد زرياب وحمله على مغادرة بغداد. وهذه المطاردة تدين إسحاق أخلاقيًا، ويعدها الحفنى تشريدًا لفنان كان يستحق اعتزاز أستاذه، «وله أن يدعى أنه منشئ موهبته وصانع عبقريته»[3].

ويعتبر بعض الباحثين خروج زرياب إلى الأندلس بعد ما تيسر له من تدريب على إسحاق «تكرمة الأقدار نفسها»؛ «إذ يمضى إلى جنة العرب الجديدة فيطلع على ألوان من الجمال، ويقارن بين فنون يضيفها إلى مدخره العربى الفارسى[4]».

---

(١) انظر: د. محمود أحمد الحفنى: إسحاق الموصلى – مرجع سابق ص٢١٨-٢١٩ وهامش الصفحتين.

(٢) ولد زرياب تقديرًا ١٧٢هـ – وولد إبراهيم بن المهدى ١٦٢هـ، وولد إسحاق الموصلى ١٥٥ هـ – وهذه التواريخ تعنى أن زرياب حين دخل الأندلس (عام ٢٠٧) كان عمره ٣٥ عامًا – وكان عمر إبراهيم ٤٥ عامًا وعمر إسحاق الموصلى٥٢ عامًا.

(٣) د. محمود الحفنى: السابق، ص٢١٨.

(٤) عبد العزيز بن عبد الجليل: الموسيقى الأندلسية المغربية ... إلخ «الموسيقا الأندلسية المغربية» سلسلة عالم المعرفة – الكويت – المجلس الوطنى للثقافة ١٩٨٨م ص٧. والطريف فى هذا التصور (المتفائل) أنه منقول عن مقال للدكتور الحفنى نفسه، نشر فى المجلة الموسيقية عن زرياب – عدد مايو ١٩٧٧.

لقد رويت أخبار عن جمال صوت إبراهيم بن المهدى، وكذلك زرياب، فى حين عبرت المصادر عن جوانب من القلق فى صوت إسحاق، وكان يدارى ذلك بضبط أوتار آلاته، وبخبرته الموسيقية الواسعة؛ فهل كان السبب فى جندرة إبراهيم، وما تطلع إليه زرياب ولم نعرف خبره على التحديد هو حدود الاستطاعة الصوتية (الأدائية) وليس استحداث آلات عزف جديدة ؟ ومهما يكن من أمر فإن إسحاق لم يكن متقبلا لأن يكون فى غير مركز الصدارة بين موسيقيي زمانه، وقد حارب من أجل هذا - إيجابًا - بترقية ثقافته وتجويد فنه، وسلبًا بإخلاء طريق المنافسة بكل وسيلة مستطاعة، لا يملك خصمه معها دليل إدانتها.

إن الأجدر بالعناية، فى ختام حديثنا هذا عن تنافس الثلاثة الكبار فى عصرهم، ما يتصل بأمر المنافسة بين إسحاق وإبراهيم، وبخاصة أن نهضة الموسيقى العربية، وازدهار الغناء العباسى، وما بعده موكول إلى إسحاق دون صاحبه، وكان إسحاق موضع حسد المغنين؛ فقد غنى فى مجلس الرشيد ونال جوائزه وهو صبى، وكان متهمًا - فى حياة أبيه وبعد وفاته - بأنه ينتحل ألحانًا وضعها أبوه، إلى أن قبل التحدى فلحنّ أشعارًا وضعت لساعتها[1]، كما وجهت إليه تهمة أنه يتزيد فى علمه[2]. وهذه بمثابة «مواقف» متحدية، ولكن التحدى المستمر، الذى لم يكن يحمل له علاجًا قاطعًا كان منافسة إبراهيم، وهى منافسة - مهما يكن من أمرها - فى صالح فنون الموسيقى والغناء؛ لأن كلا الرجلين جاء بأقصى ما يستطيع من إبداع. ولقد حصرنا الأخبار التى ذكرها أبو الفرج وتضمنت نوعًا من المواجهة أو صور المنافسة بين إسحاق وإبراهيم فكانت فى اثنى عشر موضعًا، لم تأخذ اتجاهًا واحدًا، ولكنها استطاعت أن تحيط بمختلف جوانب هذه المنافسة التى امتدت إلى آخر عمر كل منهما[3].

---

(١) انظر: الأغاني: جـ٥، ص٣٣٣ . ويذكر الأغانى فى هذا الموضع أن المغنين كانوا يحسدون إسحاق ويتهمونه بأنه ينتحل صنعة أبيه فى الغناء

(٢) انظر: الأغانى: السابق، ص٢٧٧.

(٣) هذه أرقام المواضع الاثنى عشر التى جاء فيها ذكر ما كان بين إسحاق وإبراهيم بن المهدى رضاءً أو سخطًا، وجميعها مسرودة فى أخبار «إسحاق بن إبراهيم» جـ٥ من الأغانى صفحات: ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣١٩، ٣٥٣، ٣٧١، ٣٧٢.

إن أبا الفرج لم يعقد عنوانًا فرعيًا ليصف فيه هذه المنافسة، كما لم يرتب أخبارها ترتيبًا تاريخيًا أو تصاعديًا؛ ولعل أول هذه الأخبار وأشدها وطأة وإن يكن مبكرًا حدث فى بلاط المأمون، وخلاصته أن «عقيدًا» كان يغنى المأمون ارتجالاً وغيره يضرب عليه، فسأل المأمون إسحاق رأيه فيما يسمع، فكان من خبرته ودهائه أنه لم يبادر بالجواب، وإنما سأل: هل أبدى أحد رأيه فى هذا اللحن غيرى، فقال المأمون - وإبراهيم موجود -: سألت عمى إبراهيم فوصفه وقرظه واستحسنه. وهنا اتجه إسحاق إلى المغنى عقيد، فطلب منه إعادة الصوت فأعاده، وأعاد سؤال إبراهيم عن رأيه فيه فاستحسنه، فسأل إسحاق عقيدًا: «فى أى طريقة هذا الصوت الذى غنيته ؟ قال: فى الرمل، فقال للضارب: فى أى طريق ضربت أنت ؟ قال: فى الهزج الثقيل، فقال: يا أمير المؤمنين، ما عسيت أن أقول فى صوت يغنى مغنيه رملاً ويضرب ضاربه هزجًا، وليس هو صحيحًا فى إيقاعه الذى ضرب عليه ! قال (إسحاق): وتفهمه إبراهيم بن المهدى بعدى، فقال: صدق يا أمير المؤمنين، الأمر فيه الآن بيّن، فغاظنى، فقلت له: بأى شىء بان الآن ما لم يكن بينًا قبل ؟ أتوهم أنك استنبطت معرفة هذا ! وإنما قلته لما علمته من جهتى كما يقول الغلمان العُجْم وسائر من حضر اتباعًا لى واقتداءً بقولى ؟! وقال له المأمون، صدق فأمسك، وجعل يتعجب من ذهاب ذلك على كل من حضر، وكنّانى فى ذلك اليوم مرتين»[1].

ولنا فى وقائع هذه المواجهة - المبكرة نسبيًا - رأى؛ فخبرها مروى عن على بن سليمان الأخفش، محدثًا عن محمد بن يزيد المبرد، محدثًا عن مجهول يصفه بأنه بعض أصحاب السلطان بمدينة السلام، وهذا المجهول - فيما يزعم - قال: سمعت إسحاق الموصلى يقول: ثم يورد وصف المشهد على النحو الذى أسلفناه، وها هنا تساؤلات تتعذر الإجابة عنها؛ فهل كان من اليسير أن يصل إلى مجلس الخليفة مغن وضارب، لا يعرف أيهما الفرق بين الرمل والهزج وهما مثل: الأسماء والأفعال لدارس النحو ؟ وهل تغيب كياسة إسحاق، ويبلغ به الغيظ أن يتهكم بعم الخليفة، ويجعله فى موقع التابع الجاهل المبتدئ فى الفن، فى مثل هذا المجلس ؟ إننا نميل إلى أن مثل هذه الأخبار مصنوعة، لا فرق بين أن يكون إسحاق نفسه صانعها، أو بعض مريديه؛ وأن القصد منها الدعاية

---

(١) الأغانى: جـ٥، ص٢٧٧.

لعلم إسحاق بالألحان، ولهذا جعل الخليفة يقول «صدق»، فأمسك إبراهيم وغيره عن الكلام وجعلوا يتعجبون من ذهاب الفرق بين الغناء على الرمل، والضرب على الهزج، الذى احتاج إلى خبير فى قامة إسحاق الموصلى[١]. وفى مشهد آخر لم يكن إبراهيم حاضره تحدث عُلَّوَيه ببعض ما يعيب به غناء إسحاق، وأطلق عليه اسمًا تهكميًا[٢]. وقد تصل أمور الصدام إلى استدراج الآخر إلى أمور ليست من الغناء أو الموسيقى؛ إذ تدخل فى باب السباب والوقيعة صراحة[٣]، ولكنا لا نطمئن إلى دقة هذه الأخبار؛ لأنها جميعًا تأتى من جانب حماد بن إسحاق، أو مريدى إسحاق دون من يرون رأى إبراهيم؛ ولأن أخبارًا أخرى تعارضها دلت على ما كان يحمله الرجلان، كل للآخر من ودّ، ورغبة فى المجاملة، وتبادل التقدير؛ فقد فُصِد إبراهيم يومًا، فأهداه إسحاق لحنًا وجّه به غلامه (بُدَيحا) فغناه، واستحسنه إبراهيم، وأمر بديحًا بإلقائه على جواريه[٤]. ولعل هذا الخبر الأخير يؤكد جانب الندية، كما يدل على التفوق وتجاوز المعرفة الممكنة لسائر المغنين فى زمانها؛ إذ يقول عمرو بن بانة: «رأيت إبراهيم بن المهدى يناظر إسحاق فى الغناء، فتكلما بما فهماه ولم أفهم منه شيئًا، فقلت لهما: لئن كان ما أنتما فيه من الغناء فما نحن منه فى قليل أو كثير»[٥].

---

(١) ويتكرر المشهد نفسه، ويؤدى إلى النتيجة ذاتها، فى حضرة المعتصم، وكأن عم الخليفة كان يحضر هذا المجلس ليكشف عن جهله بأصول الموسيقى والغناء، وقد يتكرر بكيفية أخرى فى خبر ثالث. انظر السابق، ص٢٨٣ - ٢٨٤، ٢٨٨.

(٢) قال عُلَّوَيه: إن إبراهيم يطلق على غناء إسحاق وعدم تحريكه اسم الأسكوار - وهو بالفارسية حامل البريد، بمعنى أنه «ينقل» ألحان القدماء دون أن يكون ذا أثر مباشر فيها. فواجه إسحاق التسمية الساخرة بمثلها. انظر: الخبر فى السابق ص٢٨٧.

(٣) انظر الخبر برواية حماد بن إسحاق فى السابق، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٤) الأغانى: جـ٥، ص٣٠٤-٣٠٥. وانظر أيضا إهداء إبراهيم إلى إسحاق الخلع والدنانير فضلاً عن برذون وخادم. السابق ص٣١٩-٣٢٠، وتأمل رد الفعل عند المعتصم. وهناك مواقف أشبه بالمعابثات والمكر بين الأصدقاء، كما نجد فى أخبار عن تشويش أوتار العود والعزف عليها على الرغم من العبث بها وتبديل مواقعها، وتنتهى الأخبار من هذا النوع بانتصار إسحاق وإعلان مقدرته فى ضبط الإيقاع على الرغم من اختلاف مواقع أوتار العود. انظر: الخبرين فى نفس المصدر ص٣٥٢-٣٥٣ وص٣٥٤.

(٥) نفس المصدر: ص٣٧١. ولمضمون الخبر رواية أخرى مسندة إلى هبة الله بن إبراهيم بن المهدى، ولعله الخبر الوحيد الذى رواه عنه أبو الفرج. قال هبة الله: كتب أبى إلى إسحاق فى شىء خالفه فيه من التجزئة والقسمة: «إلى من أحاكمك والناس بيننا حمير» !! ص٣٧٢. ومع خشونة العبارة فإن فيها دلالة الندية المعرفية وعجز الوسط الفنى عن اللحاق بهما.

لقد أخذنا بطرف من سيرة إبراهيم بن المهدى وتفوقه فى صناعته، وزعامته لدعوى تجديد الأصوات المأثورة، ومراعاة هذا التجديد فيما يصنع من ألحان مبتدئًا. وهذا يدعونا إلى وقفة قصيرة نستجلى منها بعضا من إسهامات الخلفاء - ومن يدور فى فلكهم - فى هذا المجال.

الخلفاء والخاصة بين التلحين والغناء

يندرج تحت هذا العنوان كل من ينتمى إلى بيت الخلافة ممن أسهم بنصيب - قلّ أو كثر - فى الغناء؛ وسنرى أن بعض أمراء البيت العباسى كانت لهم مكانة فى الغناء وصناعة الألحان. كما قد يدخل فى هذا من يتصلون بمقام الخلافة ومن يدورون فى تلك الخلفاء من الكبراء أو من يقلدهم من ذوى النفوذ بسبب سلطة أو ثروة.

لقد عرفنا من قبل - فى الفصل الخاص بالغناء فى العصر الأموى - أن خلفاء بنى أمية كانوا يسمعون الغناء، وعرضنا لما قيل عن عمر بن عبد العزيز من صناعة الألحان. وقد كان الوليد بن يزيد يصنع الألحان، ويضرب على الآلات أيضا، وعنه يقول أبو الفرج: «وله أصوات صنعها مشهورة. وقد كان يضرب بالعود، ويُوقع بالطبل، ويمشى بالدّف على مذهب أهل الحجاز»[1]. وهنا يفرق أبو الفرج فيما عرض من سيرة الخلفاء ومن إليهم بين السماع، والغناء، وصناعة الألحان، والضرب على الآلات. وليس فى رجالات البيت الأموى من جمع بين هذه الفنون غير الوليد بن يزيد. أما فى العصر العباسى فإن الشغف بالسماع ومجالس الغناء كان شاملا، أو كان الاستثناء فيه محدودًا، كما كان الغناء وصناعة الألحان وممارسة العزف والضرب على آلات الطرب معروفا عند عدد ليس بالقليل.

ومن الطبيعى أن يقترن اتساع الفعل بشرائط وآداب يفرضها مقام الخلافة، وأخرى يراعيها الكبراء وأهل الصنعة. فى مجلس الخليفة كان المغنون يدخلون ومع كلٍّ آلته التى يعزف أو يضرب عليها، ويجلسون خلف ستارة قد نصبت على مسافة عشرين ذراعًا من

(١) الأغانى: جـ ٩ ص ٢٧٤.

مجلس الخليفة. وكان باستطاعته أن يراهم، وأن يخاطبهم، ويقرِّب بعضهم أثناء مخاطبته، وأن يخرجهم، أو يقيم أيَّامنهم بين رفقائه إذا جرى منه ما يستدعى ذلك. وقد روى أبو الفرج الكثير عن هذا حتى لكأننا حاضروه. وعرفنا عنه أن أوتار العود لا تُصلح أو تضبط فى مجلس الخليفة؛ وعرفنا أيضا أن إسحاق كان يدخل مع أهل صناعته زمن الخليفة الواثق، ويجلس معهم دون أن يصطحب عوده؛ تقديرًا خاصًا من الخليفة له، فإذا طلب منه الغناء جاءوه بعود فغنى به، وإذا فرغ رُفع العود من بين يديه[1]. وعرفنا أيضا بعض الإجراءات الاستثنائية إذا ما كان بيت الخلافة يجتاز ظروفًا خاصة؛ فمما حدَّث به محمد بن الحارث بن بُسْخُنَّر، قال: «لما قدم المأمون من خراسان لم يظهر لمغنٍّ بالمدينة، مدينة السلام، غيرى، فكنت أنادمه سرًّا، ولم يظهر للندماء أربع سنين، حتى ظفر بإبراهيم بن المهدى، فلما ظفر به، وعفا عنه، ظهر للندماء، ثم جمعنا، ووجّه إلى إبراهيم فحضر فى ثياب مبتذلة... إلخ»[2].

وقد وصف أبو الفرج – فيما وصف من مجالس الغناء فى حضرة الخلفاء – مشهد طريف، قد يحمل دلالة فارقة بين شخصية المأمون، وشخصية أخيه الأمين، كما يدل على نظرة المنادمين لكل منهما. وهذا المشهد رواه ابن المكى عن إسحاق، قال: «غضب علىّ المخلوع فأقصانى وجفانى، فاشتدّ ذلك علىّ – قال: وجفانى وهو يومئذ بالأنبار – فحمَلتُ عليه بالفضل بن الربيع، فطلب إليه فشفَّعه المخلوع ودعانى وهو مصطبح، فلم أزل متوقفًا وقد لبست قَباءً وخُفًّا أحمر، واعتصبت بعصابة صفراء، وشددت وسطى بشُقَّة حمراء من حرير؛ فلما أخذوا فى الأهزاج، دخلت وفى يدىّ صَفَّاقتان وأنا أتغنى:

اسمع لصوت طريب ... من صنعة الأنبارِى
صوتٍ مليح خفيفٍ ... يطير فى الأوتارِ[3]

وليس هذا الخبر هو الوحيد الذى يساند الفكرة السائدة عن خِفة الأمين وعبثه، ورغبة من حوله فى معابثته، وعدم حرصه على تقاليد مجالس الخلفاء. وقد أوردنا – من

---

١) انظر: الأغانى: جـ٩ ص٢٨٦.
(٢) الأغانى: جـ١٠ ص١٠١–١٠٢.
(٣) الأغانى: ج ٥، ص ٣١٦ ـ ٣١٧.

قبل - الخبر الذى دُعى فيه إلى مجلسه مخارق المغنى وعمه إبراهيم بن المهدى، فذهبا، فإذا الخليفة فى صحن الدار، والدار مملوءة بالوصائف يغنين على الطبول والسرنايات، وهو فى وسطهن يرتكض فى الكِرْج[1].

وما ذكرناه سابقًا عن الأمين يؤكد لنا أنه الاستثناء الذى لفت انتباه أبى الفرج فأثبته، وإن جاء متفرقًا متباعد المواضع. أما أساس مجالس الطرب والسماع فكانت «الستارة» الفاصلة بين المستمعين والمغنين موضع اعتبار مهما كانت منازل المغنين. وفى حال «القيان» فإن «الستارة» كانت صفيقة بحيث لا تأذن بتبادل الرؤية. هكذا كانت تجلس «شارية» جارية إبراهيم بن المهدى حين دخل عليه ابن بُسْخُنر[2]. وفيما يرويه إسحاق عن أبيه إبراهيم الموصلى، فيما يخص دنانير البرمكية، وكانت ترغب فى معرفة رأى أستاذها فى لحنٍ صَنَعَتْهُ، قال إبراهيم: «فحضرت الباب فأدخلت، وإذا بالستارة قد نصبت، فسلمت على الجارية من وراء الستارة، فردّت السلام، وقالت: يا أبت، أعرض عليك صوتًا»[3].

وقد تدل بعض الأخبار على أن «الستارة» كانت واجبة فى مجلس الخليفة؛ إذ هى رمز صيانة حرمه، وكرامة حضوره[4]؛ أما إذا ذهب للسماع فى بيوت بعض تابعيه، فربما لا نجد ذكرًا لهذه «الستارة»؛ فقد كانت القينة «خُنْث» المعروفة بذات الخال أثيرة لدى

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٨ ص٧١. هذا؛ وقد أوردنا الخبر بتفصيله فى معرض حديثنا عن «عناصر السكان وطبقات المجتمع» فى الفصل الأول من هذا الباب. السرنايات: من آلات الصغير. الأغانى، السابق، هامش (٣) من نفس الصفحة. الكرج: بيت وموضع يخرج إليه النصارى. انظر لسان العرب مادة كرج.

(٢) انظر: الأغانى جـ١٠ ص١١٢. ونص عبارته: «فصرت إليه وهو جالس وحده، وشارية جاريته خلف الستارة».

(٣) الأغانى: جـ١٨ ص٦٦ . وقد تدل بعض الأخبار فى الأغانى عن حياة الطبقة الوسطى فى مجتمع بغداد وسُرَّ من رأى أن رفع الستارة أو ظهور القينة فى مجلس الغناء يدل على مزيد من الحفاوة بالضيف، وتقريب المسافة بين الحضور. من هذا القبيل ما يرويه أحمد بن الحسين بن هشام، ومحمد بن الحارث بن بسخنر، حين ذهبا إلى منزل من يدعوانه أبا صالح، فى سرّ من رأى: «فدخلنا، وقدم إلينا طعام عتيد طيب نظيف فأكلنا، وأحضرنا النبيذ، وخرجت جاريته إلينا من غير ستارة، فغنت غناء حسنًا شكلا ظريفًا». الأغانى: جـ١٢ ص٥٢.

(٤) وصف أحد ندماء الخليفة الوليد بن يزيد صورة مجلس له مع الخليفة، فلم يرد للستارة ذكر. انظر: الأغانى جـ٩ ص٢٧٥؛ فهل كان الأمين - بين آل العباس - صنو الوليد بين آل مروان ؟.

الرشيد، وكانت متخرجة على يد إبراهيم الموصلى متقنة لصناعتها، ومع هذا فقد رغب عنها، فأعطاها لرجل من ندمائه، ثم مضى زمن تشوّق فيه الرشيد لسماع صوتها، فأبدى رغبته هذه لزوجها، فما كان من الزوج إلا أن ذهب فاستأجر لزوجه ملابس وجواهر تتزين بها فى حضرة الرشيد؛ وليس لهذا معنى إن لم تكن ذات الخال ستظهر على مقربة من سيدها أمير المؤمنين[١].

لقد أخرنا الحديث عن المغنين والملحنين من الخلفاء ومن يدور فى فلكهم، على كثرتهم وتنوعهم، ما بين خلفاء وأمراء، ورجال ونساء، نظرًا لخصوصية صنعتهم؛ فقد كانوا أقرب إلى من يهوى فنا، يجد فيه متنفسًا للتعبير عن ذاته، لا يتجاوز هذا إلى الحرص على إذاعته، والدعاية له، والمحاماة عنه شأن المتكسبين به. وقد ذكرنا - من قبل - بعض أقوال إبراهيم بن المهدى[٢] التى تدعم ذلك.

وقد عُنى أبو الفرج بذكرهم، وما يتميز به كل منهم. وإذا كانت القرابة العرقية تجمع بينهم (سلالة المهدى) فإن حلاوة الصوت، وطلاقة الوجه وجماله تجمع بينهم أيضا. وكان بعضهم يجمع بين وضع الأشعار وتلحينها مثل: «أبو عيسى بن الرشيد»[٣]، و«عبد الله بن موسى الهادى»[٤]، و«خديجة بنت المأمون»[٥]. أما «عليّة بنت المهدى» فإنها جوهرة الغناء فى البيت العباسى، حتى قيل: «ما اجتمع فى الجاهلية ولا الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية»[٦]. وكانت تقول الشعر الجيد، وتصوغ فيه الألحان الحسنة وقد استحدثت (فى زينة النساء) العصائب المكللة[٧].

ومن الخلفاء المغنين الخليفة المنتصر بالله؛ يقول عنه أبو الفرج: «كان حسن العلم

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٦ ص٣٤٢.
(٢) انظر: ص ٥٩٦ من هذا الفصل، وانظر أيضًا. ص ٦٢٠.
(٣) انظر: الأغانى جـ١٠ ص١٨٧.
(٤) انظر: الأغانى جـ١٠ ص١٩٣.
(٥) انظر: الأغانى جـ١٦ ص١٦.
(٦) الأغانى: جـ١٠ ص١٤٩.
(٧) انظر: الأغانى جـ١٠ ص١٦٢.

بالغناء، فلما ولى الخلافة قطع ذلك، وأمر بستْر ما تقدّم منه»[١]؛ وتأكيدًا لهذه العلاقة يذكر له شعرًا غنى فيه، ويذكر أنه اقترح على «عريب» نسقًا من الألحان، أخذت به حين غنت ثلاثة أبيات فى مدحه، نظمها الحسين بن الضحاك[٢].

ومن هؤلاء الخلفاء المغنين المعتز بالله، وقد نقل أبو الفرج عن الصولى ما وصف به مجلسه ومنادمته وشربه، وما وضع من الشعر للغناء، وما اقترح على سليمان بن القصَّار الطنبورى من ألحان[٣]. وفى هذا السياق يأخذ الخليفة الواثق موقعًا مرموقًا فى علمه بالموسيقى وخبرته بوضع الألحان؛ ومما يرويه أبو الفرج عن إسحاق أنه شاهد الواثق وسمع غناءه[٤]. وتروى «عريب» أن الواثق صنع مائة صوت، ما فيها صوت ساقط[٥]. ويقول إسحاق: «كان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذق من غنّى بضرب العود»[٦].

وإذ قد وصلنا إلى هذه النقطة من البحث فإن أبا الفرج الذى أسس كتابه على الأصوات لم يعط اهتمامًا واضحًا لمصادر الألحان، وبخاصة المصادر الشعبية، فكانت إشاراته فى هذا الاتجاه مختصرة جدًا؛ ولعل له عذرًا فى أن الألحان العربية لم تعرف - فى زمنها القديم - الموسيقى الصافية؛ وإنما هى دائمًا توقيع لأشعار، من ثم شغلت هذه الأشعار اهتمام أبى الفرج، مكتفيًا بوصف اللحن على آلات العزف أو الضرب أو النفخ، وموقع اليد وحركة الأصابع... إلخ، وصفًا قد يبلغ الدقة عند أهل زمانه ومن يعاين آلاته، ولكنه وصف «عرفى» رائج بين أهل الصنعة، لم يبلغ حدّ الكتابة العلمية الرمزية المجردة، التى نعرفها الآن «بالنوتة الموسيقية» ويستطيع العالم بها أن يجرى العزف بمقتضاها دون أن يكون سمعه، أو عرف معنى الكلمات التى تصاحبه.

---

(١) الأغانى: جـ٩ ص٣٠٠.

(٢) انظر: الأغانى جـ٩ ص٣٠٤.

(٣) انظر: الأغانى جـ٩ ص٣١٩. هذا؛ و«عريب» هذه كانت مغنية محسنة وشاعرة صالحة الشعر وراوية له، وكانت جيدة الضرب متقنة للصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار. انظر فى ترجمتها الأغانى جـ٢١، ص٥٤ وما بعدها.

(٤) انظر: السابق ص٢٧٦.

(٥) انظر: السابق ص٢٧٧.

(٦) السابق: ص٢٩٣.

جاء فى أخبار إبراهيم بن المهدى أن إسحاق الموصلى لما صنع صوته «قل لمن صد عاتبا» اتصل خبره بإبراهيم بن المهدى، فكتب يسأله عنه، فكتب إليه بشعره، وإيقاعه، وبسيطه ومجراه، وإصبعه، وتجزئته، وأقسامه، ومخارج نغمه، ومواضع مقاطعه، ومقادير أدواره، وأوزانه، فغناه إبراهيم من غير أن يسمعه فأدّى ما صنعه. ويقول إسحاق فى ختام الخبر إنه لقى إبراهيم، «فغنانيه، ففضلنى فيه بحسن صوته»[1].

فإذا وضعنا جانبًا جمال الصوت وتفوق إبراهيم بن المهدى على الموصلى به، كنا فى هذا النص مع تفصيل غير مسبوق فى ذكر أجزاء اللحن والأعضاء المؤدية لبعضه، وقد استوعبها إبراهيم بن المهدى وأدى الصوت كما رسمه واضعه. ونحن نميل إلى تصديق هذه الرواية وهى ممكنة بلغة عصرها، ولكن ليس من اليسير استعادتها مترجمة إلى اللغة العالمية الماثلة فى كتابة النوتة. لقد نبهنا كتاب «تاريخ الموسيقى» إلى جوانب مفتقدة فى الموسيقى العربية، وفيما كتبه أبو الفرج عنها، ولا نرجح أن الموسيقى الخالصة كانت منعدمة ، فقد وُصف بعض البرامكة بأنه كان لا يجارى فى الضرب على الطبل، وقد يوصف عازف على العود أو زامر بأنه لا مثيل له فى زمانه، بما يشعر بأن الموسيقى الخالصة غير المصاحبة لغناء الأشعار كانت معروفة، ولكنها لم تكن شائعة.

حين تجاوز الاستلهام الإيقاعى موروث البادية من الرجز والحداء والنوح، امتد إلى استقدام ألحان فارسية أو رومية . وقد سبقت الإشارة إلى حنين الحيرى، وابن محرز وغيرهما ممن أخذوا ألحانًا فارسية أو رومية، استصفوا منها ما يلائم الذوق العربى، وآلات العزف المتاحة فى زمنهم، وكذلك ابن مسجح؛ حيث يذكر أبو الفرج أنه نقل غناء الفُرس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الرق والبربطية والأسطوخية، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناء كثيرًا، وتعلم الضرب»[2]، ولكن هذا القدر من الإفادة من ألحان أو

---

(١) الأغانى: جـ١٠، ١٠٥-١٠٦.

(٢) ابن مسجح: أنظر أخباره ونسبه فى الأغانى: جـ٣، ص٢٧٦. ويذكر أنه كان يعيش فى مكة معاصرًا لابن الزبير، أى ستينيات القرن الأول الهجرى . و«البربطية» نسبة إلى «بزنطية» وهى مدينة القسطنطينية قبل أن تبنى، ويراد «بالبزنطية» قوم من الروم الشرقيين، عرفوا بهذا الاسم منذ عهد قسطنطين الكبير إلى سقوط القسطنطينية بيد الترك. أما «الأسطوخوسية» فيراد بهم قوم آخرون من «أسطوخوس» أو أسطوخادس، وهى جزيرة فى جنوبى فرنسا كان أهلها معروفين بالقصف والغناء والأنس، كما هو عليه إلى هذا العهد، وكان سكانها خليطا من الروم واليونانيين والقلطيّن وبقايا الفلسطينيين. هامش (١) فى جـ٣ من الأغانى، ص٢٧٦.

آلات لم يعرفها العرب فى زمنهم الجاهلى أو الأموى لم يؤد إلى قفزة نوعية فى الأداء، ولا إلى تنوع واسع فى استلهام المصادر الشعبية، فضلاً عن إهمال الإنشاد الدينى.

إن وقوف أبى الفرج عند الألحان لإنشاد الشعر هو بالضرورة وقوف عند الغناء المعروف عند الطبقة أو الطبقات العليا من المجتمع، ولكن هذا لا يعنى أن هذه الألحان منبتة الصلة بالألحان الشعبية؛ فقد أشار أبو الفرج - غير مرة - إلى شىء من هذا، ويصدق على ما ذكره مؤلف «تاريخ الموسيقى[1]»، وإن جاء معكوسًا؛ إذ ذكر الباحث الموسيقى الفرنسى أن الأرستقراطية فى عصر الإقطاع كانت هى التى تصنع الألحان، وكانت الطبقة الشعبية تقوم بتبسيطها لتلائمها؛ ومع إمكان هذا فى عصر موسوم بأنه عصر الإقطاع (بما يعنى أن الثقافة كانت حكرًا على الطبقة المتسيدة) فإن عصورًا أخرى وحضارات أخرى عرفت عكس هذا، إذ كانت الألحان الفطرية التلقائية التى تبدعها الجماعات الشعبية من الرعاة والبحارة وأصحاب الصنائع مصدرًا مهمًا لإلهام كبار الموسيقيين بمعزوفاتهم العظيمة. لم ينقطع المصدر الشعبى المجهول عن إمداد كبار المغنين ببعض ألحانهم المتميزة. لقد روى أبو الفرج فى سياق ما كتب عن مالك بن أبى السمح (وهو أموى عمّر إلى خلافة أبى جعفر المنصور) - روى أنه كان يعتمد على ألحان شعبية مسبوقة مع تغيير فيها، وذلك اعتمادًا على ما رواه إسحاق الموصلى فقد أخذ من نائحة، ومن حمّار، ومن حائك، ومن امرأة سوداء فى مكة تبث لوعتها لزوجها البعيد فى جدة[2]. وروى أيضًا عن أبى العتاهية قوله: «كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعرًا يغنون فيه»[3].

---

(١) برنارد شامبينول: تاريخ الموسيقى. ترجمه إلى العربية ثروت كجوك، وراجعه محمد رشاد بدران. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة) ١٩٩٩؛ حيث يذكر من مصادر التنوع فى الموسيقى الإغريقية أنها نهضت فى صحبة الرقص والتمثيل والمواكب، كما يشير إلى الموسيقى الدينية وآلاتها الخاصة ويذكر أيضًا - عكس ما أشار إليه أبو الفرج - أن الأغانى الشعبية (الأوروبية) ترجع إلى ابتكار الطبقة الأرستقراطية وكانت العامة تتولى تبسيطها. انظر: ص١٩ - ٢٢، ٣٤، ٣٧ من هذا المرجع.

(٢) الأغانى: جـ٥، ص١١٢، ١١٤ - ١١٥، ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٣) الأغانى: جـ٤، ص١٠٤. والزلالات يبدو أن المراد بها نوع من السفن.

ولعل أولى الأخبار في هذا السياق ما ذكره أبو الفرج فى أخبار إسماعيل بن الهربذ[1]، من أنه شهد في مجلس الرشيد عددًا من كبار المغنين (ابن جامع، وإبراهيم الموصلي، وابنه، وفليح...) فتباروا في الغناء فما تحرك الرشيد، وهنا اندفع ابن الهربذ يغنى، «فعجبوا من إقدامه فى تلك الحال على الرشيد، فغنى:

يا راكب العيس التى	وفدت من البلد الحرام
قل للإمام ابن الإما	م أخى الإمام أبى الإمام
زين البرية إذ بدا	فيهم كمصباح الظلام
جعل الإله الهربذ	يَّ فداك من بين الأنام

•••

فكاد الرشيد يرقص، واستخفه الطرب حتى ضرب بيديه ورجليه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم»[2]. ويروى ابن الهربذ كيف حصل على هذا اللحن، وكان عبدًا لآل الزبير: «فلقيت جارية على رأسها جرة مملوءة من ماء العقيق وهى تغنى هذا اللحن فى شعر غير هذا الشعر على وزنه ورويه، فسألتها أن تعلمنيه، فقالت: لا وحق القبر إلا بدرهمين...[3]» فأعطاها درهمين كانا لسيده ونال عقوبته، وتكرر هذا، فلما سمع سيده اللحن أعتقه !! يعنينا من هذا الخبر أن الألحان مجهولة الصانع، أو جماعية الصنع كانت موجودة، وكانت - على أيدى محترفى الغناء - يُعَدَّل فيها، وقد تصنع أشعار أرقى، أو تناسب موقفًا بعينه، كما حدث مع الهربذ فى مجلس الرشيد، وقد ذكر أمر قريب من هذا منسوب - فى الأغانى - إلى مالك بن أبى السمح، أنه كان يصنع ألحانًا، ثم يبحث لها عن أشعار تناسبها[4]؛ وهذا أمر غير مستغرب من جهة الشعراء؛ فقد يفيض انفعال الشاعر بلحن سمعه وأثار مشاعره، فيتجه جهده إلى استنباط كلام يحقق شروط الشعر، ويستجيب لهذا النوع من الإيقاع، ويوافق هوى الشاعر، ولكن ابتداء هذا من صاحب

---

(١) الأغانى: جـ٧، ص١٠٤ وفى سيرته: أنه مكى، غنى الوليد بن يزيد، وعمّر إلى آخر أيام الرشيد.

(٢) السابق: نفس المصدر والصفحة.

(٣) انظر: الأغانى: جـ٧، ص١٠٥.

(٤) انظر: الأغانى: جـ٥، ص٢٣٦.

اللحن مستغرب، وربما كان العكس هو الأولى؛ إذ كان السائد بين أهل الصناعة كسوة الأشعار بالألحان.

ولا ننسى – فى ختام هذا الفصل – أن نشير إلى تيار كان يعارض «الغناء» سماعًا وتقبلاً؛ فقد وردت بعض الأخبار عن أحمد بن أبى دواد[1] بأنه كان «ينكر أمر الغناء إنكارًا شديدًا، فأعلمه المعتصم أن صديقه أبا دلف يغنى، فقال: ما أراه مع عقله يفعل ذلك. فستر أحمد بن أبى دواد فى موضعه، وأحضر أبا دلف، وامره أن يغنى، ففعل ذلك وأطال؛ ثم أخرج أحمد بن أبى دواد عليه من موضعه، والكراهة ظاهرة فى وجهه، فلما رآه أحمد قال له، سوءة لهذا من فعل ! بعد هذه السن وهذا المحل تضع نفسك كما أرى ! فخجل أبو دلف وتشوَّر[2]، وقال: إنهم أكرهونى على ذلك، فقال: هبهم أكرهوك على الغناء أفأكرهوك على الإحسان والإصابة !»[3].

وعلى الرغم من أن ابن أبى دواد كان ينكر أمر الغناء – كما يذكر النص – فإنه كان يتذوقه فى داخله ويقدره، بدليل عبارة: «أفاكرهوك على الإحسان والإصابة» ! مع ملاحظة أن استنكاره لصنيع أبى دلف قد ارتبط «بالسنِّ والمحلِّ»، مما يعنى أن لهذين الأمرين دخلاً فى ذلك، وبخاصة الأمر الأخير (المنزلة)؛ فقد كان أبو دلف من أشجع قواد المعتصم، وله مواقف مشهودة[4]؛ ورجل هذا مكانه، كان يُظَنّ به أن ينأى بنفسه عن المواطن التى لا تليق به فى رأى ابن أبى دواد.

وربما ارتبط هذا بما استقر فى النفوس من أن طبقة «المغنين» – مهما علا أصحابها – تظل فى منزلة أدنى من غيرها من الطبقات كالعلماء والفقهاء، ومن باب أولى الوزراء والولاة والقواد. وقد عرضنا من قبل لإسحاق الموصلى، وكيف أنه كان أكره الناس للغناء، وأشدَّهم بغضًا لأن يُدعى إليه، أو يسمى به، مع أنه كان إمام أهل صناعته

---

(١) أحمد بن أبى دواد: عظيم دولة المعتصم والواثق، قاضى القضاة فى زمنهما

(٢) تشوَّر: خجل.

(٣) الأغانى: جـ٨، ص٢٥١.

(٤) انظر: ص ٤٧٦ من هذا البحث. والأغانى: جـ٨، ص٢٤٨-٢٥١.

جميعًا، ورأسهم ومعلمهم[1]؛ كما عرضنا لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، وكيف أنه كان يترفع عن إظهار نفسه فيما يصنعه من غناء، ويومئ إلى أنه لبعض جواريه[2].

لقد تبين لنا من خلال ما عرضناه أن فن «الغناء» قد ارتبط بالتكسب واتخاذه عملاً يفتح الباب واسعًا أمام صاحبه للشهرة؛ فلعل هذا كان من عوامل النفور من الانتساب إليه. وفى الوقت نفسه وجدنا إقبال بعض الخلفاء عليه، وشغفهم به، وعدم تحرجهم من أن يسهموا فيه بنصيب؛ لأنهم أبعد من مظنة (التكسُّب)؛ يقول إبراهيم بن المهدى: «إنما أصنع تطربًا لا تكسبًا، وأغنى لنفسى لا للناس، فأعمل ما أشتهى»[3]، ويقول أيضًا: «لولا أنى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يَروْا قبلى مثلى»[4].

وبعد؛ فلعل فيما عرضناه عن فن «الغناء»، وعوامل ازدهاره، واشتراك طبقات المجتمع - على اختلافها - فيه، وكثرة مؤلفاته، ما يكشف عن آثاره الحضارية والاجتماعية.

وقد انتهى الفصل إلى أن العصر العباسى كان عصر الغناء؛ وذلك بفضل عوامل كثيرة أسهمت فى ازدهار هذا الفن من أهمها:

أ-الإعداد الجيد للموهوبين . وهو إعداد اشتركت فيه عناصر ثلاثة: الموهبة، والإعداد الجيد، والرعاية من تدريب للأصوات وعزف على الآلات، ثم البيئة المهيأة ماديًا وثقافيًا وذوقيًا على نحو ما نعرف عن إبراهيم الموصلى، وابنه إسحاق من بعده .

ب-تشجيع الخلفاء والوزراء، وذوى النفوذ والسلطان للغناء، وتقديرهم له، ومنحهم أصحابه الهبات والعطايا .

ج-ما هيأه ذلك من إشاعة جو من التنافس القائم على الرغبة فى التفوق والإجادة، على نحو ما عرضناه فى الفصل .

---

(١) انظر: ٤٧٠ ـ ٤٧١ من هذا البحث. والأغانى: جـ٥، ص٢٦٨.

(٢) انظر: ٤٧٥ من هذا البحث. والأغانى، جـ ٩، ص٤٠، وجـ٨، ص٣٧٣.

(٣) الأغانى: جـ١٠، ص٩٦.

(٤) الأغانى، جـ١٠، ص٩٨.

وقد لاحظ كثرة المؤلفات التى تناولت هذا الفن، مبرزًا دلالة هذا على اتساع حركة التأليف فى ذلك العصر، كاشفًا عن مدى ما وصل إليه هذا الفن من تقدم وازدهار دفع المهتمين به إلى أن يرصدوا ظواهره، ويحللوا جوانبه، ويبينوا أصوله وما يقوم عليه .

كما أبان عن أنه كانت هناك مدرستان فى الغناء استقطبتا أشهر المغنين والمغنيات فى ذلك العصر: مدرسة إسحاق الموصلى وارث أبيه فى التمسك بأداء القديم على أصوله الموروثة، وأداء الحديث على النهج نفسه؛ ومدرسة إبراهيم بن المهدى التى استحدثت طرقًا جديدة فى صناعة الألحان، وتمادت فلم تجد بأسًا فى أن تقدم الأصوات المتوارثة بطريقتها المستحدثة .

ورأى فى ازدهار فن الغناء، والتفاف الناس حوله، وشيوعه بين كل الطبقات دلالة واضحة على مدى الوعى العميق بدوره فى رقى الذوق، وتهذيب النفس، وهو ما انعكس فى نهاية الأمر على تطور حركة المجتمع وتقدمه .

***

الفصل الخامس

المــرأة

تقديـم

من الملاحظ أن المرأة العربية نالت قدْرا كبيرًا من الحرية فى العصر الأموى، مكّنها من أن يكون لها دور إيجابى نشيط فى كثير من أوجه الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر.

فقد عرفناها صاحبة «المجالس الأدبية» التى تذكّر بما يعرف «بالصالونات الأدبية» اليوم، ووجدناها تشارك فى «مجالس الغناء»، وتلتقى بالشعراء، وتعبّر عن رأيها فى كثير من شئون الحياة، ولها حضورها القوى فى كتاب «الأغانى»[1].

وامرأة هذه حالها يمكن أن تُتخذ نموذجًا للمرأة المتحضرة، وبخاصة تلك التى كانت تعيش فى مدن الحجاز؛ إذ كانت تنعم بحياة مترفة، كفلها لها وضْعها الاجتماعى من ناحية، والظروف السياسية لتلك البلاد من ناحية أخرى.

كما أن المرأة – فى البادية – كان لها حضورها المؤثر أيضًا، على الرغم من حياة العزلة التى فرضتها الظروف الاجتماعية عليها. وقد رأينا كيف كانت محورًا للون من الشعر الغزلى، يصورها– فى مثالية واضحة – بصورة تختلف كثيرًا عن أختها السابقة.

ويُظن – فى ضوء ما قدمته الدراسة عن «المرأة فى العصر الأموى»، ووفْقا لسنن التطور والترقى – أنها قد شغلت مكانًا فى العصر العباسى لم يتهيأ لها من قبل؛ ألم يكن هذا العصر عصر ازدهار للحضارة العربية الإسلامية فى مختلف جوانبها ؟!.

ولكن الدارس لها فى هذا العصر، من خلال المادة المبثوثة فى الأغانى، يفاجأ بغير ما كان يتوقع؛ إذ يجد أن صوت تلك المرأة العربية قد غاب – أو كاد – عن كثير من تلك الجوانب. على حين يعلو صوت «المرأة الجارية» أو «القينة» أو «الشاعرة». وأبو الفرج

---

(١) انظر: الفصل الذى عقدته الدراسة بعنوان: «المرأة فى العصر الأموى».

حين يحتفى بهذا النموذج، ويهتم به، يفعل ذلك لأنه يتسق مع ما كان يهدف إليه من عناية بكل ما يرتبط «بالغناء» شعرًا ولحنًا. ولعل قراءة لعناوين بعض التراجم التى وردت فى «الأغانى» من مثل: «أخبار عنان»[1]، «بصبص جارية ابن نفيس وأخبارها»[2]، «خبر سلاّمة الزرقاء ومحمد بن الأشعث»[3]، «أخبار شارية»[4]، «ذكر بذْل وأخبارها»[5] «أخبار فضل الشاعرة»[6]، «أخبار قلم الصالحية[7] » - تدعم ما نقول[8].

إن هذة العناوين - وغيرها مما يجرى فى إطارها - لتدل على أمرين: الأول: المناخ العام الاجتماعى الذى أرّخ له أبو الفرج، وهو مناخ فيه من سعة الأفق، ورحابة النظرة ما حدا به لاستيعاب المرأة بشكلها العام، سواء أكانت «قينة» أم «شاعرة». الآخر: أن الدور الذى أسهمت به المرأة كان من الأهمية - وبخاصة فى المجال الحضارى - بحيث نافست فيه الرجل، وربما فاقته كفاءةً ونبوغًا.

على أن هذا كله لا يعنى غياب صوت المرأة العربية، أو «الحرة» من «الأغانى»، وإن كان أبو الفرج لم يتوقف عندها طويلا، وإنما يعرض لها إذا ما اتصل أمرها بشاعر أو مغنٍّ، وربما خليفة. فهو - مثلا - يتوقف عند «علية بنت المهدى ونسبها»[9] ويُفرد لها صفحات طوالا، على حين لا يعطى لزبيدة إلا بضع صفحات، وضع لها عنوانا: «أخبار لأم جعفر»[10] وهى أخبار الطرف الأساسىّ فيها الشاعر: أبو العتاهية، والطرف الآخر

---

(١) الأغانى: جـ٢٣ ص٨٥ وما بعدها.
(٢) السابق: جـ١٥ ص٢٧ وما بعدها.
(٣) السابق: جـ١٥ ص٥٦ وما بعدها.
(٤) السابق: جـ١٦ ص٣ وما بعدها.
(٥) السابق: جـ١٧ ص٧٥ وما بعدها.
(٦) السابق: جـ١٩ ص٣٠١ وما بعدها.
(٧) السابق: جـ١٣ ص٣٤٧ وما بعدها.
(٨) فى بعض الأحيان يبدأ أبو الفرج بذكر الشاعر قبل المرأة مثل: «أخبار بشار وعبدة خاصة» (السابق: جـ٦)، و«ذكر خبر العباس وفوز» (السابق: جـ١٧)، ولعل ذلك لأن صاحب الترجمة كان أكثر شهرة ممن لحق به من النساء.
(٩) الأغانى: جـ١٠، ص١٦٢ وما بعدها.
(١٠) الأغانى: جـ٢٠، ص ٣٠٢ وما بعدها. وأم جعفر: هى زبيدة بنت جعفر بن المنصور، زوجة هارون الرشيد، وأم محمد الأمين (أمير المؤمنين). انظر: ابن حزم، السابق، ص٢٣.

المتجاوب معه هو: زبيدة. ولأبى الفرج عذره فى ذلك؛ فعُليّة اشتهرت بالغناء، وهو موضوعه الأساسىّ، ولذلك كان ذكرها أمرًا مهمًا ولافتًا للنظر، أما زبيدة فلم تغنِّ ولا مسَّت وترا قط، وإنما كانت فى المكان الأرفع من مادة الكتاب.

اهتمام أبى الفرج بالمرأة فى هذا العصر فى كتاب «الأغانى» واضح لا شك فيه. فإذا ما أضفنا إلى ذلك كتابه الآخر ويحمل عنوان: «الإماء الشواعر»[1] ويعدّ امتدادًا لكتاب الأغانى[2]، وفيه يترجم لثلاث وثلاثين أمة شاعرة - تأكد لنا صحة ما ذهبنا إليه من قبل.

ومادة كتاب «الإماء الشواعر» لا تكاد تتجاوز مادة «الأغانى» من حيث المحتوى، ومن حيث ما تدل عليه ثقافيا واجتماعيا. ولكن اتساع ظاهرة التأليف عن الجوارى المغنيات، والجوارى الشواعر تلفتنا إلى أمور مهمة؛ فأكثر الإماء المذكورات هنا كنّ مملوكات لرجال من الصف الثانى أو الثالث فى وظائف الدولة، وبعضهن كنّ فى

---

(١) تحقيق: د. جليل العطية. دار النضال. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٤م٠ هذا؛ ويذكر المحقق فى بداية المقدمة عناية أبى الفرج بالمرأة العربية، وكيف أن كتابه «الأغانى» يضم طائفة من تراجم النساء وأخبار البارزات منهن فى ميادين الغناء والشعر والظرف. ولم يكتف أبو الفرج بهذا، بل أفرد لهن مصنفات، ضاع أغلبها، منها: «القيان» و«النساء» وغيرهما.

(٢) عرض المحقق لمن ينسب الكتاب الذى معنا لابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ)، ويخلط بينه وبين كتاب «رىّ الظما فيمن قال الشعر من الإما» (قام بتحقيق الكتاب: د٠ عبد الرحمن محمد الوصيفى. مكتبة الآداب. القاهرة ٢٠٠٣م) ويفرق المحقق بين الكتابين - مع أن هدفهما واحد أو متقارب - بالاعتماد على رواة الأخبار؛ إذ إن هناك من رواة أخبار (الإماء الشواعر) من عاش فى القرن الرابع الهجرى، الذى عاش فيه أبو الفرج، ويستحيل على ابن الجوزى أن يعتمد عليهم فى الرواية سماعًا. فضلا عن أن المصنف يروى كثيرًا عن عمٍّ له يُدْعى الحسن بن محمد، ولا يعرف لابن الجوزى عمٌّ بهذا الاسم. كما أنه أشار فى أكثر من مناسبة إلى كتاب آخر له يُدعى «القيان» ولا يوجد لابن الجوزى كتاب يحمل هذا العنوان، وهو من مصنفات الأصفهانى الشهيرة. والمحقق - لهذه الأسباب وغيرها - يطمئن إلى نسبته إلى أبى الفرج. انظر: مقدمة التحقيق ص١٥-١٦. هذا؛ ويلفت النظر فى تحقيق: د. عبد الرحمن الوصيفى عدة أمور: أحدها: أنه تم سنة ٢٠٠٣م - أى بعد تحقيق د٠ جليل العطية المذكور ١٩٨٤م - دون أن يشير إليه، وإنما أشار إلى تحقيق آخر للدكتور: نورى القيسى، والدكتور: يونس أحمد السامرائى بنفس العنوان: (الإماء الشواعر) لأبى الفرج الأصفهانى. ثانيها: أنه حقق الكتاب - كما هو واضح - بعنوان: (رى الظما فى من قال الشعر من الإما). ثالثها: أنه حاول أن يثبت أمرين: صحة العنوان (رى الظما...)، وأن المؤلف هو (ابن الجوزى). انظر د٠ عبد الرحمن الوصيفى، وتقديمه للتحقيق.

بيوت النخاسة[1]. ولهذا دلالته على اتساع طبقة الأثرياء، والانقياد لنموذج الكبراء فى امتلاك الجوارى. وتدل قراءة الكتاب على أن «المدينة المنورة» و«البصرة» كانتا فى مقدمة الجهات التى تُعنى بتربيتهن والاتجار فيهن بتصديرهن إلى بيوت النخاسة، أو كبراء الدولة مباشرة فى بغداد، وهى مستقر النسبة الغالبة من الجوارى، لم ينل من مكانتها انتقال الخليفة إلى سامراء.

وعلى أية حال، فمن الملاحظ أن هناك كتابًا ألف بعد فترة من وفاة أبى الفرج، ويلتقى معه فيما عرض له خاصا بالمرأة، وإن كان عنوانه يجنح للطبقة الحاكمة، ونعنى به «نساء الخلفاء» لابن الساعى[2] (ت ٦٧٤هـ).

ومن يطلع على هذا الكتاب يجد صاحبه يعتمد - بصورة واضحة- على أبى الفرج فى «الأغانى»، فى الترجمة لعدد ليس بالقليل من النساء (الحرائر والإماء)؛ بل إن د٠ جليل العطية يذكر فى مقدمته لكتاب «الإماء الشواعر» أن ابن الساعى انتفع بهذا الكتاب أيضا دون أن يسميه[3].

ونلاحظ فى بعض تراجم هؤلاء النسوة ذوات الخصوصية إشارات تدل على نوع من التوجه الاجتماعى. كما تدل بعض أخبارهن على انعطافات سياسية مؤثرة؛ فنعرف أن أبا جعفر المنصور تزوج حمّادة بنت عيسى[4]، وهى: بنت عم المنصور، وهذا أمر

---

(١) نجد من أسماء الإماء الشواعر: (صرف) جارية ابن خضير مولى جعفر بن سليمان، و(عارم) جارية زلبهدة النخاس، و(أمل) جارية قرين النخاس؛ وغير هؤلاء كثير.

(٢) الكتاب مطبوع بعنوان: «نساء الخلفاء المسمى: جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء»، تأليف: تاج الدين أبى طالب على بن أنجبْ المعروف بابن الساعى الخازن البغدادى المتوفى سنة ٦٧٤هـ. حققه وعلق عليه الدكتور: مصطفى جواد على. دار المعارف. الطبعة الثانية ١٩٩٣م و«جهات»: جمع جهة وهى: كناية عن زوجة الخليفة أو حظيته، وعن زوجة السلطان أو حظيته. ويبدو أنها استعملت كذلك فى العصر السلجوقى وما بعده. كما أريد بها أحيانا، «السيدة» المتزوجة مطلقًا. انظر: ص٤٣ من هذا الكتاب هامش (١). والمؤلف يقول فى مفتتح كتابه: «لما جمعت كتاب (أخبار من أدركتْ خلافة ولدها) من جهات الخلفاء، ذوات المعروف والعطاء، أحببت أن أذكر من اشتُهر ذكرها من حظايا الخلفاء: الحرائر والإماء» ص ٤٣. هذا، ومن الملاحظ أن المؤلف لم يقتصر فى كتابه على نساء الخلفاء من الحرائر والإماء، بل أضاف إلى ذلك من نساء السلاطين، ومن نساء الأمراء.

(٣) انظر: الإماء الشواعر، السابق، ص٨.

(٤) هو: عيسى بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عم السفاح والمنصور٠ انظر: ابن الساعى، نساء الخلفاء: ص٤٣ هامش (٣).

لافت للنظر لم يتكرر إلا حين تزوج الرشيد بزبيدة ابنة عمه، فى حين آثر أكثر الخلفاء الانعطاف نحو الجوارى الفارسيات والروميات. ولعل هذا الانعطاف يدل على درجة من التحوّل فى الذوق العام تجاه المرأة « غير العربية». وقد كان الخلفاء الأمويون يصهرون إلى قرنائهم من بنى عبد شمس، أو كبراء الفرع الهاشمى، فإذا تجاوزوا هذا وذاك أصهروا إلى كبراء العشائر وزعماء القبائل البدوية، ولم يكن هذا بمانعهم عن اتخاذ ما شاءوا من الجوارى السُّرِّيات.

على أننا نستحضر - هنا - ساعة إعلان الخليفة الأول فى البيت العباسى (السفاح)، وكان أخوه (المنصور) يكبره بعدة سنوات؛ فقد اختير ابن الحارثية (السفاح)؛ لأن أمه عربية. وقد تكرر المشهد نفسه حين بايع الرشيد للأمين (ابن زبيدة: ابنة عمه، العربية الحرّة) وجعله ولى عهده قبل المأمون (ابن مراجل الجارية الخراسانية) [١] وقد أدّى هذا - مع إقدام الأمين على البيعة لابنه موسى، وخلع المأمون - إلى حرب أهلية بين الأخوين لم تحدث فى حالة السفاح والمنصور [٢] .

استأثرت «المرأة» - إذن - بحظ كبير من الاهتمام والتأليف، وكان أبو الفرج مصدرًا لمن ألّف بعده فى هذا المجال؛ وربما كان لعامل الظرف والطرافة والتشويق دخل كبير فى هذا الاهتمام؛ ولكن تبقى لهذه المؤلفات قيمتها فى التأريخ لجانب من أهم جوانب الحياة الاجتماعية فى تلك العصور.

فإذا ما توقفنا عند «المادة» التى تناولت «المرأة» فى كتاب «الأغانى» وجدناها تتنوع، ويختلط فيها الجانب السياسى بالثقافى والاجتماعى والحضارى . وتشكل هذه المادة عدة محاور: أبرزها ما يتصل بالمرأة فى «الطبقة الحاكمة»؛ وما يتعلق بها فى الطبقة التى يُظن أنها تقف على النقيض - فى الوضع الاجتماعى - من الطبقة السابقة، ألا وهى طبقة «الجوارى والقيان»؛ ثم ما يتصل «بالزواج» وإلى أى مدى كانت الكفاءة تراعى فيه.

---

(١) من المعروف أن المأمون كان أكبر سنًا من الأمين، انظر: ابن حزم . جمهرة أنساب العرب (السابق) ص٢٣.

(٢) الذى أدى إلى الكارثة فى الحقيقة هو نقض الأمين للعهد وخلعه للمأمون، وليس مجرد تعيين الرشيد للأمين وليًا لعهده قبل المأمون. ولو وفى الأمين بالعهد ولم يخلع المأمون لما حدثت الحرب الأهلية.

وأخيرًا؛ الوقوف عند بعض الأدوار التى كانت المرأة تسهم بها فى ذلك العصر مما يتصل بالحياة الاجتماعية بسبب.

وفيما يتصل بالطبقة الحاكمة تواجهنا أسماء مثل: أم سلمة المخزومية، وزبيدة، والخيزران، وعُليّة بنت المهدى، وغيرهن.

فمن النساء اللائى عرض لهن أبو الفرج «أم سلمة بنت يعقوب المخزومية[1]، زوج مسلمة بن هشام بن عبد الملك؛ إذ يروى أنه بعد وفاة هشام بن عبد الملك قدم العباس ابن الوليد [بن عبد الملك بن مروان][2] لإحصاء ما فى خزائن هشام وولده، سوى أموال مسلمة هذا؛ فإنه كان كثيرًا ما يكف أباه عن الوليد، وعن التعرض له. وكان مسلمة يشرب، ولا يهتم بأمور الدولة الأموية، مع أن والده هشامًا كان يرشحه للخلافة بعده، فكتبت إليه أم سلمة: «ما يفيق من الشراب، ولا يهتم بشىء مما فيه إخوته، ولا بموت أبيه؛ فلما راح مسلمة بن هشام إلى العباس قال له: يا مسلمة، كان أبوك يرشحك للخلافة، ونحن نرجوك لما بلغنى عنك؛ وأنّبه وعاتبه على الشراب، فأنكر مسلمة ذلك، وقال: من أخبرك بهذا ؟ قال: كتبتْ إلىّ به أم سلمة، فطلقها فى ذلك المجلس فخرجت إلى فلسطين، وبها كانت تنزل»[3].

وهنا ينتهى دور ليبدأ لها دور جديد؛ فبينما هى ذات يوم جالسة إذ مرّ بها أبو العباس عبد الله بن محمد بن على الذى سيعرف فيما بعد بالسفاح، وكان جميلا وسيمًا، فراقها، فسألت عنه، وأعلمت بنسبه، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها، وحين اعتذر بإملاقه، دفعت إليه المال. فأقبل على أخيها، وسأله التزويج،فزوجه إياها، فأصدقها خمسمائة دينار، وأهدى مائتى دينار[4].

---

(١) يعدها صاحب كتاب: «سيدات البلاط العباسى» أولى سيدات البلاط العباسى. انظر: د. مصطفى جواد، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع. بيروت. لبنان، ١٩٥٠، ص٥ وما بعدها.

(٢) انظر: الطبرى، السابق، جـ٧، ص٢١٦ .

(٣) الأغانى: جـ٧. ص٢٥.

(٤) انظر: المسعودى. السابق. مجلد ٣ ص٣١٦. وإذا كان المسعودى قد ذكر خبر زواجها بالتفصيل الذى أوردناه، فإن أبا الفرج ذكر هذا الخبر نفسه ولكن دون تفصيل. انظر الأغانى، السابق، نفس الموضع.

ويلفت نظرنا فى أم سلمة ما كانت تتمتع به من قوة فى الشخصية، وما كانت تملكه من مال وفير. وقد انعكس هذا على موقفها من مسلمة ابن هشام، وأبى العباس السفاح. كما انعكس أيضا على علاقتها بزوجها (أبى العباس)؛ إذ يقال: إنه حلف ألا يتزوج عليها، ولا يتسّرى؛ وإنها غلبت عليه غلبة شديدة، حتى ما كان يقطع أمرًا إلا بمشورتها، حتى أفضت الخلافة إليه. وقد وفّى لها بما حلف؛ فلم يكن يدنو إلى غيرها من النساء، لا إلى حرّة ولا إلى أمة[1].

وإذا كانت (أم سلمة) تمثل نموذج المرأة العربية الشريفة، العريقة أصلا وحسبًا، فإن (الخيزران)[2] يمكن أن تُعد النموذج المقابل، المنبئ عن نوع من الانفتاح على الآخر؛ إذ يقال: إنها كانت جارية مملوكة من مولدات اليمن، اشتراها محمد المهدى من نخاس - وقيل: أبو جعفر المنصور، وبعث بها إلى المهدى - ثم حظيت عند المهدى، وولدت له موسى الهادى، وهارون الرشيد، وأصبحت بذلك أم خليفتين، ومن النادر فى التاريخ أن تكون امرأة أم خليفتين[3].

وكان لها دور بارز، لا فى التأثير على زوجها وولديها، وتوجيههم فحسب، بل فى التأثير = أيضا - على اتجاهات الدولة السياسية فى الداخل والخارج[4]. ومن أمثلة ذلك: أنها استطاعت أن تؤثر فى زوجها المهدى، ليعفو عن بنى أمية، ويرد إليهم أملاكهم[5].

---

(١) انظر: المسعودى، السابق. نفس الصفحة. كما انعكس - بعد ذلك - على موقفها من عبد الله بن عبد الحميد المخزومى - وكانت قد تزوجته بعد أبى العباس السفاح - فصار إليه منها مال عظيم، فكان يتسمح به، ويتسع فى العطايا. ثم إنها اتهمته بجارية لها، فاحتجبت عنه، فلم تعُد إليه حتى مات. انظر: الأغانى. جـ٤ ص٣٣٥.

(٢) يقال: إنها كانت قبل انتقالها إلى عصمة الخليفة المهدى لرجل من قبيلة ثقيف، فقدم بها مكة فباعها فى الرقيق، فاشتريت وعرضت على أبى جعفر المنصور. وكانت فى الأصل من (جرش) باليمن. وكان لها أختان: اسم إحداهما (سلسل)، واسم الأخرى (أسماء)؛ ولما تمكنت عند المهدى ورأت فى موسى وهارون ما يعصمها من كل تغيير منه عليها باحت بالحقيقة التى كانت أخفتها عنه من قبل وهى أن لها أهلا باليمن. وقد تزوج أخوه جعفر بن المنصور (سلسل) فولدت منه (زبيدة) المشهورة التى تزوجها هارون الرشيد. انظر: د. مصطفى جواد. سيدات البلاط العباسى ص١٣-١٤.

(٣) انظر: د. مصطفى جواد. السابق نفس الموضع.

(٤) انظر: د. سعيد عاشور. المرأة والمؤسسات الاجتماعية فى الحضارة العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، (د.ت). ص٢٧.

(٥) انظر: السابق. نفس الصفحة.

ويروى أنها سألت موسى الهادى أن يولّى خاله الغطريف اليمنى، فوعدها بذلك، ولكنه ما طلها[1]، على الرغم من أنه بدأ خلافته وهو كثير الطاعة لأمه، مجيب لها فيما تسأل من الحوائج للناس فكانت المواكب لا تخلو من بابها، وهذا ما أوغر صدر الهادى ضد أمه[2].

كما يروى أن أبا دلامة (الشاعر المعروف) انتهز خروج الخيزران للحج، وسألها جارية من جواريها، تؤنسه وترفق به، فاستجابت لذلك[3].

ويبدو أنها أسرفت فى ذلك، وكلَّمت (الهادى) ذات يوم فى أمر، لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلا، فاعتل بعلة، فأصرّت على أن يجيبها فى ذلك، وحين علم صاحبها غضب، وتهدده، وأقسم ألا يقضيه لها، وأنه لو بلغه أنه وقف ببابها أحد من قواده، أو من خاصته، أو من خدمه، ليضربن عنقه، وليقبضن ماله؛ ثم حذرها من أن تفتح فاها فى حاجة لمسلم أوذمى[4].

وعلى أية حال؛ فالأخبار المتصلة بها تدل على صرامتها وقوة قلبها وغلبتها على المهدى، وأنها أرادت أن تستبد بأمور الخلافة فى عهد ابنها (الهادى) ولكنه نابذها ونافرها. ويقال إنه حاول أن يتخلص منها بطعام مسموم[5]، وهناك رواية عن أن سبب موت (الهادى) كان أنه لما جدَّ فى خلع (هارون) والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران

---

(١) انظر: الأغانى جـ١٤ ص١٧١.

(٢) انظر: مروج الذهب. مجلد ٣ ص٤٠١ والطبرى. السابق. جـ٨ ص٢٠٥.

(٣) انظر: الأغانى. جـ١٠ ص٢٦٢. وانظر أيضا. جـ١٥ ص٢٨٩ ؛ حيث يذكر ما كان لخالصة (جارية من جوارى الخيزران) من نفوذ، وأنها وقفت ذات يوم - فى موكب للخيزران - على آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان، وقالت له: «يا أخى، طلبت منا حاجة فرفعناها إلى السيدة، وأمرت بها، وهى فى الديوان».

(٤) انظر: المسعودى. السابق ص٤٠١-٤٠٢. والطبرى: السابق جـ٨ ص٢٠٥-٢٠٦.
هذا؛ ويذكر الطبرى أن (الخيزران) كانت فى أول خلافة (موسى الهادى) تفتات عليه فى أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى، فأرسل إليها محذرا من تجاوزها فيما يتصل بالملك، وعليها بصلاتها وتسبيحها وتبتّلها، ولها - بعد هذا - طاعة مثلها فيما يجب لها. انظر: الطبرى، السابق. نفس الجزء ص٢٠٥.

(٥) انظر: الطبرى. السابق. ص٢٠٦.

على هارون منه، دسّت إليه من جواريها لمّا مرض من قتله، ووجهت إلى يحيى بن خالد: إن الرجل قد توفى، فاجدُد فى أمرك ولا تقصر[1].

وأما «زبيدة» فتلفت الأنظار؛ إذ كانت زوج الرشيد، وأم الأمين. ويمكن أن تعد «علما لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط[2]»، وحسبها أن يقال فيها: «إنها كانت حفيدة خليفة، وزوج خليفة، وأم خليفة، فى وقت كانت الخلافة الإسلامية أعظم قوة روحية وسياسية عرفها العالم المعاصر»[3].

ولعل تفردها فى النسب، وعراقتها فى الحسب كانت وراء اهتمام كتب التاريخ على أن تنصّ - فى معرض الحديث عنها أو عن ابنها (الأمين) - على أنه «لم يملك الخلافة أحدٌ أبوه وأمه من بنى هاشم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه، ومحمد ابن زبيدة»[4]. وربما أعطى لها هذا لونًا من المكانة كانت تستشعرها فى داخلها، وتنعكس على سلوكها فى كل ما تقوم به من أعمال.

وقد رأينا - من قبل - كيف أمرت لأشجع السلمى، حين مدح الأمين وهو صغير، بمائة ألف درهم[5].

وفى هذا المديح يتجلى تقدير الشعراء لمن زكا أصله، ونما فرعه، وبخاصة حين ينتسب

---

(١) انظر: السابق. نفس الصفحة.

(٢) د. مصطفى جواد: السابق ص٤٤.

(٣) د. سعيد عاشور. السابق ص٢٧.

(٤) الأغانى: جـ١٨ ص٢٢٦.

(٥) انظر: الفصل الخاص بـ «عناصر السكان وطبقات المجتمع». فى العصر العباسى. ص٤٤١ هامش (١)، وانظر: الأغانى. جـ١٨ ص٢٢٦. هذا؛ وقد كان المديح الذى قدمه (أشجع) فى بنى هاشم - وهو مديح بعراقة الأصل والشرف - سببًا فى علو مكانته؛ إذ يقال: إنه أول ما نجم به أشجع أنه اتصل بجعفر بن المنصور، وهو حدث، فقال فيه قوله:

اذكروا حرمة العواتك منا ... يا بنى هاشم بن عبد مناف
قد ولدناكـمُ ثلاثَ ولادا ... تِ خلطن الأشراف بالأشراف
مهّدت هاشما نجومُ قُصىّ ... وبنو فالح حجور عفاف

فشاع شعره، وبلغ البصرة، ولم يزل أمره يترقى إلى أن وصلته زبيدة بعد وفاة أبيها بزوجها هارون الرشيد، فأسنى جوائزه، وألحقه بالطبقة العليا من الشعراء. انظر: الأغانى. جـ١٨، ص٢٣٢.

إلى بنى هاشم؛ إذ تتمثل فيه تلك القوة الروحية، التى تتعلق بها النفوس المسلمة فى كل زمان ومكان.

قد يقال: إن هذا كان دأب الشعراء - ولا يزال فى كل العصور - حين يمدحون؛ تقرُّبًا لأولى الأمر، وأصحاب السلطان؛ ولكن المتأمل فى الشعر الذى قيل فى «آل البيت» - ومن ينتمى إليهم بنسب - يدرك ما لقوة العاطفة وصدقها من أثر فى هذا المديح.

ولعل مكانتها هذه أدت بها إلى نوع من «الغيرة» الشديدة على الرشيد، وكأنها تأبى أن يزاحمها فيه مزاحم؛ ومن ثم حاولت - بطرق شتى - أن يكون خالصًا لها دون منافسة من أحد. وربما يكشف هذا كله عن لون من الطموح السياسى، الذى يتوافق وموقعها من بيت الخلافة.

وقد تجلت هذه «الغيرة» فى مواطن متفرقة. منها: موقفها من «دنانير»، حين رأت مدى تعلق الرشيد بها، وإغداقه فى عطاياه لها، مما أدى بزبيدة إلى أن تشكوه إلى أهله وعمومته؛ وقد حاول هؤلاء أن يثنوه عما هو فيه، ولما سمعوا غناءها عذروه، وعادوا إلى أم جعفر (وهى كنية زبيدة)، فأشاروا عليها ألا تُلح فى أمرها، فقبلت ذلك[(١)].

ومن الغريب أنها حين قبلت ذلك، أهدت إلى الرشيد عَشر جوار، منهن (ماردة) أم المعتصم، و(مراجل) أم المأمون، و(فاردة) أم صالح[(٢)].

وكذلك موقفها من (عنان) جارية الناطفى، ويبدو أن الرشيد قد رغب فيها، فبعثت زبيدة إلى الأصمعى: أن أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذه الجارية، فإن صرفْتها عنه فلك حكمك، وقد استطاع الأصمعى ذلك، ولكن إلى حين[(٣)]. ويقال: إن الرشيد كان يريد شراء عِنان جارية الناطفى وساوم فى ثمنها، فبلغ ذلك زبيدة، فشق عليها، فدسّت إلى أبى نواس أن يحتال فى أمرها، فهجاها[(٤)].

(١) انظر: الأغانى. جـ١٨ ص٦٥، ٦٧.

(٢) انظر: السابق. ص٦٧.

(٣) انظر: الأغانى. جـ٢٣ ص٩٠-٩١.

(٤) انظر: السابق ص٩٣. على أن هذا كله لم يمنع الرشيد من شرائها؛ إذ يقال إن الناطفى كان يأبى أن يبيعها

وأخبار أم جعفر (زبيدة) فى الاستماع إلى الشعر والإثابة عليه - وكذلك الغناء[1] - ذائعة مشهورة.

ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن «أخبار حجها متواترة فى المصادر، وهى تشير إلى ما بذلته من أموال، وما أقامته من منشآت للحجاج فى طريق مكة، وخاصة عين الماء التى أمرت بحفرها لآل مكة وحجاج بيت الله الحرام»[2].

بأقل من مائة ألف دينار، وبعد موته أُخرجت إلى باب الكرْخ، وأجلست على سرير، وعليها رداء رشيدى، ونودى عليها: من يزيد؟ بعد أن شاور الفقهاء فيها، وقال: هذه كبد رطبة، وعلى الرجل دَين، فأشاروا ببيعها، وقد بلغ ثمنها مائتين وخمسين ألفًا، وأخذها الرشيد. ويقال إنه أولدها ابنين، ماتا صغيرين؛ ثم خرج بها إلى خراسان فماتت هناك، وماتت (عنان) بعده. انظر: الأغانى.جـ٢٣ ص٩١. وانظر أيضا - فيما يتصل بالغيرة وما تثير من مكايد القصور- خبرا يذكر أنه «أُهديت إلى الرشيد جارية فى غاية الجمال والكمال، فخلا معها يومًا، وأخرج كل قينة فى داره واصطبح، فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخَدَمة فى الشراب زهاء ألفى جارية، فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر، واتصل الخبر بأم جعفر (زبيدة)، فغلظ عليها ذلك، فأرسلت إلى عُلية تشكو إليها..» الأغانى: جـ١٠ ص١٧٢ - ١٧٣.

(١) انظر فى استماعها للشعراء: الأغانى جـ٢٣ ص١٤؛ حيث يمدحها نصيب الأصغر (مولى المهدى، وهو عبد نشأ باليمامة، واشترى للمهدى فى حياة المنصور)، وهى فى موسم الحج، فأمرت له بعشرة آلاف درهم.. وانظر أيضا: جـ٢٠ ص٣٠٢؛ حيث يتبين لنا ما كانت تغدقه على أبى العتاهية فى مدحه للأمين وهو خليفة. وقد استمرت صلاتها له بعد مقتل الأمين، وتولى المأمون الخلافة. انظر: السابق ص٣٠٢-٣٠٤. بل إن عمرو ابن بانة يروى أنه كان فى دار أم جعفر مع جماعة من الشعراء والمغنين، فخرجت جارية لها وكمّها مملوء دراهم، فقالت: أيكم القائل:

من ذا يُعيرك عينَه تبكى بها   أرأيت عينا للبكاء تُعار

فأومئ إلى العباس بن الأحنف، فنثرت الدراهم فى حجره. انظر: الأغانى، جـ٨ ص٣٦٩، وانظر فى استماعها للغناء: الأغانى ج٦ ص٣٠٩-٣١٠؛ حيث كان ابن جامع فى صحبة الرشيد؛ وقد أعطت له لكل بيت مائة ألف درهم.

(٢) د. سعيد عاشور: السابق ص٢٧ هذا، ويعقب د. سعيد عاشور على هذا العمل بأنه يعتبر معجزة هندسية استنفذت كثيرًا من المال والجهد، وأن زبيدة أصرت على إنجاز هذه المشروع رغم العقبات التى اعترضت تنفيذه، حتى إنها قالت لخازن أموالها: «اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارًا». السابق: ص٢٧، ٢٨.

هذه الأخبار وغيرها مما يشبهها، تبرز لنا دورًا سياسيًا واجتماعيًا لبعض من سيدات البلاط العباسى، وهو دور يختلف اختلافًا بيِّنا عن دور «عُليّة بنت المهدى»؛ إذ يمكن أن يُسلك ما يروى عنها فى الجانب الحضارى. ويلفت النظر أن «الأغانى» لم يحفل مثلا بزواجها، أو بالدور الذى قامت به كزوجة، وإنما كان اهتمامه – فى المقام الأول – بعلية التى تندرج تحت باب: «صنعة أولاد الخلفاء الذكور منهم والإناث»[١].

وعلى الرغم من أن أبا الفرج عقد فقرات ممتدة لمن صنع لحنًا، أو غنّى من خلفاء البيتين: الأموى والعباسى، فإنه لم يشر إلى المغنيات من نساء الخلافة العباسية[٢]، غير خبر واحد ضمن ما ذكر من أخبار إبراهيم بن المهدى، رواه أبو أحمد بن الرشيد، قال: «كنت يومًا بحضرة المأمون، وهو يشرب، فدعا بياسر فسارّه بشىء، ومضى، وعاد، فقام المأمون، وقال لى: قُم، فدخل دار الحرم ودخلت معه، فسمعت غناء أذهل عقلى، ولم أقدر أن أتقدم ولا أتأخر. وفطن المأمون لما بى فضحك، ثم قال: هذه عمتك عُليّة تطارح عمك إبراهيم:

مالى أرى الأبصار بى جافيهْ»[٣].

ولهذا الخبر فى صيغته السابقة دلالة نفسية عامة، ودلالة أخرى على ما اكتسبته المرأة – فى هذا المستوى الرفيع – من حق التعبير المعلن عن هوايتها وتوجهها – وإن يكن فى حدود دوائر القَصْر. ومن المتوقع أنه حين يتسرب حديث القصور إلى الطبقات القريبة، ومنها إلى الأدنى، فإن هذا يؤدى إلى اتساع دائرة الأنس بالغناء، وإزالة الشعور بالوحشة أو العزلة أو هوان النفس لدى المغنين والمغنيات.

وبين أيدينا خبر آخر، فيه طرف نِسْوِى لا ينتسب إلى بيت الخلافة، يرويه واحد من كبار المغنين فى عصره: محمد بن الحارث ابن بسْخُنَّر، قال: «وجه إلى إبراهيم بن المهدى يومًا يدعونى، وذلك فى أول خلافة المعتصم، فصرت إليه، وهو جالس وحده، وشارية

(١) انظر: الأغانى: جـ١٠ ص٧١ وما بعدها.
(٢) لم تُعرف سيدات البيت الأموى بشىء من هذا.
(٣) الأغانى: جـ١٠ ص١٠٤-١٠٥.

جاريته خلف الستارة، فقال: إنى قلت شعرًا وغنيت فيه، وطرحته على شارية، فأخذته، وزعمت أنها أحذق به منى، وأنا أقول: إنى أحذق به منها، وقد تراضينا بك حكما بيننا لموضعك من هذه الصناعة، فاسمعه منى ومنها واحكم ولا تعجل، حتى تسمعه ثلاث مرات، فقلت: نعم...»[1]. وقد سمع الحكم اللحن من طرفى المنافسة ثلاث مرات، وبذل كل منهما غاية ما يستطيع من الإتقان، ثم فضل فى النهاية غناء شارية على غناء إبراهيم، الذى ما لبث أن غضب، وأمر محمد بن الحارث بالانصراف.

ولهذا الخبر أشباه كثيرة؛ فكم من مرة تلاحى فيها إبراهيم بن المهدى وبعض معاصريه – وبخاصة إسحاق بن إبراهيم الموصلى – حول بعض الألحان فى نسبتها أو جودتها أو التنافس على أدائها، ولكن الحكم فى مثل تلك الأحوال كان – فى الأغلب الأعم – الخليفة نفسه، الذى يتنافس المتنافسون – بمن فيهم إبراهيم بن المهدى – على جوائزه، أو الوجاهة والتفوق على النظراء فى مجلسه. وفى الخبر السابق تتضح عدة أمور: فالمنافسة ودعوى التفوق فى الأداء طرفاها الأمير وواحدة من قيناته، وقد ارتضى الأمير أن تكون هذه المنافسة علنية، كما ارتضى حكمًا استدعاه بنفسه، وارتضى – ثالثًا – أن يعيد المحاولة ثلاث مرات دون أن يتمكن من حسْم النتيجة لصالحه، ولم يجد الحكم غضاضة فى أن يحكم للقينة على سيدها، وأن يتقبل غضبة السيد (الأمير) فغادر الدار مطرودًا.

إن هذا المشهد يحمل من دلائل الاختلاف فى النظر إلى المرأة ما يشى بالتغير فى نظرة (الرجل) إليها، وإن يكن أميرًا [2].

فإذا اتجهنا إلى من استهواها الغناء من سيدات البيت العباسى، وجدنا «علية» تشغل مكانًا مرموقًا؛ ومن أخبارها نعرف أن أثرها «الذوقى» فى نساء عصرها كان موضع ترحيب. ويروى صاحب الأغانى أن «علية» «كان بها عيب؛ كان فى جبينها فضلُ سَعة حتى تسمج، فاتخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستر بها جبينها، فأحدثت شيئًا لم

---

(١) الأغانى جـ١٠ ص١١٢-١١٣.

(٢) سوف نجد صورًا أخرى لهذه المنافسة بين بعض من أولئك القيان والخلفاء أنفسهم، مما سيتناوله هذا الفصل فيما بعد.

يُعْرف فيما أحدثته النساء أحسنَ منه»[1]. وربما عُدَّ هذا سبْقًا من «علية» فى اتخاذ هذا النوع من العصائب، وأدوات الزينة، كان له أثره فى توجيه الذوق العام لدى جوارى عصرها خاصة.

على أن مكان «عُلية» فى البيت العباسي لم يتأثر باتجاهها إلى الغناء وصناعة الألحان، ولا شك فى أن «عِرْقا فنيًا» كان يتوارث فى بيت الخلافة بدءًا من المهدى، ومن المحتمل أن الالتقاء الحضارى بين المدنيتين: الفارسية والعربية ساعد على تسويغ هذا التوجه الذى أصبح موضع اعتراف عام وتقدير. ينسب أبو الفرج إلى عَريب قولها: «أحسن يوم رأيته وأطيبه يومٌ اجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدى عند أُخته علية، وعندهم أخوهم يعقوب، وكان أحذق الناس بالزمر؛ فبدأت علية فغنتهم من صنعتها، وأخوها يعقوب يزمر عليها... وغنى إبراهيم فى صنعته، وزمر عليه يعقوب[2]».

ليس بالمستغرب - إذن - أن يرضى الرشيد عن ألحان أخته، وأن يذهب فى موكب ليسمعها فى قصرها[3].

بل قد تحدث «تجاوزات» يحدث مثلها فى عصور مختلفة؛ إذ روى إسحاق الموصلى خبرًا خلاصته أن علية عرفت أنه صنع لحنًا جديدًا مميزًا، فاستدرجته ليدخل غرفة أعدتها لإحضاره، وطلبت منه أن يسمعها لحنه الجديد، الذى أضمر مفاجأة الرشيد به، وأغرته بجائزة سنية، فغنى اللحن مرارًا حتى أخذته عنه وأجادته، وكذلك جواريها، وقدمت له جائزة مغرية حتى رضى، ثم ضاعفتها له، وطلبت منه التخلى عن هذا اللحن، لتدعيه لنفسها عند الرشيد، وهددته إن أفشى سرها؛ وقد بهت إسحاق، ولزم الصمت حتى ماتت (علية)، فغناه أمام المأمون فى أول مجلس جلسه للهو بعدها، مصححًا نسبته إلى نفسه، فقال له المأمون: «يا بغيض ! فما كان فى هذا من النفاسة حتى شَهَرته، وذكرت هذا منه مع ما قد أخذتَه من العوض ! «ويقول إسحاق: «وهجننى فيه هجنة، وددت معها أنى لم أذكره؛ فآليت ألا أغنيه بعدها أبدًا!»[4].

---

(١) انظر: الأغانى: جـ١٠ ص١٦٢.

(٢) السابق: ص١٧٣.

(٣) انظر: السابق نفسه ص١٧٥-١٧٨.

(٤) الأغانى: جـ١٠ ص١٦٨-١٧٠.

لم يكن هذا الحادث الماثل فى انتحال عمل فنى متميز (لحن موسيقى) - على افتراض صحته - لينتقص شخص عليّة، ونقاء أخلاقها. وقد دافع أبو الفرج عنها دفاعًا طيبًا من خلال تلمس الأعذار التى تخفف من وقع المخالفة فى ميزان العرف العام، مثل دفاعه عن شربها النبيذ[1].

أما الأمر الذى رواه أبو الفرج وأورد أشعاره وألحانه دون تعقيب[2]، فهو ما قيل إنه يتصل بأشعار وألحان قالتها علية فى خادمها «طل»، الذى ذكرت اسمه صريحًا أو مصحَّفا، ثم «رشأ» الذى كنت عنه باسم «زينب»[3] - وإن شكك فى صحة النسبة من وجه آخر ذكره بعض الرواة لهذه الأشعار والألحان ذاتها. على أن مثل هذه الأشعار المتعلقة بالقرب المكانى أو الأسرى، يمكن أن تعود - فى جملتها - إلى دماثة خلق «علية»، ورغبتها فى أن تكون موضع رضا كل من حولها حتى خدمها. وقد قالت شعرًا ولحنته، ذكرت فيه لُبانة بنت أخيها على بن المهدى، وغنته[4].

على أن أخبار المنافسة السابقة التى أوردناها بين إبراهيم بن المهدى وجاريته شارية، تنقلنا إلى الحديث عن هذه الطبقة من «الجوارى والقيان»، وكيف أن فئة منها ترقت - بفنها أو بفضل إعدادها لحياة القصور - فأصبحت تشكِّل فئة متميزة عن طبقتها، بما أتيح لها من ألوان الثراء والترف، وبما بلغته فى مواقعها من نفوذ أو سلطان.

ومن الملاحظ أن هذه الفئة كانت تتميز بسمات، وتنفرد بإمكانات أهَّلتها للارتقاء فى سلّم الدرجات الاجتماعية لتنقلها إلى مرتبة تدنيها من الطبقة الحاكمة؛ ومن ثم فقد شاهدت - وربما شاركت - فيما كان يموج فى تلك القصور من أحداث.

---

(١) انظر ما رواه حماد بن إسحاق عن إبراهيم بن إسماعيل الكاتب بخصوص هذا الموضوع. وقد أوردناه من قبل، ص٥٩٤.

(٢) ربما استشعر أبو الفرج لونًا من الحرج فى التعقيب على مثل هذه الأشعار لأنها تتصل بامرأة من علية القوم.

(٣) انظر: الأغانى جـ١٠ ص١٦٣-١٦٦. ومن الجدير بالذكر أن أبا الفرج ذكر فى تخريج الأشعار والألحان التى نسبت إلى علية فى هذا السياق، أن هناك من ينسبها إلى غيرها، مثل نُبَيْه الكوفى (ص١٦٤)، والهذلى، وأحمد بن المكى (ص١٦٥).

(٤) انظر: الأغانى، جـ١٠ ص١٨٤.

وتتنوع هذه الفئة وتتوزع بين الجوارى والقيان والشواعر. وقد تجتمع هذه الأمور فى واحدة بعينها، فيكون لها من الشأن ما تتحدث به الأخبار، وتلهج بذكره الألسنة.

وقد كان وراء هذا الفئة لون من «الإعداد الجيد»، سبق أن تحدثنا عنه - فى معرض الحديث عن الغناء - ولكنا نفرد - هنا - الجانب المتعلق بالمرأة، مما لم نعرض له من قبل.

من هذا «الإعداد» ما وجدناه من حرص على أن تتثقف «الجارية» بثقافة عصرها؛ فمولى «عريب» يؤدبها، ويخرجها، ويعلمها الخط والنحو والشعر والغناء، فبرعت فى ذلك كله، وتزايدت حتى قالت الشعر[1].

ولا تكاد تذكر واحدة من هذه الفئة إلا ويحرص أبو الفرج على أن يبرز «تخرجها»، والجهة - أو الجهات - التى أهلتها لذلك. فدنانير (مولاة يحيى بن خالد البرمكى): كانت «صفراء مولّدة، وكانت من أحسن الناس وجهًا، وأظرفهن، وأكملهن أدبا، وأكثرهن رواية للغناء والشعر،... وكان اعتمادها فى غنائها على ما أخذته من بذْل، وهى خرّجتها؛ وقد أخذت أيضا عن الأكابر الذين أخذت بذْل عنهم مثل: فليح، وإبراهيم، وابن جامع، وإسحاق ونظرائهم»[2].

وعن «فضْل الشاعرة» يقول: «كانت فضْل جارية مولّدة من مولّدات البصرة، وكانت أمها من مولّدات اليمامة، بها ولدت، ونشأت فى دار رجل من عبد القيس، وباعها بعد أن أدّبها وخرّجها، فاشتريت وأهديت إلى المتوكل... وكانت حسنة الوجه والقوام، أديبة فصيحة سريعة البديهة، مطبوعة فى قول الشعر، ولم يكن فى نساء زمانها أشعر منها»[3].

---

(١) انظر: الأغانى. ص٢١ جـ٦١.

(٢) الأغانى: جـ١٨ ص٦٥ . وهو يقول مثل هذا عن «متيَّم الهشامية»؛ إذ يذكر أنها كانت «صفراء مولّدة من مولدات البصرة، وبها نشأت وتأدبت وغنت. وأخذت عن إسحاق وعن أبيه من قبله، وعن طبقتها من المغنين. وكانت من تخريج بذْل وتعليمها. وعلى ما أخذت عنها كانت تعتمد، فاشتراها على بن هشام بعد ذلك، فازدادت أخْذا ممن كان يغشاه من أكابر المغنين. وكانت من أحسن الناس وجهًا وغناء وأدبًا» . الأغانى: جـ٧ ص٢٩٣.

(٣) الأغانى: جـ١٩ ص٣٠١، مع ملاحظة اهتمام أبى الفرج بالنص على مكانتها الشعرية.

وأبو الفرج معنىّ بإبراز الفروق التى تُظْهر الجانب الاجتماعى والأخلاقى؛ ويتجلى هذا فى حديثه عن «محبوبة»؛ فهى مثل «فضل الشاعرة» مولّدة من مولدات البصرة، ولكن كلامه بعد ذلك والموازنة التى عقدها بينهما تبين فرق ما بينهما؛ يقول عنها: «شاعرة شريفة مطبوعة، لا تكاد فضلُ الشاعرة اليمامية أن تتقدمها. وكانت محبوبة أجملَ من فضل وأعفّ، وملكها المتوكل وهى بكر، أهداها له عبد الله بن طاهر»[1].

ومن الطبيعى أن يهتم أبو الفرج - بالإضافة إلى ما سبق - بتسجيل المجال الذى نبغت فيه هذه الجارية أو تلك. ففى حديثه عن «عبيدة الطنبورية» يقول: «كانت عبيدة من المحسنات المتقدمات فى الصنعة والآداب، يشهد لها بذلك إسحاق، وحسْبها بشهادته. وكان أبو حشيشة[2] يعظِّمها، ويعترف لها بالرياسة والأستاذية، وكانت من أحسن الناس وجهًا، وأطيبهم صوتًا»[3].

ومن الملاحظ أن هذه الفئة التى هيأت لها الظروف أن تنتقل إلى قصور كبار رجالات الدولة، كانت تلقى تقديرًا بالغًا وكأنها أصبحت جزءًا من نسيج تلك الطبقة الحاكمة. يتجلى ذلك فى نماذج كثيرة، منها: ما يتعلق بدنانير - وقد رأينا من قبل كيف كانت أثيرة لدى الرشيد - حيث يذكر الخبر أنها عملت صوتًا اختارته وأعجبت به، فقال لها مولاها يحيى بن خالد البرمكى: لا يشتد إعجابُك حتى تعرضيه على شيخك، فإن رضيه فارضَيْه لنفسك، وإن كرهه فاكرهيه، وهو يقصد إبراهيم الموصلى؛ إذ كان عند يحيى رئيس صناعته، يعرف منها ومن لطائفها ما يعجز الآخرون عن إدراكه. ويمضى الخبر الذى يرويه إسحاق فيقول: «قال أبى: فحضرْتُ الباب فأُدخلتُ، وإذا الستارة قد نُصبت، فسلمت على الجارية من وراء الستارة، فردّت السلام، وقالت: يا أبت،

---

(١) الأغانى: جـ٢٢ ص٢٠٠. وانظر أيضا: ابن الساعى. نساء الخلفاء. ص٨٤؛ حيث يذكر فى ترجمة «فضل الشاعرة اليمامية» أنها كانت جارية شاعرة ماجنة. كما أن أخبارها التى أوردها أبو الفرج فى الأغانى تدعم ما يحكى عنها من مجون. انظر: الأغانى: جـ١٩ ص٣٠١.

(٢) هو: محمد بن أمية بن أبى أمية، يكنى أبا جعفر، وأبو حشيشة لقب غلب عليه. وكان أهله جميعًا متصلين بإبراهيم بن المهدى، وكان هو من بينهم معنيًّا بالطنبور، يغنى أحسن غناء، وخدم جماعة من الخلفاء أولهم المأمون، ومن بعده المعتمد. وله كتاب فى الطنبوريين أجاد فيه. الأغانى: جـ٢٣، ص٧٥، ٧٨.

(٣) الأغانى: جـ٢٢ ص٢٠٥.

أعرض عليك صوتًا قد تقدم لاشك إليك خبره، وقد سمعت الوزير يقول: إن الناس يُفتَنون بغنائهم، فيُعجبهم منه ما لا يعجب غيرهم... وقد خشيت على الصوت أن يكون كذلك، فقلت: هاتِ، فأخذت عودها وتغنّت تقول:

نفْسى أكنتُ عليك مدَّعيًا ... أم حين أزمع بيْنُهم خُنتِ !
إن كنتِ مولعةً بذكرهمُ ... فعلى فراقِهُمُ ألا مُتِّ !

قال: فأعجبنى والله غاية العجب، واستخفَّنى الطرب، حتى قلت لها: أعيديه، فأعادته وأنا أطلب لها فيه موضعا أُصلحه وأغيِّره عليها لتأخذه عنى، فلا والله ما قَدرْتُ على ذلك؛ ثم قلت لها: أعيديه الثالثة فأعادته، فإذا هو كالذهب المصفَّى، فقلت: أحسنتِ يابنية، وأصبتِ، وقد قطعت عليك بحسن إحسانك، وجودة إصابتك أنك قائدة للمعلمين؛ إذ قد صرتِ تحسنين الاختيار، وتجيدين الصنعة. قال: ثم خرج فلقيه يحيى بن خالد، فقال: كيف رأيت صنعة ابنتك دنانير ؟...» إلى آخر الخبر[1].

إن رُوحًا من الحنُو البالغ تتبّدى من خلال النص السابق فى الأطراف المسئولة: يحيى ابن خالد وإبراهيم الموصلى، وهى مع يحيى ممتزجة بالحرص على أن تبلغ «دنانير» فى فنها، على يد شيخها (رئيس الصناعة)، مبلغًا ينال رضاه وتقديره؛ ومع إبراهيم ممتزجة بالحرص على المستوى الفنى المأمول فيمن يتلقَّى عنه، أو يُختبر على يديه. ويحاول الشيخ أن يجد ثغرة ينفذ منها، ليجتلب لنفسه مدخلا يؤخذ عنه، وينسب إليه، فيطلب منها أن تعيد الصوت أكثر من مرة، ولكنه لم يجد؛ ومن ثم فهو يصرح بأنها «قائدة للمعلمين»؛ إذ قد صارت تحسن الاختيار، وتجيد الصنعة. وكأنه بهذا يمنحها الشهادة بتخرجها؛ وهى شهادة تحمل فى طياتها أعلى درجات التقدير، ولا عجب فى ذلك، فقد كان إبراهيم يقول ليحيى: «متى فقدتنى، ودنانير باقية فما فقدتنى»[2] !.

يضاف إلى هذا: أن بعضًا منهن قد بلغن درجة عالية فى فن «الغناء» تتيح لهن لونًا من «المكايدة»، ولونًا من الاعتزاز بموقعهن، قد يدفع بهن إلى ألوان من السلوك، تثير

(١) الأغانى: جـ١٨ ص٦٥-٦٦.
(٢) نفس المصدر ونفس الصفحة.

عجب القارئ، أو دهشة الدارس؛ فمن أخبار «عريب» أنها كانت تكايد الواثق فيما يصوغه من الألحان[1]. وفى أخبار «بذْل» أن إبراهيم بن المهدى كان يعظمها ويتوافى لها، ثم تغيّر بعد ذلك، استغناء بنفسه عنها؛ وبعد أن عادت إليه، دعا بعود فغنت – فى طريقة واحدة، وإيقاع واحد، وإصبع واحدة – مائة صوت، لم يعرف إبراهيم منها صوتًا واحدًا، ووضعت العود وانصرفت، فلم تدخل داره، حتى طال طلبه لها، وتضرّعه إليها فى الرجوع إليه[2].

ثم إنه من الملاحظ أنهن كنّ يعشن حياة القصور، وينعمن بما فيها من مظاهر الثراء، وألوان البذخ والترف. وقد ذكرنا – من قبل – كثيرًا من الأخبار عن ذلك. ويمكن أن يضاف إليها ما يروى من أن مطيع بن إياس الشاعر مرّ بالرُّصافة، فنظر إلى جارية قد خرجت من قصر الرّصافة كأنها الشمس حُسنًا، وحواليها وصائفُ يرفعْن أذيالها، فوقف ينظر إليها إلى أن غابت عنه، وقال شعرًا فى ذلك[3]. ومن هذا نعرف أنه إذا ما ارتقت الجارية، وأصبح لها مكانة داخل القصر، كان لها من الجوارى والوصائف من ينهضن بخدمتها، ويكفلْنها أمرها[4].

ويمكن أن يقال – بالإضافة إلى ما سبق – إن هذه الفئة من الجوارى اللائى شاء لهن الحظ أن يلحقن بتلك القصور كان لهن دور مؤثر فى حياة كثير من رجالات الدولة العباسية؛ وسنكتفى – فى هذا المقام – ببعض النماذج لإبراز هذا الدور.

فبذْل – مثلا – ابتاعها جعفر بن موسى الهادى، فاحتال عليه محمد الأمين، وأخذها منه، فولدهما جميعًا يدَّعون ولاءها، فلما ماتت ورثها ولد عبد الله بن محمد بن زبيدة[5]. ويروى أبو حشيشة فى خبره أن علىّ بن هشام مرّ يومًا بموكبه عليها فى أيام المأمون ببغداد، وحاول أن يلتقى بها، مع أنها أبدت استنكارها لمجيئه، ونفورها من لقائه،

---

(١) انظر: الأغانى: جـ٢١ ص٧٦.
(٢) انظر: الأغانى: جـ١٧ ص٧٨-٧٩.
(٣) انظر: الأغانى. جـ١٣ ص٢٨٩.
(٤) فى أخبار «بذل» أن و«شيكة» – جاريتها – كانت تُرسلها إلى الخليفة وغيره فى حوائجها.
انظر: الأغانى. جـ١٧ ص٧٦.
(٥) انظر: الأغانى، جـ١٧، ص٧٥ – ٧٦.

فأخبرها أنه جاء بأمر سيده أمير المؤمنين، حيث أخبره أنها عليه[1] غضبى، وأقسم ألا يدخل منزله حتى يذهب إليها فيسترضيها[2].

وبقيت «بذل» فى دار محمد (الأمين) إلى أن قُتل، ورغب إليها وجوهُ القواد والكتّاب والهاشميين فى التزويج، فأبت، وأقامت على حالها حتى ماتت[3].

و«فريدة» الكبرى[4] كانت «مولّدة، نشأت بالحجاز، ثم وقعت إلى آل الربيع، فعُلمت الغناء فى دورهم، ثم صارت إلى البرامكة؛ فلما قُتل جعفر بن يحيى ونُكبوا هربت، وطلبها الرشيد فلم يجدها، ثم صارت إلى الأمين، فلما قتل خرجتْ، فتزوجها الهيثم بن مسلم فولدت له ابنه عبد الله، ثم مات عنها فتزوجها السِّندى بن الحَرَش[5]، وماتت عنده، ولها صنعة جيدة»[6].

هكذا تقلّبت «فريدة» بين عدة أسر عريقة الأصل، وانتهى بها المطاف إلى أن تتزوج وتنجب من علية القوم أيضا.

ونختم هذه النماذج «بمتيم» الهشامية[7]، وعنها يقول أبو الفرج: «كانت متيَّم صفراء مولّدة... وحظيت عند على بن هشام حظوة شديدة، وتقدمت على جواريه جُمَعَ عنده، وهى أمُّ ولده كلِّهم»[8].

---

(١) أى علي (علي بن هشام) وهو من أمراء المأمون وقواده، تولى له حرب بابك الخرمى، ثم غضب عليه؛ لأنه كان استعمله على أذربيجان وغيرها، فبلغه ظلمه، وأخذه الأموال وقتله للرجال، فأمر بقتله. راجع: الطبرى: السابق المجلد ٨ فى حوادث سنة ٢١٧هـ ص٦٢٧ .

(٢) انظر: الأغانى، السابق ص٧٦-٧٧.

(٣) انظر: السابق ص ٧٦.

(٤) تمييزا لها عن «فريدة» الأخرى - كما يقول أبو الفرج، وكانت هذه (فريدة الأخرى) أثيرة عند الواثق، وحظية لديه جدًا، وقد اختار لها إسحاق الموصلى صوتًا من المائة المختارة. انظر: حديث أبى الفرج عنها فى: الأغانى جـ٤ ص١١٤ وما بعدها.

(٥) أحد رجالات الرشيد والمأمون.

(٦) الأغانى: جـ٤ ص١١٣.

(٧) نسبة إلى علي بن هشام، وكان قد اشتراها، وحظيت عنده. انظر فى التعريف بها ص٦٤٤ ، هامش (١) .

(٨) الأغانى: جـ٧ ص٢٩٣.

كما كان لهذه الفئة أثرها البارز فى الحياة الاجتماعية بوجه عام؛ وبخاصة أنها كانت تنعم بلون من التحرر والجرأة، لم يتهيأ لغيرها من النساء الحرائر. ولعلِ فى أخبار فضل الشاعرة ما يغنى عن ذكر أخبار أخرى كثيرة مبثوثة فى كتاب الأغانى، تسير فى هذا الاتجاه نفسه بل وتزيد عليها بأنها تفوح منها رائحة التحلل والتبذل والامتهان[1].

جاء فى أخبار «فضل الشاعرة» أنها - بعد أن أهديت إلى المتوكل، كانت تجلس للرجال، ويأتيها الشعراء[2]، وعلاقتها بسعيد بن حميد (الكاتب الشاعر) يبدو أنها كانت من الذيوع مما جعل أبا الفرج يُعنى بها، ولعل مرد ذلك إلى أن كليهما كان شاعرًا يعبِّر عن نفسه، ويتغنى بشعره؛ فضلا عن أن علاقتهما اعتراها - فى بعض الأحيان - لون من الفتور أو المغاضبة وحاول كل منهما أن يعيدها إلى ما كانت عليه شعرًا.

ومن ذلك: أن سعيد بن حميد كان فى مجلس الحسن بن مخلَّد، إذ جاء الغلام برقعة من فضل الشاعرة تشكو فيها شدة شوقها، فاستحلفه الحسن بن مخلد أن يطلعه عليها، فدفعها إليه فقرأها، وضحك، وطلب منه أن يجيب عليها، فأجاب شعرًا[3].

وقد حدث أن تغاضب سعيد بن حميد وفضل الشاعرة أيامًا، فكتب إليها شعرا[4].

ثم إنه لما عشقت فضلُ الشاعرة بنان بن عمرو المغنى، وعدلت عن سعيد بن حُميد إليه، أسف عليها، وأظهر تجلدًا، ثم قال فى ذلك شعرًا[5].

ويبدو أن هذا حدث بعد موقف آخر يحكيه القاسم بن زُرْزور، ويكشف عن لون من الصراع المستتر أحيانًا والظاهر أحيانًا أخرى فى العلاقة بين الرجل والمرأة فى تلك البيئة، وينبئ عن تعدد وتنوع فى هذه العلاقة.

وهذا الموقف يبرز أولًا: أن فضل الشاعرة «كانت تتعشق سعيد بن حميد مدة طويلة،

---

(١) انظر مثالاً لذلك: الأغانى، جـ٢٢، ص٢٠٨-٢٠٩ «أخبار عبيدة الطنبورية».

(٢) انظر: الأغانى: جـ١٩ ص٣٠١.

(٣) انظر: الأغانى. جـ١٨ ص١٦٣-١٦٤.

(٤) انظر: السابق. ص١٦٠.

(٥) انظر: السابق. ص١٦٤.

ثم تعشقت بنانا وعدلت عنه، فقال فيها قصيدته الدالية التى يقول فيها:

تنامين عن ليلى وأسهرُه وحدى

فلم تتعطّف، وبلغها بعد ذلك أنه قد عِشق جارية من جوارى القيان، فكتبت إليه:

ياعالىَ السنِّ سِّيئ الأدبِ شبْتَ وأنت الغلام فى الطربِ
ويْحك إن القِيان كَالشَّركَ المنصوب بين الغُرور والعَطب[١]

....

والخبر التالى لهذا يكشف عن الملابسات التى أحاطت بعشقها بنانا، وتحوّلها عن سعيد؛ يقول: «افْتصد سعيد بن حميد، فسألتنى (الضمير للراوى: القاسم بن زُرزور) فضل الشاعرة، وسألت عريب أن نمضى إليه، ففعلنا، وأهدت إليه هدايا، فكان منها ألفُ جدى وحَمَلٍ، وألف دجاجة قائقة[٢]، وألف طبق ريحان وفاكهة، ومع ذلك طيب كثير وشراب وتُحف حسانٌ، فكتب إليها سعيد: إن سرورى لا يتم إلا بحضورك، فجاءته فى آخر النهار، وجلسنا نشرب، فاستأذن غلامه لبنان فأذن له، فدخل إلينا، وهو يومئذ شابٌّ طرير، حسن الوجه، حسنُ الغناء، نظيف الثياب، شَكِل[٣]؛ فذهب بها كلّ مذهب، وأقبلت عليه بحديثها ونظرها، فتشمَّز[٤] سعيد، واستُطير غضبًا، وتبيَّن بنان القصة فانصرف، وأقبل عليها سعيد يعذلها ويؤنبها ساعة، فكتبت إليه[٥]... وأثَّر بنان فى قلبها وعلِقت به، فلم تزلْ حتى واصلتْه وقطعت سعيدًا»[٦].

قد يبدو - فى الخبر السابق - لون من المبالغة فى الهدايا المقدمة من «فضل» إلى سعيد ابن حميد، ومع ذلك تبقى للخبر دلالته فى الحديث عن نوع من العلاقات الاجتماعية

(١) انظر: السابق، ص ١٦٦.

(٢) يقال: قاقت الدجاجة قَوْقًا أى صوتت.

(٣) شَكِل: فيه دلالٌ وغزل.

(٤) فتشمَّز: تقبَّض.

(٥) انظر: الأبيات، السابق، ص١٦٧.

(٦) الأغانى: جـ١٨ ص١٦٦-١٦٧. وانظر أيضا بعض الأخبار عن أن ما بين سعيد بن حميد وفضل الشاعرة بدأ يتشعب، وقد بلغه ميلُها إلى بنان. الأغانى جـ١٩ ص٣١٢.

يبدو أنه كان شائعًا فى تلك البيئة، وما كان يتم فيها من «مجاملات» متمثلة فى كثرة الهدايا، وتنوعها، ونفاستها، وعدم اقتصارها على الطعام والشراب؛ بل تمتد لتشمل كل ما يمتع الحسّ والنفس من ريحان وطيب وتحف حسان.

ولا ننسى أن نشير إلى أن هناك أخبارًا كثيرة تبرز لونا من «الوفاء» النادر من بعض هؤلاء «الجوارى» أو «القيان»، لمن عشن فى كنفه، ونعمن بخيره. ومن ذلك: أن الرشيد دعا بدنانير البرمكية، بعد قتله إياهم، وأمرها أن تغنى، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنى آليت ألا أغنى بعد سيدى أبدا، فغضب، وأمر بصفعها، فصفعت، وأجبرت على الغناء، وأعطيت العود، فأخذته، وهى تبكى أحرّ بكاء، واندفعت فغنت:

يا دارَ سلمى بنازحِ السَّنَد ... بين الثنايا ومسقَط اللِّبد

لما رأيت الديار قد درستْ ... أيقنتُ أن النعيم لم يعُد[1]

و«محبوبة» «حظيت عند المتوكل، حتى إنه كان يُجلسها خلف ستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب، فيدخل رأسه إليها، ويحدثها، ويراها فى كل ساعة»[2]. «ولما قُتل تسلَّى عنه جميع جواريه غيرها؛ فإنها لم تزل حزينة متسلِّبة[3]، هاجرة لكل لذة حتى ماتت. ولها فيه مراث كثيرة»[4].

وقد كان لهذه الفئة أثرها الواضح فى الجانب الفكرى والحضارى، وبخاصة من كان يسهم من أصحابها فى الشعر والغناء والرسائل، وكذلك من كان ينبغ منهن فى فن معين، ويصل فيه إلى درجة يعجز الآخرون عن منافستهن فيه أو اللحاق به.

والخبر التالى يبرز تأثر الكتّاب والشعراء بفضل (الشاعرة)؛ إذ يذكر إبراهيم بن المهدى أن فضل الشاعرة كانت من أحسن خلْق الله خطًّا، وأفصحهم كلامًا، وأبلغهم فى مخاطبة، وأثبتهم فى محاورة، وأنه قال يومًا لسعيد بن حميد: أظنك يا أبا عثمان تكتب

---

(١) انظر: الأغانى. ج ١٨، ص ٦٨.

(٢) الأغانى: جـ٢٢ ص٢٠٢.

(٣) متسلبة: لابسة ثياب الحداد.

(٤) الأغانى: جـ٢٢ ص٢٠٣.

لفضل رقاعها وتقيدها وتخرِّجها؛ فقد أخذت نحوكِ فى الكلام، وسلكت سبيلك، فقال لى وهو يضحك: ما أخيب ظنَّك، ليتها تسلم منى، ولا آخذ كلامها ورسائلها؛ والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغَنْوا عن ذلك[١].

أما «عبيدة» الطنبورية فـ «لم يُعرف فى الدنيا أعظمُ منها فى الطنبور، وكانت لها صنعة عجيبة»[٢]. وكان أبو حِشيشة وجحظة وغيرهما يعترفون لها بالرياسة والأستاذية[٣]. وحدث أن اجتمع الطُّنبوريون عند أبى العباس بن الرشيد يومًا، وفيهم المسدودُ وعُبيدة، فقالوا للمسدود: غنِّ، فقال: لا والله، لاتقدمْت عبيدة، وهى الأستاذة، فما غنَّى حتى غنت[٤].

لم يكن الأمر مقصورًا على عبيدة أو فضل، وإنما كان يمتد ليشمل دنانير وبذْل وعريب وغيرهن؛ فقد أسهمت هذه الفئة بصورة مباشرة - وغير مباشرة - فى الارتقاء بالذوق، وإشاعة جوٍّ من الرقة والظَّرف. واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة فى الأزياء وفى العطور وغيرهما مما يمسّ الحياة الاجتماعية فى كثير من جوانبها. فمما يروى عن «متيَّم» الهشامية أنها كانت أوّل من عقد من النساء فى طرف الإزار زُنَّارًا[٥] وخيْط إبْرَيْسم[٦]، ثم تجعله فى رأسها، فيثبُت الإزار، ولا يتحركِ، ولا يزول[٧]. كما كان «يعجبها البنفسج جدًا، وكان عندها آثرَ من كل ريحان وطيب، حتى إنها من شدة إعجابها به لا يكاد يخلو من كُمِّها الريحان، ولا نراه إلا كما قُطف من البستان»[٨].

---

(١) انظر: الأغانى. جـ١٨ ص١٦٧.

(٢) الأغانى: جـ٢٢ ص٢٠٥.

(٣) انظر: السابق. نفس الصفحة.

(٤) السابق: ص٢٠٧. والمسدود: اسمه الحسن وكنيته أبو على، من أهل بغداد. ويقال: إنه كان مسدود فرد مَنْخر ومفتوح الآخر، وكان يقول: لو كان مَنْخِرى الآخر مفتوحًا لأذهلت بغنائى أهل الحلوم وذوى الألَباب، وكان أشجى الناس صوتًا، وأحضرهم نادرة، وكانت له صنعة عجيبة. الأغانى: جـ٢٠، ص٢٨٨.

(٥) الزنار فى الأصل: ما يلبسه ويشده الذمى على وسطه.

(٦) الإبريسم: الحرير.

(٧) انظر: الأغانى جـ٧ ص٣٠٢.

(٨) السابق ص٣٠٦.

إن ما أوردناه فى الصفحات السابقة - خاصًا بالجوارى و«القيان» - له دلالته فى شغف كثير من رجالات الدولة العباسية بهن، وإقبال بعض منهم على التزوج منهن. ويبدو أن هذا أصبح أمرًا عاديًا بل وشائعًا. وهذا واضح مما ذكرناه من قبل من نسب الخلفاء العباسيين وغيرهم.

ومع ذلك، فيبدو أنه كانت لا تزال فى النفس العربية بقيَّة من التعلق بأصالة العرق العربى؛ إذ لابد من توافره فيمن يخطب امرأة من قريش، حتى تتحقق «الكفاءة» المنشودة فى الزواج.

يتبدى ذلك فى بعض الأخبار؛ منها ما يتعلق بعلى بن الجهْم[1]، وكيف أنه خطب امرأة من قريش، فلم يزوجوه، لأن نسبه ينتهى إلى سامة بن لؤى بن غالب، وقريش تدفعهم عن النسب، وحين بلغ خبره الخليفة المتوكل ضحك، وبعث إلى على بن الجهم، فأخبره بما قال القوم، فأنكر ذلك، وقال: هذه الدعوى من الرافضة، وشتم القوم، وكان منهم أبو السِّمط، فقال له:

إن جهْما حين تنسبه	ليس من عُجْم ولا عَرَبِ
لجّ فى شتمى بلا سبب	سارقٌ للشعر والنسبِ
من أُناسٍ يدَّعون أبًا	ماله فى الأرض من عَقب[2]

وهناك خبر يتعلق بالهيثم بن عدى[3]، وكيف أنه كان دعيًّا، «وقد تزوّج إلى بنى الحارث بن كعب، فركب محمد بن زياد بن عُبيد الله بن عبد المدان الحارثى (أخو يحيى ابن زياد)، ومعه جماعة من أصحابه الحارثيين إلى الرشيد، فسألوه أن يفرق بينهما، فقال الرشيد: أليس هو الذى يقول فيه الشاعر:

---

(١) هو: على بن الجهْم بن بدْر بن الجهم ينتهى نسبه إلى سامة بن لؤى بن غالب. وقريش تدفعهم عن النسب، وتسميهم بنى ناجية، ينسبون إلى أمهم ناجية، وهى امرأة سامة بن لؤى. وكان على بن الجهم شاعرًا فصيحًا مطبوعًا، وخُصَّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه، ثم أبغضه لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه، والذكر لهم بالقبيح عنده، فنفاه بعد أن حبسه مرة. وكان ينحو نحو مروان بن أبى حفصة فى هجاء آل أبى طالب وذمهم والإغراء بهم، وهجاء الشيعة. انظر: الأغانى جـ١٠ ص٢٠٣-٢٠٥.

(٢) انظر: الأغانى: ج ٢٣، ص ٢١٣.

(٣) سبق أن عرفنا به فى ثنايا هذه الدراسة انظر ص ٤٣٩ هامش (٤).

إذا نسبْتَ عديا فى بنى ثُعلٍ فقدِّم الدال قبل العين فى النسب

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: فهذا الشعر من قاله ؟ قالوا: هو لرجلٍ من أهل الكوفة من بنى شيبان يقال له: ذُهل بن ثعلبة، فأمر الرشيد داودَ بن يزيد أن يفِّرق بينهما، فأخذوه فأدخلوه دارًا، وضربوه بالعِصىّ حتى طلَّقها»[1].

وقد هجاه على بن جبلة بهجاء مقذع، ينال منه، ومن أصله؛ معيِّرا له بذلك، وبما حدث له من بنى عبد المدان، فقال فيما قال:

يا ابن الخبيثة من أهجو فأفضحَه إذا هجوتُ، وما تُنمى إلى أحد ؟[2]

على أننا نعرف من كثير من الأخبار المتعلقة بالجوارى والقيان، أن هذه الطبقة قد ترقّت لعوامل كثيرة، من أبرزها: ارتباطها بعلية القوم، وحياة القصور؛ ومن ثم فقد أصبح كثير منها فى مكانة اجتماعية، تدفع بأصحاب الجاه والسلطان إلى التهافت عليهن، والتنافس فى الزواج بهن.

وقد جاء فى أخبار «بذْل» أن محمد الأمين قد وهب لها الجوهر الذى لم يملك أحدٌ مثله، وقد كفل لها هذا - مع ما كان يصل إليها من الخلفاء - حياة كريمة، إلى أن ماتت وعندها منه بقية عظيمة[3].

وفى بعض الأحيان قد تحكم المصاهرات بمعادلات التوازن السياسى والمصالح؛ ومن أمثلة ذلك: ما يرويه إبراهيم بن المدبِّر من أن محمد بن صالح الحَسَنى[4] جاءه فسأله أن يخطب عليه بنت عيسى بن موسى بن أبى خالد الحَرِّى، أو أخته حَمدونة، فصار إلى عيسى، وسأله أن يجيبه لذلك، فأبى، وقال له: «لا أكذبك، والله ما أرده لأنى لا أعرف أشرف وأشهر منه لمن يصاهره، ولكنى أخاف المتوكل وولده بعده على نعمتى

---

(١) الأغانى: جـ٢٠ ص٣٢.

(٢) انظر: السابق، نفس الصفحة.

(٣) انظر: الأغانى جـ١٧ ص٧٦.

(٤) هو محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على أبى طالب. شاعر حجازى ظريف. وكان جده موسى بن عبد الله أخا محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن حسن بن حسن الحجازيين الخارجين فى أيام المنصور. انظر فى ترجمته: الأغانى جـ١٦ ص٣٦٠ وما بعدها.

ونفسى»؛ فرجع إليه، فأخبره بذلك، فأضرب مدة عن هذا الأمر، ثم عاوده مرة أخرى، وطلب منه ذلك، فعاوده (ابن المدبّر) ورفق به، حتى أجابه، فزوّجه أخته[١].

وقد يتعانق مذهبان بينهما من الاختلاف ما يحول دون لقائهما؛ فيتزوج الشيعى الإباضية؛ إذ يروى أبو الفرج أن السيد الحميرى اجتمع فى طريقه بامرأة تميمية إباضية[٢]، فأعجبها، وقالت: أريد أن أتزوج بك ونحن على ظهر الطريق. قال: يكون كنكاح أم خارجة[٣] قبل حضور ولىّ وشهود، فاستضحكت وقالت: ننظر فى هذا، وسألته عن شخصه، فأنشدها شعرا يتيه فيه فخرا بنفسه وبقومه من اليمن؛ فقالت: قد عرفناك، ولا شئ أعجب من هذا: يمانٍ وتميمية، ورافضىٌّ وإباضية، فكيف يجتمعان ! فقال: لحسن رأيك فىّ تسخو نفسُك، ولا يذكر أحدنا سلفًا ولا مذهبًا. وبعد حوار معه - عرض عليها فيه زواج المتعة[٤] - قالت: أستخير الله وأقلدك أن كنت صاحب قياس. ففعلت، فانصرفت معه، وبات مُعْرسًا بها. وبلغ أهلها من الإباضية أمرها، فتوعدوها بالقتل وقالوا: تزوجت بكافر ! فجحدتْ ذلك، ولم يعلموا بالمتعة. ويختم أبو الفرج الخبر بأنها: كانت مدة تختلف إليه على هذه السبيل من المتعة وتواصله حتى افترقا[٥].

والخبر السابق - إن صحت روايته - يتسم بالطرافة؛ وربما كان أبو الفرج يهدف من

---

(١) انظر: الأغانى. جـ١٦ ص٣٦٣.

(٢) الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد، وكانوا يزعمون أن مخالفهم كافر لا مشرك تجوز مناكحته، انظر: شرح القاموس مادة أبض، والملل والنحل للشهرستانى جـ١، ص١٣٤.

(٣) نكاح أم خارجة يضرب به المثل فى السرعة، فيقال: «أسرع من نكاح أم خارجة» وهى: عمرة بنت سعد ابن عبد الله بن قدار بن ثعلبة. كان يأتيها الخاطب فيقول: خطب، فتقول: نكح. فيقول: انزلى، فتقول: أنخ. ويقال: إن أم خارجة ولدت للعرب فى نيف وعشرين حيًا من آباء متفرقة، وكانت هى إحدى النساء اللاتى إذا تزوجت واحدة منهن الرجل، فأصبحت عنده كان أمرها إليها إن شاءت أقامت، وإن شاءت ذهبت. وعلامة ارتضائها للزوج أن تعالج له طعاما إذا أصبح. (انظر: الميدانى مجمع الأمثال جـ١ ص٤٢٠-٤٤١ والقاموس وشرحه مادتى: خطب وخرج).

(٤) المتعة: أن تتزوج امرأة تتمتع بها أيامًا ثم تخلى سبيلها. وذلك أن الرجل كان يشارط المرأة شرطًا على شىء بأجل معلوم، ويعطيها شيئًا فيستحلها بذلك، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولاطلاق. وقد كانت المتعة مباحة فى أول الإسلام ثم حرمت، وهى جائزة عند الشيعة. وللجلودى - وكان من أكابر الشيعة الإمامية - كتاب يسمى: «كتاب المتعة وما جاء فى تحليلها»؛ وللصفوانى - وهو من رجال الشيعة أيضا - «كتاب المتعة وتحليلها والرد على من حرمها». الأغانى: جـ٧ ص٢٦٥ هامش (٦).

(٥) انظر: الأغانى. جـ٧ ص٢٦٤-٢٦٦.

إيراده إلى أن يبرز أن علاقات الزواج لا تحول دونها عصبية مذهبية أو قبلية؛ ومن ثم فقد يلتقى اليمانى والتميمية، ويتزوج الرافضى من الإباضية !.

ونختم هذا الجزء بالإشارة إلى الزواج الذى سارت بذكره الأخبار، وهو زواج بوران بنت الحسن بن سهل بالخليفة المأمون؛ فهو مثال للزواج الذى تحكمه المصالح السياسية[١]، وهو صورة لامتزاج العنصرين العربى والفارسى، فيما يعد تتويجًا لعمق العلاقات بينهما، ثم هو - أخيرًا - نموذج للإنفاق والإسراف[٢] الذى جُبل عليه خلفاء بنى العباس، ومن ارتبط بهم من تلك الأسر الفارسية كالبرامكة وآل طاهر وآل سهل وغيرهم.

وقد ورد خبر فى الأغانى له دلالته فى النظر إلى هذا النوع من «الزواج»؛ إذ يروى أن إبراهيم بن العباس دخل على المأمون فى داره بفم الصِّلْح[٣] أيام بنى ببوران بنت الحسن ابن سهل فأنشده:

لِيَهْنِئْكَ أصهارٌ أذلَّتْ بعزِّها	خدودًا وجدَّعتَ الأنوفَ الرَّواغما
جمعتَ بها الشمْلَيْن من آل هاشم	وحُزْتَ بها للأكرمين الأكارما
بَنُوك غَدَوْا آل النبىّ ووارِثو الـ	ـخلافةِ والحاؤون كِسْرى وهاشما[٤]

وفى نهاية حديثنا عن «المرأة» فى العصر العباسى نورد الملاحظات التالية:

أولاً: إن الأخبار التى أوردها أبو الفرج خاصة ببعض الجوارى أو القيان أو الشواعر، التى تتحدث عن تبذلهن - أو قد يُشم منها ذلك - كثيرة، ومبثوثة فى كتاب «الأغانى»، وربما ساعد على كثرتها انتشار دور النخاسة، ومجالس اللهو والشرب والغناء، وما قد

---

(١) يقال إن المأمون اتهم بقتل وزيره الفضل بن سهل، فتزوج ابنة أخيه (بوران)؛ تألُّفا لقلب والدها وتسكينًا لنفسه، وقد أقام لها عرسًا من أفخم الأعراس فى تاريخ البشر. انظر: الطبرى، السابق، جـ٨ ص٥٦٤-٥٦٥، وانظر أيضًا: د. مصطفى جواد، السابق، ص٥٢=٥٣.

(٢) انظر فى الحديث عن مظاهر الإنفاق والإسراف فى هذا العرس: الطبرى: السابق ص٦٠٦-٦٠٩، وابن الساعى: السابق ص٦٧-٧٠.

(٣) فم الصلح: نهر كبير فوق واسط عليه عدة قرى وفيه دار الحسن بن سهل. (معجم البلدان لياقوت).

(٤) الأغانى: ج ١٠، ص ٦٠.

يصحبها من مجون. ولكن هذا لا يعنى أنه قد أغفل الجانب الآخر، المنبئ عن الاتزان والالتزام؛ فمن ذلك: ما رواه فى معرض حديثه عن «محمد بن كُناسة ونسبه»؛ إذ يقول عنه: «شاعر من شعراء الدولة العباسية، كوفى المولد والمنشأ، قد حُمل عنه شىء من الحديث، وكان إبراهيم بن أدهم الزاهد خالَه، وكان امرأً صالحًا لا يتصدى لمدح ولا لهجاء؛ وكانت له جارية شاعرة مغنية يقال لها: دنانير؛ وكان أهل الأدب وذوو المروءة يقصدونها للمذاكرة والمساجلة فى الشعر»[1]. ومن ذلك أيضا: ما يرويه عن جارية تدعى «متيَّم»، كانت لبعض وجوه أهل البصرة، فعلقها عبد الصمد بن المعذَّل (شاعر فصيح من شعراء الدولة العباسية)، وكانت لا تخرج إلا منتقبة، فخرج عبد الصمد يومًا إلى نزهة، وقدمت متيم إلى القاضى، فاحتاج إلى أن يُشهد عليها، فأمرها بأن تُسفر، فلما قدم عبد الصمد قيل له: لو رأيت متيَّمَ وقد أسفرت لرأيت شيئًا حسنًا لم يُر مثله؛ فقال عبد الصمد فى ذلك شعرًا[2]؛ فهل كان هذا نوعًا من ردّ الفعل تجاه الابتذال فى الملبس والتحرر فيه ؟

ثانيًا: من الملاحظ أن الغزل بنوعيه: الحسىّ والعذرى لم يعد يشكّل ظاهرة تلفت أنظار الدارسين، وتدل على جوانب من الحياة الاجتماعية فى هذه البيئة أو تلك[3]. وقد عرفنا - من قبل - مدى ارتباطه بالمرأة العربية الحرّة فى إقليم الحجاز، وكيف عبّر بصدق عنها وعن وضعها الاجتماعى. ولا شك أن الظروف السياسية، والتحول الاجتماعى الذى أشرنا إليه فى الفصول السابقة كانا وراء ذلك.

ثالثًا: أن هناك جانبًا يتصل بالمرأة العربية الحرة، ورد ذكره - فى بعض السياقات - بصورة عابرة، ويبرز إسهامًا لها فى مجالات قد تزاحم فيها الرجل، مثل: اقتحامها ميدان

---

(١) الأغانى: جـ١٣ ص٣٣٧.هذا؛ ومن الواضح أن دنانير هذه غير «دنانير» مولاة يحيى بن خالد البرمكى التى تحدثنا عنها سابقًا.

(٢) انظر: الأغانى. السابق جـ١٣ ص٢٤٩.

(٣) لعل مما يدعم هذا ما يذكره د. طه حسين من أن عصر بنى العباس لم توجد فيه مدرسة غزلية. نعم؛ نحن نعرف أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا، وأتقنوا الغزل والنسيب، ولكنهم لم ينقطعوا للغزل. ويذكر أن الشعراء العباسيين انصرفوا عن الغزل إلى شىء آخر، هو العبث والمجون. وعن الشاعر عباس ابن الأحنف يقول: إنه استثناء يثبت القاعدة، ويكفى أن تقرأ الشعر العباسى، لتعلم أنه كان غريبًا فى عصره. انظر: حديث الأربعاء جـ١ ص٢٩٤.

القتال، واتخاذها الطب عملا تزاوله، وتعرف به. ومن أمثلة ذلك: ما يحكى من أنه بعد مقتل الوليد بن طريف (رأس الخوارج) على يد يزيد بن مزيد سنة ١٧٩هـ فى عصر هارون الرشيد، «صبحتهم أخته ليلى بنت طريف مستعدة، عليها الدرع والجوشن، فجعلت تحمل على الناس، فعُرفت؛ فقال يزيد: دعوها، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قطاة[١] فرسها، ثم قال: اغربى غرّب الله عليك ! فقد فضحت العشيرة، فاستحيت وانصرفت، وهى تقول:

أيا شجر الخابور مالَكَ مورقا ... كأنك لم تحزنْ على ابن طريف
فتًى لا يحب الزادَ إلا من التُّقى ... ولا المال إلا من قنًا وسيوف
ولا الذُّخرَ إلا كلَّ جرداءَ صِلْدِمٍ ... وكلَّ رقيق الشفرتين خفيف»[٢]

وما يرويه ابن كناسة من أن جده أتى امرأة من بنى أَوْد لتكحله من رمد كان أصابه، فكحلته، ثم قالت: اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينك، فاضطجع، ثم تمثّل قول الشاعر:

أمخترمى[٣] ريبُ المنون ولم أَزُرْ ... طبيب بنى أَوْد على النأى زينبا؟

فضحكت ثم قالت: أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قال: لا والله. فقالت: فىّ والله قيل، وأنا زينب التى عناها، وأنا طبيب أَوْد؛ ثم سألته، أفتدرى من الشاعر ؟ قال: لا، قالت: عمك أبو سماك الأسدى[٤].

وأخيرًا؛ فإن النساء اللائى أخذن حقهن مضاعفًا هن صاحبات المواهب الخاصة فى الغناء والموسيقى والشعر؛ وقد كان أبو الفرج وفيًّا لما توجه إليه فى عنوان كتابه.

هذا؛ ويمكن أن نلاحظ من خلال هذا الفصل أنه على الرغم من أن العصر العباسى هو عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية فى مختلف جوانبها فإن صوت المرأة العربية قد توارى أوكاد عن كثير من تلك الجوانب، وبرز صوت المرأة الجارية أو القينة أو

---

(١) قطاة الفرس: عجزها، أو مقعد الرديف منها.
(٢) الأغانى: ج ١٢ ص ٩٦، والصلدم من الخيل: الشديدة الحافر. ورقيق الشفرتين: السيف.
(٣) مخترم: من اخترمته المنية إذا أخذته. ريب المنون: حوادث الدهر.
(٤) انظر: الأغانى. جـ١٣ ص٣٤٤.

الشاعرة؛ وليس أدل على ذلك من عناوين تراجم وردت فى كتاب الأغانى بأسماء نساء مثل: (أخبار عنان، أخبار شارية، ذكر بذل وأخبارها، أخبار فضل الشاعرة ...)

كما أن أكثر الخلفاء مالوا إلى الانعطاف نحو الجوارى الفارسيات والروميات، ولهذا دلالته على تحول فى الذوق العام تجاه المرأة غير العربية .

بالإضافة إلى أن بعضًا من سيدات البلاط العباسى من أمثال: أم سلمة المخزومية، وزبيدة، والخيزران، وعلية بنت المهدى وغيرهن كان لهن دور سياسى واجتماعى وحضارى واضح.

* * *

الخاتمة

فى نهاية بحثنا عن الحياة الاجتماعية فى كتاب الأغانى نلاحظ ما يأتى:

أن «الطابع الشعبى» ملمح أصيل فى هذا الكتاب . وهذا واضح من الفكرة الرئيسية التى قام عليها الكتاب «مائة الصوت المختارة»؛ فهى بانحيازها إلى فن الغناء أدبية شعبية أو يغلب عليها ذلك؛ غير أنه من الملاحظ أن أبا الفرج لم يتماد فى هذا الاتجاه، ومن ثم فلم يهتم بفنون كالموشح أو الزجل . ولشعبية الأداء التاريخى مسالك أخرى منها: الرواية عن المغمورين، أو الاهتمام بجوانب عارضة فى حياة الطبقات الدنيا والمتوسطة كأدوات الزينة، وأنواع الطعام والحلوى، واستحداث أزياء جديدة، وشيوع مجالس الغناء والطرب. بل إنه كان حاضر الذهن فى تنبهه إلى رصد بدايات هذه المستحدثات الصغيرة ذات العلائق الاجتماعية؛ إذ كثيرًا ما كان ينبه قراءه بمقولة: «... أول من ...»؛ وهذا دليل قاطع على وعيه بالتطور، فضلاً عن أنه يسر للباحثين تعقب هذه المستحدثات الصغيرة، ووضعها فى دوافع وجودها، وملابسات استمرارها، وأسباب التوسع فيها، ثم استقرارها أو اضمحلالها بما يشكل فى النهاية بصيرة عارفة بقانون العادات والتقاليد، ومصادر التأثير والتأثر، وأسبابه .

ويتبين لنا كذلك أن «الظاهرة الاجتماعية» لا ترتبط فى نشأتها وتطورها وبقائها أو فنائها بعامل الزمن وحده؛ لأنها تخضع فى هذا كله لعوامل كثيرة متشابكة وممتدة فى الزمان والمكان؛ ومن ثم فقد تبدأ جذورها فى عصر معين دون أن يلاحظ ذلك، حتى إذا ما تهيأت لها الظروف بدت فى اتساعها وانتشارها وكأنها وليدة العصر الجديد. وشواهد ذلك فى الدراسة كثيرة منها شيوع ظاهرة «الخمر والمجون» فى العصر العباسى؛ فقد كان امتدادًا لموجة حادة بدأت منذ أواخر العصر الأموى، وساعد عليها بعد ذلك كثير من الموالى فى البصرة والكوفة من أمثال: مطيع بن إياس، ووالبة بن الحُباب، وبشار بن برد

وغيرهم؛ وآفة التعلق «بالغلمان المرد» والتغزل فيهم فى العصر العباسى لها جذورها؛ إذ ترتد إلى فئة «المخنثين» فى العصر الأموى وما ارتبط بهم من رقة وليونة وتخنث .

وفيما يتصل «بعناصر السكان» نلاحظ أن جزيرة العرب فى العصر الجاهلى كانت تتألف من البدو والحضر مع غلبة العنصر الأول على الثانى، ومع ملاحظة عدم وجود فروق اجتماعية تذكر بين حياة كل منهما . وكانت الجزيرة العربية منغلقة على نفسها حريصة على نقائها وصفاء دمها على الرغم من احتكاكها بالفرس والروم . كما نلاحظ التحول الكبير الذى حدث لها بمجىء الإسلام واتساع حركة الفتوح الإسلامية؛ فمع امتداد الرقعة الجغرافية ودخول كثير من الناس فى دين الله أفواجًا تنوعت عناصر المجتمع العربى الإسلامى تنوعًا كبيرًا، وأصبح يضم الفارسي، والرومى، والقبطى، والتركى، وغيرهم . وقد حرص العربى فى هذا العصر الإسلامى على قيم البداوة العربية التى تربى عليها، وعلى نقاء الدم العربى الذى ورثه، وظلت طبيعة الدولة عربية أعرابية . وعلى الرغم من أن هذا التنوع فى عناصر السكان لم يصبه تبدل فى أساسه فى العصر العباسى، فإن رياح التغيير أصابت طبقات المجتمع آنذاك بألوان من التحول والتغيير .

من هنا فقد رصدت الدراسة انعكاس «عناصر السكان» بصورتها السابقة على طبقات المجتمع؛ إذ ظل العنصر العربى يمثل الطبقة الأرستقراطية فى العصرين الأول والثانى، مع حرص منه على ما كان يسمى بنقاء الدم العربى، أما فى العصر العباسى فلئن بدا فى الظاهر أنه يشكل الطبقة الأرستقراطية فإن الواقع يثبت أن هناك عنصرًا آخر زاحمه فى موقعه بعد أن كان من قبل فى الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعى ألا وهو العنصر الفارسى، وقد ساعده فى ذلك أن العربى نفسه لم يعد يحرص على ما كان يحرص عليه آباؤه السابقون من نقاء الدم العربى . وهناك مجموعة من الطبقات كانت تقع فى الدرجة الدنيا من السلم الاجتماعى ومن أهمها طبقتا «الرقيق» و»الموالى» وقد لوحظ ازدياد عددهما بصورة كبيرة فى العصر الإسلامى مع تحول فى مفهوم «المولى» ليشمل كل من دخل الإسلام من غير العرب . وقد قامت هاتان الطبقتان بدور كبير فى التحول الاجتماعى والثقافى للمجتمع العربى بدءًا من العصر الإسلامى ووصل إلى ذروته فى العصر العباسى، وهو ما قد يدفعنا إلى القول بأن هناك طبقة أزاحت طبقة أخرى .

وقد اتضح لنا من خلال الدراسة أيضًا أن الرقيق والموالى ساعدوا فى عملية المزج بين العرب وغيرهم وشاركوا فى كثير من أوجه النشاط فى الحياة الاجتماعية، وأسهموا بصورة فعالة فى انتشار الغناء وازدهاره، وأصبح الموالى جزءًا من نسيج المجتمع فى العصر العباسى، بل زاد نفوذهم وتغلغلوا فى شئون الدولة فكان منهم الوزراء والأمراء والكتاب والقواد والشعراء والمغنّون .

وقد لاحظنا شيوع ظواهر كثيرة مع التحول السابق للطبقات الدنيا؛ إذ راجت تجارة الجوارى والقيان، وعمرت قصور الخلفاء والأمراء بهن، ونال كثير منهن حظوة كبيرة لقربهن من سلطة الخلافة . وكثرت دور النخاسة، ووجد هناك المقينون الذين كانوا يتولون إعداد الجوارى وتعليمهن فن الغناء، وكانت هذه الدور يغشاها الشعراء وغيرهم من هواة الفن؛ من هنا يمكن القول بأنها أشاعت فى المجتمع كثيرًا من ضروب الرقة والظرف، وأثرت فى الشعر لفظًا ومعنى . كما أن الحرص على إعدادهن إعدادًا جيدًا لعب دورًا فى الارتقاء بالذوق العام . ومع ذلك فهناك جانب سلبى يتراءى لنا فيما ارتبط بهذه الطبقة من ألوان العبث أو الإباحية والتحرر من كل خلق أو دين أو عرف.

كما تبيَّن لنا كذلك أن ازدياد نفوذ الموالى كان وراء علو صوتهم وظهور تعصبهم لأبناء عرقهم وهو ما عرف بالشعوبية كما سنشير لاحقًا، بالإضافة إلى انتشار موجات الخلاعة والمجون وما صحبها من زندقة فى كثير من الأحيان .

ولم يغفل البحث «الصعاليك» بوصفهم طبقة خارجة على المجتمع لا تؤمن بالعصبية القبلية التى كانت أساس الحياة فى العصر الجاهلى، بل تؤمن بقانونها الخاص القائم على السلب والنهب وتقسيم ما تقع فى حوزتها على أفرادها فى محاولة منها لإرساء نوع من العدل الاجتماعى المنشود . وقد انكسرت شوكة هذه الطبقة بمجىء الإسلام وتحقيقه مبادئ العدل والمساواة وكاد يقضى عليها، غير أننا لاحظنا لها وجودًا فى العصرين الأموى والعباسى حتى توارت أخيرًا فى الظل مع طبقة العامة .

وقد حظيت «العصبية» باهتمام هذه الدراسة؛ ذلك أنها شكلت عنصرًا أساسيًا من عناصر الحياة الاجتماعية، وقد تجلت لنا فى صورتها القبلية القائمة على النسب أولاً

وعلى الولاء والحلف ثانيًا فى العصر الجاهلى واستتبعت أمورًا من أبرزها: شدة عناية العرب بأنسابها، وقد تبلور هذا ليشكل علمًا واسعًا هو علم الأنساب، وقد كان أبو الفرج من أصحابه . كما أنها استتبعت نوعًا من العقد الاجتماعى بين القبيلة وأفرادها، وقد ارتبط به ما يسمى بالجوار والأحلاف، وكان لكل منهما تبعاته والتزاماته التى تأخذ صبغة الحرمة والإلزام بل والقداسة؛ وقد توارت هذه العصبية أو كادت بمجئ الإسلام ولكنها عادت فتية قوية فى العصر الأموى . ويتضح ذلك جيدا إذا لاحظنا أن البيت الأموى قامت دعائمه على العصبية؛ ومن ثم فقد أمدها بوقود زادها تأججًا وضراوة، فكانت فى نهاية الأمر من أبرز عوامل انهياره وقيام دولة بنى العباس . وقد حاول العباسيون التصدى لهذه الظاهرة والقضاء عليها بكل سبيل، ومع ذلك فإنها آذنت بالتحول إلى لون آخر قائم على التعصب للعرق، فيما عرف باسم «الشعوبية» التى أشرنا إليها منذ قليل .

ثم إن الدراسة أفردت «للحروب» فصلاً خاصًا بها فى العصر الجاهلى، وأشارت إليها فى ثنايا الحديث عن العصرين: الإسلامى والعباسى . وقد اختلفت طبيعتها وعوامل إثارتها فى كل عصر؛ فقد كان الدافع لها فى العصر الجاهلى هو تشبث الإنسان العربى ببقائه والدفاع عن وجوده، ولكنه فى العصور التالية اصطبغ بصبغة سياسية مذهبية ترتبط فى المقام الأول بنظام الحكم ومدى أحقية من يتطلع إليه به وولاء الناس له . ومع هذا كله تظل الحرب من أهم الظواهر الاجتماعية التى تهلك الحرث والنسل وتدمر كل مقومات الحياة .

هذا؛ وقد كشفت الدراسة عن عوامل ظهور الشعوبية ولاحظت أنها تضرب بجذورها فى العصر الأموى، وعن أن خطورتها تكمن فى تلك الجوانب الخفية للموالى من الفرس وبخاصة البرامكة وآل طاهر؛ إذ كان هؤلاء يهدفون إلى أن يكون زمام الأمور بأيديهم ولا يكون للعرب إلا أبهة الخلافة ومظهرها الخارجى، وأبرزت ارتباط هذه الظاهرة بالمجون والزندقة والتعلق بالغلمان، فضلاً عما لقيه العرب بسببها من تحكم الفرس فى كثير من شئون حياتهم، واتخاذهم الدسائس والمؤامرات وسيلة لتحقيق أغراضهم .

وقد لاحظنا خلال هذه الدراسة أن أبا الفرج لم يوجه اهتمامًا كبيرًا إلى الغناء فى العصر الجاهلى؛ ولعل مرد ذلك إلى أن الغناء فى تلك الفترة كان ساذجًا فطريًا يرتبط فى المقام الأول بالحُداء، أو بعض الأصوات التى تتردد فى الجزيرة العربية هنا وهناك عن طريق إمارتى الحيرة وغسان؛ ومن ثم فإنه لم ينتشر انتشاره فى العصرين الأموى والعباسى ولهذا لم نفرد له فى تناولنا للعصر الجاهلى فصلا خاصًا، على حين أفردنا له فصلين مستقلين فى العصرين الأموى والعباسى؛ فلقد ارتقى فن الغناء فيهما ارتقاء غير مسبوق . وإن نظرة إلى ازدهاره فى العصر الإسلامى - وبخاصة فى بيئة الحجاز - لتثبت ذلك . وقد تناول البحث العوامل التى ساعدت فى ذلك، وأهمها اتساع موجة الثراء والترف، وكثرة الأرقاء والموالى وامتزاجهم بالعرب، ورقة طبع أهل الحجاز؛ من هنا كان شغف السادة والأشراف وعلية القوم به وبأصحابه، وتوفير الجو المناسب لهم، بكفالتهم ماديًا، ورعايتهم معنويًا . ثم أبانت الدراسة عما كان للغناء من أثر وما أحدثه من تغيرات اجتماعية وحضارية. ولقد وصل الغناء فى العصر العباسى إلى حد يمكن القول معه إن هذا العصر كان عصر الغناء وذلك بفضل عوامل كثيرة رصدها البحث.

وقد لاحظنا أثناء حديثنا عن الغناء كثرة المؤلفات التى تناولت هذا الفن؛ وحاولت الدراسة إبراز دلالة هذا فى كشفها عن مدى ما وصل إليه هذا الفن من تقدم وازدهار، دفع المهتمين به إلى أن يرصدوا ظواهره ويحللوا جوانبه ويكشفوا عن أصوله . بل إن كتاب «الأغانى» نفسه لم يكن إلا ثمرة من ثمار هذا الاهتمام، وقد استرعى انتباهنا أن صاحبه لم يكتف «بمائة الصوت المختارة»، بل أضاف كذلك المزيد والمزيد من تلك الأصوات التى كانت تملأ الساحة العربية الإسلامية . وقد انتهى البحث فى هذا الجانب إلى أن ازدهار هذا الفن، والتفاف الناس حوله، وشيوعه بين كل الطبقات كانت له دلالته الواضحة على مدى الوعى العميق بدوره فى رقى الذوق وتهذيب النفس وهو ما انعكس فى نهاية الأمر على تطور حركة المجتمع وتقدمه .

أما المرأة فقد حظيت باهتمام خاص فى هذا البحث؛ ومن ثم أفرد لها ثلاثة فصول على امتداد العصور الثلاثة، وناقش كثيرًا من الجوانب التى أسهمت فيها سلمًا وحربًا، وكذلك شئون الزواج والطلاق . وقد تبين من الدراسة أن المرأة العربية كانت موضع

تقدير المجتمع حتى فى العصر الجاهلى فكانت تستشار فى شئونها الخاصة، وكانت تشارك فى أمور السلم والحرب، فضلاً عن حقها فى أن تجير غيرها وما يتبع ذلك من عهود ومواثيق . كما تمتعت المرأة العربية بمساحة كبيرة من الحرية فى العصر الإسلامى، وبخاصة فى بيئة الحجاز، وشاركت فى كثير من الأنشطة التى عمت هذه البيئة من مثل مجالس الغناء، والخروج للمتنزهات وما إلى ذلك . ومع أن العصر العباسى كان أكثر تحررًا وإقبالا على مباهج الحياة، فإن الدراسة لاحظت أن صوت المرأة العربية الحرة قد خَفَت مقارنًا بصوتها فى العصر الأموى، ولعل ذلك راجع إلى ازدياد الدور الذى قام به الجوارى والقيان فى هذا العصر العباسى .

وأخيرًا؛ فإن البحث لم يغفل دور الشعر فى تلك العصور إذ قام مقام الصحافة الحديثة فى تسجيله للأحداث وتصويره لها؛ ومن ثم نُظر إليه على أنه وثائق تاريخية، يمكن الاعتماد عليها والرجوع إليها فى الكشف عن جوانب كثيرة من الحياة . كما أنه صور ظواهر كثيرة ارتبطت بموجة الترف وما صحبها من مجون وزندقة وغير ذلك من الأمور المستحدثة التى تبدو غريبة على الذوق العربى وقيمه وتقاليده، ولكنها على كل حال تصور واقعًا اجتماعيًا لا يمكن إنكاره أو تجاهله .

***

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١-ابن الأثير (عز الدين على بن محمد):

-الكامل فى التاريخ ط٦ . دار صادر. بيروت، ١٩٩٥م.

-اللباب فى تهذيب الأنساب . دار صادر بيروت، ١٩٨٠م.

٢-الإصطخرى (إبراهيم بن محمد الفارسى):

-المسالك والممالك . تحقيق د٠ محمد جابر عبد الله . مراجعة محمد شفيق غربال . وزارة الثقافة والإرشاد القومى . القاهرة ١٩٦١م .

٣-الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين):

-أدب الغرباء. نشرة د. صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد . بيروت لبنان ١٩٧٢م .

-الأغانى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م

-الأغانى . دار الشعب . إشراف وتحقيق: إبراهيم الأبيارى ١٩٧٩م (جـ٢٩، جـ٣٠) .

-الإماء الشواعر . تحقيق: د. جليل العطية ط١ . دار النضال. بيروت ١٩٨٤م .

-مقاتل الطالبيين . شرح وتحقيق: السيد صقر . طبعة دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٩م .

٤-الأصمعى (عبد الملك بن قُريب):

-الأصمعيات: تحقيق: عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر، ط٥، دار المعارف، القاهرة (د٠ت) .

٥-ابن برد (بشار أبو معاذ العقيْلى):

-ديوان بشار جمع وتحقيق وشرح: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . الشركة التونسية للتوزيع (د٠ت) .

٦-البغدادى (أبو بكر أحمد بن على):

-تاريخ بغداد (مدينة السلام) دار الكتب العلمية . بيروت (د٠ت) .

٧-البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد):

-معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . تحقيق: مصطفى السقا . ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ .

٨-البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر):

-أنساب الأشراف . د٠ محمد حميد الله ط٢ . دار المعارف القاهرة ١٩٨٧م .

-فتوح البلدان . وضع حواشيه: عبد القادر محمد على ط١ دار الكتب العلمية . بيروت ٢٠٠٠م .

٩-التبريزى (يحيى بن على بن محمد):

-شرح القصائد العشر . دار الجيل . بيروت . (د٠ت) .

١٠-ثابت (حسان بن ثابت):

-شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصارى. ضبط وتصحيح: عبد الرحمن البرقوقى . دار الأندلس . بيروت (د٠ت) .

١١-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

-البيان والتبيين . تحقيق وشرح: عبد السلام هارون . ط٤ مكتبة الخانجى . القاهرة ١٩٧٥م .

-الحيوان . تحقيق وشرح: عبد السلام هارون . دار الجيل . بيروت . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٨م .

-رسائل الجاحظ . تحقيق وشرح: عبد السلام هارون . مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٦٦م .

١٢- الجمحى (محمد بن سلام):

-طبقات فحول الشعراء . قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر . مطبعة المدنى . القاهرة (د٠ت) .

١٣-الجهشيارى (محمد بن عبدوس الجهشيارى):

-كتاب الوزراء والكتاب . حققه ووضع فهارسه: مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبى . الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤م

١٤-ابن الجوزى (عبد الرحمن بن على بن محمد):

-المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك . دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ١٩٩٢م.

-رِىّ الظِما فى من قال الشعر من الإما . تحقيق: د٠ عبد الرحمن محمد الوصيفى . مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٣م .

١٥-ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد):

-جمهرة أنساب العرب . تحقيق وتعليق: عبد السلام هارون . ط٦ . دار المعارف . القاهرة ١٩٩٩م .

١٦-الخزاعى (دعبل بن على):

-ديوان دعبل بن على الخزاعى، جمع وتقديم وتحقيق: عبد الصاحب عمران الدّجيلى، ط٢، دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٧٢م .

١٧-ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد):

-مقدمة ابن خلدون . تحقيق: د. على عبد الواحد وافى . ط٣ . نهضة مصر . القاهرة . ١٩٨١م .

١٨-ابن خلكان (أحمد بن محمد):

-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . حققه وعلق حواشيه وصنَع فهارسه: محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية (د٠ت) .

١٩-الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد):

-سير أعلام النبلاء . أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط . ط٧ مؤسسة الرسالة . بيروت (د٠ت).

٢٠-الزبيرى (أبو عبد الله المصعب):

-كتاب نسب قريش . نشر وتحقيق وتعليق: ليفى بروفنسال . ط٣ . دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م .

٢١-الزركلى (خير الدين):

-الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٧٩م .

٢٢-ابن الساعى (تاج الدين على بن أنجب):

-نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء . حققه وعلق عليه: د. مصطفى جواد . ط٢ . دار المعارف . القاهرة ١٩٩٣م .

٢٣-السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن):

-تاريخ الخلفاء . تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد . ط١ مطبعة السعادة بمصر . ١٩٥٢م .

٢٤-الشهرستانى: (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم):

-الملل والنحل . تحقيق: محمد سيد كيلانى . دار صعب . بيروت ١٩٦٨م .

٢٥-الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك):

-الوافى بالوفيات . باعتناء هلموت رينز ط٢ . طبعة فرانزا شناينز. بفيبارن . ١٩٦٢م .

٢٦-الضبى (المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر):

-المفضليات . تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون . دار المعارف القاهرة ١٩٩٣م .

٢٧-ابن طباطبا (محمد بن على):

-الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده . القاهرة (د٠ت) .

٢٨-الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

-تاريخ الأمم والملوك . تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . ط١ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٦٠م .

٢٩-ابن العبد (طرفة):

-ديوان طرفة . شرحه وقدم له: مهدى محمد ناصر الدين ط١ بيروت. دار الكتب العلمية . ١٩٨١م .

٣٠-ابن عبد ربه (أحمد بن محمد القرطبى):

-العقد الفريد . طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة ٢٠٠٤م .

٣١-العسقلانى (الحافظ بن حجر):

-الإصابة فى تمييز الصحابة . تحقيق: على محمد البجاوى . طبعة دار الجيل . بيروت . ١٩٩٢م .

٣٢-على (محمد كرد):

-رسائل البلغاء (اختيار وتصنيف محمد كرد على) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط٤ القاهرة ١٩٥٤م .

٣٣-القالى (أبو على إسماعيل بن القاسم):

-الأمالى . دار الكتب العلمية . بيروت (د٠ت) .

٣٤-ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم):

-كتاب الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها . دراسة وتحقيق: د. حسام البهنساوى . مكتبة زهراء الشرق القاهرة . ١٩٩٨م .

-المعارف . حققه وقدم له: د. ثروت عكاشة . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط٦ . القاهرة ١٩٩٢.

٣٥-القيروانى (أبو على الحسن بن رشيق):

-العمدة فى صناعة الشعر ونقده . تحقيق: د. النبوى عبد الواحد شعلان . مكتبة الخانجى ط١ . القاهرة ٢٠٠٠م .

٣٦-ابن القيسرانى (محمد بن طاهر بن على):

-كتاب السماع. تحقيق: أبو الوفا المراغى . طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ١٩٩٩م .

٣٧-الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب):

-الأحكام السلطانية والولايات الدينية . ضبطه وصححه: أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية ط٣ . بيروت . ٢٠٠٦م .

٣٨-المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر):

-الكامل فى اللغة والأدب . مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦م .

٣٩-المرزبانى (أبو عبد الله محمد بن عمران):

-معجم الشعراء . تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م .

٤٠-المرزوقى (محمد بن أحمد):

-شرح ديوان الحماسة . نشره: أحمد أمين وعبد السلام هارون . دار الجيل . ط١ . بيروت ١٩٩١م .

٤١-المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين):

-التنبيه والأشراف . دار ومكتبة الهلال . بيروت ١٩٨١م.

-مروج الذهب ومعادن الجوهر . شرح وقدم له: د٠ مفيد محمد قميحة. دار الكتب العلمية ط٢ . بيروت ٢٠٠٤م .

٤٢-ابن المعتز (أبو العباس عبد الله):

-طبقات الشعراء . تحقيق: عبد الستار أحمد فراج . ط٤ . دار المعارف بمصر. ١٩٨١م .

٤٣-ابن المنجم (يحيى بن على بن يحيى):

-رسالة ابن المنجم فى الموسيقى وكشف رموز كتاب الأغانى. تحقيق وشرح وتعليق: د. يوسف شوقى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

٤٤-ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على):

-لسان العرب . دار المعارف . القاهرة (د٠ت) .

٤٥-الميدانى (أبو المفضل أحمد بن محمد النيسابورى):

-مجمع الأمثال، قدم له وعلق عليه: نعيم حسين زرزور . ط١ . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٨م .

٤٦-ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب):

-الفهرست . ضبطه وشرحه وعلق عليه وقدم له: د. يوسف على طويل، وضع فهارسه: أحمد شمس الدين ط٢ . دار الكتب العلمية . بيروت ٢٠٠٢م .

٤٧-ابن هشام (عبد الملك):

-سيرة النبى ﷺ الشهيرة بسيرة ابن هشام . تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد . مكتبة دار التراث٢٠٠٣م .

٤٨-ابن الورد (عروة):

-شعر عروة بن الورد العبسى . صنعة ابن السكيت . تحقيق: د. محمد فؤاد نعناع . ط١ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٩٥م.

٤٩-ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموى):

-معجم الأدباء . دار إحياء التراث العربى . بيروت لبنان (د٠ت) .

-معجم البلدان . دار صادر . بيروت . لبنان . (د٠ت) .

٥٠-اليعقوبى (أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب):
-تاريخ اليعقوبى . علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، ط ٢، دار الكتب العلمية، لبنان ٢٠٠٢م.

ثانياً: المراجع

١-الأسد (د. ناصر الدين):
-القيان والغناء فى العصر الجاهلى . ط٢ دار المعارف . القاهرة ١٩٨٦م .
٢-إسماعيل (د. محمود):
-المهمشون فى التاريخ الإسلامى . رؤية للنشر والطباعة . القاهرة .
٣-الأصمعى (محمد عبد الجواد):
-أبو الفرج الأصفهانى وكتابه الأغانى. ط٢ . دار المعارف . القاهرة . ١٩٥١م.
٤-أمين (أحمد):
-فجر الإسلام . ط١١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥م.
-ضحى الإسلام . ط١٠ مكتبة النهضة المصرية ٢٠٠٠م.
٥-بروكلمان (كارل):
-تاريخ الأدب العربى . أشرف على الترجمة العربية: د. محمود فهمى حجازى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م .
٦-الترمانينى (د. عبد السلام):
-الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام (دراسة مقارنة) . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٨٤م .
٧-جاد المولى (محمد أحمد) وآخرون:
-أيام العرب فى الجاهلية . دار الجيل . بيروت ١٩٩٨م .
٨-الجنحانى (د. الحبيب):
-المجتمع العربى الإسلامى . الحياة الاقتصادية والاجتماعية. سلسلة عالم المعرفة - الكويت ٢٠٠٥م .
٩-الجندى (د. على):
-عيون الشعر العربى القديم (المعلقات السبع) ط١ . دار النصر للنشر ١٩٩٣م .

١٠-جواد (د. مصطفى):
-سيدات البلاط العباسى . دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت . لبنان ١٩٥٠م .
١١-جوزى (بندلى):
-من تاريخ الحضارات الفكرية في الإسلام . سلسلة إحياء التراث الثقافى الفلسطينى رقم ٤ ط٣ الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ١٩٨٢م .
١٢-حتِّى (فيليب):
-تاريخ العرب . ترجمة: إدوارد جرجى ط ١٠ دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع . بيروت ٢٠٠٠م .
١٣-حسن (د. حسن إبراهيم):
-تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى . دار الجيل بيروت . ونهضة مصر بالقاهرة ١٩٩٦م.
١٤-بوحسن (أحمد):
-العرب وتاريخ الأدب (نموذج فى كتاب الأغانى). الدار البيضاء . ط١ . دار توبقال للنشر . المغرب الدار البيضاء ٢٠٠٣م .
١٥-حسين (د. طه):
-حديث الأربعاء . ط١٥ . دار المعارف . القاهرة (د٠ت).
١٦-الحفنى (د. محمود أحمد):
-إسحاق الموصلى . الموسيقار النديم . ط٢ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . سلسلة أعلام العرب ١٩٨٥م .
١٧-حمود (د. محمد):
-الفرزدق . ط١ دار الفكر اللبنانى . بيروت ١٩٩١م .
١٨-الحوفى (د. أحمد محمد):
-الحياة العربية من الشعر الجاهلى . دار القلم بيروت لبنان (د٠ت) .
-المرآة فى الشعر الجاهلى . دار نهضة مصر. الفجالة. القاهرة (د٠ت) .
١٩-خلف الله (د. محمد أحمد):
-صاحب الأغانى . أبو الفرج الأصفهانى الراوية . ط٣ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٨م .

٢٠-خليف (د. يوسف):
-حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة . ١٩٨٨ .

-الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى . دار المعارف بمصر ١٩٥٩م .

٢١-داغر (د. أسعد يوسف):
-مصادر الدراسة الأدبية . مكتبة لبنان . ناشرون ٢٠٠٠م.

٢٢-الدورى (د٠ عبد العزيز):
-نشأة علم التاريخ عمد العرب . مركز زايد للتراث والتاريخ ٢٠٠٠م .

٢٣-ديورانت (ول):
-قصة الحضارة . ترجمة: د. زكى نجيب محمود . ومحمد بدران . مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٠م .

٢٤-الريس (د٠ ضياء الدين):
-الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية . ط٥ مكتبة دار التراث ١٩٨٥م.

٢٥-سالم (د٠ السيد عبد العزيز):
-تاريخ العرب قبل الإسلام. مؤسسة شباب الجامعة . الإسكندرية ١٩٩٧م .

٢٦-سالم (د٠ عبد الرحمن):
-الرسول ﷺ - حياته وتطور الدعوة الإسلامية فى عصره ط١ دار الفكر العربى . القاهرة ٢٠٠٣م .

٢٧-سلامة (د٠ إبراهيم):
-تيارات أدبية بين الشرق والغرب . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥١م .

٢٨-سلطان (د٠ عبد المنعم عبد الحميد):
-أضواء جديدة على تاريخ الدولة العباسية . دراسة وثائقية . مركز الإسكندرية للكتاب ٢٠٠٣م .

٢٩-سلوم (داود) و (نورى حمودى القيسى):
-شخصيات كتاب الأغانى . مطبعة المجمع العلمى العراقى . بغداد ١٩٨٢م .

٣٠-السيد (د٠ عبد اللطيف عبد الهادى):
-موسوعة التاريخ الإسلامى (العصر العباسى) المكتب الجامعى الحديث ٢٠٠٨م .
٣١-شامبينول (برنارد):
-تاريخ الموسيقى . ترجمه إلى العربية: ثروت كجوك . وراجعه محمد رشاد بدران . الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة ١٩٩٩م .
٣٢-الشايب (أحمد):
-تاريخ الشعر السياسى إلى منتصف القرن الثانى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥م .
-تاريخ النقائض فى الشعر العربى . مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٦م .
٣٣-الشريف (أحمد إبراهيم):
-دولة الرسول فى المدينة . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٧٢م .
٣٤-الشكعة (د٠ مصطفى):
-مناهج التأليف عند العلماء العرب . ط٣ دار العلم للملايين ١٩٧٩م .
٣٥-شلبى (د٠ أحمد):
-موسوعة التاريخ الإسلامى . ط١٥ مكتبة النهضة المصرية ١٩٩١م .
٣٦-ضيف (د٠ شوقى):
-التطور والتجديد فى الشعر الأموى . ط٧ دار المعارف . القاهرة ١٩٨١م.
-الشعر والغناء فى المدينة ومكة . ط٥ دار المعارف . القاهرة ١٩٩٢م .
-العصر الجاهلى . ط٨ دار المعارف . القاهرة ١٩٧٧م .
-العصر العباسى الأول . ط١٥ دار المعارف ١٩٩٩م
٣٧-عاشور (د٠ سعيد عبد الفتاح):
-المرأة والمؤسسات الاجتماعية فى الحضارة العربية . دار المعارف للطباعة والنشر . سوسة . تونس (د٠ت) .
٣٨- عبد الجليل (د٠ عبد العزيز):
-الموسيقا الأندلسية المغربية . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٨٨م .

٣٩-عبد الله (د٠ محمد حسن):
-صورة المرأة فى الشعر الأموى . مكتبة دار السلاسل . الكويت . ١٩٨٧م.
٤٠-العدوى (د٠ إبراهيم):
-نهر التاريخ الإسلامى . دار الفكر العربى (د٠ت) .
٤١-عطوان (د٠ حسين):
-الشعراء الصعاليك فى العصر الأموى . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٠م .
٤٢-عطوى (د٠ رفيق خليل):
-صورة المرأة فى شعر الغزل الأموى . دار العلم للملايين بيروت (د٠ت).
٤٣-على (د٠ جواد):
-المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . ط٢ ساعدت جامعة بغداد على نشره، ١٩٩٣م .
٤٤-عمارة (د٠ محمد):
-أبو حيان التوحيدى بين الزندقة والإبداع . مكتبة نهضة مصر، ١٩٩٧م.
٤٥-عياد (شكرى):
-الحضارة العربية . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٧م .
٤٦-غضبان (ياسين):
-مدينة يثرب قبل الإسلام . دار البشير . مؤسسة الرسالة . ١٩٩٣م .
٤٧-فلوتن (فان):
-السيادة العربية . ترجمة: د٠ حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكى إبراهيم. مطبعة السعادة . القاهرة . ١٩٣٤م .
٤٨-قاسم (د٠ قاسم عبده):
-تطور منهج البحث فى الدراسات التاريخية ط١ . عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. الهرم ٢٠٠٠م.
٤٩-كرون (Crone .P):
-دائرة المعارف الإسلامية . مركز الشارقة للإبداع الفكرى، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م .

٥٠-كندرمان (H. Kirdermann):
-دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوى، إبراهيم زكى خورشيد، عبد الحميد يونس . دار المعرفة، بيروت (د٠ت) .
٥١-لامنس (H. Lammens):
-دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوى، إبراهيم زكى خورشيد، عبد الحميد يونس . دار المعرفة، بيروت (د٠ت) .
٥٢-مؤنس (د٠ حسين):
-تاريخ قريش . دار الرشاد . القاهرة ٢٠٠٧م .
٥٣-مصطفى (د٠ شاكر):
-التاريخ العربى والمؤرخون . ط٣ . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٧م.
٥٤-مكى (د٠ الطاهر أحمد):
-دراسة فى مصادر الأدب ط١ دار المعارف. القاهرة ١٩٧٦م.
٥٥-ميتز (آدم):
-الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى - أو عصر النهضة الإسلامية . دار الكتاب العربى . مكتبة الخانجى ١٩٦٧م .
٥٦-النجار (د٠ عامر):
-مذاهب الإسلاميين . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م .
٥٧-النساج (د٠ سيد):
-رحلة التراث العربى . ط٣ دار المعارف القاهرة ١٩٨٧م.
٥٨-النص (د٠ إحسان):
-العصبية القبلية وأثرها فى الشعر الأموى . ط٢ دار الفكر . بيروت ١٩٧٣م .
٥٩-نصير (د٠ أمل):
-صورة المرأة فى الشعر الأموى . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ٢٠٠٠م .
٦٠-هلال (د٠ محمد غنيمى):
-الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية . ط٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر . الفجالة القاهرة (د٠ت) .

٦١-وافى (د٠ على عبد الواحد):
-الأسرة والمجتمع . دار نهضة مصر للطبع والنشر (د٠ت).
٦٢-وزيرى (د٠م / يحيى):
-العمارة الإسلامية والبيئة . سلسلة عالم المعرفة. الكويت ٢٠٠٠م .
٦٣-وهبة (د٠ مجدى):
-معجم مصطلحات الأدب . مكتبة لبنان ١٩٧٤م .

***

السيرة الذاتية

الاســـــــــم شيرين أحمد على العدوى «شيرين العدوى»
ـ عضو اتحاد كتاب مصر
ـ عضو المجلس العالمى للغة العربية بيروت
ـ عضو مجلس أمناء مؤسسة نجلاء محرم الثقافية
مقررة لجنة الشباب باتحاد الكتاب

محل الميلاد والتاريخ: المنصورة / 1968

المـؤهـل الـدراسـى: ليسانس دار علوم 1990 ـ ماجستير التاريخ الإسلامى بتقدير امتياز
ـ تعد أطروحة الدكتوراة فى الآداب قسم التاريخ الإسلامى.

الـــعـــمــــل : مدرس مساعد بكلية الإعلام جامعة أكتوبر للعلوم الحديثة والآداب «MAS»
كانت مقدمة ومعدة برامج بقناة البدر الفضائية حتى عام 2008.
قدمت مجموعة من المحاضرات فى الشعر والأدب.
شاركت فى إعداد وتقديم برنامج (شاعر وديوان وقصيدة) بالبرنامج العام فى الإذاعة المصرية.
كاتب مقالات باليوم السابع والمشهد.

الإصـــــــدارات : دهاليز الجراح عن دار سما للنشر 1998.
فوهة بإتجاهى عن الهيئة العامة لقصور الثقافة 2002.

تحـــت الـطـبــع : قمع الحرير
نشيدان

يا بنات الكرخ

الجـــوائـــز : جائزة أحمد شوقى فى الشعر 1998.
جائزة المجلى الأعلى للثقافة 1998.
جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999.
جائزة الشباب والرياضة 2002.
جائزة دار الأدباء 2004.

المؤتمرات والندوات: شاركت في العديد من المؤتمرات المحلية والعربية منها:
- الشهر الثقافى المصرى أبو ظبى 2003.
الأسبوع الثقافى المصرى المغربى 2006.
المؤتمر العربى (حافظ وشوقى) مصر 2007.
المؤتمر التاريخى (الفنون والتاريخ) بتنظيم من جامعة القاهرة

والمركز الفرنسي 2007.
مؤتمر الشعب العربى اتحاد الكتاب 2007.
مؤتمر عودة جديدة إلى اللغة العربية الكويت 2008.
مؤتمر الشعر العالمى بالقاهرة 2008.
مؤتمر القدس ريحانة الضمير العربى الكويت 2009.
مؤتمر طيبة الدولى 2009.
احتفالية بيت الشعر بيوم الشعر العالمى الشارقة 2010.
كما شاركت فى مؤتمر القاهرة الدولى للكتاب منذ عام 1998 وإلى الآن.

كتب عنها العديد من الدراسات بأقلام كل من:

د. محمد حسن عبد الله   د. كمال نشأت   د. سعيد الباز   د. عزة بد
د. مصطفى الضبع   د.مجدى توفيق   د.سعيدة خاطر   أ.سيد حجاب
أ. عبد المنعم عواد يوسف   أ. أحمد سويلم

أنشطة أخرى:

- ترجمة بعض أعمالها إلى اللغة الإنجليزية.

- نشرت العديد من القصائد فى معظم المجلات والدوريات المصرية والعربية منذ 1992 إلى الآن «مجلة الشعر، مجلة البيان الكويتية، جريدة عكاظ السعودية، مجلة دبى الثقافية، جريدة الأهرام، جريدة الأخبار، جريدة الجمهورية، مجلة إبداع».
- درست أعمالها فى كلية الآدب جامعة طنطا وكلية التربية جامعة المنصورة وكلية التربية جامعة عين شمس وكلية دار العلوم جامعة القاهرة.
- كما تدرس أعمالها الآن ضمن رسالة دكتوراه عن شعر المرأة المصرية فى القرن العشرين.

الفهرس

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨ - ٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

نال كتاب «الأغانى» للأصفهانى من الشهرة والذيوع مالم ينله كتاب عربى آخر.. فقد سارت به الركبان والتفت حوله موائد الدارسين والباحثين. فمادة الكتاب غزيرة ومتنوعة.

تمتد لتشمل عصورًا متعددة: من العصر الجاهلى حتى العصر العباسى. وهى بذلك تكشف لنا عن إمكانات كبيرة لهذا التاريخ: فأصوله مختلفة، ومتنوعة وغنية، بفضل انفتاحه على مختلف الأجناس والأقوام والألون والديانات والثقافات.

وإذا كانت الوجهة الأولى لصاحبه «الألحان والأشعار» فإن نهجه فى التأليف وولعه بالأخبار أيًّا كان مصدرها جعلته يقدم لنا صوت الهوية العربية فى ظل ذلك التنوع الثقافى الذى يسم صاحبه بالانفتاح على الآخر، وتقبل ما يتفق مع أصوله وتقاليده.

وهذا الكتاب يكشف عن جوانب من التاريخ الحضارى مما لا تتيحها تلك المصادر التى تسلك فى التاريخ العام وتعنى فى المقام الأول بسير الحكام. وطمح الكتاب إلى تقديم صورة للتاريخ الاجتماعى عبر عصورطويلة.

عاشتها شخصيات« الأغانى » وصنعت ما فيه من أخبار وحكايات.

تصميم الغلاف: الطيبة حسين



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ISBN# 9789774481055



جنيهًا